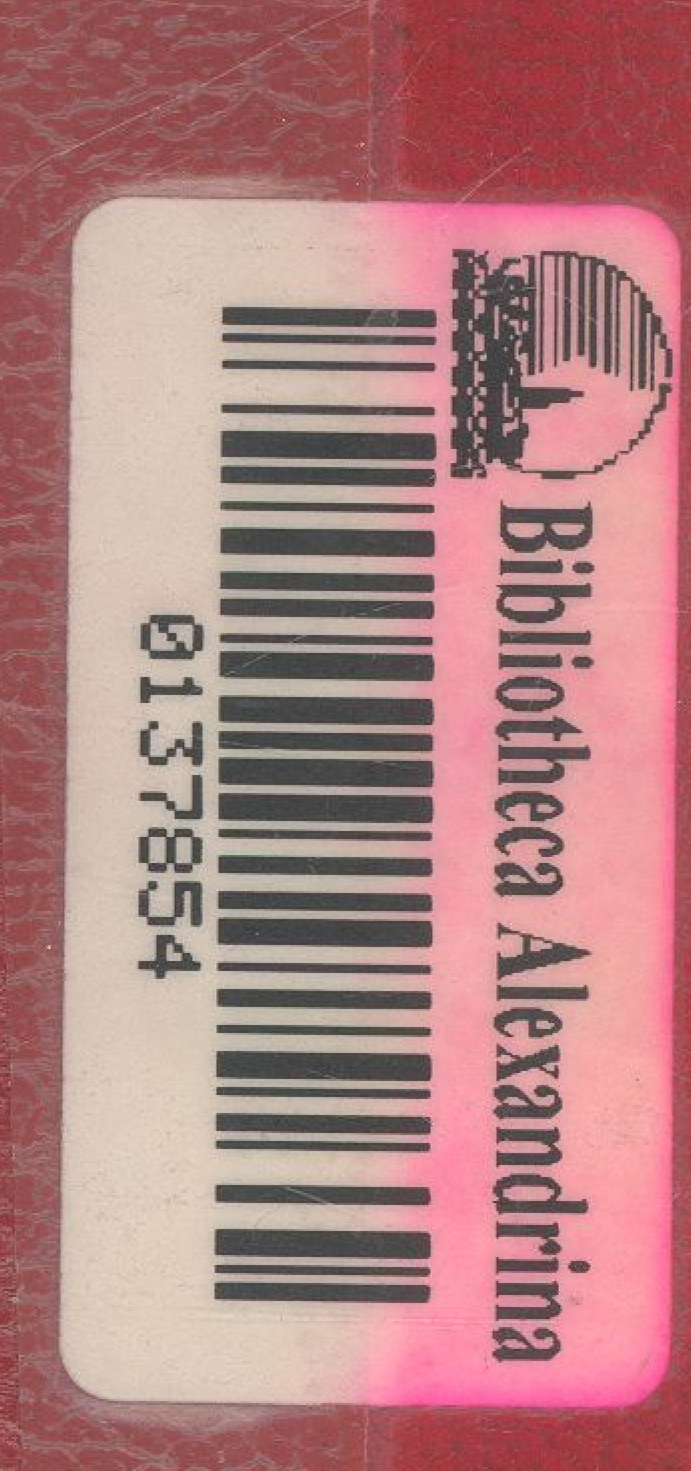
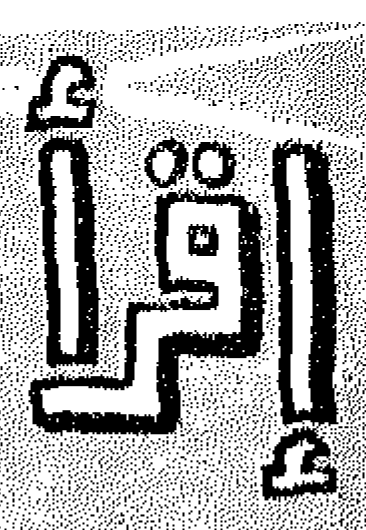




سجين ثورة ١٩١٩

الدكتور محمد مظهر سعيد

دار المعارف بمصر

عدد ممتاز



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان

دار المعارف بمصر



الدكتور محمد مظهر سعيد

سجين ثورة ١٩١٩!

اقرأ ٣١٦

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣١٦ – أبريل سنة ١٩٦٩

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

بسم الله الرحمن الرحيم

« الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ ، والذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيطَانِ ».

« فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى المؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِين . يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ »

« فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِين يَشْرُون الحياةَ الدُّنْيَا بالآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِى سَبيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » .

« إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ، واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

«وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِم يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ» .

«فالَّذِينَ هَاجَرُوا وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وقَاتَلوا وقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عنهم سَيِّئَاتِهِم وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ ، واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ» .

(قرآن كريم)

« قصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات يملؤها الهباء ، وكذلك ليس فيها مفاجآت تقفز إلى الوجود دون مقدمات . إن كفاح أى شعب جيلا بعد جيل بناء يرتفع حجراً بعد حجر. وكما أن كل حجر فى البناء يتخذ من الحجر الذى تحته قاعدة يرتكز عليها كذلك الأحداث فى قصص كفاح الشعوب . كل حدث منها هو نتيجة لحدث يسبقه ، وهو فى نفس الوقت مقدمة لحدث ما زال فى ضمير الغيب . فثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ مثلا ، هى تحقيق الأمل الذى راود شعب مصر منذ بدأ فى العصر الحديث يفكر فى أن يكون أمره بأيدى أبنائه ، وفى أن تكون له نفسه الكلمة العليا فى مصيره . وقام بمحاولات متعددة لم تحقق له الأمل الذى يتمناه ، فى فترة الغليان الفكرى التى عاشها بين الثورة العرابية وثورة ١٩١٩ . وكانت هذه الثورة الأخيرة بزعامة — سعد زغلول — محاولة أخرى لم تحقق الأمل الذى يتمناه » .

الرئيس جمال عبد الناصر – كتاب فلسفة الثورة

« إننا اليوم نبدأ مرحلة جديدة فى تاريخنا ، ويجب أن نأخذ من ماضينا عبرة . ففى سنة ١٩١٩ قامت ثورة فى مصر

جمعت جميع أبنائها من أجل الأهداف الكبرى ، من أجل الأهداف الاجتماعية والتخلص من الاستعمار . واستطاع الشعب أن يجبر الملك والاستعمار على أن يطأطئوا الرؤوس . وسارت مصر بعد أن اعتقدت أنها حققت ما تصبو إليه ، وأعلن دستور ١٩٢٣ . وكان دستور ١٩٢٣ ثمرة كفاح الشعب . واستشهد أبناء مصر . ولم يكن دستور ١٩٢٣ منحة منهم كما قالوا ، ولكن الشعب استطاع بجهاده وكفاحه أن يجبرهم على إعلان دستور ١٩٢٣ . ولكن هل طبق ؟ أبداً . لقد كان دستور ١٩٢٣ خدعة . كان الشعب يمثل أهدافاً واحدة قوية . كان الشعب يمثل آمالا واحدة . لأن الشعب الذى قام بالثورة كان يهدف إلى عدالة اجتماعية نظيفة . كان يعتقد أنه سيسير فى هذه الأهداف ، لقد انتكست ثورة ١٩١٩ ولم يكن الشعب هو السبب ، ولكن هؤلاء الذين كانوا يطمعون فى الاستغلال والتحكم فى الشعب » .

الرئيس جمال – خطبة الشرقية ٥٦/١/٢٢

« تحية إلى الأجيال الماضية المجاهدة ، لقد استشهد أناس من هذا الشعب بل مات نساء من أبناء هذا الشعب . استشهدوا

وحملوا العلم وخرجوا ينادون بالحرية : وينادون بحق الشعب فى الحياة . واليوم ونحن نجنى هذه الثمرات ونتمتع بالحرية ، ونحن نبدأ فجر حياة جديدة ، وتهب علينا نسمات الحرية ، نشعر بجهود من سبقونا ، بجهود من استشهدوا فى سبيل هذه الحرية . اليوم ونحن نبدأ فترة جديدة من تاريخ هذا الوطن نتجه إلى الماضى ونحيى الأجيال الماضية التى لم تضعف ولم تتخاذل ، ولكنها قاومت وقاتلت واستبسلت حتى استطعنا فى هذا الجيل أن نحقق هذا النصر » .

الرئيس جمال – خطاب يوم النصر ٥٦/٦/١٩

« إن وادى النيل لم تنقطع فيه أصوات النداءات الثورية فى مواجهة الإرهاب المتحكم الذى تسنده قوى الاحتلال البريطانى الأجنبي والمصالح الدولية الاستعمارية . إن قوة الاحتلال البريطانى العسكرية ومؤامرات المصالح الاحتكارية الاستعمارية والإقطاع الذى أقامته أسرة محمد على . ذلك كله لم يستطع أن يطفئ شعلة الثورة على الأرض المصرية . لقد سكت " أحمد عرابى " ولكن صوت " مصطفى كامل " بدأ يجلجل فى آفاق مصر . ومن عجب أن هذه الفترة التى ظن فيها

الاستعمار والمتعاونون معه أنها فترة الجمود كانت من أخصب الفترات في تاريخ مصر بحثاً عن أعماق النفس وتجميعاً لطاقات الانطلاق من جديد. وكانت تلك مقدمة موجة ثورية جديدة ما لبثت أن تفجرت سنة ١٩١٩، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وبعد خيبة الأمل في الوعود البراقة التي قطعها الحلفاء على أنفسهم خلال الحرب، ووقف "سعد زغلول" في قمة الموجة الثورية الجديدة يقود النضال الشعبي العنيد الذي وجهت إليه الضربات المتلاحقة من مائة عام متواصلة دون أن يستسلم أو ينهزم. إن ثورة الشعب المصري سنة ١٩١٩ تستحق الدراسة، فإن الأسباب التي أدت إلى فشلها هي نفس الأسباب التي حركت الثورة سنة ١٩٥٢».

ميثاق العمل الوطني — الباب الثالث

رسالة كريمة

من المؤرخ العربى الكبير المرحوم الأستاذ عبد الرحمن الرافعى

الأستاذ الدكتور محمد مظهر سعيد

وبعد . . . .

تسلمت خطابك الكريم ومعه الخلاصة القيمة الممتعة للكتاب الذى تنوى أن تسجل فيه ثورة أسوان سنة ١٩١٩ ، والدور الوطنى العظيم الذى قمت به مع زملائك الوطنيين الأحرار . وإنى لأعجز عن أن أفيك حقك من الشكر لأنك ذكرتنى بالخير وأتحفتنى بهذه الوثيقة التاريخية الهامة ، وكنت كما تعلم قد سجلت أحداث هذه الثورة فى كتابى — ثورة ١٩١٩ — مستنداً إلى ما ذكرته الصحف وما وصل إلى من وثائق ومستندات وما سمعته بنفسى ممن اشتركوا فيها ، ولكنى كنت أشعر دائماً بأن هناك حلقة مفقودة فى السلسلة وفصلا ناقصاً فى تاريخ هذه الثورة ، فليس من المعقول أن لا يشترك إقليم أسوان فى هذه الثورة التى عمت القطر ، وقد وقفت فى سرد الحوادث عند أسيوط ، وعذرى أن الصحف لم تشر إليها ولم يذكر أحد من أهلها شيئاً عنها . وقد سدت رسالتك الكريمة

هذا الفراغ وأكملت النقص وأصبحت السلسلة كاملة الحلقات .
وإيتك كنت أرسلتها قبل طبع كتابى . وإنى لأرجو أن يمد الله
فى الأجل حتى أضمها وأنوه بها فى طبعة جديدة للكتاب ،
فإن جهادكم فى سبيل الله والوطن عمل قد ينبغى أن يخلده
التاريخ الحديث ، وواجبك الوطنى يحتم عليك أن تسارع
بإتمام كتابك الذى وعدت به . والمكتبة التاريخية فى أمس
الحاجة إليه .

ولك وازملائك الأبطال الأحياء خالص الشكر وعظيم
التقدير ، وللزميل الذى استشهد واسع الرحمة وفسيح الجنان ،
ولكم جميعاً من الله المثوبة وخير الجزاء

القاهرة فى ١٩٦٣/٢/٩

المخلص

عبد الرحمن الرافعى

رسالة كريمة
من الأستاذ الدكتور محمد أنيس

أستاذى الفاضل الدكتور محمد مظهر سعيد

تحيه طيبة وبعد

فقد قرأت مذكرتك المستفيضة وفى اهتمام بالغ عن الدور الذى قمتم به فى أحداث ثورة ١٩١٩ بمدينة أسوان، ووجدتها فى غاية الأهمية من الناحية التاريخية . وإنى أستميح سيادتكم فى الإشارة إليها فى كتابى الذى أقوم بطبعه الآن تحت عنوان: دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩، وهو دراسة مبنية على وثائق ومراسلات عبد الرحمن الرافعى .

وإنى إذ أشكر لسيادتكم هذا الجهد العظيم فى سبيل إحياء وبعث أمجاد الحركة الوطنية فى مصر أرجو أن تتقبلوا خالص شكرى وتقديرى لشخصكم ولماضيكم السياسى العظيم .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

المخلص

محمد أنيس

أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة

القاهرة فى ١٤/٢/١٩٦٣

مقدمة

شهدت مصر فى هذا العصر سلسلة مترابطة الحلقات من ثورات ثلاث ، اختلفت فى عناصرها وظروفها ، وتباينت فى أساليبها ووسائلها ، ولكنها تتفق فى هدف واحد ، وهو القضاء على النفوذ الأجنبى المفسد المستغل والحكم الداخلى الفاسد المستبد . وكيفما كانت النتائج فإن هذه الثورات لعبت دورها وغيرت مجرى تاريخ مصر المعاصر لأكثر من سبعين عاماً .

الأولى ثورة ١٨٨٢ — قام بها الجيش بقيادة أحمد عرابى.

والثانية ثورة ١٩١٩ — قام بها الشعب بزعامة سعد زغلول .

والثالثة ثورة ١٩٥٢— قام بها الشعب والجيش معاً برئاسة جمال عبد الناصر أمد الله فى عمره وزاده توفيقاً ونصراً على نصر .

وقد فشلت ثورة ١٨٨٢ بسبب الخيانة والغدر ، وانتهت بالاحتلال البريطانى الذى ثبت أقدام النفوذ الأجنبى والحكم الفاسد ومكن للإقطاع المستبد ورأس المال المستغل .

وفشلت ثورة١٩١٩ بسبب التنافس على السلطة والتطاحن السياسى الحزبى وتفرق الصفوف ، وانتهت بتصريح ٢٨ فبراير الذى حول الحكم إلى ديمقراطية مزيفة وبرلمانية هازلة .

ونجحت ثورة ١٩٥٢ لأن القائمين بها كانوا رجالا من صميم الشعب وضباط الجيش آمنوا بربهم ووطنهم وزادهم الله هدى وتوفيقاً. وبجهاد الشعب والجيش حولوا الملكية الفاسدة إلى جمهورية ، وأقاموا بناء المجتمع الجديد على أساس الكفاية والعدل ، وحققوا الحرية السياسية والاجتماعية والديمقراطية السليمة والاشتراكية العادلة .

وقد مضت وانقضت خمسون عاماً كاملة على ثورة١٩١٩ . ونصف قرن من الزمان ليس بالوقت القصير . والذين قاموا بها ، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، ومعظمهم يعزف عن تذكرها وذكرها . فقد دبرها الوطنيون الأذكياء وقام بها المجاهدون الأبرياء واستغلها تجار السياسة والوسطاء الأدعياء . أما الذين اكتووا بنيرانها ، فسجنوا وعذبوا وقتلوا واستشهدوا فراحوا طى النسيان وكان نصيبهم الجحود والنكران .

وأرخ المؤرخون وكتب الكتاب عن ثورة ١٩١٩ . ولكن ما زالت هناك ثغرات يجب أن تسد،وصفحات مطوية من

تاريخها يجب أن تنشر . فإن أحداً لم يذكر ثورة إقليم أسوان ، رغم ما كان لأهله من دور كبير خطير مشرف فيها، بل إن أبناء أسوان البارزين—وعلى رأسهم المرحومان اللواء صالح حرب والأستاذ عباس محمود العقاد—لم يسجلوا شيئاً عنها لأنهم كانوا بعيدين عن مسرح الحوادث فى ذلك الوقت . ونحن الذين قمنا بها واكتوينا بنارها منعتنا الظروف القاهرة من التحدث أو الكتابة عنها ، فقد اشتبكنا بعدها فى قضايا سياسية أخرى ، وكان مجرد ذكر اشتراكنا فى ثورة ١٩١٩ يسىء إلى مركزنا وعملنا وأمتنا إساءة بالغة وربما زج بنا فى السجن مرة أخرى ، ثم سافرت إلى إنجلترا لدراسات التخصص العليا عدة سنوات ، وعدت بعدها سنة ١٩٢٩ فى عهد حكومات رجعية لا تطيق مجرد الإشارة للثورة فضلا عن الإشادة بها لما فى ذكرها من نبش لماضى الجهاد الذى دفنوه وإثارة للشعور القومى من جديد ضد الاحتلال والحكم المخلى الفاسد. ومرت سنوات طويلة وأصبحت الثورة نسياً منسياً وتضاءلت أمام الثورات المتعاقبة حتى سنة ١٩٣٥ . وجاءت ثورة ١٩٥٢ البيضاء المباركة ، وأشار بطلها ورائدها الرئيس جمال عبد الناصر فى مختلف المناسبات بجهود السابقين وتضحياتهم فى ثورتى ١٨٨١ و ١٩١٩ .

وعلى الرغم من أن ثورة أسوان لم تقترن بالعنف والفوضى والتخريب والتقتيل ولم يصبها من ويلات السلطة العسكرية البريطانية إلا النزر اليسير بالقياس إلى ما أصاب الجهات الأخرى ، كالقاهرة والعزيزية والواسطى وديرمواس — فإنها أدت للبلاد خدمات جليلة كان يجب أن تسجل لها بالفخر ، ويكفى أن نذكر إحباط الخطة التى دبرها المهندسون الإنجليز لنسف خزان أسوان ، ولو قدر لها الشيطان أن تنجح لكانت كارثة كبرى .

وقد رأيت من واجبى بعد هذا الزمن الطويل أن أنشر الآن ثورة أسوان تلبية لما نوه به الرئيس جمال فى خطبه وما أشاد به الميثاق واستجابة لطلب المؤرخين العظيمين ، ليكون فى هذا تذكرة للأجيال الماضية ، وتبصرة للأجيال الصاعدة بجهاد الآباء والأجداد الراحلين والحاضرين ، أجل لقد مضى على هذه الثورة نصف قرن ولكنها لا تزال حية فى خاطرى ، وكل دقيقة منها تعيها ذاكرتى . وقد سجلت فى هذا الكتاب ما لقيناه من مواقف مضحكة ومآس مبكية ، وأحداث سياسية ووثائق تاريخية لم ترد فى كتب الآخرين ، وأحاديث طويلة مع كبار المسئولين الإنجليز والمصريين تكشف عن استبداد الاحتلال

الأجنبي وفساد الحكم المحلى ، وتفضح عقلية المستعمرين المتغطرسين ونفسية بعض الموظفين المصريين الخانعين النفعيين ، إلى جانب ما ذقناه من عذاب وشقاء ونكران للجهد والتضحية ، فى الوقت الذى حصل فيه النهازون ، الذين جعلوا من حبة جهادهم قبة لتضحية مزعومة ، على المناصب الرفيعة والمكانة المرموقة والمغانم المادية ، ولكن رغم هذا كله لا أشعر بشىء من الندم أو ظل من الألم ، فكل تضحية بالغة ما بلغت تهون فى سبيل الوطن ، بل إنى رغم تقدم السن ما زلت على سابق عهدى واستعدادى للبذل والتضحية مرة ومرات بحكمة الشيوخ وعزمة الشباب إذا دعا داعى الوطن ، ملبياً نداء الرئيس الملهم بطل الثورة البيضاء ورائد البعث الجديد : جمال عبد الناصر .

والله ولى التوفيق .

محمد مظهر سعيد

بذرة الثورة

ولدت أنا « محمد مظهر سعيد » في ٢٠ أغسطس ١٨٩٧ ونشأت. في أسرة غرست في نفسي منذ النشأة الأولى بذرة حب الدين والوطن وروح الثورة والجهاد ضد أعداء البلاد وكراهية النفوذ الأجنبي المفسد المستغل والحكم الداخلي الفاسد المستبد. فقد كان أبي مهندساً فرنسي الثقافة ، بعد أن تخرج في مصر أتم تدريبه الميكانيكي بفرنسا والبحرى بتركيا ، وعاد إلى نظارة الأشغال العمومية فلقي من رؤسائه الإنجليز عنتاً كبيراً كأنهم حسبوه فرنسياً. وواتته فرصة التخلص منهم عندما ندب مهندساً بشركة السكر في فابريقة الشيخ فضل مركز بني مزار. ولكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فهناك واجهته صورة بشعة من صور التحيز الجنسي والتفرقة العنصرية ، فالعمال الأجانب ، فضلا عن المهندسين والمديرين كانوا يسكنون فيلات جميلة ذات حدائق ومرافق أرقى من مساكن المهندسين المصريين ، ولهم ناديهم وملاعبهم « وكانتيناتهم » ، ومرتباتهم أعلى وهم مجرد عمال. أما المهندسون والمديرون الأجانب فكانوا

أنصاف آلهة ، لا يختلطون بزملائهم المصريين فى غير أوقات العمل .

ولست أنا بنفسى، على صغر سنى ، هذه التفرقة عند اللحاق بمدرسة الشركة ، ولم تكن هناك مدرسة غيرها ، فالدراسة فرنسية، والكتب تشيد بمجد فرنسا الأم، والدروس تنتهى بهتاف « تحيا فرنسا » ، والأولاد الأجانب لهم فصول وملاعب وامتيازات خاصة ، ونحن نتعلم بمصروفات وهم بالمجان ، فبدأت وأنا فى الخامسة من عمرى أشعر بما يشعر به أبى من كراهية للأجانب.

وكان أبى بحكم هذه الظروف يقضى معظم وقت فراغه بالمنزل ، فيسرد لنا تاريخ الحروب الصليبية ، وتآمر الغرب على الدولة الإسلامية ، وحملة نابليون ، ومؤامرة تحطيم الأسطول المصرى فى « نفارين » ، وفساد حكم الأسرة الخديوية ، وعهد إسماعيل وديونه ، والوزراء الأجانب ، والثورة العرابية ، واحتلال بريطانيا لمصر بالغزو والخيانة والرشوة . ويشيد بذكر المصريين الوطنيين الذين جاهدوا بالسلاح لتحرير مصر — من أحمس الأول وعمرو بن العاص وصلاح الدين الأيوبى وبيبرس ، والذين كافحوا بألسنتهم وأقلامهم — من جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده وعبد الله النديم .

وكنت أزور أم والدتى بأسيوط ، وهى تحكى لى عن أجدادى من قادة الجيوش وأمراء البحار الذين حاربوا واستشهدوا دفاعاً عن الملة والدولة ، وآخرهم لطيف باشا الكبير الذى كان حاكماً عامًّا للسودان قبل الثورة المهدية ووزيراً فى عهد إسماعيل ، ومع ذلك كان من مؤيدى الضباط المصريين ضد حكومة « نوبار » و «الوزراء الأجانب» و «الخديوى» نفسه .

وكنت أزور أم والدى العربية فى بنى سويف فتحكى لى عن أبطال الإسلام ، وعدل عمر ، وصلاح عمر بن عبد العزيز ، وبطولة خالد بن الوليد ، وأبى عبيدة بن الجراح ، وتذكرنا بتاريخ جدها الأكبر — عبد الرحمن كتخدا — نائب والى مصر وشيخ البلد الذى كرس حياته لتعميره وإصلاح حال الشعب فاستوجب غضب الأمراء المماليك مما اضطره فى أواخر أيامه إلى الهجرة للحجاز ، وتختم الحديث بالفاتحة على روح جدى زوجها « صالح بك سليمان » أركان حرب الجيش المصري الذى استشهد فى السودان فى موقعة « شندى » .

وكانت أمى بحكم ثقافتها الإيطالية تحكى لى عن «ماتسينى» و « جاريبالدى» محرر إيطاليا وموحد ولاياتها . وحكى لى والدى

٢٣

مأساة « دنشواى » وأرانى مجلة مصرية بها صورة رجل مصرى كتب تحتها :

أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا

وسألته عن معنى « جلاد » فشرحها لى وهو يلعن الخونة النفعيين .

سنة ١٩٠٦

بدأت تجاربى السياسية القاسية سنة ١٩٠٦ عقب مذبحة دنشواى ، وأنا فى الثامنة من عمرى بالسنة الأولى بمدرسة عباس الابتدائية بالقاهرة ، بعد أن نقلوا والدى إلى نظارة الأشغال ، فقد زار المدرسة مفتش إنجليزى . ورأيت وجهه الأحمر وطربوشه القذر فثارت ثائرتى وقلت لزملائى « هذا جلاد دنشواى » ؛ وسرعان ماقمنا بمظاهرة ، لعلها أول مظاهرة قام بها التلاميذ فى مصر — وأخذنا نهتف « فليسقط جلاد دنشواى » فلتسقط « إنجلترا » — وهرول الناظر « أحمد بك كامل اليمانى » إلى الشرفة وخلفه المفتش يتميز غيظاً ، ونظر إلينا ونحن نطوف بحوش المدرسة الصغير وأنا فى المقدمة ، فأشار نحوى وقال للناظر : « هات الولد ده » . وسرعان ما أمسك بى الفراش العملاق وألقى بى أمامهما وقال المفتش فى حدة وانفعال : « حضرة ناظر . دى ولد مش كويس . لازم طرده من المدرسة » فأجاب الناظر فى تردد : لكن يا جناب المفتش دا طفل صغير لا يعرف ما يفعل . فأجاب جنابه : «بكره لما يكبر يبقى مجرم



مذبحة دنشواى

ضد إنجلترا زى مصطفى كامل ، افصله نهائياً » فأجاب الناظر : ليس الفصل النهائى من حقى . فقال المفتش : « افصله أسبوعاً وبعدين بيجى أمر جناب المستشار » . وقبل نهاية الأسبوع جاء الأمر بالفصل النهائى لتلميذ صغير فى الثامنة من عمره يهدد الإمبراطورية البريطانية عندما يكبر مثل « مصطفى كامل » .

وكان من الممكن أن ألتحق بنفس المدرسة فى العام التالى لأنها المدرسة الأميرية الوحيدة بالحى ولكن تضيع منى السنة ، وأنا مجتهد لا أريد أن أفقد سنة من عمرى . فلم يكن هناك بد من الرحيل إلى جدتى فى بنى سويف وأتقدم لامتحان القبول للسنة الثانية باسم جديد بدل اسم شهادة الميلاد — وهو « محمد حسن سعيد » . فصار اسمى — « محمد مظهر سعيد » تيمناً باسم عم والدى — المهندس « محمد باشا مظهر » . ونجحت فى الامتحان ودخلت السنة الثانية . وكان ناظر المدرسة « أحمد بك حسن » صديقاً لوالدى وعمى فلم يثر أى إشكال .

وحلت العقدة الأولى ولكنى لم أهدأ . فأخذت أحفظ خطب « مصطفى كامل » وأناشيد الشيخ « صادق عمران » الوطنية وأترنم بها وأرددها مع التلاميذ . وفى سنة ١٩٠٨ توفى مثلى

الأعلى « مصطفى كامل » إلى رحمة الله . وأقام المحامون حفل تأبين . واختارني المحاميان الشقيقان « سيد زكي » و « محمود كامل » وكانا صديقين حميمين لعمي ، لإلقاء كلمة أعدها مدرس اللغة العربية ، فيها نثر وشعر وألبسوني شريطاً من الحرير الأسود على قميص أبيض ، وصعدت إلى المنصة واتجهت إلى صورة « مصطفى كامل » وقلت : السلام عليك يا بطل الأمة ، يا زعيم الأمة ، يا من قلت : بلادي بلادي لك حبي وفؤادي ، أنت أنت الحياة ولا حياة بدونك يا مصر . وأردت أن أتلو من ذاكرتي عبارته المشهورة : لو انتقل قلبي من الشمال إلى اليمين أو تزحزح الأهرام من مكانه المكين لما حدت عن مبدئي ، فقلت : لو انتقل قلبي ، لو انتقل قلبي ، ونسيت الباقي ، وأرتج عليّ ، فأسعفتني أذني الموسيقية فقلت مرتجلا — لو انتقل قلبي إلى اليمين من الشمال أو تزحزح الأهرام من تلك الرمال لما حدت عن مبدئي . وارتجت القاعة بالتصفيق الحاد المتواصل ، ففزعت من هذا الموقف ونزلت من المنصة مسرعاً والدموع في عيني وأنا أحيي صورة مصطفى كامل ، وأسرع الأستاذ « سيد زكي » فتلقاني واحتضنني وقبلني ، وقال : هذه أبلغ خطبة يا « مظهر » . ستكون مصطفى كامل الثاني .

وفى هذه المرة وشى بى ضابط البوليس المصرى ، ففصلت من المدرسة أسبوعين بأمر الوزارة لاشتغالى بالسياسة ، وكانت كلمة السياسة بعبعاً يقض مضاجع الحكومة ، ولو كان السياسى طفلا مثلى فى العاشرة من عمره ، ورغم ذلك نجحت بتفوق وانتقلت للسنة الثالثة .

وحصلت على الشهادة الابتدائية سنة ١٩١٠ ، وكنت أتمنى أن أكون ضابطاً بالجيش أدافع عن الملة والدولة كما كانت جدتى التركية تقول ، وكانت المدرسة الحربية تقبل حاملى الابتدائية وساقطيها ولكن من المستحيل أن تقبلنى لصغر سنى . وعدت إلى القاهرة فقابلنى أبى بالتهنئة والترحيب ، وقال لى فى رقة وحنان : اسمع يا بنى ، أنا معجب بوطنيتك التى ظهرت بوادرها مبكرة ، وإن كانت عرضتك لتجارب خطيرة ، ولكن الله سلم فى المرتين ، وأنت بعد طفل غرير وما زلت فى طور التحصيل والطريق أمامك طويل ، والوطنية الحقة لا تكون بالقول وإنما بالعمل ، ولا عمل بغير علم . فإن كنت وطنياً حقاً فعليك أن تتفرغ لتحصيل العلم لا يصرفك عنه شىء ، وعندما تحصل على المؤهل العالى افعل ما شئت وكن زعيماً كمصطفى كامل .

والتحقت بالمدرسة الخديوية الثانوية ، واتصلت اتصالا مباشراً بالإنجليز لأول مرة ، وكنا وقتئذ ندرس جميع المواد باللغة الإنجليزية ما عدا العربى والرياضيات ، حتى الترجمة كان يدرسها المستر « جورج روب » ، وهناك وجدت الشيء الكثير مما صدمنى وأثار حفيظتى من جديد . فقد كانت الكتب المقررة تشيد بعظمة بريطانيا والخلق الإنجليزى السامى ، وتصور مصر وتاريخها وشعبها فى صورة بشعة تجعلها مثالا للجهل والفقر والمرض والكسل والتواكل والتخلف الذى لا دواء له . أما المدرسون البريطانيون فكانوا خليطاً عجيباً كشف النقاب عن زيف أسطورة بريطانيا العظمى والرجل الإنجليزى السوبرمان . فكان منهم قلة جديرة حقاً بالاحترام — الناظر المستر « فيرنس » الإرلندى كان يعامل الطلبة كأنهم أولاده و يرعى أعضاء الفرق الرياضية عامة وفرقة القسم المخصوص فى الجمباز خاصة ، وكنت أنا أحد أبطالها . والمستر « هيث » الأسكتلندى الوقور كان يشجعنى ويهدينى كتب الأدب الإنجليزى لتفوقى فى اللغة واتخذنى سكرتيراً له ، والمستر « براكنبرى » العالم اللغوى كانت له كتب مقررة فى متن اللغة . أما البقية فكانوا جهلاء أدعياء لا يحملون أى مؤهل علمى

أو تربوى، فالمستر « فوستر سميث » كان بائع إسفنج ، ولكنه خطاط (كاليجرافى) وله أمشق خط مقررة . والمستر « لوكاس » كان جاويشاً بالجيش البريطانى ومؤهله الرسمى أنه لاعب كرة ونطاط ورقاص ، ومع ذلك يدرس لنا الجغرافيا . ومدرس التاريخ المستر « فاوار » لا نعرف أصله ولكنه أجهل الناس بالتاريخ ، فكان يقرأ لنا كتاب — « دينوف » المقرر كأنه كتاب مطالعة ويتركنا نحفظه عن ظهر قلب . وتلك كانت خطة الاستعمار التى ينفذها المستشار المستر « دنلوب » فهو نفسه يقال إنه كان إسكافياً ، وكان هؤلاء الذى يحملون إلى جانب نقيصة الجهل ورذيلة الغطرسة يشتدون فى طلب العقاب لأقل هفوة لولا أن الناظر الإرلندى كان يكبح جماحهم .

ويبدو أن سياسة الغطرسة كان يوحى بها المستشار ، فقد كان لكل موظف إنجليزى بالوزارة قالب من الصفيح الأصفر به طربوش قذر كالح اللون من طول الاستعمال ، يحمله وراءه ساع أو فراش يفتحه له على الباب فيلبسه أثناء العمل فقط . وكان للمستشار بضعة قوالب يرسلها إلى عدد من الإدارات والمدارس إيذاناً بقرب زيارته ، فيسير العمل بها على أتم نظام ما دام الطربوش هناك ، وأذكر أن المستشار فاجأنا

مرة بالفصل والباشا سكرتير عام الوزارة يسير وراءه فى خضوع ، وفجأة يناديه المستشار باسمه المجرد دون لقب فيهرع الباشا إليه وينحنى قليلا ويقول : نعم يا سيدى « يس سير » ، ويصدر إليه المستشار بعض التعليمات دون أن يلتفت إليه فيجيب : « حاضر يا سيدى » ، وفى نفس الوقت كان هذا الباشا مثال الغطرسة مع الموظفين المصريين وكأنه — صوت سيده المستشار.

ولا أدل على مبلغ سلطة المستشار التى كان يستمدها رأساً من المعتمد البريطانى ، حتى على الوزير ، من أن مدرساً رفع للمستشار مظلمته فى قصيدة شعرية جاء فيها :

أشكو إليك — جريمة — الدنلوب

همى وغمى واشتداد كروبى

وأخبرنى زميل أنه عند عودته من إنجلترا أعطى الحمال الإنجليزى بقشيشاً سخيًّا وناوله بطاقة باسمه وعنوانه بمصر ، وعندما سأله الحمال ماذا يفعل بالبطاقة أجابه فى بساطة : أرجو أن تحتفظ بها فإذا جئت لمصر ناظراً أو مفتشاً فاذكرنى بالخير .

وليس عجيباً أن يحتضن المستشار الجهلاء المتغطرسين ولكن العجب أن ترقيهم حكومتنا إلى وظائف كبيرة ليسوا أهلا لها ولا لهم دراية بها . فقد عين « فاولر » مديراً عامًّا لقسم الحشرات

بوزارة الزراعة ، وعين « لوكاس » مفتشاً عامًّا لسجون الوجه القبلى ، وعين « كارتر » الذى كان رسام خرائط (كارتوجرافى) مديراً عامًّا لمصلحة المساحة ، أما « هيث » و « براكنبرى » والفنان الأصيل « حسين زكى » أستاذ الرسم بالمعلمين العليا وغيرهم فقد تقاعدوا وهم مدرسون كما كانوا . ولعل قول المتنبى :

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

يصدق كل الصدق على مصر تحت حكم الاحتلال .

وامتلأت نفسى حقداً على الإنجليز الجهلاء المتغطرسين واحتقاراً للموظفين المصريين الأذلاء الخانعين ، وكلما همت نفسى بالنقد والاحتجاج تذكرت نصيحة الوالد فأكظم غيظى فى صدرى مرغماً مقهوراً .

واجتزت مرحلة الثانوى بنجاح مطرد وتفوق ، وحصلت على البكالوريا علمى سنة ١٩١٤ وأنا فى السادسة عشرة . ورغم فترة الهدوء تجمعت كل التجارب الماضية فأصبحت صخرة تجثم على صدرى ولا سبيل للتخلص منها إلا بالتفجير ، وقد حدث هذا الانفجار فعلا سنة ١٩١٤ ودفعتنى الأقدار رغم أنى وأنا لا أجيد السباحة فى خضم السياسة البعيد الغور المضطرب الأمواج .

سنة ١٩١٤

يرى بعض المؤرخين أن ثورة ١٩١٩ كانت نتيجة حتمية لأحداث سنة ١٩١٤ . ومهما يكن من أمر هذا الرأى فإن سنة ١٩١٤ كانت بالنسبة لى شخصياً سبباً مباشراً للدور الذى شاءت الأقدار أن أقوم به فى ثورة أسوان سنة ١٩١٩ . فقد قدمت أوراقى لمدرسة الطب وانتظرت النتيجة . وفى فترة الانتظار أعلنت الحرب العالمية الأولى ، وفى ٤ أغسطس أعلنت إنجلترا الحرب على ألمانيا وانضمت لحليفتها فرنسا ، وفى اليوم التالى صدر قرار لمجلس وزراء مصر يخول القوات البريطانية البرية والبحرية حقوق الحرب فى الأراضى والمياه المصرية ، وقد أثار هذا القرار سخط طلبة المدارس العليا والمثقفين والصحافة عامة والحزب الوطنى خاصة .

وفى أواخر سبتمبر دعينا نحن الطلبة الجدد لمقابلة ناظر مدرسة الطب « الدكتور كيتنج » وكان رجلا استعمارياً قحاً غريب الأطوار وحاكماً بأمره يدير المدرسة كما يحلو له ، غير خاضع لسلطة الوزارة وقوانينها ولوائحها ، ولا للمعتمد

البريطانى نفسه ، وكان من شذوذه أن يقف الطالب أمامه وقفة انتباه عسكرية . فيلقى سؤاله بالإنجليزية ويترجمه إلى العربية سكرتيره الحاصل على الابتدائية بلغته الركيكة ، ثم يترجم رد الطالب إلى الإنجليزية ، وهكذا تستمر المهزلة والويل للطالب الذى يجيب بالإنجليزية رأساً . وكنت صغير السن والجسم إلى درجة ملحوظة بالقياس إلى بقية الطلبة ، ولما جاء دورى نظر « كيتنج » إلى السكرتير بغضب وقال :

ماذا يفعل هذا الطفل فى مدرستى ؟ وكيف دخل ؟ إنها ليست روضة أطفال . فأجبته بالإنجليزية منفعلا ومحتجاً : أنا لست طفلا ، وهذه مدرسة مصرية وليست مدرستك . وحدثت مشادة حامية أنهاها هذا العملاق الأحمق بركلة قوية من رجله الضخمة طرحتنى أرضاً ، فجريت هرباً منه فطاردنى حتى باب المدرسة ، ثم فصلنى وأعاد الأوراق بالبريد لوالدى ، وذهب والدى إلى كبير المهندسين الإنجليز يرجوه التدخل فى الأمر معتقداً أنه سينصفنى ، فأحاله إلى مستشار الرى « السير جارستن » فأعطاه خطاب توصية ، ما كاد الدكتور « كيتنج » يلقى عليه نظرة عابرة حتى مزقه ، وألقى به فى

سلة المهملات وطرد والدى شر طردة ، وكان تعقيب المستشار بعدئذ أن الدكتور « كيتنج » حر فى مدرسته ولا يستطيع أحد أن يراجعه فى شىء . وعلى كل فهو دائماً على حق لأنه إنجليزى والإنجليز لا يخطئون ولا يظلمون ، وزادنى هذا الحادث كراهية للاحتلال والاستعمار ، وأصبحت أعتقد أن الإنجليز لا يخطئون ولا يظلمون فحسب وإنما هم يظلمون ويبررون الظلم بأنهم معصومون .

ولم يكن بد من اللحاق بمدرسة المعلمين العليا لأن المدارس الأخرى كانت قد استوفت حاجتها من الطلاب ، وانتظمت فى نفس الفصل مع طلاب نوابغ أتموا مراحل التعليم فى هدوء وسلام لأنهم لم يشتغلوا بالسياسة ، منهم المرحومان الدكتور « مصطفى مشرفة » و « إسماعيل القبانى » ، و« السيد محمد يوسف » وزير التربية الأسبق .

وكانت مصر وقتئذ تغلى كالمرجل والشباب المثقف يتحفز للثورة ، وخاصة طلاب الحقوق والأزهر ودار العلوم ، فكنا نحضر الاجتماعات السياسية فى دار الحزب الوطنى ومدرسة مصطفى كامل ونادى المدارس العليا والأزهر ، وبادرت الحكومة يوم ٨ أكتوبر بإصدار قانون بمنع التجمهر ، وفى

٢ نوفبر أصدر قائد قوات الاحتلال الجنرال « مكسويل » إعلاناً بالأحكام العرفية وفرض الرقابة على الصحف . وفى ٥ نوفبر دخلت تركيا الحرب مع المحور ضد الحلفاء . وفى يوم ١٨ منه أصدر الجنرال « مكسويل » إعلاناً آخر بوضع مصر تحت الحماية البريطانية ، وفى اليوم التالى صدر تبليغ من وزير خارجية بريطانيا بخلع الخديو « عباس الثانى » وكان يصطاف بتركيا على عادته كل عام ، وتولية عمه « الأمير حسين كامل » سلطاناً على مصر إيذاناً بزوال السيادة التركية ، مخالفاً بذلك قانون وراثة العرش ، وتعيين « السير مكماهون » أول مندوب سام بريطانى ، وبهذا أخذت مصر وضع المستعمرات البريطانية . فازداد سخط الشعب على بريطانيا والسلطان الذى قبل هذا الوضع المهين . ولم نكن نعلم أنه اضطر للقبول حرصاً على مصر وأسرة « محمد على » لأن الإنجليز هددوا بتعيين « أغا خان » زعيم طائفة الإسماعيلية واستدعوه فعلا للقاهرة .

وبهذه السابقة الجريئة التعسفية أطلقت بريطانيا يدها فى كل شئون مصر الخارجية والداخلية ، واستولت على المحاصيل والأقوات والأرزاق وخيرات البلاد والدواب لصالح القوات

المحاربة ، وجندت الفلاحين فى فرق العمال المصريين للعمل فى صحراء سيناء . وانطلق جنود الاحتلال يعيثون فساداً فى البلاد ، وصودرت الصحف الوطنيـــة المعارضة ، ومنعت المظاهرات بالقوة المسلحة بعد أن فشلت خراطيم المياه فى تشتيتها . وقام طلاب المدارس العليا بالإضراب والخروج بمظاهرة تطوف بالفنادق الكبرى والسفارات والقنصليات معلنة الاحتجاج على الحماية ثم تتجه إلى جريدة الشعب للهتاف بحياة « أمين الرافعى » الذى عطل الجريدة يوم صدور إعلان الحماية حتى لا يضطر إلى نشره ، ولكن المظاهرة شتتت فى ميدان الأوبرا .

وتفادياً لقانون منع المظاهرات والتجمهر واستبداد البوليس رأت لجنة المدارس العليا بعد إغلاق النادى أن ينقسم الطلاب إلى جماعات رباعية تجتمع كل جماعة منها فى مكان مأمون للتذاكر فى الشئون ورسم الخطط واتخاذ القرارات وإبلاغها لمندوب اللجنة العليا . وكانت جماعتنا تجتمع فى مقاهى باب الخلق والحلمية الجديدة وعابدين والسيدة زينب ، وتغير المكان فى كل مرة . وبثت وزارة الداخلية عيونها فى كل مكان يجتمع فيه الطلبة . ولاحظنا أن شخصاً غريباً يندس بيننا

مدعياً أنه طالب ثم يفتح باب الحديث فى السياسة فنبادر بلعب الشطرنج . وفى أثناء اللعب نتبادل كلمات رمزية اتفقنا عليها نفهم منها موعد الاجتماع التالى ومكانه ، بل إننا تعلمنا لغة الأصابع ونقرات شفرة المورس . وقبيل منتصف الليل ينصرف كل منا فى طريق ونترك الجاسوس حائراً فى أمرنا ، ثم يجتمع الشمل مرة أخرى بدار المرحوم « مصطفى بك أباظة » بحارة قواديس خلف سراى عابدين. فنتسلم منه نشرات مطبوعة على ورق أصفر كالكتب الأزهرية بعنوان « الحق أحق أن يتبع » وكانت تبدأ بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وتنتهى بالدعوه للثورة ضد الاحتلال والحكومة الموالية له ، فنوزعها على الأصدقاء والزملاء .

وبدأت الشرارة الأولى بمدرسة المعلمين العليا فى اليوم التالى لإعلان الحماية إذ دخل المستر « هاردى » أستاذ الطبيعة بغير طربوشه مخالفاً التقليد المتبع لأول مرة وفى عروته وردة حمراء كبيرة ، وتطلع إلينا فى زهو وكبرياء ولم يلق التحية كالمعتاد ، وفاجأنا بقوله فى صلف وغطرسة ، وكأن هذا الحمل الذى كان وديعاً انقلب إلى ذئب كاسر : « ا عوا يا أولاد مصر ، أنتم من اليوم رعايا بريطانيا العظمى سواء رضيتم أم أبيتم ، وأهنئكم

على هذا الشرف العظيم الذى لا تستحقونه » . فوجمنا قليلا وألجمت الدهشة ألسنتنا . ثم هب الطالب « محمد حبيب أحمد » رفيق الجهاد والثورة ، وقال بصوت جهورى : اسمع يا مستر « هاردى » ، أولا نحن لسنا أولاداً وإنما نحن رجال . فانبريت بدورى قبل أن يتم كلامه وقلت : وثانياً ، نحن لسنا رعايا بريطانيين ولن نكون كذلك أبداً . نحن مصريون مستقلون ولنا الشرف أن نكون ونظل كذلك ، أما أنتم فستعمرون ، مغتصبون . وساد الهرج والمرج ، وصاح بقية الطلاب : اخرج اخرج ، فغادر الفصل غاضباً وشكانا للناظر « ا . ب . بك » الذى عنفنا أمامه تعنيفاً شديداً وطلب منا الاعتذار له فأبينا ففصلنا أسبوعاً . فذهبت إلى المستر « فيرنس » ناظر الخديوية المجاورة ، ثم إلى ضابط المدرسة « صالح بك » وكان صديقاً لوالدى ، وذهب — حبيب — إلى أستاذ الرياضيات المستر « شوبردج » وكان محبوباً من الطلبة ، وعرضنا عليهم الموضوع ، فذهبوا ثلاثتهم إلى الناظر وأقنعوه بخطأ « هاردى » لتدخله فى السياسة وجرحه لشعور الطلاب . فعدنا إلى المدرسة بعد يومين ولكن « هاردى » ظل على عناده وامتنع عن التدريس أسبوعين .

وفى أوائل ١٩١٥ أخطرت السراى المدرسة بالاستعداد لزيارة السلطان لها . واستدعانى الناظر لمكتبه وقابلنى بحنان أبوى لم أعهده فيه من قبل وقال : اسمع يا بنى ، أنت طالب ذكى مجتهد وصغير السن ، ولك مستقبل عظيم ينتظرك إذا انصرفت إلى تحصيل العلم وابتعدت عن طريق السياسة . أنت الآن لا تقدر العواقب . وقد وضعك الإنجليز فى القائمة السوداء فخذ حذرك من الآن وإياك والخروج على النظام يوم زيارة السلطان . يا بنى استمع إلى نصحى . الإنجليز هم السادة ونحن العبيد فلا تعاند من إذا قال فعل ، ولا تكرر ما حدث مع المستر « هاردى ». انظر ماذا فعلوا « بصالح بك » . لقد كان ضابطاً كبيراً بالجيش وهو الآن ضابط مدرسة لأنهم غضبوا عليه . فشكرت له عطفه ونصحه وتركته غير مقتنع بما قال ، ولكنى لم أعرف وقتئذ المقصود بالقائمة السوداء التى عانيت منها الأمرين فيما بعد من الإنجليز ومن السراى .

وأخذت المدرسة تعد العدة للزيارة ونحن من جانبنا نعد عدتنا لإفسادها فأعددنا أربطة رقبة سوداء ، وأعد بعضنا قمصاناً سوداء كذلك ، وكبار السن لم يحلقوا ذقونهم ، وفى صباح يوم الزيارة حضر مندوب السراي وسكرتير عام الوزارة

لاستعراض طابور الاستقبال والاطلاع على بقية الترتيبات ، وذهلا عند رؤية الأربطة والقمصان السوداء ولكن ماذا يفعلان وموكب السلطان فى طريقه من سراى عابدين . ودخلت عربة السلطان وحولها الحرس إلى فناء المدرسة حيث وقفت الطوابير ، وهتف الناظر ثلاثاً بحياته فلم يجبه إلا بعض طلبة الدبلوم . واندفع الطالب « قاسم خليل » نحو العربة وهتف « تحيا مصر » ونزل « السلطان » مهرولا والوزير وبقية الركب فى أثره ، ومكثوا قليلا فى حجرة الناظر حتى يدخل الطلبة الفصول ، ثم بدءوا الطواف . ودخل علينا وكان المستر « شوبردج » يلقى درساً بالعربية فى الجبر العالى . وأنصت « السلطان » متعجباً ثم قال لمن حوله : « ما شاء الله ، الخواجه يتكلم عربى ، عفارم ، عفارم » . فضج الطلاب بالضحك وقالوا : « عفارم، عفارم » ، فارتبك « السلطان » وخرج مهرولا ، وفى معمل الكيمياء أعدوا « غاز الأيدروجين المكبرت » الكريه الرائحة ، فلم يطق « السلطان » صبراً فبارح المدرسة على عجل ، حانقاً غاضباً ، ولم يكمل الزيارة — وكان لهذا الحادث وقع الصاعقة على رءوس الوزير والسكرتير العام والناظر . ولم تنتظم الدراسة ذلك اليوم فتركنا المدرسة نحمل الأنباء إلى زملائنا فى الحقوق

ودار العلوم .

وفى صباح اليوم التالى دعيت وبعض الطلاب إلى مكتب السكرتير العام بالوزارة فوجدناه ثائراً ثورة عارمة وانفجر قائلا : (خربتم بيتنا الله يخرب بيتكم. أنتم السبب أنتم الزعماء اللى دبرتم كل شيء ، ولا داعى للإنكار فقد نقل إلينا واحد منكم أخباركم ، والمصيبة أنكم صغار السن وفى السنة الأولى . بكرة لما تكبروا رح تبقوا على كده مجرمين سفاحين وفوضويين . أنتم فاكرين لعب العيال ده يخرج الإنجليز من مصر . عمل إيه « عرابى » و« مصطفى كامل » ، والله عال يا ولاد آخر زمن . انتظروا بكرة نتيجة عملكم الطايش) . وطردنا من غرفته شر طردة دون سؤال أو تحقيق . وبعدئذ عرفنا من الذى وشى بنا ، فقد كان واحداً منا أقسم اليمين معنا ، وكرر نفس الوشاية للإنجليز بعدئذ وهو مدرس فى مدرسة ثانوية كبيرة وظل جاسوساً لوكيل الوزارة ، وغيّر لونه السياسى بتغير الظروف حتى وصل إلى أعلى المناصب . وبعد قليل صدر أمر مجلس الوزراء بفصل بعض الطلبة مدداً تتراوح بين أسبوع وشهر وسنة . وكانت أفدح العقوبة من نصيبنا نحن الاثنين « محمد حبيب أحمد » و« أنا » ــ الفصل النهائى والحرمان من التعليم العالى

ووظائف الحكومة لمدة خمس سنوات تنتهى فى أكتوبر ١٩٢٠ .

وبعد أيام قلائل زار « السلطان » مدرسة الحقوق فحدث نفس الشيء ووقعت العقوبات الصارمة على بعض الطلاب وامتنع السلطان عن بقية الزيارات .

وحاولت السفر للخارج لإتمام التعليم العالى حتى ولو فى الجامعة الأمريكية ببيروت فلم تسمح الحكومة ، وكانت بريطانيا هى التى تتولى الشئون الخارجية لمصر وقتئذ . وبمساعى بعض أصدقاء والدى الأتراك قبلتنى كلية الطب بالآستانة وقدمت طلب السفر للقنصل البريطانى فرفضه ساخراً وقال : لا نريد أن ننفيك ونعزلك « كعباس الثانى » . وقدمت طلباً آخر للسفر لإنجلترا فرفضه كذلك وقال : تريد أن تنقل الثورة من مصر إلى إنجلترا على حسابنا . وحرت فى الأمر ، كيف عرف القنصل هذا ، وأخيراً علمت أنها القائمة السوداء . بل إنى قدمت طلباً لمدرسة الحقوق الفرنسية فرفض لأسباب منتحلة . وعندئذ أيقنت أن القائمة السوداء تلاحقنى كظلى أينما سرت حتى سنة ١٩٢٠ .

وأحسست أنى تحت مراقبة البوليس ، فالمخبر يلاحقنى والبيت يفتش من آن لآخر مما سبب لى وللأسرة ضيقاً وعنتاً

شديداً . وامتد الأمر إلى والدى فنقل إلى الإسكندرية وبقينا نحن بالقاهرة ، وقد عرف زملائى هذه القصة ، وعدوها بطولة وطنية وظلماً صارخاً من جانب الحكومة ، ولكنهم فى نفس الوقت تحاشوا مقابلتى والاجتماع بى ، وهكذا عشت عامين فى قلق مستمر وضقت ذرعاً بالفراغ . وتذكرت أن « سعد زغلول » عندما كان وزيراً للمعارف زار مدرسة بنى سويف الابتدائية وسألنى فى الفصل بعض الأسئلة ويبدو أنه سر من إجابتى فقال للشيخ « حمزة فتح الله » كبير مفتشى اللغة العربية المرافق له : « ولد ذكى شاطر وأتنبأ له بمستقبل زاهر » . فهل هذا هو المستقبل الزاهر وأنا الآن شاب عاطل خامل لا حاضر له ولا مستقبل . وزملائى الذين لم يسهموا فى الحركة الوطنية فى طريقهم إلى الدبلوم العالى . وقد وصل بعضهم إلى منصب الوزارة ، ولو كنت سلبياً أو عاقلا مثلهم لجاريتهم إن لم أكن أسبقهم .

وضاقت الدنيا فى وجهى وما أقسى البطالة والضياع على شاب ذكى متعطش للعلم ممتلئ نشاطاً وحيوية . لم يجرب الفشل من قبل . وفكرت فى الانتحار وفعلا ألقيت بنفسى فى النيل ، فأنقذونى وأسعفونى وعادت إلى الحياة ، وعادت معها

ثقتى بالله ، وبنفسى ، وأدركت أن الحياة نعمة لا يكفر بها المؤمن مهما بلغت من السوء ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، ولعل بعد العسر يسراً ، والأمل فى وجه الله كبير .

وفكرت فى قبول أى عمل حر ، ورحب أحد المحامين بتعيينى كاتباً له ولكن والدى رفض رفضاً باتاً ، وأنبنى تأنيباً شديداً على تسرعى ، وفرض لى مصروفاً كافياً يعدل مرتب الوظيفة . فأخذت أختلف إلى قهوة « جراسيمو » التى كانت منتدى رجال التعليم لألعب الشطرنج وأقضى الوقت الباقى بدار الكتب . وطلبنى بعض أصدقاء والدى لإعطاء أولادهم دروساً خصوصية بمكافأة ، فكنت أرفضها لأن ما معى يكفى .

سنة ١٩١٧

وفى أغسطس ١٩١٧ حدث أن حضر إلى القاهرة الأستاذ « كامل سعيد » ناظر مدرسة الأقباط الثانوية بأسوان يطلب مدرساً للرياضيات والعلوم . وكانت قهوة « جراسيمو » بورصة للمعلمين ، فقدمونى له ، وارتاح الرجل لى ، ورحبت أنا من جانبى بفرصة الابتعاد عن القاهرة إلى أقصى الصعيد لعل فى ذلك مخرجاً من عنت المراقبة والتفتيش وهروباً من القائمة السوداء ، وتم الاتفاق وأمضيت العقد لمدة سنتين ، وأعددت نفسى للسفر وأرسلت للوالد بالإسكندرية برقية مختصرة : « مسافر لأسوان بوظيفة مدرس ثانوى » . وجاءنى الرد « كن رجلا » .

ولم أكن أقدر أن القائمة السوداء ستلاحقنى أينما ذهبت ، وحسبت أنى سأجد فى أسوان الجو الهادئ الذى يساعدنى على استكمال دراستى والتقدم لامتحان الليسانس والدبلوم العالى من الخارج عندما ينتهى الأجل المضروب أو قبله إذا ما تغيرت الظروف . ولكن الحوادث كذبت ظنى . فى العام الدراسى

الأول حرصت كل الحرص على أن لا أطرق باب السياسة مع أى إنسان ، وانقطعت كلية للتدريس والنشاط الرياضى والثقافى الذى لم تعهده المدرسة من قبل . وكان لهذا أثر كبير فى تقويم الطلاب وحسن استغلال وقت الفراغ وما أطوله فى بلد هادئ كأسوان ، مما أكسبنى رضا الطلاب وحبهم وتقدير أولياء أمورهم ووثق صلتى الطيبة بهم .

ولكنى كنت فى واد والحكومة فى واد آخر . فبعد شهر واحد من استقرارى بفندق « ماجستيك » الذى نزلت به مؤقتاً ، جاءنى « مصطفى » ماسح الأحذية وأخبرنى همساً أنه سمع بعض ضباط البوليس يتحدثون عنى ويذكرون اسمى ، وكنت قد تعرفت ببعضهم معرفة سطحية ، وكان من بينهم رجل اطمأنت نفسى إليه من مسلكه العام ، فهو وقور واسع الثقافة درس فى فرنسا ، ويبدو من حديثه وسلوكه أنه من أسرة أرستقراطية . وعلمت من زملائه أن « مختار بك » هذا كان موظفاً كبيراً بوزارة الخارجية ثم غضب عليه رؤساؤه الإنجليز لصراحته ووطنيته فعاقبوه بالنفى إلى أسوان بوظيفة معاون إدارة . ويبدو أنه كان مثلى فى القائمة السوداء ، ولذلك كان يعتزل الناس ويكتفى بتبادل التحية ، ويجلس منفرداً فى مطعم « أندريا » المقابل

لمركز البوليس ، يقرأ ويكتب ويصب همه فى النبيذ الفرنساوى الذى يذكره بباريس . ويقضى معظم الوقت دون عمل ورؤساؤه المحليون يغضون الطرف عنه .

وفى ذات مساء كنا نتناول طعام العشاء فى المطعم على مائدتين متجاورتين . وفجأة سمعته يهمس دون أن يلتفت نحوى : اسمع يا أستاذ مظهر ، ولكن استمر فى الأكل ولا تنظر إلىّ . أنت فى القائمة السوداء . وقد وصلت تعليمات من مفتش الداخلية « ماكنوتن » بمراقبة البوليس لك وتقديم تقارير سرية عن حركاتك وسكناتك للمدير والمفتش « خد بالك » ، المدير شرابة خرج لا يهمه غير مصلحته وإرضاء مفتش الداخلية ، ووكيل المديرية رجل طيب صالح ولكنه فى حاله « ودن من طين وودن من عجين » والحكمدار رجل صادق الوطنية وجرىء ، والمأمور أديب فيلسوف سارح فى ملكوت الله ، والملاحظ « زين العابدين » شاب نظيف جميل الخلقة والخلق ووطنى جداً ، أما الضابط الآخر « ك » فهو ثعبان سام مكير لا تأمن له ، وهو المكلف بمراقبتك ، أما بقية الأعيان والتجار فأنت تعرفهم وهم يحبونك .

وفى تلك اللحظة دخل « ك » متلصصاً ، فأخذ « مختار بك »

يترنم بشعر فرنسى كما لو كان ثملا ، وقال بالفرنسية : خذ حذرك ولا تقل شيئاً ولا تلتفت نحوى ، فاقترب « ك » نحوه ونظر إلينا وقال : « مختار » ماذا كنت تقول له ؟ فأجابه : يا غبى أنا كنت أنشد قصيدة « لامارتين » فى وصف الطبيعة ، وأنت جاهل لا تعرف « لامارتين » . وجازت عليه الحيلة وقال ضاحكاً ساخراً : أنت لا تنسى باريس أبداً ، يالك من رجل كسول مهذار .

وكان « أوين باشا » هو ضابط الاتصال بين السلطة البريطانية والحكومة المحلية ، وفى نفس الوقت الحاكم العسكري الفعلى لمديريتى قنا وأسوان ومقره الأقصر ، وهو يشرف على تجنيد العمال وجمع المؤن والدواب وتأمين المواصلات بين مصر والسودان وكل ما يتعلق بالمطالب الحربية . أما المدير « م . ى. ر . بك » فهو كما قال الشاعر القديم : « أسد علىّ وفى الحروب نعامة » جميل الصورة مهيب الطلعة ضخم الجسم كبير الشوارب ولكنه جبان رعديد ومكير كالثعلب فى جلد الأسد ، لعب دور المنافق وحنث فى يمين مقدسة وتفانى فى إرضاء الإنجليز ، فكان الثمن فيما بعد رتبة الباشوية ووكالة وزارة الداخلية ، ولكن يبدو أنه تاب بعد التقاعد وانضم للهيئة

الوفدية بعد أن كان من ألد أعداء الوفد . أما الحكمدار « عبده عباسى بك » ووكيل المديرية « حسين كامل نصحى بك » والمأمور « محمد عزيز دياب » فكانوا كما وصفهم لى «مختار بك»، والملاحظ « زين العابدين » توفى فى ريعان شبابه ، والضابط « لك » رقى فيما بعد مأموراً لأحد أقسام بوليس القاهرة ثم مفتشاً للداخلية لأنه اشتط فى تشتيت المظاهرات والقبض على الطلبة والعمال . وكنت أحسبه فى أول الأمر مجرد فضولى مهذار ، ولكن بعد أن أطلعنى « مختار » على أمره تذكرت أنه كثيراً ما كان يظهر فجأة دون أن أشعر به كلما انفردت بنفسى أقرأ أو أكتب أو أجتمع ببعض معارفى فى شرفة الفندق أو مطعم « أندريا » أو قهوة « صاوا » ، ويمد يده إلى الكتاب أو الأوراق دون استئذان ، ويقول مداعباً : « لا رواية حب ولا كتاب سياسة . حرام عليك يا شيخ . أنت راهب وفيلسوف . علم . علم . وسايب الدنيا ملخبطة تضرب تقلب فى مصر . يا شيخ ساعة لقلبك وساعة لربك » . ولكنه كان ماكراً وخبيثاً لا يفاتحنى فى السياسة مباشرة ونحن على انفراد ، أما مع الجماعة فكان يثير مسائل سياسية شائكة ويطلب رأيى فأراوغ فى الإجابة .

وقد تعرفت بعد فترة وجيزة بعدد من الأعيان والتجار والموظفين الصادقى الوطنية ، وكان لهم دور هام فى ثورة أسوان سنة ١٩١٩ ، أذكر منهم بالخير « حنفى منصور بك » و « النجار بك — عمدة الجزيرة » تصغير جزيرة ، وعمدة جزيرة أسوان وولده « الشيخ عبد القادر » و « الشيخ هنيدى » . ومن التجار « الشامى بك » و « الشيخ مصطفى قديس » الذى كان يعرف الإنجليزية وله صلات تجارية بالسودان والحبشة : و « الشيخ أبو بكر كحالة » وأخوه الشاب الفدائى « طه » ، ومن الموظفين : « الأستاذ أحمد عاصم بك — مدير عام دار الكتب بعدئذ » والضابط المهندس « أحمد شوكت » مدير الأملاك والدكتور « نسيم داود حكيمباشى المستشفى الأميرى » والمهندس « لبيب نسيم » صاحب امتياز مناجم ومصانع البويات والأصباغ و « توفيق رشدى » ناظر مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية و « عبد الحميد » ناظر المحطة و « عبد الرحمن أفندى » مراقب بريد الجزيرة و « الشيخ ماهر » ناظر المدرسة الأولية والمهندسان بخزان أسوان : « أحمد حسنين » و « محمد عبد الله » . و « جبالى بك عبد النبى الجبالى » من مشايخ عربان الفيوم وكان يستشفى كل شتاء بأسوان من مرض صدرى ، وماسح

الأحذية «مصطفى» والأسطى« عبد الحميد » الحلاق ، والوطنيان الصادقان اللذان كانا يزودانى أولا فأولا بما يسمعانه من أخبار ومعلومات ، ومن الأجانب مدير البنك الأهلى وكان يونانياً وابنه طالب عندي بالمدرسة الثانوية وكنت أوليه رعاية خاصة لأدبه وتفوقه و « سوفوكليس » البقال الكبير بالقيسرية . وتعرفت بثلاثة ضباط جيش من أورطة حرس الخزان ملتهبين بالوطنية « محمد على سعد – اللواء الذى اغتيل فى شارع ٢٦ يوليو » و « بدر الدين – ابن بدر الدين بك » مدير الأمن العام الطاغية المسلط على رقاب العباد وثالث لا أذكر اسمه .

واستأجرت مع زميلى « حسنين فهمى » مدرس اللغة الإنجليزية (المشرف الرياضى بجامعة فؤاد الأول) مسكناً مفروشاً . فكنا بالضرورة نقضى معظم الوقت معاً مع اختلاف الميول والمشارب . فكان يتمسك بالتقاليد الإنجليزية ، كلاماً ومأكلا ومشرباً وحركة وإشارة ، لأنه تعلم وقتاً بجامعة « كمبردج » وكان لا حديث له إلا مدينة « كمبردج » وجامعاتها وكلياتها ومعالمها وذكرياته عنها ، ولا متعة له إلا ألبوم صورها يتفحصه كل يوم ويشرح لى كل صورة ، حتى أصبحت أعرف كل شيء عنها كأنى عشت فيها ودرست معه ، وحفظتها عن ظهر

قلب ، وقد أفادتنى هذه المعلومات أكبر وأجل فائدة فى المناسبات والمواقف الحرجة الخطيرة فيما بعد .

فى أواخر العام الدراسى استقال « حسنين فهمى » واحتاجت المدرسة إلى مدرس لغة إنجليزية آداب . فرشحت زميلى فى الجهاد والعقاب « محمد حبيب أحمد » ووافقت المدرسة وتم تعيينه وعدنا معاً إلى أسوان فى سبتمبر ١٩١٨ بعد انتهاء العطلة الصيفية .

سنة ١٩١٨

كان « الهر فريتز فورل » ملك اللحوم المقددة فى ألمانيا يملك ڤيلاً فخمة على النيل بمحطة الجزيّرة (تصغير جزيرة) التى تقع شمال أسوان وتبعد عنها بحوالى عشرين دقيقة سيراً على القدم. لأمر ما سماها « ڤيلا" منيرة » . وكانت مؤثثة بأفخر الأثاث كاملة التجهيزات وجميع وسائل الحياة الأرستقراطية المترفة ، وفى الحق كانت أفخم من أيِ فندق بأسوان . وبها حديقة أزهار وخضر مساحتها أربعة أفدنة وطاحونة هواء هولندية تمدها بالكهرباء والماء ، وحارس وبستانى وحمار وقارب على النيل ، وكل ما فيها يحمل الحرفين « ف. ف » وكان هذا المليونير العجوز يزور كل شتاء أسوان للاستشفاء من الروماتيزم كما يقال ، ومعه آنسة جميلة رشيقة ربما كانت ابنته أو سكرتيرته أو رفيقته ، وطبيب وطباخ وخادمان ، كلهم ألمان . وقيل إنه كان غريب الأطوار ، فكان هو وركبه يضربون فى الصحراء بين حين وآخر ويقيمون الخيام ومعهم آلات وأجهزة عجيبة ، ويقيمون عدة أيام ويعودون كأشباح الليل ، ولا يعلم عنه أهل

أسوان شيئاً لأنه كان لا يختلط بأحد ولا بجيرانه الأقربين « أسرة النجار »، وكان أحياناً يرسل لألمانيا رسائل فى مظاريف كبيرة وطروداً صغيرة كلها مختومة بالشمع الأحمر وموصى عليها .

وفى ذات يوم قبيل إعلان الحرب العالمية بأيام حلقت فوق الڤيلاّ طائرة ترفع العلم الألمانى وألقت شيئاً ما فى الحديقة فالتقطه الخادم وأسرع به إلى سيده . وكانوا يتناولون طعام الغداء وقتئذ ، فبادروا بترك المائدة كما هى بما عليها من مأكل ومشرب وحملوا حقائب معدة من قبل وأغلقوا أبواب الڤيلاّ ونوافذها وحملوا المفاتيح معهم ورحلوا دون أى تعليمات للحارس والبستانى ، ولعل الطائرة كانت بانتظارهم فى مكان ما . والمهم أنهم كانوا فى عجلة من أمرهم فتركوا كل شىء فى الڤيلاّ على ما هو عليه حتى ثيابهم والطعام والشراب على المائدة .

واستولت السلطة العسكرية البريطانية على الڤيلاّ وما فيها باعتبارها من أملاك رعايا الأعداء . وعينوا صديقى اليونانى مدير البنك الأهلى حارساً قضائياً عليها ، وظلت الڤيلاّ مغلقة أربع سنوات فى ترك وإهمال . وعلم هذا الصديق برغبتى فى إحضار والدتى لقضاء فصل الشتاء بأسوان لولا صعوبة إيجاد المسكن

المناسب . فكتب للحراسة العامة أن أثاث الڤيلاّ الغالى ومحتوياتها الثمينة كادت تتلف بالترك والإهمال طوال هذه السنين ، وأنه يوصى بإيجارها لاثنين من المدرسين المهذبين الراقين المتعلمين فى إنجلترا وهما خير من يصونها . ووافقت الحراسة على ذلك بإيجار اسمى قدره ثلاثة جنيهات شهرياً . وكانت هذه أجل خدمة قدمها لى نظير رعايتى لابنه فى المدرسة .

وطلبنا إلى مكتبه وسلمنا المفتاح وأمضينا العقد وقائمة المنقولات الثابتة وكان كريماً فتنازل لنا عن الأشياء غير الثابتة كالمفارش والبياضات وأدوات المائدة وآلة كتابة ومحتويات الكرار ، وتعهد بدفع مرتبات الحارس والبستانى من حساب الحراسة ، وتسلمنا الڤيلاّ ودخلناها بعد أن قضى الحارس والبستانى واثنين من فراشى المدرسة يومين فى تنظيفها وغسلها ، فوجدنا أثاثها ومفروشاتها فى غاية الفخامة . ووجدنا بالقبو والكرار مخزوناً هائلا من صناديق النبيذ الألمانى المشهور « فلاهوف » ومياه سلتزر المعدنية ، إلى جانب عدد كبير من المعلبات واللحوم المقددة والمحفوظة ، مما يساوى مبلغاً ضخماً ، وأهدينا مدير البنك كمية كبيرة منها ، ولم يكن يعلم بوجودها فقبلها شاكراً .

واستطعنا بفضل مخلفات « ف . ف » أن نستضيف أصدقاءنا أيام الجمع والأجانب أيام الآحاد ، وكنا نعد الموائد وأدواتها الفاخرة فى داخل الڤيلا أو فى الحديقة ، ونقدم الطعام والمشروبات ، وهم يظنون أنها من عندنا ، وكان الأجانب يحضرون يوم الأحد مع أسرهم ويقضون اليوم فى الغناء والرقص وصيد السمك والنزهة النيلية بالقارب ، وكنا ندعو الوطنيين لجلسات خاصة بعيداً عن أعين الرقباء وآذانهم . وكان لطلابنا نصيب كبير من هذه الضيافة ، فكانوا يفدون جماعة جماعة فى كل أسبوع فنرتب لهم مسابقات بجوائز ، وكان لهذه الدعوات أطيب الأثر فى نفوس الجميع . وكان الضابط « ك » يفاجئنا أحياناً بدون دعوة ونراه من باب الحديقة الكبير البعيد عن الڤيلا فنحتاط .

وفى يوم أحد فاجأنا المدير ومعه الحكمدار بالزيارة والحديقة حافلة بالضيوف الأجانب والموائد معدة لتناول الغداء فرحبنا به وقضى مع الضيوف وقتاً طويلا واستمتع بغنائهم وموسيقاهم ورقصهم ، وشاركهم طعام الغداء ، ثم انصرف وهو يقول : « هذه حقيقة جنة . يا بختكم . يا ريت تبادلونى وأدفع لكم الفرق » ، ثم تردد وضحك ونظر إلى الحكمدار ، وقال : وهى

أصلح مكان لتدبير المؤامرات . فضحكت بالمثل وقلت :
فإخواننا الأروام يتآمرون علينا كل يوم أحد كما ترى .
الجميع وبدا السرور على وجه الحكمدار من هذا
الدبلوماسى البارع .

وفى ذات يوم تعطلت طاحونة الهواء ، فتسلقها « حبيب »
أعلاها ليرى ما حدث لها ، والتفت عرضاً إلى سطح الڤيلا
حجرة بيضاء مسحورة لا ترى من الأرض ، فتعجب
أمرها إذ لم يكن بالڤيلا أى مدخل لها أو سلالم تؤدى إليها .
سلماً طويلا وصعدنا إليها فوجدنا باباً صغيراً أبيض اللون
الحائط ، وعليه قفل متين ، فعالجناه حتى فتحناه ، وكم
دهشتنا حين وجدنا بداخلها جهازاً لاسكيًّا وكتاب شفرة
« كود » ، واتضح بعد حل الشفرة أن « ف . ف »
جاسوساً ألمانيًّا خطيراً يتصل « ببوتسدام » قصر الإمبراطور
رأساً . وبادرنا بإطلاع مدير البنك على هذا الكشف
الجهاز والشفرة فأرسلهما بدوره إلى السلطة العسكرية
فأرسلت لنا كتاب شكر وتقدير كان له أكبر
فيما بعد .

وحدث حادث عارض كان القدر قد دبره ليدفعنا دفعاً



كان «ف . ف» جاسوساً ألمانيا خطيراً .

لخروج من عزلتنا السياسية والقيام بالدور الغريب الخطير فى الثورة المقبلة . ذلك أن المهندس « محمد بدر » الذى اختاره « سعد زغلول » ليكون أول سكرتير عام للوفد المصرى الذى تألف فى أواخر هذه السنة (١٩١٨) ، قبل « مصطفى النحاس» و « مكرم عبيد » و « فؤاد سراج الدين » حضر لأسوان لأعمال تتعلق بامتياز حصل عليه للبحث عن الحديد ، وكان صديقاً لوالدى ، فسأل عنا والتقينا به وأضفناه بالفيلا بضعة أيام ، وسألنا عن تفاصيل قصتنا التى حدثه الوالد بها بإيجاز ، فشرحنا له كل ما حدث إلى مجيئنا إلى أسوان. وكان وطنياً ثورياً مثلنا.

وثمة حادث آخر دبره القدر . فى ذات مساء كنا نسمر بفندق «جراند» وكان أحد النزلاء تاجراً سودانياً له مكانته عند الأسوانيين . وقد حضر عدد كبير من الأعيان والتجار لتحيته ، ودخل الصالون متجهاً نحو الجماعة ، ثم نظر إلينا عرضاً وأخذ يدقق النظر نحو « حبيب » ويتفرس فيه ، واتجه نحونا والجميع يتبعونه ، وإذا به ينحنى وينكب على يد « حبيب» ويقبلها مراراً ويقول : سيدى — تمزية : (لقب أسرة حبيب) ، أهلا بسيدى وابن سيدى « أحمد » متى شرفت أسوان ولماذا لم تخبرنا بذلك ؛ لعلك ستزورنا بالسودان ؟ ورأى

الدهشة على وجوه الحاضرين فالتفت إليهم وقال : « إنه سيدى « حبيب بن سيدي أحمد تمزية » نقيب المرغنية فى مديريات بنى سويف والفيوم والمنيا . والمرغنية لها مقام كبير عند الأسوانيين إلى حد التقديس ، بحكم صلاتهم وقرابتهم ونسبهم للسودانيين . ثم نظر إلىّ مستفسراً فحييته مبتسماً وقلت : وأنا كذلك لى صلة وثيقة بالسودان والمرغنية ، فقد كان جدى « لطيف باشا الكبير » حاكماً عامًّا للسودان قبل الثورة المهدية. فازداد احترام الرجل وقال : إذن أنت الرئيس الحاكم وهو النقيب الصالح . وكان لهذه المصادفة العابرة أثر خطير آخر فيما بعد .

وانتهت الحرب العالمية باستسلام ألمانيا وحدد يوم ١١ نوفمبر لإمضاء شروط الهدنة ، ففكرنا طويلا كيف نمنع الاحتفال الذى أمرت السلطة العسكرية البريطانية كافة مديرى الأقاليم بإقامته باسم « يوم النصر » ووصلتنا دعوة خاصة لحضوره بسراي المديرية ، أو على الأقل كيف نمنع الأعيان والتجار من حضوره . وتفتقت الحيلة فاستدعيت ماسح الأحذية « مصطفى » وكلفته أن يخطر « حنفى بلك منصور » بأنى سأقابله سرًّا بمنزله لأمر هام بعد صلاة العشاء ، وجاءتنا رسالة من المدير بضرورة حضور الاحتفال لأن جناب مفتش

الداخليةحضر إلى أسوان ويريد مقابلتنا نحن بالذات ، وكانت مشكلة محيرة . كيف نحضر ونحن سنوصى الأعيان والتجار بعدم الحضور ؟! ولم يكن هناك بد من أن أتصنع المرض ، فأخذت أتوجع وأتأوه من شدة الألم ونقلونى إلى المستشفى الأميرى ، وهناك كاشفت الدكتور « نسيم » بالسر ، فادعى لناظر المدرسة أن مرضى شديد ويستلزم ملازمة الفراش ثلاثة أيام . وصاحبنى الدكتور والناظر إلى الفيلا فى عربة ووضعونى فى السرير وأعطى الدكتور تعليمات العلاج لحبيب ، وسمح الناظر لحبيب بإجازة ثلاثة أيام كذلك حتى يلازمنى . وانصرفوا بعد أن رأونى نمت . . وبعد الغروب تسللت إلى بيت « حنفى بك » ودخلت من الباب الخلفى فوجدته مع بعض الأعيان والتجار الوطنيين ، فأخذت أبين لهم أن يوم النصر للإنجليز هو يوم الهزيمة لمصر ، لأن ألمانيا لو كانت انتصرت لكنا تخلصنا من الاحتلال . أما وقد هزمت فإن إنجلترا قد خلا لها الجو وسوف تستعبدنا حتماً وتتنكر لوعودها التى قطعتها أثناء الحرب ولم تنفذ منها شيئاً وربما ضمتنا إلى مستعمراتها ، ومن العار أن نحتفل بيوم نصر للإنجليز وهزيمة لمصر ، وعلمت بفشل الاحتفال رغم ما أعد له من استعداد هائل ومرطبات وحلويات

وكلمات من مفتش الداخلية والمدير ، فلم يحضره إلا قلة من كبار موظفي الحكومة . وسأل المفتش عنا فأخبره المدير بغيابنا فأمر بإلقاء القبض علينا ، وتدخل ناظر المدرسة فأخبره بمرضي الشديد وملازمتي للفراش واضطرار « حبيب » للبقاء معي ، وأمّن الدكتور « نسيم » على كلامه وأكد أنه يشرف على علاجي بنفسه ، وجازت عليهم الحيلة ولم يفطن لنا أحد .

وطالعنا في صحف يوم ١٤ نوفمبر التي تصل أسوان يوم ١٥ نوفمبر أن وفداً من « سعد زغلول » وكيل الجمعية التشريعية وعضويها « على شعراوى باشا » و « عبد العزيز فهمى بك » — قابلوا المندوب السامى البريطانى — السير ونجت — يوم ١٣ نوفمبر مطالبين بريطانيا بتنفيذ وعدها باستقلال مصر بعد الحرب ، وقد صبرت وضحت وقدمت أكثر مما تستطيع ، واللورد « اللنبي » نفسه اعترف بأنه لولا الجيش المصرى وفرق العمال المصريين ومعاونات مصر المادية لما استطاع فتح فلسطين وهزيمة الأتراك ، ولكنه رفض الاستماع لهم ورفع مطالبهم لحكومته بحجة أنهم لا يمثلون الشعب ، وهذا منطق عجيب لرجل مسئول يمثل بريطانيا التى تدعى أنها بلد الديمقراطية وأم الحياة النيابية والنظام البرلمانى ، وسلوك شاذ مع أعضاء الجمعية التشريعية

المنتخبين من قبل الشعب .

وكان الرد الطبيعى أن يتألف الوفد المصرى للدفاع عن قضية البلاد . وعلمنا بعدئذ أن الوفد طلب الترخيص للسفر للخارج فى ٢١ نوفمبر فرفض طلبه ، وبدأت الصحف تتجاهل أخبار الوفد بأمر من مستشار الداخلية وإدارة المطبوعات ، ولكن الأخبار كانت تأتينا بالتفصيل عن طريق موظفى السكة الحديد فينقلها لنا ناظر المحطة سراً . وعلمنا منه أن جميع الشخصيات البارزة قد انضمت للوفد ، وأن الوفد بدأ يجمع توقيعات المواطنين فى المدن والأقاليم لتأييده وإثبات حقه الشرعى فى التحدث باسم الشعب المصرى .

وفى يوم ٢٥ نوفمبر أخبرنا الضابط «زين العابدين » بأن الأوامر صدرت من مستشار الداخلية للمدير بمنع هذه التوقيعات ومصادرة العرائض والقبض على حامليها . وفى يوم ٣٠ نوفمبر جاء « مصطفى » ماسح الأحذية على عجل وأخبرنا همساً أن ناظر المحطة ينتظرنا بعد الغروب بقهوة « صاوا »، وكان منزله خلف المحطة بعيداً عن العمران . ووجدته بانتظارى أمام المقهى على شاطئ النيل فى مكان هادئ مظلم ، ومعه آخر قدمه على أنه الأستاذ « زهدى » صراف أول السكة الحديد الذى يصل

أسوان من القاهرة عدة مرات كل شهر لأعمال مصلحية وله عربة صالون خاصة لإقامته . وكان معه حافظة أوراق متخمة . وبعد التعارف والتحية أخبرنى أنه موفد من قبل « محمد بك بدر » سكرتير عام الوفد المصرى ومعه خطاب موجه لنا من « سعد باشا » ومجموعة من قوائم التوكيل . وهو ينتظر الرد ليسلمه له يداً بيد بعد أسبوع . وما كاد يمد يده ليفتح المحفظة حتى ظهر « ك » كالشيطان من تحت الأرض وضحك ضحكته المعهودة ، وقال : ماذا تدبرون الآن وأنتم فى هذا المكان المظلم المنفرد؟ ووفقنى الله لمخرج من هذه الورطة. فضحكت مجاراة له وقلت : أنت ابن حلال ، لقد جئت فى وقتك فنحن ندبر مؤامرة خطيرة جداً ، وإذا كان لديك متسع من الوقت وتستطيع الانتظار عشر دقائق يمكنك أن تشترك معنا بشرط أن تكتم السر . وذهبت إلى داخل القهوة وطلبت تشكيلة من الخبز والمأكولات وزجاجة مشروب وورق اللعب ، وعدت للجماعة وخلفى الجرسون يحمل هذه الأشياء وفتحت اللفافة أمام « ك » كأنى أراجع محتوياتها ، وقلت : هيا بنا ننفذ المؤامرة فى بيت « عبد الحميد » هذه هى مؤامرتنا التى ندبرها فى أول كل شهر عندما نقبض المرتب ، أكل وشرب « وبارتيتة بوكر » خفيفة

قبل أن تتبخر الفلوس . وكل واحد ثلاثة جنيهات فقط والشكلك ممنوع بتاتاً واللعب للساعة واحدة ولا دقيقة زيادة . فتثاءب زهدى وقال : إنه متعب ولديه تقرير لا بد من إنجازه وعشاؤه المطهى الشهى ينتظره فى صالونه ، وإحنا أربعة والبركة فينا ، واستأذن وانصرف ومعه حافظة الأوراق . فقال « لك » : « حلال عليكم ، وأنا متعب كذلك وليس معى فلوس . سلام عليكم » واتجه نحو المدينة ، وسرنا بدورنا على مهل ودرنا حول المحطة لنري إذا كان لا يزال يتبعنا أو اتجه للصالون ليراقب « زهدى » ولما وثقنا أنه انصرف لحال سبيله ، دخلنا بيت ناظر المحطة فوجدنا « زهدى » هناك فسلمنا الأوراق وعاد مسرعاً لصالونه . ونحن بدورنا أخذنا الأوراق ، وتركنا الأشياء للناظر لينتفع بها لأنها لم تكن إلا خدعة ، وعدنا إلى الڤيلا سيراً على الأقدام بعيداً عن شاطئ النيل ، ووجدنا فى الأوراق خطاباً تاريخياً هاماً ، هذا نصه :

سكرتارية الوفد المصرى

١٩١٨/١١/٢٩

« الأستاذان الفاضلان والوطنيان المخلصان

فلان وفلان

تحية طيبة مخلصة و بعد

فقد عرضت على سعادة « سعد زغلول باشا » رئيس الوفد المصرى ما أعرفه من جهادكما الصادق ووطنيتكما المخلصة وتضحيتكما الكبيرة السابقة فى سبيل الوطن . وأنكما خير من يمثل الوفد المصرى فى إقليم أسوان ويؤتمن على تحقيق رسالته وتنفيذ تعليماته .

ويسرنى غاية السرور أن أبلغكما أن سعادة رئيس الوفد قرر اعتمادكما نائبين عن الوفد المصرى فى أسوان والنوبة : فعليكما الاتصال بالوطنيين الصادقين من أعيان وتجار وموظفين وإطلاعهم على خطاب الاعتماد هذا والحصول على توقيعاتهم على قوائم التأييد مع اتخاذ الحيطة التامة فى تصرفاتكما بعيداً عن أعين الحكومة ، وإعادة القوائم إلينا على جناح السرعة بالوسيلة التى تضمن وصولها إلينا سالمة : وليكن رسولنا الأمين حلقة الاتصال بيننا .

وإنى إذ أكرر التهنئة لكما نيابة عن الوفد المصري وسعادة

رئيسه أرجو لكما التوفيق فى مهمتكما ، والنصر لقضية الوطن العادلة ، والسلام .

السكرتير العام للوفد

محمد بدر »

أما قوائم التأييد المطبوعة فقد جاء فى أعلاها هذه العبارة :

نحن الموقعين على هذا قد أنبنا حضرات « سعد زغلول باشا» و« على شعراوى باشا » و « عبد العزيز فهمى بك » و« محمد على بك » و « عبد اللطيف المكباتى بك » و« محمد محمود باشا» و« لطفى السيد بك » ، أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة ، حيثما وجدوا للسعى سبيلا ، فى استقلال مصر استقلالا تامًّا .

ويلى ذلك خانات للاسم والعنوان والإمضاء أو الختم

وفى اليوم التالى أطلعنا أصدقاءنا الوطنيين على الخطاب ، وسلمناهم القوائم تحت مسئوليتهم مع اتخاذ الحيطة والكتمان وحفظ القوائم لديهم فى مكان خفى مأمون . ودفعاً لأى مظنة أو شبهة فى أى مصرى تسلم القوائم فى ظرف أسبوع لمدير فندق « ماجستيك » النمساوى الذى توثقت صلتى به عندما نزلت بفندقه فى أول الأمر . وكان هو وزوجته يكرهان الإنجليز كراهية التحريم ، وهو ليس موضع شبهة وإن كان من رعايا

الأعداء . لأنه عاش في أسوان مدة طويلة وتمصر وليس له أى اتجاه سياسى . واحتاجت السلطة العسكرية البريطانية إليه أثناء الحرب . لنزول الضباط بفندقه وقد أثنوا على خدماته لهم أطيب الثناء . . . وتوثقت الصلة بعد أن حكيت لهما قصتى . وكان يفرد لنا غرفة خاصة منعزلة نجتمع فيها خفية للتشاور فى الأمور بعيدين عن الرقباء ، وينكر وجودنا لمن يسأل عنا من الغرباء، وتجلس زوجته فى مواجهة الباب الكبير ، فإذا اشتمت رائحة الخطر قرعت الجرس ثلاث مرات فنتسلل من الباب الخلفى ، وأخطرناه بتسلم القوائم من أصحابها ، ثم يسلمها لطه كحالة .

وكنا قد سلمنا « حنفى بك منصور » قوائم الأعيان ، والشيخ « أبو بكر كحالة » قوائم التجار ، و « المهندس أحمد شوكت» قوائم الموظفين، والأستاذ « توفيق رشدى » قوائم المدرسين ، والمهندس « أحمد حسنين» قوائم الخزان، و« النجار بك » قوائم الجزيرة، و«الشيخ عبد القادر» قوائم جزيرة أسوان ، و« طه كحالة » قوائم البلاد الشمالية حتى إسنا لعائلة « حزين بك »، وتركنا ضباط الجيش والبوليس لظروفهم الخاصة .

وحدثت فى هذا الأسبوع بعض مصادفات من عجائب تدبير القدر : فقد وصلتنى برقية من القاهرة هذا نصها :

« قابل الأمير بمحطة الشلال بعد غد ومعك أقتين لحم مشوى وعيش فينو ــ السيد ». ونقلت صورة البرقية إلى مفتش الداخلية دون علمنا . وفى ظهر اليوم الموعود اصطحبنى البوليس إلى مكتب ضابط الاتصال بمحطة الشلال ، القائمقام « سيد لبيب بك » فوجدنا عنده ضابطاً إنجليزياً يتكلم العربية وضابطاً مصرياً . وفاجأنى الضابط الإنجليزى بصورة البرقية وفتح محضراً رسمياً وسألنى عن فحواها ، فسألته بدورى : بأمر من هذا الاستجواب ، فأجاب فى صلف واستنكار : بأمر تلفونى من جناب مفتش الداخلية . فقل لنا من غير لف ولا دوران : من هذا الأمير السودانى ومن يرافقه وما صلتك به وما معنى اللحم المشوى والعيش الفينو ؟ لأنه ليس من المعقول أن يطلب الأمير شيئاً من هذا والقطار به عربة أكل . لا بد أنها شفرة رمزية خاصة ونحن أدرى بهذه الألاعيب . فضحكت وقلت فى هدوء : لا ضرورة للإجابة الآن وسمو الأمير سيصل بعد ساعات فيمكن أن تراه بنفسك وتسأله ، فسكت على مضض وانصرف ، وانتظرت بمكتب القائمقام الذى أمر بالقهوة والشاى وإعداد طعام الغداء ، ووصل القطار فقمنا إليه نحن الثلاثة . وهناك من أحد نوافذ الدرجة الثانية أطل صديقى « محمد أفندى

الأمير » الموظف بحكومة السودان ومعه زوجته وأولاده .
ولم أكن فى حاجة لتقديمه للقائمقام فقد كانت بينهما معرفة
سابقة . فسلمته اللحم والخبز وسار فى طريقه إلى القاهرة .
وضحكنا على قفا الضابط الإنجليزى المتعجرف الذى يعرف
هذه الألاعيب . وانصرف الضابط ساخطاً يتميز غيظاً .
ولما ودعت القائمقام همس فى أذنى : على كل حال خذ بالك
فأنت مراقب وخطواتك محسوبة عليك . ولست أدرى لماذا .

وواجهتنا المشكلة الخطيرة المعقدة وهى : كيف نتسلم
التوكيلات من « طه كحالة » ونسلمها « لزهدى » ونحن
الاثنان مراقبان مراقبة شديدة ، وخطواتنا محسوبة علينا فعلا ،
وجاءت المصادفة الثانية وكانت مصادفة سعيدة حقاً دبرها
القدر الرحيم لنجاح المهمة من أيسر طريق . فقبل موعد التسليم
بثلاثة أيام أصبت بخراج كبير فى الزور اقتضى عملية جراحية
فى المستشفى الأميرى والبقاء به للعلاج أسبوعاً على الأقل مع
الاشتباه فى حالة دفتيريا . وأخطرت المدرسة بذلك . وكان
الدكتور « نسيم » يمر علىّ كل صباح للغيار ويقضى معظم وقت
فراغه معى ، و « حبيب » يلازمنى بعدئذ من بعد انتهاء دروس
المدرسة إلى الغروب . ثم تتولانى الممرضة إلى منتصف الليل . .

كانت الممرضة راهبة إيطالية سألتنى عن حالى فى الليلة الأولى فأجبتها بالإيطالية وأخبرتها أن أمى إيطالية ، فأخذت تسامرنى وتقرأ لى شعراً أو رواية إيطالية إلى أن يدركنى النعاس ، وتتركنى ساعة واحدة لتناول العشاء والصلاة ، ثم تعود ، وتردد الإخوان الوطنيون على المستشفى لزيارتى ، وكلفت طه كحالة أن يسأل ناظر المحطة عن موعد وصول « زهدى » وتم المقابلة بينى وبين « زهدى » قبيل العشاء فى منزل المحطة — وفى نفس الوقت يكون « طه » بانتظارى أمام قهوة — صاوا — لأن « زهدى » لا يعرفه ويضع الأوراق فى سلة صغيرة يغطيها بطبقة من الخضار أو الخيار أو الفواكه أو أى شىء آخر كأنه يحملها إلى منزله .

وكان « ك » يزور المستشفى زيارات مفاجأة متقطعة ويراقب زوارى فى دخولهم وخروجهم ، ويفتش ما يحملونه من فاكهة وجرائد بدافع مجرد الاستطلاع كما يدعى ، وينتظر « حبيب » عصراً ويدخل معه غرفتى ويلازمنا حتى يخرج فيخرج معه ويسير معه قليلا فى طريق الفيلا فإذا اطمأن لعدم عودته انصرف . وكان يستدرجنى فى الكلام ويقترح أن يصاحبنى فى جولة بالحديقة أو على كورنيش النيل لتغيير الهواء فأظل نائماً فى سريرى أتوجع وأظهر الألم عند كل حركة .

وجعلت الدكتور « نسيم » ينصحني أمامه بأن في مبارحة السرير خطراً كبيراً فقد يفتح الجرح فأحتاج لعملية أخرى ؛ ثم يطلب من الممرضة إعطائي دواء مسكناً أو منوماً .

وحرت في أمر هذه المراقبة المتواصلة وشممت رائحة الخيانة ، وتوجست شراً من « لك » فطلبت من « حبيب » أن يضع خطاب « سعد باشا » والأوراق الأخرى الواردة من « محمد بك بدر » في صندوق صغير من الصفيح ويدفنه في أرض حديقة الفيلا بعيداً عن الرجل في مكان يعرفه . وقد صدق حدسي في الخيانة فقد علمت فيما بعد أن شخصاً ما وشى بوصول خطاب من « سعد باشا » ومعه قوائم التوكيل ، مع أنه حلف اليمين ، وكان هذا الشخص أحد صغار الأعيان وكافأته الحكومة بأن عينته عمدة في مكان ما ومنحته رتبة البكوية وساعدته تجارياً حتى اغتنى.

وفي الليلة المعهودة دخلت الراهبة قبيل الغروب فتصنعت الألم الشديد وطلبت منها منوماً قوياً ، فأعطتني ما طلبت وقالت : ستنام في راحة تامة حتى الصباح . وبعد قليل طلبت كوبة ماء لبلع المنوم ، وتظاهرت أني بلعته واستغرقت في النوم . وكان الظلام قد حل فتركتني وأغلقت الباب ، وما كاد صوت أقدامها يختفي حتى قمت مسرعاً ولبست القميص والبنطلون

والحذاء المطاط ونزلت من النافذة ، وقفزت من السور الخلفى ، وجريت مسرعاً . وطفت بشرقى المدينة بعيداً عن المساكن ، ومن فناء المحطة تسلمت السلة من «طه» ، وسلمتها «لزهدى» فى منزل الناظر . فأسرع بها إلى صالونه ، وسافر صباح اليوم التالى .

ولاحظت أثناء عودتى لفناء المحطة شبحاً يتلصص بجوار القهوة ويبدو أنه رآنى فاتجه نحوى ، فجريت مسرعاً بأقصى ما يمكن ودرت فى الحوارى والأزقة الجانبية متجنباً شارع الكورنيش ، وأسوان كما هو معلوم تنام من المغرب ما عدا رواد المقاهى ونزلاء الفنادق على شاطئ النيل . وعدت إلى غرفتى بالمستشفى ، ونمت فى فراشى كأن شيئاً لم يحدث ، وعادت الممرضة فى موعدها فرأتنى أغط فى نوم عميق .

وكان الدكتور « نسيم » قد قيد اسمى فى سجل المستشفى يوم دخولى وتاريخ العملية الجراحية ونوعها ومدة العلاج وأرسل الشهادة الطبية للمدرسة ، وبعد يومين فوجئت بدخول رئيس النيابة « حليم برسوم » ومعه مأمور المركز . والضابط الإنجليزى إياه والضابط « ك » وكاتب النيابة ، وأحضروا لهم منضدة جلسوا إليها ، فأعدت تمثيل التأوه والتوجع . وبدأ التحقيق وفتح المحضر ، وقبل أن أجيب عن الأسئلة سمعت شخصاً يسعل

فى الخارج عرفت من صوته أنه « حبيب » وقد تركوه خارجاً فأدركت أن فى الأمر خدعة . وبدأ رئيس النيابة يقول : وردت إشارة عاجلة من جناب مفتش الداخلية باتّهامك أنت وزميلك الأستاذ « حبيب » بأنك أطلعت بعض الأشخاص على خطاب ثورى وارد من القاهرة ، وقدمت لهم قوائم لجمع توقيعات بتأييد ما يسمى بالوفد المصرى ، مخالفين بذلك أمر وزارة الداخلية ، وحصلت فعلا على هذه القوائم مساء أول أمس وسلمتها لشخص آخر ثم اختفيت . قلت : وما الدليل وأين كان ذلك ؟ قال : تقرير البوليس يقول عند قهوة صاوا . والتقرير يقول إن زميلك اعترف ولا داعى للإنكار . . قلت : ومن الذى رآنى ؟ ولماذا لم يقبض علىّ متلبساً ؟ فاندفع « ك » يقول : أنا رأيتك بعينى هذه ، وأردت اللحاق بك ، ولكنك جريت أسرع منى وهربت . فوجهت الكلام للضابط الإنجليزى ، وقلت : إذا كان زميلى قد اعترف فهو وحده المسئول عن اعترافه ، وعلى فرض أن هذا حدث فنحن مصريون ولسنا إنجليزاً ولا صنائع إنجليز ، فيكون ما فعلنا واجباً وطنياً لا يعاقب عليه القانون . أما عنى أنا فاسألوا الدكتور مدير المستشفى والممرضة الراهبة التى تلازم غرفتى ، وجاء الدكتور « نسيم » وبعد أن اطلع على

التقرير قلب نظره فيهم وقال فى تهكم : ما هذا التخريف؟. الأستاذ « مظهر » دخل المستشفى منذ أربعة أيام كما هو ثابت فى السجل ، وأجريت له عملية جراحية خطيرة تستلزم ملازمة السرير أسبوعاً على الأقل ، وقد أخطرنا المدرسة بذلك وهو لا يزال يتألم من الخراج ، والممرضة تلازمه من قبل الغروب إلى منتصف الليل وتعطيه الدواء المسكن والمنوم ، وهى راهبة لا تكذب فاسألوها . ومن المستحيل أن يكون قد فعل ما ذكره التقرير . فقاطعه « ك » بانفعال شديد وقال : ولكنى رأيته بعينى ولكنه طار منى . فأجابه الدكتور ببرود واحتقار : لو حدث ما تتوهمه لمات فى منتصف الطريق من الاختناق أو من نزيف الجرح . يظهر يا حضرة الضابط أنك مصاب بالهلوسة ، أو إدمان المخدرات ، ترى وتسمع أشياء وهمية لا وجود لها ، وهذا مرض عصبى خطير يجب أن تبادر بعلاجه قبل أن يصل بك إلى مستشفى المجانين . وأصر الضابط الإنجليزى على سماع الراهبة ، فاستدعوها من الدير ، ولما علمت الموضوع انفعلت فى غضب زائد وقالت : دى كلام واحد شيطان مجنون وملعون ، فى اليوم دى كان تعبان كتير ، وقبل المغرب أخذ منوم شديد ، ونام حتى الصبح ، وأنا معاه لحد منتصف الليل .

فالتفت الضابط الإنجليزى إلى « ك » وقال فى حدة وشرر الغضب يتطاير من عينيه : « أنتو مش بوليس . أنتو حمير حشاشين كذابين ما تنفعوش أبداً . بكره راح نشوف » .
وابتلع « ك » الإهانة صاغراً وأقفل المحضر بالحفظ وانصرفوا .

وبعدها دخل « حبيب » الغرفة وأخطرنى باستجوابه فى النيابة وإنكاره كل شىء، وأنه لم يبارح الڤيلا بعد الغروب، وكان معه ضيوف قضوا السهرة هناك . وبعد ظهر اليوم التالى أخبرنى أنه عند دخول الڤيلا أمس وجد أدراج المكاتب مفتوحة والأوراق مبعثرة بدون نظام كأن يداً غريبة عبثت بها، وعلم من الحارس «ركابى» أن البوليس حضر أمس أثناء غيابه وفتش الڤيلا، ولما لم يجدوا ما يبحثون عنه خرجوا ساخطين ، وكذلك ذهبوا للمدرسة وفتشوا أدراجنا ودفاترنا وأوراقنا، وسألوا الناظر وسكرتير المدرسة والطلاب فأنكروا جميعاً علمهم بأى شىء، وهم صادقون فنحن تعمدنا أن لا نشرك معنا أحداً منهم زيادة فى الحيطة .

وأسدل الستار على هذه التجربة الخطيرة الموفقة التى مرت بسلام ، ولكننا خرجنا منها بنصر شعبى كبير ، فقد عرف الناس ما حدث ، وأن القوائم وصلت مصر بطريقة لا يعرفها أحد ، وأننا لعبنا بمفتش الداخلية والبوليس . وعرف الجميع أننا نائبان

عن زعيم الأمة والوفد المصرى الذى يضم كبار الشخصيات الوطنية ، ونحن لا بد أن نكون منهم بالطبع . فكنا نتلقى التحيات الحارة والاحترام الزائد أينما سرنا ، وفى نفس الوقت صرنا أبطالا فى نظر الطلبة . وبدأ الناس يتساءلون عنا . من نكون ، ولماذا قبلنا العمل بمدرسة حرة بأسوان ، وهى تعد منفى الموظفين ، وكيف وصلنا إلى هذه المكانة المرموقة عند الوفد فى القاهرة ونحن هنا ، لابد أننا مكلفون بمهمة وطنية خطيرة .

فرأينا الفرصة مناسبة لاستغلال هذه السمعة الطيبة لصالح القضية الوطنية ، فتخيرنا عشرين من أشد الأعيان والتجار الأسوانيين غيرة ووطنية ، ودعونا إلى وليمة غداء بالڤيلا . وحضروا فوجدوا الموائد وأدواتها الفضية والصينية والبلورية ومفارشها المزخرفة معدة أتم إعداد . وكلها منسقة فى الحديقة أجمل تنسيق ، والفضل طبعاً للجاسوس « ف . ف » وكان الطعام مشهياً من الخرفان التى أهداها « النجار بك » والسمك العظيم من مهندسى الخزان وأصناف البقالة والمعلبات والمشهيات من التجار الأروام ، والضيوف لا يعرفون . وبعد الغداء والقهوة والشاى والسجاير قضوا وقتاً طيباً استمعوا فيه أسطوانات « عبد الرحمن أفندي » . وكان منزل قومندان الجهادية المجاور للڤيلا قد أرسل

بعض الجنود المدربين على الخدمة .

وجاء دور السياسة . فحدثناهم حديثاً مستفيضاً عن القضية المصرية من ثورة عرابى للآن ، ودور الوفد المصرى فى الدفاع عنها وواجب كل مصرى وطنى صميم . وكانت معظم المعلومات جديدة عليهم بالطبع . ثم انصرفوا شاكرين حامدين . وقد ازدادت حيرتهم فى أمرنا . ولكنهم أصبحوا معنا قلباً وقالباً .

وكان قد حدث بعد خروجى من المستشفى أن أخذنا « أنا » و « حبيب» نعطى الطلبة دروساً مسائية مجانية لتعويض ما فاتهم من وقت أثناء غيابنا . وكان لهذا العمل أطيب الأثر فى نفوس الطلاب وأولياء أمورهم . وأصبحنا موضع التقدير والثقة التامة .

وبدأنا فى إيقاظ الوعى وتعبئة القوى الشعبية جهاراً غير آبهين بالحكومة ما دامت لنا صفة النيابة عن الوفد المصرى ، وليكن ما يكون . وقمنا بعدة زيارات للأعيان فى منازلهم والتجار فى متاجرهم وأخذنا نبصرهم بالموقف الدولى وقضية مصر والأحداث الجارية ، ونروى ما كان يحدثنا به « زهدى » من أخبار أكثر تفصيلا من أخبار الصحف ، مما أقنع الناس بأن لنا وسائل خاصة جبارة للاطلاع على ما جريات الأمور . ووقانا الله شر « ك » فقد نقل إلى جهة أخرى .

ووصلت الأخبار بطبيعة الحال إلى المدير فأراد أن يصانعنا فدعانا إلى تناول الشاى فى سرايه مع نفر قليل من الأعيان وكبار الموظفين ، فأدرنا دفة الحديث ، وطرقنا شتى الموضوعات السياسية والاجتماعية ، وعرجنا على قضية مصر ومهمة الوفد وشخصياته ، كل هذا والمدير ينصت ولا يبدى رأياً . وزاد هذا فى مكانتنا الشعبية لأن الناس عادة تعد دعوة المدير أكبر شرف يناله المواطن .

وفى أواخر ديسمبر قبل عطلة نصف السنة الدراسية أقمنا حفلا مدرسياً رياضياً لأول مرة فى تاريخ المدرسة ، بل فى مدينة أسوان ، حضره المدير وكبار الموظفين والأعيان والتجار وأولياء الأمور . وبرز الطلبة فى الألعاب الرياضية والمباريات التى دربتهم عليها بنفسى وشاركتهم فيهما ، وقد كنت وأنا فى سنهم من أبطال الجمباز بالمدرسة الخديوية كما ذكرت . ووزع المدير الجوائز على الفائزين ، وخرج الطلاب فى عرض رياضى بملابسهم الرياضية وجوائزهم وأعلامهم يطوفون المدينة فى شبه مظاهرة . وكان هذا يوم عيد لم تشهد المدينة له مثيلا من قبل ، وظل حديثاً للناس مدة طويلة . واستمرت الحال هادئة ساكنة إلى أن حضر « زهدى » فى يوم ١٥ يناير ١٩١٩ ، فظهرت الشرارة الأولى واندلع البركان .

سنة ١٩١٩

يوم ١٥ يناير ١٩١٩ سلمنا « زهدى » عدة نسخ من الخطب السياسية التى ألقاها « سعد زغلول » فى منزل « حمد الباسل » فى يوم ١٣ يناير ، ولم تشر إليها الصحف ، فوزعناها على الأصدقاء . وأكد لنا أن نذر السحب قد بدأت تتجمع فى سماء القاهرة ، وسوف تؤدى إلى انفجار مروع . . فبادرت وأحضرت والدتى وشقيقتى وأخى الصغير « مصطفى » لقضاء فصل الشتاء بأسوان بعيداً عن جو القاهرة ، ورأيت أن تنزل بمحطة أسوان بدلا من محطة الجزيرة القريبة من الفيلا لترى المدينة ، وعند وصول القطار دهش الواقفون على رصيف المحطة عندما رأوا سيدة بيضاء اللون ذهبية الشعر سافرة الوجه أوربية الملابس ومعها فتاة وصبى يشبهانها ، وظنوها سائحة إفرنجية . ولما رأونى أستقبلها وأقبل يدها وأقبل الصغيرين عرفوا أنها أمى فحيوها مبتسمين بإحناء الرأس وردت التحية بأحسن منها . وسارت بنا عربة الحنطور المكشوفة تخترق شارع النيل على مهل إلى الفيلا . وعلى مرأى ومسمع من الناس . وانتشر الخبر ،

وتهيبت سيدات أسوان الوطنيات من زيارتها أول الأمر . وجاء أصدقاؤنا الأروام ومعهم زوجاتهم للتحية والتعارف ، فقابلتهم أمى وأكرمت وفادتهم وحادثتهم بالإيطالية والفرنسية ، وحرصت على أن تطوى جمال الزوجات أمام أزواجهن ، ودعتهم لقضاء يوم الأحد المقبل فى ضيافتها ، فأحبوها وأعجبوا بها وبالصغيرين كل الإعجاب ، وخاصة وهى مصرية ، وراحوا يحدثون الناس عنها . وبعد قليل زارتنا أسرة « النجار بك » المجاورة ، ثم توالت زيارة سيدات أسوان . وكانت إذا نزلت أسوان وهى سافرة فى العربة المكشوفة لرد الزيارات أو للنزهة وقف الناس على طول الطريق يحيونها فى احترام ، وترد عليهم التحية فى ابتسام ووقار .

ودعانا المدير مرة أخرى لتناول الشاى وصعدت واللدى وأختى للطابق العلوى وبعد زيارة الحريم نزلت إلى مجلس الرجال وحيت وجلست وأخذت تشاركنا الحديث فى شتى الموضوعات ، وتدلى ببعض العبارات الإيطالية والفرنسية إلى جانب العربية ؛ فبهرت المدير والحاضرين ودعت المدير وأسرته للفيلا رداً للزيارة . وتناقل الناس حديث هذه الزيارة على عادتهم ، وبالغوا فيها .

وقد يجول فى خاطر القارئ الكريم أن الكثير من الأحداث

التى سردتها الآن لا صلة له بموضوع الكتاب، أو مع الكثير من التساهل والتسامح تعد حواشى هامشية لسيرة شخص وليس تأريخاً لثورة . ولكنه سيتبين فيما بعد أنها حلقات متصلة لا تكتمل السلسلة التاريخية بدونها ، وأنها مقدمات كان لها أثر بالغ فى توجيه مجرى الأمور ، وراوفد تصب فى نهر الثورة الجارف فتزيده عنفاً واندفاعاً .

وفى ٢٥ يناير وصل إلينا نبأ استقالة وزارة «حسين رشدى باشا» تضامناً مع الوفد . وأن «السلطان» أرجأ النظر فى هذه الاستقالة ثم قبلها بعد تردد طويل فى أول مارس . وعلمنا من «زهدى» أن الأمور تحرجت بين الوفد والسلطة العسكرية البريطانية ، وأن القائد العام للقوات البريطانية «الجنرال ولسن» استدعى «سعد باشا» وأعضاء الوفد يوم ٦ مارس فى مقر القيادة وتلا عليهم وهم وقوف بياناً باللغة الإنجليزية وإنذاراً ولم يستمع لردهم وأمرهم بالانصراف ، وفى ٨ مارس اعتقل « سعد باشا » و« محمد محمود » و« حمد الباسل » ونفوا إلى جزيرة « مالطة » .

وحضر «زهدى» لأسوان يوم ١١ مارس وأخبرنا أن مظاهرات ضخمة اجتاحت القاهرة يوم ٩ مارس احتجاجاً

على اعتقال « سعد » ونفيه ، وأن الإضراب العام قد أعلن
ووقعت مصادمات عنيفة دامية مع الجنود البريطانيين المسلحين
سقط فيها عدد كبير من الضحايا والشهداء ، رجالا ونساء
وأطفالا ، وأن مظاهرات أخرى بدأت فى المنيا وأسيوط يوم
١٠ مارس ، والبلاد كلها تستعد لثورة عارمة شاملة عما قريب ؛
وأن الوفد يأمرنا بإعداد العدة من الآن لمظاهرة شعبية كبرى
وإسقاط الحكومة المحلية إذا لزم الأمر وإقامة حكومة وطنية
شعارها « الهلال والصليب » من الشخصيات البارزة الوطنية
الجريئة . وكان هذا إجراء خطيراً وخاصة بعد أن أخبرنا ناظر
المحطة فى اليوم التالى أن السكة الحديد وجميع المواصلات
ووسائل النقل قد تعطلت تماماً بين القاهرة وقنا .

وقر الرأى بعد المناقشة واستطلاع رأى الأعيان والتجار
والموظفين الوطنيين على تنفيذ أمر الوفد ، وأن تقوم المظاهرة
يوم ١٥ مارس . وفوراً تبرع التجار بالقماش والأخشاب
والبويات والحبال وكل ما يلزم لعمل الأعلام واللافتات ؛
وتطوعت مدرسات الجمعيات الخيرية بعمل الأعلام ومدرسة
الصنايع بالخط . وطلبنا أن يكون على الأعلام رمز « الهلال
والصليب » وعلى اللافتات عبارات : تحيا الحرية . يحيا

الاستقلال ، يحيا الوفد ، تحيا مصر حرة مستقلة ، يسقط الاحتلال . وأعددنا قادة المظاهرة والمشرفين والخطباء والهتافة . ورسمنا خط سير المظاهرة ، وحددنا توقيتها وكل ما يلزم لنجاحها .

فتبدأ التجمعات فى الساعة التاسعة صباحاً أمام مدرسة الصنايع فى أقصى شمال المدينة ، وتقبل الجموع من طرق متفرقة . وتخترق المظاهرة المدينة من شمالها إلى جنوبها عن طريق شارع النيل ، مارة بدير الراهبات ، والمستشفى الأميرى ، والمدرسة الأميرية الابتدائية ، والبنك الأهلى ، وسراى المدير ، ثم مركز البوليس ، وسراى المديرية ، والمحكمة ، وفندق « جراند » ومحطة السكة الحديد ، ثم تعود من داخل المدينة عبر السوق « القيسارية » ، وتنتهى كما بدأت عند مدرسة الصنايع . أما فندق « كتراكت » فكان بعيداً عن خط سيرها ، وقد تحاشيناه لوجود عدد من الضباط الإنجليز وأسرهم به .

وحددنا مواقف الخطابة والخطباء حيث تقف المظاهرة فى بعض الأماكن الهامة لبضع دقائق تلقى فيها الخطب على الجماهير : « توفيق رشدى » أمام مدرسة الصنايع ، و« الشيخ إبراهيم »

مدرس اللغة العربية بمدرستنا أمام المدرسة الأميرية، و« أنا » أمام سراى المديرية ، و« حبيب » أمام المحكمة وفندق جراند، و« طه كحالة » بالسوق . وأخطرنا نظار المدارس والناظرات بالخطة لإعداد التلاميذ والطلاب واصطحابهم إلى الأماكن المعدة لهم . واخترنا عدة أشخاص ليكونوا ضباط اتصال ، وأرسلنا رسلا يطمئنون دير الراهبات والبنك والفنادق على حسن سير المظاهرة ، وعدم الخوف من أى إخلال بالنظام ، وأن تظل المقاهى والمتاجر والفنادق مفتوحة كالمعتاد . وقد استجاب جميع الناس من وطنيين وأجانب بروح طيبة عالية لأن الوعى القومى قد تيقظ وأيقن الشعب أنها معركة ضد الاحتلال والاستعمار وتملكتهم جميعاً روح الجهاد والتضحية .

وبدأ الاستعداد ليوم المظاهرة التاريخى المشهود على ساق وقدم : واضطرتنى الظروف لترك المدرسة بعد الحصة الأولى لمراقبة العمل بمدرسة الصنايع ومدرسة البنات . وكنت قد شرحت للطلبة خط سير المظاهرة وواجبهم فيها ورسمت خريطة حددت فيها أماكن الوقوف بعلامات وتركتها دون أن أمحوها . وحضر الناظر للفصل بعدي وسأل الطلاب عنها فأجابوا بأنها تمرين على قياس المسافات والأطوال ، وتكتموا الخبر عنه ، وعدت ظهراً فدعيت

لمكتب الناظر . وهناك وجدت أعضاء مجلس الإدارة للجمعية القبطية التى تملك المدرسة . وهم « منقريوس بك » رئيس الجمعية والأستاذ « رزق سليمان » المحامى والمهندس « لبيب نسيم » والدكتور « نسيم داود » وناظر المدرسة و « نجيب أفندى » سكرتير المجلس و « قسيس » الكنيسة وشخص آخر لا أعرفه . وبدأ المحامى استجوابى بقوله : لقد وصلت إلى علم المجلس أخبار متواترة عن أمور غريبة ومريبة تقوم بها أنت وزميلك الأستاذ « حبيب » ، وقد كلفنى مجلس الإدارة استجوابك عنها . أنت تعلم مبدئياً أن هذه مدرسة حرة تعتمد على إعانة الوزارة وتبرعات الأهلين التى تقبض منها مرتبك . والوزارة تحظر على المدارس وموظفيها الاشتغال بالسياسة . وأنت على نشاط سياسى ملحوظ يضر بسمعة المدرسة لدى الوزارة والأهالى ، وقد تقوم الوزارة بقطع إعانة المدرسة وربما بإغلاقها . وفوق هذا فقد تخلفت عن الدروس دون إذن من الناظر أو طلب إجازة مرضية إن كنت مريضاً حقاً . فأجبته : لا تنس أننى على العكس أحببت المدرسة ، ونفخت فى روحها وجعلتها مدرسة بمعنى الكلمة . وإن كان هناك واجب وطنى أهم من مدرستكم أرى أنه يتعين على القيام به فليس هذا من شأنكم ، وأنا مستعد

لتقديم استقالتى من الآن ، وعلى كل أنتم معذورون ، وأقدر موقفكم ، ولن أحاسبكم عليه فيما بعد ، إن الأهالى معى ما عداكم ، ومعى كل مواطن حر يحس فى قرارة نفسه بالدافع الوطنى لخدمة وطنه ، وتأييد الوفد المصرى الذى يطالب بحريتكم واستقلالكم وتخليصكم من عبودية الاحتلال والاستعمار . فإذا كنتم تخرجون على الإجماع ، وتتخلفون عن الركب فهذا شأنكم والشعب هو الذى سيحاسبكم على موقفكم منه . وتأزم الأمر وتحرج الموقف ، وارتبك الأعضاء كأنهم فهموا مرمى كلامى ، وخافوا على أنفسهم من غضب الشعب . وتصدى المهندس « نسيم » لإنقاذ الموقف فقال فى تحمس وشجاعة ، مع أنه متخرج فى إنجلترا وزوجته إنجليزية : أرجو أن ينتهى الموضوع عند هذا الحد . فأنا وأنتم وكل المواطنين المخلصين يعلمون تمام العلم أن « مظهر » و « حبيب » يقومان بعمل وطنى جليل باعتبارهما نائبين عن الوفد المصرى الذى يدافع عن حقوق البلاد ، وهذا شرف عظيم لهما . وتعلمون كذلك كم من الزعماء ضحوا بأنفسهم ، وقبلوا أن يقبض عليهم ، ويزجوا فى السجون ، وها هم زعماء مصر الشيوخ العظماء فى المنفى ، وسيحدث أكثر من هذا وأكثر ، وكله لمصلحة البلد . والأستاذ « مظهر » جدير

بأن نشكره ونقدره ونساعده ، وخاصة أنه لم يقصر فى واجباته المدرسية ، بل قام بما هو فوق الواجب .

وتذكر الناظر خريطة السبورة وقال : هل كانت الخريطة خط سير المظاهرة الذى أطلعت الطلبة عليه قبل أن تخبرنا . فأجبت ببرود : نعم وأرجو أن تشاركنى أنت وأعضاء المجلس فى خروج المدرسين يوم المظاهرة بنظام ، وتقودهم إلى مكانهم المحدد لهم بنظام ، ليشتركوا فى المظاهرة مع بقية زملائهم ، وإلا خرجوا عليك وذهبوا من تلقاء أنفسهم أوتعتبر المدرسة خارجة على إجماع الشعب ، وهذا واجب كل وطنى مسيحياً كان أو مسلماً ، إلا إذا كنتم تفضلون بقاء الاحتلال ، وستسمع يا حضرة الناظر دوى المظاهرة عندما تبدأ من الإسكندرية إلى حلفا . وكان « منقريوس بك » رجلا حكيماً محنكاً أدرك مغزى عباراتى فقال فى تؤدة : باركك الرب ووفقك فى خدمة البلد ، ولكن أرجوك ألا تعرض المدرسة للارتباك أو الخسارة . وانتهت الجلسة عند هذا الحد ، وخرج أعضاء المجلس واجمين ، وشكرت المهندس « لبيب نسيم » على وطنيته الصادقة .

وفى المساء عقدنا اجتماعاً للإخوان العشرين الممثلين لمختلف

قطاعات الشعب بمنزل الشيخ « مصطفى قديس » المتطرف عن البلد ، وعرضنا الموضوع كله تفصيلا ، وقلنا إن الدين يأمرنا بالجهاد فى سبيل الله والوطن . ولو أدى الأمر إلى إسقاط الحكومة كطلب الوفد ، و بعد مناقشة قصيرة والرد على بعض الاستفسارات اتخذت القرارات الآتية بالإجماع وأقسمنا اليمين على تنفيذها :

١ ــ تأليف مجلس وطنى من الأعضاء الحاضرين يتولى الحكم المحلى بمديرية أسوان .

٢ ــ تعيين لجنة تنفيذية عليا رباعية برئاسة الأستاذ « محمد مظهر سعيد » وعضوية الأستاذ « محمد حبيب أحمد » نقيب المرغنية والشيخ « مصطفى قديس » ممثل الأعيان والتجار الأسوانيين و « جبالى عبد النبى جبالى » ممثل العربان .

٣ ــ تعيين فرقة من الحرس الوطنى المسلحين المتطوعين لحراسة الفيلا مركز اللجنة التنفيذية العليا وتلقى الأوامر وتبليغها .

٤ ــ الاستيلاء على جميع دور الحكومة وإقالة مدير المديرية وتعطيل المحكمة واستمرار جميع الموظفين فى أداء أعمالهم وصرف مرتباتهم الشهرية كالمعتاد من الأموال الأميرية

حيثما وجدت .

٥ ـ المحافظة على خزان أسوان والنزلاء بالفنادق .

٦ ـ حلف اليمين على القرآن والإنجيل باحترام هذه القرارات وتنفيذها بكل دقة وأمانة وإخلاص مهما كانت الظروف والنتائج حتى الموت .

٧ ـ إعلان هذه القرارات للشعب أمام سراى المديرية يوم المظاهرة .

٨ ـ إبلاغ هذه القرارات للوفد المصرى بكل وسيلة ممكنة .

وبعد حلف اليمين وكتابة عدة نسخ من القرارات رأست الجلسة . واخترنا المندوبين لإبلاغ القرارات للمواطنين كل فى منطقته . واقترحت أن يبقى الحكمدار الوطنى المخلص بسراى المديرية مشرفاً على البوليس والإدارة . وأن يتولى الأستاذ « حبيب » رقابة المواصلات والفنادق ، و « أحمد حسنين » رقابة الخزان ، فوافقوا بالإجماع ، وقلت إننا فى حاجة للسلاح وخاصة أعضاء اللجنة الرباعية أما بقية الأعضاء فلديهم سلاحهم فتبرع كل من المهندس « أحمد حسنين » و « الشيخ عبد القادر » بمسدسين ووصلتنا المسدسات بالفعل ومعها كمية كبيرة من الطلقات .

وتمت كافة الترتيبات للمظاهرة المرتقبة وفق الخطة المرسومة ،

وشددت على المشرفين فى حفظ النظام والتزام الهدوء حتى لا يفلت الزمام من أيديهم فيندس بينهم بعض الغوغاء ويحدثون الشغب والفوضى وربما التخريب . وكان الحكمدار ينتظرنى بفندق « جراند » فاختليت به وقلت له : المدير رجل لا يطمأن إليه أما أنت فالجميع يعرفون صادق وطنيتك ، ستقوم صباح الغد المظاهرة الشعبية الكبرى لتأييد الوفد فماذا يكون موقف البوليس إذا ما رأى المدير أن يفضها بالقوة ؟ هل تشتبكون مع الأهالى وأنتم قلة رغم سلاحكم ؟ أخشى إن حدث هذا فقد يحصل ما لا تحمد عقباه ، ونحن نريد أن ينتهى اليوم بسلام ، فابتسم وقال فى هدوء : نحن على علم كامل بكل شىء ، وكذلك مفتش الداخلية . وقد اتصل بالمدير اليوم وأمره بفض المظاهرة بالقوة من نقطة البدء ومكان التجمع والقبض على الزعماء وخاصة أنتم الأربعة . ولكنى خالفته وأنذرته بالضرر البالغ الذى يحدث حتما من تعرض البوليس للشعب المتحمس الثائر ، وقلت له : أنا لا أتحمل المسئولية ، ولو تحملها هو وأصدر الأمر بنفسه عرض حياته وأسرته لخطر محقق . وأن الذى يفض المظاهرات فى مصر ، كما علمنا ، ليس البوليس المصرى وإنما الجيش البريطانى ، فإن أراد المفتش أن يفض المظاهرة فليحضر بنفسه

على رأس العساكر الإنجليز . وأكدت له أن البوليس سيقف على الحياد . ويساعد على حفظ النظام ويحمى المظاهرة من الغوغاء . ولا أظن المدير – وهو رجل جبان كما نعرف – يجرؤ على تغيير رأيه ويصدر الأمر بالمنع . ولو فعل لخالفته وليكن ما يكون ، وأقسم بالله على ذلك . وانصرف .

فاتصلت بالضابط « على سعد » تليفونياً وذكرت له حديث الحكمدار ، وشرحت له الموقف وأبديت تخوفى من تردد المدير ، ومن حدوث أى صدام بين البوليس والشعب ، رغم تأكيد الحكمدار وخاصة وأن الشعب يكره البوليس بطبعه . وكذلك احتمال اعتداء الغوغاء ، وربما بتدبير من المدير ، على المتاجر والفنادق وغيرها من المبانى التى يجب المحافظة عليها ، فإذا استطاع الجيش أن يساعدنا فإنه يؤدى للوطن خدمة جليلة ، فأمهلنى ربع ساعة ، طلبنى بعدها وأخبرنى أن قومندان أورطة الخزان رجل مسالم لا يحب أن يتورط فى أى عمل خارج عن حدوده ، ولكنه فى نفس الوقت يرحب بالثورة ويكره الإنجليز ويتضايق كل الضيق من نفيه فى أسوان بعيداً عن أسرته ، وساخط على الحكومة ، ولهذا أقام نفسه بإجازة عارضة وترك الأمر لنا .

واتفقنا أن تنزل قوة كافية لأسوان . مشاة وفرساناً . بملابس الميدان والسلاح الكامل . ويترك الباقى لحماية الخزان . على أن يتم ذلك فجراً حتى يكون الجنود فى الأماكن المخصصة لهم قبل الثامنة صباحاً . وتقوم بعض السرايا بالمرابطة أمام المبانى الهامة لحمايتها . والبقية يقفون على جانبى شارع النيل ويرافقون المظاهرة . والمهم حماية منطقة الخزان خوفاً من قيام العمال هناك بمظاهرة غير منظمة قد تنقلب إلى فوضى أو تمتد إلى مستعمرة الخزان وتتهجم على المهندسين والموظفين الإنجليز ، ويحسن التنبيه على هؤلاء بأن لا يبارحوا مستعمرتهم الخاصة بهم .

وكلفت « حبيب » بمقابلة قاضى المحكمة « على حيدر حجازى — باشا فيما بعد » — ويتفق معه على أن يفتتح الجلسة كالمعتاد وعندما تصل المظاهرة إلى سراى المحكمة تقف ، وتهتف بحياة العدالة والقضاء النزيه وحياة القاضى ، ويحضر « حبيب » ويطلب منه أن يقفل الجلسة باسم الشعب ويسجل ذلك فى المحضر الرسمى ، وبعد ذلك يستمر فى نظر القضايا على أن تصدر الأحكام باسم — شعب مصر الحرة المستقلة — فوافق على الجزء الأول فقط ، وفضل إغلاق المحكمة ، فوافقه

حبيب» على ذلك — ثم توجه إلى فندق « جراند » و « كتراكت »
وقابل الضباط الإنجليز والنزلاء الأجانب وشرح لهم بالإنجليزية
الغرض من المظاهرة وطمأنهم على حياتهم وممتلكاتهم . وبما أن
المواصلات مقطوعة تماماً ولا سبيل للانتقال إلى القاهرة أو
السودان . فسيبقون ضيوفاً معززين مكرمين إلى أن تنجلى
الأمور . ولهم أن يتريضوا ويتنقلوا خارج الفندق كما يحلو لهم
ولكن بملابس مدنية . وطلب من إدارة الفندق دفتراً جديداً من
دفاترها يدونون فيه كل طلباتهم يومياً وسيقوم هو شخصياً
بالاطلاع عليه ويحقق مطالبهم . ومقترحاتهم على قدر الإمكان .
فشكروه شكراً جزيلا . وافتتح كبيرهم الدفتر بكلمة شكر وتقدير
أمضوها جميعاً بأسمائهم وألقابهم ورتبهم العسكرية ونجحت
المهمة .

١٥ مارس ١٩١٩

فى الساعة السابعة من صباح هذا اليوم اجتمعنا نحن الأربعة أعضاء اللجنة التنفيذية العليا بالڤيلا ، وتوجهنا إلى مدرسة الصنايع فى شبه مظاهرة صغيرة وحولنا حرس مسلح من أربعة من رجال « النجار بك » ، وكان كل شيء هادئاً . وكنا قد طلبنا من « طه كحالة » الانتظار على مدخل أسوان من طريق الشلال ليعلمنا بمجرد وصول الأورطة . فرأيناه يجرى نحونا مسرعاً ويصرخ متهللا من بعيد : وصلت . وصلت . . وأخذت السرايا تحتل أماكنها المخصصة لها أمام المبانى الهامة والفنادق ، وانتشر الباقون على جانبى شارع النيل بين رجال الشرطة ، الذين نظروا إليهم فى دهشة ووجوم ثم انفرجت أساريرهم وتبادلوا التحية فرحين ، فقد أنقذهم جنود الجيش من موقف خطير كانوا يخشون عواقبه لو ركب المدير رأسه .

وفى الساعة الثامنة بدأت الجموع تفد إلى مدرسة الصنايع ، وتتخذ أماكنها فى نظام وهدوء بتوجيه المشرفين ، ووزعنا عليهم الأعلام واللافتات . وسلمنا الموكلين بالهتاف أوراقاً صغيرة

كتبت عليها العبارات . وتجمع بقية الأهالى على جانبى شارع النيل وفى المتاجر والمقاهى والبيوت وشرفات الفنادق فى هدوء تام وترقب وانتظار لساعة الصفر .

وقبل التحرك جاء « محمد على سعد» راكضاً بجواده وأخبرنى أن المدير كان أمام باب سرايه متهيئاً لركوب عربته إلى سراى المديرية . فلما شاهد جنود الجيش المسلحين تملكه الفزع وناداه وبادره قائلا : لماذا نزلت الأورطة إلى أسوان بسلاحها بدون إذنى؟ أنا مدير المديرية والحاكم المسئول آمرك أن تعود بالأورطة إلى الخزان فوراً . وسأبلغ الرئاسة العليا فى القاهرة . فأجابه ببرود : أنا لا أتلقى أوامرى منك فافعل ما بدا لك إذا استطعت. ولكنى أنذرك إذا أمرت البوليس بالتحرش بالمظاهرة فسأتدخل بالقوة لحماية الشعب ، وعليك وحدك أن تتحمل المسئولية . وقد تعرض حياتك وأسرتك لخطر بالغ . وأنصحك أن تعود إلى المنزل لأن ظهورك الآن يثير المتاعب . ما لم ترأس المظاهرة. فبادر الحكمدار يقول للمدير : إن شاء الله يتم كل شىء فى هدوء وسلام ، ونحن مع الشعب على كل حال . فاشتد غضب المدير وقال فى حدة : إذن تحمل أنت المسئولية ، ولن أذهب للمديرية ، وعليك أن تبلغ رؤساء المظاهرة الأربعة إياهم أنى

أريد مقابلتهم بالمنزل الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم ، ودلف إلى منزله كالكلب يجر ذيله بين رجليه .

وبعد قليل جاء الحكمدار على جواده وأخبرنى بما حدث وقال : يحسن أن تحضروا مسلحين لإرهابه ولا تخشوا شيئاً فسأكون هناك . وفى الساعة التاسعة ألقى « توفيق رشدى » كلمة للمدارس حث فيها رجال التعليم والطلبة والطالبات على النظام وأداء الواجب الوطنى ، وألقيت « أنا » كلمة قصيرة شرحت فيها قضية مصر ودور الوفد المصرى فى الدفاع عنها وواجب المواطنين نحو الثورة ودعوتهم للتضحية والفداء فى سبيل الله والوطن ، وانطلقت الهتافات فرددتها الجماهير بصوت كالرعد وشاركهم فيها الجيش والبوليس وزغردت النساء .

وبدأت المسيرة فى مقدمتها مدرسة الصنائع ، وفى المؤخرة أعضاء المجلس الوطنى ، وأمام الدير وقفت الراهبات الإيطاليات بملابسهن البيضاء يحملن العلم الجديد « الهلال والصليب » وأخذن يهتفن بالإيطالية « تحيا مصر ، يحيا الشعب ، ليبارككم الرب » فوقفت المظاهرة قليلا لرد التحية . وأمام المستشفى الأميرى خرج الأطباء والموظفون والمرضى للهتاف والتحية . ووقفنا قليلا أمام سراى المدير فكان الهتاف مدوياً ، ورأيت من خلف

المشربية العليا وجوهاً وعيوناً تتطلع عرفت من بينها المدير بسيجارته التى تهتز بين شفتيه . ثم وقفنا أمام سراى المديرية فصعد « حبيب » ومعه بعض المساعدين ورفعوا عليها علم الثورة بين الهتافات المدوية والزغاريد . ثم نزل فتلا قرارات المجلس الوطنى فقابلها الشعب بحماس جنونى منقطع النظير . تنفيساً عن الحرمان والكبت الطويل . وتجمع نزلاء فندق « جراند » فى الشرفة فألقيت عليهم كلمة قصيرة بالفرنسية والإنجليزية أطمئنهم فيها على أنفسهم فهم ضيوفنا المعززون المكرمون . فصفقوا طويلا وهتفوا بحياة مصر . واشتد التعب . « بجبالى عبد النبي » وبدأ يسعل سعالا حاداً وينفث دماً فصعدنا به إلى غرفته بالفندق . وفى المحكمة تم الأمر حسب الاتفاق . وفى محطة السكة الحديد كان قطار الأقصر على الرصيف . وفجأة رأيت جزاراً من أسوان معروفاً بشراسة الخلق اسمه «برجى — برقى» يجرى نحو القطار ومعه بعض الغوغاء وأدركت غرضه فاعترضت طريقه وقلت له : اعقل يا « برقى » نحن لا نريد إتلافاً وتخريباً . فقال فى عناد: «اشمعنا فى جنا (قنا) وسيوط كسروا البواجير وجطعوا التلغراف والتلفون . هو احنا مش رجالة زيهم » ودفعنى جانباً — فأشرت لضابط الجيش المرابط بالمحطة

فأسرع هو وبعض الجنود وقبضوا عليه وأوسعوه ضرباً. فتدخلت لإطلاق سراحه بعد أن اعتذر بأنه ظن أنه كان يؤدى واجباً وطنياً ، وكان هذا هو الحادث الوحيد الذى كاد أن يفسد المظاهرة .

وعادت المظاهرة إلى مدرسة الصنائع مخترقة « القيسارية » حيث كان « طه كحالة » يخطب التجار عن الثورة والوفد ؛ وبعد الإذن بانتهاء المظاهرة استمر الطلبة وقتاً طويلا يطوفون بشوارع المدينة هاتفين مهللين ، وانصرف الأعيان والتجار والموظفون مشكورين . وتفرق أعضاء المجلس الوطنى كل لقطاعه لتلاوة القرارات وشرحها ، وبقينا نحن للعناية بالمريض .

وحضر الضابط « محمد على سعد » مستأذناً فى العودة إلى الخزان مع الأورطة ، بعد أن تمت المهمة بنجاح ، فأخبرته باجتماعنا مع المدير بعد الظهر وما قاله الحكمدار عن سوء نيته ، فاستقر الرأى على أن يبقى « بدر الدين » ومعه سرية لحراستنا والتدخل عند اللزوم ، وذهبنا نحن الثلاثة « أنا » و « مصطفى قديس » و « حبيب » مع الضابط والسرية إلى الفيلا لتناول طعام الغذاء والاستراحة . وتوجهنا فى الموعد المحدد إلى سراى المدير ، فدخلنا وتركنا الضابط والسرية بالخارج . فوجدنا المدير

جالساً فى صدر الصالون وبجواره الحكمدار وبعض ضباط البوليس بمسدساتهم . وجلسنا نحن إلى أريكة فى مواجهته . وبدأ الهجوم قائلا : أنا بصفتى المدير المسئول عن المديرية أعتبركم خارجين على الحكومة والنظام العام . وهذه جريمة خطيرة أنتم تعلمون فداحة عقوبتها . وأنا مضطر لإبلاغ السلطات العليا . ولهذا أصدرت أمرى بإلقاء القبض عليكم أنتم وزميلكم المريض فى الفندق بعد أن يشفى وإيداعكم السجن فوراً . إلى أن تصل الأوامر بشأنكم . وها هم الضباط مسلحون ومأمور السجن حاضر لاستلامكم فكونوا عقلاء وسلموا سلاحكم إن كان معكم سلاح بالتى هى أحسن ولا تقاوموا .

فأجبته مبتسماً : لعلك لم تسمع قرارات المجلس الوطنى . فها هى ، وتلاها « حبيب » بصوت مرتفع فاصفر وجهه واهتز شاربه الكث الكبير ، وتلفت حواليه مستنجداً بالحكمدار والضباط ، الذين أطرقوا برؤوسهم . وأضفت قائلا : وبناء على هذه القرارات وإرادة الشعب فأنت الآن يا سعادة المدير السابق مواطن عادى خاضع لأوامر المجلس الوطنى ، وعليك أن تلزم بيتك دون اعتراض أو مقاومة ، ولا تتصل بأحد بصفتك الرسمية التى زالت عنك ، وسنقوم بكل طلباتك ونصرف لك

مرتبك أول كل شهر كالمعتاد — وأخرجنا مسدساتنا ووضعناها أمامنا على المنضدة وقلت : إذا خطر ببالك أن تستخدم القوة فى منزلك هذا فأنت وحدك المسئول عما سوف يحدث ونحن مسلحون كما ترى ، وفوق هذا فالجيش يحيط الآن بالمنزل وأنت لا سلطان لك عليه . وناديت الضابط « بدر الدين » فحضر مسرعاً ومعه بعض الجنود وأدى التحية العسكرية وقال : « أفندم » أوامرك . فنظر المدير للحكمدار الذى أحنى رأسه موافقاً ، فأخذ المدير يراوغ وتكلف الابتسام، ثم نادى يطلب القهوة والشاى والسجاير . فطلبت من « بدر الدين » أن يبقى معنا ويبقى الجنود بالخارج للحراسة .

وبعد تناول القهوة والشاى قال المدير فى صوت رقيق عليه مسحة من التكلف كأنه يستجدى العطف : اسمع يا « حبيب » و « مظهر » أنتم زى أولادى تماماً . وأنا أنصحكم نصيحة خالصة لوجه الله . أنا لست أقل وطنية منكم ولكن تصرفكم عمل جنونى ، ماذا تستطيعون أن تفعلوا أمام قوة الإنجليز . سيأتون بقواتهم عما قريب ويحتلون البلد ويحاكمونكم عسكرياً ويعلقونكم على المشانق كما فعلوا فى دنشواى . انظروا لبعيد وفكروا فى مستقبلكم ولا تضيعوا أنفسكم . أنا والله العظيم ثلاثاً لست خائناً

للوطن وأكره الاحتلال والإنجليز ومفتش الداخلية الحاكم بأمره وأتمنى خروج الإنجليز النهارده قبل بكره ، ولكنى أكبر منكم سناً وأكثر خبرة، وأحسب حساب العواقب ، والشيخ « مصطفى » يعرف تماماً بما فعل الإنجليز فى السودان فى ثورة المهدى وهنا فى ثورة عرابى . فرد الشيخ « مصطفى » : ولكن الجيش المصرى هو الذى مهد الطريق وضحى ، ولولاه لما استطاع الإنجليز أن يدخلوا السودان ، وأن يبقوا فيه يوماً واحداً ، وعاد المدير يقول : انظروا للمستقبل . واستفيدوا من دروس التاريخ . شوفوا إزاى هزموا ألمانيا العسكرية القوية فى الحرب . فقال « حبيب » : قد يكون هذا صحيحاً ، وكل هذه النتائج متوقعة ، ولكن لابد للحرية من ثورات وتضحيات ، وما دمت تذكر التاريخ وأنا أستاذ تاريخ ، هل نسيت أن ثورات الجيش مع الشعب هى التى طردت الهكسوس والفرس واليونان والرومان ونابليون من مصر ؟ وقد كانوا فى أيامهم أقوى من الإنجليز فى أيامنا . ولو استمر المصريون يشعلون نار الثورة كل سنة مهما قدموا من ضحايا وشهداء لخرج الإنجليز من زمن بعيد . نحن لا نحارب السلطان والإنجليز كما فعل عرابى مع الخديو ، وإنما نحن نرفع صوت مصر عالياً ليسمعه العالم

كله . ونؤيد الوفد الذى اختاره الشعب ليدافع عن قضية الوطن . والمظاهرة كانت مثلا رائعاً للنظام وانتهت بسلام . والأمر الآن بيد الشعب ، وسيخرج الإنجليز من مصر يوماً ما بإذن الله . فقال المدير : أنا أعلم أن البلاد كلها فى ثورة وقد قمتم بواجبكم اليوم ، وكفايه لحد كده ، فاتركوا الأمور تجرى فى مجراها الطبيعى وتعود كما كانت . وبلاش هذه القرارات ، وإن سألنى جناب مفتش الداخلية فسأقول له إنها كانت مظاهرة بسيطة قام بها بعض الطلاب والشبان ولا شأن لكم بها . فقاطعته قائلا : أبداً ، نحن نريد أن يعلم جنابه ، إذا قدر له أن يعلم ، أن الشعب كله هو الذى قام بها ، وأن الشعب الآن هو صاحب السيادة . فعاد يقول : أنا أقسم بشرفى بل أقسم بالطلاق ثلاثاً من أهل بيتى أنه إذا حدث وعاد الإنجليز بقواتهم المسلحة إلى أسوان وسألونى سأنكر كل شىء وأقول إنه لم يحدث أى شىء على الإطلاق ، لا مظاهرات ولا خلافه . فتدخل الحكمدار وقال : الحمد لله لم يحدث أى اعتداء أو إتلاف أو تخريب ، وأنا مع المظاهرة من أولها لآخرها ، وكانت على أتم ما يكون من النظام والهدوء ، بل كانت فى الحق مثلا رائعاً للمظاهرة الوطنية الشعبية ومفخرة لأسوان . وأردت إنهاء الحديث فقلت للمدير :

لقد أقسمت يميناً مقدسة وأنت وحدك تتحمل الوزر إذا حنثت بها . ولكن مع تقديرنا لنصائحك لابد من تنفيذ قرارات المجلس الوطني إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا . وأنا بدورى أقسم لك نيابة عن المجلس أنه لن يصيبك أى مكروه ما دمت تلتزم الهدوء والسكون . وستكون البلد بإذن الله فى أمان تام . وتصافحنا وخرجنا منتصرين ، وعاد الجيش إلى ثكنات الحزان مشكوراً محموداً .

ودعونا المجلس الوطنى للاجتماع فى مساء اليوم التالى بالڤيلا، ووزعنا الأعمال والاختصاصات ،وحددنا لكل عضو واجباته فى العهد الجديد ، وتم الرأى على أن يبقى كل شىء على ما هو عليه ، فيتولى الحكمدار شئون الأمن والبوليس والإدارة وتستمر المصالح الحكومية والمدارس كما هى ما عدا المحكمة ، ويشرف المجلس على كافة شئون الحكم وتصدر القرارات بأغلبية الأصوات،وتقوم اللجنة التنفيذية العليا بإصدار الأوامر اللازمة لتنفيذ قرارات المجلس . وبدأ أصحاب الشكاوى والمظالم يفدون على الڤيلا فكنا ننظر فيها ونحلها فوراً بعيداً عن الروتين الحكومى المعهود ، وشعر الناس لأول مرة بميزة الحكم الشعبي المحلى، فكانوا ينفذون القرارات والأوامر دون أى معارضة.

وحضر المهندس « حسنين » وهو بادى القلق والاضطراب وأنبأنا بشىء بالغ الخطورة وهو أن مهندسى الخزان وموظفيه الإنجليز حملوا السلاح وتحصنوا فى مستعمراتهم ووضعوا كميات ضخمة من الديناميت فى بعض عيون الخزان بنية نسفه إذا بدرت بوادر أى مظاهرة شعبية أو محاولة لاقتحام المستعمرة. وقد حاول أن يقنعهم بخطأ مسلكهم ويطمئنهم على أنفسهم فليس هناك أية نية للتحرش بهم ، وهناك ضباط إنجليز ينزلون مع أسرهم فى فندق « كتراكت » بأسوان وهم فى غاية الأمان والسلام ، ولكنهم لم يقتنعوا ، بل إنهم بدءوا التحرش بالعمال والموظفين المصريين واستفزازهم بالصلف والغطرسة والتهديد . فكلفنا كتيبة الخزان بفرض الحصار على المستعمرة والتنبيه عليهم بعدم مباشرة أعمالهم أو الخروج من دائرة المستعمرة ، وستجاب لهم كل مطالبهم وندبر لهم احتياجاتهم وتصرف لهم مرتباتهم ، ويتولى المهندسان « أحمد حسنين » و « محمد عبد الله » إدارة شئون الخزان ، ولا يسمح لأحد بدخول منطقة الخزان إلا بترخيص خاص من المهندس المصرى المسئول، وتم فوراً نزع الديناميت من عيون الخزان، ولو شاء القدر الغاشم أن يتم تدبير الإنجليز الشيطانى ونسف الخزان أو أى جزء منه لكانت كارثة كبرى

على البلاد ، وفى الحق إن « أحمد حسنين » كان بطلا يستحق تقدير الوطن .

وقدرنا أن القوات البريطانية لا بد أن تصل يوماً ما إلى أسوان ، إما من حلفا بحراً وبرًّا أو من القصير برًّا أو من الأقصر إذا فشلت الثورة وأصلحت السكة الحديد ، وخشينا أن نفاجأ على غرة ، فأمرنا ناظر محطة الأقصر أن يخطرنا فوراً تلغرافيًّا بمجرد وصول أى قوة إنجليزية ، وكذلك مكتب التلغراف « بعنيبه » فى النوبة ، وكذلك قبيلة « البشارية » المنتشرة بين أسوان والسودان عن أى قوة تصل عبر الصحراء . ونبهنا على القائمقام « سيد لبيب » ضابط الاتصال بمحطة الشلال ، بقطع الاتصال بالسودان نهائيًّا ، والرد عند الاستفسار بأن كل شيء هادئ وطبيعى ، والبواخر القادمة من حلفا يستقبلها ويحجزها ويمنعها من العودة ، ويخطرنا بأسماء ركابها وعددهم لندبر وسائل نقلهم إلى أسوان وأماكن الفنادق اللازمة لهم ، وسيكون تحت رقابة ضباط الجيش والرقيب العام الأستاذ « حبيب » وأقسم الرجل على احترام هذه الأوامر وتنفيذها .

٢٠ مارس ١٩١٩

فى يوم ٢٠ مارس ١٩١٩ أخبرنى « سيد لبيب » أن السير « برنارد باشا » السكرتير المالى لحكومة السودان وصل إلى الشلال بالباخرة من حلفا ، ومعه بعض الضباط الإنجليز وأسرهم فى طريقهم إلى إنجلترا لقضاء إجازاتهم ، وكأن أخبار الثورة لم تصلهم على حقيقتها . فأخبرهم أن المواصلات مقطوعة من قنا ، ولكنهم أصروا على السفر ، فأعددنا لهم قطاراً خاصاً ينقلهم رأساً إلى الأقصر دون التوقف فى أى محطة خوفاً عليهم من غضب الأهالى ، وأخطرنا ناظر محطة الأقصر باتخاذ التدابير اللازمة لحمايتهم وسافروا بسلام بعد أن زودناهم بكل ما يحتاجون إليه .

وفى يوم ٢٢ مارس عادوا من الأقصر فأرسلنا حرساً ينقلهم إلى فندق « كتراكت » وأعددنا لهم غرفهم ونزلوا فيها على الرحب والسعة ؛ فسجلوا شكرهم فى دفتر الفندق بعد أن سمعوا من النزلاء السابقين ما فعلناه من أجل راحتهم وحمايتهم . ويبدو أن حديث النزلاء « لبرنارد باشا » عنا أثار فضوله ، ودفعه حب الاستطلاع إلى معرفة الشىء الكثير عنا وعن حركتنا ، لأن

أخبار مصر التى وصلت السودان كانت قليلة لا تغنى ولا تشبع . وكانت معظم المعلومات مشوهة مغرضة بحيث تقلل من شأن الثورة ولا تكشف شيئاً عن حقيقة الوضع فى مصر ، وقد قابلها الحكام الإنجليز هناك وخاصة العسكريين بعدم الاهتمام بل بالشيء الكثير من الاستهتار كعادتهم : فهم مشبعون بآراء « اللورد كرومر » التى طالما رددها فى تقاريره السنوية عن مصر ، وهى أنها بلد الفلاح الأمى الفقير المريض المتواكل القدرى الذى لا يمكن أن ينهض ويتطور ويرتقى ويقف على قدميه إلا بفضل الاحتلال البريطانى ، وتصريح « اللورد كيرزون » بأن الثورة المصرية شعلة تطفئها بصقة . واعتقادهم أن المصرى مهما تعلم ولو حتى فى بلادهم وتمدين وتحضر فى الظاهر ووضع البيبة فى فمه وحول لسانه بالرطانة واصطنع الأساليب الغربية فى حياته ، فكل همه وأقصى أمانيه أن يتمرغ فى تراب الميرى وأن يكون موظف حكومة خاضعاً ذليلا يتفانى فى خدمة سيده ورئيسه الإنجليزى السوبرمان . وأن تحت ملابسه الإفرنجية جلد الفلاح المستعبد من آلاف السنين .

وأرسل لنا رسولا يدعونا لتناول الشاى معه فى الفندق أو يزورنا هو بالفيلا ، فأجبنا بأنه يسعدنا أن نزوره أولا

احتراماً لمقامه . وهناك قادنا الخدم إلى الحديقة المطلة على النيل حيث أعدت مائدة كبيرة للشاى ، وقف حولها فى انتظارنا عدد من الضباط من مختلف الرتب يتوسطهم «الباشا» ومعهم سيدة عجوز وقور وشابة جميلة رشيقة ، وأحسست بمجرد الاقتراب منهم أن عيونهم مسلطة علينا تدرس حركاتنا وسكناتنا وتقيسنا بمقاييس السلوك الإنجليزية . ومن حسن الحظ أن المستر «فيرنس» ناظر الخديوية كان فى كل أسبوع يدعو نخبة من أبطال الرياضة وخاصة فريق الجمباز ، وأنا منه ، لتناول الشاى بمنزله الملحق بالمدرسة ويحتفى بنا هو وزوجته وينتهز الفرصة ليعلمنا آداب السلوك الإنجليزية وتقاليدها ويدربنا عليها ، ومنها أن الزائر الإنجليزى العادى يصافح مضيفيه وبقية الحاضرين واحداً واحداً كما يفعل المصريون ويقول : كيف حالك ، أنا سعيد أو مسرور بلقياك ، وغير هذا من عبارات المجاملة ، أما الإنجليزى المثقف الراقى فيصافح المضيف فقط ويحنى رأسه انحناءة خفيفة للبقية ويرد على التحية بعبارة واحدة تقليدية (هاو . دو . يو دو) ، ومنها أنه لا يجلس قبل جلوس السيدات ، وعلى المائدة يفسح الكرسى لجارته حتى تجلس ويصلح لها الكرسى ويهتم بها ويتحدث إليها بصوت منخفض

إلا إذا اشترك الجميع فى حديث عام . ويقدم لها ما تحتاج إليه وهكذا ، ولهم تقاليد وطقوس خاصة بالشاى يتمسكون بها كما يفعل العرب بطقوسهم . فإذا اجتاز الزائر هذه الاختبارات بنجاح انشرحت صدورهم له وارتفعت الكلفة وعاملوه دون تكلف على قدم المساواة ولو كان عدوًّا أو زنجيًّا . وهم أجهل الناس باللغات الأجنبية ويحترمون من يتقن لغتهم ويزداد إعجابهم إذا كان يعرف أكثر من لغة .

وقد هرع إلينا « الباشا » محيياً فرددنا التحية وحيينا الآخرين على طريقتهم وجلسنا إلى الشاى ، السيدة العجوز على يمينى والباشا على يسارى وأمامنا جلس « حبيب » وعلى يمينه الشابة الجميلة وعلى يساره أكبر الضباط رتبة ، واجتزنا امتحان الشاى بأمان وسلام . فظهرت علائم الرضا على وجوههم . والإنجليز يقولون : إن مشاكل الإمبراطورية تحل على فنجان شاى ، وقد بدءوا أول الأمر يتحفظون فى كلامهم ولا يسألون أسئلة شخصية أو مباشرة وإنما يتحدثون أحاديث عابرة عن الجو والصحة ويضبطون انفعالاتهم فلا يبدو على أساريرهم شىء مهما كان الأمر مثيراً ، ويتصنعون البرود الذى اشتهروا به ، وإذا أعجبتهم نكتة تثير الضحك عند غيرهم ابتسموا ابتسامة

باهتة لا لون لها كأنها كليشيه مصطنع . فإذا ما حل الشاى عقدة الألسنة وذاب الثلج كما يقولون وأعجبهم سلوك الزائر ولغته عادوا طبيعيين دون تكلف أو تحفظ .

وهكذا بعد الشاى جلسنا فى مقاعد مريحة أعدت فى نصف دائرة تطل على النيل .

وبدأت الشابة الحديث وتنهدت وقالت : ما أجمل نيلكم وأعذب ماءه وأطيب هواءه وأجمل منظره، إنى أحسدكم عليه وسأظل أحلم به عندما أعود إلى وطنى إنجلترا . فابتسمت وقلت : هناك مثل قديم يقول : من يشرب من ماء النيل مرة فلابد أن يعود إليه . ولعل المستر «هابيب» — أى «حبيب» — أستاذ التاريخ والجغرافيا يتحفنا بكلمة عن النيل .

وانطلق « حبيب » وأفاض فى الحديث بلغته الفصيحة السليمة عن تاريخ النيل وعادات المصريين القدماء وطقوسهم فى مواسم النيل ، وسأل أحد صغار الضباط : هذا المعبد الكبير الرائع فى الجبل الذى رأيناه من الباخرة من بناه ؟ وكيف بنى ؟ لا شك أن أجدادكم الفراعنة كانوا جبابرة وفى غاية المهارة . فذكر لهم «حبيب» تاريخ معبد «أبوسمبل» المحفور فى الجبل . والتقطت منه الخيط وأخذت أتحدث عن حضارة

الفراعنة التى هى أم حضارات العالم وأثرها فى جميع البلاد والشعوب ، فهى التى علمت العالم القراءة والكتابة والحساب والعلوم والفنون والآداب . واستشهدت بأقوال كبار علمائهم « السير فلندرس بترى » و « برستيد » و « شمبليون » الفرنسى . وبدت الدهشة على وجوههم عندما قلت : إن الحضارة الإغريقية التى يعتبرها الغرب أصلا لعصر النهضة وحضارة أوربا الحديثة إنما هى وليدة الحضارة المصرية القديمة ، فقد كان « أفلاطون » و « أرشميدس » و « فيثاغورس » طلاب علم فى جامعات مصر الفرعونية يجلسون تحت أقدام الكهنة والأساتذة المصريين ويأكلون من فتات موائد علمهم . بل إن النبى موسى كان مصريًّا تعلم فى جامعات مصر ، والتوراة الأصلية لغتها هيروغليفية وليست عبرية ومزامير « داود » وأناشيد سليمان مقتبسة من أناشيد فرعون مصر « أخناتون » أبى التوحيد والديمقراطية والاشتراكية . وقال ضابط آخر : تريد أن تقول إن مصر القديمة كان بها جامعات بالمعنى الذى نعرفه . نحن نعلم أن الجامعات الأوربية وليدة عصر النهضة الأوربية . فقلت : كم يزيف الغرب التاريخ ليثبت تفوقه على الشرق ! وحضارة مصر محفوظة مسجلة على

الآثار قبل أوربا بآلاف السنين تقف دليلا قاطعاً على كذب الغرب . إن أقدم جامعاتكم « كمبردج » التى تعلمنا فيها أنا وزميلى يرجع تاريخها إلى القرن الحادى عشر الميلادى ، أما مصر الفرعونية فقد كان فيها خمس جامعات منذ أكثر من خمسة آلاف سنة ، وتدرس فيها جميع العلوم والفنون والآداب وآثارها باقية إلى الآن ،وعرب الأندلس هم الذين أنشأوا أول جامعة حديثة قبلكم فى «ساليرنو » بإيطاليا ، وعلى غرارها أنشئت جامعات إيطاليا ثم فرنسا ثم إنجلترا . فقاطعنى « برنارد باشا » قائلا : تقول أنت وزميلك تعلمتما فى كمبردج . فأجبت : نعم : نحن « كانتاب » (اسم اصطلاحى يطلقه طلاب كمبردج » على أنفسهم) وكنا ندرس هناك لدرجة « تريبوس » وجاءت الحرب فعدنا إلى مصر ونرجو أن تهدأ الأمور فنعود ثانية لاستكمال دراستنا . وهنا ذكرت زميلى « حسنين فهمى » بالخير ، فلولاه ما وجدت الفرصة لأستعرض معلوماتى التى حفظتها عنه . فقال : لقد كنت طول الوقت أعجب من لغتكما الراقية ونطقكما السليم ، فأنتما تتكلمان الإنجليزية كأرقى الإنجليز المثقفين ، والآن عرفت السبب . فقلت : كلا يا سيدى فنحن تعلمنا اللغة هنا فى مدارسنا المصرية قبل السفر

لإنجلترا ودرسنا أصولها ومتنها وأدبها ومسرحيات شكسبير وغيره من كتابكم الكبار . ولم تزدنا « كمبردج » علماً باللغة أو العلوم أو الآداب أو حتى آداب السلوك وإنما أفادتنا فيما هو أهم وهو دراسة الحياة الإنجليزية على الطبيعة والنظم الاجتماعية والديمقراطية والسياسية .

قالت السيدة العجوز : مدهش جداً . هل أنتم حقيقة مصريون ؟ ومعذرة لهذا السؤال الشخصى . فأجبت : بكل تأكيد يا سيدتى نحن مصريون إلى عظمة الظهر ، كما تقولون . دمنا من ماء النيل وجلدنا من تراب مصر . فهزت رأسها وقالت: إذن فأنتم من طبقة الأرستقراط ما دمتم قد تعلمتم فى « كمبردج » فقلت : كلا يا سيدتى مرة أخرى ، فنحن من أوساط الناس ومثلنا فى مصر كثير بل أرقى منا وأكثر علماً . وليس لدينا طبقة أرستقراطية بالمعنى المعروف عندكم . ورتبة « بك » أو « باشا » ليست ألقاب شرف ونبل موروثة مثل « لورد » و « إيرل » و « فيكونت » الإنجليزية ، وإنما هى علامات تقدير وتكريم من الدولة للموظف الذى تفوق فى عمله أو المواطن الذى قدم الخير لبلاده ، وهى رتب شخصية لا تورث ، وهنا نحن مدرسان من أسرة متوسطة كما ترين ، حقيقة كان

جدى الكبير «لطيف باشا» حاكماً عاماً للسودان سنة ١٨٥٠ قبل الثورة المهدية ، وجد «حبيب» من كبار نقباء الميرغنية فى السودان . و «الباشا» يعلم بالتأكيد مكانة الميرغنية المقدسة، ولكن أجدادنا شيء ونحن شيء آخر . أما عندكم فالابن الأكبر لأسرة النبلاء يرث اللقب والأملاك والثروة كلها مع المقعد الوراثى فى مجلس اللوردات ، ولو كان شاباً جاهلا مستهتراً أو منحرفاً، بل إن البنت قد ترث إذا لم يكن هناك ولد . فقال الباشا : أظنك محقاً فى بعض ما قلت، ولكن هذه التقاليد موروثة ، ونحن شعب يقدس التقاليد القديمة ويتمسك بها ، ولعل هذا من أهم أسباب مجد الإمبراطورية وعظمتها . فقلت : نعم إن مظاهر تغيير الحرس فى قصر بكنجهام وحفلات التتويج وملابس حراس برج لندن وشعر القضاة الأبيض المستعار جميلة ورائعة ، وإن الحارس الذى عين ليقف على صخرة «دوفر» ويتطلع إلى المانش وشاطئ فرنسا المقابل لينذر بمجيء أسطول «نابليون» لا يزال فى مكانه محافظة على هذا التقليد ! فضحك «الباشا» والسيدة العجوز، وسأل أحد الضباط فى تعجب : هل هذا صحيح ؟ فرد عليه : مع الأسف الشديد نعم! فهذه هي الناحية المضحكة من جمود التقاليد . وهز رأسه وأشار

بأصبعه للضباط وقال : ليس عجيباً أن يعرفا تاريخ بلدهم ولكن العجيب أن يعرفا عن تاريخ بلدنا وعاداتنا وتقاليدنا أكثر مما يعرفه الكثير منا . والحق أقول إننا نحن الإنجليز قوم مغلقون فى عاداتنا وتقاليدنا، فنحن لا نتقن لغة أجنبية والذى يعرف منا لغة أجنبية ينطقها باللكنة الإنجليزية . ونحن لا نهتم اهتماماً كبيراً بشئون العالم الخارجى ودراسة الأمم والشعوب الأخرى . وهذا نقص كبير فى الثقافة ، واحمر وجه صغار الضباط لهذا التصريح ، خجلا أو غضباً،فقلت لأخفف وقع هذه العبارة عليهم : لكنكم معذورون يا « باشا » ، ولو كنا مكانكم لفعلنا نفس الشىء ، فأنتم أصحاب أكبر وأعظم إمبراطورية تملك خمس العالم ، ولا تغيب الشمس عن أملاكها ،ولكم فى الشئون العالمية أكبر وزن وآخر كلمة ، وتحركون السياسة العالمية فى الاتجاه الذى يخدم مصالحكم دون معارض أو منافس ، فطبيعى أن تعتقدوا أنكم جنس ممتاز «سوبرمان» وشعب الله المختار وبوليس العالم . والسوبرمان بطبيعة الحال يعيش فى برجه السماوى العاجى، ولا يهتم بشئون الدول والشعوب الأخرى ولغاتهم وتقاليدهم ، وهذه ألمانيا الدولة العسكرية التى كانت تثير الرعب فى قلوب أوربا قال فيلسوفها « نيتشه » إن الجنس الجرمانى أرقى جنس ، والدم

الآرى أنقى دم، وكان نشيدها «ألمانيا فوق الجميع» تحدت بريطانيا فهزمت فى الحرب وتحطمت. فمن أولى بلقب السوبرمان غيركم.

ويبدو أن هذه العبارة الأخيرة قد فتحت باب السياسة على مصراعيه بعد أن كانوا يتحرجون عن الدنو منه طوال الجلسة، إذ قال أحد الضباط الصغار فى تحمس زائد : شكراً لك على هذه المجاملة، ولكن إذا كنت تعتقد هذا حقًّا فلماذا تكرهون الإنجليز وتثورون ضدهم ، وتحاولون طردهم من البلاد مع أن بريطانيا كانت دائماً تحاول إنقاذ مصر من ظلم المماليك ونابليون ، واحتلت البلاد فعلا لإنقاذها من ثورة الفلاحين ودكتاتورية عرابى وحماية الخديو الحاكم الشرعى للبلاد ، وتنشر الأمن وترفع مستواها فيعم الرخاء. والاحتلال إجراء مؤقت على كل حال إلى أن يصبح الشعب أهلا لحكم نفسه بنفسه ، فقلت فى نفسى : ها هم بدءوا يفصحون عما فى نفوسهم من شعور مكتوم بعد أن انتهت جولة المجاملات، ورأيت نظرة التحدى فى عيون الكثير منهم ، كأن اللحظة المرتقبة قد حانت. فقلت فى بساطة : إن ساستكم أضافوا إلى ما قلت أسباباً وجيهة أخرى : حماية مصالح الدائنين الأوربيين والأقلية القبطية والجاليات الأجنبية وامتيازات الأجانب وقناة السويس إلى حماية طرق المواصلات الإمبراطورية إلى الهند درة التاج البريطانى .

ها أنت ترى أننا نعلم كل الحجج والدوافع الاستعمارية . ولكن شاعركم الأكبر « شكسبير » يقول : الاسم ؟ ماذا فى الاسم ؟ إن الوردة وردة تحت أى اسم ! كذلك الاحتلال والاستغلال والاستبداد والاستعمار كلها أسماء لشىء واحد لا يقبله أى مواطن حر يحب بلده ولو كان هذا البلد جاهلا فقيراً مريضاً متخلفاً ، كما وصف اللورد « كرومر » مصر . فالحرية التى تدينون بها وتقدسونها وتستميتون فى الدفاع عنها والحفاظ عليها هى أثمن شىء فى الوجود ، وبدونها تكون الحياة عدماً . وهى الحق الطبيعى لكل فرد وكل شعب . فهل من حق المعلم أن يمتلك التلميذ لأنه يعلمه ؟ وهل من حق الطبيب أن يسرق المريض لأنه عالجه ؟ لقد قرر مؤتمر الصلح — وإنجلترا مشتركة فيه — حق كل شعب فى تقرير مصيره .

وانبرى « حبيب » يقول : إن تاريخكم أنتم القديم والحديث يسجل لكم أمثلة رائعة من البطولة والكفاح فى سبيل الحرية ، ففى القرن الأول قبل الميلاد كانت الإمبراطورية الرومانية سيدة العالم ومركز الحضارة ، وقوانينها ونظمها الإدارية والاجتماعية أرقى ما يكون . وكانت بريطانيا فى ذلك الوقت جزيرة صغيرة مجهولة فى بحر الشمال ومنقطعة عن كل معالم الحضارة وعاطلة من كل

مظاهر الرقى ، وأهلها البريتون الأصليون بدائيون متوحشون شبه عرايا يعيشون على صيد البر والبحر ، ويعبدون النار والأحجار والأشجار ، ويخضعون لسلطان الكهنة « الدرويد » ويقدمون الضحايا البشرية كزنوج أواسط إفريقيا ، وكانوا فى الحروب لا يعرفون سوى العصا والقوس والسهم ، وقوادهم يصبغون أجسادهم باللون الأزرق ويصيحون صيحات الحرب كالحيوانات الضارية ، وما زلتم للآن تقولون إن الدم الأزرق يجرى فى عروق ملوككم ، وفتح « يوليوس قيصر » جزيرتكم واحتلها الرومان فأنشأوا المدن وعبدوا الطرق وسنوا القوانين وأدخلوا معالم الحضارة لأول مرة ، ومع ذلك وقفت ملكتكم « بوديسيا » بفلول عصاباتها المسلحة بالأسلحة البدائية تحارب الرومان بفيالقهم المنظمة وأسلحتهم الجبارة ، شبراً شبراً من أجل الحرية ، ولو كانت حرية بدائية . وعندما كانت أسبانيا ملكة البحار والمستعمرات فى الشرق والغرب وأصبح أسطولها العملاق خطراً على ملاحتكم وسفن صيدكم جندتم سفن القرصان وجعلتم منها أسطولا تصدى لأسطول أسبانيا وحاربه بلا هوادة وسجل لكم التاريخ انتصاراتكم العظيمة على الأرمادا وفى جبل طارق والطرف الأغر ، وعندما اعتدى « نابليون » على حرية بلاد أوربا واستعبد شعوبها ،

وكانت الحروب بعيدة عنكم لا تمسكم بسوء ، ألبتم عليه الدول وحاربتموه وهزمتموه فى معركة « واترلو » ونفيتموه ، وحطمتم أسطورة الجبار الذى لا يقهر ، وفى هذه الحرب الأخيرة التى كلفتكم الكثير من الأموال والأرواح والتضحيات حتى انتصرتم كان سبب دخولكم الحرب الدفاع عن حرية بلجيكا التى تعهدتم بحمايتها . وهكذا تحملتم من أجل حرية بلاد غير بلادكم ، والدفاع عن الحرية الفردية والسياسية والاجتماعية فضيلة من أكبر فضائلكم ، فلماذا تبررون اعتداءكم على حرية مصر ، هل لأنها بلاد شرقية مسلمة وليست بلاداً غربية مسيحية مثل بلجيكا وبلاد البلقان التى حررتموها من الحكم العثمانى .

وتدخلت فى الحديث لأريح « حبيب » قليلا وقلت : كيف إذن نلام على الدفاع عن حريتنا واستقلالنا ، إننا لا نكره الإنجليز كشعب وأفراد ، ونحن على العكس نقدركم ونحترمكم لما وجدناه فيكم من صفات طيبة لمسناها ونحن فى بلادكم : رجولة وصدق وأدب وديمقراطية واحترام للرأى ، وحفظ الوعد وتمسك بالكلمة ، وإنما نكره السياسة الاستعمارية أياً كانت ، ويبدو لنا أن ساستكم من طراز ومعدن آخر غير معدن الشعب البريطانى الأصيل . إن عرابى كان يعبر عن شكوى الشعب ،

والجيش من حكم الخديو الدخيل الفاسد وظلم الأتراك والشراكسة للفلاحين أصحاب البلاد الأصليين وتغلغل النفوذ الأجنبي ، وقام بثورة إصلاح وعدالة ، ولم يخطر بباله أبداً أن يتحرش ببريطانيا ويحاربها بجيشه القليل وموارده المحدودة وهى بأساطيلها الجبارة وجيوشها الجرارة ، فتحرشتم أنتم بنا وتدخلتم ظلماً وعدواناً بدون أى مبرر شرعى لتحموا عرش الخديو وبذلك ناصرتم الفساد والظلم وحاربتم الإصلاح والتحرر والعالم كله يعرف أن حجة التدخل باطلة وأنها مجرد ذريعة لتحقيق الحلم الذى ظل يراودكم ألف عام منذ الحروب الصليبية التى قادها ملككم « ريتشارد قلب الأسد » وهو استعمار مصر والسودان ومد إمبراطوريتكم الإفريقية من القاهرة إلى الكاب كما تقولون . وقد تعهدت حكوماتكم المتعاقبة على اختلاف ألوانها الحزبية من أحرار ومحافظين لمصر وللدول وأقسمت بشرف التاج البريطانى أن الاحتلال مؤقت وسيعقبه الجلاء حتماً . وها أنتم بعد ستة وثلاثين وعداً وعاماً ما زلتم باقين ، بل زدتم على ذلك أن وضعتم مصر تحت الحماية ، وطالب بعض ساستكم ونوابكم فى مجلس العموم بضمها للإمبراطورية ، رغم وعدكم بضمان استقلال مصر بعد النصر فى الحرب وزوال السيادة العثمانية

الاسمية ، اعترافاً بجميلها وما قدمته من مختلف المعونات والمساعدات والأموال والتضحيات ، ولولاها لما تم للجنرال « أللنبي » فتح فلسطين وهزيمة الأتراك ، بشهادته هو نفسه ، ولولا الخوف من إثارة الدول الأوربية الاستعمارية الأخرى وتنازعها على مناطق النفوذ واقتسام الغنائم لابتلعتم مصر وجعلتموها مستعمرة بريطانية . وعندما طالبكم نواب الأمة ووفدها المفوض من قبل الشعب بإنجاز الوعد نفيتم الشيخ العجوز « سعد زغلول » زعيم الأمة إلى جزيرة « مالطة » وسلطتم جنودكم ببنادقهم ورشاشاتهم يحصدون أرواح المواطنين العزل ، رجالا ونساء وأطفالا ، وهم يعبرون عن رأيهم فى مظاهرات سلمية؛ بالله عليكم ماذا كنتم تفعلون لو أن ألمانيا انتصرت فى الحرب واحتلت بلادكم ، وادعت أنها أرقى منكم حضارة ومدنية ، وأنها تحتل بلادكم احتلالا مؤقتاً حتى تتطوروا وتتقدموا وتتشربوا الحضارة الألمانية . هل كنتم تستكينون أم تحاربون بقدر ما تستطيعون أو على الأقل تتظاهرون كما نفعل نحن . فلماذا تحلون لأنفسكم ما تحرمونه على غيركم ، إن الشعب المصرى لا يفكر ولا يقصد بل لا يستطيع أن يحارب بريطانيا وجيش الاحتلال ويخرجه من مصر بالقوة ، ولكنه يقوم بمظاهرات

سلمية عزلاء يؤيد بها الوفد المصرى الذى يدافع عن قضية البلاد بالطرق المشروعة ويرفع الصوت عالياً لينبه الرأى العام العالمى إلى عدالة مطلبه وقضيته . ومن يدرى فلعل صوت الأحرار الإنجليز الذين لا تخلو منهم بريطانيا يرتفع مدوياً ويحمل حكومتكم على تغيير سياستها الغشوم حيال مصر ، ولو فعلت لكسبت صداقة مصر والعالم الإسلامى . ولو تركت المظاهرات وشأنها لمرت بسلام لأنها مجرد تعبير عن حرية الرأى كما تفعلون فى « هايد بارك » ،ولكن تصدى الجنود الإنجليز المسلحين للشعب الأعزل وإطلاق الرصاص والمدافع الرشاشة فى الشوارع بدون حساب وسقوط الأحرار والشهداء صرعى تحت أقدامهم هو السبب المباشر الذى فجر بركان الثورة .

ويبدو أن هذا الدفاع الحار ألجمهم فأطرقوا هنيهة ، وقطع « الباشا » حبل الصمت بقوله : يبدو أن مصادر معلوماتنا خاطئة لا تكشف الحقائق . قالت : بل على العكس إنها تعرف الحقائق ، ولكنها تتعمد تضليل الشعب البريطانى لخدمة الاستعمار . فقال : أفهم مما تقول أن « سعد زغلول » زعيم الأمة له من كبر السن وعظيم مكانته وواسع خبرته باعتباره وزيراً سابقاً ووكيلاً للبرلمان ما يضطره لتزعم الحركة وتحمل نتائجها ،

وأنتم شبان صغار السن وتنقصكم خبرته فلماذا قمتم بالدور الخطير الذى قد يعرضكم للمتاعب وأنتم فى أول الطريق ، فقلت : إن السن لا دخل له فى الموضوع وإنما المهم الإيمان بالوطن وحريته والثقة بالنفس والتمسك بالمبادئ القويمة . وقال «حبيب» فى تاريخنا القديم والحديث أمثلة عدة لبطولة الشباب فأمير طيبة الشاب «أحموس» تولى القيادة بعد استشهاد أخيه الكبير «كاموس» وطرد الهكسوس من مصر بعد أن احتلوها قرنين من الزمان . والشاب المصرى «مصطفى كامل» اهتزت منابر أوربا لخطبه ومقالاته وعدته إنجلترا خطراً عليها . و «الإسكندر المقدونى الأكبر» ألم يكن فاتح البلاد وسيد الدنيا وهو شاب صغير ؟! وأضفت أنا : وأنتم ألم تختاروا الشاب ابن الواحدة والعشرين «وليم بت» رئيساً للوزارة وكان من أفضل رؤساء الوزارات . و السيد «المسيح» عليه السلام ألم يبشر برسالة المحبة والعدل والسلام وهو فى الثلاثين . فربت «الباشا» على يدى وقال فى رقة وإعجاب : إن ثقافتكم الواسعة تسعفكم بالجواب السديد عن كل سؤال . لقد أفحمتمونا وكنا نجهل كل هذه الأمور ، وعذرنا أننا عسكريون علينا أن ننفذ أوامر السياسيين والحكام المدنيين ، أصابوا أم أخطأوا ، وأنا فخور

بمعرفتكما وأتمنى لو كنتما إنجليزيين. فقال «حبيب» : بالعكس نحن اثنان فقط ولديكم من أمثالنا الكثير ولكنا نكون نحن أسعد حالا لوكنتم أنتم مصريين . وضحكنا كثيراً لهذه المجاملة المتبادلة.

وطلب « الباشا » الشراب قبل الانصراف ، وجاء الساقى بالويسكى للرجال ونبيذ « البورت » للسيدتين. وأراد الساقى صب الصودا فى كأسى ، فقلت : بل أفضل الماء ، ألستم تقولون إن الصودا الجيدة تفسد الويسكى الجيد . فضحك « الباشا » طويلا ، وقال : حتى هذه تعرفها . وقالت السيدة العجوز : ولم لا ؟ حتى ملابسه إنجليزية . فأجبت : إنى أستورد ملابسى من إنجلترا لأنها جيدة ورخيصة .

والحقيقة أن الملابس الإنجليزية هذه لها قصة مخجلة لم أستطع أن أسردها لهم ، فقد كان فى إنجلترا شركتان كبيرتان لهما عملاء فى مصر . إحداهما « جرونز آند لندلى » للملابس ، والأخرى « ليناريس » للأحذية ، وكان العملاء يحصلون على عناوين الشبان المثقفين وخاصة رجال التعليم ، فيرسل وكيل الشركتين لكل منهم دفاتر بها عينات الأقمشة وكتالوجاً للملابس وآخر للأحذية وأوراقاً خاصة بأخذ المقاسات . وكنا نجد الأقمشة والأحذية متينة ورخيصة ، بل إن سعرها فى مصر

أرخص منه فى إنجلترا ذاتها، فنرسل الطلب بما نختاره وندفع جنيهاً واحداً عربوناً، وبعد قليل يصل طرد البريد وبه بدلة ومنديل ورباط رقبة وشراب من لون أو نسق واحد، ثم الحذاء. وندفع الباقى عند استلام الطرد ، ونتيجة كل هذا خمسة أو ستة جنيهات. ولم نكن نفطن إلى أن هذا كله كان جزءاً من مخطط اقتصادى استعمارى محكم لقتل الصناعة الوطنية ومنافسة المنتجات الأجنبية الأخرى ، إلى أن جاءت ثورة ١٩١٩ ، قرر الوفد مقاطعة البضائع الأجنبية وخاصة الإنجليزية .

وقد شرحت لى زوجتى ، المربية العربية الجامعية الأولى المرحومة الأستاذة « نظلة الحكيم » الدور العظيم الذى قامت به المرأة المصرية فى ثورة ١٩١٩ . فالحركة النسوية التى بدأت بزعامة « صفية هانم زغلول » حرم « سعد باشا » و « هدى هانم شعراوى» زوجة « على شعراوى باشا » رأت من أول واجباتها بعد القيام بدورها الفدائى فى المظاهرات أن تساعد على تنفيذ قرار الوفد ، فانقسمت المدرسات والطالبات إلى جماعات ، وكانت زوجتى يومئذ طالبة بالمعلمات السنية ، وتقوم كل جماعة بمحاصرة متجر إنجليزى — مثل « موروم » و « دافيس براين » و « روبرت هيوز » و « لندن هاوس » — ويمنعن كل مصرى

من الدخول احتراماً لقرار الوفد . وقد أفلست معظم هذه المحلات أو كادت تفلس نتيجة للمقاطعة . وأكثر من هذا . عند إعلان الإضراب العام لموظفى الحكومة . كن يرابطن أمام أبواب الوزارات والمصالح الحكومية ومعهن سلال بها خبز وصندوق به قروش . فإذا وقع فى أيديهن موظف متسلل وبخنه وقلن له : إن كان يريد أكلا فهذا هو الخبز ، وإن كان يريد فلوساً فهذه هى القروش ، فيخجل الموظف وينصرف .

وانصرفنا من فندق « كتراكت » بعد هذا الحديث المتشعب الممتع مشيعين بالإعجاب والتقدير . . ودعوناهم للشاى بالڤيلا غداً بعد الظهر رداً للزيارة ، على أن يحضروا بالملابس المدنية ، وفى الموعد المحدد ذهبنا للفندق بعربتى حنطور واصطحبنا « برنارد باشا » والسيدة والآنسة وضابطين آخرين فقط لأن البقية لم تكن لديهم ملابس مدنية ، وعند مدخل الحديقة الكبير وقف الجميع يتأملون الحديقة والڤيلا وطاحونة الهواء ، وقالت السيدة العجوز والدهشة تلوح على محياها : أنتم تعيشون هنا . قلت : نعم والحمد لله . فقالت : ما أسعدكم بهذا المكان الهادئ الجميل فإننا الآن فى قصر ريفى بإنجلترا . أؤكد أنكم أرستقراط ولو أنكرت ذلك . وألقوا نظرة جانبية على مائدة الشاى

التى أعدت فى الحديقة أكمل إعداد بالأدوات الفضية وطقم الصينى الفاخر والزجاج البلـورى والمفارش المطرزة فازدادوا دهشة وإعجاباً ، والفضل مرة أخرى لعدوهم الجاسوس الألمانى « ف . ف » .

وذهبنا رأساً إلى الشرفة الكبيرة المطلة على الحديقة بمقاعدها الوثيرة وبعد أن جلسوا واطمأنوا حضرت والدتى تخطر على مهل من داخل الڤيلا ومعها شقيقتى وأخى « مصطفى » وهم جميعاً بالملابس الإفرنجية ، وكانوا صورة مشرفة للجمال الشرقى الأبيض ، فوقف الضباط وأحنت والدتى رأسها قليلا فى اتجاه السيدتين ، وحيتهم بالإيطالية والفرنسية ، فقدمتها لهم وقلت : هذه والدتى « مسز سعيد » تحييكم بالإيطالية والفرنسية لأنها لا تعرف الإنجليزية ، وأكملت التعارف . واقتربت أمى ومدت يديها للسيدة العجوز والآنسة وأحنت رأسها للباقين ، فقبلتها السيدة العجوز وأفسحت لها بجوارها وجلس أمامهما « حبيب » للترجمة ، واحتضنت الشابة أختى وأجلستها بجوارها ، وأخذت تتأمل جمالها وسألتها عن اسمها وصحتها فأجابتها بالإنجليزية ، وكذلك فعل « الباشا » مع « مصطفى » ولما أجابه بالإنجليزية على صغر سنه قال : والأولاد أيضاً يتكلمون الإنجليزية . مدهش جداً . فأجاب « مصطفى » بالإنجليزية : نعم يا سيدى نحن نتعلمها فى المدرسة

والبيت . فقالت السيدة العجوز: الآن آمنت أنكم أتقنتم الإنجليزية فى مصر وليس فى كمبردج، ولكنى ما زلت لا أصدق أنكم مصريون.

وجاءت القهوة التركية فقلت : هذا هو التقليد المصرى للترحيب فى أول الزيارة ولكم أن ترفضوها إذا شئتم والشاى معد على كل حال فقال « الباشا » : بالعكس أنا أحب هذه القهوة التركية وأفضلها على « الجبنه » السودانية والقهوة الفرنسية . وقدمنا السجائر الإنجليزية والسيجار . وأرادت والدتى أن تشبع فضولهم فدعتهم للمرور داخل الڤيلا ، فجاسوا خلال غرف الاستقبال والكتب والطعام بالدور السفلى وغرف النوم بالدور العلوى حتى دورات المياه، وكان نظام الأثاث وترتيبه على أتم ذوق أوربى بطبيعة الحال. ثم خرجنا للحديقة لتناول الشاى، وقد زودناه بأنواع مختلفة من الحلويات الشرقية التى أقبلوا على التهامها بلذة وشغف.

ورأيت « الباشا » صامتاً يفكر تفكيراً عميقاً وعلى شفتيه سؤال حائر . فقلت له : أرى على وجهك سؤالا محيراً . فقال : الحريم. أين الحريم إذن ؟ فتصنعت العجب وقلت : ليس عندنا حريم « يا باشا » هذه أسطورة قديمة عفا عليها الزمن، نعم كان نظام الحريم موجوداً عندنا وربما عندكم أيضاً من زمن بعيد، ولكنه زال بعد أن تعلمت المرأة وخرجت للحياة. وها نحن أسرة مصرية

متوسطة متعلمة ، رجالا ونساء وأطفالا ، ونعرف لغة وبعضنا أكثر من لغة أجنبية غير لغتنا . فضربت السيدة العجوز المنضدة بيدها وقالت : إذن كل ما سمعنا وقرأنا عن مصر كذب واختلاق مخجل معيب . ولا بد أن أطلع الناس على الحقيقة عندما أعود لإنجلترا .

وبعد الشاى وما دار فيه من أحاديث عابرة لحظ « الباشا » جزءاً من الحديقة معداً للعبة « الكروكيه » التى تلعب بالكرات الخشب ومضارب اليد ، وهى اللعبة المفضلة عند كبار السن الإنجليز . فقلت : تحب أن تلعب ؟ قال : بكل سرور وشغف . وتألف الفريق منى ومن والدتى و« الباشا » وأحد الضابطين . وجلست السيدة العجوز على كرسى وثير قرب الملعب للمراقبة . وكانت تصفق بشدة كالأطفال كلما أصابت والدتى المرمى وتهتف : تحيا المرأة المصرية . أما الآنسة والضابط الآخر فقد اصطحبا أختى وأخى لنزهة نيلية بالقارب . وعادت فقبلت الصغيرين وقالت : ليتنى آخذهما معى . فابتسمت وقلت : ولماذا لا تبقين هنا معهما على الرحب والسعة ؟

ولا أستطيع أن أعبر عما بدا عليهم من سرور وانشراح وحسن تقدير عند انصرافهم ، فقد قبلت السيدة العجوز والدتى عدة مرات واحتضنتها وكذلك فعلت الآنسة معها ومع الصغيرين

وانحنى « الباشا » انحناء شديداً لوالدتى وشد على أيدينا بحرارة وقبل الصابطان يد والدتى . ورافقناهم حتى الباب الكبير للحديقة ، وقال « الباشا » هامساً فى أذنى : عن إذنك سأكتب « لأوين باشا » عن هذه الزيارة الممتعة وانطباعاتها فى نفسى ولن أنساها ما حييت . وركبوا العربات وهم يلوحون بأيديهم ومناديلهم ونحن نجاوبهم و والدتى تقول : أريڤيدرشى . أى إلى اللقاء ، حتى توارروا عن الأنظار . واعتبرنا هذه الزيارة المتبادلة مكسباً عظيماً لنا وللقضية الوطنية .

وفى اليوم التالى أعددنا لهم باخرة تقلهم جميعاً مع نزلاء فندق « كتراكت » بناء على طلب « الباشا » لتنقلهم إلى السودان وسافروا بعد أن سددوا حساب الفندق بالكامل ودفعوا « البقشيش » السخى للخدم ، وقد حاولنا أن نمنعهم باعتبارهم ضيوفنا ولكنهم أصروا كل الإصرار . ورافقناهم إلى الشلال وكان وداعاً حاراً . وعاد « حبيب » إلى الفندق فوجدهم قد بالغوا فى تسجيل شكرهم وعظيم تقديرهم فى دفتر الفندق .

ولعلى أطلت بعض الشيء فى تسجيل هذه الأحاديث ولكنى قصدت أن أكشف عن العقلية الاستعمارية المضللة وأثر اللقاءات الشخصية فى كشف الغشاوة عنها .

٢٧ مارس ١٩١٩

فى ظهر يوم ٢٧ مارس ١٩١٩ كنا نجلس مع الأسرة إلى مائدة أعدت فى الشرفة الكبيرة السفلى المطلة على الحديقة لتناول طعام الغداء . وكان أخى الأصغر – وهو فى السابعة من عمره – يجلس بحيث يرى باب الحديقة الكبيرة. وكنت أضع مسدسى فى جيب السترة المعلقة فوق أحد الكراسى الخالية ، أما « حبيب » فكان لخوفه من الأسلحة النارية يحتفظ بمسدسه فى درج مكتبه ، وفجأة تسلل « مصطفى » من مقعده وأخرج مسدسى ووجهه نحو مدخل الحديقة وأطاقه ومرت الرصاصة بين رأسى أمى وأختى وخدشت أذن أختى خدشاً بسيطاً والحمد لله ، وصرخت الوالدة والأخت وأسرعت فقبضت على يده وانتزعت منها المسدس وألقيت به بعيداً على أحد الكراسى وسألته فى حدة : ماذا فعلت يا مجنون ؟ فقال فى ثبات وحزم : « شفت ضابط بوليس ينزل من عربة الحنطور ويدخل الجنينة وأنا أكره ضباط البوليس بتوع المدير » .

وكان ما رآه حقيقة فقد أقبل الحارس مهرولا وخلفه

ضابط بوليس لا أعرفه يمشى على مهل ، فأسرعت لمقابلته ، وبعد أن حيا وسلم أخبرنى أن المدير يدعونا لتناول الغداء فى منزله مع ضيوف كبار آخرين فاعتذرت بأننا على المائدة وقد بدأنا الطعام فعلا والأولى أن يشاركنا هو فيه . ولكنه أصر قائلا إن المدير أخر موعد الغداء لحين حضورنا والجميع ينتظرون بفارغ الصبر ، فقبلنا على مضض وركبنا معه ، والوالدة تنصحنا بعدم الذهاب . وركبنا معه عربة الحنطور . وعندما وصلنا لسراى المدير وجدنا كوكبة من فرسان البوليس المسلحين أحاطوا بالعربة ، وسرنا جميعاً مندفعين إلى سراى المديرية . وسألت الضابط المرافق عن تفسير هذا الإجراء الشاذ ، فقال : سوف تعلمون السر فى المديرية .

ودخلنا مكتب المدير فوجدنا وكيل المديرية واقفاً بجوار المكتب واجماً مهموماً، وأمر الضابط بالانصراف والتفت إلينا وهو فى شدة الأسف والأسى وقال : « عمابها الرجل ، وأنا والله العظيم ثلاثاً حاولت معه كثيراً فلم أفلح وقد أمرنى بتنفيذ أوامر الإنجليز لأنه لا يجرؤعلى مواجهتكم بعد أن أقسم اليمين ، وأنا العبد المأمور . فقلت فى دهشة : إنجليز . أى إنجليز ، إنهم سافروا جميعاً إلى السودان مسرورين شاكرين . قال : ألم

يخبركم « سيد لبيب »؟ لقد وصلت باخرة مسلحة للشلال فى الفجر وفيها البريجادير « جريج — السير جريج حاكم أوغندة فيما بعد » على رأس كتيبة إنجليزية ، وكتيبة هندية على رأسها قائمقام هندى ، وكتيبة سودانية على رأسها القائمقام « شاهين » — السفاح قاتل الطلبة والنساء والأطفال فى مظاهرات القاهرة فيما بعد — والكتائب كاملة السلاح ببنادقها ومدافعها كأنها قادمة للحرب . وداهمونا فى الصباح الباكر وطلبوا المدير على عجل ، فاعترف لهم رغم اليمين التى أقسمها أنكم أشعلتم نيران الثورة بأمر « سعد باشا » و « الوفد المصرى » وهوّل لهم فى الأمر وقدم تقريراً رسم فيه صورة بشعة لأعمال التخريب التى قمتم بها وكيف اغتصبتم منه السلطة بواسطة الجيش ليبرر تخاذله وإفلات الزمام من يده . فأمر « البريجادير » بالقبض عليكم فوراً أنتم الأربعة أولا وتسليمكم له أسرى لمحاكمتكم أمام مجلس عسكرى برئاسته . وهم معسكرون الآن حول المحطة ، ونحن بانتظار بقيتكم ، وبعد قليل وصل — « الشيخ مصطفى » و « جبالى عبد النبى » مقبوضاً عليهما . وحضر ضابط إنجليزى معه سرية مسلحة فى لمح البصر وضع فى أيدينا القيود الحديدية (الكلبشات) . فقلت له بالإنجليزية محتداً : ما هذه

المعاملة الوحشية ، هل نحن مجرمون قتلة أو وحوش مفترسة ؟ فارتبج عليه ونظر إلينا فى دهشة كأنه لا يصدق أننا متعلمون نتقن الإنجليزية ، وقال : أنا آسف أشد الأسف ولكن هذه أوامر عسكرية والأوامر هى الأوامر كما تعلمون .

وساقونا سوقاً إلى المحطة والجنود الهنود والسودانيون مصطفون على جانبى الشارع والأهالى يقفون خلفهم فى وجوم وهم يهمسون : « الله ينصركم على أعاديكم . مع السلامة يا أبطال وبعوده إن شاء الله . ما تخافوش ربنا يحرسكم ، كلنا معاكم » وهناك فى المحطة أدخلونا غرفة خالية من كل شىء غير الباب ونافذة بها قضبان حديدية ومصاريعها مقفلة ، وأقفلوا الباب ، ونظر بعضنا إلى بعض ولم نجد ما نقوله . وأخذ كل منا يفكر فى صمت بما تمخضت عنه الأحداث المفاجئة وجلست على إفريز النافذة وجلس الباقون على الأرض .

وفجأة سمعت نقراً على الخشب خلف النافذة وصوتاً هامساً يقول : يا « مظهر » ، يا « مظهر » أنت سامعنى ، فقلت : نعم أنت الحكمدار — واستمر الهمس — « مفيش وقت نضيعه. أنا رايح الڤيلا حالا . فين الأوراق والسلاح » . وسمعه « حبيب » فاقترب منى وأشار بالنفى محذراً من الخديعة . وجال فى خاطرى

بسرعة البرق أنهم سيفتشون الڤيلا حتماً وسيجدون الأوراق والسلاح فلا يتغير الأمر إن كان الحكمدار يخدعنا وهو ما لا أصدقه بحال ، وإن كان صادقاً ومن المؤكد أنه صادق فخير . فقلت — مسدسى رميته على كرسى فى الشرفة السفلى ومسدس « حبيب » فى درج مكتبه والأوراق فى محفظة سوداء تحت الوسادة فى سريرى . . فاسأل والدتى ولأجل أن تصدق أنك رسولى قل لها : بأمارة « الله يحرسك يا ابنى يا مسخر» ، وهو دعاء جدتى التركية لى بالخير ولا يعرفه أحد سوى والدتى » ، وانقطع الهمس وسمعت صوت وقع حوافر الجواد يخف تدريجياً حتى انقطع .

وخشينا أن ينسونا فى هذه الغرفة الخالية وربما قضينا فيها الليل كله ، فأخذنا نطرق الباب بشدة ، وفتحه جندى هندى لا يعرف الإنجليزية ، فأخذت أشير إليه أننا نريد طعاماً وماء وفراشاً للنوم ، فذهب وعاد ومعه جندى يحمل أربعة أرغفة بدون إدام وآخر يحمل جردل ماء بدون كوز وجردلا فارغاً للتبول ، فصرخنا فى وجوههم فحضر على صراخنا ضابط هندى وأمرنا بالإنجليزية أن نسكت فهذه أوامر القائد . وتركنا وأقفل الباب ، ولم نكن نتصور أن الوحشية تصل إلى هذا الحد . فأعدنا الكرة بخبط أشد وصوت أعلى ،

فعاد الضابط وهددنا بالعقاب الشديد إن لم نسكت ، وتصادف مرور ضابط سودانى برتبة أعلى تدخل فى الموضوع ، فتفاهمنا معه وقلنا : « هل يليق أن أساتذة مدرسين ورجلا من كبار تجار مصر والسودان وشيخ عربى وجيه مريض نعامل هذه المعاملة الوحشية من الهنود الكفرة ونحن مسلمون » . فذهب وعاد بعد قليل ومعه جنود سودانيون نقلونا إلى عربة البريد بالقطار ، وفيها أمكنة لاستراحة موظفى البريد تسمح بالجلوس والنوم ، ولكن جميع نوافذها ذات قضبان حديدية متشابكة . وجاءونا بخبز وبيض وجبن أبيض وتمر ، وبيتنا بالعربة مع الحرس السودانيين الذين تأثروا بما حكيناه لهم وقاسمونا الطعام والماء . وقبل أن أتهيأ للنوم ذكرت حادثة « مصطفى » والمسدس وحمدت الله عليها فقد رتب القدر الرحيم أن يطلق المسدس حتى ألقى به بعيداً ولو ظل فى جيب سترتى وضبطوه معى لكانت مصيبة كبرى ، ورب ضارة نافعة .

وأيقظونا فى الصباح الباكر ، وقمنا للصلاة بعد أن تيممنا لعدم وجود الماء الكافى ودعانا الجنود السودانيون لطعام الفطور وقدموا لنا خبزاً وشطة فاكتفيت بالخبز . وبعد قليل حضر ضابط إنجليزى وساقنا تحت الحراسة إلى أحد صالونات الدرجة

الأولى بالقطار . ومثلنا أمام مجلس عسكرى يتوسطه البريجادير « جريج » وعن يمينه ويساره قائمقام إنجليزى وآخر هندى و « شاهين » المصرى وضابط سودانى ومترجم سورى . فبدأ الرئيس يسألنا بالإنجليزية والمترجم يترجم بلغته الركيكة ، فتذكرت « حسنين فهمى » ودعوت له بالخير ، وقلت : يا سعادة الجنرال الرئيس . نحن الأربعة نعرف الإنجليزية وأنا وزميلى هذا « كانتاب » فنرجو أن توجه لنا الأسئلة مباشرة ونحن نجيبك رأساً ، فبهت الرئيس ودقق النظر فينا ، وقبل أن يوجه إلينا الكلام تدخل الضابط الهندى ، وقال فى سخرية : تعلمتم فى إنجلترا صاحبة الفضل عليكم وتثورون عليها . فأسكته الرئيس وسألنا عن الاسم والسن والمهنة ومحل الإقامة وقال : إذن فأنتم تفهمون معنى الثورة على الحكومة والخروج على النظام و . . . فقاطعه الضابط الهندى وقال : لا ضرورة لإضاعة الوقت ونحن على عجل والتقرير شامل لكل الوقائع والأدلة ثابتة ومعززة من الجهات الرسمية . وتداول الرئيس همساً مع بقية الأعضاء فوافقوا ، ورفع الرئيس الجلسة قائلا : إذن يرسلون إلى المعتقل ويبقون هناك معتقلين سياسيين إلى أن يبلغ إليهم الحكم بعد التصديق عليه من القيادة العليا ، وهكذا عقد المجلس

العسكرى وانفض بعد خمس دقائق ، بت فيها فى مصير أربعة من المواطنين الأحرار دون سماع أقوال أو دفاع أو شهادة شهود .

وعدنا إلى عربة من عربات الدرجة الثالثة فى حراسة السودانيين ، وأحسسنا بالقطار يتحرك فى غير موعده ، والنوافذ مقفلة فلم ندر إلى أين يتجه ، هل جنوباً إلى الشلال فالسودان أم شمالا إلى الأقصر ؟ وسألنا الجنود ، فقالوا إنهم أغراب لا يعرفون الطريق . وطال سير القطار فعرفنا أننا ذاهبون شمالا . ووقف القطار . وكان الجوع قد اشتد بنا فاستأذنا فى فتح نافذة لعلها محطة نشترى منها شيئاً ، وكانت فعلا محطة « دراو » ، ونظرت من النافذة فرأيت على رصيف المحطة بعض الأهالى يتساءلون عن سر هذا القطار الذى وصل فى غير ميعاده وليس به ركاب ، ويظهر أنهم عرفونى فهتف واحد منهم : ثوار أسوان فقلت : نعم نحن الأربعة هنا ونحن جائعون عطاشى . . وسرعان ما أعطونا بدون مقابل كمية كبيرة من الخبز والبيض والجبن والدوم والتمر وقلة ماء . فشكرناهم وجعلناها وليمة شاركنا فيها الجنود فرحين . وحضر ضابط سودانى فرآنا جميعاً جلوساً نتناول الطعام فابتسم وقال : هنيئاً مريئاً . وكنا قد انتهينا من تناول الطعام وعاد الجنود إلى أماكنهم عندما حضر ضابط

إنجليزى نظر إلينا مليًّا وأخذ يعدنا على أصابعه — واحد اثنين ثلاثة أربعة ، وهز رأسه وانصرف . وتحرك القطار شمالا وأخيراً وصلنا الأقصر فسلمنا السودانيون إلى سرية إنجليزية مسلحة دفعت بنا فى عربة مقفلة إلى المعتقل .

وكل ما أذكره عن هذا المعتقل أنه بيت كبير قديم من طابق واحد يبدو أنه كان لأحد الأعيان أو رعايا الأعداء ، يقع أمام ميدان صغير . وله باب كبير إلى كل من جانبيه نافذة كبيرة تطل على الميدان اليسرى منهما سمر على مصراعيها عوارض خشبية تمنع فتحها فى الداخل . ودخلنا فوجدنا ردهة فسيحة مبلطة على كل من جانبيها حجرة كبيرة ، اليمنى منهما يقيم بها الحرس ، واليسرى ذات النافذة المغلقة هى التى أعدت لنا . ووجدنا فى بابها ثقباً كبيراً مثلثاً يطل منه « الديدبان » . ووجدنا بها أربعة « عنجريبات » من الجريد على كل منها حشية خشنة ووسادة وبطانية صوف ، وعلى الأرض حصير ملون . وفى ركن من الغرفة حوض به حنفية وبالوعة . وهذا هو كل ما فيها . والردهة تؤدى إلى حديقة بها عدد من الأشجار وأقيمت فيها خيام للجنود . وفى جانب منها حفرت عدة حفر مستطيلة لقضاء الحاجة مكشوفة دون ساتر وفى الوسط مضخة ماء تصب

فى برميل كبير يستخدم للغسيل والاستحمام . وفى الجهة المقابلة بناء من طابق واحد لعله كان مكان الحريم ، وبه بعض الضباط الإنجليز .

ودخل علينا الحجرة ضابط إنجليزى مسلح وخلفه أربعة جنود مسلحين ، كأنها مظاهرة عسكرية ، وأخذ يعدنا بأصابعه كزميله فى القطار . وجس القيود الحديدية فى أيدينا ليتأكد من بقائها حيث هى . وتلا علينا عدة أوامر بلهجة عسكرية صارمة كما لو كنا جنوداً تحت السلاح : « أطيعوا الأوامر والزموا الهدوء ولا تحاولوا الهروب ولا تتصلوا بأحد من الخارج ولا تحادثوا الجنود ، ومن أراد الخروج لقضاء الحاجة عليه أن يطلب من الديدبان (إسكورت) أى حرس مرافق » . فقلت للضابط : اسمح لى . . هذا إجراء عنيف وحشى وسخيف أيضاً . وهذه القيود الحديدية كيف نبقى بها ليلا ونهاراً . أليست هذه الغرفة المغلقة تكفى لمنع أى محاولة للهرب ؟ وهل نستطيع أن نعتدى عليكم ونحن عزل وأنتم مسلحون ؟ إنا لا نريد أن نهرب حتى لو وجدنا الفرصة ، فنحن لسنا مجرمين . فقال ببرود : اسكت هذه هى الأوامر وعلينا وعليكم الطاعة والتنفيذ ، وجاءونا بصينية عليها شاى وبقسماط ولحم علب « بولبيف » وغير ذلك من

نفس تعيين الجنود .

وبعد قليل قلت « إسكورت » ففتح « الديدبان » الباب وجاء ثلاثة جنود مسلحين . وخلع رئيسهم حلقة القيد اليسرى من يدى وتوجهوا بى إلى الحديقة . فسألت عن دورة المياه فأشار إلى الحفر والمضخة ونظرت أمامى فرأيت منظراً اقشعر له بدنى . وجدت جنوداً نصف عرايا يجلسون القرفصاء فوق الحفر ، ويقضون الضرورة دون ساتر ويتحدثون ويتندرون ، وآخرين عرايا يغتسلون من البرميل الكبير ويتهارشون. والبعض الآخر فى أوضاع جنسية شاذة تحت الأشجار دون ماخجل أو حياء. وثارت طبيعتى على هذه الأوضاع ، فعدت دون أن أقضى حاجة أو أغتسل. وأخبرت صحبى بما وجدت ولزمت الحجرة فلم أطلب الخروج إلا إذا حصرنى البول . وأقللت الطعام إلى أقل حد ممكن وبقيت على هذه الحال أسبوعاً فأصبت بإمساك مزمن وآلام حادة . وعادنى الطبيب الضابط وعجب من أمرى بل سخر منى لأنى أرفض قضاء الحاجة مكشوفاً أمام الجميع وأنا رجل مثلهم . وأمر لى بحبة مسهل يسمونه « رقم ٩ » فاضطررت آخر الأمر أن أفعل كما يفعلون . واتسخت ثيابى الداخلية ونفذت منها رائحة العرق وبدأ القمل يظهر فيها فاضطررت لغسلها فى حوض الغرفة بكل

مشقة نظراً للقيد الحديدى وانتظرت حتى جفت . ونقص وزنى عدة كيلوجرامات بسبب إقلال الطعام تفادياً لعذاب قضاء الحاجة فى الحفر وأنا بطبعى ضئيل الجسم ليس لى رصيد من الشحم والدهن .

وقضينا على هذه الحال وقتاً من أشد وأقسى ما يكون ، لا نعرف مداه . ولم يكن لدينا ملابس داخلية أو خارجية للغيار غير ما علينا . وقد آذتنا القيود الحديدية أذية بالغة وحرمتنا النوم لما تحدثه أى حركة للأيدى والأذرع من ألم شديد : وأنكى من هذا أن ضابط النوبة كان يحلو له أن يفاجئنا بزيارات غير منتظمة فى أوقات القيلولة بعد الظهر أو قرب منتصف الليل ، فنصحو فزعين على قعقعة السلاح وخبط الأحذية الثقيلة بالأرض ، ويعدنا على أصابعه ليتأكد من أن أحداً منا لم ينقلب فأراً يهرب من تحت الباب أو دودة تنساب من صنبور الحنفية إلى البالوعة . ثم يفحص القيود الحديدية . وحادثناه بالإنجليزية وذكرنا له أننا « كانتاب » ولكنه لم يفهم وهز رأسه ولم يجب ، ولعله ظنها اسماً لقبيلة زنجية متوحشة ، فعرفنا أنه غير متعلم . وكان كل ضابط أو جاويش نوبة يقوم بهذا التفتيش الروتينى المضحك نتقدم إليه بالشكوى ، ولكن لا حياة لمن تنادى .

وكنا لا نفهم منهم كلامهم لأنهم عوام لا يعرفون الإنجليزية الفصحى . بل إن بعضهم لا يعرف الكتابة والقراءة . وأكثرهم تعليما من أتم المرحلة الإلزامية. لأن قانون التعليم الإلزامى الإنجليزى لا يطبق على الأطفال الذين يبعد محل إقامتهم عن أقرب مدرسة بأكثر من ميلين . ولا أولاد المراكبية الذين يعيشون وأسرهم على ظهر المركب وهم يحملون البضائع عبر أنهار إنجلترا ، ومن ثم كان فى إنجلترا فى ذلك الوقت حوالى ٥٪ من الأميين . ومن الضباط أغلبهم أنصاف أميين التحقوا بالجيش النظامى كجنود عاديين ثم اشتركوا فى بعض المعارك فرقوا ضباطاً من تحت السلاح ، وتعرفهم من لغتهم وشواربهم الكبيرة .

وطلبنا من أحد ضباط النوبة الاتصال بذوينا للحصول على ملابس بدلا من ثيابنا التى بليت ، فقال إن الاتصال بالخارج ممنوع بتاتاً . وكنت إذا جن الليل وأطفئت الأنوار أنتزع القيود من يدى بسهولة نظراً لصغرها ونحافتها . وفى ذات ليلة استغرقت فى النوم ولم أشعر بضابط النوبة إلا وهو على رأسى . ولما رأى يدىّ خاليتين من القيود نظر إلىّ طويلا وهزش رأسه وفكر وتفتق ذهنه عن حيلة جهنمية وحشية ، وهى أنه أدخل إحدى الحلقتين فى الأخرى وأدخل يدىّ فيهما بالقوة فتسلخ الجلد

وصرخت من شدة الألم ولكنه لم يبال وبدا عليه السرور من نجاح حيلته .

وضقنا ذرعاً بهذا الجحيم وتملكتنا روح الثورة دون مبالاة بالعواقب وقررنا كخطوة أولى أن نضرب عن الطعام وتركناه كما هو . وعندما جاء الحارس ليحمل البقايا ورأى الطعام لم يمس أشار إلينا أن نأكل فأجبنا بالرفض فحمل الصينية وهو يبتسم ، وأغلب الظن أنه سر بهذه الوجبة الإضافية له وازملائه الحراس . وبعد قليل أخذنا ندق الباب دقاً شديداً مزعجاً ونصرخ بأعلى صوت بالإنجليزية . نريد الضابط الكبير المسئول . ودخل ضابط النوبة مهدئاً لنا وقال : أرجوكم أن تسكتوا وتهدءوا وأعدكم بحضوره بعد أن تنتهى نوبتى . وقد صدق . فبعد انتهاء نوبته بقليل حضر يتقدمه ضابط إنجليزى برتبة بكباشى ، وخلفه الحرس المسلح وهم يصوبون البنادق نحونا كما يفعلون فى كل مرة .

ونظر البكباشى إلى الحرس وبنادقهم المصوبة ، ثم إلينا والقيود فى أيدينا ، والنافذة المغلقة والثقب المثلث فى الباب وتجهم وجهه وقال لضابط النوبة : « ما هذا ؟ لماذا كل هذا ؟ هل هم وحوش يأكلون بنى آدم وتخافون منهم ؟ وأنتم مسلحون وهم عزل أو هم فيران يخرجون من تحت الباب أو يتسربون من

البالوعة ، اخرجوا جميعاً » . وبعد خروجهم أقفل الباب وقال في هدوء : أخبرني ضابط النوبة أنكم متذمرون وتضربون عن الطعام وتلحون في مقابلتي فما شكواكم ، وماذا تطلبون . وآنسنا من لغته ومسلكه أنه رجل مثقف وربما كان جامعياً وليس من ضباط الجيش النظامي القديم الخارجين من تحت السلاح .

فقلت : أولا أنا وزميلي هذا « كانتاب » وكنا نلقى منكم في بلادكم خير معاملة إنسانية كريمة ، فكيف تعاملوننا في بلادنا هذه المعاملة الوحشية البربرية كأننا قتلة قطاع طرق . انظر إلى يدي وما فعل فيهما القيد الحديدي . وقال « حبيب » مكملا : إن هذه المعاملة وصمة عار في جبين الإمبراطورية البريطانية .

فبهت الرجل وجلس إلى أقرب « عنجريب » وأشار إلينا بالجلوس وبدأ يمطرنا بوابل من الأسئلة المتلاحقة : هل نحن حقيقة « كانتاب » وفي أي كلية درسنا وأي سنة وماذا درسنا ؟ فأجبته بقدر ما وعيته من حديث « حسنين فهمي » فسرح ببصره قليلا وهز رأسه كأنه يستعيد ذكريات الماضي وربت على يديّ في رفق وقال : وأنا أيضاً « كانتاب » وقد درست في نفس الكلية وإنما قبلكم بسنين ، فنحن زملاء والزملاء لا يعاملون هذه المعاملة الوحشية ، ولكن هذه أوامر مديركم وحكومتكم ، وسأعرض

الأمر على « أوين باشا » فوراً . فتحملوا يوماً أو يومين على الأكثر . فقلت : نحن مدينون بالشكر الجزيل للزميل الكريم النبيل لهذا الشعور الطيب . ونرجو — او استطعت — أن يتكرم « الباشا » بزيارتنا بنفسه لنعرض عليه الأمر ونوفر عليك مشقة العرض أو الشرح . فقال : سأبذل جهدى وأخرج علبة سجايره ووزعها علينا ثم أردف قائلا : وما هى طلباتكم العاجلة ؟ فأشرت إلى « العنجريب » وقات هذا ، وإلى القيد الحديدى وقات ثم هذا . والطعام الإنجليزى لا يناسب زميلىَّ هذين . خاصة وأن « جبالى بك » مريض ويحتاج لطعام خاص . ونرجو الاتصال بذوينا لطلب ملابس جديدة نظيفة ، وشيئاً نقرؤه فقد نسينا القراءة والكتابة ، فضحك وقال : كلها طلبات بسيطة معقولة وسأذكرها « لأوين باشا » ونهض مودعاً ، وشد على أيدينا بحرارة فشكرناه أجزل الشكر ، ودعونا للزميل « حسنين فهمى » بالخير والعافية .

وقبيل ظهر اليوم التالى سمعنا من الخارج جلبة جنود تصطف وكركون سلاح ثم فتح الباب بقوة ودخل ضابط إنجليزى وقور فارع الطول ممتلىء الجسم مهيب الطلعة أدركنا أنه « أوين باشا » وخلفه البكباشى الإنجليزى وضابط النوبة

والحرس مشرعى السلاح على الوضع القديم تماماً . ولعل البكباشى الجامعى قصد هذا ليثير « الباشا » — و وقف « الباشا » فى وسط الغرفة وتطلع إلينا و إلى الحجرة والحرس وقيود أيدينا وملابسنا الرثة والشعور والذقون الطويلة التى لم تقص منذ الاعتقال . وهاله منظرنا الكئيب وبدا على وجهه الامتعاض ، وأعاد النظر إلى الضباط وقال فى تهكم وتأنيب : لماذا كل هذه المظاهرة العسكرية ألا ترون أنهم عزل من السلاح . إنهم معتقلون سياسيون ومواطنون محترمون وليسوا مجرمين عاديين . ووجه إلينا الكلام فى صوت رقيق وقال : أنا شديد الأسف لهذه المعاملة غير الإنسانية ، ولا بد أن هناك خطأ ما . وأرجو أن تفهموا الوضع على حقيقته فلا تلوموا الضباط الإنجليز . وأؤكد لكم أن هذه تعليمات مديركم ممثل حكومتكم المصرية الذى شوه سمعتكم ، والسلطة العسكرية البريطانية ليست مسئولة عن هذا ولا ترضى به . ولكن مع هذا يظهر أننا أخطأنا فى التنفيذ وصدقنا أكاذيب الإدارة المصرية ، ولم نتعرف على شخصياتكم وأنتم مواطنون محترمون مثقفون . وقد أعطانى « برنارد باشا » فى خطابه لى صورة صحيحة عنكم وهو يشكركم أجل شكر على مسلككم معه ومع الضباط الإنجليز وأسرهم . ولا أقل من مقابلة الجميل بمثله . وعلى كل

سيتغير الوضع توا على نحو ترضون عنه كل الرضا ، وبدأ يعطى تعليماته للضابط مدير المعتقل . وقال : اشكروا السلطة العسكرية البريطانية . وعدالة بريطانيا العظمى التى تعلمتم فى جامعاتها وعرفتم فيها طباعنا وأخلاقنا ، وحيانا ثم خرج .

وما مضت ساعة حتى دخل البكباشى يتبعه عدد من الجنود يحملون أشياء كثيرة . وبدأ يفك القيود من أيدينا . وأخذ الجنود ينقلون « العنجريبات » وينصبون أسرة سفرية من أسرة الضباط بكافة مستلزماتها من حشايا ووسائد وبطانيات وملاءات وعلى كل سرير صابونة ومناشف ، ثم خمسة كراسى مريحة ومنضدة متوسطة الحجم وأخرى صغيرة عليها أباريق مياه الشرب وكوبات . وقال : قد عينا لكم طباخاً مصرياً فاطلبوا منه كل ما تريدون من طعام وما يلزمكم من أشياء أخرى فى حدود المبلغ المخصص لكل منكم وهو جنيه ونصف يومياً ، وسيكون فى خدمتكم من الصباح المبكر إلى التاسعة مساء . وسيكون لكل منكم تعيين من السجاير والسيجار وهذه هى الدفعة الأولى . وأعطونى عناوين أهليكم بأسوان لنتصل بهم لطلب طقم واحد من الملابس يغير أسبوعياً . واطلبوا ما تشاءون من القهوة والشاى والطباخ تحت أمركم . وها هى مجموعة طيبة من الجرائد والمجلات والروايات

الإنجليزية ، أما الجرائد والمجلات المصرية فليس لدينا منها شيء وهي ممنوعة بطبيعة الحال . ورجائي أن لا تحاولوا الاتصال بالخارج بأي وسيلة . أتريدون شيئاً آخر . أغلب الظن أن المدرس لا يستغني عن الأقلام والأوراق والكتابة . فقلت : أصبت يا سيدي فأنا أحب دائماً أن أدون خواطري ومذكراتي . ونحن عاجزون عن شكرك فنشكرك بكل قلوبنا قبل ألسنتنا . فأجاب : بل الشكر « لأوين باشا » والسلطة العسكرية البريطانية . وحيا وخرج .

ودخل على أثره الطباخ وقال : « ماذا تريدون لغداء اليوم والعشاء وفطور بكرة . اطلبوا ما تشاءون فهم سيدفعون كل النفقات مهما بلغت حتى ولو طلبتم ديكاً رومياً كل يوم » ، وأعطيناه التعليمات بخصوص أكلنا وأكل — « جبالي عبد النبي » ومواعيد القهوة والشاي . وحضر بعده الحلاق وأتم مهمته في صمت ، ويظهر أنه نبه عليه بذلك . وكان البكباشي قد رخص لنا باستعمال دورة مياه وحمامات الضباط ، فهرعنا إليها نقضي الضرورة ونزيل أوساخ الأسابيع الماضية الطويلة . ولا أستطيع أن أعبر عن سعادتي بهذا الانتقال المفاجئ وخاصة بعد الاستحمام وتناول الغداء الشهي والقهوة والاستلقاء على السرير . وقضينا يوماً

سعيداً وليلة هادئة هانئة نمت فيها نوماً مريحاً تتخلله الأحلام الطيبة .

وكنت قد بدأت بعد تناول العشاء ، تاركا زملائى يتسامرون وكأنهم لا يصدقون ما حدث ، فى كتابة مذكراتى عن الأيام الثلاثة الماضية ، وقصدت أن تكون بالإنجليزية توقعاً لاطلاعهم عليها ، وسجلت عظيم شكرى وتقديرى « للبكباشى » و « الباشا » ونوّهت بعدالة بريطانيا والسلطة العسكرية البريطانية . وكان حارس النوبة ينظر من ثقب الباب بين آن وآخر ويرانى مستمراًّ فى الكتابة ، ولعله أخبر الضابط المنوب وهذا بدوره أخبر « البكباشى » الذى حضر فى الصباح ليطمئن علينا ، وبعد أن حيا وسألنا عن حالنا قال لى : بلغنى أنك كتبت شيئاً كثيراً بالأمس ولعلك كنت متعطشاً للكتابة . فقلت : هذا ما كتبته ويمكنك الاطلاع عليه . فبدأ يقرأ فى سره ووجهه يحمر رويداً رويداً وعلائم السرور تبدو على وجهه وقال : شكراً جزيلا لما ذكرته عنا ، واسمح لى أن أنسخ منه صورة أطلع عليها « الباشا » وقد تضم إلى تقريره عنى وتنفعنى .

وكان « البكباشى » يزورنا كل صباح للتحية ومعه السجاير والجرائد والمجلات وبعض الكتب الإنجليزية . وكنا — « أنا » و

« حبيب » -- نوزع معظم نصيبنا من السجاير والحلويات الشرقية التى يصنعها الطباخ على ضابط النوبة والحرس فيقابلونها بالشكر والامتنان ويسمحون لنا بالجلوس فى ركن الحديقة الهادئ النظيف أو نذهب إلى مبنى الضباط . ونقضى مع « البكباشى » فترات نتجاذب فيها أطراف الحديث عن « مصر » و « كمبردج » وشتى الموضوعات ما عدا السياسية . وقضينا أسبوعاً ممتعاً أنسانا شقاء الماضى وعذابه ، لولاانقطاع أخبار الأهل والوطن والثورة .

وقبيل آخر الأسبوع ، دعينا إلى مكتب « البكباشى » فحيانا ورحب بنا ودعانا للجلوس قال : قد طلبتم الاتصال بأهلكم واستجابت القيادة لهذا الطلب وسمحت لهم بإرسال طاقم ملابس يمكن أن يغير كل أسبوع . وكتاب عربى واحد ، والدواء اللازم لكن دون تبادل أية خطابات أو أوراق . واتصلنا فعلا بأهليكم حسب العناوين التى أعطيتموها ، وقد حضر أول رسول من أسوان الآن لكما أنتما الاثنين من حسن حظكما . ونادى الحارس فدخل ومعه « طه كحالة » ومعه لفافة كبيرة . وحاول « طه » أن يصل للسلالم فأمره بالوقوف حيث هو ، فسلمنا بالإشارة ، وقال بسرعة : العائلة بخير ويدعون لكم بالفرج . وتناول الجندى اللفافة وسلمها « للبكباشى » ففتحها

وفتشها وقاب صفحات الكتاب ، وقال : هيا إلى الحمام لتعطوه الملابس القديمة ، وقواوا له أن يحضر بعد أسبوع ومعه الغيار الجديد ، ونحن نعطيه استمارات السفر والمصاريف النثرية . وكان فى اللفافة لكل منا بدلة وفانلة ولباس وشراب ومناديل ولكنهم نسوا الحذاء والطربوش ، فدخلنا الحمام وعدنا فسلمناه البدلة فقط أما الملابس الداخلية فكانت لا تصلح ولذلك ألقينا بها فى صفائح القمامة . وسلم « طه » وانصرف وشكرنا الضابط وعدنا إلى الغرفة . ورجعنا مرة أخرى سادة مهذبين . واستمر « طه » يحضر كل أسبوع حتى بعد أن تركنا المعتقل إلى مكان آخر . وبعد قليل حضر رسول أسرة « مصطفى قديس » ورسول فندق « جراند » بملابس « جبالى عبد النبى » .

وكان فى اللفافة كتاب فى الجبر العالى كنت أدرسه تعجبت لاختيار والدتى لهذا الكتاب بالذات . فلابد أن فيه شيئاً ، وقد كان . فبعد تصفح أوراقه وجدنا نصف صفحة مطبوعة وتحتها بخط والدتى الجميل كتابة كأنها تكملة للصفحة تقول — ولدىّ العزيزين « حبيب » و « مظهر » واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ؛ وإن الله مع الصابرين . نحن بخير . ردكما الله إلينا سالمين غانمين . الوالدة . وأعجبنا بهذه

الطريقة المبتكرة الفذة للتراسل . وأكل « حبيب » الكتابة بخطه الجميل : « الوالدة العزيزة والإخوة الأشقاء . نحن بخير . المعاملة الآن حسنة للغاية فاطمئنوا » « مظهر » و « حبيب » .

وذات صباح دخل علينا « أوين باشا » بدون المظاهرة العسكرية وعلى فمه ابتسامة عريضة مشرقة وقال مبتهجاً : إظهاراً لشعوري نحوكم وأسفي على سوء معاملاتكم فيما مضى أمرت بنقلكم إلى جناح خاص بفندق « ونتر بالاس » حيث تتوافر لكم كل وسائل الراحة وتنسيكم ما فات . ولم نصدق آذاننا وألجمتنا الفرحة عن الشكر فلم نكن أبداً نتوقع مثل هذا التغيير ، بل لم نكن نحلم به . فندق « ونتر بالاس » الذي ينزل فيه الأمراء والعظماء وأصحاب الملايين مرة واحدة . ونقلنا فعلاً إلى الطابق الثاني بالفندق المطل على الحديقة الغناء . وخصصوا لكل منا غرفة مفردة كاملة الأثاث الفخم من غرف النزلاء . وتركوا باب الغرفة والنافذة المطلة على الحديقة مفتوحين ، ولكنهم وضعوا حرساً مسلحاً في الطرقة المواجهة للأبواب وحرساً آخر في الحديقة تحت النوافذ .

وحدث أثناء الانتقال حادث كاد يؤدي إلى كارثة لولا لطف الله . فأثناء صعودنا السلم كان كل جندي يحمل كيساً كبيراً

فيه أغراضه وصفيحة بسكويت كبيرة . وبقيت واحدة ، وكنت أنا أحمل ربطة كبيرة فيها الكتب والمجلات والأوراق فأمر الجاويش « حبيب » أن يحمل الصفيحة الباقية . وعندما وصلنا إلى أعلى السلم كان « حبيب » قد تعب من حمل الصفيحة الثقيلة فأفلتت من يده إلى أسفل السلم ، ووقعت بجوار الجاويش وأحدثت دوياً هائلاً ، ولعل الجاويش ظن أنها ألقيت عمداً لقتله فأطلق رصاصة من مسدسه فى اتجاه « حبيب » ولم تصبه والحمد لله . وعلى دوى الصفيحة والرصاصة حضر الضابط صاحب النوبة مسرعاً وسأل الجاويش عن الخبر . ولما علم أنه أمر « حبيب » بحملها ، جمع الجنود فى الطرقة . وقال فى لهجة حازمة : اعلموا أن هؤلاء السادة ليسوا حمالين ولا خدماً وإنما هم معتقلون سياسيون عليكم أن تعاملوهم بكل أدب واحترام . والتفت إلينا وقال : هذه تعليماتكم : يرخص لكم بالخروج من الغرف ساعة فى الصباح لدورات المياه ، وتناول الإفطار معاً فى صالة الطعام ، وتناول القهوة فى الصالون الصغير ، وساعة لتناول الغداء ظهراً ، وساعة للشاى عصراً ، وساعة فى المساء للعشاء ، وفيما عدا هذه الأوقات تبقون فى غرفكم لا تبرحونها إلا لقضاء الضرورة مع أحد الحراس ، وممنوع قطعاً الحديث

مع الجنود والاتصال بالخارج . وإذا أردتم شيئاً فاطلبوا مقابلة ضابط النوبة . وستطفأ الأنوار فى العاشرة مساء . والآن هيا إلى الحمامات وتناول الغداء . فشكرته وقدمت له صندوق سجاير فتقبله شاكراً لهذه الهدية الثمينة . وبعد انصرافه أعطينا كل جندى علبة سجاير ، وكان هذا بدء توثيق صلتنا بهم .

وبعد يومين جاءوا بأربعة معتقلين آخرين قابلناهم ساعة الغداء ، وعرفنا منهم : الأستاذ « حسين فهمى » المحامى بالأقصر ، والشيخ « موسى الأقصرى » الشاعر ، والشيخ « عبد المعطى الحجاجى » كبير آل سيدى الحجاجى بالأقصر ، والرابع أبيض الوجه ذو لحية مدببة (أمبريال) وكان صموتاً كتوماً يجلس بعيداً مطرقاً يسمع حديثنا ولا يشترك فيه ، وينصرف تواً إلى غرفته قبل انتهاء الساعة المرخص بها . وحاولنا أن نستدرجه فى الحديث فلم نفلح وحسبناه جاسوساً أو أسيراً ألمانيًّا . واتضح فيما بعد أنه الأستاذ « عبد المجيد حسين » شقيق الدكتور « طه حسين » وقد اعتقلوه فى « كوم أمبو » .

وبعد العشاء دخلت غرفتى وأغلق الحارس الباب والنافذة ، وما انطفأ النور فى العاشرة حتى راودنى النعاس واستغرقت فى نوم عميق لم أتمتع به منذ أن قبض علينا ، ورأيت فى منامى أنى مع

أهلى فى القيلا ، وكأن شيئاً لم يحدث . وقمت فى الصباح منشرح الصدر ، وحمدت الله على هذه النعمة لولا العزلة والحبس الانفرادى ، وهو أشق ما يكون على النفس واو فى الجنة . وبعد طعام الإفطار وتناول القهوة دخل « الباشا » الصالون وانتحى بنا « أنا » و« حبيب » ناحية ، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث . وقال فى نهاية الحديث : هل تطلبون شيئاً آخر ، فشكرناه شكراً جزيلا . وخطر فى بالى خاطر مفاجئ كأنه إلهام من الله فقلت : نحن مسلمون ولابد أن نؤدى فريضة صلاة الجمعة جماعة ، كما تفعلون يوم الأحد فى الكنيسة ، وليس من الضرورى أن نصلى فى جامع إذ نستطيع أن نقيم الصلاة هنا . فأجاب : لقد يسرت الأمر فطلب الجامع مستحيل . وطلب ضابط النوبة وأمره بإعداد الصالون الكبير لنجتمع فيه كل يوم جمعة من الساعة الحادية عشرة صباحاً إلى الواحدة بعد الظهر ، وبعد ذلك نتناول الغداء إلى الثانية .

والتأم جمعنا صباح الجمعة وأخذنا نتشاور فيما نصنع لإقامة الصلاة وقضاء هذا الوقت الطويل دون أن نثير الشكوك . واستقر الرأى على مسرحية طريفة أدت إلى خير النتائج فيما بعد وحولت مجرى الأمور إلى الأفضل . وهذا ما حدث تحت سمع ضابط

النوبة والجنود وبصرهم . جلس الشيخ « مصطفى » على مقعد عال وجلسنا نحن أمامه فى نصف دائرة متربعين على الأرض ، وبسطنا الأكف وأخذنا نقرأ الفاتحة وراء الشيخ بصوت رتيب ، ثم رفعنا أيدينا إلى السماء وصار كل منا يدعو الله بما يشاء ، وبين آن وآخر نقول : الله أكبر . الله أكبر . ثم خفضنا رءوسنا وأخذنا نتمتم بما يخطر فى بالنا من كلام . ونظرت خلفى إلى الضابط والجنود المصطفين أمام الباب فرأيت ملامح الخشوع والرهبة على وجوههم وكأنهم يتلون صلواتهم فى سرهم . وبعد فترة صمت طويلة وقف « الشيخ الأقصرى » وأذن للصلاة . وعلى أثر ذلك وقف الشيخ « مصطفى » متجهاً نحو النافذة الشرقية ونحن خلفه فى صف واحد مستقيم وبدأنا نصلى . الشيخ « مصطفى » يتلو الفاتحة وقل هو الله أحد و « الشيخ الأقصرى » يبلغ . وسجدنا فى الركعة الثانية وأطلنا السجود والدعاء ، وسلمنا . وعاد الشيخ « مصطفى » إلى الكرسى العالى ونحن جلوس أمامه وأخذ يلقى علينا درس الجمعة ، وهو قصة عن مغامراته فى « السودان » و « الحبشة » لا صلة لها بخطبة الجمعة وبشق الأنفس تمالكنا أنفسنا من الضحك من هذه المسرحية ، ولكن حديثه الشيق حملنا على الإنصات إليه بكل جوارحنا . وبقى من الوقت جزء

كبير . فأخذ كل منا بالدور يحكى قصة أو حكاية أو يتحدث عن موضوع حيثما اتفق . وقبيل الساعة الواحدة تقدمنا بالدور وركع كل منا أمام الشيخ وقبل يده . والشيخ يمسح رأسه ويدعو له . وقد تظاهرنا بالخشوع والورع . وقمنا خلفه لتناول الغداء .

وكان لهذه المسرحية أثر عميق فى نفوس الضابط والحراس بدا فى نظراتهم وعلى وجوههم ، فقد أحنوا رءوسهم للشيخ وسألوه البركة . وبعد الغداء اقترب منى الضابط وهمس فى أذنى : هل هذا الشيخ رئيس دينى كبير ، أسقف أو مطران مثلا ، وهل هذا لباس رجال الدين المسلمين ؟ فقلت : كلا فليس فى الإسلام كهنوت ولا وسيط بين الإنسان والله . وأى رجل مسلم يصح أن يقود الناس فى الصلاة ولو كان أقل منهم مقاماً ، فالإسلام دين الديمقراطية الصحيحة والمساواة . وقد اخترناه لأنه رجل صالح متصل بالله . فقال : هل يكشف البخت ويقرأ الكف ؟ قلت : ربما ، فالناس الصالحون يكشف الله الحجاب عنهم أحياناً . فقال : أكون شاكراً جداً لو قدمتنى إليه . فقلت : إن شاء الله فى فرصة قريبة .

وقد عنيت من أول الأمر بتوثيق الصلة بالضابط وأصحاب النوبة والحراس ، فكنت أعطيهم السجاير وأحجز لهم جزءاً من

الحلويات الشرقية . الكنافة والقطايف واقمة القاضى — التى يصنعها الطباخ لنا . فيلتهمونها بلذة عجيبة . وأعطى الضباط المجلات والروايات . وأقرأ للجنود المقالات وأشرحها وأعلق عليها . ونقضى معهم فى الصالون الصغير وقتاً طويلا نتحدث عن مصر وتاريخها المجيد وحضاراتها ومعالمها . شيئاً فشيئاً بدءوا يتساهلون فى قيود الساعات المحدودة . وخشية التفتيش المفاجئ جعلوا حارساً منهم يقف أسفل السلم وآخر فى أعلاه و بمجرد أن يلوح القادم من كبار الضباط اناظر الأول يصفر لحن « تيبيريرى » الذى يعرفونه جميعاً ويترنمون به فى كل وقت لنهرع إلى الغرف والحراس إلى مواقفهم ، وإن كان هذا لم يحدث إلا نادراً ، وهكذا كان نهارنا يمضى مسرعاً دون سأم أو ضيق .

ولكن البلوى بعد أن ينطفئ النور فى العاشرة مساء ، وأنا لم أعتد النوم قبل منتصف الليل . وفكرت طويلا كيف أقضى هاتين الساعتين الطويلتين المملتين ، وقد تعبت من طول التفكير فى الموقف وتذكر الأحداث الماضية ، وما قد يأتى به المستقبل . وكنت قد قرأت فى إحدى روايات « دوماس » أن أحد أشراف فرنسا طال اعتقاله فى غرفته المنعزلة بسجن « الباستيل » دون محاكمة وهو لا يبرح مكانه ، وخشى على نفسه من جنون الوحدة ،

وأخذ يفكر فى طريقة يصرف بها ذهنه عن هذا التفكير فوجد بين أشيائه عدداً من الدبابيس أو الأزرار ، ولست أذكر تماماً ماذا كانت . فكان ينثرها فى أرجاء الغرفة المظلمة ثم يبحث عنها ويعدها حتى يكتمل عددها وينثرها مرة أخرى وهكذا حتى يغلبه التعب فينام . فقلت لنفسى سأجرب هذه اللعبة مستخدماً عشرين عوداً من الثقاب ونجحت . وابتكرت لعبة أخرى لقضاء ساعات النهار المنفردة فرسمت شكلا هندسياً من أشكال المتاهات « بيت جحا » وصنعت كرات ملونة من الصوف انتزعتها من أطراف السجادة ، وسميتها — الصليب الشرقى — وعلمتها « لحبيب » . وكنت بهذا أقضى وقتاً هادئاً طيباً ألاعب فيه نفسى بعد أن أمل الكتابة والقراءة . وهكذا لم تخل الحياة فى « ونتر بالاس » من طرائف رغم الحبس الانفرادى والقلق على المستقبل .

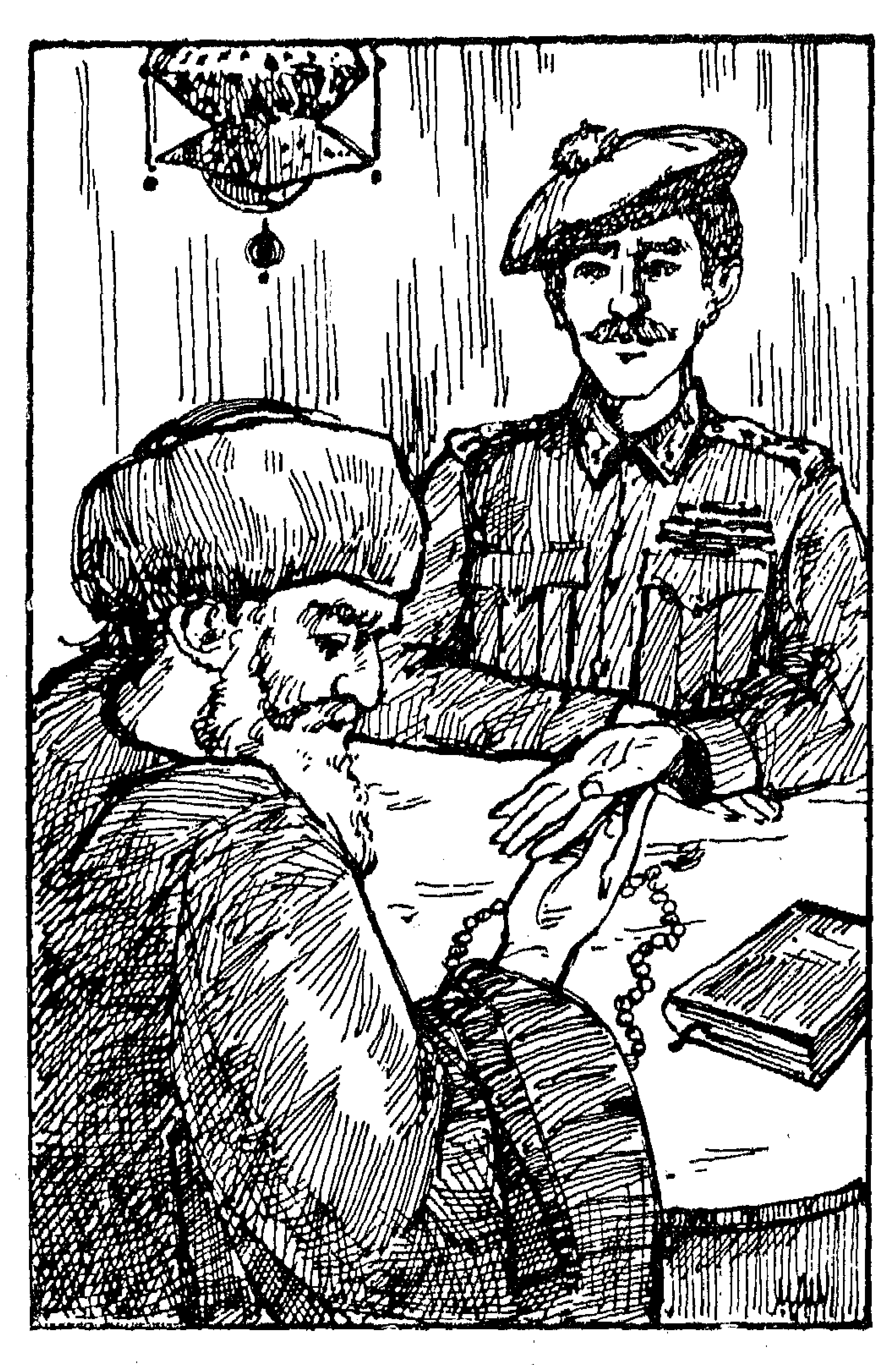
وجاء الضابط يزورنى فى حجرتى ويذكرنى بوعدى له بتيسير مقابلة الشيخ .

وتطرقنا إلى الحديث عنى وعنه . فعرفت أنه كان طالباً جامعياً لم يتم تعليمه لأنه تطوع فى أواسط الحرب ، وله الآن

ثلاث سنوات خارج إنجلترا . وهو يتحرق شوقاً للعودة ، فله خطيبة من بنات عمه اسمها « فيوليت » وكانا يتبادلان الحب وتواعدا على الزواج بعد التخرج ، وهما يتراسلان . ولكن طالت المدة وهو يخشى أن يحملها أهلها على الزواج من قريب آخر كان ينافسه . وأرانى صورتها وبعض خطاباتها . وذكر لى أوصافها ، وكانت حقاً جميلة كاسمها . . وكان جاويش الحرس يستمع لحديثنا خارج الباب ، فجاءنى بعد انصراف الضابط ورجانى بدوره أن أقدمه للشيخ فوعدته خيراً على أن لا يخبر أحداً من الحرس . ودعوته للجلوس وقدمت له السجاير وسألته عن حاله . وبكل بساطة وسذاجة الرجل الإنجليزى العادى ذكر لى أنه كان حلاقاً فى « شفيلد » وله مزرعة صغيرة للخضر وبها بقرتان ، وينوى بعد عودته أن يتزوج خطيبته « دوروثى » ويقيم بالمزرعة لتربية الدواجن والبقر .

وفى ساعة الإفطار فى اليوم التالى انتحيت بالشيخ «مصطفى» جانباً بعيداً عن بقية الزملاء وشرحت له الموضوع ، واتفقنا على ما يقول لكل من الضابط والجاويش بلغته الإنجليزية البسيطة و« حبيب » يكمل الترجمة عند اللزوم وأجلس أنا بعيداً حتى لا يظن أحد منهما أنى حدثت الشيخ بشأنه . وبعد

الإفطار قلت للضابط : ولو أنه مشغول بتأملات الصباح الروحية إلا أنه يسمح بمقابلته فى الساعة الحادية عشرة ، وحددت الساعة الثانية عشرة للجاويش . وظل الضابط يروح ويجىء وهو على أحر من الجمر انتظاراً للموعد المحدد ، وإذا تعب من قطع الطرقة الطويلة ذهاباً وإياباً يدخل غرفته ليرتاح قليلا ثم يعود . وفى الموعد المحدد أسلمته « لحبيب » فدخل معه غرفة الشيخ بعد أن نبهه لأن يفعل كما يفعل هو . وتقدم حبيب متأدباً وخلفه الضابط ، وركع أمام الشيخ ، وقبل يده . وكان الشيخ يجلس إلى كرسيه ويتمتم بكلام خافت ، ثم تطلع إلى وجه الضابط الراكع ، وهز رأسه مرتين ومسح بيده على رأس الضابط وجبينه ، وأمسك بيده وتأمل خطوطها ، ومر عليها بأصبعه وابتسم وقال فى هدوء : تركت الكتاب وأمسكت المسدس ، ولبست بدلة الكاكى بدل روب الجامعة . وسكت قليلا حتى يبلع الضابط ريقه من دهشة المفاجأة . واستمر الشيخ يقول : لعلك حسبتها مغامرة أو نزهة قصيرة لترى الدنيا وتزين صدرك بالشريط الملون والنيشان . والآنسة الحلوة التى تنتظرك هناك ما ذنبها . إنها زهرة جميلة كاسمها « روز » . « ليلى » . « فيوليت » . فدهش الضابط ، وفغر فاه ، فابتسم الشيخ وقال مطمئناً له : لا تخف



الشيخ يقرأ كف الضابط الإنجليزى

ولا تقلق ستعود سالماً ، وتقطف الزهرة وتظفر بالنيشان والشريط الملون . انتهى الكلام . فقبل الشاب يد الشيخ مراراً والدموع تترقرق فى عينيه ، وحيانا ومضى وهو يحلم بالمستقبل المشرق . وجاء دور الجاويش وفعل مع الشيخ كما فعل الضابط . فنظر إليه طويلا وابتسم وقال : يجب أن تنحنى أمامى وهناك فى بلدك تنحنى لك رؤوس من هم أعظم منك تلعب فى شعرها وذقنها كما تشاء ، وتحصل على الشكر والمال . عجيب جداً . لماذا تركت المقص والمشط وأمسكت البندقية والرشاش . هناك كنت تخاف من نقطة الدم والجرح البسيط وهنا تضرب بالرصاص وتسفك الدم وتقتل . ماذا لو بقيت هناك ترعى فى مزرعتك الصغيرة وتتزوج البقرة الثالثة الجميلة خطيبتك «دوروثى»؟! اطمئن ستعود إلى مزرعة جميلة بها أربع بقرات وتتزوج البقرة الجميلة وتنجب لك أربعة أولاد يملأون المزرعة هناء وبركة . انتهى الكلام . وخرج الجاويش مشدوهاً وهو يقول : قديس . قديس . ولحسن الحظ انتهت هذه المسرحية الثانية بنجاح منقطع النظير .

ولسوء الحظ انتهت أيام « ونتر بالاس » الجميلة ومرت كالحلم أو طيف الخيال . فقد صدر الأمر بإخلاء « ونتر

بالاس » للقيادة . ونقلنا إلى معتقل « ميت سنجر » وهو بيت قديم كان يملكه أحد رعايا الأعداء وبه حديقة كبيرة غير مهذبة تطل على النيل وبها سلاملك من غرفتين كبيرتين لليمين واليسار ودورة مياه ، وخلف السلاملك فناء خال كبير مكشوف يليه بناء آخر من دور واحد مخصص للضباط . وأسلمونا لكتيبة إنجليزية أخرى ووضعونا جميعاً فى غرفة السلاملك اليمنى والحرس فى الغرفة المقابلة اليسرى . وفرشوا لنا على الأرض مراتب فوقها بطاطين . وتغير الحال تماماً ، فامتنع حضور رسول الأسرة والسجاير والجرائد والمجلات وعاد الطعام إنجليزياً من تعيين الجنود . وسمحوا لنا بالجلوس فى الحديقة ساعتين كل صباح . وهناك كانوا يجيئون لنا بالشاى والبقسماط . وطلبنا القهوة فرخصوا لنا ولكنهم كانوا لا يعرفون صنعها . ومن المضحك أن القهوة جاءت أول يوم باردة ولا طعم لها فرددناها . وحضر على التو ضابط النوبة ، وبدا من شكله وكلامه وشاربه الكث الكبير والوشم الأزرق على صدره وذراعه أنه كان جندياً فى جيش المستعمرات النظامى ورقى من تحت السلاح . وقال فى غطرسة وغضب بلهجته العامية : عندما طلبتم القهوة كان رجاء ولكن بعد أن أجيب الرجاء أصبح أمراً عسكرياً يجب تنفيذه ، وعادت

القهوة فشربناها والجنود وقوف على رؤوسنا بسلاحهم والضابط يبرم شاربه ، ويقف وقفة المنتصر . فكانت سمًّا زعافاً .

والنكتة الثانية أنهم جاءوا برجل صعيدى عملاق من عامة الشعب لا نعرف عنه شيئاً ولا نختلط به ولا يشاطرنا الغرفة فلم نكن نراه إلا وقت الحديقة . وكان يجلس بعيداً عنا واضعاً رأسه بين كفيه ، ويغنى مواويل صعيدية بصوت أجشّ منفر ، وبين الحين والحين يحك رأسه وجلده كأن الحشرات تأكله . ولاحظ الجاويش ذلك وسألنا : ماذا يفعل هذا الحيوان ؟ فقلت : يظهر أنه فى حاجة إلى حمام ساخن . فقال : حقًّا إنه قذر وفى حاجة إلى أكثر من حمام . ولكن ما العمل ؟ إنه لا يمكن أن يدخل الحمام . فقلت ساخراً : ها هو النيل كله أمامه فليستحم فيه . أنزلوه فيه وأعطوه صابونة وفوطة . فهرش الرجل رأسه وأخذ يفكر وحمل كلامى على محمل الجد ونفذ الفكرة بأسلوب ساذج مضحك لا يخطر على البال . فقد ذهب وعاد ومعه حبل طويل متين وحارسان مسلحان بالبنادق ، وجرّد الرجل من ثيابه كلها كما يفعلون هم أنفسهم ، ولف الحبل تحت إبطى الرجل العملاق وأمسك بطرفه وقال : قل له أن ينزل النيل ويستحم بهذه الصابونة ويغسل ملابسه القذرة ، وأنذره

إذا حاول العوم بعيداً أو الغطس أو الهرب فسيطلق الحارسان عليه النار فى المليان . وضحك العملاق طويلاً ونزل إلى الماء وأخذ يعوم وهو يرفع عقيرته بالغناء إعلاناً عن سروره بهذه المتعة التى كان يتوق لها . وكلما ابتعد عن الشاطئ جذب الجاويش الحبل وصفر له . وجلس على الشط وأخذ يغسل ملابسه ، وطلع إلى الحديقة عرياناً ووجهه يطفح بشراً ونشر ملابسه على الشجرة حتى جفت ، ونحن نضحك من سذاجة الرجلين .

وحدثت المسرحية الثالثة وكانت فى هذه المرة غاية فى الجرأة والخطورة . فقد حلت فى الحراسة كتيبة سودانية محل الإنجليزية . وكان الضابط الإنجليزى لا يعرف العربية والسودانى لا يعرف الإنجليزية ، ويبدو أنهما ضابطان من تحت السلاح . وبدت مشكلة الترجمة ، والكتيبة الإنجليزية على عجل لتلحق بقطار أسوان والوقت لا يتسع للاتصال بالقيادة لإرسال مترجم من جهتها . فاضطر الضابط الإنجليزى أن يلجأ إلينا ، وتطوع « حبيب » للقيام بالمهمة ، وجعله الضابط يقسم اليمين على الترجمة بدقة وأمانة . وهنا بدأت المسرحية الجريئة الخطيرة التى مثلت بدون سابق تحضير أو إعداد . قال الضابط الإنجليزى للسودانى : هؤلاء معتقلون سياسيون وليسوا مجرمين عاديين

مسجونين ، ما عدا هذا (وأشار إلى الرجل العملاق) واستمر إلقاء الأوامر بالكلام والإشارة والترجمة العربية على النحو الآتى :

الضابط : هؤلاء المعتقلون يبقون بهذه الغرفة ويتجولون فى هذا الجناح ولا يتعدونه إلى جناح الضباط (وأشار إلى الجناح الآخر وحرّك سبابته يميناً ويساراً علامة النفى) .

حبيب : هؤلاء المعتقلون ينقلون فوراً إلى جناح الضباط ولا يبقون بهذه الغرفة .

(وحرّك سبابته كما فعل الضابط ، وهزّ الضابط السودانى رأسه علامة الفهم)

الضابط : يتريضون فى الحديقة ساعتين فقط فى الصباح (وأشار بإصبعه للحديقة) .

حبيب : يتريضون مرتين فى الحديقة صباحاً وبعد الظهر (وأشار بإصبعه كالضابط) . وسلم الضابط الإنجليزى على السودانى وشكر « حبيب » وانصرف مع كتيبته . وتغيرت الحال فصرنا نحن الضباط وهم المعتقلون وازدادوا احتراماً لنا وتفانوا فى خدمتنا عندما علموا بأن « حبيب » نقيب الميرغنية .

١٣ يونية ١٩١٩

فى حوالى التاسعة والنصف من صباح يوم ١٣ يونية ١٩١٩ حضر الضابط السودانى واستدعانا نحن الأربعة دون سائر المعتقلين إلى المكتب . وهناك وجدنا « أوين باشا » بملابسه العسكرية ونياشينه . وكان متجهماً على غير عادته ، ومعه ضابطان إنجليزيان آخران وحولهم حرس مسلح . وبدأ يتلو أسماءنا واحداً واحداً بصوت تبدو فيه شدة التأثر ، فأحسسنا فى الجو خبراً مفزعاً رهيباً ، وقال : لقد كلفت بمهمة شاقة على نفسى . ويؤسفنى أن أبلغكم أن المجلس العسكرى كان قد أصدر حكمه فى قضيتكم من مدة وأمرنى بتنفيذ الحكم فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم وقد أخفيت الحكم عنكم طوال هذه المدة حتى لا أنغص عليكم حياتكم قبل موعد التنفيذ ولهذا السبب نقلتكم من المعتقل إلى فندق « ونتر بالاس » وحرصت على راحتكم وإجابة مطالبكم بقدر ما تسمح به الأوامر ، بل إنى تخطيت هذه الأوامر فى بعض الأحيان تحت مسئوليتى إلى أن أمرت القيادة بنقلكم إلى هذا المعتقل . فهل تطلبون شيئاً خاصاً أو تكتبون لأهلكم فى أسوان . وفجأة صرخ

« جبالى عبد النبي » ونفث دماً غزيراً من صدره ووقع على الأرض وقال : تنفيذ حكم . . . . ورغبة أخيرة . . ورسالة . . هذا إعدام ياولاد إعدام . . ولا حول ولا قوة إلا بالله . وصيتك بنتى « فاطمة » يا « مظهر » . هناك فى « الفيوم » أشهد أن لا إله إلا الله . وراح فى غيبوبة . وحضر الجنود فوراً بمحفة ونقلوه إلى المستشفى العسكرى ، وتوفى بعدئذ مجاهداً شهيداً .

وخرج الضباط وساروا إلى باب المعتقل ، ونحن وراءهم نسير بدون وعى كالإنسان الآلى . ووجدنا على طول الشارع موكباً عسكريًّا فى مقدمته جوقة عسكرية موسيقية إنجليزية ، يليها أربعة بغال يحمل كل منها مدفع ميدان صغيراً ، ويحرسها الجنود الهنود ، ثم كتيبة إنجليزية تليها كتيبة سودانية ، وبنادق الجميع منكسة ووضعونا فى وسط الموكب . وبدأت المسيرة والموسيقى تعزف لحناً جنائزيًّا « مارش الموت » والجنود يسيرون بنصف خطوة . ويبدو أن الخبر انتشر فى المدينة فقد وقف الرجال فى جانبى الشارع على طول الطريق ، وبعضهم يقرأ الفاتحة ويرفع يديه بالدعاء ، وبعضهم يهمس بعبارات : إنا لله وإنا إليه راجعون . الله معكم يا أبطال يا أحرار . الله المنجى . أحياء عند ربهم يرزقون ، ومن وراءهم النساء بثيابهن السوداء والزرقاء تتساقط

دموعهن ويكتمن زفراتهن .

وسار الموكب مخترقاً شوارع الأقصر من المعتقل إلى المحطة ثم فندق « ونتر بالاس » وكنت طول المسير فى حالة ذهول وقف فيها التفكير . وتخيلت أن جسمى سقط منى على الأرض . ورأسى تضخم كالبالون ، وارتفع فوق رؤوس الناس ، وأخذت ألقى على الجماهير المحتشدة خطبة ثورية بصوت كالرعد : « أيها المواطنون يا أبناء وادى النيل الخصيب الجميل ، ذى المجد الأثيل والتاريخ المجيد الطويل . لقد قمنا بالثورة من أجلكم وأجل أولادكم وأحفادكم من بعدكم لنرد إليكم حريتكم واستقلالكم ونحميكم من الاحتلال والاستغلال ، وضحينا بشبابنا الغض ودمائنا الزكية وأرواحنا الطاهرة ، فداء لهذا الوطن العزيز الكريم ، ولعلكم أدركتم الآن أن هذه المظاهر العسكرية ليست إلا إنذاراً لكم بأن مصيرنا اليوم سيكون مصير الثوار الأحرار فى الغد . ولكن لا تيأسوا ولا تضعفوا واصبروا وصابروا وجاهدوا فى سبيل الله والوطن . والموت أشرف ما يكون فى ميدان الجهاد والفداء وبذل الأرواح والدماء . والذين يقتلون فى سبيل الله ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » . ووجهت كلامى للحرس بالإنجليزية : أنتم أيها الإنجليز . أيها القرصان الصليبيون . عشرة قرون مضت وأنتم تحاربون العرب

والإسلام . ولطالما أغرتم على مصر وغزوتموها وبالخيانة والخديعة دخلتموها ، ولكن ما تكادون تستقرون وتستعمرون حتى تهزمون وتطردون . لقد فشلت ثورة عرابى وقد تفشل هذه الثورة ، ولكن لا بد من يوم ، قريب أو بعيد ، يهيئ الله فيه لمصر نفراً من صميم أبنائها ومن شبابها الثوار الأحرار ، يعيدون الكرة ، ويشعلون الثورة ويطردونكم شر طردة وترحلون بغير رجعه . ونحن فى عليين نرقب يوم النصر ، يوم المجد والفخر ، فالدماء التى أريقت والأرواح التى أزهقت لن تذهب فى الأرض هباء ، وجزاؤها عند الله فى السماء . ولكن أذناً واحدة لم تسمع هذا النداء فقد كان مجرد أفكار هائمة فى العقل حائمة فى الخيال . ولكنها لم ينطق بها اللسان ولم تخرج من الفم .

وعدت فجأة من سبحتى فى عالم التهيؤات إلى دنيا الحقيقة المرة والواقع المؤلم ، على أثر شعورى بحركة وقوف ونداءات عسكرية وقعقعة سلاح وعزف الموسيقى العسكرية بالسلام الملكى البريطانى . وتلفت حولى فوجدنا فى وسط شارع النيل أمام « ونتر بالاس » وعلى رصيف النيل المقابل أقيمت منصة عالية جلس فى وسطها « أوين باشا » وبجواره يميناً ويساراً لفيف من العسكريين الإنجليز والهنود والسودانيين . وإلى الجانبين صفوف من المقاعد

جلس عليها كبار الموظفين والأعيان والتجار . وكأنّ على رؤوسهم الطير ، وخيم على المكان صمت القبور . وفوق المنصة رفع العلمان الإنجليزى والمصرى . ووقف « الباشا » وأدى التحية العسكرية لنا كما تقضى تقاليد النفاق ، وتلا علينا بالإنجليزية أحكام المجلس العسكرى ، وتلا الضابط السودانى ترجمتها بالعربية فى بوق مكبر للصوت ليُسمع الحاضرين والأهالى الوقوف. وهذا ما أذكره منها :

« حكم المجلس العسكرى البريطانى المنعقد فى ٢٨ مارس ١٩١٩ بمدينة أسوان برئاسة البريجادير . . وعضوية . . لمحاكمة المعتقلين السياسين المذكورين بعد وهم (الأسماء الأربعة) رئيس وأعضاء اللجنة التنفيذية العليا لما يسمى المجلس الوطنى للثورة بإقليم أسوان . وقد ثبت من تقرير السلطة المصرية المحلية أنهم ارتكبوا الجرائم الآتية عن عمد وإصرار وسابق تدبير :

١ — قاموا بالدعوة لثورة على الحكومة المحلية ، وسمموا أفكار الأعيان والتجار والموظفين والطلبة ودفعوهم للخروج على النظام العام ، وألفوا ما أسموه بالمجلس الوطنى الذى حاول تولى الحكم المحلى ، ونحوا الحكام الرسميين عن مناصبهم واغتصبوا سلطتهم بطرق غير مشروعة .

٢ — قبلوا أن يكونوا نواباً عن هيئة ثورية غير شرعية تدعى « الوفد المصرى » بالقاهرة وممثلين لها بمديرية أسوان .

٣ — دبروا ونظموا وقادوا مظاهرات عدائية ضد الحكومة مما أدى إلى اضطراب الأمن وتفشى الفوضى ، وما نجم عن ذلك من إتلاف وتخريب للممتلكات العامة والخاصة .

٤ — خالفوا عمداً أوامر السلطة العسكرية البريطانية القاضية بالإخلاد إلى السكينة والتزام النظام .

٥ — اعتقلوا بعض ضباط جيش حضرة صاحب الجلالة الإمبراطورية وأسَرِهم واحتجزوهم بفندق « كتراكت » بأسوان وحددوا إقامة المهندسين والموظفين الإنجليز فى مستعمرتهم بمنطقة خزان أسوان .

٦ — نادوا بسقوط الحكم القائم وحكومة حضرة صاحب العظمة سلطان مصر الذى أقرته حكومة بريطانيا العظمى متحدين بذلك السلطة العسكرية لقوات الاحتلال .

وبما أن العقوبات التى نص عليها القانون العسكرى الإنجليزى لهذه الجرائم تتراوح بين الحبس ستة شهور والإعدام ، ومجموع أحكام الحبس والسجن مع الأشغال ٦٥ سنة ، فإن عدالة حكومة حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة المتحدة وإمبراطور الهند ،

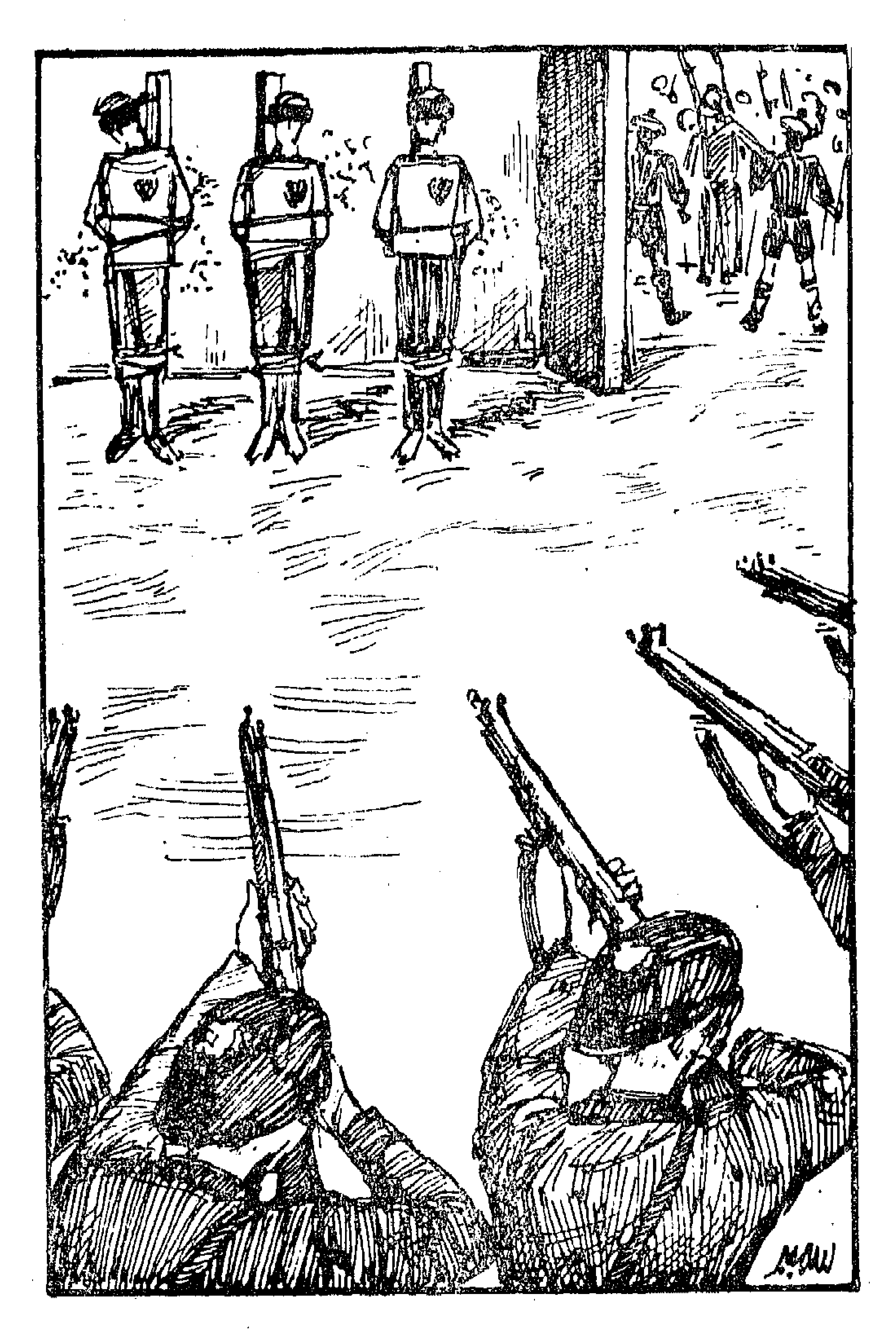
ومستعمرات ما وراء البحـــار . حفظه الله . ومراحم الحاكم العسكرى العام وقائد جيش الاحتلال رأت التجاوز عن أحكام الحبس والسجن اكتفاء بعقوبة الجريمة الأولى وهى الإعدام رمياً بالرصاص فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١٣ يونية ١٩١٩ علناً فى إحدى الساحات أمام الجمهور . وعلى جناب البريجادير « أوين باشا » الضابط السياسى المفوض من قبل الحاكم العسكرى العام إبلاغ المتهمين نص هذا الحكم فى الوقت الذى يراه مناسباً واتخاذ التدابير اللازمة لتنفيذه فى الوقت المحدد والمكان الذى يختاره » .

ووقف « الباشا » وأدى التحية العسكرية لنا مرة أخرى ، وأشار إلى ضابط إنجليزى يحمل فى جرابه مسدساً ضخماً ، فأمرنا أن ندور للخلف وتقدمنا فى السير تجاه سور الفندق الخارجي ووراءنا سرية ضرب النار ببنادقها . ودرنا مرة أخرى لنواجه المنصة ووقف جنود السرية أمامنا صفاً واحداً . وفتش الضابط البنادق ، وجاء بأوراق مستديرة بيضاء ثبتها فوق القلب تماماً ، وربط على عينى كل منا عصابة سوداء فانتزعتها بغضب وألقيتها على الأرض ودستها بقدمى . ثم ربط أيدينا من الخلف.. وأخرج مسدسه ووقف باعتدال متجهاً للمنصة منتظراً إشارة

الضرب من « الباشا » . وطال انتظار الإشارة وقتاً ما .

وهنا رأيت عجباً لم تصدقه عيناى، وآمنت بأن قدرة الله فوق قدرة البشر . والناس فى التفكير والله فى التدبير ، فقد حدثت معجزة قبل تنفيذ الحكم بثوان . سيارة حربية يرفرف عليها العلم البريطانى ، غبراء اللون من طول ما علق بها من تراب السفر الطويل تندفع إلى المكان بسرعة جنونية فيفر الجنود من أمامها ، وفى وسطها وقف « جنرال إنجليزى أركان حرب » يحمل الشريط الأحمر على قبعته والشارة الحمراء على صدره ، وصاح بأعلى صوته لضابط السرية : قف. قف. واندفعت السيارة نحو المنصة وأسرع « الجنرال » متجهاً نحو « الباشا » وتبادلا التحية وكلمات لم تصل إلى سمعى . وناوله مظروفاً عليه أختام بالشمع الأحمر. وما فضه « الباشا » وقرأ ما فيه حتى أشار لضابط السرية بالتقدم نحوه وألقى إليه ببعض الأوامر ، فعاد وفك العصابات والأربطة. لقد رأيت كل هذا ولم أصدق حواسى . ولكن زميلى لم يريا شيئاً.

وهنا تملكنى ذهول شديد ، ووقف عقلى عن التفكير وحواسى عن إدراك ما يحيط بى ، ومر أمام عينى شريط حياتى من نشأتى الأولى . ولست أدرى ما حدث بعدئذ ، ولا كم من الوقت مضى ، ثم لا شىء مطلقاً مما جرى فى ذلك الوقت الطويل



الثوار فى ساحة الإعدام

أو القصير . وفجأة تنبهت وعاد إلىّ شعورى وأحسست بجسدى ممدداً على الأرض على شيء خشن حسبته رملا وفى مكان دامس مظلم صامت كالقبر . وحركت بصرى ، ثم أصابع يدى ، وتحسست جسدى ثم صدرى . ولمست فيه شيئاً لزجاً له رائحة الدم . فأيقنت أنى رميت بالرصاص ومت ودفنت فى هذا القبر . وحركت ذراعى بعيداً فلمست يد شخص آخر بجانبي يقوم بنفس المحاولة. فهمست وهمس بكلمات متقطعة خافتة ودار الحديث التالى :

— من أنت ؟

— أنا « حبيب » . . وأنت « مظهر » ؟ !

— نعم !

— يظهر أننا ضربنا .

— نعم ، وأنا أشم رائحة الدم فى صدرى .

— وأين « مصطفى » ؟

— لا أدرى !

— هل جاءوا ؟

— من هم ؟

— الملكان .

— لسه .

– عارف الواحد يقول إيه لما يسألوه ؟

– نعم .

– يسألان : من أنت . ومن ربك ، وما دينك . ومن رسولك ، وما كتابك . . .

فقل : أنا فلان ابن فلان ، الله ربى ، والإسلام دينى ، ومحمد رسولى ، والقرآن كتابى ، وأشهد أن لا إله إلا الله .

وقبل أن أتم الجملة سمعت وقع أقدام تتحرك وأعددت نفسى لقابلة الملكين ، وسطع النور الكهربائى فى هذا القبر المزعوم . وإذا بنا فى غرفة يغطى أرضها كليم صوف ونحن الثلاثة نيام عليه ، وإذا ضابط المعتقل السودانى يقول : « صح النوم . الحمد لله اللى جت كده ، وإن كنت لا أعرف شيئاً مما حصل ولا كيف حصل ولكنهم أحضروكم هنا من ساحة الإعدام إلى المعتقل ثانية . وأنتم فى ذهول تام . وتبعاً للأوامر وضعناكم فى هذه الغرفة مؤقتاً حتى لا تختلطوا بزملائكم المعتقلين . وستنقلون غداً إلى مكان آخر . وآسف أننا لم نستطع أن نعد لكم غرفة أفضل . وعلى كل الحمد لله فقد نجوتم من الإعدام ، وهذه معجزة لا أدرى كيف حصلت . وقد جئناكم بطعام الغداء ولكنكم كنتم تغطون فى نوم عميق فأشفقنا أن نوقظكم ، وهاهو الشيخ « مصطفى » لا يزال

نائماً فأيقظوه بالراحة . نحن الآن بعد المغرب ، وطعام العشاء معد ».
وهنا ذكرت قول الله تعالى الله : « يتوفّى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها» ، وأدركت معنى الحكمة القائلة : « النوم هو الموت الأصغر » وأيقظنا الشيخ ، فقام مذعوراً ، ولما رآنا اطمأن، وقبلنا ، وحمدنا الله ، وجلسنا نتناول الطعام . وجاء الضابط بالقهوة والشاى والسجاير وأخذ الجميع يتبادلون الحديث ويتساءلون ماذا حدث بعد تفتيش البنادق . فهما لم يريا شيئاً فذكرت لهما ما رأيت إلى أن تهت عن الوجود . وأخذنا نتكهن عن السبب ونفكر فى المستقبل ، وعجزنا عن التفكير وفوضنا الأمر لله ، ونمت نوماً متقطعاً كله أحلام عن الماضى والحاضر والمستقبل .

وفى الصباح الباكر سمعنا مرة أخرى قعقعة السلاح وضرب الأرض بالأحذية الثقيلة كما تعودنا عند مجىء أى ضابط عظيم. ودخل « أوين باشا » وحيانا باليد واحداً واحداً، وجلس معنا على الكليم زيادة فى العطف ، وقال :

لا أستطيع أن أعبر لكم عن سرورى لنجاتكم من الموت قبل التنفيذ بثوان . وأؤكد أنى أحسست بشديد الألم فى ذلك الموقف ، وقد ترددت فعلا بعض الوقت ولكن أوامر

المجلس العسكرى واجبة التنفيذ . ولعل الله شاء أن أتردد لبعض ثوان لتنجوا من الموت . وهكذا لطف القدر بكم . وأنتم أحسن حظاً من غيركم ، ولعلكم تتساءلون عن السر .. لقد اتفق القائد العام مع الحكومة المصرية على إلغاء أحكام المجالس العسكرية على جميع المتهمين السياسيين المدنيين لأنهم لا يخضعون للقانون العسكرى وإحالتهم إلى محاكم عسكرية لها نظام آخر . وهذه نسخة من قانونها عليكم أن تدرسوها بإمعان وترتبوا دفاعكم بمقتضاها . ونظراً لضيق الوقت وتعذر الاتصال بالسكة الحديد أرسلت القيادة « الجنرال أوشى » الذى حضر بالأمس وجاء بالسيارة العسكرية من القاهرة بأسرع ما يمكن إلى أماكن تنفيذ الأحكام لإبلاغ الأوامر الجديدة . وقد وصل « ديرمواس » بعد إعدام المتهمين وهم يستحقون لأنهم مجرمون متوحشون قتلوا مفتش السكة الحديد الأعزل وألقوا ببعض الضباط فى فرن وابور القطار وهم أحياء . ولذلك لا آسف عليهم ، ولكنى أسفت على « محمد كامل » مأمور بوليس أسيوط ، فقد أعدم قبل وصول « الجنرال » ببضع دقائق .

وستنقلون الآن إلى سجن قنا انتظاراً للمحكمة العسكرية ، وبهذا تنتقلون من السلطة العسكرية البريطانية إلى السلطة المصرية ، وأرجو أن يحسنوا معاملتكم كما أحسناها ، وإن كنت أشك فى

ذلك ، والآن انتهت مهمتى فأستودعكم الله، ومع السلامة، والحمد لله على نجاتكم . وودعنا وانصرف .

وفجأة أخذ الشيخ « مصطفى » يسب الإنجليز ويلعنهم بعبارات جارحة أدهشتنا وأفزعتنا فى نفس الوقت ، فأنكرنا عليه مقابلة جميل « الباشا» بالجحود والنكران فقال : مؤكد أن السلطة المصرية ستبالغ فى إساءة معاملتنا بأمر السلطة البريطانية نفسها، إن الإنجليز مكارون مخادعون منافقون وأنا أعرف سياستهم أكثر منكم وقد جربتهم فى السودان. فقد كان « المفتش الإنجليزى» يأمر « المأمور المصرى » أن يسىء إلى السودانيين ويشتط فى طلب الضرائب وجباية أموال الميرى ويستخدم العنف والقسوة فى التحصيل ، ويعاقب على الهفوات الصغيرة بأشد العقاب ، فيتقدمون بالشكوى للمفتش بطبيعة الحال، فيستدعى المأمور المصرى أمامهم، ويعنفه أشد تعنيف وينذره بالعقاب وينصف الأهالى بأكثر مما كانوا يرجون، فيخرجون وهم يمجدون « المفتش الإنجليزى» ويحبون الإنجليز ويلعنون «المأمور» ويكرهون المصريين. كل هذا لبث كراهية المصريين فى نفوس السودانيين والإشادة بعدل الإنجليز . والمصرى الذى يمتنع أو يحتج يعاقب وينفى للمديريات الاستوائية ، والذى يرضخ يرقى . وها هم يكررون

نفس الدرس معنا ، يحسنون معاملتنا أولا ، ويأمرون السلطة المصرية بإساءتها ليظهر الفرق بين الطرفين فتنطفئ روح الثورة عليهم فى نفوسنا ، تماماً كما يفعلون فى السودان ، وسترون .

قلنا : قال الله ولا قالك يا شيخ . سنرى ما يكون ، والله الذى نجانا فى الأولى سوف لا يتخلى عنا فى الثانية ، والله على كل شيء قدير .

وودعنا الحرس السودانى فى المعتقل دون أن نمر على أصدقائنا ؛ وسرنا إلى محطة السكة الحديد فى صحبة سرية سودانية رافقتنا إلى باب السجن وودعونا أمام باب صغير يفتح من باب السجن الكبير الذى كتب عليه : السجن تأديب وتهذيب وإصلاح .

وفى أثناء رحلة القطار درسنا قانون المحكمة العسكرية بإمعان فداخلنا شيء كثير من الاطمئنان والتفاؤل . لأن مبدأ المحاكمة هو أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته ، وحق الدفاع ومناقشة الشهود وطلب شهود النفى والمستندات والوثائق وكافة ما يفيد الدفاع مكفول . والمبدأ الثانى أن المحكمة الإنجليزية لا تأخذ بالقرائن والشبهات أو الاستنتاج وإنما بالدليل المادى الملموس كالرؤية المباشرة بالعين والسماع المباشر بالأذن والكتابة بخط اليد . أما ما ينقل عن الغير أو يؤخذ بالظواهر فترفضه المحكمة .

وبدأت بوادر سوء المعاملة التى أشار إليها « الباشا » تظهر من اللحظة التى تخطينا فيها باب السجن الصغير . فقد نادى السجان البواب كاتب السجن من الغرفة المجاورة وقال : « المجرمين الجداد وصلوا » . وجاء الكاتب ومعه دفتر الوارد . وهو صورة حية للموظف المنسى المزمن القذر . وقبل أن يجلس إلى المنضدة الصغيرة ويفتح الدفتر بادرته بقولى : يا حضرة الباشكاتب نحن لسنا مجرمين كما قال الجاويش ، نحن معتقلون سياسيون . فتفرس فى وجوهنا مليًّا وقال بغضب : « كله زى بعضه . اسكت يا أفندى ودعنى أشوف شغلى » . وأخذ يسألنا واحداً واحداً عن الاسم والسن والبلد ويدون ذلك فى الدفتر ، ولم يسألنا عن العمل أو الوظيفة ، ثم أعطى كلا منا قطعة معدنية بيضاوية الشكل بيضاء اللون عليها رقم باللون الأزرق وقال : « أنتم هنا نمر بدون أسماء » . وكان رقمى ٥٢٥ . وسأل : هل معنا أمانات تحفظ فى خزانة السجن؟ فقلت : لا شىء غير ما علينا من ملابس . فشخط ونطر قال : « بلاش هزار يا مسجون » ، وأخذ منا ساعات اليد أمانات وأثبتها فى الدفتر .

واقتادونا إلى غرفة مأمور السجن « القائمقام جودة » فوجدناه رجلا كبير الجسم متجهم الوجه يجلس إلى مكتبه كالأسد الضارى

فى قفص حديقة الحيوان ، وتأملنا قليلا . ولما أوقفنا الضابط صفا واحداً أمامه صرخ قائلا : « مساجين . زنهار . سلام آل » وكان النداء العسكرى وقتئذ بالتركية ، فقال المأمور : « شوية شوية . لسه بدرى عليهم . اتفضل أنت شوف شغلك » فخرج الضابط وانتظر المأمور قليلا حتى اطمأن من وقع أقدام الضابط أنه ابتعد تماماً عن الغرفة ، وأمرنا بالجلوس وقال : كل البلد تعرف أنكم ثوار أسوان ونواب الوفد المصرى والمعلومات كلها وصلتنى عنكم ، ومفتش الداخلية أمرنى تلفونياً هذا الصباح أن أشتد معكم أنتم بالذات وأعاملكم معاملة المساجين العاديين ، مع أنه لا محل لكم هنا فأنتم لم يحكم عليكم ، إنما أنتم معتقلون سياسيون فى انتظار المحكمة العسكرية ، والسجن ليس مكاناً للحجز الاحتياطى . ولكن هذه هى الأوامر ، ومفروض أننى هنا «المأمور» ولكنى فى الواقع « العبد المأمور » ، أنفذ الأوامر دون مناقشة . وما دمتم هنا فانسوا ما كنتم عليه بالخارج واذكروا فقط أنكم فى السجن ، والسجن له لوائح يجب أن تتبع وأوامر يجب أن تنفذ ، والمخالفات لها عقوبات بدنية شديدة وقاسية ، أخفها الجلد ، وأشار إلىّ وإلى « حبيب » وقال : أنتما الاثنان كما تبدوان المدرسان المتعلمان فى جامعات إنجلترا ، فلماذا ثرتما على

الإنجليز ؟ فتمهلت قليلا وقلت : حقيقة نحن تعلمنا هناك كيف نكره الإنجليز هنا ، إنهم هناك ديمقراطيون مهذبون يقدسون الحرية ، ولكنهم هنا أجلاف متغطرسون ، يقتلون الحرية. فهز رأسه وقال : ربما ، ولكن أرجو أن تكتموا هذا الكلام فى أنفسكم وكونوا حريصين . ومع احترامى لأشخاصكم فأنتم هنا مساجين والسجن يعج بالجواسيس ، السجانون يتجسسون على الضباط والنزلاء والضباط يتجسسون عليهم وعلىّ أنا أيضاً ، وأنا أتجسس على الجميع . والأوامر تقضى بمعاملتكم كالمساجين العاديين . ولكنكم رغم هذا ستبقون بملابسكم العادية ، وتنضمون إلى بقية زملائكم المعتقلين وتنامون مثلهم داخل حرم السجن ، وليس فى « الزنزانات » ، وتحضرون طابور الصباح وعرض تنفيذ الأحكام ما عدا الشنق ، وطبعاً لن تجدوا السجن مثل « ونتر بالاس » أو حتى « بيت سنجر » وستصادفكم أمور تدعو للشكوى ، ولكن اعلموا أن أوامر مفتش الداخلية المشددة بشأنكم أنتم دون غيركم . وها أنتم ترون أنى أخاطر من أجلكم والأمر لله ، فتحملوا ولا تصعبوا مهمتى .

وسأل : هل معكم نقود أو لكم أقارب فى قنا ؟ ولما أجبنا بالنفى قال : إذن سيكون الأكل مشكله ولذلك سنصرف لكم اليوم من تعيين المساجين إلى أن نتدبر الأمر. وهنا عدد من الثوار

معتقلون مثلكم على ذمة التحقيق والمحاكمة وستذهبون إليهم الآن وتتعرفون عليهم فى الغرفة المخصصة لهم : وصحبنا إلى الغرفة وقدمنا لهم وتركنا . فوجدنا غرفة خالية من كل شىء إلا من كليم على الأرض ، ومن فيها جلوس يتسامرون فرحبوا بنا وسألونا عن حالنا . وعرفنا منهم الأستاذ « هاشم مهنا » القاضى (ورئيس ديوان الحسبة بعدئذ) والأستاذ الشاب « مصطفى مهنا » المحامى والشيخ « دندراوى » وشقيقه الشيخ « رشيدى » من أعيان « قنا » وثوارها البارزين ، و « حافظ بك الكلح » من أعيان « نجع حمادى » ، و ابن أخيه الطالب بالثانوى ، والشيخ « غزالى » المعلم الإلزامى ، و « عواد » الفلاح الصعيدى . وبعد قليل لحق بنا الشيخ « مصطفى الأقصرى » والشيخ « الحجاجى » . وفى موعد الغداء جاءت صوانى عليها أطعمة طيبة مطهية لهم ، كانت تأتيهم من أهليهم ، وجاء السجان بطعام السجن لنا . فأقسموا علينا أن نشاركهم الطعام فهو يكفى وزيادة ، فقبلنا شاكرين. وعلم أعيان وتجار « قنا » بنزولنا السجن فاعتبرونا ضيوفاً عليهم وأخذوا يرسلون الطعام لنا مع إخواننا .

وقبيل الغروب حضر أحد ضباط السجن ومعه قائمة أخذ يتلو منها أسماءنا واحداً واحداً للتمام علينا ، ثم وقفنا صفاً طويلا ،

وسار بنا الضابط وحولنا بعض السجانين إلى باب حديدى كبير هو مدخل حرم السجن الذى يبيت فيه المساجين فى « زنزاناتهم » ودخلت طوابير المساجين وبعد التمام عليهم وتوجه كل منهم إلى « زنزانته » بمرافقة السجان أقفلت أبواب « الزنزانات » . وتسلم الضابط مفاتيحها ثم أغلق باب الحرم وختمه بالشمع الأحمر وحمل المفاتيح معه إلى خزانة السجن ، حيث تبقى هناك إلى أن يفتح الحرم فى الصباح الثانى. ومن العجيب أن الحرم لا يفتح أثناء الليل مهما حدث فيه . . وكان فى داخل هذا الحرم طرقة طويلة تقع « الزنزانات » على جانبيها ، وقد فرشوا فيها لكل منا برشاً وكليماً صغيراً وبطانية ، بحيث يضطر الواحد منا أن يضع حذاءه تحت رأسه بدل الوسادة ويكور عليه الجاكته أو العباءة.

وبعد صلاة العشاء أخذ الشيخ « غزالى » يتلو ما تيسر من آى الذكر الحكيم بصوت مقبول ، ويبدو أن المساجين كانوا محرومين من هذا الترتيل ، فما إن ختم السورة حتى ارتفعت الأصوات من داخل « الزنزانات » : «الله لا يحرمنا منك يا فضيلة الشيخ». فانزعج الشيخ ورد عليهم : « الله يخرب بيتكم ويحرمنا منكم ، أتريدون أن أبقى مسجوناً معكم » . وأطفئت الأنوار ، وسكتت الأصوات استعداداً للنوم . وبعد قليل سمعت فجأة صوتاً

غاضباً فى الدور الثالث يقول : «انت يا ابن الكلب يا وسطانى سيب الحيط وإلا أكسر دماغك بكرة ، والله العظيم أدبحك » . وجاء السجان حارس الليل مهرولا يأمر بالسكوت لتمر الليلة على خير .

واقترب من مكانى ، فقد كانت الصيحة فى « الزنزانة » العليافوق رأسى . فسألته ما الخبر ؟ فقال فى بساطة : « يظهر أن التحتانى بعت حاجة للفوقانى فمسكها الوسطانى » ، ولم أفهم هذا اللغز فعدت أسأله : بعت إيه ؟ وليه ؟ قال : « يبعت سجاير أو أفيون والمسألة كلها بيع وشراء » وشرح لى العملية بكل بساطة كأنها شىء عادى ليس فيه مخالفة لقوانين السجن .

وهى أن يصنع المسجون خيطاً من صوف الكليم أو « البرش » ويربط به طاقيته ، ويكون قد اتفق مع من تحته أو فوقه على شراء الشىء أو بيعه ويوضع الشىء فى الطاقية ويتحرك الحبل وتصل البضاعة ثم يدفع الثمن بنفس الطريقة.وأحياناً يحس الوسطانى بالعملية فيتربص للحبل ويأخذ الشىء لنفسه ، ويحدث الانتقام فى اليوم الثانى عند المقابلة والشىء مخبأ فى ثنايا «البرش » بحيث لا يظهر عند تفتيش « الزنزانه » ، وبعضهم يضع الشىء

فى مناطق حساسة من جسمه أو تحت إبطه. والمعاملة بأنصاف الفرنكات الفضية التى يهربها لهم أهلهم بحيل مختلفة . فقلت : إذا كنتم تعرفون كل هذا فلماذا تتركونهم ؟ فقال ببساطة : « لأنهم يدفعون ، وهكذا حال السجن من تحت لفوق ، واحنا كلنا بناكل عيش . يا عم خليها على الله . إيدك بقى » . فقلت ضاحكاً : « يا عم احنا جداد لسه ما اتعلمناش الكار وليس لنا أقارب » . قال : « إذن راح تتعبوا ويانا » . وكشف هذا الحديث عن بعض أسرار السجن الذى كتب على أعلى بابه الكبير « تأديب وتهذيب وإصلاح » .

وما كدت أغمض عينى بعد هذا اليوم الطويل الشاق حتى طرق سمعى فى «الزنزانة» الأرضية المقابلة صوت اصطدام شيء معدنى رنان صلب أصم أعقبته صرخة آدمية مفزعة وقف لها شعر رأسى ثم حشرجة وسكون كصمت القبور . ولم يتحرك حارس الليل. وماذا يستطيع و « الزنزانات » مقفلة وعنبر السجن لا يفتح إلا صباحاً والدنيا ظلام دامس ، والمفاتيح فى خزانة المأمور الذى يغط الآن فى نومه بين أهله وأولاده. وفى الصباح الباكر دوت صفارات السجن فقمنا وارتدينا ثيابنا وحملنا فراشنا حسب التعليمات ووقفنا ننتظر . وسمعنا صرير الباب الخارجى ودخل

« الباشسجان » وخلفه السجانون وأخذ يفتح « الزنزانات » فيجرى المساجين إلى دورات المياه . وفتح باب «الزنزانة» التى سمعت الصراخ فيها ولم يخرج منها أحد. ووقف الرجل على بابها كالصنم. واقتربت ونظرت داخلها فرأيت منظراً مفزعاً تقشعر منه الأبدان. نصف جثة مهشمة الرأس لمسجون والمسجون الآخر جالس القرفصاء يحملق فى الجثة . وتكشف السر. فالمسجونان استطاعا أن يحدثا ثقباً فى أسفل جدار الزانزانة يكفى لخروج شخص واحد ، واقترعا على من يخرج أولا. وخرج الرجل الأول برجليه خشية غدر الثانى ،وخشى الثانى أن تفوته الفرصة فحاول أن يسحب الأول للداخل ثم يخرج هو أولا ، فقاومه مقاومة صامتة عنيفة حتى لا ينبه السجان، ولم يقدر عليه ، فتناول « الجردل » وضربه على رأسه فقتله ، وحاول أن يدخل الجثة فلم يستطع لأنها انحشرت فى الثقب .

وهكذا كانت ليلتى الأولى فى السجن. وحضر المأمور والضابط على عجل وأخرجونا من العنبر إلى غرفتنا لتناول الإفطار دون أن نغتسل . وكان الطعام سماً زعافاً .

ثم نودى علينا لطابور الصباح ، فخرجنا صفاً واحداً إلى جزء من فناء السجن ، فنادى السجان « صابك » . ووقف

فى الوسط وأخذنا ندور حوله عدة مرات فى تراخ وكسل وهو لا يهتم . وفى الجانب الآخر من الفناء كان المساجين يدورون فى طابور مماثل ولكن كلا منهم يحمل بين يديه كرة حديدية « جلة » كبيرة إمعاناً فى التعذيب . وفجأة ظهر أحد الضباط وكنت بالصدفة قريباً من السجان فضربنى على قفاى ضربة شديدة بمجموعة المفاتيح فألقانى على الأرض وقال : « ما تمشوا فى الطابور كويس . إنتو ياولاد الكلب يا بتوع المظاهرات » واحتملت الضربة صاغراً إلى أن انتهى « صابك » طابور الصباح واسترحنا قليلا على الأرض ، وعاد زملاؤنا إلى الغرفة ، أما نحن الثلاثة فقد ساروا بنا إلى مكان تنفيذ الأحكام.
وكان وسطها « العروس السوداء » التى يقيد إليها المحكوم عليه بالجلد كأنه يحتضنها وظهره عار . وإلى جوارها وقف سجان عملاق يمسك « القطة أم سبع ذيول » وهى كرباج ضخم سميك له سبعة فروع فى آخر كل منها قطعة حديد أو رصاص ، ويغمسه السجان بين آن وآخر فى « جردل » به ماء مالح . وبجوار العروسة وقف طبيب فوق أذنيه سماعة القلب يجس بها نبض المجلود و « تومرجى » يحمل صندوقاً صغيراً به مراهم وقطن وشاش وأربطة لتضميد الجروح . ونودى أولا على طالب الثانوى

وكانت عقوبته عشرين جلدة . وبدأ الضرب ، وكل ضربة تخرج بالدم . وتجلّد الطالب بقدر ما يستطيع ولكنه بعد الجلدة الخامسة لم يحتمل العذاب وصرخ وتوالى صراخه . ثم خفت صوته تدريجيًّا وانقطع تماماً عند الجلدة العاشرة، ففحصه الطبيب وقرر إيقاف الجلد لأن القلب كاد أن يتوقف ، وأسعفوه ونقلوه إلى مستشفى السجن: ونودى بعده على الفلاح الصعيدى العملاق: وكانت عقوبته ثلاثين جلدة احتملها كلها دون أن يهمس بحرف أو تختلج فيه عضلة رغم أن ظهره تمزق وتناثر لحمه . فلما أسعفوه بالضمادات قام من تلقاء نفسه ومر علينا وابتسم وقال : الحمد لله على كده . أنا كنت فاكر فيها دم » ، أى إعدام .

وسارت الحال على هذا المنوال ثلاثة أيام ثم استدعينا لحضور جلد مسجون ، لحظ الطبيب فى عينه احمراراً زائداً وبفحصه وجد قطعة أفيون مخبأة تحت الجفن .

وفى عصر اليوم الرابع دعانا المأمور« أنا » و« حبيب » فقط إلى مكتبه وخرجنا معه واخترقنا حديقة صغيرة إلى ڤيلا ، هى مسكنه الخاص الملحق بالسجن. وهناك استقبلنا استقبالا كريماً ورحب بنا وأحضر الشاى والبسكويت والحلوى والسجاير . ثم أحضر لنا أوامر وتعليمات من مفتش الداخلية ومفتش عام

السجون بالإنجليزية ورجانا ترجمتها، ثم عدنا إلى السجن . وتكررت هذه العملية عدة مرات . ونسيت أنه بعد أن ضربني السجان بالمفاتيح وعدنا إلى غرفتنا سألته : ما دمت أنت مسلماً ونحن مسلمين كذلك . فلماذا تشتمنا وتقول المظاهرات الإسلامية؟ فقال : لا مؤاخذه أنا شديد الأسف والسجن كله جواسيس ، وأخشى أن يتهمني الضابط بالتساهل معكم والكلام يصل إلى الجهات العليا خارج السجن وتعليمات مفتش الداخلية تقضى إساءة معاملتكم دون سائر المساجين . وذكرني هذا بكلام مأمور السجن .

وحدث ونحن بمنزل المأمور أن طلب منا ترجمة برقية وردت صباحاً تقول : إن الأميرالاى « لوكاس » مفتش عام سجون الوجه القبلى سيزور السجن بعد يومين لاستعراض المسجونين السياسيين . وما سمع المأمور هذا حتى استعاذ بالله من شر هذه الزيارة لأن الرجل شرس حاد الطبع سريع الغضب . ورجانا ألا نستفزه بكلمة أو إشارة ولا نرد أبداً على ما يقول ، وربنا يجيب العواقب سليمة . وأخذنا ننتظر هذا اليوم المشؤوم فى قلق واضطراب ، ونبهنا زملاءنا بالتزام الهدوء والصبر وعدم الشكوى أو الرد عليه بما يغضبه .

وفى اليوم المعهود خرجنا نحن المعتقلين السياسيين إلى حوش السجن ووقفنا فى نصف دائرة وحولنا الضباط والسجانون . أما المأمور ونائبه فكانا أمام الباب الرئيسى يستقبلان « جناب المفتش العام » . ودخل علينا الرجل بلباسه العسكرى وطربوشه الأحمر ومعه عصا من الخيزران ذى العقل المدببة يهزها يميناً ويساراً ، كأنه يتحفز للضرب ، ومن خلفه سرية من جنود « الجوركا » الهنود البدائيين يحمل كل منهم بندقية ركبت فيها السونكى ، ووقفوا خلفنا كالتماثيل والبنادق فى ظهورنا . وتفرست فيه فإذا هو نفس المدرس « المستر لوكاس » مدرس الجغرافيا بالمدرسة الخديوية . الذى كان يعاملنى بمنتهى اللطف والحنو ، فاطمأنت نفسى قليلا .

واقترب منا الرجل وكأنه أسد هصور ، ووقف يتطلع إلينا واحداً واحداً وأخذ يقذف من فمه سيلا من أقذع الشتائم ويسب الثوار المصريين الناكرين لجميل بريطانيا على مصر ، بريطانيا التى أصلحت البلاد ورقتها ومدنتها وحمتها من الألمان والطليان كما حمتها من الأتراك من قبل . وأخذ يسأل كلا منا عن اسمه وعمله . وبدأ بالصعيدى العملاق وقال : « أنت حمار بهيم لا تعرف شيئاً . اخرج بره امشى » . واتجه إلى المشايخ وقال :

«أنتم رخرين بهائم . أطيان كتير وفلوس كتير لكن مخ مفيش الحق على اللورد كرومر اللى كان يدافع عن الفلاح ويحميه من ظلم الباشوات » . ثم قال للمحامين : « أنتم بغبغانات كلام فارغ كتير . خطب وهتافات . كلام . كلام . بريطانيا لا تخرج بالكلام والخطب والهتاف والمظاهرات » . ثم أشار إلىّ بالعصا فقلت : أنا سعيد جداً « لوكاس بك » لتشريفك اليوم . أنا « مظهر سعيد » تلميذك فى الجغرافيا فى المدرسة الخديوية وفى الكورة والجمباز . فنظر إلىّ بطرف عينه ، وقال : « ودلوقت بتشتغل إيه ؟ » قلت : مدرس . فرفع عصاه وضربنى على وجهى ضربتين قاسيتين أسالا الدم من صدغى ووجهى ، وفقدت صوابى وكدت أهجم عليه ولكن « حبيب » تصدى لى وحسناً فعل ، فقد أحسست بالسونكى يغرسه الجندى « الجوركى » الواقف ورائى بين ضلوعى فوقفت ساكناً ورفعت يدىّ إلى أعلى علامة الاستسلام . وصاح « لوكاس » غاضباً هادراً كالثور الجامح : « أنتم المدرسين أنتم طاعون البلد . تسمموا أفكار التلاميذ والأعيان والفلاحين الحمير يعملوا مظاهرات وتخريب ، وتعلموا الفلاحين والعمال العصيان والثورة ، أنتم تستاهلوا ضرب الرصاص من غير رحمة » . ويبدو أن الغضب أفقده صوابه وازداد احمرار وجهه وأذنيه ، فأدار ظهره

وانصرف والمأمور وجنود « الجوركا » فى أثره دون أن يتم دورة الأسئلة . وحضر الطبيب وضمد جراحى ونقلونى إلى غرفة الجلوس .

وبعد أسبوع حضرت المحكمة العسكرية ، وأفردوا لها قاعة فسيحة فى السجن ، وضعت فيها منضدة كبيرة طويلة وعدة كراسى حولها وأمامها ثلاثة كراسى . ودعينا نحن الثلاثة فقط : « أنا » و « حبيب » و « مصطفى قدرى » — للمثول أمامها. وفى طريقنا إليها وجدنا عدداً من أهل أسوان جلوساً ووقوفاً فى الحديقة خارج غرفة المحكمة ، وفيهم ناظر المدرسة وسكرتيرها . وألقينا التحية فلم يرد أحد فأدركنا أنهم شهود إثبات جندهم مفتش الداخلية ضدنا . ودخلنا الغرفة فوجدنا حول المنضدة هيئة المحكمة برئاسة « بريجادير إنجليزى » وعضوية « قائمقام هندى » و « ضابطين إنجليزيين » آخرين ، وإلى جانب المنضدة « يوزباشى مصرى » يقوم بالترجمة . وقبل بدء المحاكمة استأذن الضابط المترجم « اليوزباشى حسن حسنى الزيدى — الفريق الزيدى فيما بعد » رئيس المحكمة أن ينتحى بنا جانباً ليشرح لنا قانون المحكمة العسكرية الإنجليزية . وهنا تمت المسرحية الرابعة البالغة الخطورة التى قام فيها « الزيدى » بدور المؤلف والمخرج وأداه بكل شجاعة وجرأة وتضحية ووطنية صادقة . فقد فتح

الكتاب فعلا وتطلع إلينا كأنه يقرأ ويترجم ، وقال فى صوت خافت: «أنا وطنى مثلكم ما تخافوش . وأنت يا "مظهر" أنا صديق والدك . لقد رأيتم فى الخارج أشخاصاً تعرفونهم فى أسوان أحضرهم المدير بأمر مفتش الداخلية ليشهدوا ضدكم» . ورسم لنا خطة الدفاع وطريقة الكلام والإجابة وناشدنا أن ننفذها بحذافيرها كما رسمها . وقد كان. وبفضل الله و«الزيدى» نجونا من الموت أو على الأقل السجن أو الجلد . وعاد بنا وأوقفنا أمام المنضدة :

ونادانا رئيس المحكمة واحداً واحداً بأسمائنا فأجبنا باحترام وقال : أقسموا أشهد بالله العظيم أن أقول الحق كل الحق ، ولا شيء غير الحق . وأقسمنا ، فأمرنا بالجلوس على الكراسى المعدة لنا فى مواجهته . وقال : أنتم الثلاثة . فلان وفلان ، وفلان ، أما الرابع فلان فقد سقطت عنه الدعوى لوفاته ، متهمون بكذا وكذا. وتلا نفس الاتهامات الواردة بحكم المجلس العسكرى السابق دون ذكر الأحكام . وتمهل قليلا ثم قال : أنتم تحاكمون أمام محكمة عسكرية وفق القانون الإنجليزى الذى اطلعتم عليه منذ قليل . فهل لكم اعتراض على هيئة المحكمة ؟ فانبريت بسرعة . حسب تعليمات «الزيدى» وقلت : ياسعادة «الجنرال الرئيس»

يسعدنا ويشرفنا نحن الذين درسنا فى جامعة « كمبردج » أن نقف أمام قاضى إنجليزى وقضاة بريطانيين عرفوا بالعدالة والإنسانية والتمسك بروح القانون وليس بحرفيته . فابتسم وقال : إن هذه التهم التى تشير إليها التقارير : مظاهرات عدائية، تعطيل لأعمال الحكومة . تخريب . تقارير وشهود كلها تدينكم ، فهل أنتم مذنبون أم غير مذنبين . فقلنا معاً : غير مذنبين . وعدت فقلت يسمح لى سعادة « الجنرال » بكلمة : إن هذه التقارير المختلقة صادرة عن مدير المديرية والبوليس والمدير كاذب جبان ، وكانت بيننا وبينه أمور شخصية دفعته للنكاية بنا . وهناك سر أخجل أن أبوح به علناً ، أقوله للرئيس فى أذنه إذا سمح. فقال : بل قل للمحكمة كل ما تريد فليس هنا أسرار . فقلت : إن المدير له بنتان فأراد أن يغرينا بزواجهما . « أنا » و« حبيب »، وهما لا تجدان فى أسوان من هم أفضل منا شباباً وثقافة ومركزاً . فاعتذرنا بطبيعة الحال لأن « حبيب » خطيب شقيقة و« أنا » خطيبتى تنتظرنى بالقاهرة . ومن ذلك الوقت تغيرت معاملته لنا فقاطعنا وسلط البوليس وراءنا لمضايقتنا ، بعد أن كان يدعونا بين آن وآخر لتناول الشاى . ولو حضر هنا أمام المحكمة الموقرة لفضحت لكم كذبه . أما البوليس فمعذور لأنه مأمور

وعليه أن يلفق ويكذب ويزور كما يأمره المدير . فتجهم وجهه وظهر الغضب عليه لأن القضاة الإنجليز لا يكرهون شيئاً أكثر من النقائص الخلقية ، كما لمست بنفسي أثناء دراستي بإنجلترا فيما بعد .

ثم قال : ما علينا . فما الذى حدث إذن فى أسوان ؟

فقلت : أما وقد أقسمنا اليمين أمام المحكمة الموقرة ، فبالنيابة عن زملائى أقرر الحقيقة كاملة تحت مسئوليتى وأترك لضمائركم الحية وعدالتكم المعروفة تقدير الظروف والملابسات ونحن قابلون مطيعون للحكم كيفما كان .

فارتاح الرئيس على كرسيه وابتسم ، وقال : استمر . فقلت : حقيقة الأمر أن الشعب كله خرج فى مظاهرة سامية لإظهار شعوره نحو قضية بلاده العادلة . وهذا أسلوب لإعلان الرأى العام الحر ، وقد شاهدنا الكثير من هذا فى حديقة « هايدبارك » « بلندن » بل إننا شاهدنا ملاحدة وفوضويين يعلنون آراءهم المتطرفة فى حرية مطلقة ، وأشخاصاً يتناولون الأسرة المالكة والكنيسة والبرلمان والحكومة بنقد لاذع وبذىء أحياناً . والجمهور يسمع فى هدوء والبوليس لا يتعرض لأحد ، لأن القانون الإنجليزى يحمى حرية الرأى ولا يعاقب عليه . فردياً أو جماعياً مهما كان متطرفاً ومنحرفاً ، وإنما يعاقب على استخدام العنف والإكراه والوسائل

غير المشروعة فى تنفيذه . ولم يحدث أى شيء من هذا فى أسوان .

وقاطعنى الضابط الهندى قائلا : أنتم كما يقول التقرير لم تشتركوا فى مظاهرة فقط ولكنكم دبرتم وأشرفتم وقدتم وجملتم الطلبة والموظفين والأهالى على الاشتراك فيها .

فأجبت فى هدوء وابتسام موجهاً كلامى للرئيس : إن المظاهرة إذا لم تكن لها قيادة محترمة مطاعة يحتمل جداً أن تضم بعض المتحمسين غير المسئولين أو حتى الغوغاء الذين لم يعتادوا النظام ، وقد خشينا من هذا وحسبنا حسابه . ولما كنا مدرسين لنا مكانة مرموقة وكلمة مسموعة عند الطلاب وأولياء أمورهم ، فقد طلبوا منا أن نقوم بمهمة الإرشاد والقيادة . وقد كلفنا الضابط فعلا بالقبض على بعض الغوغاء الذين أرادوا اقتحام محطة السكة الحديد وتخريب القطار وقطع أسلاك التلغراف والتليفون .

وتدخل « حبيب » وقال : وأحب أن تعرف المحكمة الموقرة أننا عثرنا بالفيلا التى كان يملكها الجاسوس الألمانى الخطير « فريتز رفورل » واستأجرناها من الحراسة البريطانية على أملاك رعايا الأعداء ، على جهاز لاسلكى وشفرة حربية سرية ، وسلمتها للحارس القضائى ، وكيل البنك الأهلى بأسوان .

ووصلنا خطاب شكر وتقدير من القيادة العسكرية العليا . وقد حافظنا على الضباط الإنجليز وأسرهم فى فندق « كتراكت » وأجبنا كل طلباتهم ، وأكرمناهم كل الإكرام ، وكذلك مع « برنارد باشا » السكرتير المالى لحكومة السودان ومرافقيه ، ويسرنا لهم العودة للسودان فى أمان وسلام . أما عن المهندسين والموظفين الإنجليز بمستعمرة الخزان فقد خشينا عليهم من تهجم بعض الغوغاء الذين لا سلطان لنا عليهم هناك فحرسناهم وأجبنا كل طلباتهم . وقد سجل الضباط شكرهم فى دفتر الفندق فأرجو أن تطلبوه لتطلعوا عليه . ودون الرئيس بعض ملاحظات على ورق أمامه . وتسلمت طرف الخيط من « حبيب » وقلت : إذا كانت المحكمة الموقرة قد اطلعت على تقارير كاذبة مزيفة ، فهناك تقارير صادقة كتبها الضباط الإنجليز الشرفاء وعلى رأسهم « برنارد باشا » نرجو الأطلاع عليها لتتأكدوا أن هذه الدعوى كيدية باطلة. فابتسم الرئيس وقال : لقد سلمنى « أوين باشا » تقرير « برنارد باشا » عنكم واطلعت عليه وهذا هو وسلمه إلى الضابط الهندى الذى هز رأسه وقال فى عناد : ومع ذلك فلا بد من سماع الشهود .

وجاءت لحظة المسرحية ، فرفعت أصبعى للرئيس وقلت : نستأذن المحكمة فى استراحة قصيرة نؤدى فيها فرض الصلاة

وقد حان موعدها ، وأذن الرئيس بذلك ، فوقفنا قرب الباب ووقف الشيخ « مصطفى » أمامنا ورفع يديه للسماء وقال : بصوت عال يسمعه من فى الخارج : « أنتم يا شهود ياللى بره اسمعوا . والله العظيم ثلاثاً لو حد منكم شهد ضدنا أو قال إنه سمعنا أو شافنا لا بد نجيب رجله، ونثبت أنه اشترك معنا بالباع والدراع وأنه كان فى وسط المظاهرة ، وتدخلوا السجن معانا » . وأخذنا نصلى ركعتين وفى كل ركعة يكرر الشيخ هذا التحذير . وكان الضابط الهندى لا يعرف صلاة المسلمين فسأل الرئيس : ماذا يقولون ؟ فرد عليه : إنهم يتلون آيات القرآن كتاب المسلمين المقدس . وتمت مسرحية الصلاة فعدنا وجلسنا أمام المحكمة . وتداول الرئيس مع العضوين الآخرين وقال : حسناً، استدعوا الشهود . فدخل جماعة منهم وبسؤالهم أخذ كل منهم يجيب بسرعة وكأنه يود أن يطير ويهرب بعيداً عن المكان : أنا لم أر ولم أسمع . أنا كنت بعيداً عن المظاهرة . أنا كنت بالبيت . أنا كنت مريض . أنا كنت خارج أسوان . وطبيعى أنهم سمعوا التهديد وهم خارج غرفة المحكمة . وبعد سماع عدة شهود والبقية ما زالت تنتظر بالخارج ضاق الرئيس ذرعاً وتملكه الغضب وضرب المنصة بيده وقال : شىء عجيب ! هذا المدير

مجنون أو إنسان كاذب شرير . لماذا أحضر كل هؤلاء كشهود إثبات وهم فى الواقع شهود نفى . اخرجوا جميعاً عليكم اللعنة . وعلى كل حال أنا مكتف تماماً بتقرير « برنارد باشا » ولا أريد أن أسمع شيئاً آخر . وأشار إلينا وقال : انصرفوا أنتم وسنبلغكم الحكم فيما بعد ؛ فشكرنا المحكمة على سعة صدرها وعدالة حكمها المنتظر ، وعدنا إلى غرفة جلوسنا بالسجن ، وبصرنا زملاءنا المحامين المصريين المعتقلين بأسلوب المحاكمة ونظام المحكمة ؛ وأجمع الكل على أن طرد رئيس المحكمة لبقية الشهود علامة طيبة وفأل خير . وعدنا إلى حياة السجن الروتينية كما كنا .

وذات يوم استدعانا مأمور السجن نحن الثلاثة إلى مكتبه ودخلنا فوجدناه غاضباً أشد الغضب وفى يده خطاب يقرؤه بإمعان ، ولما رآنا انفجر يقول : « الراجل مفتش الداخلية ده وحش مجنون بينكم وبينه إيه . أنتم قتلتم أبوه وبينكم وبينه تار بايت » اسمعوا أمر جنابه : بما أن المحكمة العسكرية قد أصدرت حكمها بالبراءة فى قضية فلان وفلان وفلان ، فيخلى سبيل الشيخ « مصطفى قديس » فوراً ويفرج عنه وتسلم له تذكرة سفر بالدرجة الثالثة بالسكة الحديد ويرحل إلى أسوان مباشرة . أما المتهمان الآخران فلان وفلان فيبقيان فى السجن لحين محاكمتهما أمام السلطة المحلية .

وعلى كل حال مبروك يا شيخ « مصطفى » وأرجو بمجرد وصولك أسوان أن تزور الفيلا وتطمئن الجماعة هناك وتطلب منهم فوراً إرسال رسول ومعه طاقم ملابس جديدة وغيار لكل منهما ، وكان هذا ممنوعاً منذ دخولكم السجن بأمر مفتش الداخلية ، أما النقود فممنوعة بتاتاً داخل السجن ، وهذه هى تذكرة السفر ويمكنك أن تزور بقية زملائك للوداع . أما أنتما من الآن فلستما مساجين ولا معتقلين وإنما ضيوف إلى أن يأذن الله بالفرج . ولا يملك مفتش الداخلية ولا من هو أكبر منه أن يحاكمكم مرة أخرى بعد حكم المحكمة العسكرية . وستتغير المعاملة من اليوم وأنا المسئول . فلكما أن تقضيا الوقت مع زملائكم أو فى الحديقة أو فى مكتبى ، وتتناولون الطعام كالمعتاد . أما المبيت فسيكون فى مستشفى السجن . وقد أعددنا لكما غرفة خاصة مريحة . وذهبنا مع الشيخ « مصطفى » إلى غرفة جلوس الزملاء وأعلنا خبر الإفراج عن « مصطفى » فقابلوه بالعناق والتقبيل ، وطال عناق الأستاذ « مصطفى » المحامى لسميه ، فارتجل « الشيخ الأقصرى » على البديهة هذين البيتين .

ضاقت علينا حجرة ... بالسجن ليس بها صفا

ومن العجائب مصطفى ... فيها يعانق مصطفى

فضحكنا وودعنا الشيخ ورحل .

وبعد تناول العشاء ذهب زملاؤنا إلى عنبر السجن للمبيت كالمعتاد وذهبنا نحن إلى مستشفى السجن فوجدنا غرفة نظيفة مريحة ذات سريرين وبها حمام معد بالصابون والبشاكير والماء الساخن وتمورجى ساهر مكلف بخدمتنا ، فهرعنا إلى الحمام لنزيل ما تراكم علينا من أوساخ طوال مدة السجن، وصليت ركعتين لله شكراً على إنقاذى من حمام السجن والحلاق . فقد كان حمام السجن به عدد من الأدشاش المكشوفة للعيان دون ساتر . فيخلع المساجين ملابسهم ويدخلون عرايا دفعة دفعة تحت نظر السجانين ويقفون تحت أدشاش الماء البارد كما ولدتهم أمهاتهم ويعطيهم السجان قطعة صابون واحدة للجميع فيتخاطفونها وينثرون الماء هنا وهناك ويتهارشون فى أتم سرور وصخب كالأطفال ، وينسون متاعب السجن ولو لبضع دقائق . وكان من المستحيل أن أجاريهم ، فلم أدخل الحمام طيلة أيام السجن وكنت أكتفى بغسل رأسى وذراعىّ ورجلىّ من حنفية غسيل الأيدى . ولم أكن أستطيع استعمال المرحاض البلدى والجلوس القرفصاء إلا بمشقة ولذلك لم أكن أقربه إلا مرة كل ثلاثة أو أربعة أيام ، وقد ألفت الإمساك المزمن وآلام المغص . أما

الحلاق فكان يجز شعر الرأس كما تجز الخرفان بماكينة الصفر «نمرة زيرو» وتصير الرأس «زلطة» وينقل الماكنة من رأس إلى رأس بوسخها وعبلها . فامتنعت عنه وطال شعر رأسى حتى صرت كالناسك المتعبد فى مغارة الجبل، ولم يكن شعر ذقنى قد طال بعد لصغر سنى والحمد لله . ونمت ليلة هادئة فريدة حلمت فيها بأهلى فى أسوان ووالدى بالقاهرة .

وفى ظهر اليوم التالى دعينا لغرفة المأمور فوجدنا «طه كحالة» ومعه لكل منا طقم ملابس داخلية وخارجية كامل ، ولكنهم مرة أخرى نسوا الطربوش والحذاء . وتركنا المأمور معاً وخرج . وبعد تناول التحيات والسؤال عن أسرته وأسرتنا والإخوان والاطمئنان عليهم جميعاً أخبرنا أن جميع أهل أسوان والجزيرة علموا بالخبر الذى استشرى كالنار أثر وصول الشيخ «مصطفى» وهم يدعون لنا بالخير وينتظرون عودتنا بفارغ الصبر . أما المدير الجبان فهو ملازم منزله، وقد جعله شعوره بالخجل والهزيمة – بعد أن طردت المحكمة بقية الشهود – يحتجب ولا يرى وجهه للناس الشامتين فيه . وتركناه برهه لتغيير الملابس . وعدنا فسلمنا له ملابسنا القديمة ، ووعد بالعودة بعد أسبوع وأحسسنا أننا صرنا آدميين مرة أخرى .

وبعد يومين دعينا إلى مكتب المأمور مرة أخرى، فوجدنا على مكتبه رجلا وقوراً لم نره من قبل ، وإلى يمينه ضابط بوليس مصرى وإلى يساره كاتب أمامه دفتر مفتوح . وبعد التحية قدمنا إليه المأمور وعرفنا أنه رئيس نيابة قنا . وقال الرجل: أهلا وسهلا بالأساتذة الثوار الوطنيين نواب « سعد باشا » و « الوفد المصرى » . تفضلوا بالجلوس فلى معكم كلمتان . ونظر فى ورق أمامه وقال : أنا مش عارف إيه اللى بينكم وبين مفتش الداخلية . الراجل المجنون ده له تصرفات غريبة غير قانونية وعامل دكتاتور فى البلد ولا أحد يستطيع أن يقف فى وجهه أو يصده » . وقال للمأمور : « أنت فاكر الأمر الذى أصدره بأن كل مصرى فى أى مكان مهما كانت مكانته إذا مر عليه ضابط إنجليزى بأى رتبة عليه أن يقف ويؤدى التحية العسكرية . وفاكر أخينا القاضى .. ؟ كان جالس فى المقهى ومر عليه ضابط إنجليزى مجرد ملازم، وكان يقرأ الجرنال فلم يره ، فعاد الضابط ومعه جنود مسلحين قبضوا عليه وأهانوه وأوسعوه ضرباً . وأنت يا حضرة اليوزباشى صدر لكم أمر بالوقوف والسلام باحترام واحتشام لأى ضابط إنجليزى ولو كان أقل منكم رتبة .. وناقص يأمروا بالوقوف للعساكر كمان . وهكذا انقلبت الأوضاع » .

وقد عرف هذا الرجل المجنون أن المحكمة العسكرية برأتكم وليس له سلطان عليها فاستغل سلطته فى الحكومة المصرية وطلب إحالتكم إلى النيابة للتحقيق معكم من جديد وإحالتكم إلى محكمة الجنايات المصرية مخالفاً بذلك القانون . ولكننى أعرف كيف أرد عليه وأوقفه عند حده بالقانون مهما كانت النتيجة » افتح المحضر ياحضرة الكاتب واكتب :

إنه فى الساعة ... من يوم ... الموافق . . . حضر أمامنا نحن رئيس نيابة قنا بسجن قنا بناء على طلبنا الأستاذان ... و ... للتحقيق معهما فى التهم الموجهة إليهما من جناب «المستر ماكنوتن» مفتش الداخلية ، توطئة لإحالتهما لمحكمة الجنايات ، بناء على أمره المذكور بخطابه رقم ... بتاريخ ... وبما أن هذا الطلب غير قانونى ومرفوض شكلا وموضوعاً، لأن المحكمة العسكرية سبق أن نظرت هذه الدعوى وحاكمت الأستاذين على نفس التهم المذكورة فى الخطاب وأصدرت حكمها بالبراءة ، وحكمها نهائى واجب التنفيذ وغير قابل للاستئناف أو النقض أو أى وسيلة من وسائل الطعن ، ولا يجوز للمحاكم المصرية أن تعيد النظر فى أحكام المحاكم العسكرية ، فبناء على المواد . . من قوانين . . . نقرر تحت مسئوليتنا أن الأستاذين المذكورين ...

لم يرتكبا أية جريمة (جناية أو جنحة أو مخالفة) يعاقب عليها القانون الجنائى المصرى . ولهذا نأمر بحفظ الدعوى نهائياً والإفراج عنهما فوراً ما لم تكن هناك أوامر من سلطات أخرى حكومية . . . إمضاء وختم

وقال للمأمور : أنا عارف أنك لا تستطيع الإفراج عنهما إلا بأمر مفتش الداخلية وأنت معذور ولكن على كل حال أديت واجبي وسأرفع القرار للنائب العام ليتخذ الإجراءات القانونية لتنفيذ أمر النيابة . وأنتما تستطيعان أن تقاضيا مفتش الداخلية إذا لم يفرج عنكما بمجرد تسلمه قرار النيابة وتطالبان بالتعويض والأضرار ، ولكن أنصحكما بالهدوء والتريث وإلا دبر لكما تهمة أخرى. وحيانا فشكرناه وحمدنا له روح العدالة والوطنية ، وانصرف .

٢٠ أغسطس ١٩١٩

وشاء القدر الرحيم فى صباح يوم ٢٠ أغسطس ١٩١٩ ، وهو بالمصادفة يوم عيد ميلادى ، أن استدعانا المأمور إلى مكتبه وبلغنا فى سرور بالغ أمر الإفراج عنا وترك السجن فوراً والسفر إلى أسوان رأساً بالقطار بتذاكر الدرجة الثالثة لأن مفتش الداخلية يريد إذلالنا حتى فى آخر لحظة . وبالطبع لم تكن معنا نقود لنركب الدرجة الثانية على الأقل وندفع الفرق . فشكرناه وذهبنا نودع زملاءنا وعدنا إلى المكتب فوجدنا ضابط بوليس مصرى وشرطيين مكلفين بمرافقتنا إلى المحطة والانتظار حتى يقوم القطار منعاً لاختلاطنا بالأهالى . ولكن اتضح أن ناظر محطة « قنا » رآنا وعرفنا فأبرق إلى ناظر محطة «الأقصر» وهذا بدوره إلى ناظر محطة « أسوان » وانتشر الخبر فى المدينة وكان لذلك أثر كبير فى استعدادهم لاستقبالنا .

وهناك فى الدرجة الثالثة تطلع الركاب فى دهشة لشعورنا الطويلة وطرابيشنا وأحذيتنا القذرة التى لا تتفق مع ملابسنا الخارجية الأنيقة ، وحاروا فى أمر ركوبنا الدرجة الثالثة

وازدادت حيرتهم عند ما سلم علينا ضابط البوليس عند تحرك القطار . وانتحينا ناحية فى مؤخرة العربة بعيدين عن الإنظار المتطفلة . ونزلنا محطة « الأقصر » حيث يتعين الانتظار بضع ساعات لنركب القطار الصغير إلى « أسوان » . وهناك على الرصيف وجدنا فى انتظارنا (ا . ن) مأمور بوليس «الأقصر » ومعه ضابط آخر .

فتقدم منا وحيانا وقال : أهلا وسهلا بثوار أسوان الوطنيين . أنتم ضيوفنا إلى أن يقوم القطار . فقلت ممازحـًا . لعلها ليست ضيافة ولكنه أمر بعدم نزولنا المدينة والاختلاط بالأهالى . فقال وهو يتكلف الضحك : إنها ضيافة على كل حال لم يكن لها ضرورة . فالكل هنا يعرفونكما ويتتبعون أخباركما ولا ينسون يوم ١٣ يونية . وقد عرفوا موعد وصولكم من ناظر المحطة الذى لا تبتل فى فمه فولة ، ونحن لا نريد مظاهرات هنا . ووصل الخبر طبعـًا إلى « أسوان » ، وأخشى أن يعدوا لكما مظاهرة كبرى فتعودان إلينا، فقال : « حبيب» : وهل يليق أن ننزل « أسوان » ونقود المظاهرة ونحن بهذا الشكل القذر كما ترى . أقل ما يجب الآن حلاقة الرأس ومسح الحذاء وكى الطربوش . فقال المأمور : على العين والرأس كل الطلبات مجابة . فقلت :

لكن ليس معنا نقود ؟ فقال : هذا من واجب الضيافة . وذهب بنا إلى صالون حلاق أمام المحطة وجاء ماسح الأحذية وأرسلت الطرابيش للمكوجى . ورفض كل من الحلاق وماسح الأحذية والمكوجى أن يتقاضوا أى أجر على خدماتهم وأصروا على رفض ما قدمه المأمور . فقال : أرأيتم كيف يعرفكم الناس هنا ويقدرونكم ؟

ثم اصطحبنا إلى مقهى مجاور للمحطة واختار مكاناً منعزلا وبعد الشاى والقهوة والسجاير بدأنا نتبسط فى الحديث ، فقال : « أنا والله محتار فى أمركم . أنتم لغز لا بد وراءه سر . شبان أذكياء متعلمون فى مصر وإنجلترا ومن أسرات طيبة وأمامكم مستقبل زاهر يبشر بكل نجاح ، تركتم أسركم ومجالكم الفسيح فى القاهرة وجئتم إلى منفى أسوان بمحض اختياركم ، علشان إيه كل ده . علشان وظيفة فى مدرسة حرة فقيرة ومرتب صغير تصرفون أضعافه فى الفيلا . مش معقول . أنتم ساكنين فى فيلا فخمة وعايشين أحسن من المدير ذاته وكل يوم عزائم وولائم كما بلغنا . أمال جئتم ليه ولماذا اختاركم سعد باشا نواباً عن الوفد وترك الأعيان والتجار ، بس علشان تعملوا حكام لمدة أسبوعين وتعملوا مظاهرة وتقلبوا الدنيا . مش معقول . شغل مجانين ولعب عيال ،

والنتيجة إيه ، حبس واعتقال وإعدام لولا تدخل القدر فى آخر لحظة.كسبتم إيه ولا البلد كسبت إيه . كل البلد من القاهرة وبحرى وقبلى كسبت إيه من الثورة غير السجن والاعتقال والنفى والإعدام والخراب والدمار والموت . وزخرى فشلت كما فشلت ثورة عرابى من قبل . لعب عيال وعبط . عمل مجانين يلعبوا بالنار » . وسكت وهو يلهث فانتهزت فرصة سكوته ، وقلت : أنت تتكلم بلسان مفتش الداخلية تماماً كأنك إنجليزى ولست مصرياً . وأنت معذور لأنك لست مأموراً كما نتوهم وإنما أنت العبد المأمور . نحن كما تقول ثوار وطنيون ونواب عن زعيم الأمة « سعد باشا زغلول » اختارنا دون أعيان وتجار أسوان لأننا أرقى تعليماً وأوسع ثقافة منهم ومنك ، واحتملنا السجن والاعتقال فى صبر وواجهنا حكم الإعدام فى هدوء . فيجب أن تتحفظ فى كلامك معنا وتحسن اختيار ألفاظك . وإذا كنا ضيوفك كما قلت فليس من اللياقة أن تشتم ضيوفك . فتصنع الابتسام وقال : « أنا والله قلبى عليكم ولا أريد أن تتحملوا التجربة القاسية مرة أخرى . كيف غاب عنكم أن الإنجليز حكام البلد وأسيادها ونحن عبيدهم ولن يخرجوا أبداً ، وهم أقوياء ونحن ضعاف » فقاطعه : « حبيب » ، قائلا : هل كان عرابى

بجيشه الصغير الضعيف يعتقد أنه يستطيع أن يهزم الإمبراطورية البريطانية بأسطولها الجبار وجيشها الجرار ؟ وهل كان الشاب « مصطفى كامل » بجهده الفردى ، ولسانه وقلمه ، يعتقد أنه أقوى من إنجلترا ؟ وهل الشيخ المسن « سعد زغلول » يعتقد أنه بالشعب الأعزل يطرد الإنجليز من مصر ؟ كلا يا حضرة المأمور المصرى الجنسية والمولد الإنجليزى النزعة والأفكار ! المسألة ليست قوة مادية ، وإنما هى إيمان بالله والوطن وثقة بالنفس وتضحية فى أداء الواجب وفداء من أجل تحرير البلاد . وإذا كانت ثورة عرابى قد فشلت بسبب خيانة « الخديو » التركى « وسلطان باشا » الإقطاعى و« خنفس » الضابط المصرى وبعض مشايخ العربان الأفاقين ، وقد تفشل هذه الثورة بسبب نزعة الغرب الصليبية ضد الإسلام والعروبة ، فلا بد أن يأتى يوم يهيئ الله فيه لمصر جيلا جديداً من الثوار الأحرار يحررون مصر من الاحتلال والاستعمار كما فعل « أحمس » و « صلاح الدين » ويطهرون البلاد من الفساد والإفساد ، وإن ربك بالمرصاد . فهز المأمور رأسه وقال : « لكم دينكم ولى دين ، وأنا مبدئى ، لا تعاند من إذا قال فعل . ومن يجارى الإنجليز يأكل سمن وعسل ويقبض ذهب ، ومن يعاند يشرب خل ويأكل بصل ويأخذ فوق دماغه .

وأنا والله قلبي عليكم وهذه مجرد نصيحة على كل حال» . فقلت : هناك حكمة قديمة لعلها صينية تقول : إن الشيء الذى نعطيه دائماً ونأخذه أحياناً ولا نعمل به أبداً هو النصيحة .وخاصة إذا كانت مثل نصيحتك. وشكراً لك على كل حال ، ولكن لا تنس أننا تلاميذ «جمال الدين الأفغانى » و « الأمام محمد عبده » وزملاء الشاب « مصطفى كامل » ونواب الشيخ « سعد زغلول » بل نحن أكثر تعليماً وأوسع ثقافة وأحدث عصراً ، وربما عند ما نكبر نعمل أكثر وأكثر ، وتكون أنت أكبر وأكبر بفضل الإنجليز . وكفى الله المؤمنين القتال . وانتهى الحديث عند هذا الحد حتى لا يسمع الرجل أكثر مما سمع . وقد التزم الرجل مبدأه فظل يرقى فى كنف الإنجليز حتى صار فى آخر الأمر باشا ومديراً لإحدى مديريات الوجه البحرى الكبيرة ، وأغفل التاريخ ذكره فى جملة من أغفل ، والله غفور رحيم .

وحان موعد قيام القطار إلى « أسوان » فودعنا المأمور ،وشد الضابط الآخر الذى لم يشترك فى الحديث ولكنه كان ينصت باهتمام بالغ وعلامات التأثر تبدو على وجهه بين حين وآخر ، على أيدينا مراراً ونظرات الإعجاب تتجلى فى عينيه . وبعد أن تحرك القطار وسار المأمور فى طريقه إلى خارج المحطة التفت

الضابط إلينا وأخذ يلوح بيديه ومنديله كأن حديثنا الوطنى قد مس شغاف قلبه .

وحدث فى العربة حادث عجيب . ذلك أن الركاب الأسوانيين عرفونا فأقبلوا علينا يحيون ويهنئون وأفردوا لنا مكانًا فى العربة وأعدوا فراشًا وطعامًا، فأكلنا ونمنا نومًا عميقًا ، استيقظنا منه عند وقوف القطار بمحطة « إسنا» على صوت « طه كحالة» وشابين من أسرة « النجار » وتعانقنا والدموع تترقرق فى الأعين . وأخذ « طه »يحدثنا عن الخبر الذى وصل بسرعة البرق إلى « أسوان » ، وأن المدير أعد حرسًا مسلحًا لإنزالنا بمحطة الجزيرة والتوجه بنا إلى الفيلا فوراً لأن مفتش الداخلية موجود بأسوان وسيركب نفس القطار إلى الشلال . وسيكون فى توديعه على رصيف المحطة بطبيعة الحال المدير وكبار الموظفين وضباط البوليس . وهو يخشى إن نزلنا « بأسوان » أن يحدث من الشعب ما يغضب المفتش عليه . وقال « طه » : وقد عرفنا هذه اللعبة وبإذن الله سنفسدها، لأن أفراد أسرة « النجار » المسلحين سيكونون متربصين بمحطة الجزيرة ويمنعون رجال البوليس من الوصول إلينا، ويجعلون السائق يستمر بالقطار دون توقف . وفى أسوان سيكون الأهالى جماعات جماعات متفرقة

حول المحطة منعًا للفت الأنظار حتى إذا وصل القطار انضموا فى موكب كبير ، وأعدت عربات الحنطور لاختراق المدينة إلى الفيلا .

وقد كان ،ونزلنا من القطار فى محطة « أسوان » ولمحنا المدير فنظر للحكمدار نظرة طويلة حائرة يلوح فيها الفزع ، وحاول أن يشغل مفتش الداخلية بالحديث ويحول أنظاره عنا . وما كاد المفتش يدخل عربة القطار الخاصة والقطار يتحرك حتى اندفعت الجماهير تلتف بنا وتهتف بدوى كالرعد : يحيا سعد ، يحيا الوفد ، يحيا «مظهر » و «حبيب » . وأطل المفتش من نافذة القطار ورأى المنظر وسمع الهتافات وتردد كأنه يفكر فى النزول ثم أغلق النافذة واختفى. أما المدير فقد صعق ووقف جامداً وحاول أن يخرج إلى عربته ولكن الجماهير حالت دونه . . . وحملنا الشعب على الأكتاف إلى عربة حنطور مكشوفة اخترقت بنا شارع النيل على مهل ووراءنا رتل من العربات تردد هتافات راكبيها والرجال الوقوف على جانبى الطريق يصفقون ويهتفون والنساء يزغردن وأصحاب المقاهى والحوانيت يوزعون الشربات .

ووصلنا باب الفيلا الكبير فوجدنا الوالدة والإخوة فى الانتظار وبعد العناق والقبلات شكرنا المرافقين ودعوناهم للقهوة والشاى

والشربات فرفضوا شاكرين ليتركونا مع الأهل بعد هذا الفراق الطويل . وقضينا ثلاثة أيام نستقبل المهنئين نهاراً ونحكى للأسرة تفاصيل ما حدث ليلا حتى الساعات المتأخرة من الليل . والحديث طويل والتفاصيل كثيرة .

وحكت لنا الوالدة عما حدث منذ اعتقالنا فقالت : إنها توجست خيفة من حضور ضابط البوليس ودعوة المدير لنا للغداء وحضر الحكمدار مسرعاً على جواده ودخل من الباب الخلفى للحديقة ونادى على الوالدة وأعطاها كلمة السر . فانطلقا معاً وجمعا المسدسات والطلقات والأوراق ووضعاها فى صندوق صغير وتسللا إلى الباب الخلفى دون أن يراهما أحد. ونصحت الوالدة بدفن الصندوق فى الحديقة فى مكان غير مطروق لأن فى وجوده معه خطراً كبيراً عليه ،وانتهت المهمة بسرعة وعاد الحكمدار من الباب الخلفى كما جاء ، وما كاد يغيب عن النظر حتى جاءت سرية إنجليزية على رأسها ضابط إنجليزى وآخر سودانى للترجمة ، وفتشوا الفيلا تفتيشاً دقيقاً بحضرة والدتى ، وانصرفوا والضابط الإنجليزى حنق أشد الحنق لأنه لم يجد شيئاً ، ونادى الضابط السودانى الوالدة وقال لها : الحمد لله يا والدتى والله المنجى. ولم تظهر الوالدة أى ارتباك أو خوف ولم تسأل عن السبب

لأنها علمت نبأ القبض علينا من الحكمدار .

وحضرت على أثر ذلك سرية سودانية لحراسة الفيلا ونصبوا خيامهم حولها خارج الحديقة . وقابل ضابطهم الواللدة فرحبت به وظنها فى أول الأمر إفرنجية ، فلما تجاذبا أطراف الحديث وحكت له عن جدى « حاكم السودان العام » و « حبيب » نقيب المبرغنية أبدى الرجل شدة أسفه لاعتقالنا ولحضوره مع الجنود كحراس ، ولكنها الأوامر تقضى بالحراسة ومنع الدخول والخروج ، وهو مضطر لتنفيذ الأمر نهاراً خشية التفتيش ، ولكنه سيغض الطرف أثناء الليل . فأرسلت الحارس « ركابى » ليطلع أسرتى « النجار » و « كحالة » بهذا الخبر .

وفى المساء بعد العشاء أرسلت الشاى والسجاير للضابط والجنود ، وبدأ أولاد « النجار » يتسللون للفيلا ومعهم الخرفان والطيور والسمك والدقيق والسمن والسكر ، وتلاهم الأعيان بالشاى والبن والسجاير والمعلبات والمربيات وغير ذلك من أصناف البقالة . وكثر الخير فى الڤيلا والحمد لله ولم تحتج الأسرة لشىء من الخارج . وكانت أحيانًا تدعو الضابط والجنود للعشاء داخل الفيلا أو شرب الشاى بعد الظهر وتجالسهم وتحادثهم حتى أحبوها وتفانوا فى خدمتها . وعرض الأصدقاء

عليها أموالا ، ولكنها رفضت بحجة أن لديها الكثير . ولم يكن هذا صحيحاً فالقليل المتبقى معها كاد أن ينفد والمدرسة لم تدفع مرتبات مارس . والاتصال بالقاهرة غير ممكن . وعرض وكيل البنك الأهلى أن يعطيها سلفة تسددها بعد عودتها ، ولكنها رفضت شاكرة ، وجاء مأمور السجن وقدم لها مائة جنيه فلم تقبلها إلا بعد أن أقسم أنها كانت ديوناً لنا على بعض الأصدقاء ، والحقيقة أنهم جمعوا هذا المبلغ فيما بينهم وجازت الحيلة على الوالدة .

وذات صباح حضر « المدير » فى عربته وحوله حراس مسلحون من رجال البوليس كأنه فى موكب رسمى ودخل الحديقة من الباب الكبير ، وهرول «ركابى » يخطر الوالدة برغبة « المدير » فى مقابلتها ، فوقفت فى الشرفة ونادت الضابط السودانى فحضر مع سرية من الحرس ، وكانت قد أخبرتهم بالدور الذى لعبه « المدير » فأنكروا عليه نذالته ، واقترب « المدير » من الشرفة . فقالت له فى حزم : قف مكانك لا تتقدم . ماذا تريد ؟ هل تريد أن تقبض علينا نحن الآخرين . وفزع « المدير » من هول المفاجأة ، ودار الحديث على مسمع من الجميع كما يلى :

المدير : صباح الخير يا هانم أفندى . أنا آسف جداً لما حصل ولا ذنب لى فيه والله العظيم . وأنا والمديرية كلها فى خدمتكم

ورهن إشارتكم ومستعد لإجابة كل طلباتكم ، أؤمرى وعلينا الطاعة .

الوالدة : ماذا فعلت بزوجتك المسكينة التى أقسمت عليها ؟ هل طلقتها كما حلفت لهم ثلاثا أمام الشهود وكذبت عليها كما كذبت عليهم . اخرج يا رجل ولا ترنى وجهك ، وسيكون بيننا وبينك حساب عسير وكل آت قريب. نحن والحمد لله فى غنى عنك وعن أمثالك ، وإذا لم تخرج فى سلام فسأكلف الحرس السودانى إخراجك بالقوة ،وليس لك عليهم سلطان .

وتلفت الرجل حوله فرأى الجميع حتى حراسه ينظرون إليه شذراً ، فحنى رأسه فى خجل وخرج . واقترب الضابط السودانى من والدتى وقبل يدها فدعته للجلوس وشرب القهوة وأخذ يقول : سيدة ولا كل السيدات . شجاعة أم الشجعان . وتناقل أهل « أسوان » هذا الحديث فزادهم إكباراً لها وتقديراً لشجاعتها وبطولتها إلى حد أن الوالدات أخذن يسمين بناتهن « فاطمة » على اسمها « فاتيمه » والأولاد « مظهر » ، و « حبيب » .

وفى اليوم الرابع ركبنا « أنا »و « حبيب » — عربة الحنطور وطفنا بها المدينة لرد الزيارات للرجال ، والوالدة عربة مكشوفة

أخرى لزيارة السيدات . وكادت تحدث مظاهرة أخرى لولا أننا ناشدنا الأهالى أن يخلدوا إلى الهدوء فكفانا ما لقينا من عذاب المعتقل والسجن .

ولم يمض أسبوع حتى طلبنا للمثول أمام المحكمة لحضور جلسة القضية التى رفعها ضدنا مجلس إدارة المدرسة يطالب فيها بالتعويض عما لحق المدرسة من أضرار بسبب انقطاعنا عن العمل ، وكان القاضى « على حيدر حجازى » فوجه إلينا الكلام قائلاً : إن عريضة دعوى إدارة المدرسة تنسب إليكما أنكما تركتما العمل بالمدرسة قبيل آخر السنة الدراسية مخالفين بذلك شروط عقد التعيين مما يوجب تنفيذ الشرط الجزائى وهو دفع مبلغ يوازى مرتب ثلاثة شهور إلى جانب التعويض عن الأضرار الأخرى المذكورة فى العريضة ، فامتناعكما عن التدريس فى تلك الفترة بالذات وهى أهم جزء فى السنة الدراسية كان له أسوأ الأثر فى نتيجة الطلبة فى امتحان الكفاءة العام ، وعلى سمعة المدرسة لدى وزارة المعارف وأولياء أمور الطلبة ، وربما قطعت الوزارة إعانة المدرسة أو على الأقل خفضتها وأنزلت مرتبتها . والتفت إلى الأستاذ « رزق سليمان» محامى المدرسة وعضو مجلس الإدارة وقال : أليست هذه طلباتكم ياأستاذ ؟ فأجاب : نعم

يا سعادة القاضى . إن إدارة المدرسةتطالب كلا من الأستاذين دفع ما يوازى مرتب ثلاثة شهور بحسب الشرط الجزائى فى العقد (٤٢ جنيها) و (خمسين جنيهاً) تعويضاً عن الأضرار المادية والأدبية ومصاريف الدعوى وأتعاب المحاماة . وأراد أن يسترسل ، فقال القاضى : لا داعى للمرافعة يا أستاذ فالمحكمة تعرف الموضوع من أوله لآخره، وتعرف كذلك أن الأستاذين قاما بواجبهما كاملا على نحو يستحق الشكر والتقدير بدلاً من الضرر والتعويض . بل إنهما قاما بأكثر من الواجب ، وبثا روح الحياة فى المدرسة وخلقاها خلقاً جديداً بما استحق تقدير الطلبة وأولياء أمورهم وأهل « أسوان » وصارت لها سمعة طيبة محترمة بعد أن كانت ميتة واكدة لا يحس بها أحد . و « أسوان» كلها معجبة بما قاما به من نشاط ثقافى ورياضى واجتماعى وما نظماه من عروض ومسابقات وحفلات حضرناها وسعدنا بها . وثابت أن نتيجة المدرسة هذا العام فى امتحان الكفاءة لم تتأثر بغيابهما بل إنها أفضل بكثير مما كانت فى السنوات السابقة لحضورهما ، وقد راجعت بنفسى نسب النجاح فى السنوات السابقة فى الوقائع المصرية . وثبت أيضاً أنهما أتما المناهج المقررة قبل انقطاعهما عن التدريس، وكانا يراجعان الدروس مع

الطلبة فى حين أن المدرسين الآخرين كانوا متخلفين بعض الشيء . والطلبة هنا فى «أسوان» ينقطعون عن المدرسة عادة للمذاكرة فى البيوت من أول أبريل . أما الوزارة فلا شأن لها بإدارة المدرسة فهى مدرسة حرة ، ولا يعنيها فى تقدير الإعانة السنوية إلا نتيجة الامتحان العام . وقد علمت أن الإدارة نظراً لحسن نتيجة هذا العام سترفع درجة المدرسة وتزيد إعانتها وأنتم تعلمون ذلك. أما عن أولياء الأمور فهم جميعاً مدينون بالشكر للأستاذين لأدائهما واجبهما على الوجه الأكمل ورعايتهما لأولادهم وحسن صلتهما بآبائهم. وقد ارتفعت مكانة المدرسة عند كافة الشعب بعد أن أثبتت أنها مؤسسة وطنية تجارى الشعور القومى العام . . وإذا جاز للمدرسة أن تطالب بتعويض يوازى مرتب ثلاثة شهور فإن مدة الانقطاع الحقيقية لا تتعدى أربعة أيام فى يوم ٢٧ مارس إلى أول أبريل . كما أن للأستاذين الحق فى مرتب شهور العطلة الصيفية الثلاثة كاملاً مهما كانت الظروف ، فضلا عن أن الانقطاع كان لظرف قهرى لا يد لهما فيه . ولست أدرى لماذا لم تدفع المدرسة للآن مرتب شهر مارس مع أنهما قاما بالعمل فيه ٢٦ يوماً . . . والمدرسة إذن لم يقع عليها أى ضرر يستوجب التعويض ، وأما الضرر كله فقد وقع عليهما

لما لحقهما من سجن واعتقال وتعذيب ، لا لمصلحة خاصة ، وإنما دفاعاً عن قضية الوطن ومصلحةالشعب كله ، وأنتم منه ، وهذه تضحية من أجل الوطن، من أجلنا جميعاً نحن وأولادنا وأحفادنا يجب أن تقابل بكل تقدير وإكبار ، وفضلا عن ذلك فقد حكم عليهما بالإعدام ولكن شاءت إرادة الله الرحمن الرحيم أن لا ينفذ الحكم. ولعلهما الآن لا يملكان مصاريف العودة إلى الأهل ولا وسيلة الانتقال ، وربما سداد الديون التى يحتمل أن تكون قد استجدت أثناء فترةالاعتقال الطويلة، والاتصال بالأهل متعذر . لهذا أنصح بالصلح بينكما على أن تشطب الدعوى وتلتزم إدارة المدرسةبالمصاريف وأتعاب المحاماة وتدفع لكل منهما مرتب ٢٦ يوماً من شهر مارس ومرتب شهور العطلة الصيفية الثلاثة بالكامل . ولا أحب أن أشير إلى أن ناظر المدرسة وسكرتيرها كان من الممكن أن يشهدا ضدهما أمام المحكمة العسكرية لولا أن المحكمة رفضت سماع جميع الشهود . وحسناً فعلت ، ولو حدث هذا لكان وصمة عار فى جبين المدرسة إلى الأبد، وإذا رفضتم الصلح على هذا الأساس فستحكم المحكمة لهما بالإضافة إلى ما ذكرت بمرتب شهرى مايو ويونية ، لأن الانقطاع عن العمل كان لظرف قهرى

خارج عن إرادتهما كما ذكرت من قبل ، وكذلك بمكافأة توازى مرتب شهر عن كل سنة خدمة إلى جانب التعويض عن الضرر . ورفعت الجلسة للاستراحة لنصف ساعة .

وتداول الأستاذ رزق المحامى مع رئيس الجمعية وأمين صندوقها ، ونصحهم الأستاذ «حليم برسوم» رئيس النيابة بالقبول وعادت المحكمة للانعقاد وأقر الأستاذ «رزق» الصلح ودفع لكل منا ٥٥ جنيهاً وتمت المخالصة وشطبت الدعوى . وعاد رئيس الجمعية فاعتذر اعتذاراً شديداً وطلب منا تجديد العقد لسنتين أخريين مع رفع المرتب الشهرى جنيهين ، فوعدناه بالنظر وإرسال الرد بعد وصولنا القاهرة . ولكننا لم نجدد العقد وانتهت أيامنا فى « أسوان » بحلوها ومرها ولم تبق إلا ذكرياتها .

وزارنا بعدئذ مفتش الرى زميل والدى وأخبرنى أن والدى أرسل « رفاصاً » بخارياً ليحملنا إلى القاهرة وهو فى الطريق إلينا . وفى يوم ١٥ سبتمبر حضر الرفاص فحملنا أمتعتنا وأقفلنا الفيلا وأرسلنا المفاتيح مع الحارس « ركابى » مع الإيجار المتأخر وخطاب شكر وتحية لوكيل البنك الأهلى ، وركبنا على بركة الله دون أن نخبر أو نودع أحداً تفادياً من لحظات الوداع الحساسة المؤلمة . ووصلنا القاهرة بسلامة الله .

سنة ١٩٤٤

وفى سنة ١٩٤٤ ، بعد ربع قرن بالضبط من الثورة — شاءت الظروف دون سابق تفكير أو تدبير ، أن أزور « أسوان » فى مهمة رسمية تستغرق ثلاثة أيام للتفتيش على معاهد المعلمين والمعلمات والمدرسة الثانوية ، وكنت وقتئذ مفتشاً عاماً بوزارة المعارف . ومن عجيب الصدف أنى وصلت فى نفس اليوم الذى بدأت فيه الثورة وهو ١٥ مارس .

وذهبت بعد الظهر مع لفيف من رجال التعليم إلى النادى على شاطئ النيل ، لحفل شاى أقاموه لى ، وكان من بين المدعويين مدير « أسوان » وكبار الموظفين ، وكان هناك ماسح الأحذية « مصطفى » وكان قد كبر سناً وتهدل جسماً . وما إن سمع اسمى ووقعت عينه علىّ حتى ترك ما فى يده وأقبل مهرولا يقبل يدى ويعانقنى ويقول فى تحمس والدموع ترقرق فى عينيه : « مظهر البطل جه ياولاد . غبت عنا غيبة طويلة وما كانش يصح منك ، إذا كنت نسيتنا فنحن فاكرينك ولا ننساك أبداً ، أمال فين "حبيب" ؟ » ودهش الحاضرون من

هذه المفاجأة العجيبة وسألونى فقلت، بإيجاز : نحن معارف منذ أن كنت هنا سنة ١٩١٧ — ولم أشر إلى ثورة ١٩١٩ فليس هناك داع للتفاخر بجهاد مضى وانقضى منذ ربع قرن وأصبح فى ذمة التاريخ ، وعلى الأقل فى ذاكرتى إن كان التاريخ نسيه ولم يسجله .

وانطلق «مصطفى» يذيع الخبر كعادته القديمة ، وراح يخبر الأصدقاء القدماء بحضورى . وبعد فترة طويلة أقبل فوج كبير منهم للتحية حتى امتلأ النادى وظن المدير فى أول الأمر أنهم قادمون لمقابلته فى شأن ما ، فقام لمقابلتهم ، ولكنهم تركوه وأقبلوا نحوى بالعناق والقبل والسؤال عن حبيب والوالدة وإخوتى . وسألهم المدير عن المناسبة فقالوا له فى حماس : هذا البطل الظهر قائد الثورة وحاكم الإقليم سنة ١٩١٩ ، فازددت حرجاً ورجوتهم عدم الإشارة للثورة ، ولكنهم لم يستمعوا لى وأخذوا يلقون على مسامع رجال التعليم تفاصيل ما حدث سنة ١٩١٩ يسترجعون كل لحظة من لحظاتها فى انفعال وحماس وعتبوا على عتباً شديداً لانقطاع الصلة طول هذا الوقت وكأننا نسينا «أسوان» التى لن تنسانا مهما مرت الأيام والأعوام . وقالوا مستمعين : نحن الكبار نذكر حوادث هذه الثورة وما كان

فيها من بطولات وتضحيات بكل فخر واعتزاز لأن إقليمنا قام بدوره المجيد فيها ، ونرويها لأولادنا وأحفادنا حتى أصبح الكل يعرفون « مظهر » و« حبيب » ، بل إننا أطلقنا أسماءهم على الكثير من أولادنا تخليداً لذكرى هذه الثورة « ثورة ١٩١٩ » وحاول كل من الحاضرين أن يستضيفنى وكانت فى الواقع مشكلة وتخلصت منها بأنى جئت لعمل متواصل يشغل كل وقتى ولدى تقارير طويلة أريد أن أنجزها ولذلك لم أنزل فى فندق وإنما فى استراحة المدرسة ، ولا أستطيع بحال أن أقبل ضيافة واحد منهم وأغضب الآخرين وهم جميعاً بمنزلة واحدة عندى ، وقضينا الليلة فى النادى نتناول أحاديث الثورة ، وعند الانصراف أقسم علىّ الشيخ « أبو بكر كحالة » أن أتناول طعام الإفطار بمنزله على عادة الأسوانيين .

وزارنى فى المدرسة صباحاً وصحبنى إلى منزله الجديد ، وفى الطريق أخبرنى عن وفاة شقيقه الأصغر البطل « طه كحالة » وهو فى عنفوان شبابه . وقال إنه ذهب إلى القاهرة بعد الثورة بخمس سنوات وسأل عنا وقابل الوالد والوالدة وعلم منهما أنى بإنجلترا وسأقضى سنوات طويلة ، وأن « حبيب » أصبح مفتشاً للتعليم بالإسكندرية وتزوج أختى . وبعد الإفطار جاء حفيده

« مظهر الصغير » وحياني بحماس الطفولة وأخذ يسأل عما فعلت في الثورة وكان جده قد حكى له الشيء الكثير ، وقال : « أنا بكره لما أكبر راح أبقى بطل زيك » ، فقلت : إن شاء الله وتكون أعظم مني وقبلته ، وانصرفنا لزيارة بقية الأصدقاء في منازلهم ومتاجرهم . ومررنا بدكان الأسطى « عبد الحميد » الحلاق وكان يغفو على كرسي الحلاقة ويغطي وجهه بمنديل ، فاقترب منه الشيخ « أبوبكر » وهمس في أذنه : « مظهر » هنا يا « عبد الحميد » . فقفز الرجل من كرسيه وهو يصيح : « مظهر » و « حبيب » . . . حلم ولا علم يا نهار أبيض يا ولاد ! وقبلني وعانقني وقال : يا سلام بعد الغيبة الطويلة دي مين يصدق ياولاد ، الحمد لله اللي عشت لحد ما شفتك تاني . وفين حبيب أمال . ليه ماجاش وياك . بالله عليك تتفضل معانا ولا تسبناش تاني . وذهبت في ختام الدورة إلى الجزيرة ليكون مسك الختام زيارة « آل النجار » ، الأوفياء الكرام ، فعلمت أن « النجار بك الكبير » نفسه وأولاده الكبار وكذلك « عبد الحميد أفندي » مأمور البريد قد توفوا إلى رحمة الله ، ولكن شباب الثورة الذين أصبحوا الآن رجالا عرفوني وأكرموني على سابق عادتهم ، ثم ذهبت وحدي إلى « فيلا منيرة » فوجدتها

كما كانت لم يتغير فيها شىء إلا « ركابى » الذى كبر وأصبح شيخاً مسناً . وسبحان الحى الذى لا يموت ، ولا أستطيع أن أعبر بالكلمات عن شعور « ركابى » عندما دقق فى النظر وعرفنى . وأخبرنى أن الفيلا بيعت لأسرة غنية أجنبية تأتى أسوان فى نوفبر وترحل فى آخر فبراير ، وأن ماكان فيها من أثاث بيع بالمزاد العلنى . وذكر أنهم عندما حفروا حفرة فى الحديقة وجدوا صندوقاً به مسدسين أكلهما الصدأ وصارا خردة وأوراقاً أكلتها الرطوبة فصارت كالعهن المنفوش ، ولعل هذا هوما كانوا يفتشون عليه . وأحضر لى كرسياً فى مدخل الحديقة وذهب إلى غرفته ليصنع لى فنجاناً من القهوة .

ووقفت على باب الحديقة الكبير ، وسرح الطرف وسبح الخيال ودار شريط الذكريات وعاد الماضى حياً ماثلاً أمامى كأن الزمن لم يتغير والأعوام لم تنقض . هنا فى « فيلا منيرة » موطن الذكريات الحلوة والأيام السعيدة حين كانت الحديقة تعج بالضيوف والأصدقاء .

هنا كانت موائد الشاى المرصوصة وكان الحديث والسهر .

هنا كان الأروام يغنون ويرقصون ويأكلون ويشربون .

هنا كان الطلبة يمرحون ويتبارون ويتسابقون .

هنا كان الجميع يجيئون ويذهبون وهم يدعون بالخير ويشكرون .

هنا جاء « المدير » واستمتع بيومه ، ثم خرج يحسد ويحقد .

هنا كان « مقر الحكم » و « المجلس الوطنى » و « اللجنة التنفيذية العليا » و « الحرس الوطنى » .

هنا كان يجىء « مدير البنك الأهلى » صاحب الفضل والمكرمة ونهديه من مخلفات « فريتزر فورل » .

هنا سلمناه جهاز اللاسلكى والشفرة السرية وتسلمنا خطاب الشكر .

هنا كان يأتى « عبد الرحمن أفندى » بالجراموفون والأسطوانات التى تشيع فى الدار أرق الأغانى وأحلى النغمات .

هنا أضفنا « برنارد باشا » وصحبه الاستعماريين وشرحنا لهم قضية الوطن وخرجوا مقدرين شاكرين .

هنا أطلق « مصطفى » الرصاص على ضابط البوليس لأنه من رجال المدير .

هنا حضر الحكمدار « على جواده » ليؤدى دوره الوطنى الخطير .

هنا حضر أصحاب المظالم والشكايات لحل مشاكلهم بعيداً

عن الروتين .

هنا طردت الوالدة « مدير المديرية » فى إباء وشمم .

هنا أشاد « الضابط السودانى » وسريته ببطولة الوالدة وشجاعتها .

هنا قابلت الأسرة أيام المحنة بالصبر والإيمان كما قابلت أيام المتعة بالحمد والشكران .

هنا . . .

هنا . . .

هنا . . .

وهنا أخيراً تم القبض والاعتقال .

وترقرقت الدموع فى عينى وانسابت ولم أستطع أن أحبسها فانهمرت وبكى معي « ركابى » الحارس العجوز الأمين .

ثم أفقنا وابتسمنا وحمدنا الله وشكرنا ، وقبلنا وسلمنا ثم ودعنا ، وانصرف كل منا إلى حال سبيله ، ونحن لا ندرى متى يكون العود واللقاء .

وطويت صفحة « أسوان » بما فيها من كفاح وجهاد ، وهناء وشقاء .

وحدثت بعد ذلك أحداث وأحداث ومغامرات ومخاطرات

فى مصر والخارج كلها ذيول « لثورة ١٩١٩ » فى « أسوان » .

ولعلى أوفق لتسجيلها فى كتاب أو كتب أخرى بمشيئة الله .

والعزة للجمهورية العربية المتحدة .

والمجد للعروبة .

والهزيمة للصهيونية والإمبريالية .

والنصر المؤزر للبطل المجاهد والقائد الملهم .

الرئيس جمال عبد الناصر .

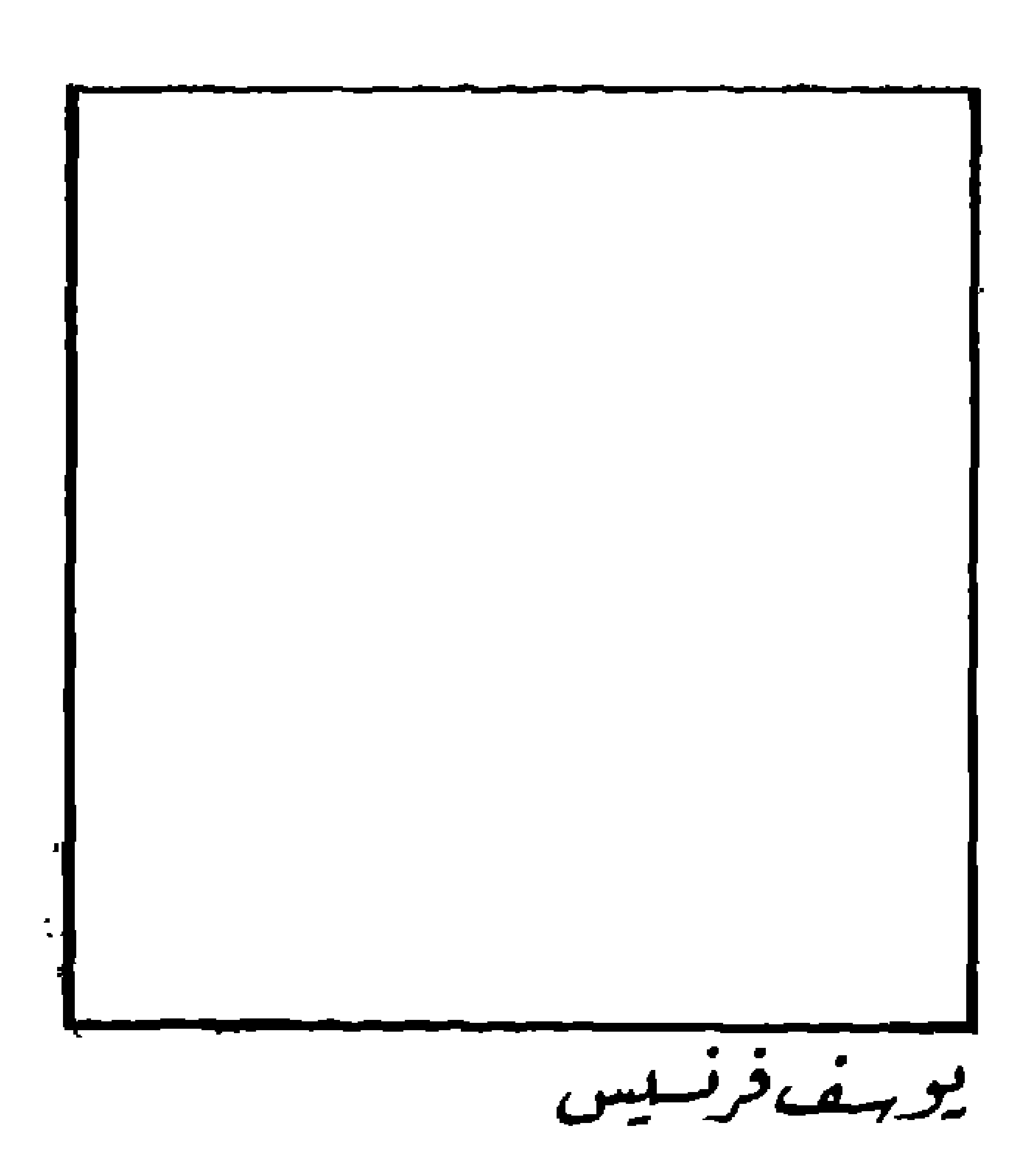
والله ولى التوفيق

الفهرس

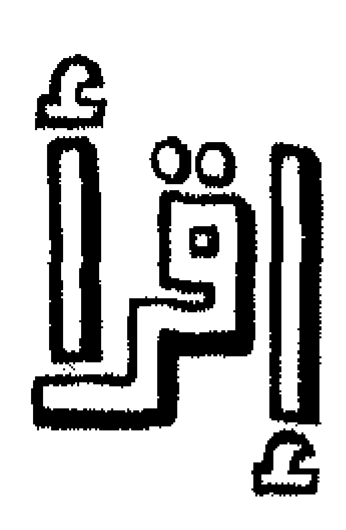
الصفحة

الصفحة

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩



يوسف فرنسيس



صور باريسية

يوسف فرنسيس

دار المعارف بمصر

يوسف فرنسيس

صور باريسية

اقرأ ٣١٧
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣١٧ – مايو سنة ١٩٦٩

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م



الفصل الأول

معرض البشر

السلم طويل . . والحجرة ضيقة . . ولكن لا بأس . . لقد أقنعت نفسي بأن الحجرة فوق السطح قد تتيح منظراً فريداً . . وفتحت النافذة أطل على المدينة التي جئت أقضي بها شهراً . . وهرب من عيني اللون . . بل يبدو أنه هرب من المدينة كلها . . فقد غرقت فى الضباب . . وانتصبت أطراف أشجارها التى غسلتها الأمطار لتمد فروعها إلى السماء كأصابع مستجدية . .

وبدت لى باريس متجهمة ، صامتة ، حزينة ومنطوية على نفسها . . وحولى كانت أسطح البيوت تتتابع فى ملل لتذوب فى السماء . . . مليون بيت . . . تضم ٥ ملايين نسمة . .

وأحسست فجأة أنى غريب . . وحيد . . ومتطفل :

غريب . . . لأنى ابتعدت أميالاً عن بلدى . . .

وحيد لأنى جئت باريس وليس لى فيها أصدقاء . . .

ومتطفل لأن أول ما وضعته فى حقيبتى قبل أن أسافر رزمة كبيرة من الورق الأبيض وقلم للكتابة وفرشاة للرسم !

ولأن أول ما فعلته عندما وجدت حجرة فى فندق أن فتحت نافذتها وفتحت عينى أتطلع وأتلصص فى حماس الطالب الذى

ما تكاد أسرته تنتقل إلى الحى الجديد . . حتى يسرع إلى النافذة باحثاً عن بنت الجيران . . .

وأول ما تعلمته ساعتها أن باريس تحسن غلق نوافذها وتجيد أيضاً إحكام الستائر . . لا أحد يتطفل على الآخر . . فكل إنسان مشغول بنفسه . . وكصحفى تغرينى الهمسات وراء الستائر . . وكرسام أحب أن أمد بصرى أتحسس الوجوه من بعيد أحاول من خلالها أن أرسم صورة حقيقية . . للبشر . .

وتلفت إلى البيوت مرة أخرى . .

وامتعضت . النوافذ — كل النوافذ — مغلقة . . ما عدا نافذتى . .

لقد أحسست أن باريس تخفى نفسها عن عينى . . تدخل داخل نفسها وتتحدانى . . .

. وقبلت التحدى . . فأغلقت نافذتى . . ونزلت إلى الشارع . .

ذبت وسط الزحام . . سرت مع آلاف الأرجل التى تتحرك فى عجلة وسط السيقان الرشيقة التى تطل من معاطف المطر . . والأقدام النشطة التى تبتلعها أنفاق المترو . . ولا تتوقف إلا لثوان معدودة عندما يتوقف أصحابها لشراء صحيفة أو تذكرة أو لعناق عابر . .

والوجوه فى الزحام تتحرك لتضيع ملامحها فى زحام الأجناس إن باريس التى تستقبل ٢ مليون زائر قد أصبحت معرضاً . . للبشر . . فأطراف الأرض تلتقى كلها فيها . . وتتعانق الألوان



المتناثرة . . الأبيض والأسود . . الفتاة الشقراء الآتية من السويد والفتى الأسود المولود فى جنوب أفريقيا يسيران جنباً إلى جنب يلتصقان . . وفى ركن المقهى يتعانقان ويرسمان صورة الحب والسلام فى الورقة البيضاء أمامى . . ثم ينهض الشاب وتنهض الفتاة يتبادلان قبلة أخيرة . . و يدها تترك على المائدة ثمن فنجال القهوة . . . ويده تترك ثمن فنجال الشاى . . إنها طالبة تدرس الفنون الجميلة وهو طالب يدرس الطب . . ومواردهما قليلة . . كل واحد يدفع لنفسه طلباته ، أما باريس فتدفع لهما ثمن الحب فقط . . تخلق حولهما جواً من السحر ، ولا ترسم حولهما علامة استفهام أو تضع علامة تعجب فى مواجهة حبهما . . كما لا يعنيها أن تعطى علاقتهما اسماً . . ولا يهمها أن تصنفها . . رغبة . . حب . . علاقة جسدية . . الأمر سيان .

وتتحرك كتلة البشر . . بعشاقها . . . وعمالها . . . وطلبتها . . .

وزحام باريس زحام له لون ورائحة خاصة . . إنه يختلف عن زحام أى بلد آخر . . كأنها تلمس الذين يقفون على أرضها بعصى سحرية تضفى عليهم طابعها وتصبغهم من الداخل أيضاً . .

لقد رأيت . . رجلاً . . أمريكياً . . يشترى « بارى ماتش » وهو لا يستطيع أن يقرأها . . ولكن رغم ذلك يشتريها لأنها المجلة التى تقرأها باريس . . .

ويابانياً قصير القامة يتأبط ذراع امرأة فى ضعف طوله . يترك وقاره التقليدى ، يضحك بصوت عال ، ويغمز بعينيه

كما يفعل الفرنسيون !

وفى ركن شارع ضيق متفرع من سان جرمان فتح أحد الهنود متجراً للتوابل والعطور الهندية . . يتهافت عليه الجميع . . . وعندما التقينا وصافحنى عند الخروج لاحظت أن يدى قد غرقت فى رائحة « تاباك » أشهر عطر فرنسى للرجال .

إن باريس أحسن مضيفة ، تعرف كيف تجعل ضيوفها يحسون أنهم أصحاب الدار . . وتعرف كيف توفر لكل ضيف جوه الملائم . . وتعرف أيضاً كيف تشكل نفسها وتلون وجهها بألف لون . . . ولكن مقدرتها العجيبة على أن تكون نفسها فى النهاية هى معجزتها الكبرى . . .

إنك تستطيع أن تتناول البيتسا وتعيش فى الجو الإيطالى مع طبق الأسباجيتى . . . وتستطيع تناول العشاء فى مطعم صينى . . أو . . يابانى أو . . هندى . . والطائرات تنقل إليها المأكولات الشعبية من أطراف البلاد المختلفة ورغم ذلك . . فالزائر بعد الأسبوع الأول يعشق طبق شوربة البصل الفرنسى رغم قبح طعمه !

تماماً كما تستهويه . . بنت باريس الوجودية . . بالبلوزة السوداء والجونلة القصيرة ويفضلها على أى جميلة أنيقة شقراء كانت أم سمراء . .

إن معرض البشر الذى ينعقد فى شوارع باريس ، يتغير ويتجدد كل يوم . . . بل كل ساعة . . . هو جزء حيوى

من سحرها وشبابها فهو الذى يقتل الملل . . .

والزائر يقف يتأمل الناس حوله ويهمس . . . ما أشد الزحام . . . وما أغرب هؤلاء البشر . . . وينسى أنه قد أصبح هو نفسه جزءاً من هذا الزحام ولعله قد أصبح أغرب ما فى هؤلاء البشر !

فباريس ترحب بالجميع . . . وهى دائماً تترك لك مكاناً فى زحامها . . وتعطيك الإحساس بأنك اللون الذى كان ينقص اللوحة الكبيرة !

وما أكثر الذين أعطتهم باريس الإحساس بأن مكانهم على أرضها أو بالقرب منها . . مثل الغانية التى تبتسم فيعتقد الرجال أن ابتسامتها بطاقة دعوة مفتوحة . . وهى فى الواقع تبتسم إعجاباً بنفسها ولنفسها فقط !

ولعل هذا هو السر فى أن بعض الرجال يتحدثون عنها كامرأة ، منتشين بسحرها ، وثقافتها ، أو شاكين عبثها وإعراضها ! . .

— لقد خدعتنى ! . . .

قالها لى « جونى » عندما سألته ما الذى جاء يصنعه فى باريس وجونى جارى فى الفندق ، التقينا على السلم أكثر من مرة وكل واحد فينا يحاول أن يخفى تعبه من الدرجات المتعبة ، وفى المرة الأخيرة سلمنا بالأمر الواقع ، وتركنا اللهثات تسبق حديث البرد الذى يصلح عادة كتمهيد لأى تعارف !

وكان جونى يريد أن يتكلم ، بعد أن استنفدت باريس نقوده وصبره واختارت له هى الطريق . .

لقد جاء من نيويورك وقد ملأ حقيبته بمجموعة هائلة من تصميمات الفساتين معتقداً أنه سيصنع بها مجده فى باريس . . فذوقه مبتكر . . وخطوطه حساسة . .

ولف على بيوت الأزياء بيتاً بيتاً . . وفى كل مرة كانوا يستقبلونه بابتسامة واسعة ويقودونه فى رفق إلى باب الخروج ! . .

وسألته . . .

ـ إذن . . . كيف تعيش ؟ وكيف تدفع حساب الفندق؟!

وكان رده مقتضباً :

ـ كانت آخر محاولاتى موفقة . . لقد عرضت رسومى على صاحبة بيت جديد من بيوت الأزياء فى الشانزليزيه ولم ترحب المرأة كثيراً برسومى . . ولكننا نتعاون معاً فى الحب ، والحياة !

وقال « جونى » جملته الأخيرة فى ابتسامة هادئة بلا خجل .

كأنه يقرر أمراً مألوفاً . . أو يتحدث عن وظيفة رسمية أجرها يستعين به على مواجهة الحياة !

ـ ورسومك ؟ . .

وفتح « جونى » حقيبته وأغرق الحجرة بالرسوم وهو يقول ضاحكاً :

ـ لم تعد ذات أهمية الآن . . تستطيع أن تختار منها ما يعجبك لو أردت !

وهناك عشرات . . بل مئات مثل جونى . . من إيطاليا واليونان . . وبلاد العالم . . . وكل واحد منهم جاء باريس وفى ذهنه مشروع للمستقبل وفى حقيبته رسومه أو قصصه . . فيجد نفسه نسخة مكررة وطبعة مستهلكة قديمة . .

فإما أن يعود أعقابه . . أو يقبل الشروط التى تمليها عليه باريس . . كأن تصرف عليه امرأة أو يتصعلك أمام الحانات ومعه مجموعة من الصور .. العارية .. أو يقف مفتعلاً الخشوع أمام الكنائس وقبعته فى يده . . ليبيع الصلبان والصور الدينية !

ولقد رأيت شاباً يطارد أحد السياح . . عرض عليه صور الكنائس والقديسين . . ثم صور اللوفر ولوحات الفنانين . . وفى كل مرة كان السائح يهز رأسه فى ضيق . . ولم ييأس الشاب . . أخرج من جيب معطفه الداخلى مجموعة من صور الحب المثيرة . .

ووقف السائح . . . وبدأت عملية البيع والشراء !

* * *

والذين نجحوا فى باريس . . هم الذين عرفوا الطريق إلى عقلها . . . فقلبها وهم تعطيه للجميع . . .

أما عقلها فهو الطريق الذى وصل عن طريقه الأذكياء . .

إن الذين تسلط عليهم الأضواء فى هذا المعرض الهائل من البشر . . هم الذين يملكون شيئاً جديداً . . شيئاً يستطيع إدهاش باريس أو إثارة اهتمامها .

أسلوباً جديداً فى الفن . . لم يطرق من قبل . ولم تعرفه جدران المعارض . يستطيع أن يقنع إحدى صالات العرض فى « سان جرمان » باحتضان أعمال صاحبه . .

كتاباً مثيراً . . لا يهم عمر مؤلفه . . المهم هو أن تتحمس له دار نشر . . و يجده أحد النقاد يستحق أن يمتدحه أو يهاجمه . . .

وهذا هو ما صنعته فرانسواز ساجان عندما اقتحمت مجال الأدب . . . فقد عثرت على الناشر أولاً . . . ثم كان لها الحظ أن تجد نوعين من النقاد فى خدمتها : الذين يمتدحونها والذين يهاجمونها ! . . .

ولمع اسم « فرانسواز ساجان » . . وظهرت بعدها عشرات الأسماء الجديدة . تحاول أن تقلد أسلوبها . . . بعضها فشل وبعضها ما زال ينتظر فرحة النجاح . .

قالت لى صاحبة إحدى المكتبات الكبيرة فى « سان جرمان » وهى تشير إلى تلال الكتب التى تملأ المكتبة وتغرقها حتى السقف :

« . . . إن الذى يريد أن يرى له كتاباً وسط هذه الكتب . . . يجب أن يجد شيئاً جديداً يقوله و يتأكد فى نفس الوقت أن هذه الكتب خالية منه .

ونجاح فرانسواز ساجان استمد وجوده من تقديمها لوجهة نظر جديدة فى علاقة الرجل بالمرأة . . . » وابتسمت قبل أن تضيف :

« وفى الواقع ليست وجهة نظر جديدة علينا نحن النساء .. ولكن لم تظهر واحدة لتعبر عنها كما فعلت ساجان فى « مرحباً أيها الحزن » بدليل أن كتبها الأخرى لم تصادف نجاح هذا الكتاب .

. . لا لأنها أقل جرأة ولكن لأنها لم تعد تحمل جديداً ... »

والذين اكتشفوا أهمية « الجديد » وحاولوا أن يختلقوه . . تركتهم باريس يرتدون أقنعة التجديد ويقومون بأدوارهم حتى النهاية ثم كشفتهم فى قسوة ! . . .

فالتراث الأدبى والفنى الواسع الذى تستند إليه فرنسا لايذبح بسهولة تحت أقدام الدجالين من أدعياء الفن والأدب..

والذى يريد أن يخطو خطوة خارج زحام البشر ويرفع رأسه لتسقط عليه الأضواء . . يجب أن يتمتع بمقدرة قوية على الإقناع بأن ما يقدمه هو شيئاً أصيلاً وجديداً تضيفه باريس إلى جعبتها . . وتقدم له فى المقابل مكاناً خاصاً بالقرب من قلبها ! . . .





الفصل الثانى

وجه السين

أصبحت جزءاً من زحام باريس . . ولم يعد صعباً على أن أتحرك وسط هذه الكتلة الهائلة من البشر وأصبح من السهل أن أكتشف طريقى بسهولة فى أنفاق المترو . . . بدون أن أصطدم بالمتسولين والعشاق و باعة الورد ! . . .

ووجدت أن أسهل طريقة لجولاتى هى المشى ، والمشى يتيح فرصة أوسع لمن يريد أن يتعرف على أى بلد . . بالإضافة إلى أن تجربتى اليتيمة مع سيارة أجرة كلفتنى عشرة فرنكات فى مشوار صغير يبعد أمتاراً عن الفندق ! . .

ولابد من الاعتراف بأن وجه السائقة الشقراء وطريقة قيادتها الجريئة وسط العربات قد شغلانى عن متابعة الطريق . . وحتى لو فعلت . . لما استطعت تمييز العنوان . فالشوارع فى الحى الواحد متشابهة . . والبيوت تبدو للغريب كأنها من تصميم مهندس واحد ! . .

وإذا كان المشوار لا يستحق العشرة فرنكات . . فالحديث الغريب الذى دار بيننا فى مرآة التاكسى يستحقها . . . فهو حديث معظمه من طرف واحد يتدرج ويقفز كحوار أفلام

الموجة الجديدة بين شفاه السائقة الحسناء التى تمضغ اللبان وتمضغ الكلمات أيضاً بلكنتها الفرنسية . .

ـ أنت غريب ؟ . .

ـ من القاهرة . . .

ـ أوه . . . بلد الشمس . . إن اليوم يبدو ممطراً . . . إنهم يعرضون فيلم « مظلات شوربرج » فى سينما ستراند . . هل شاهدته ؟ . . .

أنا لم تعجبنى النهاية . . ولكن فساتين البطلة رائعة . . إن القرامل استهلكت حذائى الجديد . . المشاة هنا يتوقعون أن نحافظ عليهم . . بينما يجرون كالمجانين وسط الشوارع » ! . .

. . وتلتقى عيناها بعيناي فى المرآة وتقول :

ـ أراهن أنك طالب فى الحقوق ؟ . .

ـ لا . . أنا صحفى . . .

ـ آه الصحافة . . مهنة المتاعب . . هل تريد أن تسمع قصة مثيرة ؟ . . .

ـ . . .

ـ لقد حاول أحد الزبائن اختطافى . . هددنى بمسدس سدده من الخلف إلى رأسى . . وأمرنى بالتوجه إلى غابة « بولونيا » . . . كان الوقت مساء . هل زرت غابة بولونيا ؟ حسنا . . . وطوال الطريق كنت أفكر . . هل يريد سرقة النقود ؟ . . أم سرقة العربة ؟ . .

وتسكت لحظة ثم تضيف :

ـ ولكن هناك فى الغابة . . . اكتشفت أنه يريد تقبيلى؟ . . . ما رأيك ؟ . . . ألا تصلح قصة مثيرة ! . . . خيالى واسع أليس كذلك ؟ . . . ها قد وصلنا . . عشرة فرنكات . . .

وبينما كنت أعطيها الفرنكات العشرة . . .

ابتسمت وهى تمد أصابعها الرشيقة وتقول :

ـ . . زائد فرنكا للحقيبة التى تحملها . . ولا تنسى البقشيش ؟ . . .

ووفر لى المشى نقودى . ولم أعد أستمع لقصص جديدة !

وكنت أتساءل وأنا أمشى أتأمل الناس الذين يتحركون فى عجلة وتجهم . . ما الذى يشغلهم إلى هذه الدرجة التى يفقدون معها ابتساماتهم ويتحركون فى نفس الخطوات ويقفون فى انتظام أمام محطات المترو والأتوبيس فى ترتيب كزجاجات الجعة عندما تتحرك داخل المصنع ! . .

واكتشفت الرد على سؤالى . .

إنه الوقت ! . . .

فالذين تفننوا فى تسلية السياح . . وجعلوا من ضياع الوقت تجارة رابحة ، يتحركون مع عقارب الثانية يقدسون الوقت . . طالما هناك عمل !

يلتهمون طعامهم فى لحظات . . « على الواقف » فى محلات « السليف سيرفس » أو « اخدم نفسك » ثم تتحرك العقارب . .

ولا تهدأ حتى مساء السبت فتتوقف . . ويتوقف معها الزمن . .
وتصبح باريس كالبلدة النائمة . . طوال يوم الأحد . . .
وتنتقل الحركة كلها إلى الطرق المؤدية إلى الريف . . مع العربات المسافرة فى عطلة نهاية الأسبوع ! . .
يختفى الناس . . . يهربون إلى خارج المدينة أو يهربون داخل أنفسهم أمام المدافئ فى الحجرات الضيقة مع الأحاديث الهامسة التى تضيع خلال أيام العمل . . .
وتوصد المحلات أبوابها . . . .
لتتقوقع باريس المدينة . . .
ويكشف نهر السين عن وجهه . . ويمد ذراعيه للناس يدعوهم ويغريهم . . يقف وحده على المسرح يلعب دوره التقليدى الذى أجاده خلال ٢ مليون سنة . . استقبل خلالها مولد باريس وتلقاها فى أحضانه ذاق معها الشهد والمر . . وعاش معها تجربة السلم والحرب . .
وشاهد الأسلاك الشائكة تثبت على أرضها . . وشاهد حمام السلام يطير فى سمائها . .
وبينما السنوات تغير باريس ليصبح لها أكثر من وجه . . احتفظ السين بوجهه الرمادى ونفس الملامح المميزة . . وعلى صفحتيه تمر الحياة كل يوم من نفس الشريط . . تعكس صفحته وجوهاً جديدة تعيد الحياة إلى نفس الشخصيات ونفس المواقف :
الصياد العجوز الذى يجلس الساعات الطوال يستجدى



الحظ ساعة ويتحداه ساعة أخرى .

. . بائع الكتب . . الذى جمع كل الثقافات معاً . . ويضع كتب سارتر إلى جانب رسوم « فان جوخ » . . وجلس على كرسيه الصغير ينتظر أن يجمع ثمن العشاء أو زجاجة الخمر.. لقد أصبح هذا البائع فيلسوفاً إنه يدرك من اللحظة الأولى من سيشترى ومن سيعبث بالكتب وينصرف . . بل إنه قد يتسامح أيضاً مع من يقف ساعة يقرأ فيها كتاباً ويرجعه مكانه ! . .

فالإعجاب ..ليس دائماً معناه المقدرة على الشراء ..وبائعة الورد فى كشكها الصغير . . تنسق الأنواع المختلفة . . وتجمع البنفسج فى باقات صغيرة وتقف تنتظر العشاق يأتون مع الغروب . .

وتحت الكوبرى ينام رجل طويل اللحية رث الثياب . .

إن شكله .. لم يتغير خلال السنوات.. إنه المتسول التقليدى. الذى لا يريد أن يعمل . . ويقنع بالنوم والكسل والفرنكات التى يجمعها من القلوب المحسنة . . لقد أصبح جزءاً من الصورة على ضفتى السين . . .

ولم تجد باريس حرجاً فى تصويره فى صورها السياحية !..

وقد علمنى السين لذة المشى . . ولذة التأمل . . والإحساس الذى يولد الدفء عند مشاهدة معطف واحد يضم حبيبين !

وعلمنى أيضاً رجفة البرد . . لمن يسير وحده بلا رفيق !

إن مياهه الرمادية ترسم لوحة مبهجة فى عين السائح الذى

يتجول فى بواخر النزهة . .

— « ولكن مياهه الرمادية كثيراً ما تصنع نهاية سوداء لحياة بائسة . . أو تستقبل الدقات الأخيرة للقلوب اليائسة ! » . .

قالها الصياد العجوز وهو يثبت الطعم فى السنارة . . ثم أضاف وهو ينظر إلىّ فى أسى :

— « هل تعلم . . كم مرة غيرت مواقع الصيد ؟ . . عشرات المرات . . .

لأنى فى كل مرة أسمع عن غريق أو أراهم ينتشلون جثة فتى أو فتاة . . . يطاردنى الإحساس بالخوف من الموقع . . فأغيره !

لا أحب أن تتغذى الأسماك التى أصطادها على قلوب العشاق ! . . . »

والسين ليس نهراً قاسياً . . فليس هو الذى يصنع تعاسة البشر . . وإن كان كثيراً ما يتحمل سخافات البشر . . مثل هذا السكير الذى رأيته ذات مساء ينحنى ليتأمل نفسه على سطح السين . . ويبدو أن الضوء كان ضعيفاً فلم يستطع السكير أن يتبين نفسه جيداً . . أو لعله كان يحدث نفسه . . فلم يتلق جواباً فقذف النهر بزجاجة الخمر التى كانت معه وهنا وضع شرطى قبضته على كتفه وهو يصيح فيه .

« . . . ماذا تصنع . . أيها الأحمق . . ألا ترى أن الزجاجة لا زالت ممتلئة إلى نصفها . . هل تريد أن تسكر النهر مثلك ؟ »

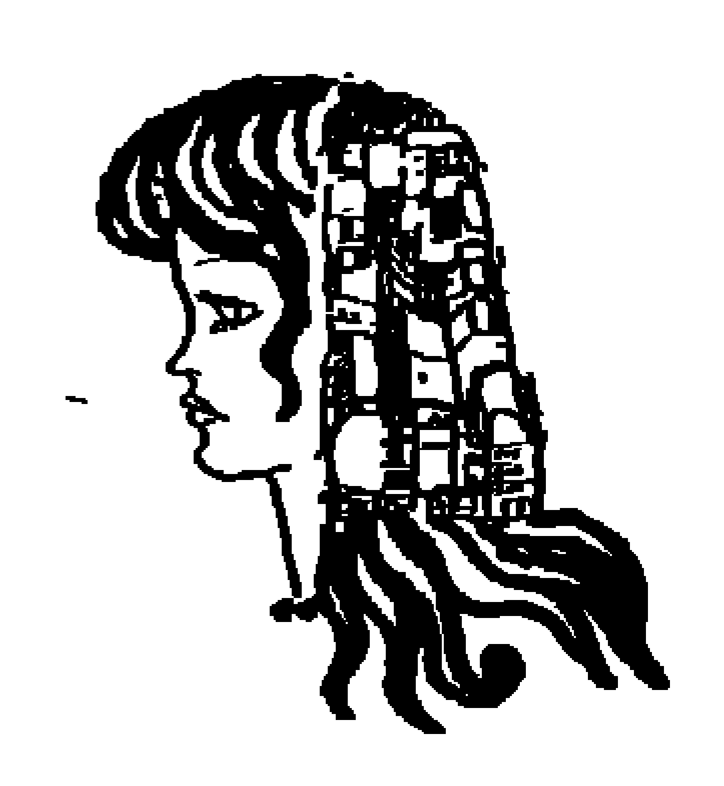
ولكن السين . . لا يسكر . . ولا يغمض عينيه . . فحتى

لو نامت باريس لا ينام السين . . فعليه أن يستقبل — بعد منتصف الليل — العربات المحملة بالخضراوات واللحوم والبيض والزبد . . تخطو فوق الكبارى إلى حى « الهال » أو معدة باريس التى عمرها ٨ قرون . . . والتى تستيقظ كل مساء . . وتتولد فيها حركة تفريغ عنيفة لا تهدأ قبل الخامسة صباحاً . .

وبينما يضيق الحى بمن فيه . . . ازدادت فيه المقاهى والحانات . . وازداد عدد زواره وتحول سوق اللحوم والفاكهة إلى مدينة صغيرة مستيقظة تموج بالحركة والنشاط . . .

وتعكس ضجيجها على نهر السين . . . فتبقيه متيقظاً حتى الصباح . . . ليستقبل المدينة وهى تتثاءب مع فجر اليوم الجديد . . . وبينما آخر عربات الهال تعود وقد أفرغت شحنتها تبدو من بعيد ساقا فتاة ليل عائدة إلى حجرتها الرطبة . .

وفى الضفة الأخرى تتحرك امرأة عاملة فى نشاط تسرع الخطا مع دقات الساعة . . وفى هدوء مثير يرقد السين بين ضفتيه يتأمل الحياة فى صمت ! . .





الفصل الثالث

.. لقاء ..

كان الصباح متجهماً والسحب حزينة تنبئ بدموع . . ولكننى كنت أشعر بانتعاشة عجيبة . . أصفر ، وأبتسم لنفسى كأننى على موعد غرام !

وبالفعل كان موعداً حدده الحب ، وشوقاً طويلا بدأ من يوم أن علمنى الفن الإحساس بالجمال . . وذقت فيه طعم الوجه الجميل عندما ترتشفه عين الفنان !

لقد رأيت لوجهها عشرات الصور . . .

وسمعت عنها مختلف الروايات . . .

ولكن بينى وبين نفسى كنت أعتقد أننى أكثر المعجبين بها إعجاباً . . . .

وأكثر عشاقها عشقاً ! . .

وكنت فى إيمان مبهم أحس أننا سوف نلتقى فى يوم من الأيام . . . و . . . سيدور بيننا الحديث فى حوار طويل تعطينى فيه من نفسها ما لم تعطه لأحد من قبلى !

فأنا أخلص الذين أحبوها . . . زادتنى السنوات شوقاً إلى

اللقاء . . ولم تقو الوجوه الجميلة أن تذيب تقاطيعها من قلبي !

وفي الطريق إليها . . تساقط المطر ليزيد من لهفة خطواتي المتعجلة . .

وهي هناك في انتظاري في المبنى الضخم . .

وما أغرب مكان اللقاء . . .

قلعة ضخمة بناها الملك فيليب أوجست منذ ستة قرون ونصف قرن . ليذهب إلى الحرب مطمئناً على كنوزه وأسراره وزوجته ! . .

ويموت فيليب أوجست . . ويموت الأسرى . . وتضيع الكنوز . . وترحل الزوجة الجميلة وسيدة القصر إلى العالم الآخر . . .

وتأتي هي . . لتصبح سيدة المكان . . بلا منازع . . يأتيها الجميع من أطراف الأرض . . يقفون أمامها في صمت وخشوع

إنها سيدة المتحف العظيم . .

سيدة اللوفر ذات الابتسامة الخالدة . . . جيوكوندة الأجيال !

حبيبة البشر ! . .

ونفضت قطرات المطر من على معطفي . .

أسرعت أبحث عنها في حجرات المتحف . .

مررت على مئات الوجوه . . . تطل من لوحات الجدران . . .

أو تتحرك أمامي من كل الأجناس . . .

ولكننى لم أحس بها . . بل لعلنى لم ألحظها على الإطلاق !

فى لهفة سألت أحد الحراس . .

ـ الجيوكوندة من فضلك ؟

وأشار الرجل إلى صف طويل من البشر :

ـ هناك . . .

ووقفت فى الصف . . .

أنتظر حتى يأتى دورى لألتقى بوجه المرأة التى ألهمت الكتاب والشعراء والفنانين .

والصف يتحرك فى بطء شديد . وفى صمت بالغ . . رجال من كل البلاد . .

ونساء من كل الأعمار . .

والصف يتقدم فى بطئه المثير . . . وأحسست بالضيق . .

وأخيراً . . أصل . . وأقف أمامها . . وتلتقى عينانا . . فى نظرة طويلة . .

الجيوكندة . . . حبيبة البشر . . .

حبى القديم . . .

عيناها . . تنظران إلىّ . . هادئتان . . .

تنظران إلىّ أم خلالى . . لا أدرى !

وشفتاها تبتسمان . . فى تشجيع . . أم فى سخرية لا أدرى أيضاً . .

يداها رقيقتان تتعانقان فى نعومة . .

ولكن جبينها صارم مملوء بالعزم والإرادة !

شعرها ينسدل فى رقة النسيم . . يصافح الوجه ويحتويه من الجانبين . .

ولكن جسدها قوى يفرض جوده حتى أمام الصخور التى تمتد خلفها إلى السماء . .

وأحسست بالحيرة . .

لقد كنت أعرفها أكثر قبل أن ألتقى بها . .

وطالت وقفتى أمامها . . وهى صامتة . . مات الحديث على شفتيها . . بينما اشتعل الحوار فى أعماقى . .

آلاف الأسئلة حائرة تتخبط . .

وشعرت بيد رقيقة تضغط على كتفى . .

لقد طال تأملى . . وصف البشر يريد أن يتحرك والحسناء خلفى هى الأخرى تريد أن تلتقى بالجيوكوندة .

ولعلها هى الأخرى جاءت تبحث عن سرها . . أو تريد أن تسرق منها سراً من أسرار الجمال . .

وتنحيت . . ولكنى لم أغادر الحجرة . . .

أردت أن أنتظر حتى يهدأ الزحام . . فأعود إليها وحدى ...

وجلست بعيداً ! . . . .

والصف يموت ليولد من جديد . . .

وفنان مسترسل اللحية ينصب لوحته ويعد ألوانه ويبدأ فى رسمها . . .

ويهز رأسه . . . ويمسح ما رسمه . . ويبدأ من جديد . . ويعتريه اليأس . .

لا توجد صورة فى العالم لها هذا العدد الهائل من اللوحات المقلدة . . .

إنها تفرض تحديها على الفنانين .. تدعوهم لمحاولة اكتشافها . . لارتياد نفس الرحلة التى قام بها منذ أربعة قرون الفنان ليوناردو دافنشى .. وهاهو ذا الفنان أيضاً أتى يرتاد رحلته لغزو الوجه الخالد .. فانهزم بعد الجولة الأولى وجاء يجلس إلى جوارى ليضع غليونه المطفأ بين أسنانه ويضغط عليه بعنف ويده الأخرى تعبث بلحيته فى حيرة !

وتذكرت كلمة الدكتور الفنان حسين فوزى عنها :

« فى الحقيقة إنها صورة تلقى اليأس فى قلوب أعظم الفنانين وأشدهم جرأة » .

ولكنى كنت أقاوم اليأس ! . . .

وهدأ الزحام . . فأسرعت إليها من جديد . .

إلى المرأة المتزوجة من فرانشيسكو ديل جيوكندو التاجر والتى جلست خمس سنوات أمام الفنان ليوناردو دافنشى ليرسمها !

اقتربت منها أكثر هذه المرة . . وجهاً لوجه . . وكان فى وسعها أن تقرأ خواطرى . . وتستمع إلى الحوار الطويل الذى مل الانتظار فى أعماقى . .

« أيتها المرأة الغريبة . .

« إن الفنان الذى رسمك . . كان أبرع رجال عصره فى
« الكيمياء والطبيعة والهندسة . . على يديه ولد علم التشريح . .
« لقد استطاع أن يحسب أبعاد الكرة الأرضية وأبعاد النجوم
« والشمس . . وتنبأ بالطائرة الشراعية والهليوكوبتر . . ورسم
« مئات اللوحات العظيمة . .

« ولكن صورتك وحدها هى التى خلدت اسمه وجعلت العالم
« كله يردده . . .

« وحتى عندما جاء فرويد يحلل حياته . . ويكتب عنه . .
« اختار صورتك ليكتشف منها أعماقه ! !

« لقد قام دافنشى بتشريح الجسم البشري . . ودخل
« بمبضعه داخل القلب . . وأطلقوا اسمه على مجموعة العضلات
« التى تنظم حركة البطين الأيمن فى القلب ! . . .

« ولكنك كنت الوحيدة القادرة على غزو قلبه !

« ولقد عشقك — أنت المرأة المتزوجة — وظل يرسم وجهك
« فى لمسة بعد لمسة كأنه يقبل باللون والخط ملامحك . ومرت
« سنوات خمس . . وانتهى الرسم تماماً . . وانصرفت فرقة الموسيقى
« التى ظلت تعزف لك على مر السنوات — أما هو فلم يجد الرسم
« منتهياً . . كان عنده المزيد ويريد أن يقوله . . أو لعله أراد
« أن يستبقيك العمر كله إلى جواره وكان الرسم هو حجته
« الوحيدة ! . . .

« إن حبه . . انتقل إلى لوحتك . . ليورث العالم كله هذا

« الحب العجيب . وأصبحت ابتسامتك أجمل ابتسامة عرفتها
« البشرية . . »

– أنت ترى الجانب الجميل من الأشياء . . ألم تقرأ ما قاله د . ح . س هايس مدير مركز الرعاية الصحية فى النمسا عن ابتسامتى ؟ . . لقد أرجعها إلى عيب فى عضلة شفتى اليمنى أثر حادث أصبت به !

– « ولكنهم قالوا أيضاً إنها ابتسامة تدل على الذوق السليم .
« فهى تتبع آداب السلوك فى القرن السادس عشر التى
« كانت تفرض على المرأة العريقة أن تبتسم من ركن شفتيها
« الأيسر ! »

– إن الدكتور كينيث ليل الطبيب البريطانى الشهير وعالم التشريح يجد تحليلاً آخر . . ألم تسمع عن تصريحه بأن ابتسامتى ثقيلة لا يمكن أن توحى بأن عمرى وقت أن رسمنى دافنشى كان ٢٤ عاماً وإنما ابتسامة امرأة حامل . وأكد تحليله بجلستى واستنادى إلى ظهر الكرسى وثوبى الذى ينزل من صدرى إلى حجرى !

« ولكنهم كتبوا عشرات القصائد مدحاً فى ابتسامتك
« وافتتنوا بها . . وقلدوها فى الرسوم » .

– وهل تراك نسيت سخرية الرسام السريالى سلفادور دالى الذى حولنى إلى رجل . . شوه ابتسامتى بشارب رسمه فوق فمى . .

ووضع فى يدى حفنة من النقود . . ألم يجد وجهاً آخر يعبث به ؟ ! »

ـ « إنها ضريبة الشهرة ، عليك أن تسددى جزءاً منها « . . ولا تنظرى إلى الأمر بحزن . . فالأمر مزحة سخيفة » .

ـ لقد أراد الكثيرون أن ينالوا منى . . حاولوا أن يوهموا الناس أننى رجل واست امرأة . . وقالوا إننى كنت أحد تلاميذ دافنشى !

ـ « ورغم ذلك لم تفقدى معجبيك . . إن عددهم يتزايد « يوماً بعد يوم . . وعندما سافرت إلى أمريكا . . خصصوا « سفينة لك وحدك وصنعوا لك صندوقاً خاصاً مكيف الهواء . . وخلال شهرين ذهب ٧٧,٥٠٠ أمريكى وأمريكية للقائك فى متحف المتروبوليتان وحده ! . . .

« وأمنوا على رحلتك بأكثر من ٣٥ مليون جنيه إسترلينى » .

ـ وهل نسيت أننى سرقت من قبل !

« ولكن السارق كان يعتبر سرقتك عملاً وطنياً لقد « ذهب يعمل نقاشاً فى اللوفر . . حتى استطاع أن يسرقك ذلك « اليوم من أغسطس عام ١٩١١ وعندما عدت إلى مكانك فى « ديسمبر ١٩١٣ صرح السارق فنشتو بيروجيا الفاورنسى الأصل . . « بأنه لم يكن يقصد سوى إعادتك إلى موطنك ! . . »

* * *

وأفقت من تأملاتى قبل أن يكتمل حوارنا . .

والحارس يدفعنى برفق لأترك الطريق للصف المنتظر خلفى . . .

وقلت له وأنا أعتذر :

ــ لابد أنى استغرقت وقتاً طويلاً !

فأجابنى بابتسامة :

ــ ولقد اقتربت منها كثيراً حتى خيل إلىّ أنك ستقبلها ! . .

وقلت ضاحكاً :

ــ أنا أعلم أن لمس اللوحات ممنوع أما تقبيلها فلم أجد ما يشير إلى منعه !

ــ إن تقبيل الزوار للوحات ممنوع !

وغمز بعينه وهو يشير إلى عاشقين يتعانقان فى ركن . . ثم أضاف :

ــ لذلك لا يدخل « ذلك » فى اختصاصى !

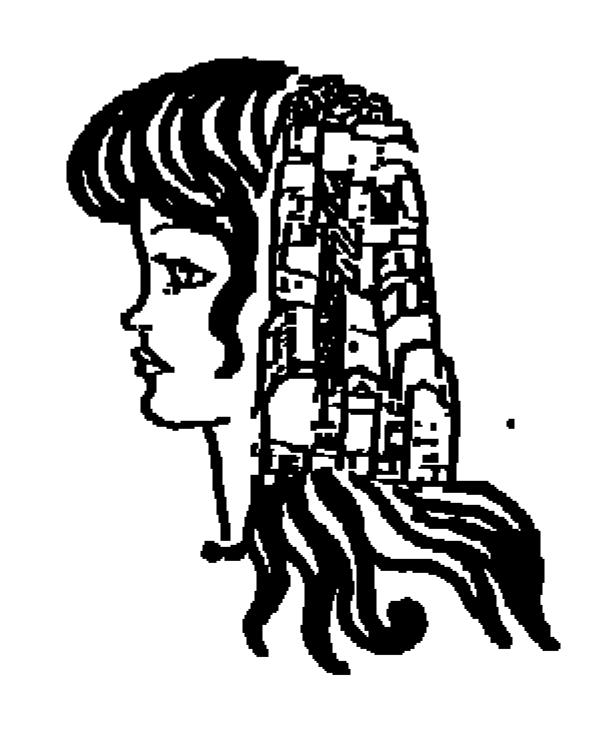
وسألته :

ــ . . وأنت ترى صورة الجيوكوندة يومياً ألا تحب أن تعود امرأة من دم ولحم ؟ !

ــ أولاً أنا لا ألتقى بها يومياً . . لأن نظام الحراسة يجعلنا نتبادل الأمكنة كل يوم . . أما إذا تحولت الجيوكوندة إلى امرأة

تأكد أنى سأعمل جاهداً إلى أن أعيدها إلى مكانها . . حتى لا يحاسبونى على اختفاء الصورة !:

وتركنى الحارس مع رنين ضحكته . . وعشرات الأسئلة حائرة ضاعت مع الحوار الصامت والحديث الذى لم يكتمل ! وقد زاد إيمانى بأننى كنت أعرفها أكثر قبل أن ألتقى بها ! . .





الفصل الرابع

فينوس وبريجيت !. .

وإذا كان اللقاء مع صاحبة أجمل وجه مثيراً . . فلابد أن اللقاء مع صاحبة أجمل جسد أكثر إثارة ! . . والمشوار ليس بعيداً . . فنفس السقف الذى يضم الجيوكوندة . . يضم أيضاً فينوس !

وفى هذه المرة لم أقف فى صف طويل . . وإنما وجدت لقدمى مكاناً فيما يشبه الحلقة تطوق التمثال الرخامى الرائع الذى تقاتل من أجله الفرنسيون والأتراك فى جزيرة ميلوس فى عام ١٨٢٠ !

كانت فينوس تقف فى رفعة على قاعدة رخامية هائلة . . صدرها العارى يطل فى مزيج من الأنوثة والكبرياء . . وجسدها القوى المجرد من الملابس حتى أسفل البطن يعكس إحساساً غريباً يمزج الجنس بالأمومة ويقف فى اعتداد على القدم اليمنى ، بينما تثنى اليسرى فى لفتة إغراء وتبرز الساق من خلال ثنايا القماش . . .

أما الوجه البارز الجبهة الواضح التقاطيع فينحرف نحو اليمين بلا تعبير . . كأن صاحبته عاشت من التجارب ما جعلها تواجه العالم بلا حماس ! والعيون تطوف حول الجسد الرائع . .

إن عيون الرجال من كل الأجناس تلتقى مع الحلم الخالد فى الجمال المثالى . . صنع منه مثّال خالد مجهول الاسم الرمز المجسد لأفروديت ربة الفتنة والجمال !

ولكن العيون التى تطوف بالجسد الرائع بدت لى أنها فقدت حرارتها ! إنها عيون متطلعة . . مدهوشة . . أو متعجبة . . ولكنها ليست عيون عاشقة أو شغوفة بأى حال !

إنهم يتطلعون إلى فينوس ويكشفون زوايا جسدها كأنهم يكتشفون جبلاً جديداً . . أو يطوفون حول أحد المبانى الأثرية !

وتساءلت عن السبب !

فقال لى الأستاذ السويدى والباحث فى تاريخ الفن :

– فى العصر الذى نحت فيه جسد فينوس كانت مثالاً لجمال الجسد النسائى ، أما اليوم فقد تغيرت النسب الجمالية وأصبح جسدها القوى وخصرها الكبير رمزاً لامرأة لا وجود لها فى المجتمع العصرى ! . .

مسكينة فينوس ! . .

إن العرش الوحيد الذى ما زالت تحتفظ به هو مكانها فى اللوفر . . أما مكانها التقليدى كربة الفتنة والجمال فقد فقدته تماماً كما فقدت منذ زمن بعيد ذراعيها ! . .

إن كل عصر يأتى بملكته . . لقد تغيرت الموازين الفنية . . واختار الرجال فينوس جديدة . . قد تكون ضئيلة الحجم نحيلة الجسد ، رفيعة الساقين . . . لا تملك صدر فينوس ولا أصالة

بنيانها الضخم . . ولكنها هى اليوم ملكة الجمال والإغراء الشرعية بلا منازع . .

وأصبح اسمها فى حد ذاته رمزاً تفرض حروفه صورة سريعة فى الأذهان وتتجمع عندها فى الخيال صورة صاحبته كحواء القرن العشرين !

بريجيت باردو . . . أو ب . ب . . الصناعة الفرنسية البارعة التى أقبل عليها العالم كله ! .

— « إن جسد فينوس يصنع على الأقل ثلاث نسخ من بريجيت باردو . . ولكننى أفضل مع ذلك بريجيت بادرو ! »
قالها الرسام الفرنسى ونحن نتحدث عن آلهة الجمال التى صنعها الإغريق وآلهة الجمال التى صنعها الفرنسيون ! . .

و ٩٠ ٪ من رجال فرنسا عندهم نفس الذوق . . . ولعل هذا هو السر فى أن ٩٠ ٪ أيضاً من بنات فرنسا تحولن إلى نسخ دقيقة جداً من بريجيت بادرو ! !

أكثر من مرة كنت أقف أتأمل فتاة تنطلق أمامى وشعرها مسترسل فى جدائل وجسدها دقيق متناسق . . وأعتقد أننى أمام النجمة الباريسية . . التى بهرت العالم . . وأكتشف بعد لحظات أننى أمام نسخة متقنة تماماً من الأصل !

وعندما رأيتها فى الواقع اكتشفت أنها أرق كثيراً من الصور المثيرة التى تظهر لها فى المجلات وإعلانات السينما :

وإذا كان الرسام الفرنسى فاندنجان الذى احتفل أخيراً بإطفاء ٩٠ شمعة من حياته قد اكتشف بريجيت باردو بطريق الصدفة عندما لفتت نظره فرسمها ذات يوم وقدمها لصديقه المغنى الفرنسى موريس شوفالييه . فإن عملية تحويل الوجه الجميل والجسد الدقيق إلى معبودة للرجل العصرى لم تكن بطريق الصدفة أبداً ! وإنما وراءها مخرج فرنسى شاب — أفلامه اليوم تحقق أرباحاً طائلة — ومع ذلك فقصته بدأت مع الفشل ! . .

. فهو كاتب فاشل لعدة قصص لم يكمل قراءتها أى ناشر ، وله عدة محاولات غير موفقة فى كتابة السيناريو والإخراج السينمائى ، ولكنه استطاع رغ إفلاسه أن يتسكع بفشله فى باريس يعيش أعماقها ويستوعب مشاكل شبابها .

ودرس مزاج العالم الذى يسوده القلق والخوف من حرب ذرية قد تشتعل بين أى لحظة وأخرى . . وتأتى معها بالدمار الكامل . .

وعندما قابل المخرج الشاب روجيه فاديم بريجيت باردو لأول مرة برفقة موريس شوفالييه فى عام ١٩٥٠ كانت فى الخامسة عشرة مجرد فتاة بسيطة وعادية جداً لا تلفت النظر . . ولكنه أدرك أنه أمام قنبلة سريعة الفتك ! . . .

وبعد اختبارات سريعة بدأ فاديم يصنع قنبلته وقال لها :

— سوف أجعل منك حلم كل رجل متزوج فى هذا العالم

وطلب منها أن تطيعه طاعة عمياء . . وتفعل كل ما يأمرها به

مهما بدا لها صعباً أو ثقيلاً ! . .

وأطاعت بريجيت . .

وبدأت من ذلك التاريخ ، صناعة أغرب لوحة للإغراء المجسم لهذا العصر . . المزيج المدهش بجسد صغير ناضج يحمل وجه طفلة . . التمثال الحى الذى يزيح فينوس من قاعدة الإعجاب الضخمة التى وقفت عليها خلال العصور !

كانت الخطوة الأولى ، أن حرل فاديم شعر بريجيت البنى إلى شعر أشقر مسترسل . . فالشعر الطويل أقرب إلى الأنوثة ويثير فى الرجل إحساسه بأنه آدم ! . . .

وعلمها كيف تتحدث بعينيها فى براءة ، بينما جسدها يتحدث فى نفس الوقت فى إغراء !

أعطاها دروساً فى الإلقاء لتبدو أبرأ الكلمات على شفتيها المكتنزتين جريئة مثيرة . . ولتصبح كلمة لا — عندما تنطق بها — معناها نعم .

جرب عليها كل أنواع الملابس وكل الألوان — واكتشف أن البنطلون الرجالى الأزرق والبلوزة الضيقة هما أجمل للقطة الشقية التى تعد لعرش الجمال !

وتمت الصناعة المثيرة . . وتحولت الفتاة الساذجة العادية إلى أحدث أنواع الفتنة . . . وكان أول ضحاياها هو فاديم نفسه . الذى تزوجها مبهوراً بها وازداد إصراراً فى وضع اللمسات الأخيرة !

وجاءت الخطوة الثانية . . طبع آلاف الصور لها . .
. . وزعها بنفسه على الصحفيين والمجلات والأصدقاء ! . .

وأغرق باريس فى سيل من اللقطات المثيرة مع التصريحات والريبورتاجات المختلفة . . و بريجيت مستلقية شبه عارية تستقبل الصحفيين ، ترد على حملاتهم برد حفظته من فاديم !

ـ عندما أكون عارية أتجرد أيضاً من عقدى النفسية !

وأثناء إخراج « خلق الله حواء » وقف فاديم يشاهد زوجته عارية على الفراش بين ذراعى البطل وصرخ فيه :

ـ اقترب منها أكثر . . امسح على شعرها برفق . . وقبلها بحنان . . وحرارة . . حسناً . . والآن مرة أخرى بقوة . .

ويغرق الاثنان فى قبلة عاصفة . . ويفرك فاديم كفيه ويتمتم

ـ حسنا . . حسناً جداً . .

ورفع الفيلم فاديم للقمة . . وأصبحت ب . ب نجمة عالمية . . تحتل صور الأغلفة ويصبح لاسمها رنين خاص تؤلف من أجله الأغنيات وتفوز فى استفتاء أحب وجه نسائى !

ولكن « فينوس الجديدة » بعد أن وقفت على عرش الجمال وعلمها زوجها كيف تحب تركته لغيره . . ولكن حتى بعد الطلاق قالت :

ـ كل ما أعرفه . . وكل ما أصبحته بفضل فاديم . .

وحاول فاديم أن ينتقم ويصنع آلهات جديدات . . مثل آنيت ستروبرج وكاترين دنيف . . وجين فوندا . . .

ولكن لا آنيت ستروبرج الدانمركية . .
ولا كاترين دنيف السويدية . .
ولاجين فوندا الأمريكية ! . .
استطاعت أن تزحزح عرش الجمال من تحت أقدام بريجيت باردو والسبب أنه يوم أن صنع فاديم ب . ب . اشتركت معه فرنسا كلها فى حماس .
فهى فتاة فرنسية . . من أب فرنسى . . وأم . . فرنسية . . أول من رسمها هو أشهر فنان فرنسى رسم المرأة . فاندنجان . . ذو الألوان الفرنسية الجذابة . . وأول من زكاها لفاديم المغنى الفرنسى الدافئ الصوت موريس شوفالييه ! . .
لذلك كل « الأطوار » التى تعاقبت فى « خلقها » وكل الأيادى التى رفعتها إلى عرش الفتنة والجمال فرنسية صميمة !
وأصبحت ب . ب من أهم منتجات فرنسا . . وشخصياتها العظيمة . .
قالت لى مديرة العلاقات المسئولة عن الدعاية لأفلامها :
— إن بريجيت تحصل على ٨٠ ألف فرانك عن بطولة الفيلم الواحد . . وهو أعلى أجر عندنا . . وهى تستحقه لأن أفلامها تحقق الجزء الأكبر من أرباح السينما الفرنسية هنا وفى العالم . .
ولا عجب أن تنشر دائرة معارف « لاروس » الصورة التى رسمها لها فاندنجان ! . .

ولا عجب أن خلال ٤٢٥ ألف بنت ولدن فى عام ٦٣ هناك ١٠ آلاف باسم بريجيت !

فباريس سعيدة بابنتها التى تربعت على عرش الجمال العالمى . . سعيدة وحريصة فى نفس الوقت على تأكيد وتثبيت أقدامها على هذا العرش أطول مدة ممكنة . .

لقد شاهدت ميداليات فضية وبرونزية أصدرتها مصلحة سك النقود . . طبع عليها تفاصيل جسدها !

ورأيت طوابع بريد مزينة بصورة وجهها !

وعرضت المحلات النسائية ملابس داخلية تحمل اسمها !

لقد استطاعت أن تحسم الخلاف الذى احتدم حول الفساتين فوق الركبة عندما اختارت فستاناً يرتفع عشر سنتيمترات فوق الركبة . . ونشر الخبر . . وفى اليوم التالى شاهدت بعينى نصف الفتيات يسرعن تحت البرد والمطر فى فساتين تماثل تماماً الفستان الذى ظهرت فيه ب . ب فى صحف الأمس !

وفى كل يوم كنت ألتقى بالعشرات من شبيهات « مس باردو ! » « تخرجن » من عند حلاقين تخصصوا وأتقنوا التسريحة التى امتازت بها « قطة السينما العالمية » !

وكنت أتساءل :

كيف استطاعت هذه البنت الفرنسية أن تدير رؤوس الرجال فيضعون اسمها فى صناديق الانتخاب وتمحو شخصيات

النساء إلى حد التقليد المطلق إلى هذا الحد ؟ ! . . .

ولابد أن نفس التساؤل جعل الأديبة الوجودية الكبيرة سيمون دى بوفوار تحللها فى كتاب رائع كشخصية وظاهرة اجتماعية تستخلص من شهرتها نتيجة تدين ذوق الرجل العصرى بالمرض : فأنوثة بريجيت فى رأيها ليست صارخة وإنما هى أقرب شبهاً إلى الغلام . . أما سر هذا الاهتمام والهوس بها فترجعه إلى عوامل متعددة مثل الأزمة الاقتصادية وفشل فرنسا فى الحروب المختلفة ؛ والاهتمام الذى يدفع بكاتبة عظيمة ألقت أضواء واضحة على مشاكل الإنسان والحرية والموت يوضح أهمية ب . ب كظاهرة فى المجتمع الفرنسى والعالمى . . فهى لم تعد نموذجاً جمالياً فحسب . . وإنما مقياساً لنفسية الرجل العصرى وتفكيره . . فتصبح أكثر فاعلية وأشد خطراً من فينوس نفسها ! . .

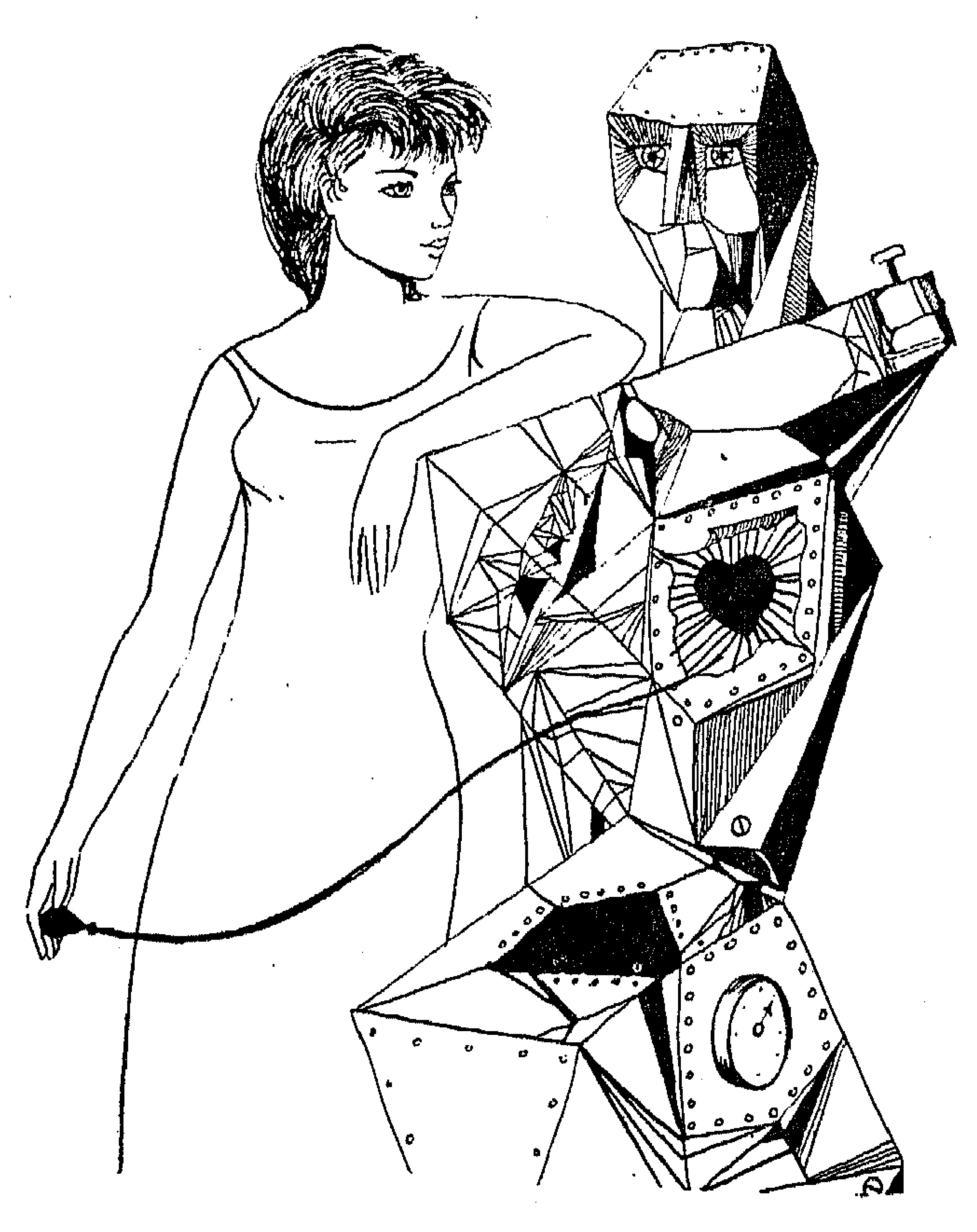
إن فينوس فى عريها الكامل أسفل البطن كانت تكشف عن نسب جمالية صاغها النحات المجهول ليقربها فى خياله من أفروديت . . أما اللمحات التى تكشفها ثياب ب . ب عندما تتحرك فى الأفلام وأغلفة المجلات وإعلانات السينما فهى تشكل الموضة النسائية لسنوات قادمة وتحدد ذوق الرجال وميولهم .

فقد تحولت ب . ب لتصبح « النموذج » العالمى لحلم الرجل العصرى الذى يخاف من امرأة ناضجة توازيه حجماً وفكراً ، وراح يتطلع إلى نموذج جديد . . يعطيه إحساساً أعمق بقوته ورجولته . .

٥٠

وبينما فينوس تبدو « وقورة جداً » فى عريها التقليدى . . . تبدو ب . ب عارية جداً فى موضات اللامعقول و « المينى جيب » والجوارب السوداء الطويلة . . حتى بعد أن تزوجت للمرة الثالثة وأصبحت أماً . . وتعدت الخامسة والثلاثين !





الفصل الخامس

الموضة والأزرار السحرية !

امرأة فى باريس تتمنى كل نساء العالم مقابلتها . .

ليست نجمة مثيرة مثل بريجيت باردو أو جان مورو !

وليست أديبة جريئة مثل فرانسواز ساجان أو كاترين روشفور . .

وليست قارئة كف . . تقرأ الطالع ، تمسك الأحلام فى الكف وتصطاد زوج المستقبل فى بللورة الحظ !

ولكنها قارئة « الموضة » مايم أرنودين . . المرأة الوحيدة فى العالم كله التى تملك أسرار الموضة . . عندها وحدها الخطوط التى ترسم أزياء المستقبل ! . . وهى الوحيدة التى يتلهف تجار الأقمشة على انتظار همسة من شفتيها تحدد فيها اللون المفضل للموسم القادم ! . .

ومن هذه الهمسة تنطلق إشارة البدء فى سباق عنيف بين رسامى الموضة . . كل واحد — وقد تلقى إطار الشكل واللون المفضل — يحاول أن يخلق الزى المناسب . .

لسنوات طويلة ظلت مايم أرنودين . . هى الآمرة الناهية ... فى أمر الموضة . . وهى المرأة التى تطمع أى امرأة أنيقة فى تفتيش أدراج مكتبها ! . فالرسوم القابعة فى مكتب أرنودين هى صواريخ

المستقبل التى تنطلق ترفع الأزياء فوق الساق أو تخفضها حتى القدم ! . . . .

اعتمدت أرنودين على ما تسميه « رادارها » الخاص الذى يمكنها من إدراك أنسب الألوان والأشكال لعام ونصف — وهى الفترة التى تلزم لطبع الأقمشة ، وتحديد أشكالها . . . واعتمدت على فهمها لنفسية المرأة فى ابتكار الأشكال الجديدة . . وتلجأ إلى الاقتباس أحياناً من الفن التشكيلى لتعطى الموضة شكلاً فنياً متطوراً مثلما فعلت عقب معرض « البوب آرت » الذى أقيم فى متحف الفن الحديث بنيويورك . . لقد استغلت وقتها كل أشكال « البوب آرت » الفنية الجديدة ، والتشكيلات التجريدية التى تعتمد على خداع البصر . . لتنقلها إلى الأقمشة النسائية ... و . . خرجت اللوحات إلى الشارع تتحرك بسيقان رشيقة !.

وكان من الممكن أن تعيش أرنودين لسنوات قادمة متربعة على العرش الذى خلقته . . وتضمن ألا يهتز تحتها . لولا مفاجأة أخيرة . .

فالعلم الذى امتد إلى كل شىء . . لابد أن يدخل ميدان الموضة أيضاً . . والأزرار التى تطلق الصواريخ لن يعجزها أن تطلق خطوط الموضة أيضاً . .

لقد خلق العلماء أخيراً مدام أرنودين جديدة ! ولكنها من حديد وصواميل وعيون إلكترونية . . لا تعمل بالدولارات أو الفرنكات . . وإنما بالضغط على أزرار صغيرة . . تنطلق

بعدها الآلة تفكر وتحسب ثم ترسم الخطوط والألوان المناسبة . . لا لعام . . أو عام ونصف فقط . . وإنما لخمسة أعوام قادمة !! مسكينة أرنودين . . إن الآلة الجديدة لا تكتفى فقط بقراءة خطوط المستقبل . . ولكنها أيضاً آلة ذكية لها عقلية نسائية جداً . . فهى مدبرة مثل ست البيت . . تستطيع فى أقل حيز من القماش أن ترسم أجزاء الفستان فى براعة تأسر أى امرأة وتجعلها تدير ظهرها إلى الأبد إلى أرنودين المسرفة !

حتى عيوب الجسد لها علاج عند الآلة العجيبة . . فهى وإن كانت تشكل الخطوط العامة . . إلا أن قلبها الطيب يجعلها تستجيب للحالات الخاصة فتعطى لكل قوام الشكل والخطوط الفنية التى تناسبه . . لقد فقدت أرنودين العرش الذى بنته فى سنوات . . وأغلب الظن أنها ستذهب هى الأخرى — وسط صفوف النساء ، ستستشير فى تواضع آلة المستقبل ، وتسألها أى الألوان تختار للموسم القادم !

بل « إن الآلة العجيبة » تستطيع فى المستقبل القريب أن تدخل مهرجان الموضة الذى يقام فى باريس مرتين كل عام ويشترك فيه أكثر من ٥٠ بيتاً من بيوت الأزياء المعروفة . تعرض آخر صيحة فى عالم الأزياء . . .

إن « الآلة العجيبة » ستسيطر بالتالى على واحدة من أكبر العمليات الصناعية والاقتصادية فى فرنسا . . فالموضة بأزيائها ومهرجاناتها وما تولده من حمى المناقشة وجنون الاقتناء — تحرك

مصانع الأقمشة التي تشغل آلاف الأيدى العاملة من الجنسين . وستتحكم الأزرار الإلكترونية فى ٢٠٠ بليون دولار من العملة الصعبة تدخل خزينة الحكومة الفرنسية فى كل عام !

حتى « آلتا » لن تستطيع مقاومة إغراء العمل مع « الآلة العجيبة » و « آلتا » أول عارضة أزياء فرنسية تحصل على جائزة الأوسكار التى أنشأها اتحاد بيوت الأزياء الفرنسية . .

« وآلتا » تعمل عند بيير بالمان ولكن لا مانع عندها من العمل مع صاحبة الأزرار الإلكترونية ! . . . وهى أكبر خسارة لبالمان . . لأن « آلتا » ليست عارضة أزياء جميلة فحسب وإنما تملك موهبة التواضع وتركز اهتمامها أثناء العرض فى إبراز جمال فستانها فقط وتستطيع فى نفس الوقت أن تتناسى جمال قوامها وحلاوة سيقانها . . وهى مسألة نادرة فى عارضات الأزياء وخاصة بعد ظهور أزياء « البلاستيك » وتحول الكثير من العارضات من عرض الأزياء إلى ما يشبه استعراض « الستريبتيز » . . وأصبحت المسألة عرضاً للأجساد وليست عرضاً للأزياء . . بعد أن ظهر « باكورابان » ملك البلاستيك فى باريس وطرح مايوهات وفستانين كلها مصنوعة من البلاستيك . . أصبح عرضها نمرة مفضلة عند جمهور علب الليل وخاصة ملهى « الكريزى هورس » أو الحصان المجنون . ولكن بعد احتجاج بيوت الأزياء . . اختفت العارضات من اللعبة وأصبحت متروكة

بجهود فتيات « الستربيتيز » وعاد لفن « العرض » كرامته وأصوله . . .

إن « الآلة العجيبة » قد تغرى بأزرارها الإلكترونية عارضة الأزياء لأنها تستطيع أن تصنع القماش المناسب والتفصيلة المناسبة .

« ولكن الرجل ما زال أكثر إغراء لأنه هو وحده يستطيع أن (يصنع) عارضة الأزياء نفسها » !

قالتها واحدة من أجمل عارضات باريس فى حماس وتضيف لتأكيد كلامها ، حكاية « دانيل شيفالييه » عارضة الأزياء التى أصبحت ملكة جمال باريس بفضل مصمم أزياء متواضع لا يملك عقلاً إلكترونيًّا أو أزراراً سحرية ، وإنما يمتلك عيناً حساسة . . للجمال . . استطاع هذا المصمم المتواضع من « بوردو » أن يقدم لباريس ملكة جمالها !

والمرأة الفرنسية تعترف بفضل الرجل ، وتستسلم لفنه بلا مناقشة . . . وإذا كانت أرنودين هى الآمرة الناهية فى خطوط الموضة . . . وإذا كانت الأزرار الإلكترونية قد ظهرت على المسرح . . فالواقع قد أثبت أن خلال الفصول الأخيرة من مسرحية الموضة قد قام رجل بدور البطولة . . رغم أنه لم يظهر على المسرح . . إنه الفنان الذى خلق « الأوب آرت » ليصبح اسمه « الشكل الحديث » فى كل ما تلبسه المرأة . .

خرجت خطوطه وألوانه من اللوحة لتحتل مكانها العصرى

فى ملابس المرأة : والحذاء الذى ترتديه ، والحقيبة التى تحملها بل حتى الحلق الذى تتزين به ، وسلسلة المفاتيح التى تعبث بها .

ولكنه ليس موجوداً فى باريس ليراقب هذا النجاح « المتحرك » لفنه وأساوبه . .

ولم أكن أستطيع أن أملك نفسى من التفكير فيه فى كل مرة أتطلع فيها حولى فى ملابس الحسناوات : أين أنت الآن يا موندريان لتشاهد لوحاتك العجيبة على أجساد النساء ؟ !

لقد مات « موندريان » مبتدع فن « الأوب آرت » منذ ٢٢ عاماً . . تاركاً لوحاته فى المتاحف وعلى جدران العرض . ولم يكن هناك من يعتقد وقتها أن أساوبه المميز سيغير الأذواق ، ويرسم الإطار الجديد لحواء العصرية التى تتحرك فى نشاط ، فى خطوط جديدة واضحة ، وألوان صريحة محددة داخل المربعات والمستطيلات !

وجد موندريان فى العلاقات الصامتة بين الأزرق والرمادى والأخضر فنًّا حيًّا وأحدث « حركة » من توالد فن علاقة الخطوط الرأسية بالأفقية . . .

وهذ « الحركة » هى التى ترتديها المرأة الباريسية فتزيدها حيوية . . وتضفى عليها حتى فى لحظات الصمت والهدوء « ضجيجاً » محبباً من الفتنة والجمال !



الفصل السادس

باربار يلا : جوديل : كلودين :

صناعة باريسية جديدة !

شاهدت مونت كارلو أغرب مؤتمر من نوعه . . إذ جاءت وفود من الولايات المتحدة الأمريكية ، وإيطاليا ، وبلجيكا ، وإسبانيا ، وسويسرا وفرنسا لتتبادل الآراء والخبرات والحديث حول المسلسلات المصورة التى تنشرها الصحف والمجلات . . والتى حققت فى السنوات الأخيرة ربحاً خيالياً واهتماماً واسعاً لدى الجمهور . . واستطاعت أن تشكل اهتماماً خطيراً فى نفوس الصغار والكبار ! !

وفى أثناء هذا المؤتمر أعلن عن مولد بارباريللا . . فرنسية شقراء ، طويلة الشعر دقيقة القوام ، واضحة الفتنة . . وهى بطلة جديدة من أبطال هذه القصص ترشحها فرنسا لغزو الأسواق واحتلال صفحات المجلات والصحف اليومية !

وقد خلق الكاتب جون كلود فورست بطلته بعد دراسة ذكية وماكرة لكل الشخصيات النسائية المعاصرة فى عالم السينما والمغامرات ، وجعلها تعيش أحداثاً هى مزيج من الأسطورة الإغريقية ، والمعتقدات الخرافية ، وعالم الغد الغريب بما فيه

من كواكب غامضة وعوالم مجهولة . . وفى اختياره لاسمها راعى ما يثيره اسمها من معنى القوة . . إذ اشتقه من « باربار » .

وقد أطلق عليها لقباً مثيراً فهى « باربا ريللا جورجورا دى فامبيرا ، سليلة عائلة شاربى الدم والنبيذ » !

ومغامرات باربايللا مزيج من الجرأة والخيال . . وخفة الشخصية ومزيج عجيب من الحنان والقوة . . إن الكاتب يريد أن يجعل القارئ أسيراً لبطلته . . عندما يختلط فى قلمه شعور الحب بالإعجاب والخوف كلها فى جرعات متتالية فى تتابع الصور والأحداث . .

وجاء الرسام ليجسم خيال الكاتب . . فاستعار بعض مميزات الممثلة بريجيت باردو ، كالشعر الطويل والأنف الدقيق والشفتين المكتنزتين . . والقوام التقليدى الذى يطالع مشاهدى الروايات الاستعراضية ، وإعلانات صابون الجمال !

وتنطلق هذه الشخصية المثيرة حاملة ملامح شابات التويست ، فتلعب بالقدر وبقلوب الرجال وتواجه كل صور الحب ، حتى حب الرجل الآلى . . ومخلوقات الزهرة والمريخ !

ما هى القيم التى يريد الكاتب إبرازها فى شخصيته ؟ وما سر هذا الغلاف الذى يصبغ به الرسام هذه الشخصية ؟

للأسف . . مجرد حيلة لتحويل الجمهور فى تيار جديد ناحية المسلسلات الفرنسية . . بدلاً من المسلسلات الأمريكية أو الإنجليزية ؟

. . والكاتب يقول وكأنه يهز كتفه : « بارباريللا قد لا تكون ذات أخلاقيات ولكن عندها مثلاً عليا » !

أما المثل العليا التى يتحدث عنها المؤلف . . فهى حرية امرأة سيدة نفسها ، تختار من الرجال من تشاء . . وتكرد من تشاء . . فتتفنن فى تعذيبه !

والذى لا يريد أن يقوله المؤلف ، هو أنه اشترك مع الرسام فى صناعة جديدة لاستدرار الفرنكات .

وفى الوقت الذى كانت فيه بارباريللا الحسناء تسيطر على مؤتمر مونت كارلو . . كنت أقرأ فى باريس خطاباً غرامياً مثيراً موجهاً إلى النجمة جوديل التى كتب لها الأديب فرانز أندريه بورجيه خطاباً مفتوحاً فى مجلة « آر » الفرنسية تحدث فيه عن إعجابه بها !

وليس الغريب هو خطاب بورجيه ولكن الغريب حقاً هو جوديل نفسها إذ أن جوديل هى مجرد رسم مثير للرسام « جاى بيلار » . . يتحرك كل أسبوع فى مغامرة مثيرة يتتبعها الجمهور فى شغف كما تتبع من قبل مغامرات بارباريللا . . والرسم الذى يعطى « لجوديل » جسداً مثيراً يعطيها أيضاً مقدرة غريبة على الحركة السريعة والفتك بالأعداء !

« جوديل يا حبى !

أنت مثيرة . . أنت شقية . . أنت حمقاء . . وقاسية . .

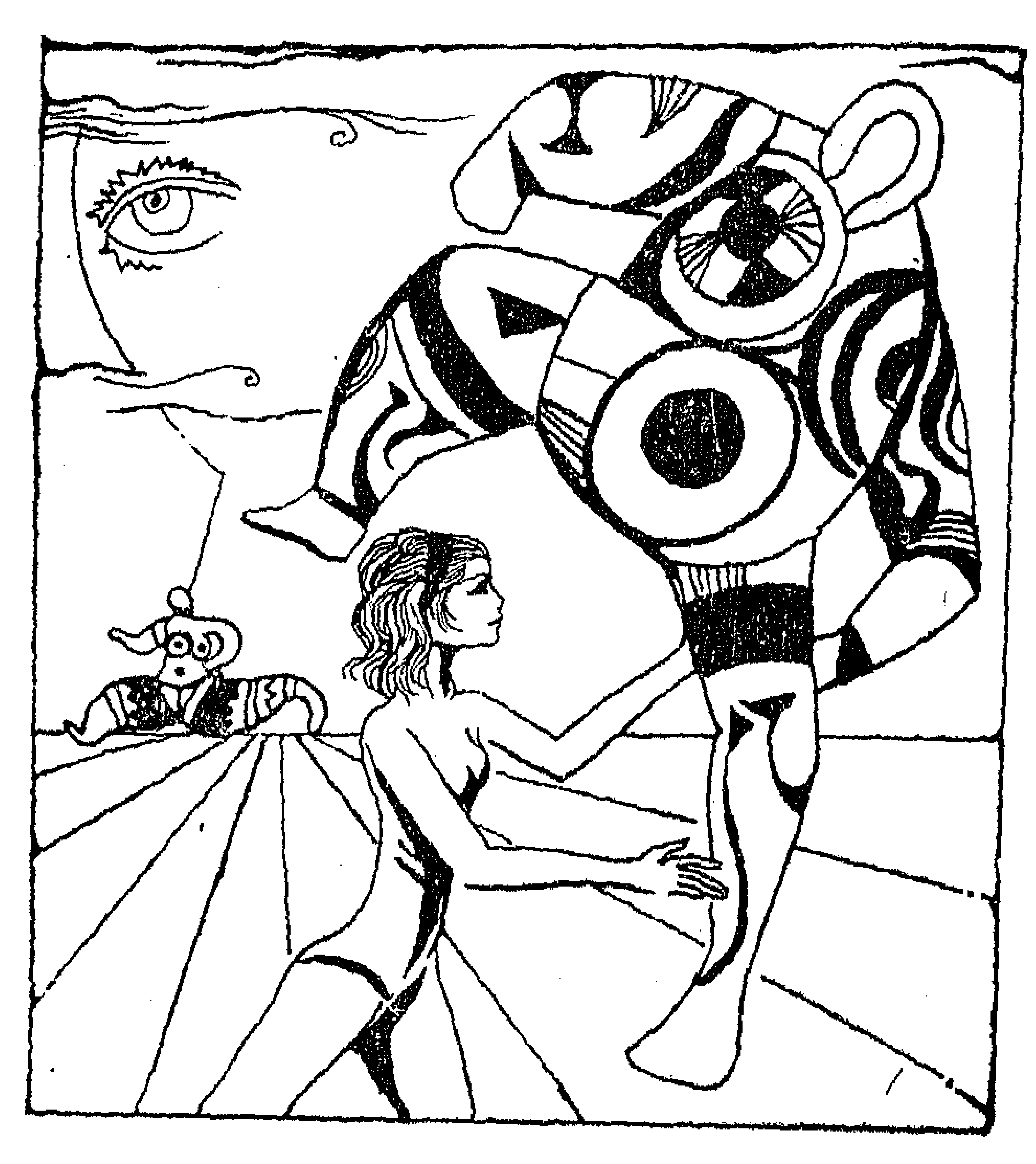
ولكنى أعبد الاحتقار المرسوم على شفتيك والهالات السوداء حول عينيك » !

« جوديل . . معبودتى . . أنا أعيش فى العالم الملون العجيب الذى تخلقينه حولك . أتتبع حياتك يوماً بعد يوم فى الصور التى تنقل لى تصرفاتك وأشاهد خلالها حركاتك ونظرات عينيك » !

والخطاب طويل . . وأغلب الظن أنه سيثير غيرة ب . ب وكل النجوم الذين لم يسعدهم الحظ بقراءة خطاب غرامى منشور . . .

أما الرسام « جاى بيلار » فلابد أنه سعيد لأنه استطاع برسمه لشخصية جوديل أن يسرق البريق من ممثلات الإغراء خاصة وأنه لفت نظر الناشر « إيريك لوسفيلد » وتعاقد معه على طبع مغامرات جوديل فى كتاب ظهر ليحتل الصدارة فى المكتبات ! . .

وتشاء الظروف أن ألتقى بالممثلة الفرنسية « كلودين أوجيه » فى مهرجان كان وأجد فيها المزيج الحى من « بارباريللا » و « جوديل » ولقد أراد المخرج « جون بيركاسيل » أن يؤكد هذا الشبه بشكل واضح فاختارها بطلة فيلمه « ألعاب قاتلة » الذى فيه يضيع الخيط الرفيع بين الواقع والخيال وتصبح « بارباريللا » و « جوديل » و « كلودين » امرأة واحدة مثيرة . . صناعة فرنسية جديدة جاهزة للتصدير !



الفصل السابع

تحية إلى الجنون

بعد أسابيع من متابعة الحياة فى باريس . . بكل ما فيها من جديد وغريب . . وبعد أن عرفت بارباريللا وجوديل وتعرفت بكلودين أوجيه . . وشاهدت الميني جيب . . والميني ميني جوب . وبيجامات السهرة . . بدأ إحساسي بالدهشة يقل تدريجياً وأنا أتعود على الإيقاع الجديد الذى وجدت نفسى فيه . . وأصبحت أمر على إعلانات غريبة ومثيرة لأفلام ومسرحيات مختلفة أو أشاهد لوحات وتماثيل مطعمة بقطع الزجاج أو تتحرك بالكهرباء فلا أقف . . . لقد أصبحت مألوفة ومكررة . .

ولكن ذات مساء وجدت نفسى أقف طويلاً على باب مسرح « الشانزليزيه » أتأمل الإعلانات الغريبة ، وأشاهد الناس يتدافقون لحجز التذاكر . . .

ووجدت نفسى أجلس وسط الجمهور . .

وأعود فى الليلة التالية أيضاً . . لأتعرف على المخرج واقفاً وراء الكواليس . . وعلى بعد خطوات . . .

كان « رولاند بتى » مخرج أغرب باليه حديث تشاهده باريس . . وراء الكواليس ، يرقب فى اضطراب الستار وهو يفتح على المنظر الأول ويسمع همهمة الجمهور ودهشته عندما

واجهته الآلة الضخمة العجيبة التى تتحرك فى عشرات التروس . ثم أضواء النيون التى تلمع فى الديكور العجيب . . وتشكل وجهاً مستديراً لامرأة ذات عين واحد وقلب أحمر يرتجف على خدها الأيمن ! . وبالقرب من « رولاند بتى » وقف مذيع التليفزيون يلاحقه بالأسئلة :

ـ هل أنت خائف ؟ . . ما هو شعورك ؟ ! لماذا أطلقت عنوان « تحية إلى الجنون » على هذا الباليه ؟ . . هل أنت راض عن عملك . . و . . .

ويرد رولاند بتى فى صوت هامس :

ـ إن الرقصة قد بدأت . . دعنا نتحدث فى همس حتى لا نقلق الراقصات . . نعم . . أنا خائف . . إنها تجربة جديدة . . ولذلك أحس بالاضطراب . . ورغم أنى راض عن الجهد الذى بذلته مع زملائى الفنانين خصوصاً ديكور « تينجلى » . . وراقصات « نيكى سانت بال » . . ولكنى مع ذلك متلهف على معرفة رأى الجمهور وإحساسه . .

ولكن مخاوف « رولاندى بتى » التى ولدت فى قلبه مع افتتاح الستار فى الحفلة الأولى . . سرعان ماماتت وسط التصفيق الحاد المتواصل الذى حياه به الجمهور .

والمتفرج وهو جالس فى كرسيه . . قد يصدم إذا دخل معتقداً أنه سيلتقى بما يشبه « بحيرة البجع » أو « روميو وجولييت » . فإن أول ما يصفع الخيال . . هو « راقصات البلاستيك » فى

ضخامة غير عادية تملأ المسرح وتتحرك فى الظلام . ثم تلمع عليها الأضواء فجأة . . وتنبثق فيها بقع اللون فى تكوينات زخرفية غريبة . . هى الرمز التشكيلى للمرأة التى تسود العالم . . ثم هناك الوجه النسائى ذو العين الواحدة يلمع بالنيون ويرمز إلى إعلانات العصر الحديث . . ومع توزيعات موسيقية غريبة وبارعة قريبة من « السيلفيد » يحكى رولاند بتى فى تسعة مشاهد متتالية . . قصة امرأة بسيطة . . كانت لا شيء . . وصنعتها الإعلانات . . ورفعتها أيدى الرجال . . ولا تلبث أن تصبح هى كل شيء . . هى مصدر القوة والإعجاب . . أمامها تتوارى كل العناصر الأخرى . . ويتضاءل الرجال فى الظل . .

ويقول فيكى النحات الحديث الذى صمم راقصات البلاستيك التى تظهر لأول مرة :

« إننى أرسم المرأة كما ترى نفسها . . إن الأجزاء المختلفة لجسد المرأة ترقص وترقص . . وتتجمع لتخلق امرأة واحدة هائلة . . هى الصورة العكسية لخيال الرجل الذى يصور له غروره التقليدى أن المرأة مجرد جسد ضعيف مسكين ! إن راقصات البلاستيك . . هذه الدمى العجيبة هى الرمز المباشر لانتصار الأنوثة وسيطرتها على العالم » !

ومن ساعة أن عرض باليه « تحية إلى الجنون » على مسرح الشانزليزيه . . والحديث يحيط بكل ما حوته الراقصات من طرافة والديكورات من إغراق فى الرمزية والخيال . . وسمعت واحدة

من المتفرجات تقول عندما شاهدت الدمى البلاستيك : « سواء كانت تحية للمرأة أم لا . . أنا لا أحب إطلاقاً أن أكون فى ضخامة هذه المرأة ! »

ولكن فى جدية واحترام نيتشه . . هناك من قال إن المخرج الشاب يدعو إلى حب الحياة ! الحب إلى درجة الجنون !! وهناك من وجد فيما قدمه دعوة إلى الإقبال على الحياة كما هى . . وهناك من قال : « إنه أراد أن يجعل الحياة ترقص ! . . »

أما تعليق الرجل العادى . . فيشبه إلى حد بعيد . . هذا الزوج الفرنسى الذى جلس إلى جوارى وقال فى نهاية المسرحية متلفتاً إلى زوجته :

« عزيزتى لا تسعدى كثيراً بهذه الصورة المبالغ فيها لقوة المرأة . . فكما ترين أنها ضخامة البلاستيك لا غير ! »

ولم أسمع تعليق المرأة . . لأن التصفيق الحاد فى نهاية الباليه طغى على كل الأصوات .



الفصل الثامن

أحزان العصفورة الذهبية !

فى « بلفيل » يوم أن علقوا يافطة تحمل اسم « أديث بياف » المغنية الفرنسية التى ماتت بعد أن علمت الحب لكل نساء باريس امتلأ الشارع الطويل بآلاف المعجبات جئن من كل مكان فى فرنسا لتحية المغنية ، ويذرفن الدموع على بوابة البيت الذى ولدت فيه .

وقف المغنيان موريس شوفالييه و « جيلبير بيكو » يتأملان المشهد فى تأثر شديد ! . .

فالمرأة الفرنسية عاطفية ، تعرف الوفاء ، ولكنها أيضاً واقعية جداً فبعد أسابيع كانت « ميراى ماتيو » مغنية شابة فى العشرين تقلد « بياف » وتأخذ مكانها فى القلوب ، وتحتل مكانها على المسرح ، بل تسرق حتى ملحنها القديم جورج ديموز !

وظهرت الصحف تحمل نبأ محاولة « ساغابو » الانتحار !

وساغابو هو الحلاق الشاب الذى تزوجته بياف وهى فى خريف العمر سنوات قبل موتها !

وقال « ساغابو » للذين راحوا يزورونه :

« لقد تخلوا عنى ! »

وقالت لى بائعة الصحف الباريسية وهى تشير إلى صورة

ساغابو وحديثه :

« كان المسكين يتوقع أن يكون الوريث الشرعى لصوت بياف وشهرتها ، ولكن أذن المرأة الفرنسية واقعية فاختارت واحدة من بنات جنسها لتحل محل عصفورة باريس التى طارت إلى السماء ! »

وشاهدت العصفورة الجديدة وهى تغنى . . فى التليفزيون وعلى المسرح . . وأحسست رغم ابتسامتها الواسعة . . أنها تبدو حزينة . . ثم تكشفت الحقائق وظهرت عناوين ضخمة تكتب المأساة :

« أشهر مغنية فرنسية اليوم تمر بأزمة عنيفة ! . .

ميرى ماتيوه . . عصفورة باريس الجديدة التى حلقت فى نفس السماء التى شهدت مجد إديث بياف . . تعانى من حالات إغماء مستمرة وإرهاق عصبى يتهددها . . »

ووراء الأزمة قصة غريبة ، تكشف الأساليب الملتوية غير الإنسانية التى تتبع الآن لخلق نجوم الغناء ، والدعاية التى ترفع شعار الغاية تبرر الوسيلة . . ولا يهم أن تكون الوسيلة بعد ذلك من القسوة بحيث تطيح بتماسك إنسان ، أو تقتل فيه مكونات شخصيته . .

الناس فى حاجة إلى الغناء . . وأندية الليل ، والمقاهى وأمسيات العشاق جافة بدون « بياف » . . إن أسطواناتها القديمة تحل « بعض » المشكلة . . ولكن وجودها بعيداً عن مسرح

الحياة ، جعل أصحاب صالات الموسيقى وشركات الأسطوانات يتلهفون على نجمة غناء جديدة تقف فى دائرة الضوء التى وقفت فيها « بياف » من قبل . .

وهنا ظهرت . . « ميريى ماتيو » . . الشابة الشاحبة . . ابنة العامل والأم المجهدة التى تجيد تقليد صوت « بياف » وتسلى نفسها وهى تغسل الأطباق بالترنم بالأغانى التى شهرت من قبل عصفورة باريس . . التى طارت إلى السماء ولم تعد ! . .

ورشحت ميريى لتحتل العرش الخالى . .

وهنا جاء دور الدعاية . . استغلوا أسرة ميريى وصورها وسط أخواتها الاثنى عشر وسفروها إلى أمريكا . . لتظهر فى التليفزيون . .

ومن أمريكا طارت إلى « موناكو » تقف أمام جريس والأمير رينيه . . و . . آلاف الصور ورعت فى كل مكان . . وريبورتاجات . . وأغلفة مجلات ملونة . . وتكلفت الحملة ٧٠ مليون دولار ونجحت « ميريى ماتيو » . . نجحت فى ترديد أغانى بياف . . والوقوف على عرشها !

وبعد أن أفاقت من حلاوة النجاح . . أرادت أن تستريح . ولكنهم لم يتركوا لها فرصة الواحة . . لابد لها من الظهور بشكل ملح ودائم لتشغل الناس . . . .

وأحست بالإرهاق . . وبدأ الإغماء يطاردها فى أعقاب كل حفلة . . وضاقت نفسها بتكرار أغانى بياف . . وضاقت

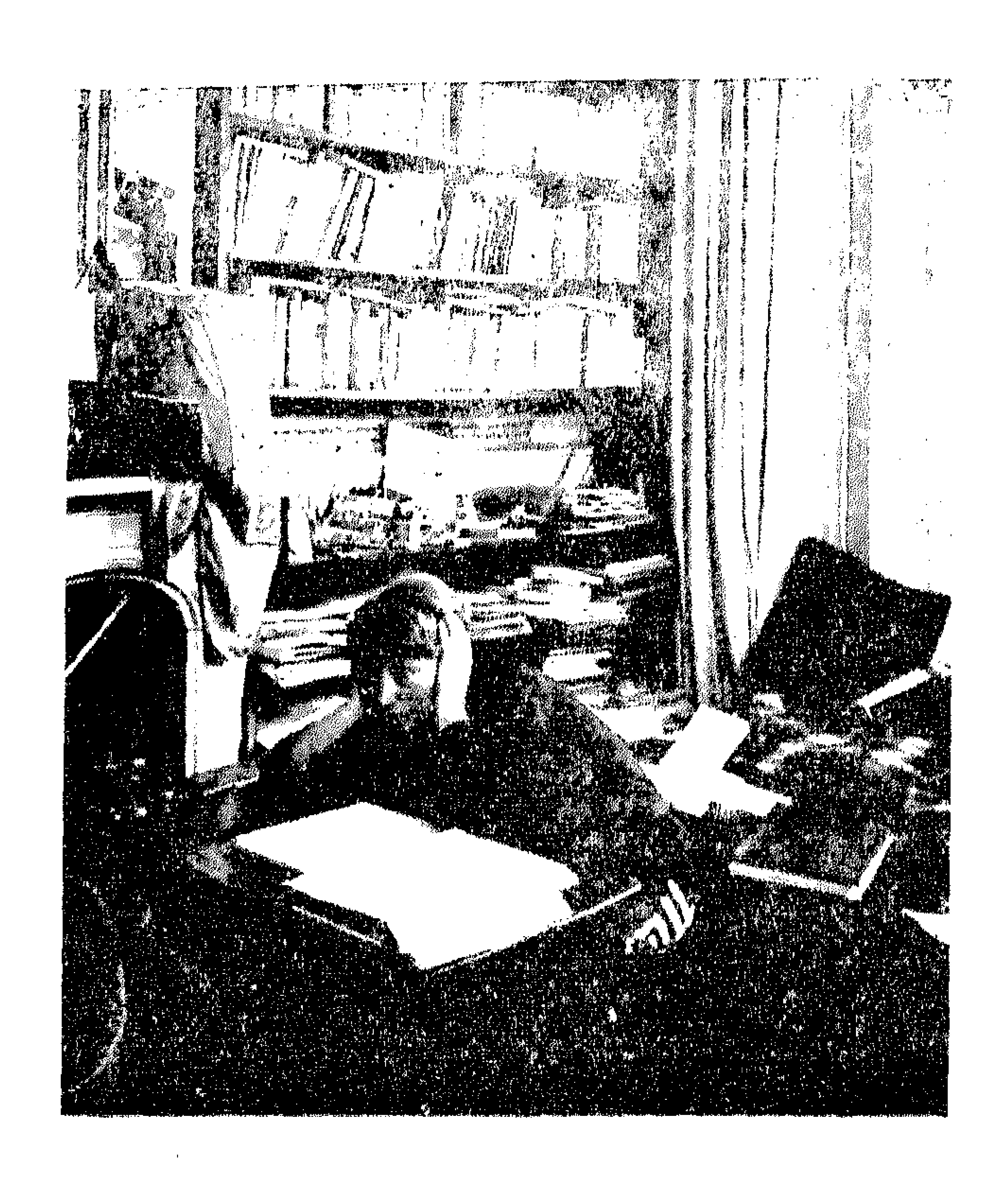
أكثر بالتمثيلية التى أجبرت على أن تقوم بها . . . أن تغنى بأسلوب بياف . . تلبس على طريقتها . . وتعيش حياتها الصاخبة . . فى أعماقها كانت الفتاة الطيبة الخجول التى تقدس الأسرة وتعيش داخل أحضان أمها تقبل أباها قبل أن تنام . . ولا يضايقها أن تغسل طبقها . . وتتنزه على ضفاف السين مع أخواتها ! . . .

أرادت ميرى أن تغنى أغانيها . . هى . . الأغانى التى تصادف هوى فى أعماقها . . ولكن الملحنين رفضوا . . لأن الذين يلحنون لها هم نفس الذين لحنوا لبياف من قبل ! . .

أما رجال الإعلان . . فقد حرصوا على تأكيد حقيقة قاسية لقد صنعوا نسخة جديدة لبياف . . وعلى ميرى أن تظل هكذا دائماً . . الشبح الحى لعصفورة باريس التى ماتت . لقد أصدروا قرارهم وتناسوا أن التقليد حكم بالإعدام لشخصية جديدة تريد أن تنمو وتتبلور . . فهل تقف ميرى تدافع عن شخصيتها وتواجه العاصفة . . أم ترقد من جديد صريعة للانهيار . لتعيش وتموت فى ثياب . . إديث بياف ؟ !

وردت ميرى على التساؤل فى حفلتها الأخيرة . .

وقفت على المسرح . . وحدها . . والأضواء تغمرها . . وغنت أغنية جديدة بعيدة تماماً عن صوت بياف . . ودوت الصالة بالتصفيق . ودمعة صغيرة تنحدر من عين « ميرى » . . دمعة من وجد نفسه !



الفصل التاسع

كريستيان روشفور..

أريد أن أصرخ . . أن أبكى
وأن أركض فى الحقول !

كان المساء ممطراً . . وأحسست بالرغبة فى النوم المبكر . . ولكن المطر الذى كان يطرق زجاج النافذة طرد النوم بعيداً . . ووجدت نفسى أفتح الكتاب الذى اشتريته فى الصباح وأعاود قراءة الفصول التى قرأتها منذ سنوات . . . وتمر عيناى على السطور التى سألتقى مع المرأة التى كتبتها فى الغد . . . وبدأت أقرأ :

« استيقظت مبكرة كالعادة . . أحاول التخلص من ذكرى كابوس الليلة الماضية . الكابوس الذى صاحب طفولتى بإلحاح فى أكثر من صورة . . ولكن كلها تدور حول معنى واحد . . عندما أجد نفسى وسط ميدان كبير ، أبحث عن شخص ما ، والتفت حولى . . فتفاجئنى ضحكات الرجال . . وأكتشف مذعورة أنى أرتدى قميصاً شفافاً لا يصل حتى إلى ركبتى » !

هكذا تحكى جنفييف بطلة رواية « راحة المحارب » انطباعات وحدتها . . وهى بعيدة عن باريس يقودها القدر إلى فندق مثير ، فى الوقت المناسب لتقتحم على البطل « دونوسارتى »

حياته وتنقذه من الانتحار فيقول لها هامساً فى لا مبالاة :

« لقد اكتملت الصورة . . وهاأنت ذى الآن مثقلة بمسئولية روحى على كتفك ! »

وتكتشف فى دهشة من نفسها أن « سارتى » هو رجل أحلامها ، لا يمكنها أن تلفظه . . وفى حرارة تصف شعورها :

« يديه . . كنت أريد يديه أن تلمسانى . . أنا مجنونة . . أريد أن أصرخ . . أريد أن أبكى أن أركض فى الحقول . . وأهتف . . أحبه أحبه ! ! . لقد ولدت من جديد تحت وقع نظراته . . أريد أن أكون وحدى معه . . بعيدة عن العالم كله حتى أستطيع أن أنظر إليه . . فحتى عندما نكون فى الشوارع الخلفية . . أحس أنى بعيدة عنه ! » . .

وتتحدث جنفييف عن حبها . . فى حرارة وصدق . . ومن وراء الكلمات تطل الأديبة الفرنسية « كاترين روشفور » ترسم بالكلمات لوحتها الكبيرة عن الحب . . وتلخصها فى جرأة على لسان بطلتها التى تقول :

« لا فائدة من مقاومة الحب . . إن العقل ساعتها ، يبدو صورة من صور الجنون ! »

لقد التهمت فرنسا الكتاب الذى أعيد طبعه . . ووزع أكثر من ٢٥٠ ألف نسخة !

وخطف « فاديم » الكتاب ليصنع منه فيلماً قامت بريجيت باردو ببطولته !

وبين يوم وليلة أصبحت كاترين روشفور ، تحتل المكان الذى تربعت عليه فرانسواز ساجان ، ولاقت قصصها الرواج .. وتطاردها الصحف . . وخطابات القراء . . ويتركز حولها الاهتمام ، والجميع يترقبون كتابها الجديد « وردة من أجل موريسون » .

كان موعدى معها فى تمام السادسة . . وجاءت سكرتيرتها تقول :

« السيدة روشفور تحدثت بالتليفون من الطريق . . أنها تعانى زحام المرور وستأتى بعد لحظات ! »

وبعد دقائق كانت أمامى ، تلهث فى فستان أسود ، وشعرها القصير لونه خداع لا تدرى هل هو من تأثير الزمن أم الموضة !

وجرى الحديث بيننا فى سرعة من زحام السيارات إلى زحام البشر . . إلى إنسان العصر الحديث الذى يحاول فى مفترق الطرق أن يقف على قدميه ، وتقول كاترين روشفور :

« هذا الإنسان هو بطل قصتى . . وخاصة قصتى الأولى . . هو إنسان ما بعد الحرب الذرية . . الرجل اليائس الذى يحاول جاهداً أن يخرج من يأسه . . هو أكثر من رمز . . هو بطل عام يعبر عن العصر . . ويعبر عن نفسى . . فأنا حزينة متشائمة ومع ذلك متفائلة فى وجود الإنسان . . وفاعلية هذا الوجود » وأسألها :

— فى روايتك كنت قاسية على المرأة . . لقد جعلت الرجل

يتسامى باحثاً عن الله فى الحب . . بينما المرأة لا تجد فى الحب سوى الرغبة !

ــ لقد أراد فاديم أن يغير الأدوار فى الرواية السينمائية لهذا السبب . . أما فى روايتى . فلقد عرضت صورتين مختلفتين للحب . . داخل الإنسان وخارجه . . الحب الأنانى . . والحب الذى يأخذ و يعطى . .

ــ وهل تغيرت نظرتك الآن ؟

ــ . . بعد خمس سنوات . . وبعد أن تركت الكتابة من أجل الزواج . . عدت للكتابة وتركت الزواج . . أنا أرى الناس . . وأشاهد نفسى وأنا فى التجربة وبعدها دائماً أتساءل . . كيف ولماذا ؟ ! وأدرس نفسى . . ومن هذه المراقبة الذاتية تولد الفكرة .

ــ وكيف ولدت فكرة قصتك الجديدة ؟

تشعل كاترين لنفسها سيجارة . . وترمقنى بعينيها الزرقاوين فى حذر . . ثم تبتسم وقد قررت أن تتحدث :

ــ لقد عشت أشهراً فى رواية طويلة حتى انتهيت وعندما قرأتها لم تعجبنى فتركتها جانباً وبدأت قصتى الجديدة « وردة من أجل موريسون » أتممتها فى ثلاثة أسابيع . . وأعتقد أنها نتيجة للقصة السابقة التى لم أنشرها .

ــ وما موضوعها ؟

وتعود النظرة الحذرة إلى العينين الزرقاوين وتقول :

– ولكن القصة لم تظهر بعد .

– أنا لا أستطيع أن أنتظر صدورها . .

وأمام إلحاحى تهز رأسها فى استسلام وتقول :

– هى رواية تشبه روايات المغامرات . . ولكنها تسخر من واقعنا . . مكتوبة فيما يشبه الكاريكاتير . . فهى قصة بين ثلاثة أطراف . . شابان يحبان فتاة واحدة . . وهى تحب واحداً وتسخر من الآخر . . فتبدو له الدنيا كلها مهزوزة ويصبح نجاحه لا معنى له ؟

وتكتشف كاترين أنها على وشك سرد القصة كلها فتضحك وتقول بسرعة :

– اترك لى عنوانك لأرسل لك الكتاب كاملا !

وأحسست فجأة أن شبح الناشر يجلس بيننا يطل عليها محذراً . . فسألتها :

– بصرف النظر عن كتابك الأخير . . كيف يكتمل العمل الأدبى بين يديك ؟

– عندما أبدأ لاتوجد أمامى خطة محددة . . وإنما الرواية تشكل نفسها بنفسها وتأتى الرموز مختلطة بالواقع طالما كان الموضوع نابعاً من قلبى وإحساسى . . أما إذا كانت الرموز خاطئة . . فتقف القصة . . ولا تكتمل . . وهنا أقف . . وأنتظر ، لا أفتعل ولا أجهد الفكر . . ولكنى أعتقد فى ضرورة تعبير الكتاب عن فكرة . . لابد من الالتزام . . ولابد أيضاً

من البحث عن قوالب وأشكال جديدة تستطيع أن تحمل كياناً حيوياً .. أما مجرد قوالب فنية لاتحتوى شيئاً . . فهذا ما أرفضه.

وتذكرت كلمات البائعة الفرنسية فى المكتبة وهى تعطينى أحد الكتب لكاترين روشفور .

« إنها أحسن كاتبة تعبر عن حواء » .

فسألت كاترين :

— من هى حواء ؟

ضحكت طويلاً قبل أن تجيب :

— كنت أحب أن أسألك نفس السؤال . . فالرجل قد يرى من زاويته ما لا أراه . . أنا للآن لم أفهم حواء . . بالرغم من أننى واحدة من بناتها . . كل ما أستطيع أن أقوله إن آدم الحديث أسعد حظاً . . فالفرصة غير متكافئة بين الاثنين . . فهما يعملان معاً . . غير أن المرأة لها عمل آخر هو بيتها . .

وتلتقط « كاترين روشفور » علبة السجاير من على المكتب . . تضعها فى حقيبتها . . ترتدى معطفها . . وتودعنى لتهرب إلى بيت ريفى بنته وسط باريس . . تستمع فيه إلى موسيقى باخ . . وتكتب وترسم وتنحت على الحجر . . وتشغل فراغ الأيام القاسية قبل ظهور كتابها الجديد !



الفصل العاشر

المرأة وراء الكاميرا

تركنى اللقاء مع كريستيان روشفور فى تساؤل . . إلى أى مدى تؤثر المرأة الباريسية فى الفن والثقافة ؟ ! . . وهل توجد مثيلات لساجان وكريستيان فى الفنون الأخرى ؟ ! . .

فى الفن التشكيلى كانت هناك أسماء . . ومحاولات مختلفة . . ولكنها كلها محاولات مترددة لأسماء ينقصها البريق ، وغالباً ما تستند إلى اسم رجل . . قد يكون صاحب قاعة عرض . . أو ناقداً كبيراً . . أو فناناً معروفاً . . زرت عشرات المراسم والتقيت بالفنانات ولم أصادف واحدة فى الأصالة التشكيلية كـ « مارى لورنسان » مثلاً . .

أما فى مجال السينما فقد برز اسم اثنين من بنات حواء فى عالم الإخراج . . فى نفس الشهر . . ومن حسن حظى أنى كنت أستطيع أن أشاهد تجربة كل واحدة وأحكم عليها . . بلا تأثيرات خارجية . . .

« نادين ترانتينين » بدأت فى المونتاج وانتهت بالإخراج . و « مارجريت دورا » التى بدأت بكتابة السيناريو وانتهت أيضاً بالإخراج .

والواضح فى نادين أنها امرأة جريئة . . فقد كتبت قصة بنفسها ووقفت وراء الكاميرا تصورها وتخرجها . . وتحرك فى دور البطولة لقصة الحب المثيرة زوجها الممثل « جون لوى ترانتينين » ! . . ثم تستطيع فوق كل هذا أن تقنع لجنة مهرجان كان بأن يمثل فيلمها فرنسا بين الدول المشتركة !

الفيلم كله عرض صريح ودقيق لعلاقة حب بين زوجين الزوج مهندس يعمل فى نيس والزوجة مقيمة فى باريس . .

إنهما يلتقيان مرة كل أسبوع . . فى لقاء عابر . . يجعل علاقاتهما أشبه بعشق سريع لايترك مجالاً لمعرفة حقيقة أو تفاهم .

ولكنه يحب هذه الحياة ، لأنها تعطيه القدر الأكبر من الحرية التى يريدها لنفسه وعمله . . بل حبه أيضاً . . فالحب عنده ليس امتلاكاً أو سيطرة بقدر ما هو استمتاع وحرية !

أما هى فتقف على الهامش . . مترددة . . تخشى حتى أن تقول له بأنها تنتظر منه ابناً ! ! ولكنه فى النهاية يدرك أنه فى حاجة ماسة إليها . . إلى معرفتها فى عمق ، فيكتب لها تلغرافاً ، وتسرع إلى لقائه ، وعلى المحطة يلتقيان ويدور بينهما هذا الحوار :

— هل تنتظر امرأة ؟

— نعم ولكنها لم تحضر . . وأنت ؟ !

— أنا أنتظر رجلاً لم يأت . .

— إذن . . تعالى نبحث عنهما !

وتبتعد عنهما الكاميرا فى بطء وهما يتبادلان التعارف لأول مرة !

وبالرغم من الكياسة والذوق – بل الاتزان – التى يتصف بها عادة مشاهدو أفلام المهرجان، وغالبيتهم من النقاد والصحفيين المعروفين . . حدث بعد عرض الفيلم مفاجأة عجيبة . .

لقد دوت القاعة بتصفيق عنيف وفى الوقت نفسه انتشر صفير استهجان مزعج ! لقد انقسم الجمهور على نفسه فى تفسير مشاهد الحب التى أغرقت بها المخرجة نادين ترانتينين فيلمها . (حبى . . حبى) وبطله زوجها جون لوى .

إن عرض التفاصيل العارية للحب بلا مواراة وفى بطء شديد . . اعتبره البعض نوعاً جديداً من الفن . . بينما أثار ضيق البعض الآخر . . انقسم الجمهور كثيراً فى تحليل أسلوب نادين فى الإخراج .

الصمت الطويل . . بطء الإيقاع . . وتكرار بعض اللقطات .

وأنظر إلى نادين من خلال دخان سيجارتها . وأتساءل : أى جديد قدمته هذه المرأة إلى السينما ؟

لقد استخدمت العدسة البعيدة . . وهو أسلوب ظهر من قبل . . ولكنها تقول :

– إن العدسة البعيدة .. تعطى للممثلين إحساسهم بالانعزال فيندمجون فى الدور إنها لا تتطفل عليهم . . وإنما تراقبهم من بعيد !

ـ هل تغيرين السيناريو أثناء التصوير ؟ !

ـ لا . . أنا التي كتبت السيناريو . . ولذلك ألتزم به .

ويظل أحد مشاهد الفيلم يطاردني . . إنه لقطة لأحد الأبطال ، يفتح باباً ويدخل لمقابلة البطلة . ولقد تكررت اللقطة خمس مرات متتالية . . يفتح البطل الباب ويدخل . .

ـ طبعاً لم أكتب هذا المشهد فى السيناريو . . ولكنها لقطة أعيد تصويرها ٥ مرات وأثناء المونتاج وجدت أن من الممكن وضع اللقطات الخمس متتابعة فتوجد إحساساً بالقلق !

هل هذا المشهد مفتاح لأسلوب جديد فى السينما . . أم هو المفتاح لشخصية المخرجة يعكس إحساسها بالقلق ، وحرصها الغريزى كامرأة على الاستفادة من كل شىء .

على أى حال لقد نجحت نادين فى أن تصنع من نفسها علامة استفهام . . وتجلس على كرسى الإخراج . . وتختار لزوجها البطلة التى سيقبلها ، لقد وجدت لنفسها مكاناً فى عالم كان مقصوراً على الرجل . .

أما « مارجريت دورا » . . فقد كانت مشغولة بوضع اللمسات الأخيرة لفيلم أكثر جرأة فى أسلوب إخراجه . . .

والقصة محصورة بين رجل وامرأة معاً فى حجرة مغلقة . . .

الرجل يدخن فى عصبية . . والمرأة تخفى دموعها بجوار النافذة . . والوقت يمر . . فى دقائق طويلة مثقلة بالمرارة .

الرجل يتحدث . صوته حزين وشفتاه ترتعشان بجمل مجروحة . .

والمرأة أنفاسها تتتابع كأن قلبها يختنق . . وعيناها مغرورقتان بالدموع الحبيسة .

وهكذا يبدأ الفيلم من النهاية . التى تنتهى عندها عادة بعض الأفلام ذات النهايات الحزينة . . عندما تقرر البطلة أن تترك البطل إلى الأبد !

ولمدة ٤٥ دقيقة نرى مشهداً واحداً . . فى حجرة لا تتغير ونعيش اللحظات المريرة القاسية التى تسبق الانفصال . . عندما تبكى الكلمات ويتحدث الصمت فى قسوة بليغة .

ولكن هل يقبل المتفرج هذه القسوة ؟ وهل يستطيع المشاهد أن يعيش ٤٥ دقيقة من المرارة المتتابعة مع بطل يتعذب وبطلة تحترق فى صمت . . وخاصة فى بداية الرواية ؟ !

وإلى أين تقود الجرأة الفيلم ؟ إلى نجاح فنى باهر . . أو فشل منقطع النظير ؟

إن مخرجة الفيلم مارجريت دورا نفسها تضع يدها على قلبها ولا تخفى خوفها من احتمالات الفشل :

— خسارة أن يفشل الفيلم . ففشله سيخيف المنتجين ويجعلهم يترددون فى إنتاج فيلمى الثانى ، فى الوقت الذى أكون فيه قد ازددت خبرة بفن الإخراج وتوجيه الممثلين !

ومارجريت تدخل باب الإخراج لأول مرة بعد أن ظلت

لسنوات كاتبة سيناريو ناجحة لمجموعة من الأفلام الممتازة .

والإخراج قد جعلها أكثر عصبية ، وأكثر خوفاً وحذراً خاصة من الصحفيين ، إن وجود صحفى فى البلاتوه يقلقها فتقول :

« إن صحفياً فى البلاتوه يعطينى الإحساس بأن هناك من ينظر من وراء ظهرى إلى ما أكتبه . . وهو إحساس غير مريح » .

ولكن مارجريت دورا ليست من السذاجة لتدخل مغامرة الإخراج بلا حذر ! . فهى وإن كانت قد اختارت موضوعاً جريئاً لتبدأ به . . فهو أيضاً الموضوع المثير للاهتمام خصوصاً فى أوربا القلقة التى تهتز فيها العلاقات الزوجية وتضطرب فى عواصف الملل والضيق .

وهى وإن كانت قد اختارت وجهاً جديداً هو وجه « جولى داسين » . فهذا الوجه الجديد ليس مجرد ملامح جميلة وجديدة تغزو بها مارجريت الشاشة . . ولكن وراء جولى خبرة واسعة ورثتها عن « جول داسين » أبيها المخرج المعروف مخرج فيلم « أبداً الأحد » !

وعلى الرغم من محاولة حواء المخرجة أن تقف فى دائرة الضوء فلقد استطاع آدم رغم ذلك أن يسرق منها الكاميرا !

إنه مخرج ، لم يكن معروفاً اسمه « ريفت » . . والحديث عنه وعن فيلمه « الراهبة » الذى أثار زوبعة عالمية يستحق فصلاً خاصاً . .



الفصل الحادي عشر

أزمة الراهبة

كان الجمهور يتابع الشاشة فى اهتمام بالغ ، وصمت رهيب . . الفيلم محكوم عليه بالإعدام ، يعرض لأول ولآخر مرة !

ومع كلمة النهاية ، ارتفعت التعليقات المكتومة ، وتحولت الهمهمة إلى لغط كبير ، وخرج الناس تصحبهم تعليقاتهم فى طرقات كان ، وفنادقها ونواديها الليلية !

وبعيداً فى ركن من صالة العرض ، بعد أن خرج الجميع ، جلست أتحدث مع مخرج الفيلم جاك ريفت . مخرج « الراهبة » وبطل « الفضيحة الفنية » كما تلقبه الصحافة الباريسية !

وكنت أنظر إلى وجهه الحليق المرتخى الملامح . . كأنه قد أفاق من النوم تواً . . وأكاد لا أصدق أن صاحب هذا الوجه قد أطلق القنبلة التى انفجرت فى الكنيسة والرقابة وتحمل اسم « الراهبة » . . ورأى الفيلم الذى استمر فى إعداده ثلاث سنوات يمنع نهائياً من العرض داخل فرنسا وخارجها — وهو إجراء حاد نادر الحدوث ! أثار التساؤل وكلف المنتج خسارة بلغت مليونى جنيه !

وها هو ذا نفس الفيلم الممنوع يعرض فى مهرجان كان

العشرين . وسط الأفلام المختارة وبإذن من وزير الثقافة الفرنسى نفسه « أندريه مالرو » !

ولكن هذا الإذن الخاص لا يستبعد عن الفيلم قرار المنع وإنما يستثنيه لحفلة واحدة محدودة الجمهور . . هى الأولى والأخيرة فى نفس الوقت ! . . هل كان ريفت راضياً بالزوبعة التى خلقها والشهرة التى أحاطت باسمه ؟ ! استمعت إليه يحدثنى فى حرارة :

— « صدقنى لم يكن عزمى أبداً إثارة الناس ، أو إثارة الرقابة . . . وكل ما أتمناه أن ينسى الناس ما حول الفيلم ويتحدثون معى عنه كعمل فنى . . قد شاهدت الفيلم معنا فما رأيك فيه ؟! »

واسترجعت مشاهد الفيلم التى تحكى قصة سوزان سيمونين المأخوذة من كتاب « ديدرو » المعروف . . الفتاة الطيبة التى تدخل الدير تحت سيطرة أم فاسدة ، ومدفوعة ضد إرادتها ، لتصطدم بثلاثة نماذج لرئيسات الأديرة . .

الأولى دومونى . . المتعبدة . . التى تمد لسيمونين يد المعونة ، وتموت لتتركها لسانت كريستين الصارمة التى تتركها تنهار تحت قدميها وهى تلعن الشيطان الذى اعتقدت أنه قد حل بجسدها وتمنع عنها الفراش والطعام فى قسوة عجيبة . . لا ينقذها منها سوى نقلها إلى دير مدام دى شيل ولكنه دير غريب . . الحرية فيه واسعة تبيح المحرمات ! . وسيمونين ليست فاسدة . . كل ما تريد هو استرداد نفسها والحرية التى فقدتها . . وتجد اليد التى تساعدها فى القس « دون مورل » . . وبعيداً عن الدير يهربان

معاً . . وتفيق سيمونين على واقع مرير . . إن اليد التى ساعدتها على الفرار تلتفت لتطوقها فى رغبة . . فلا مفر من الفرار . . ولكن إلى أين ؟ . فالحياة قد ضاقت بها . . وهى قد ضاقت بالحياة . . ولا أمل . . يدفعها إلى البقاء . . فتنتحر . . قلت لريفت :

ـ لا شك أن أسلوب الفيلم بسيط واضح بعيد عن الإثارة أو التكلف . . ميال للميلودرام بلا مبالغة . . دقيق فى إظهار العصر الذى وقعت فيه الأحداث .

ويقول ريفت :

ـ إننى و« جرينولت» الذى حوّل قصة ديدرو إلى سيناريو كنا نأمل أن تساعدنا قصة حدثت فى عام ١٧٦٦ أن نتقبل أكثر حياتنا فى عام ١٩٦٦ ، ويرى الناس أن عصرهم الآن أفضل من العصور السابقة . . ومع ذلك فقد فهم بعض الناس خطأ أننى أتهجم على التقاليد الدينية . . لم يكن هدف الرواية أو الفيلم إظهار فساد أو قسوة رئيسات الأديرة . . . وإنما عرض قضية حرية الاختيار . فلو أن سوزان سيمونين أعطيت لها حرية الاختيار لما واجهت هذه النهاية المحزنة ! بل لقد تعمدت أن لا أوجد بطلاً أحمله كلام المؤلف وأفكاره . . ولقد حذفت الكثير من المشاهد التى قد توحى بمعان مباشرة تمس الأخلاق . .

ـ لقد تعمدت تغيير نهاية الفيلم أيضاً . . فبينما البطلة فى

الرواية تكتب خطاباً إلى صديقها المركيز تنشد النجدة . . تلقى بنفسها من النافذة وتنتحر فى الفيلم . . فما السبب ؟ !

ــ لقد أخذت فكرة الانتحار من جملة فى الكتاب على لسان سيمونين تقول فيها ـ أنا خائفة . . فى كل خطوة «أكتشف هوة تحت أقدامى » فهى كانت تتوقع مثل هذه النهاية !

ــ ولكن لماذا استخدمت طريقة القطع ، وألغيت الزمن ؟

ــ إن الفيلم كله بطىء الإيقاع ، كلاسيكى الخلفية ، فكان لابد من إيجاد تضاد يعطى حركة سريعة . .

ــ ما الذى تهدف إليه فى أسلوبك ؟

ــ أن أنسى السينما وأنا أعمل من أجلها . . أريد أن يكون عملى بسيطاً وواضحاً .

ــ ومن الذى يعجبك من المخرجين ؟

ــ يعجبنى القدامى جداً . . والمحدثين جداً . .

ــ وفيلمك القادم ؟

ــ أحلم بفيلم غير مأخوذ أو مقتبس من قصة معروفة وليس عن الله . . أو الشيطان . .

ــ هل تعرف نفسك ؟

ويبتسم ريفت قبل أن يجيب :

ــ أنا هادئ فى مواجهة العالم الخارجى ، ثائر مع نفسى . .

وينهض ريفت ، الرجل الهادئ الذى أثار زوبعة « الراهبة » يحجز لنفسه تذكرة على الطائرة إلى باريس . . ويتوه وسط

زحام الجمهور الذى كان لا يزال يناقش فيلمه .

وبينما يبتعد « ريفت » ليتوارى بعيداً عن الزوبعة التى خلقها . . ويبذل المنتج محاولات يائسة أخيرة لعرض فيلمه . . يلمع اسم « آنا كارينا » البطلة . . وتظهر على أغلفة المجلات . . تركب عجلتها الحمراء مرتدية ميني جوب ضيق ومثير . . وتستند إلى إعلان الفيلم الذى تظهر فيه راكعة تصلى فى ملابس الراهبة ! . . .

ولا تفوت «جون لوك جودار» فكرة استغلال الفرصة أيضاً . . فيعطيها دوراً فى فيلم « الحب على مر العصور » الذى يصور فيه جودار مرحلة الحب فى عام ٢٠٠٠ . . لقد اختار مخرج الموجة الجديدة نفس الثالوث التقليدى ، البطل .. والبطلة .. والشرير : والبطل هو جاك شاربيه زوج ب . ب . السابق . . والبطلة هى بطبيعة الحال « آنا كارينا » الحائرة بين شاربيه والرجل « الإلكترونى » التى كانت طول عمرها تتمناه . . الرجل الذى يستجيب لطلباتها بلا تبرم . . يكفى أن تضغط زراً . . فيشترى لها هدية . . وتضغط زراً آخر فينشد لها أبيات الشعر . أو تضغط زراً ثالثاً فيركع تحت قدميها ويغنى لها أحدث الأغانى العاطفية !

وبينما المصنع يجمع أجزاء جسد البطل الإلكترونى . . كانت شركة الدعاية تصور « آنا كارينا » فى ملابس الفيلم المثيرة آخر صيحة لعام ٢٠٠٠ . . ومرة أخرى تضع فى الخلفية صورتها فى ملابس « الراهبة » !



الفصل الثاني عشر

ولكنى سأتوقف لحظة عند فيلم « الحب على مر العصور »..
إن إلقاء بعض الضوء عليه يكشف الصراع المميت الذى تخوضه السينما الفرنسية من أجل منافسة التليفزيون . . .

« والحب على مر العصور » دراسة بالصور والوثائق لاقت نجاحاً كبيراً فى المكتبات واعتبرت مرجعاً لكل ما يمس أقدم علاقة إنسانية ولدت مع الخليقة لتدفع الحياة إلى الاستمرار .

وقد شجع اهتمام الناس بهذه الدراسة مجموعة من المخرجين إلى تقديم فكرة مماثلة للسينما . . وحوّلوا الحب على مر العصور إلى فصول سينمائية : يتولى كل مخرج إخراج الفصل الذى يثير اهتمامه .

والفكرة فنية وتجارية . . ففى حشد كبير من المخرجين والممثلين مجالاً للتنافس . . وفى نفس الوقت إغراء للمتفرج الطماع الذى يشاهد مجموعة من القصص ويلتقى مع عدد كبير من الممثلين ويجد فى النهاية مجموعة من المخرجين فى خدمته !

إن محاولات مختلفة ولدت بعد الموجة الجديدة التى أصبحت اليوم قديمة نسبيًّا . . محاولات تهدف إلى شد المتفرج إلى دار العرض والعمل على خروجه من بيته حيث التليفزيون والدفء ...

وزجاجة النبيذ ! . . . .

إن دور السينما تعرض بشكل متواصل أفلاماً قديمة وحديثة .. تستطيع أن تشاهد فيلم « الباخرة بوتومكين » وتعيش مع العمل الخالد للمخرج الروسي إيزانشتين .

وتستطيع أن تعيش في فيلم « الجميلة والوحش » مع فن جون كوكتو وخيالاته وإخراجه المثير . . في نفس الوقت الذي تعرض دار سينما ثالثة على بعد خطوات آخر أعمال « جون لوك جودار » أو « لولوش » . . وهكذا على مسافة أمتار . . تعيش السينما الصامتة . . والموجة الجديدة . . ولكل فيلم جمهوره . . والمتهافتين على « الباخرة بوتومكين » لا يقل عددهم عن رواد « كوكتو » . . أو « جودار » وفيلم « أونيبادا » الياباني يستمر عرضه اثني عشر أسبوعاً متوالياً في حي واحد وسينما واحدة في سان ميشيل . . . ولا يجد الناس غضاضة في متابعة اللغة اليابانية الغريبة ولا الأحداث الجنسية الصارخة بالإثارة والغرابة الوحشية . . في نفس حماسهم لتتبع افلام « فرنانديل » أو « نورجس » !

وهذا التنوع في المادة المعروضة . . يجعل السينما دائماً تسلية مفيدة لا تفقد جمهورها . . . وهنا تبذل السينما الفرنسية كل جهودها لتجدد نفسها باستمرار لتشد هذا الجمهور وتجمعه لنفسها . . .

لقد جاءت أفلام « الموجة الجديدة » بما فيها من أفكار

جديدة وإيقاع سريع . . ومونتاج مبتكر لتشد الجمهور الذى تعود على أفلام الميلو دراما والمطاردات الأمريكية . . . وفعلاً لقد أفلح فيلم « بييرو المجنون » على منافسة « جيمس بوند » فى سينما ملاصقة واستمر عرض « بييرو المجنون » عشرة أسابيع . . وتغير فيلم « جيمس بوند » فى الأسبوع السابع ! . . هذا بالرغم من صعوبة أسلوب فيلم جودار . . الذى حول قصة بوليسية بطلها « جون بول بلموندو » إلى ما يشبه « الأوب آرت » السينمائى . . محاولاً أن ينافس نفسه ويخرج من أسلوبه الجديد إلى أسلوب أجدد !

وهذا ما يدفعه إلى محاولته فى التعبير عن الحب سنة ٢٠٠٠ فى فيلم « الحب على مر العصور » . . لعله يجد مجالاً جديداً لخياله وأمانيه الفنية . .

وهى الرغبة فى التجديد أيضاً التى جعلته يبدأ تجربة أوسع فى الفيلم الذى أطلق عليه « بعض ما أعرفه عنها ! » وأسند بطولته إلى النجمة « مورينا فلادى » التى لا تحفظ دورها فى الفيلم ، لسبب بسيط هو أن جودار نفسه منع عنها سيناريو الفيلم عن تعمد . . ويكتفى بأن يحكى لها قبل تصوير كل مشهد « مضمون » المشهد . . ولا يطلب منها أن تحفظ كلمات الحوار . . وإنما يترك لها حرية التعبير كاملة فى اختيار الجمل والألفاظ المناسبة للموقف الذى تمثله !

هل هناك فلسفة خاصة وراء هذا الأسلوب الذى يتبعه

جودار ؟ ! هل هى مدرسة جديدة . . أم (تقليعة) فنية للفت النظر إليه مرة أخرى . هو الذى تعود دائماً أن تحتل صورته وأخباره الصدارة فى مجلات الفن . . وتثير أفلامه زوابع متتالية من المناقشات ؟ !

إن مورينا فلادى التى تشترك لأول مرة فى هذه التجربة العجيبة ترد فى حماس وإيمان وتؤكد أن هذا الأسلوب الذى يتبعه جودار ، يعطى الحوار صدقاً وواقعية ويجعل المشهد قطعة من الحياة . . . ! فهى لا تعرف عن قصة الفيلم إلا الإطار العام لشخصيتها كزوجة طماعة لرجل فقير ، تبتذل نفسها من أجل فستان تشتريه !

وهى المناقشات التى تدور بينها وبين المخرج التى تكشف لها يوماً بعد يوم طبيعة الرواية فتنمو الأحداث تباعاً وبشكل طبيعى يجعلها « تعيش » الدور وتشترك فى بناء الشخصية التى تمثلها ، وتعطيها الكلمات والتصرفات التى تصدر عنها « هى » شخصياً فى المواقف المشابهة !

إن جودار الذى اشتهر بأسلوبه الخاص و « نقلاته » المميزة من مشهد إلى مشهد . . واستعانته بالفن التجريدى « والأوب آرت » يحاول فى هذه التجربة أن لا يحمل شخصية واقعية تعيش وتتحرك خلال المشاهد .

بعض الخبثاء يعلقون بأن ثقة جودار فى مورينا فلادى . .

ليست ثقة فنية فقط ولكن وراءها حباً قديما ولد مع أول فيلم اشتركا فيه معاً !

وتبقى فى النهاية حقيقة واضحة ؛ وهى أن الجمهور يجد « فكرة جديدة » تدفعه لمشاهدة الفيلم ومناقشتها ومعرفة أى مدى من النجاح وصل إليه المخرج فى تحقيقها . . وتكون الحيلة قد نجحت ويظل (الفيلم الفرنسى) فى دائرة الضوء . . ومحط الاهتمام . . وقادر على منافسة التليفزيون . . بل قادر على منافسة غيره من الأفلام ذات الجنسيات المختلفة . . .

لذلك ليس غريباً أن تظهر من فرنسا موجة أجدد من الموجة الجديدة !

إن محاولة البقاء . . هى التى تحرك الأفكار . . . والبقاء فى القمم الفنية يثير دائماً الحماس ويدفع روح المنافسة إلى اجتياز كل العقبات وطرق كل الأساليب الغريبة التى ترقد نائمة فى باطن الغيب حتى تجد من يوقظها ويخرج بها إلى الجمهور !



الفصل الثالث عشر

اشتر السعادة بفرنك واحد !

هرب القطار من محطة الشمال معطياً ظهره إلى باريس فى طريقه إلى أحضان الريف الفرنسى . وتغيرت الصورة تماماً !

دخل اللون عينى بعد أن تركت باريس ! اختفى الرمادى واختفت البيوت العابسة ، أحاطنى خضار الغابة والحقول من كل جانب .

لم أعد فى باريس ولكن فى فرنسا ، على وجه التحديد فى قرية صغيرة اسمها « كليرمون » أو كما يلقبونها : « قرية الضياء».

من المحطة إلى الشارع الرئيسى تقف الأشجار على الجانبين تنحنى أحياناً وتتعانق أحياناً . وترسم مدخلاً شاعرياً لحياة جديدة .

إن إيقاع الحياة يتغير تماماً فى القرية الفرنسية ! إذا كانت باريس هى قلب فرنسا وعليها أن تنبض فى سرعة واستمرار فإن القرية الفرنسية سواء على الجبل أو الساحل أو فى أحضان الغابة هى الذراع النشيطة القوية . تعمل وتكد ، لكنها تعرف أيضاً معنى الحنان الحقيقى ولحظات الاسترخاء !

فى القرية تستطيع أن تعبر الطريق ولا تموت تحت عجلات عربة . تستطيع أن ترفع وجهك فترى السماء التى تحجبها عنك

بيوت باريس، تستطيع أن تتفاهم بلغة غير لغة الفرنكات . أ
تجد من يدلك على عنوان . أن تسمع صوت ضحكات
الأطفال . أجراس المدرسة . ثمار التفاح وهى تسقط !

أولاد هنرى يمرحون فى حديقة ألفونس . أطفال ألفونس
يجمعون الورد من حديقة هنرى بينما هنرى وألفونس معاً فى عر
ستروين تحملهما فى الثامنة صباحاً إلى مصنع الزجاج فى « سا
جوبان » حيث يعملان معاً ويعودان معاً كل يوم !

قال لى فرانسوا المزارع العجوز وهو يقدم لى باقة م
الورد ويرد على سؤالى :

— إننا نعيش الحياة . أما فى باريس فإن الناس يموتو
واقفين !

ثم يبتسم فرانسوا ليحدثنى عن كل ما يحبه فى الحياة :

— أولادى الستة . الورود التى أزرعها . سيجارة الجيتا
التى أدخنها بعد العمل .

صحيفة « كليرمون » الصباحية البسيطة مثل كل صحف
القرى . افتتاحيتها دائماً جولة سياحية . إعلاناتها غالباً مكررة ،
ولكن فى ذلك الصباح كان المزارع العجوز يقرأ فى اهتمام
حكاية الصبى الصغير الذى ذهب يمشى ٢٤٠ كيلومتراً باحثاً
عن كلبه ماتو الذى هرب إلى سان كونتان !

ولكن هل تتغير الصورة من قرية إلى قرية ؟ !

تركت كليرمون إلى أونساك . . أو شانتى . . وكريل . .



ولايرمونفيل وتنقلت فى قرى الواز . . ولم تختلف الصورة كثيراً . . الناس كلهم مثل فرانسوا . . ملامحهم تشترك فى أكثر من خط . . وطباعهم تربطها ميول واحدة .

حتى الغابات التى تغلف كل قرية . . تنمو فيها كلها أشجار متشابهة ، وتنبت فيها ورود واحدة . وتمرح فيها كلها نفس أنواع الغزلان ! لعل الشىء الوحيد المتغير هو أسماء العشاق المحفورة على جذوع الأشجار ! !

ولكن هذه الأسماء معظمها لعشاق باريس الذين يأتون فى أيام الآحاد بعرباتهم . مزودين بالساندوتشات وزجاجات البيرة . والرغبة الدافئة فى نسيان ضجيج المدينة وقضاء اليوم بين الخضرة . بل لعلهم فى الواقع يرجعون القهقرى إلى أيام آدم وحواء ، ويضيعون عن عمد فى الغابات . . يرقصون على أنغام الترانزستور أو يختلسون القبلات . . ثم يفيقون على الغروب . فيسجلون تاريخ اليوم على الشجرة التى ظللت الحب ورعته طوال النهار ؛ ويرسمون القلوب حول الأسماء التى تنزف شوقاً ورغبة !

ثم يشترون فى طريق العودة زهور البنفسج . . قبل أن ينقلهم الطريق إلى باريس . .

« وزهور البنفسج » فى باريس لها معنى الحب . . وتحمل فى لونها الشاعرى جاذبية لا تقاوم . . أما فى الريف فهى تصنع طعام العشاء لأكثر من أسرة تعيش من جمع زهور البنفسج من الغابة وبيعها للعشاق . .

على طريق « شانتيه » كان الأطفال يلتهمون الآيس كريم الشهى الذى اشتهرت به شانتيه . . . وعلى مقربة وقفت امرأة عجوز ترفع يدها بالباقات الصغيرة للعربات المنطلقة . . ولكن العربات لا تقف . . وتقول لى المرأة فى حزن . . وأنا أشترى منها باقة :

« إن العربات لم تعد تتوقف الآن . . لقد عرف العشاق طريق الورود فى الغابات . . وأصبحوا هم الذين يجمعونها ! »

وأحمل الباقة التى دفعت فيها فرنكا . . وأسير بها فى الطريق وصوت المرأة العجوز يطاردنى وهى تنادى :

« البنفسج الجميل . . البنفسج الجميل . . فرنك واحد . . اشتر السعادة بفرنك واحد . . بفرنك واحد فقط ! »

وضحكت داخل نفسى . وأنا أفكر فى هذه السعادة السهلة التى يشتريها الإنسان على قارعة الطريق بفرنك واحد . . ! وكان المساء قد أقبل . . وجاء النسيم يحمل إلىّ رائحة الخبز الطازج . . يحمله العائدون إلى منازلهم . . ويمسكونه فيما يشبه العصى الطويلة . . وشعرت برغبة لا تقاوم أن أشترك معهم أنا الآخر . . إنه إحساس جديد تماماً لا يمكن أن أواجهه فى باريس التى تجعل تناول الطعام فى محلات « السيلف سيرفس » أو « اخدم نفسك » . عملية آلية تبدأ بالسير فى طابور ضيق وتنتهى بالخروج من باب ضيق ! . .

وابتعت رغيفاً طويلاً . . وابتسمت صاحبة المخبز وهى تشاهد باقة البنفسج فى يدى . . وهمست وهى تناولنى الرغيف :

« ما أجمل الزهور التى تحملها يا سيدى ! »

ولهذه اللحظة لم أكن قد تنبهت أن الباقة فى يدى لابد أن تثير التساؤل أو على الأقل تعطينى صورة عاشق فى الطريق إلى موعد غرامى !

ووجدت نفسى أضع الباقة أمام صاحبة المخبز . . وأنا أقول :

— إنها لك يا سيدتى . . .

وصعدت الدماء إلى وجنتيها وقالت فى سعادة :

— شكراً . شكراً إنها ورودى المفضلة أيام شبابى . . قبل أن يسقط الثلج على رأسى !

وتركت المرأة العجوز والدماء على وجنتيها . . وتذكرت كلمات البائعة . . لعلنى قد اشتريت السعادة بفرنك واحد فقط . . وتركتها فى ذلك المخبز الصغير !

إن القرية الفرنسية لم تفسدها المادة بعد . . والقلوب الطيبة تسعدها الكلمة الطيبة . أو حفنة من زهور البنفسج . .

إن السعادة بفرنك واحد فقط . . لأن طبيعة البشر هناك تختلف . . طبيعة قنوعة مؤمنة تعيش تقاليدها ، تحترم الأب وتقدس الرب لا تعرف الطمع ولا تقلقها التطلعات ، ولا تحاصرها الإعلانات المثيرة للعربات آخر موديل والأزياء المجنونة . . .

والقرية الفرنسية ، تتابع الموضة على شاشة التليفزيون وفى السينما ولكن بنت السادسة عشرة ، تحس بالارتباك إذا ارتفع ثوبها قليلاً فوق الركبة تحت إلحاح نسمة شقية ، وهى لا تحلم بأن تكون لها شقة خاصة . . وإنما أحلامها كلها تنسج خيوطها من أحلامها القديمة مع قريبها الشاب الذى كبرت فى حبه . . وتعلم — كما يعلم الجميع — أنها ستتزوجه فى يوم من الأيام . . . إنها غالباً تصنع أثوابها بنفسها فيما عدى ثوباً واحداً تسافر من أجله إلى باريس — هو ثوب زفافها !



الفصل الرابع عشر

ليل باريس

اللون الأخضر يتوه فى الظلام . . والقطار يعود بى إلى محطة الشمال . . إلى باريس . . ورحلة الريف الفرنسى طعمها الحلو فى نفسى كالخبز الطازج . .

وكنت أخطو فوق الرصيف ويخالجنى الإحساس بأن هناك من ينتظرنى . . وأكتشف أن ابتعادى فى الريف ، زاد فى وجدانى — بدون أن أدرى — الرغبة فى لقاء جديد . . مع باريس ! . وأذنى التى عاشت فى الهدوء . . حنت من جديد إلى الصخب . . وعينى التى تعودت الحقول النائمة فى الاخضرار . . تطلعت تبحث عن الأضواء التى تجرى فى الألوان المجنونة فى واجهات المسارح ودور السينما . . وملابس حواء الباريسية . . واكتشفت أن التناقض ليس فى نفسى . . فكل أهل باريس يذهبون إلى الريف بحثاً عن الهدوء فى نهاية الأسبوع ويعودون هادئين ليلقون بأنفسهم فى أمواج الصخب . . وفى الدوامة التى لا تهدأ ولا تنام . . وكان الوقت يجرى إلى العاشرة مساء . . وحى « بيجال » الشهير يفتح ذراعيه . . وتتحرك فيه الأضواء كقوس قزح ولد فى الليل . .

ولا رغبة عندى فى النوم .

« بيجال » تسهر وتدعونى لمشاركتها السهرة !

وهناك دعوات وهمسات لكل شاب يسير وحده على رصيف بيجال .. صور علب الليل تغريه بحسناواتها . . رائحة « البرجيز » فى المحلات تداعب جوعه . . إعلانات السينما ، تقدم له كل غريب مثير . . حتى مكتباتها تفرد كتبها بأشكال خاصة ، وبذوق غريب ، وتدور كلها حول عالم من المحرمات . .

ويمتد بى المشى .. ويمتد بى الليل .. وتبتعد بيجال بأضوائها وأصواتها وهمساتها . .

ولكن ما زال فى الليل بقية . .

وما زالت خطواتى نشيطة . .

وثمة رغبة تداعبنى . . لقد شاهدت كل ما على أرض باريس . . وبقى أن أرى ما تخفيه فى أعماقها . . فى كهوفها !

ووجدت قدمى الطريق . . .

وفى كهف . . .

يموت الليل حول لهب شمعة . .

وحلقات الدخان ترقص أمام اللوحات التجريدية !

ومجموعة أصوات تختلط . . تعلو مع الصخب . . وتتلاشى فى الهمس . .

يد تعبث بأوتار جيتار . . والمغنى الشاب جاك ديترون يغنى :

« لقد قرأت كل ما كتب . .

« وشاهدت كل ما يرى . .

« وجرعت كل ما يشرب ! . »

ويصفق شباب باريس للكلمات . . إنها تلخص شغفهم للمعرفة . .

معرفة كل شيء . . وأى شيء !

شغف القراءة عندهم غريزة .. قراءة أحسن الكتب وأسوأها. أكثرها تطرفاً وأشدها اتزاناً . . فالمهم هو القراءة . . ترفعهم رحلة الكلمات إلى بلزاك . . وموروا . . ومالرو . . أو تهبط بهم مع كتب الجنس والمغامرات !

وعيونهم مفتوحة . . مفتوحة دائماً . فى النهار . . وفى الليل . .

تدخل المعارض . . تعيش مع الألوان . . وتخرج للحياة فى رحلة على ضفاف السين أو فى سيارة صغيرة تطارد شمساً ذابلة حتى الغروب . . ومع الليل تبحث عن نجمة ترقص فى سماء بيمجال !

وهم يشربون . . يشربون فنجال القهوة الدافئ فى عجلة الصباح . . وكوب اللبن للغذاء . .

وفى المساء يشربون فى صحة الليل . . وقد تمتد التحية حتى الصباح !

« الحياة قاسية . . ولكن يجب أن نحياها . . ولكى نحياها يجب أن نعيش أنفسنا » ومن أجل هذه المعايشة . . لا يتوقف

الشاب الفرنسي عند عمل . . أو موقف . . إنه يترك نفسه للتجربة . . حياته مركب هو قبطانها ودفتها وراكبها الوحيد !

لقد تخلص من عقدة الخوف والخجل .

إنه يوقف أى عربة فى الطريق ليسافر باحثاً عن رزقه . .

وقد يعمل حمالاً فى (الهال) . . أو بائعاً للصور فى (سان جرمان) . . يغسل الأكواب فى حانة . . أو درجات كنيسة . . فالمهم أن يعمل . . ويأكل . . ولا يتوقف !

والفتاة الباريسية لا تختلف عنه كثيراً . .

إنها تعيش التجربة . . لأنها تعيش فيها حياتها . . وعندما تجد الشاب المناسب تتحول كل الصور الأخرى إلى دخان . .

وقد وجدت الدفء فى بيت بجوار زوج تحبه وثلاثة أطفال وعلاوة ٢٧٠ فرنكا . . تساعدها على شراء ملابسهم ، وتختلس منها هدية عندما تذهب لزيارة أمها العجوز فى الريف . وتشاركها فى رغيف الخبز الطويل !

وتسقط أوراق العام مع شتاء ديسمبر . .

وطفل يولد بلا أم ليضيع فى باريس الجديدة . .

وعاشق تركته حبيبته لتسافر . . وبينهما تسقط آخر أوراق الشتاء ويصبح اللقاء وداعاً . .

ويغنى جيلبرت بيكو . . للطفل الضائع . . والقلوب المعذبة . .

« أيها الصغير . . أيها العصفور بلا ربيع . .

« الدنيا باردة حولك . . وداخل قلبك الصائم . .
« وأنت أيها العاشق . . الوحيد . .
« سافرت حبيبتك . . نحو أقمار جديدة . .
« وتركتك وحيداً . .
« ومع ذلك . . فالمهم . . هو الوردة ! »
ويتردد صوت بيكو .. فى ليل باريس وفى قلوب عشاقها .. وزوارها . .

إنها دعوة حب . . رقيقة . . لمواجهة الحياة . . وللاستمرار .. إن كلمات « لويس أماد » تحاول أن تنفذ إلى مشاعر باريس.. خلال وردة . . ولكنها وردة مسكينة . . تعاند للبقاء . . وردة اقتلعت . . ووضعت بين أسنان الحياة !

إننا نحب فى الليل لنستطيع استقبال نهار جديد !

وابتسم العاشق وهو يطعم حبيبته حبات الكرز . . على أنغام الموسيقى . . ثم يضيف :

« إن الليل مظلوم ، والحب متهم برىء . . والاثنان يعتقد الناس أنهما عندما يجتمعان يكون الشيطان ثالثهما . . لا . . وصدقنى أن كيوبيد يعبث أحياناً فى النهار أضعاف عبثه فى الليل ! »

هل حقـاً أنت مظلوم يا ليل باريس ؟ ! . .

إن المدينة تنام بعين وتبقى متيقظة بالعين الأخرى . . ولكن زوار باريس يعتقدون أنها لا تنام أبداً . . وحياتها ليل مستمر !

آلاف البيوت تنام بعد نشرة الأخبار الأولى فى التليفزيون . . استعداداً لاستقبال نهار مبكر . . ولكن مقاهى سان جرمان وسان ميشيل وحى الهال وبيجال يتصل فيها الليل مع النهار لتعطى ليل باريس هذا الطابع المميز . . وتكسبه شهرته الخالدة ! . .

والفجر سيتسلل ليعيد الحياة إلى النهار الذى مات ولكن الليل لا يريد أن يهزم . . . إن رواده يبقون فى أماكنهم بالمقاهى ينتظرون أول مترو يتحرك . . ويغالبون الإرهاق والنعاس بفنجان القهوة الساخن !

والتعب قد أثقل خطواتى . .

سائق التاكسى يهدئ السرعة إلى جوارى ويغرينى فى صمت بالعودة سريعاً إلى الفراش الدافئ . .

عربة ترش الطريق . .

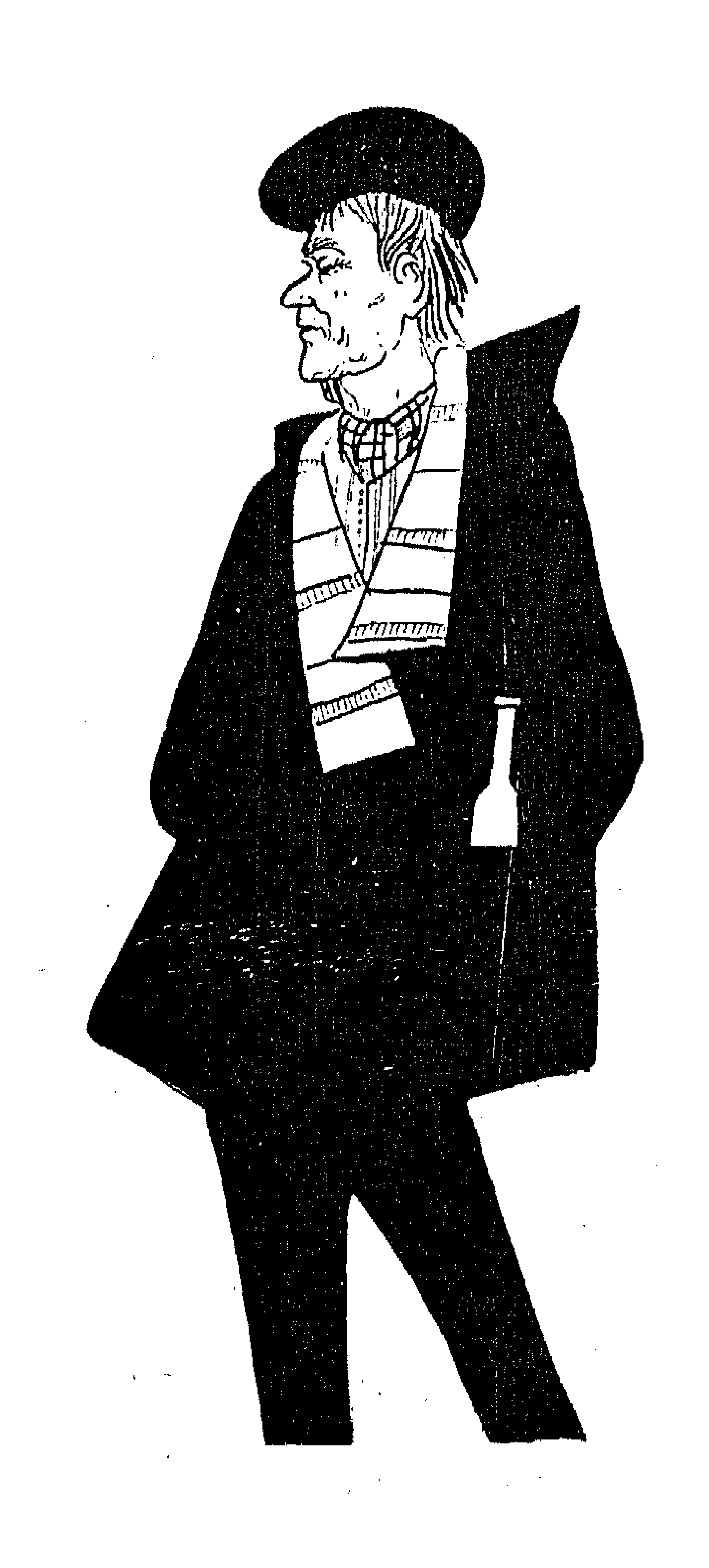
كلب ينهض ويبحث لنفسه عن مكان أوفر دفئاً . .

مخمور يترنح ويصرخ بأعلى صوته :

« يا أصدقائى . . جاء الوقت لأعترف لكم جميعاً فى ش . . ش . . ج . . اعة . . أننى كنت مخطئاً . . ولو أتيحت لى الفرصة للبدء من جديد لن أكرر خطئى . . »

ويتوقف بعض المارة . . وأتوقف معهم . . أنتظر السر الكبير الذى سيبوح به الرجل . .

ويتوقف الرجل هو الآخر . . يستند إلى أقرب عمود نور . .



ويدير النظر حوله يطمئن على جمهور يستمع . . فيضيف :

« لن أعود أبداً إلى شرب الخمر الزديئة ! »

ويخرج زجاجة من جيب معطفه يلقى بها فى الهواء . . لتسقط ويتناثر دويها فى أذنى ! !

وتفتح نافذة وتبدو امرأة منزعجة فى ملابس النوم لا تلبث أن تصرخ فى الرجل :

« هل عدت من جديد إلى عادتك القبيحة . . لماذا لا تبحث لنفسك عن حى آخر تقذف فيه زجاجاتك الفارغة . . أيها الأحمق . . »

ومن الداخل يقول الزوج :

« أغلقى النافذة وعودى يا حبيبتى . . إن النهار أوشك أن يستيقظ ! ! »

وفى مقهى « المونداران » ينادينى صوت صديق :

ـ تعال نودع الليل . .

ـ بل تعال نستقبل النهار الجديد ! . .



الفصل الخامس عشر

وداعاً . . لا . . إلى اللقاء !

الأيام تعدو . . وفى الغد ، مع الفجر ، تحملنى الطائرة إلى الوطن . . وفى القلب لهفة العودة . . وفى النفس ذكريات أيامى مع هذه الحسناء التى أمضيت معها شهراً . . الجميلة المتغيرة . . العجوز الشابة . . الغانية المثقفة . . باريس !

وحقيبتى الصغيرة معدة . . راقدة على المنضدة مستسلمة ، ومنتظرة . .

ولكن ما زالت هناك ليلة أعيشها فى باريس ولعل شهر زاد الفرنسية تدخر قصة جديدة ! . .

والليل يحتفل بى . . وتخجل سحبه . . وتترك السماء صافية تتألق فيها نجوم . . إن باريس تحب أن تترك دائماً أثراً شاعريـاً فى قلب زائرها .. وها هو ذا القمر يظهر هو الآخر . . إنه احتفال خاص . . للشاب الفنان الذى جاء ليطوف أوربا كلها فتوقف عند باريس ولم يتحرك !

« إن الليلة تليق أن نصعد لها الدرجات إلى كنيسة الساكريكير » . . ومن هناك نقول لباريس وداعاً . . »

والفكرة تجد صداها فى قلبى ، ليس هناك أروع من قضاء

آخر ساعات ليلتى الأخيرة . . وسط الفنانين الذين يتجمعون هناك كل مساء . .

وأصعد الدرجات فى لهفة . . وزميلتى إلى جوارى تضحك وتقول وسط لهثاتها :

صبراً . . إن « الساكريكير » لن يطير . . والرسامين فى انتظارك حتى الصباح . .

وتسبق اللهفة أقدامى . . إلى الميدان الذى سمعت وقرأت عنه . . ميدان الفن . . الذى عاشت فيه أسماء عباقرة الرسم الذين ذهبوا ولابد أن أرواحهم تهيم فى المكان وترعاه . .

إن الدرجات ترتفع بى . . وخيالى يحلق . .

هناك فى القمة سألتقى « بتولوز لوترك » القزم . . صاحب الدم العريق . . والنفس المعذبة المثقلة بالجروح . . الفنان الذى أحب ما رسمه . . ورسم ما أحبه . نساء الليل . . بنات الطاحونة الحمراء . . وفتيات البارات . . إنه لم يحس بالراحة إلا وسط هذا الجو الذى خجل منه الآخرون . . أما هو فوجد فيه الدواء لجروحه والعلاج لعقدته . . إنه وسط العالم الخارجى والناس كان قزماً مشوهاً لا يثير إلا الرثاء أما فى « المولان روج » . . وفى ميدان « الساكريكير » و « مونمارتر » كان الفنان العبقرى الغريب ، الذى أحبه الجميع وشاركوه فى الخبز والنبيذ والليل !..

ولقد ذهب تولوز لوترك ! . ترك اسمه فى التاريخ . . ولابد

أن روحه تعود هائمة لتقف هناك فى قمة « الساكريكير » تتأمل الفنانين وهم يرسمون . .

ويطير بى الخيال إلى « مودليانى » وصديقه « أوترللو » كلاهما كان من رواد « الساكريكير » أيضاً . . وكلاهما ترك بصماته فى مقاهى الميدان العجوز . . لقد اشتركا فى البؤس . . وفى الرسم . . والخمر . . والليل . . واختلفا فى شىء واحد . .

« مودليانى » كان يعشق النساء . . وأوترللو كان يعشق الشجر ! وكان أجمل ما رسمه مودليانى النساء . . وأجمل ما صوره أوترللو . . الشجر !

وكلاهما مات . . ولكن الإحساس يخالجنى بأننى سألتقى بهما بعد لحظات . .

وأفيق من خواطرى . . وزميلتى تقودنى إلى مقهى قريب نلتقط فيه أنفاسنا . .

إن بيكاسو نفسه كان يجلس هنا . .

قالتها زميلتى فى اقتناع . . وهز صاحب المقهى العجوز رأسه موافقاً ، وهو يضع أمامنا الطلبات ويدخل فى الحديث بلا دعوة :

– كان شاباً وسيما وفقيراً فى هذا الوقت . . شاحب الوجه مسترسل الشعر . . مغرم بالبؤساء ولاعبى السيرك . . وكان مرسمه فى « باتولافوار » ولكنه كان يأتى هنا ليرسم ويلتقى بزملائه . .

ويتنهد الرجل ويضيف :

« إنه لم يعد يأتى إلى هنا . . إنه مشغول الآن بفنه وشهرته وقصوره . . وسمعت أن كتاب زوجته "فرانسواز جيلو" عنه قد آلمه كثيراً . . هل تعتقد أنه من الصواب يا سيدى أن تذيع زوجة أسرار زوجها بهذه الطريقة ؟ ! »

وكنت لا أزال أفكر فى السؤال عندما تبرع الرجل بالإجابة:

« أنا أعتقد أنها الرغبة فى الانتقام . . لقد ضاقت نفسها عندما وجدته منصرفاً عنها إلى فنه وموديلاته الجميلات . .

هل أنت فنان . . . حسناً إذن أنت معى أن بيكاسو مظلوم » ! !

ويقتحم علينا الحديث . . صوت غريب . . صوت صدئ ونلتفت إلى مغنية ، يتوهج شعرها الأحمر تحت حلقات النور والدخان . . وتردد أغانى قديمة . . أغانى « العصر الجميل » كما يلقبونه . . إنها للوهلة الأولى ، تثير الضيق . . وترهق الأذن ولكن بعد لحظات ، تتعودها النفس . . كلماتها الساخرة أحياناً.. أو ذات المعانى المتوارية الملائمة لجو المكان وتاريخه . .

وتقول زميلتى :

« إنهم هنا يعتزون بمغنيتهم اعتزازهم بالنبيذ المعتق . . ولا أحد يعرف سنها الحقيقى . . ولكنها تردد منذ نصف قرن أنها فى الثلاثين ! »

والمغنية تتجول بين الموائد . . وبجوارها عازف الجيتار . . يصاحبها . . ويردد بعض الكلمات ويستحث الرواد !

ونهض نغادر المقهى . . لنتجول فى الميدان حوله . . وألتقى بعشرات الفنانين وهم يرسمون . . .

وتصدمنى المفاجأة . .

وتغلبنى المرارة . .

إن ما أراه حولى يحزننى . .

لقد تحول الفن إلى استعراض كبير . . أو إلى لعبة لجذب انتباه السياح . .

عشرات الرسامين هنا وهناك كأنهم فى مباراة بعضهم يستعرض سرعته ومهارته فى الرسم . . والبعض الآخر يفرد رسومه ولوحاته على سور الميدان أو حائط مقهى . . ومعظمها لوحات رديئة متعجلة استعار أصحابها أساليب بعض الفنانين المعروفين بلا إذن أو استئذان . . أما السلعة المرغوبة فى هذا السوق الفنى . . فهى رسم « البورتريه » تصوير الوجه . . فهو لا يحتاج إلا إلى كرسى يجلس عليه « الزبون » . . وورقة بيضاء وقطعة من الفحم يكتمل بها الرسم بسرعة . . وغالباً ما يعمد الرسام إلى إحضار « نموذجه » الخاص . . يرسمه أمام المارة ، ويستخدمه كطعم !

وتنهدت . . والتفتت إلى زميلتى تسأل :

ــ مالك منقبض الأسارير . . ألا يعجبك ما تراه ؟ . .

هل أقول لها إنى جئت إلى مونمارتر « والساكريكير » لألتقى بتولوز لوترك . . وموديليانى . . وأوترللو . . ولكن حتى أرواحهم رحلت عن المكان لتتركه لهذه الغربان الملونة ؟ ! . .

هل أقول لها إنى أحلم بهؤلاء العباقرة الذين دفعوا حياتهم كلها لتحقيق الكمال الفنى ؟ !

هل أقول لها إن « موديليانى » مات من الجوع . . ليحتفظ بكرامة فنه ؟ !

و « جوجان » رفض أن يبيع حياته للزيف والنفاق . . فترك بلده وأهله . . ومات وحيداً مشرداً .. ولكن فى ابتسامة رضاء كبيرة لأنه باع كل ما يملك واشترى نفسه ؟ !

وهل أقول لها . . إنى أحلم بلقاء رجل مجنون مثل فان جوخ يطارد الشمس بدلاً من السياح . . وعندما لا يجد هدية يقدمها لحبيبته يقطع لها أذنه عربوناً للحب ؟ !

ولكنه حديث يؤلم النفس . . وزميلتى سمعت بعضه . . وتدرك البعض الآخر . . وابتسامتها تضىء بالأمل وهى تقول :

— إن ما تراه ليس حقيقة الساكريكير . . ورسامى مونمارتر ليسوا هؤلاء « الغربان الملونة » كما تلقبهم . . والذين لا هم لهم إلا مطاردة السياح . . إن فى داخل هذه البيوت الصامتة حولنا بعض هؤلاء العباقرة الصامتين . . حياتهم عميقة وفنهم أصيل . . إن السياح لا يدخلون هذه البيوت لأنهم يشترون أول ما يصادفهم.

وبرفق كانت زميلتى تقودنى لنصعد السلم الخشبى إلى مراسم زملائها الفنانين . .

وهدأت نفسى أمام الفن الأصيل . . وارتاح بصرى للألوان والمعانى فى اللوحات . .

والتف حولى الجميع فى ترحيب . .
وقلت لزميلتى هامساً أن تُفَهِّمهم أنى لست سوى فنان مثلهم ولا أملك أن أشترى فهم !
وكانت همستى مكشوفة . .
وقال لى رسام عجوز فى حماس وهو يفرد أمامى لوحاته :
« نحن لا نبيع الفن وإنما نشترى التقدير » . .
وكان المرسم يمتلىء برائحة الألوان والأصباغ . . رائحة أحبها . . وتسكرنى . .
وحديث الفن يتصل . . والعيون تلمع . . والأيدى تتحرك..
وفنانة تمسك قلماً وترسمنى . .
وأحس بالنشوة والحرج . .
أناملها على الورق تلمس وجهى !
لقد تعودت دائماً أن أرسم أنا . .
هل هكذا يحس الذين يجلسون للرسم ؟ . .
إن باريس لم تسكرنى طوال الشهر الذى أمضيته معها . . بخمرها وسهراتها ولياليها . .
ولكن الفن وحده قادر على إسكارى . .
رائحة اللون الفيروزى . . على لوحة فى الحائط أمامى تدغدغ حواسى . .
وصوت جرة القلم على الورق . .
وحفيف الفرشاة . .

وأجد نفسي أنا أيضاً أنهض لأرسم فى حماس . .
وساعة قديمة على منضدة تشير إلى منتصف الليل . .
وتنحنى علىّ زميلتى وتقول :
لا تصدق الساعة . . إن النهار أوشك أن يظهر . .
ويقول الرسام العجوز :
إن ساعتى مثلى تعودت ألا تحسب سوى لحظات السعادة ! . .
— وأنا مثل عقاربها توقفت عند منتصف الليل . .
وقالت زميلتى هامسة :
— هل أعدنا ثقتك بمونمارتر والساكريكير ؟ !
— بل أعدتم ثقتى بالفن . . بكم . . وبنفسى . .
وقلت للفنانة التى رسمت صورتى :
— هل أستطيع أن أحصل عليها ؟ !
— إنها ليست كاملة . . من عادتى أن أنهى الصورة فى جلستين . الليلة رسمت وجهك وفى المرة القادمة أرسم نفسيتك !
— ولكنى أسافر بعد ساعات ؟
— إذن ستظل صورتك وجهاً بلا نفس حتى تعود ونعرفك أكثر !

واقترب منى الرسام العجوز ممسكاً باللوحة التى أرسمها . . وهو يسألنى :
— ما هو عنوانها ؟ ! . .

ــ إنها انطباعى عن باريس . .

وحملها الرجل إلى الحائط . . ووضعها بجوار لوحاته وهو يثبتها فى عناية وتقدير . .

وكنت أقول له :

ــ ولكنها لوحة ناقصة ! . .

وسبقت ابتسامة الرجل كلماته وهو يقول :

ــ إذن ستعود يوماً لتكملها . . سننتظرك !

* * *

مطار أورلى . . .

الصوت الدافئ يعلن عن قيام طائرتى . .

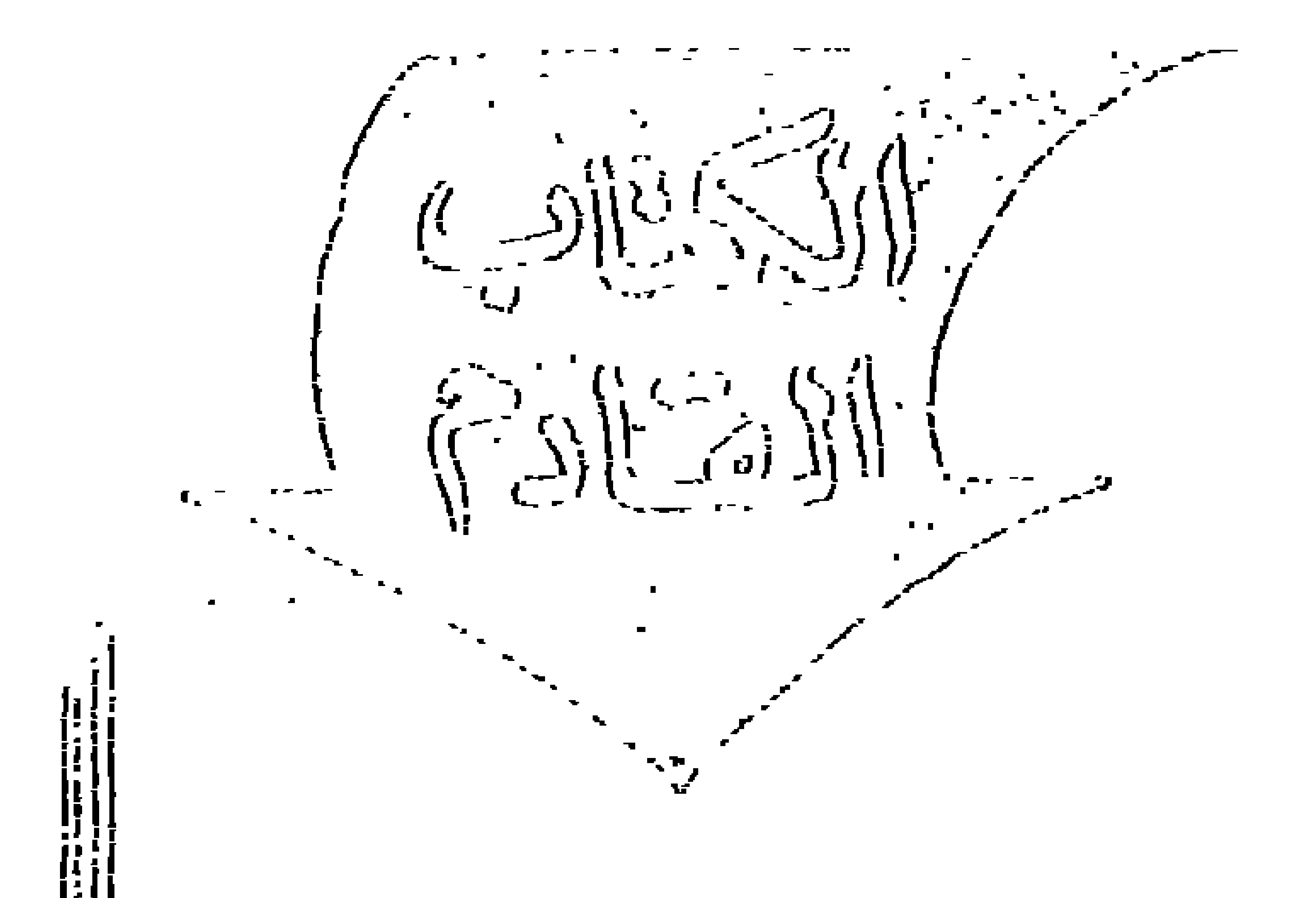
ــ وداعاً . . .

ــ إن باريس لا تحب الوداع . . وإنما إلى اللقاء ! . .

فهرس

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٦٩/٢٤٤٠



أسنانك ...
وكيف تحافظ عليها

الدكتور فاروق مرشد

دار المعارف بمصر

تقدم للمبتدئين فى تعلم اللغة الإنجليزية وتلاميذ المدارس والمهتمين بشئون التعليم

THE ALL AROUND LIBRARY

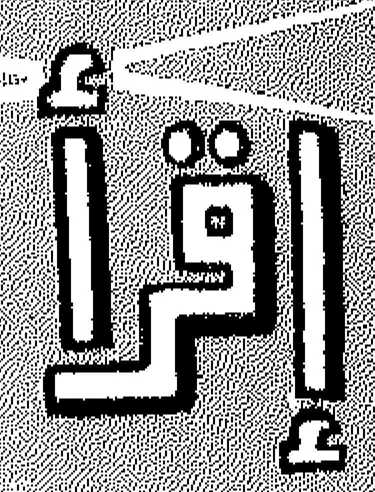
تأليف : بهية كرم ومرسى سعدالدين ونصيف إسطفانوس وحنامرقص

مجموعة كتب للقراءة الحرة باللغة الإنجليزية بأسلوب سهل ممتع تعين الطالب على استيعاب هذه اللغة وتحبب إليه القراءة بها وتشجعه على الاستزادة منها .

1. Pharaonic Stories
2. Chinese Stories
3. Arabian Nights Stories
4. Adventure Tales
5. Three Greek Plays
6. One - Act Plays
7. Russian Stories
8. Italian Stories
9. Stories from Shakespeare
10. Egyptian Stories
11. Folk Tales
12. Pastime

ثمن النسخة من كل كتاب ٦ قروش





أسنانك وكيف تحافظ عليها

الدكتور فاروق مرشد

دار المعارف بمصر

٦



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان





الدكتور فاروق مرشد

أسنانك .. وكيف تحافظ عليها !!

اقرأ ٣١٨

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣١٨ – يونية سنة ١٩٦٩

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

مقدمة

طابور المرضى الطويل الذى يقف كل صباح أمام العيادة الخارجية فى كلية طب الأسنان ظل سنوات طويلة يثير فى نفسى سؤالا حائراً . لماذا لا يلجأ هؤلاء الناس الذين يقاسون من أمراض الفم والأسنان إلى الوقاية منذ البداية حتى يمكن أن يجنبوا أنفسهم كل هذا العناء ؟ !

نعم . . . لماذا ؟ !

إن طب الأسنان ليس سراً من الأسرار وصحة الفم ليست امتيازاً تمنحه الحياة لبعض الناس ولكنها حقائق بسيطة من الممكن أن يعرفها و يمارسها كل الناس .

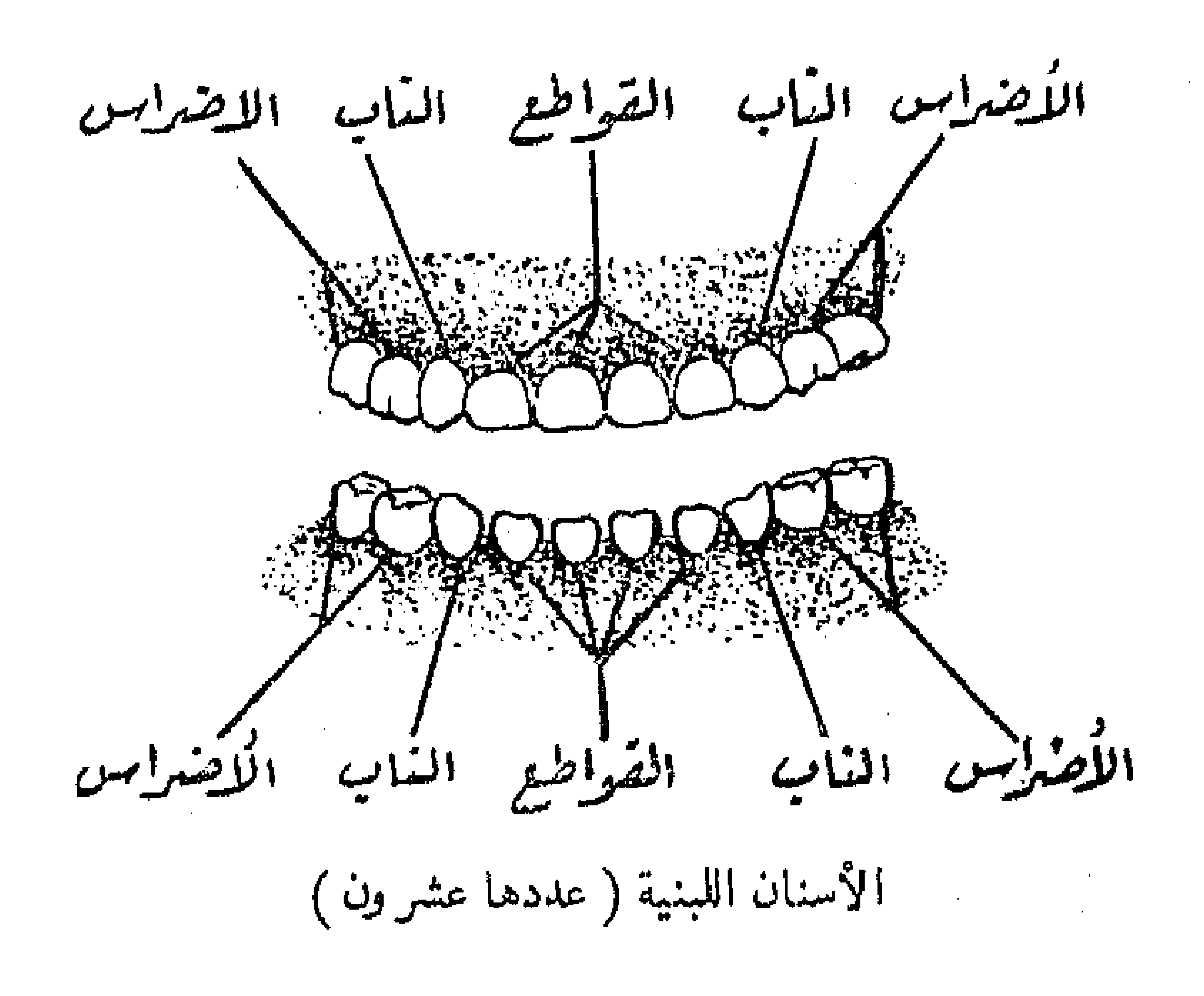
فلماذا إذن يظل طب الأسنان منعزلاً وحده فى جانب وتظل ملايين الناس وحدهم فى الجانب الآخر يعانون ما تسببه لهم أمراض الفم والأسنان من أوجاع وآلام ؟ !

لابد من لقاء. لابد من أن يذوب الجليد المتراكم بين الجانبين . ولابد من أن يصل صوت طب الأسنان الوقائى إلى كل الأسماع .

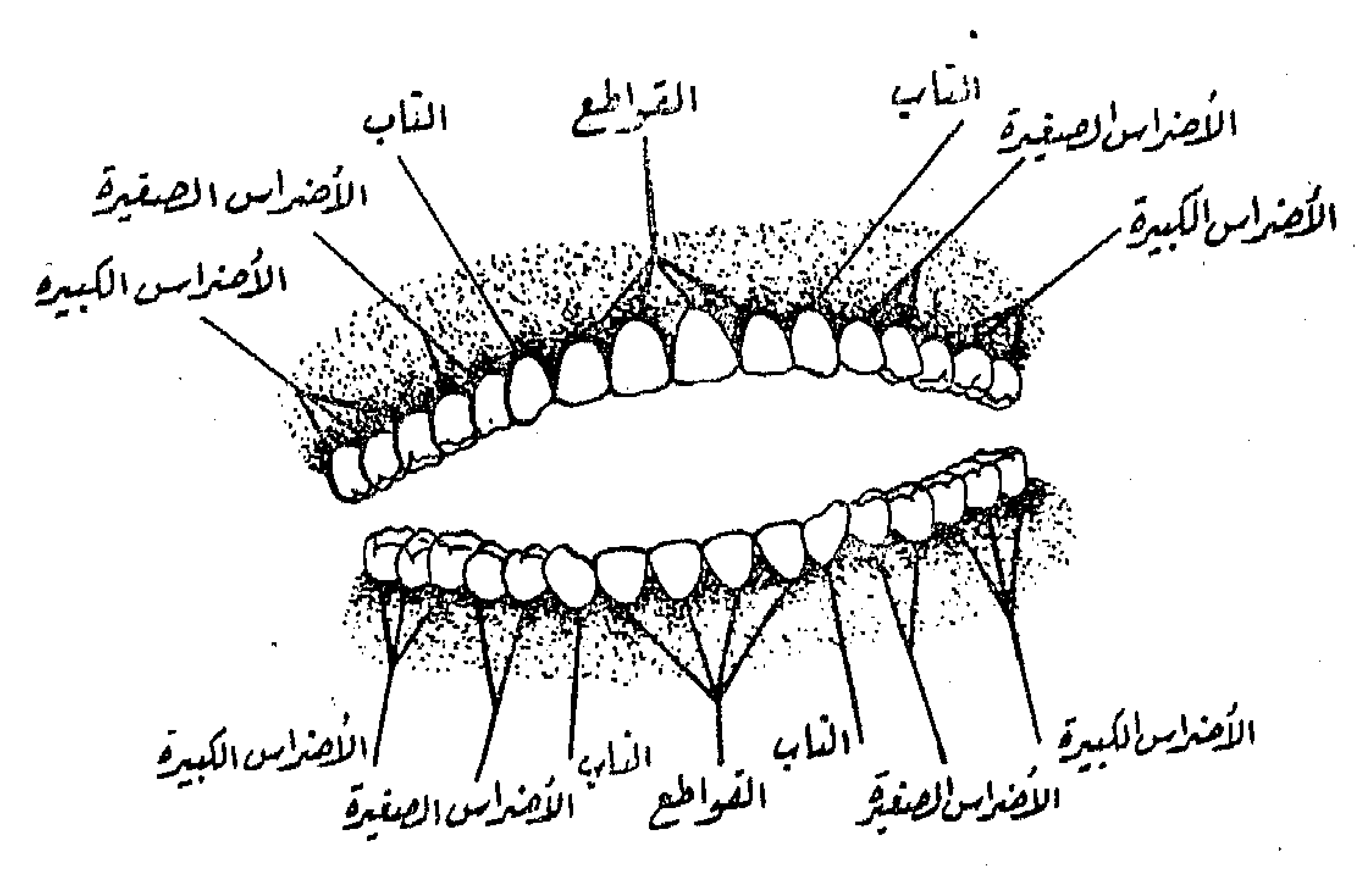
ومن أجل ذلك يصدر هذا الكتاب . . .

هذا الكتاب الذى يقدم الحقائق العلمية مبسطة حتى يمكن أن تصل إلى كل القلوب فى كل مكان ينبض بالحياة .

دكتور : فاروق مرشد



الأسنان اللبنية (عددها عشرون)



الأسنان الدائمة (عددها اثنتان وثلاثون)

١

هذه هى أسنانك

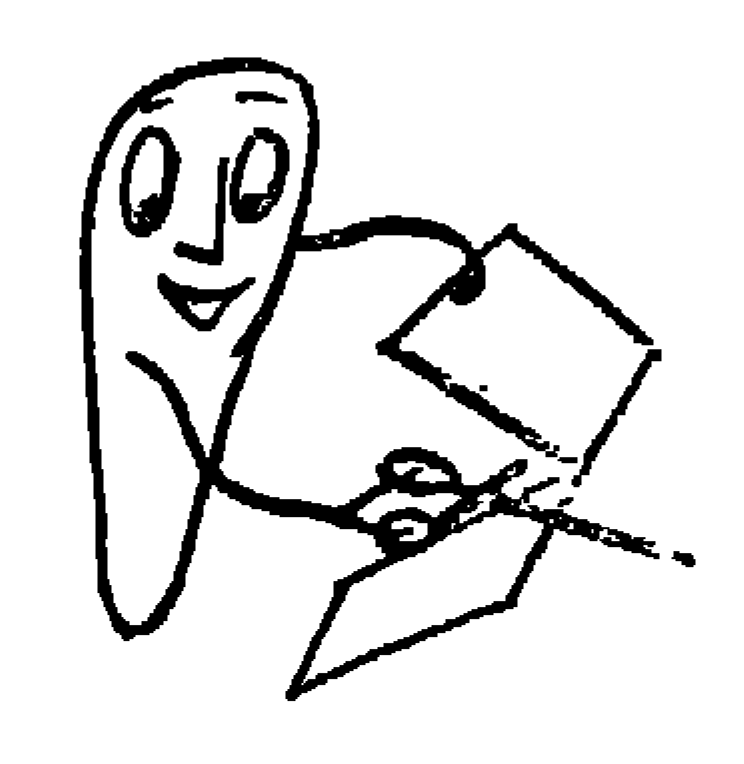
إذا فتحت فمك جيداً أمام المرآة وأخذت فى عد أسنانك واحدة وراء الأخرى سوف تجدها – عادة – اثنين وثلاثين . . ست عشرة سنّة فى الفك العلوى وست عشرة سنّة فى السفلى .

وعلى الرغم من ذلك فإن عدد أسنانك . منذ أن كنت صغيراً قبل سن السادسة لم يكن إلا عشرين فقط . استبدلت هذه الأسنان اللبنية العشرون – بعد سن السادسة – بأسنان دائمة وأضيفت إليها اثنتا عشرة سنّة دائمة أخرى فأصبح عدد أسنانك الدائمة جميعها اثنين وثلاثين .

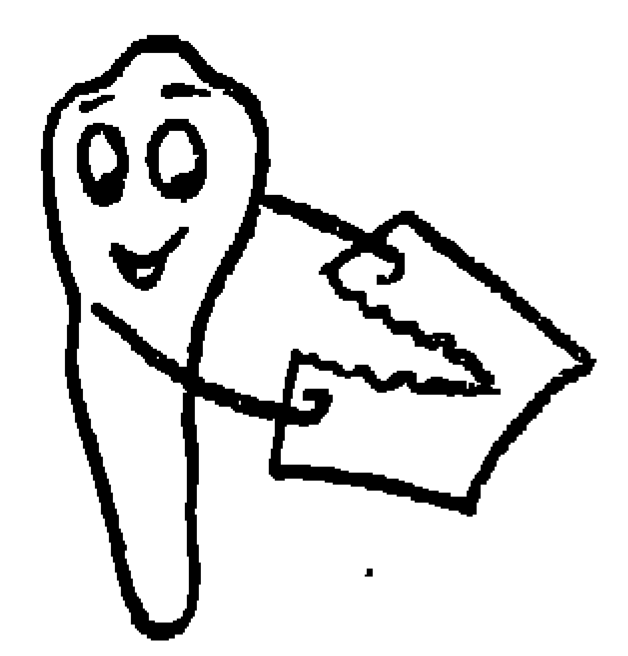
وأنت لن ترى فى فمك من أسنانك إلا الجزء الأول منها فقط وهو الطربوش أما الجذور فإنك لا يمكن أن تراها أبداً لأنها تكون مدفونة فى عظام الفك . . . تلك العظام التى تكون مغطاة هى والأسنان حتى الأعناق بنسيج ناعم هو نسيج اللثة ويحيط بجذر كل سنّة ويربط بين هذا الجذر وعظام الفك المحيطة به نسيج رقيق اسمه رباط السنّة هذا النسيج يسمح بالحركة البسيطة للأسنان وهو قادر على أن يمتص الضغط العادى الذى يقع على هذه الأسنان أثناء مضغ الطعام .

ولا تظن أن كل سنة من أسنانك لها جذر واحد فقط

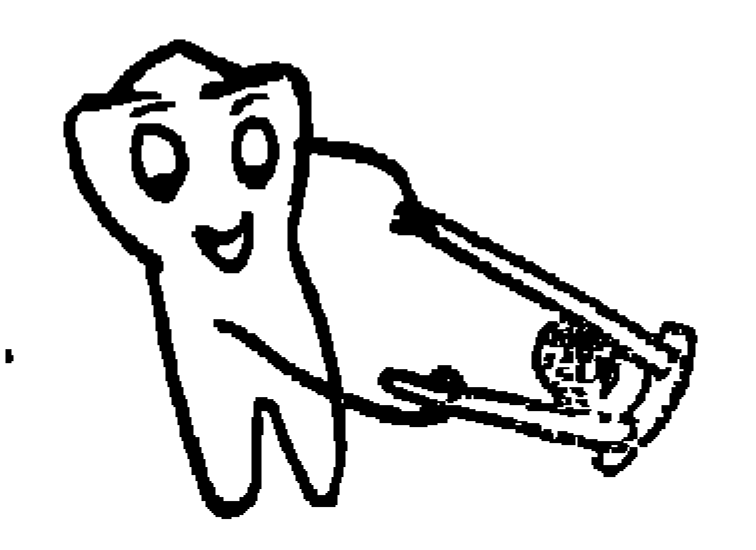
وظائف الأسنان



القواطع
تقوم بقطع الطعام



الأنياب
تقوم بتمزيق الطعام



الأضراس الصغيرة
تقوم بتفتيت الطعام



الأضراس الكبيرة
تقوم بطحن الطعام

بل إن ثلاثة الضروس الأخيرة من الفك السفلى لكل منها جذران والثلاثة الضروس الأخيرة من الفك العلوى لكل منها ثلاثة جذور.

وأسنان كل فك الست عشرة تنقسم إلى مجموعتين متماثلتين على جانبي الفم. أسنان الجانب الأيمن الثمانية تشابه تماماً أسنان الجانب الأيسر الثمانية الأخرى.. هل تلاحظ ذلك؟!

إن وظيفة أسنانك الرئيسية هى مضغ الطعام ولكن أسنانك أيضاً تعطيك القدرة على أن يبدو شكلك طبيعياً وعلى أن تخرج الألفاظ من فمك واضحة سليمة... وأسنانك عند تناولك ذلك الطعام تعرف التخصص جيداً.. إن الأسنان الأمامية(القواطع) تقوم بقطع الطعام أما الأنياب فتقوم بتمزيقه ويقوم الضرسان الصغيران اللذان يعقبان الناب ويسميان(الضاحك الأول والضاحك الثانى) بتفتيت الطعام فى الوقت الذى تكون فيه وظيفة كل ضرس من الضروس الثلاثة الباقية فى كل جانب من جوانب فمك هى طحن ذلك الطعام. ولعلك تلاحظ أن الأطفال فى فترة وجود الأسنان اللبنية لا تحتوى أفواههم على تلك الأضراس الصغيرة التى تقوم بتفتيت الطعام وهما الضاحك الأول والضاحك الثانى ولكن يوجد بدلاً منهما ضرسان آخران على كل جانب من جوانب الفم تقوم هذه الأضراس بطحن الطعام.

وطربوش كل سنّة من أسنانك يغطى من الخارج بطبقة صلبة تسمى الميناء. هذا الميناء قادر على حماية السنّة من الإثارة

التى تسببها عادة مواد الطعام الساخنة أو الباردة أو الحلوة إذا تآكل هذا الميناء وأصبح العاج (وهو جسم السنة) عادياً.

وداخل كل سنة . . فى وسطها تماماً . . يوجد لب السنة (النخاع أو العصب) هذا اللب يتكون من شرايين وأوردة وأعصاب صغيرة . . وهذه ليست إلا فروعاً لشرايين وأوردة وأعصاب كبيرة فى الفكين . .

وهذه الأوعية تخرج من فتحة صغيرة خاصة عند نهاية كل جذر من جذور الأسنان لتتصل بهذه الأوعية الكبيرة فى الفكين وهذه الأوعية بدورها ليست إلا فروعاً لأوعية أخرى أكبر موجودة فى مناطق عميقة من الجسم .

ولذلك فإن أسنانك ليست إلا أجزاء حية حساسة من جسمك من الممكن أن تسبب لك أخطاراً شديدة ومن الممكن أيضاً أن توفر لك بعض أسباب السعادة والهناء .

مراحل تسوس الأسنان



يختار التسوس منطقة الضرس



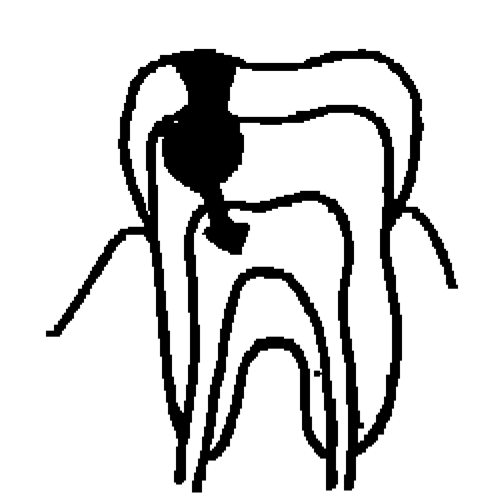
يبدأ التسوس فى ميناء الضرس



ينتشر التسوس فى طريقه إلى الطبقة
التالية من الضرس وهى العاج



وصل التسوس إلى العاج



تلوث أعصاب الضرس بميكروبات التسوس

٢

تسوس الأسنان

لماذا... وكيف؟

أنت مصاب بتسوس الأسنان ! !

إنى أعلم هذا جيداً .

ولكن ... هل تعرف لماذا تتسوس أسنانك ؟ هل تدرك لماذا تخلع أضراسك واحداً وراء الآخر رغم أنك لا تزال شاباً ؟هل تذكر الليالى التى قضيتها فى هم ولم تستطع أن تنامها بسبب السوس الراقد فى أحد أضراسك ؟

إن تسوس الأسنان هو أوسع الأمراض انتشاراً فى العالم . وهو يصيب كل الناس . . .

ولكن . . . ما هى قصة التسوس ؟ كيف وجد الناس أنفسهم هكذا وجهاً لوجه أمام تسوس الأسنان ؟

إن تسوس الأسنان لم يكن موجوداً فى العصور القديمة . لم يصب به إنسان ما قبل التاريخ غير أنه أصبح واسع الانتشار فقط بين أبناء حضارات هذه الأيام. إن انتشار السكريات والحلويات هو السبب ولذلك فإن الناس تعلم جيداً أن السبب فى تسوس أسنانهم هو كثرة أكل هذه الحلويات والسكريات .

ولكن كيف . . . كيف تتسوس الأسنان بسبب هذه الحلويات والسكريات ؟

كيف تتسوس أسنانك ؟

إن قطعة صغيرة من الشيكولاتة قد تكون هى السبب . إن بقاياها تتجمع بين أسنانك وعند أعناق هذه الأسنان بالقرب من حواف اللثة وكذلك فى الحفر والتجاويف الموجودة على أسطح أضراسك . هذه الحفر والتجاويف لا يد لك أنت فى وجودها. إنها تتكون طبيعياً أثناء عملية نمو الضرس وتصبح كالمخابئ الأمينة التى تحمى فضلات الطعام من حركات فرشاة الأسنان مثلا. وفى فمك وفى فم كل إنسان فى الوجود توجد ملايين الميكروبات بصفة مستمرة . ما يكاد البعض منها يلمح فضلات الطعام إلا وينطلق إليها سريعاً . وتبدأ هذه الميكروبات على الفور فى العمل . إنها تختار دائماً فضلات النشويات والسكريات .

وعندما تعمل هذه الميكروبات على فضلات المواد النشوية والسكرية تنتج حامضاً مركزاً . هذا الحامض المركز له القوة التى تجعله يذيب الجزء الملاصق له من ميناء الضرس تدريجياً . إنه يسحب من ميناء الضرس المواد التى كانت تعطى ذلك الميناء فى البدء صلابته ومتانته كمادة الكلسيوم مثلا .

لا تظن أن عصب الضرس يقف مكتوف الأيدى أمام ذلك الهجوم الواقع على الضرس . إن ذلك العصب يحاول أن

يحمى نفسه ويحمى الضرس من تسوس الأسنان . إنه يصنع بعض التغييرات فى الضرس ليوقف هذا التسوس عند حده . ولكن هذه المحاولات من عصب الضرس تفشل فى أحيان كثيرة . وعندئذ يأخذ تسوس الأسنان فى التقدم . إنه ينطلق فى العاج — الطبقة التالية لميناء الضرس — بسرعة بالغة فى كل الاتجاهات وهدفه هو الوصول إلى عصب الضرس .

وعندما يصل تسوس الأسنان إلى عصب الضرس فإن هذا الضرس غالباً يودع الحياة على الفور وتضطر أنت فى النهاية إلى خلع ضرسك بسبب الآلام الشديدة التى يسببها لك .

المتاعب التى يسببها لك تسوس الأسنان

صحيح أن إهمال تسوس الأسنان يجعلك — فى النهاية — تخلع أسنانك واحداً وراء الآخر . ولكن المتاعب التى يمكن أن يسببها لك تسوس الأسنان قبل حدوث ذلك الخلع كثيرة جداً . إن مجرد وصول تسوس الأسنان إلى الطبقة التالية لميناء الضرس يسبب لك آلاماً شديدة . هذه الآلام الشديدة تحدث عند تناولك لقطعة من الحلوى أو أكلك لبعض المواد أو شربك لبعض السوائل الساخنة أو الباردة مثلا . إن عصب الضرس يصبح حساساً جداً عند تناولك لهذه المواد وقد يجعلك تمتنع تماماً عن الأكل على ذلك الجانب من الفم الذى يوجد به ذلك الضرس المتسوس حتى توفر على نفسك تلك الآلام الشديدة .

ولكن . . . تسوس الأسنان لا يسبب آلاماً شديدة دائماً . إن هذه الآلام قد لا توجد بالمرة إلا عندما يصل التسوس إلى عصب الضرس ويلوثه فعلا . وفى أحيان أخرى كثيرة حتى ذلك قد لا يسبب آلاماً بالمرة .

وعندما يصل تسوس الأسنان إلى عصب الضرس ويلوثه فإن الميكروبات والمواد المتلوثة فى الغالب لا تقف عند هذا الحد إنها تزحف فى طريقها إلى المنطقة المحيطة بنهاية جذور الضرس وتسبب التهاباً فيها . هذا الالتهاب يصنع بعد ذلك خراجاً فى مؤخرة جذور الضرس . يسبب هذا الخراج آلاماً شديدة للمريض ويحدث ورماً فى الفك فى المنطقة المحيطة بالضرس المصاب . بل إن هذا الورم قد يمتد إلى أن يصل إلى منطقة الوجه نفسه فى نفس الجانب الذى يوجد به الضرس المصاب .

وفى أحيان كثيرة قد تمتد المواد المتلوثة من مؤخرة جذور الضرس المصاب إلى باقى المنطقة المحيطة به فى الفك وتسبب تلفاً وتآكلا شديدين فى ذلك الجزء من الفك . وليس هذا فقط بل إن هذه المواد المتلوثة قد تزحف بعيداً . . . بعيداً وتصنع لها فتحة فى وجه المريض نفسه كما يحدث كثيراً فى منطقة الذقن مثلا .

وفى أحيان أخرى قد يصنع ذلك الالتهاب الموجود فى مؤخرة الجذور بؤرة عفنة تنطلق منها العدوى إلى مختلف أجزاء الجسم كله وتسبب له الكثير من الأمراض المختلفة .

هل يثير دهشتك كل تلك المتاعب والآلام التى يسببها تسوس الأسنان ؟

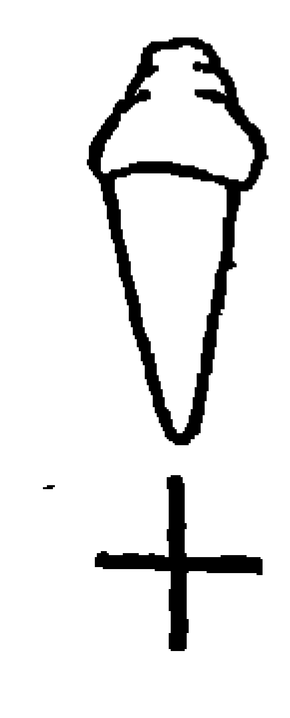
إنى على الرغم من كل ذلك لم أذكر إلا بعضاً مما يمكن أن يسببه لك ضرسك الذى أهملته فتغلغل فيه السوس :

هل يمنع الفلورين . . . تسوس الأسنان ؟

مياه الشرب التى تشربها يضاف إليها مادة اسمها الكلورين . هذه المادة قادرة على قتل الميكروبات فى مياه الشرب . من نفس عائلة هذه المادة توجد مادة أخرى اسمها الفلورين . لو أضيفت أملاح هذا الفلورين كفلوريد الصوديوم مثلا بنسبة ١ فى المليون إلى مياه الشرب لانخفضت نسبة تسوس الأسنان انخفاضاً كبيراً من ٦٠ إلى ٤٠ فى المائة. هل تتصور هذا ؟

إن أملاح الفلورين هذه تجعل الأسنان ذات مقاومة شديدة ضد التسوس . ذلك لأن تأثيرها يوجه إلى ميناء الأسنان أثناء تكوينه . والذى يحدث عادة — كما ذكرت لك سابقاً — أن التسوس يهاجم ميناء الأسنان هذا أولا . إن الأطفال حتى سن الثامنة هم أكثر المستفيدين من فلورة مياه الشرب . وذلك لأن ميناء كل الأسنان الدائمة تقريباً يتم تكوينه فى السنوات الثمانية الأولى من حياة الإنسان . أما الأطفال الذين يشربون بعد سن الثامنة من المياه المضاف إليها الفلورين فإن استفادتهم من هذه الفلورة لمياه الشرب تكون بدرجة أقل من الأطفال

هكذا يحدث تسوس الأسنان . . .



أكل الحلوى

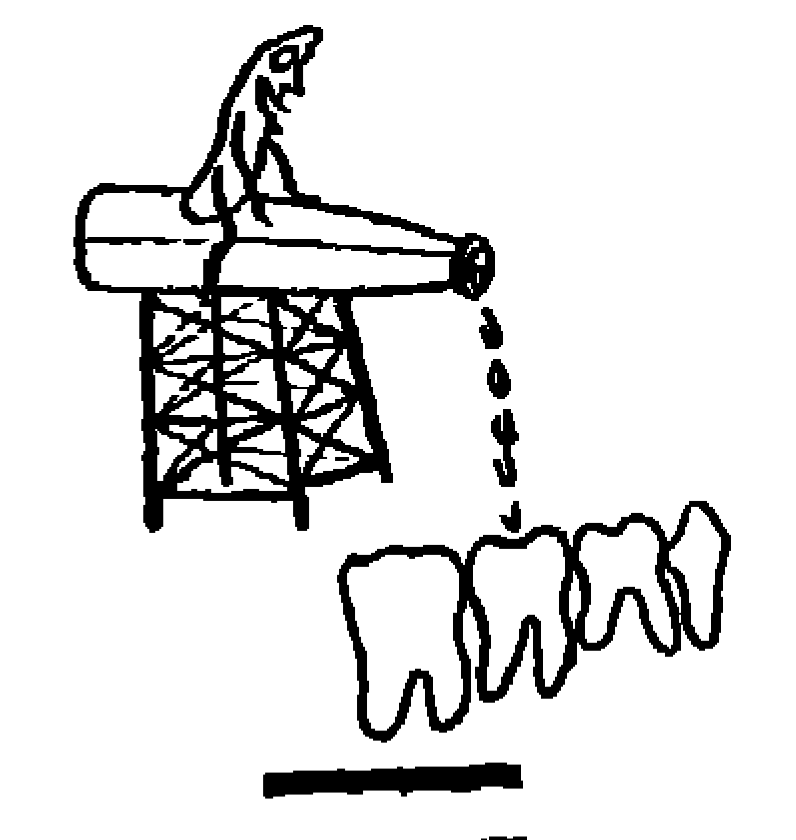
+



تأثير الميكروبات المتوافرة فى الفم

+

تتكون مادة حمضية تسبب تسوس
الأسنان



=

تسوس الأسنان هو النتيجة الحتمية

الآخرين . ذلك لأن ميناء أسنانهم الدائمة يكون قد تم تكوينه تقريباً عند هذا السن .

إن مياه الشرب المضاف إليها أملاح الفلورين تستخدم الآن فى بعض بلاد العالم . وعلى الرغم من أن هذا قد بدأ منذ أكثر من عشرين عاماً إلا أن فلورة مياه الشرب لم تحدث حتى الآن فى بلادنا . لقد بذلت بعض المحاولات فى هذا السبيل أثناء وجود مجلس الخدمات وعملت عدة بحوث ولكن لم يتم شيء لفلورة مياه الشرب برغم أن تكاليف هذه العملية زهيدة جداً وتوفر علينا ملايين الجنيهات . ولنا أمل كبير فى أن يفطن المسئولون إلى ضرورة فلورة مياه الشرب فى بلادنا حتى يمكن أن نحمى الناس من تسوس الأسنان .

وفى حالة عدم إضافة أملاح الفلورين لسبب من الأسباب إلى مياه الشرب يمكن استعماله موضعياً على الأسنان للحصول على نفس النتيجة ألا وهى انخفاض نسبة تسوس الأسنان .

إن محلول أملاح الفلورين يوضع بنظام معين على الأسنان بواسطة طبيب الأسنان بعد أن يقوم هذا الطبيب قبل ذلك بالتنظيف الكامل للأسطح المختلفة للأسنان .

وتعتبر هذه الطريقة ذات فائدة كبيرة لأسنان الأطفال الذين لا يشربون مياهاً يضاف إليها أملاح الفلورين .

ماذا تفعل لتحمى أسنانك من التسوس ؟

إذا كنت تريد أن تحمى أسنانك من التسوس حقًا . اتبع النصائح التالية :

١ — قلل فى طعامك من النشويات والسكريات والحلويات وأكثر من الفواكه والخضراوات . إن هذه هى القاعدة الذهبية فى تناول الطعام .

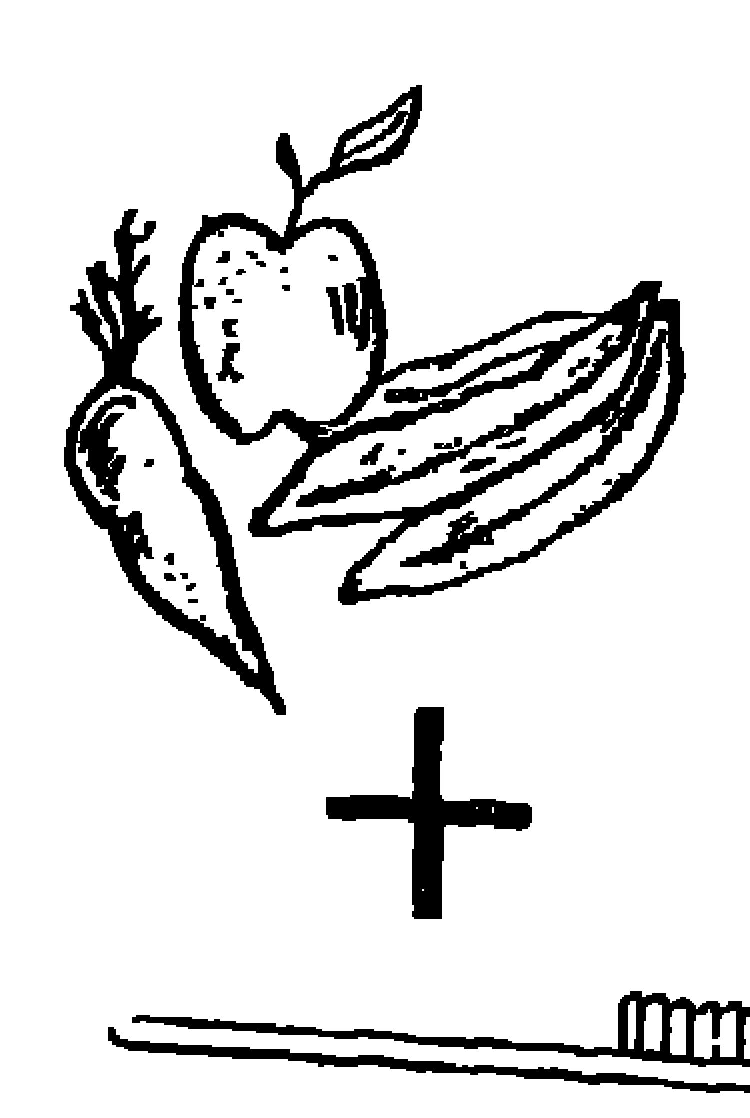
٢ — ليكن ما تأكله فى نهاية كل وجبة فاكهة أو خضارا . إن ألياف الفواكه والخضراوات تنظف الأسنان دائماً مما علق بها من فضلات المواد النشوية والسكرية التى تسبب تسوس الأسنان.

٣ — اغسل أسنانك جيداً بالفرشاة والمعجون عقب كل وجبة من وجبات الطعام وخصوصاً عقب وجبتى الإفطار والعشاء . إن فرشاة الأسنان تبعد كل ما تبقى من فضلات الطعام بين الأسنان أو على أسطحها المختلفة .

٤ — لا تأكل شيئاً أبداً بين وجبات الطعام وخصوصاً من المواد النشوية والسكرية . إنك عادة لا تستطيع أن تغسل فمك عقب ذلك . لا تعطى فرصة لميكروبات الفم أن تعمل على فضلات الطعام هذه وتسبب لك تسوس الأسنان .

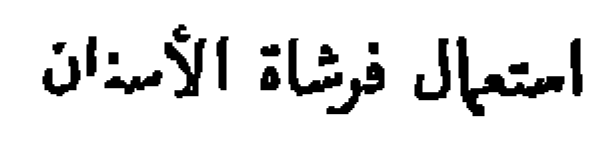
٥ — إننا حتى الآن لا نضيف الفلورين إلى مياه الشرب فى بلادنا . إن استعمال أملاح الفلورين موضعيًا على أسنان الأطفال يحمى هذه الأسنان من التسوس طيلة العمر كله .

. . . وهكذا تحمي نفسك من تسوس الأسنان



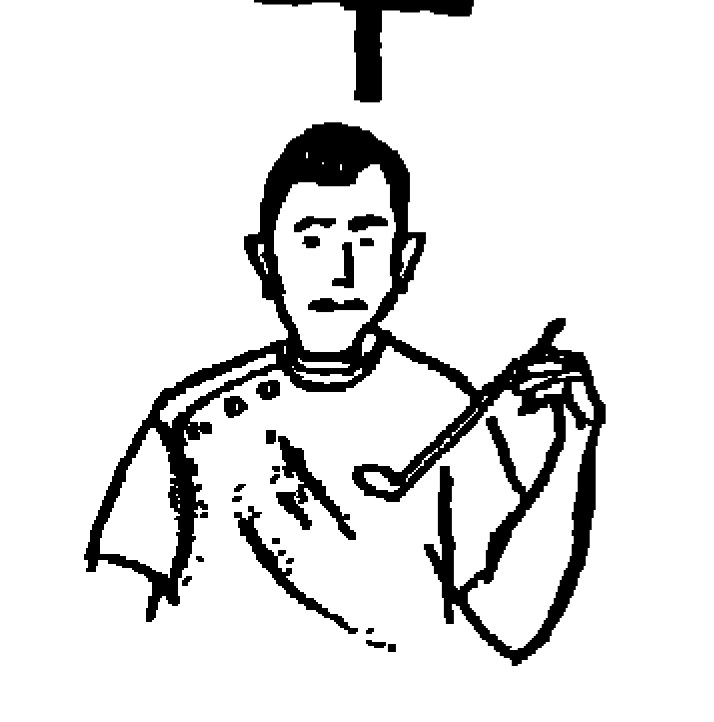
أكل الفواكه والخضراوات

+



استعمال فرشاة الأسنان

+



عناية طبيب الأسنان

=



أسنان سليمة

٦ - إن زيارتك لطبيب الأسنان مرة كل ستة أشهر ضرورة لازمة للكشف على أسنانك دوريًّا وإيقاف التسوس فى أدواره الأولى إذا كان موجوداً وذلك قبل أن يستفحل هذا التسوس ويصنع لك خطراً كبيراً . إن ذلك يعد ضروريًّا لأن الناس عادة لا يتنبهون إلى تسوس أسنانهم إلا عندما يسبب هذا التسوس ألماً شديداً. على الرغم من أنه فى أحيان كثيرة لا يصنع تسوس الأسنان ألماً بالمرة إلا عندما يصبح عميقاً فى الضرس . إن الذى يفعله طبيب الأسنان عادة هو أنه يبعد التسوس من الضرس ثم يحشوه بعد ذلك بالحشو المناسب وبذلك يقضى على التسوس وهو لا يزال فى البداية .

اتبع هذه النصائح جيداً وإنى أضمن لك أن تسوس الأسنان لن يصيبك .

ترى هل تحاول ذلك ؟

٣
نزيف اللثة

هل أصابك نزيف اللثة ؟

هل أخرجت يوماً فرشاة الأسنان من فمك فوجدت شعيراتها مصبوغة بلوم الدم ؟ إنك تقول نعم . لقد حدث لى هذا . ولكن . . . أتذكر ما حدث لك حينئذ جيداً ؟

لقد أخذت المخاوف تتدافع إلى قلبك وبدأ القلق ينتاب نفسك وأسرعت إلى المرآة وأخذت تحملق فى لثتك . ولقد رفعت أصبعك وبدأت تضغط على اللثة قليلاً . . قليلاً . آه . . . ماذا ؟

إن قطرات الدم تتسرب من اللثة . أف . . . كيف حدث هذا ؟

أنت لست الوحيد الذى يشكو من نزيف اللثة . إن الناس فى كل مكان يشكون منه أيضاً . إن هذا النزيف قد يكون هو دقة الناقوس الذى ينبه بعض الناس إلى أن أسنانهم ولثتهم أصبحت فى خطر .

إنى سوف أقص عليك قصة نزيف اللثة كاملة . لا تصدق أن هذا النزيف يحدث بسبب واحد فقط . إن له أسباباً عديدة . تعال معى لأذكر لك هذه الأسباب واحداً وراء الآخر .

الالتهاب البسيط فى اللثة

هذا الالتهاب هو أكثر أسباب نزيف اللثة انتشاراً . إنه لا يحدث بين يوم وليلة . إنه يبدأ بطيئاً . . بطيئاً حتى يكتمل ويصبح مزمناً . هل تسأل عن أسباب هذا الالتهاب ؟

إن إهمال نظافة الفم هو أكبر هذه الأسباب. إن فضلات الطعام والرواسب الجيرية التى تتراكم على الأسنان وبينها وبين طرف اللثةسوف يتآمران معاً وينتج عن ذلك التهاب مزمن فى اللثة !

إن هذا الالتهاب لا يحدث فى حواف اللثة فقط ولكنه يحدث أيضاً فى الجزء الهرمى من نسيج اللثة الذى يوجد بين كل سنة وأخرى . إن أعراض هذا الالتهاب غاية فى البساطة . إنها تأتى فى صورة احمرار فى اللثة . ألم خفيف . ورم قليل لا يذكر . رائحة كريهة تصدر من الفم . وأخيراً نزيف من اللثة . هذا النزيف يكون طفيفاً جداً فى البداية . يأتى من وقت لآخر وتزيد كميته رويداً رويداً وقد يستمر سنوات طويلة .

الالتهاب ذو القروح فى اللثة

الذين يصابون بهذا النوع من الالتهاب فى اللثة لا ينسونه أبداً .

إن رائحة فم المريض تصبح كريهة ونفاذة جداً . بل إن هذه الرائحة متميزة إلى حد أنها تعتبر أحد العوامل الرئيسية التى تساعد طبيب الأسنان على تشخيص هذا المرض . إن نزيف

اللثة فى هذه الحالة يحدث تلقائياً أو عند لمس اللثة بأى شىء كالأصابع مثلا .

وفى الأطفال المصابين بهذا الالتهاب فإنه عند استيقاظهم فى الصباح قد توجد بقع من الدم على المخدات التى ينامون عليها .

وهذا النوع من الالتهاب الحاد غالباً ما يؤدى إلى حدوث قروح نتيجة لحدوث تآكل فى نسيج اللثة .

وهذا المرض يحدث فجأة ويؤدى إلى حدوث سلسلة طويلة من المتاعب للمريض لا حد لها . إن اللثة تصبح حساسة ومؤلمة عند أقل لمس . هذا الألم يزيد عند مضغ الطعام أو عند تناول طعام ساخن أو أكل المواد الحريفة . بل إن مجرد التكلم أو مرور تيار من الهواء البارد على اللثة يحدث آلاماً شديدة للمريض وليس هذا فقط بل إن كمية اللعاب تزيد فى فم المريض ويفقد قدرته على التذوق . وفى أحيان أخرى كثيرة يفقد المريض شهيته للطعام ويعانى من الحمى والإمساك والصداع أيضاً .

لقد نسيت أن أقول لك : إن هذا النوع من الالتهاب فى اللثة معد ينتقل من فم المريض إلى فم السليم عن طريق التقبيل أو أكواب الشرب مثلاً . وإن أبرز أسباب هذا الالتهاب هو إهمال نظافة الفم وإن كان العامل المهيج فى حدوث هذا الالتهاب هو ميكروب خاص .

هل تتصور أن هذا المرض ينتشر فى بلادنا بين الكبار والصغار أكثر من أى بلد آخر فى العالم ؟

وهل تصدق أن إهمال علاج هذا الالتهاب فى اللثة يؤدى إلى حدوث تآكل شديد فى نسيج اللثة والأنسجة التى تحتها بل قد يمتد هذا التآكل إلى عظام الفك نفسه . إنى أرجو أن تتصور وأن تصدق كل هذا حتى تحمى نفسك من هذا الالتهاب المرهق .

البيوريا

شكوى الناس من مرض البيوريا لا تنتهى أبداً .

إن البيوريا هى الالتهاب المزمن الذى يصيب كل الأنسجة المحيطة بالأسنان . إنها أنواع كثيرة . منها البسيط الذى يمكن التغلب عليه ومنها الشديد جداً الذى لا علاج له أبداً إلا بخلع الأسنان على الفور . وتستمر البيوريا سنوات طويلة وهى فى الغالب امتداد للالتهاب البسيط فى اللثة إذا أهمل علاجه .

وينتج عن البيوريا جيوب حول جذور الأسنان التى تصيبها . تخرج من هذه الجيوب مواد صديدية تجعل طعم الفم مراً جداً . إن الآلام الشديدة تحدث حينئذ عند مضغ الطعام . وليس هذا فقط بل إن المصابين بهذا المرض يشكون مر الشكوى من أن أسنانهم أصبحت تتحرك من مكانها ويمد الواحد من هؤلاء المرضى أصابعه إلى فمه ويبدأ فى تحريك أحد هذه الأسنان ليدلل لك على أنه .. أصبحت حياة أسنانه فى خطر .

القسوة فى استعمال فرشاة الأسنان

الذين يستعملون فرشاة الأسنان يجب أن ينتبهوا إلى حقيقة بارزة . هذه الحقيقة هى أنهم يجب ألا يستعملوا فرشاة الأسنان بقسوة أبداً . إن القسوة فى استعمال فرشاة الأسنان تجعل اللثة تنزف نزيفاً شديداً . ذلك لأن فرشاة الأسنان حينئذ تحدث تسلخات وجروحاً فى اللثة بدلا من أن تعمل التدليك اللازم إذا ما استعملت بطريقة هادئة بطيئة .

هذا النوع من النزيف يحدث حتما عند استعمال فرشاة الأسنان بقسوة فى الوقت الذى تكون فيه اللثة مصابة بالالتهاب البسيط المزمن. ولعله من المفيد أن تعلم أن نزيف اللثة يحدث أيضاً عند محاولة إخراج فضلات الطعام من بين الأسنان وذلك بسبب استعمال أدوات حادة تجرح اللثة أثناء محاولة إخراج هذه الفضلات .

نزيف اللثة أيام الحيض

المفاجآت التى تتعرض لها الفتيات والسيدات فى فترة الحيض كثيرة .

ولعل نزيف اللثة يعتبر أكبر هذه المفاجآت التى تحدث لهن أحياناً فى أيام الحيض . هذا النزيف يزداد إذا ما أهملت نظافة الفم إلى حد إصابة اللثة بالالتهاب البسيط المزمن .

إن إصابة اللثة بهذا الالتهاب البسيط قبل فترة الحيض يجعل

نزيف اللثة شديداً عندما تأتى هذه الفترة .

إن اللثة أيام الحيض تزداد حمرتها وتتورم قليلا وقد تكون مصدراً لبعض الآلام للمريض . أما نزيف هذه اللثة فإنه لا يحدث فى فترة الحيض فقط بل قد يحدث أحياناً فى أيام قليلة قبيل فترة الحيض وقد يستمر أياماً أخرى بعد انتهاء هذه الفترة . وفى بعض الأحيان فإن نزيف اللثة قد يحدث شهرياً فى كل فترة حيض وينتهى عادة بانتهاء هذه الفترة . إن الاضطرابات الهرمونية قد تكون هى السبب فى نزيف اللثة أيام الحيض ، ولذلك فإن علاج المريضة بواسطة أخصائى هرمونات يصبح ضرورة لازمة . ولكن هذا يجب ألا يحدث إلا بعد أن يقوم طبيب الأسنان بإزالة كل الأسباب الموضعية فى الفم التى تسبب نزيف اللثة لأن إزالة هذه الأسباب أحياناً يكون كاف كعلاج للمريضة لإيقاف نزيف اللثة فى فترة الحيض .

نزيف اللثة فى فترة الحمل

السيدات فى فترة الحمل يصبن بنزيف اللثة أحياناً . هذا النزيف يعتبر أحد مظاهر التهاب خاص يصيب اللثة عند بعض الحوامل فى وقت الحمل .

إن إهمال نظافة الفم فى البدء هو السبب وإن كانت الاضطرابات الهرمونية أثناء فترة الحمل تساعد أحياناً هذا الالتهاب فى اللثة .

ومن المعروف أيضاً أن الأسباب الموضعية فى الفم تكون أشد تأثيراً فى فترة الحمل عن أى وقت آخر . ذلك لأن لثة الحوامل تكون أكثر استعداداً للإصابة بهذا الالتهاب فى تلك الفترة خصوصاً أن الحوامل يصبن بخمول شديد فى فترة الحمل يؤدى إلى إهمال نظافة الفم وبالتالى الإصابة بهذا الالتهاب فى اللثة .

يظهر هذا الالتهاب طفيفاً فى شهر الحمل الأول أو الثانى وتزداد شدته تدريجياً ويزول عقب الولادة مباشرة أو بعدها بفترة قليلة .

إن الحوامل المصابات بهذا الالتهاب يشكون من أن نزيف اللثة يحدث لهن كثيراً فى هذه الفترة وخاصة عند استعمال فرشاة الأسنان أو عند مضغ الطعام مثلاً .

وفى أحيان أخرى كثيرة تصاب بعض الحوامل بتكوين ورم صغير فى اللثة حول بعض الأسنان . وهذا الورم ينزف كثيراً وخاصة إذا ضغطت عليه الأسنان أثناء مضغ الطعام. إن نزيف اللثة يصبح شديداً عند وجود هذا الورم .

نقص فيتامين « ج »

بعض الناس يظن أن فيتامين « ج » هو خير علاج لنزيف اللثة دائماً . وهذا غير صحيح . إن فيتامين«ج» لا قيمة له بالمرة لمنع نزيف اللثة إلا إذا كان هذا النزيف قد حدث بسبب

نقص فيتامين « ج » بالذات .

والذي يحدث عادة هو أن نزيف اللثة يكون له أسباب موضعية فى الفم.بل إن مظاهر نقص فيتامين «ج» لا تظهر فى الفم إلا إذا كان هناك عوامل مشجعة مثل الرواسب الجيرية وإهمال نظافة الفم .

لا تظن أن نقص فيتامين « ج » يسبب نزيف اللثة بين يوم وليلة . إن هذا النقص لو استمر أكثر من ستة أشهر فإنه قد يستطيع فى النهاية إحداث نزيف اللثة .

أمراض الدم

الأمراض التى تصيب دم الإنسان كثيرة . إنها أنواع وأشكال . منها ما هو حاد ومنها ما هو مزمن . بعضها يكون سببه الوراثة أونقص التغذية وبعضها يكون سببه أو راماً سرطانية مثلاً .

كل أمراض الدم تستطيع أن تسبب نزيف اللثة . هذا النزيف قد يكون بسيطاً ولكنه أحياناً يكون شديداً جداً لا يمكن إيقافه إلا بصعوبة بالغة . قد يحدث تلقائياً أو عند أقل ضغط على اللثة كما يحدث عند الضغط عليها بالإصبع مثلاً .

إنى لا أريد أن أتحدث إليك كثيراً عن أمراض الدم لأنها نادرة . لكنى أردت أن أشير إليها فقط .

٤
هذه هى البيوريا ! !

أخطار تصنعها لك هذه البيوريا

لا تظن أن فقدك لأسنانك هو كل ما يمكن أن تصنعه لك البيوريا من أخطار ، إن البيوريا قبل أن تفقدك أسنانك وتعرض صحتك كلها للخطر . . فهى تعتبر بؤرة عفنة تنتقل منها العدوى إلى باقى أجزاء الجسم . إن الصديد والمواد المتلوثة التى تصحب البيوريا والتى تخرج من الجيوب إلى الفم لا تبقى فى هذا الفم طويلاً . فسوف تبتعلها مع طعامك الذى تتناوله ومن ثم تصل إلى جهازك الهضمى وتعرضه لأخطار شديدة . صحيح أن هذا الجهاز الهضمى قد يستطيع المقاومة . ولكن هذا لا يحدث دائماً وخصوصاً إذا كان هذا الجهاز الهضمى نفسه مريضاً . إن البيوريا عندئذ تحدث فيه مضاعفات خطيرة .

وهذه المواد المتلوثة من الممكن أن تستنشقها مع الهواء الداخل إلى الرئتين ومن ثم تتعرض إلى الكثير من المضاعفات عندما تصاب بمرض من أمراض الجهاز التنفسى . إنك عندما تصاب بالبرد فإن ذلك المرض قد يمكث يومين ثم يزول تماماً . أما إذا كانت تلك المواد المتلوثة قد وصلت إلى الرئتين فإن ذلك البرد غالباً يصبح شديداً وتطول مدته .

وليس هذا فقط بل إنك عندما تأكل طعاماً يحتاج إلى

مضغ كثير فإن الضغط الذى يحدث بسبب ذلك المضغ سوف يدفع الميكروبات — الموجودة فى الجيوب التى تصحب البيوريا — إلى الدم وبذلك تتعرض صحتك إلى مضاعفات خطيرة بسبب هذه الميكروبات وخصوصاً إذا كنت مريضاً بمرض آخر فى الجسم كما يحدث فى حالة المرضى المصابين فى صمامات القلب كما فى مرض روماتيزم القلب مثلا .

وهذه السموم وتلك المواد المتلوثة قد لا تحتاج دائماً إلى ضغط المضغ الشديد حتى تصل إلى تيار الدم مباشرة . إن هذا الدم نفسه من الممكن أن يمتص فى بطء شديد سموم البيوريا من حول الأسنان وهذا يحدث عادة ليلا ونهاراً ويعرض صحة المريض للخطر كما يحدث عندما تصل هذه السموم إلى المفاصل مثلا أو عندما ينمو عند المريض حساسية خاصة لهذه المواد السامة .

ومع ذلك فإن هذا ليس كل شىء عن البيوريا .

البيوريا ... أنواع

إن البيوريا أنواع ، وهناك نوع ولو أنه نادر إلا أنه كثيراً ما يصيب الفتيات والسيدات فى أجمل سنوات العمر .

ولا تأتى البيوريا فى هذه الحالة من أسباب موضعية توجد فى الفم ولكنها تحدث من أسباب عامة تصيب الجسم كله . إن المصابين بمرض السكر أو نقص الفيتامينات أو أمراض الدم كالأنيميا أو التهابات الكلى يتعرضون للإصابة بهذا النوع من

البيوريا . بل إن أكثر المصابين بهذا النوع من البيوريا هم الفتيات والسيدات متوسطات العمر عندما تحدث لهن اضطرابات هرمونية فى فترات المراهقة أو الحمل أو انقطاع الحيض . إن الفم يكون سليما تماماً . ليس به أى مرض أو أى التهاب . وعند الإصابة بأى مرض من تلك الأمراض التى ذكرتها والتى تصيب الجسم كله تتآكل العظام المحيطة بالأسنان تآكلا شديداً ويحدث تلفاً فى النسيج الرقيق الذى يربط بين تلك العظام وجذور الأسنان يؤدى إلى أن تفقد هذه الأسنان تماسكها وتبدأ فى التحرك من مكانها وخصوصاً الأسنان الأمامية .

لقد فقدت هذه الأسنان العظم الذى كان يجعلها ثابتة فى مكانها .

ومن الغريب أن المريض قد لا يشعر بأى ألم أبداً أو أى التهاب فى اللثة أو أى شكوى إلا أن أسنانه تتحرك من مكانها . وتتباعد كل عن الأخرى وأنه لا يستطيع أن يمضغ على أسنانه وأن أسنانه أصبحت حساسة لأقل ضغط أو لمس مثلاً .

إن الجيوب فى هذا النوع من البيوريا لا تتكون إلا فى الأدوار الأخيرة من المرض وعندما تبدأ فى التكون فإنها تكون سريعة جداً فى ذلك إلى حد قد يثير الدهشة .

ولكن .. هل يقف الطب مكتوف اليدين ؟ أبداً ... أبداً .

إذا كان المرض يستطيع أن يسبب الكثير من المآسى فإن الطب يستطيع أن يخفف هذه المآسى بل إنه يستطيع فى أحيان كثيرة أن يمحو تلك المآسى محواً كاملاً .

كيف تحمى نفسك من البيوريا

إذا كنت غير مصاب بالبيوريا وتريد أن تحمى نفسك منها . لا تتردد فى أن تتبع النصائح التالية :

١ ـ نظافة الفم يجب أن تحظى دائماً بعنايتك الزائدة . استعمل الفرشاة والمعجون عقب كل وجبة من وجبات الطعام وخصوصاً عقب وجبتى الإفطار والعشاء .

٢ ـ إذا لاحظت يوماً أن لثتك ملتهبة أو متورمة قليلاً أو أنها تنزف دماً من حين لآخر لا تنتظر حتى يشتد ذلك الالتهاب . عالج لثتك فوراً .

٣ ـ زيارتك لطبيب الأسنان مرة كل ستة أشهر تعتبر ضرورة لازمة . إنه سوف يبعد الرواسب الجيرية المتراكمة على أسنانك ويعالج لثتك إذا كان أصابها بعض الالتهاب ويقوم لك بالعلاج لأى مرض آخر فيها قبل أن يستفحل ويستعصى عليه .

٤ ـ استعمل استعاضات صناعية لأن كثيرين أصيبوا بالبيوريا نتيجة لإهمالهم عمل الاستعاضات الصناعية اللازمة بدلاً من تلك الأسنان التى خلعوها .

٥ ـ عالج أى مرض يصيبك فى الجسم كله كالسكر مثلاً . فهذا أمر لابد منه حتى تمنع إصابتك بالبيوريا قبل وقوعها أو تخفف من شدة هذا المرض على الأقل .

٥

الرائحة الكريهة للفم

هل تعرف السبب الذى يجعل رائحة الفم كريهة ؟

هل تدرك السبب الذى يجعل الكثير من المرضى — فى كل أنحاء العالم — يضجون بالشكوى من الرائحة النفاذة التى تصدر من أفواههم ؟

لقد كانت سارة برنار — الممثلة الذائعة الصيت — تقاسى ألواناً من العذاب بسبب الرائحة الكريهة التى تصدر من فمها . ووقف كبار الأطباء فى ذلك الوقت حائرين كيف يمكن أن يعرفوا سبب هذه الرائحة النفاذة ؟

أما الآن وبعد أن عملت مئات البحوث والدراسات حول الرائحة الكريهة للفم فنحن لا نقف حائرين بل نشير إلى سبب الداء وأن نحدد الدواء .

إن الهواء الخارج من فم الشخص السليم فى العادة لا رائحة له وإن كانت تصحبه أحياناً نكهة حلوة . ومن المعروف أن رائحة فم الشخص العادى تتغير عدة مرات خلال اليوم الواحد. وقد تكون الرائحة النفاذة التى تصدر من الفم مؤقتة تستمر بضع دقائق فقط أو بضع ساعات وقد تكون مزمنة تستمر شهوراً أو سنوات .

والذى يحدث عادة هو أن الشخص المصاب بالرائحة الكريهة للفم نادراً ما يشعر بهذه الرائحة النفاذة إلا إذا نبهه إلى ذلك المحيطون به . وإن كان هؤلاء فى حاجة إلى كل شجاعتهم حتى يمكن أن يخبروا الشخص المصاب بالرائحة الكريهة التى تصدر من فمه .

وأسباب الرائحة الكريهة ، إما :

١ – أسباب تتعلق بالفم . أو

٢ – أسباب خارجة عن نطاق الفم .

الأسباب التى تتعلق بالفم

إنها أسباب عديدة . وها هى أهمها :

إهمال نظافة الفم

إن فضلات الطعام عندما تتجمع بين الأسنان أو على مطوحها المختلفة أو فى فجوات الضروس المتسوسة تنتج رائحة نفاذة جداً . إن السبب فى ذلك هو ملايين الميكروبات الموجودة فى الفم بصفة مستمرة . إن هذه الميكروبات تعمل على فضلات الطعام منتجة أحماضاً دهنية وكبريتور الإيدروجين فتصبح رائحة الفم كريهة .

التهابات اللثة

إن الالتهاب البسيط فى اللثة قد يكون سبباً فى وجود رائحة نفاذة جداً . هذا الالتهاب عادة يكون مزمناً نتيجة لإهمال نظافة الفم .

الأطقم الصناعية

أصبحت الأطقم الصناعية فى هذه الأيام واسعة الانتشار . وهى تعتبر أحد الأسباب الكبرى التى تسبب الرائحة الكريهة للفم . إن فضلات الطعام هى السبب فى ذلك أيضاً . إن هذه الفضلات تصنع مع لعاب الفم رواسب مخاطية لزجة تتجمع على سطوح الأطقم الصناعية وتتخمر بواسطة ميكروبات الفم منتجة رائحة نفاذة جداً . هذه الرائحة النفاذة تمتصها مسام الأطقم الصناعية وخاصة إذا كانت سيئة فى الصنع فينتج بذلك رائحة كريهة خاصة بالأطقم الصناعية يعرفها جيداً أولئك الذين يستعملون هذه الأطقم .

بعد العمليات الجراحية

لابد أنك سألت نفسك بعد خلع ضرسك ببضع ساعات لماذا أصبحت رائحة الفم كريهة ؟ إن الذى يحدث عادة عقب العمليات الجراحية فى الفم — وخلع الضرس يعتبر عملية جراحية

صغيرة — إن المريض يشعر برائحة فمه الكريهة . بل إن هذه الرائحة النفاذة قد تستمر بضعة أيام . إن السبب فى ذلك هو أن عملية مضغ الطعام العادية تتعطل فى أثناء هذه الأيام . وأيضاً لأن المريض فى العادة لا يستطيع إلا أن يتناول غذاء سائلا أو طعاماً بسيطاً لا يحتاج إلى كل المضغ العادى . فى ذلك الوقت تكثر الميكروبات فى الفم وتقوم بتحليل الدم الذى يتسرب لمكان الخلع مسببة بذلك رائحة كريهة نفاذة . هذه الميكروبات قد تلوث الجلطة التى تتكون عقب عملية الخلع فتسبب بذلك رائحة كريهة تستمر بعض الوقت .

الأسباب الخارجة عن نطاق الفم

هذه الأسباب تجعل رائحة الفم كريهة ومع ذلك فإن مكانها قد يكون بعيداً كلية عن منطقة الفم . وسوف أذكر هنا أهم هذه الأسباب :

(ا) التهاب اللوزتين .
(ب) التهاب الأنف والجيوب الأنفية .
(حـ) أكل البصل والثوم .

التهاب اللوزتين

هذا هو أكثر الأسباب شيوعاً . إن التهاب اللوزتين المزمن

أصبح مرضاً شائعاً بين الناس فى هذا العصر .

والذى يحدث عادة هو أن تتجمع فى جيوب اللوزتين الملتهبتين رواسب ومواد صديدية تجعل رائحة الفم نفاذة جداً . ومما يضاعف هذه الرائحة النفاذة أن يهمل الإنسان نظافة فمه وقت مرضه بالتهاب اللوزتين .

أكل البصل أو الثوم

إن أكل البصل أو الثوم الطازج يسبب رائحة كريهة معروفة .

إن الزيوت الطيارة التى يحتويها البصل أو الثوم والتى تسبب الرائحة الكريهة عقب أكلهما تمتص من القناة الهضمية بواسطة الدم ومن ثم تخرج من الفم فى هواء الزفير عن طريق الرئتين .

تدخين السجاير

أصبح تدخين السجاير هو موضة العصر الحديث . بل لقد أصبحت هذه الموضة الغريبة شائعة بين النساء أيضاً . إن نفس مدمن التدخين يتميز برائحة كريهة خاصة تستمر ساعات طويلة قد تصل إلى أكثر من عشر ساعات .

إنك لابد تذكر هذه الرائحة الكريهة جيداً .

إن تعود المدمن على ابتلاع الدخان أثناء التدخين يضاعف

من الرائحة الكريهة التى تصدر من فمه ومما يساعد على وجود هذه الرائحة النفاذة إهمال المدخن لنظافة فمه .

عسر الهضم

فى المساء . . . فى وجبة العشاء . . . قد يتناول الإنسان طعاماً دسماً ثم ينام مباشرة . وفى الصباح ... سوف يجد عسر الهضم فى انتظاره . سوف يشعر بثقل فى المعدة . . . وغثيان ورائحة كريهة لا تطاق تصدر من فمه قد تستمر بضع ساعات .

ماذا يستطيع المريض أن يفعل ؟

إذا كنت تشكو من الرائحة الكريهة للفم اتبع هذه النصائح :

١ ــ إن نظافة الفم يجب أن تحظى بعنايتك الزائدة . نظف أسنانك جيداً بالفرشاة والمعجون عقب كل وجبة وخاصة عقب وجبتى الإفطار والعشاء . إن الماء والصابون وحدهما لا يكفيان لإبعاد كل فضلات الطعام المتبقية بين الأسنان وعلى سطوحها المختلفة .

حرك فرشاة مبللة على اللسان بضع مرات فى اتجاه واحد إلى الخارج حتى يمكن تنظيفه هو أيضاً .

٢ ــ إذا كنت تستعمل طقماً صناعياً أخرجه من فمك عقب كل وجبة واغسله جيداً بالماء والصابون مستعملاً فرشاة

أسنان خشنة حتى يمكن إبعاد كل فضلات الطعام الملتصقة بالطقم الصناعى . وعند النوم احفظ الطقم — عقب غسله — فى كوب خاص به بعض الماء العادى وبضع قطرات من إحدى المواد التى تستعمل فى مضمضة الفم .

٣ — إذا أجريت عملية جراحية فى فمك أو إذا خلعت إحدى الأسنان استعمل مضمضة خاصة عقب الخلع ببضع ساعات .

٤ — اذهب إلى أخصائى الأسنان إذا ظلت رائحة الفم كريهة .

وإذا لاحظ أخصائى الأسنان أن الرائحة الكريهة لا تصدر من الفم وإنما تصدر من مكان آخر غيره سوف يحيلك إلى أخصائى الأمراض الباطنية أو إلى أخصائى الأذن والأنف والحنجرة أو غيرهما .

٦

صحتك في أسنانك

إني أدعوك إلى القيام بتجربة صغيرة

هل توجد مرآة بجوارك ؟

إذن قم فوراً وافتح فمك قليلا ثم انظر فى هذه المرآة جيداً.

إنى أريد أن أختبر معك كل ما يدور داخل فمك . هل تسمح لى بهذا ؟ !

دقق النظر فى هذا الفم جيداً . . . هل ترى تلك البقع السوداء الراقدة هنا وهناك على أسطح أضراسك ؟

ما رأيك فى لثتك ؟

ألا ترى أنها قد انحسرت قليلا عن أسنانك ؟ ألا ترى أنها ملتهبة شديدة الاحمرار يحيط بها خليط عجيب من الرواسب المختلفة ؟

مد إذن يا عزيزى أحد أصابعك واضغط فى هدوء على حواف هذه اللثة . . . آه . . . أرأيت أن لثتك تنزف دماً . . . إن قطرات من الدم تخرج من هذه اللثة . . . بل . . . أيضاً .. شيئاً كالصديد يخرج من هذه اللثة . . هل تتصور هذا ؟ !

هل تعرف أن كل تلك الأمراض التى تحدث فى ذلك الفم تعرض صحتك كلها للخطر . إن سلطان أمراض

الفم تلك فوق كل سلطان . إن لهذه الأمراض أيادى خبيثة تمتد لتعبث بصحتك كلها دون أن تدرى أو ترى .

ولكن . . . كيف . . . كيف يستطيع ذلك الفم الصغير أن يسبب أمراضاً كثيرة فى الجسم كله ؟ !

هذه هى الحقيقة ! !

إذا كانت لثتك مريضة فإن الصديد وتلك السموم والميكروبات سوف تمتزج جميعاً بطعامك أثناء تناولك له إلى معدتك ثلاث مرات يومياً .

ماذا تظن أن تفعل هذه الميكروبات ؟

هل تظن أنها قد تجمعت لتلهو مثلا ؟

وتستطيع الميكروبات وهى فى طريقها إلى معدتك أن تصيبك بالتهاب فى اللوزتين أو البلعوم أو الأذن الوسطى مثلا . وهى تستطيع أيضاً عندما تستقر فى هذه المعدة بكميات كبيرة أن تسبب لك قرحة فيها .

إن أسنانك المريضة على الرغم من كل هذا تستطيع أن تسبب لك فى جسمك كله عشرات من الأمراض الأخرى .

إن فى لب كل سنة من أسنانك شرايين وأوردة صغيرة . وكل هذه ليست إلا فروعاً لشرايين وأوردة كبيرة موجودة فى الفكين . وهذه بدورها ليست إلا فروعاً لشرايين وأوردة أكبر موجودة فى مناطق عميقة فى الجسم .

إن هذا معناه أن أسنانك وجسمك كله معاً على اتصال وثيق مستمر عن طريق تيار الدم . وأن الميكروبات وسمومها التي تحيط بأسنانك والأنسجة المجاورة لها من الممكن أن تنتقل عن طريق تيار الدم إلى باقى أجزاء جسمك كله الأخرى المختلفة .

إن البؤر العفنة فى فمك من الممكن أن يمتد تأثيرها إلى أعلى فتحدث لك اضطرابات شتى فى عينيك أو فى الجيوب الأنفية مثلا . ومن الممكن أن يمتد تأثيرها إلى أسفل فتحدث التهاباً فى الغشاء المخاطى المبطن للمعدة أو التهاباً فى الزائدة الدودية أو القولون .

بل إن هذه البؤر العفنة تستطيع أن تسبب لك قرحة فى الاثنى عشر أو التهاباً فى الرئتين أو الكليتين أو فى المرارة مثلا .

وقد يمتد تأثير هذه البؤر العفنة إلى جلدك نفسه . لقد ثبت أنه توجد علاقة بين البؤر العفنة فى الفم وبين ما يصيب الجلد من أكزيما أو أرتكاريا أو حب الشباب أيضاً .

وليس هذا فقط بل إن هذه البؤر العفنة فى الفم تستطيع أن تصل إلى قمة المآسى بما تسببه من التهاب فى المفاصل وما يؤدى إليه ذلك من حدوث آلام روماتيزمية حادة تجعل الحياة لا تطاق أبداً .

البؤر العفنة عند مرضى السكر

إن مرضى السكر يجب أن يتنبهوا جيداً إلى كل ما يصيب الفم من أمراض . إن وجود بؤر عدوى داخل هذا الفم يؤدى إلى أن تصبح حالة السكر البسيطة حالة مسيئة .

إن السبب فى ذلك هو أن البؤر العفنة فى الفم تقلل من قدرة الجسم على تمثيل المواد الكربوهيدراتية وبذلك تزيد من نسبة السكر فى الدم وتزيد من كمية الأنسولين التى يحتاج إليها المريض يومياً .

إن الأسنان المصابة بالبيوريا مثلا تساعد على وجود مساحة كبيرة لامتصاص السموم من الفم بواسطة تيار الدم .

ولذلك فإنه فى حالة مرض السكر يعتبر ضرورياً إبعاد الأسنان المريضة بالبيوريا أو التى توجد خراريج فى مؤخرة جذورها . إن ذلك سوف يساعد على تحسن حالة المريض تماماً ويقلل من نسبة السكر فى دمه ويقلل من كمية الأنسولين التى يحتاج إليها يومياً .

البؤر العفنة فى فترة الحمل

إذا وجدت تلك البؤر العفنة فى فم الحامل فإنها قد تزيد من نسبة مضاعفات الحمل سواء تلك التى تحدث فى فترة الحمل أو أثناء الولادة أو فى فترة ما بعد الولادة .

ولذلك فإن الخلع المبكر للأسنان المريضة التى لا تصلح للبقاء فى فم الحامل يعتبر ضرورياً حتى تتجنب الحامل تلك المضاعفات المنتظرة .

إن الخوف من الإجهاض من جراء خلع الأسنان التالفة أصبح الآن لا داعى له إطلاقاً .

البؤر العفنة عند مرضى القلب

إن مرضى روماتيزم القلب يجب أن يعلموا جيداً أن عنايتهم الكاملة بأسنانهم سوف تجنبهم حدوث نتائج خطيرة هم فى غنى عنها .

وعندما يتقرر خلع أحد أسنان مريض بروماتيزم القلب فإنه يجب أن ينبه طبيب الأسنان قبيل ذلك الخلع إلى أنه مصاب حقاً بروماتيزم فى القلب . ذلك حتى يمكن أن يجرى الطبيب كل الاستعدادات اللازمة قبل وبعد ذلك الخلع .

إن تلك الاستعدادات غاية فى البساطة . إنها لا تزيد على تناول كمية من البنسلين أو إحدى مركباته قبل وبعد خلع إحدى الأسنان .

إن عدم تناول ذلك البنسلين يجعل القلب المسكين هدفاً لميكروبات الأسنان التالفة التى تصل إليه عقب الخلع عن طريق تيار الدم فتحدث فيه مضاعفات خطيرة .

والآن . . . ! !

ماذا يجب أن تفعله حيال البؤر العفنة الراقدة داخل فمك ؟

وماذا تنوى أن تفعل لأسنانك المريضة بالبيوريا أو تلك التى تحيط بمؤخرة جذورها خراجاً أو التهاباً مزمناً .

إن محاولة علاج هذه الأسنان أمر لا بد منه وضرورة لا غنى عنها .

ولكن ماذا لو كانت أسنانك تالفة إلى حد لا يرجى معه العلاج ؟ وماذا لو فشلت محاولة علاج هذه الأسنان ؟

إن الحل الوحيد الباقى هو خلع تلك الأسنان التى لا تصلح للبقاء على الفور . . إن هذا الخلع هو الحقيقة الباقية التى يجب أن يفكر فيها جيداً كل أصحاب البؤر العفنة فى الفم الذين يريدون أن يحموا أنفسهم من أمراض فى الجسم هم فى غنى عنها .

وهذه الحقيقة يجب أن يفكر فيها جيداً كل من تقرر إجراء عملية جراحية لهم فى أى جزء من أجزاء الجسم . إن إبعاد البؤر العفنة من الفم قبيل إجراء تلك العمليات الجراحية يحمى الناس سلفاً من مضاعفات قد تحدث لهم عقب إجراء تلك العمليات الجراحية لو لم يبعدوا الأسنان التالفة من الفم مقدماً .

٧
ماذا عن ضرس العقل

ضرس العقل لا علاقة له بالعقل أبداً ! !

بل إن هذا الضرس — ضرس العقل — قد يكون سبباً فى تعكير صفو هذا العقل نفسه بسبب الآلام الهائلة التى قد يسببها .

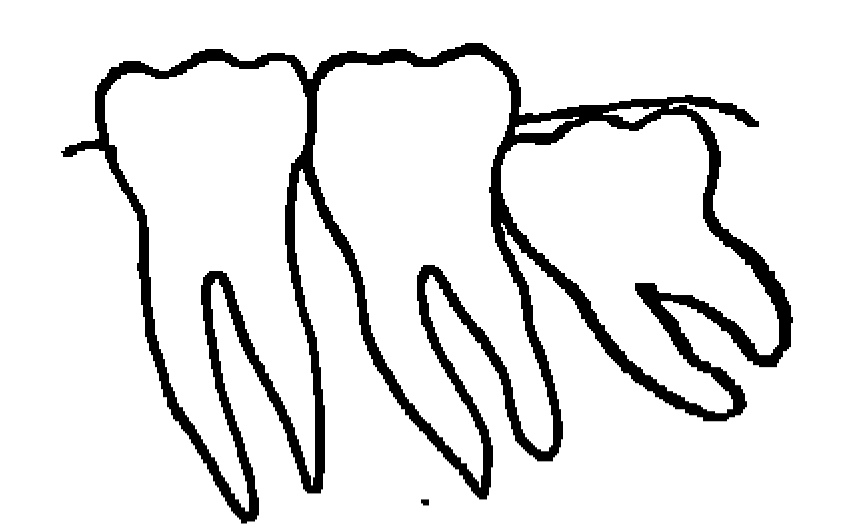
إننا نستطيع أن نخمن لماذا أطلقت جداتنا على ضرس العقل هذه التسمية .

وذلك لأن هذا الضرس يظهر فى الفم من سن السابعة عشرة إلى سن الخامسة والعشرين أى فى سن العقل والشباب .

لقد أصبح ضرس العقل أحد مشاكل شباب هذا العصر من الجنسين .

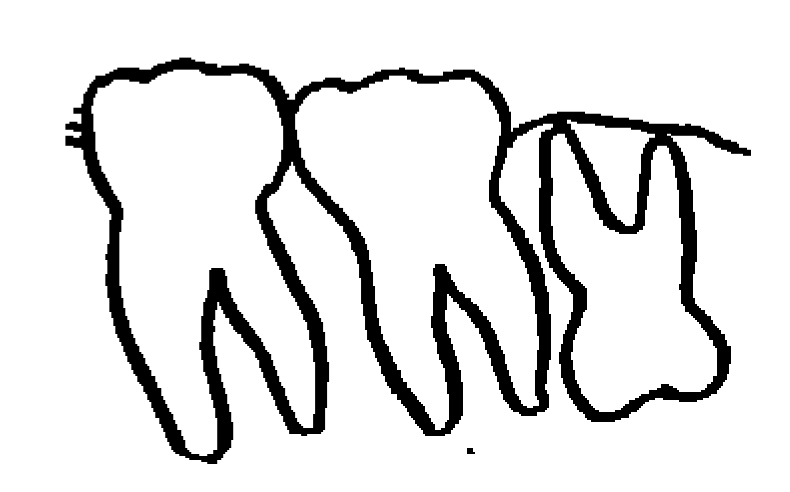
ففى أيام إنسان ما قبل التاريخ لم يكن ضرس العقل يسبب مشاكل لأحد بل إنه كان أقوى الضروس التى اعتمد عليها الإنسان فى طحن الطعام الذى يأكله ليعيش من اللحم النيئ إلى الحبوب الخشنة .

أما الآن فقد تغير كل شىء . ولم يعد فى حاجة إلى أسنان كثيرة أو إلى فك قوى كبير .





بعض الأوضاع المختلفة التى قد يتخذها
ضرس العقل المدفون



وبالتدريج . . . وبعد أن تغيرت عاداتنا . . . ومن خلال التطور الطبيعى صغر حجم الفكين ولم نعد فى حاجة إلى ضروس العقل . إننا لم نعد نستعملها . ولقد نشأ عن ذلك مشكلة كبيرة . إن ضروس العقل ما زالت تنمو عند بعض الناس . فى الوقت الذى أصبح فيه الفك صغيراً . ليس به أى مكان يظهر فيه ضرس العقل . وبذلك ظل ضرس العقل مدفوناً فى عظام الفك . إن هذا الضرس المدفون أصبح يعانى من استحالة ميكانيكية لا تمكنه من الظهور فى الفك فى الوضع الطبيعى .

ولكن . . . هل يستطيع ذلك أن يفسر كل الحالات التى تشكو من ضرس العقل المدفون ؟

أبداً . . .

إن الوراثة أيضاً قد تكون سبباً فى الاستحالة الميكانيكية التى تجعل ضرس العقل مدفوناً فى الفك . إن الإنسان قد يرث عن والدته فكاً صغيراً كما يرث أنفاً دقيقاً مثلاً ولكنه قد يرث عن والده أسناناً كبيرة بالنسبة إلى ذلك الفك الصغير . وعندما يأتى دور ضرس العقل فى الظهور فى الفم — وهو آخر ما يظهر من الضروس — لا يجد مكاناً فى الفك ليظهر فيه . لقد أصبح هنا أيضاً استحالة ميكانيكية تمنع ضرس العقل من الظهور فيظل مدفوناً فى عظام الفك .

وهذا هو سر المتاعب التى يسببها ضرس العقل لشباب هذا العصر .

ضروس العقل . . . أنواع

إن كل الظروف قد جعلت ضرس العقل أشبه ما يكون بالأعجوبة فى الفم .

إننا قد نقابل بعض الناس ضروس العقل عندهم كاملة العدد وفى وضع طبيعى : اثنان فى الفك العلوى واثنان فى الفك السفلى ، واحد إلى اليمين وواحد إلى اليسار فى نهاية كل فك .

وقد نقابل بعض الناس ليس عندهم ضروس عقل بالمرة .

وبين هؤلاء وأولئك فإننا نشاهد سلسلة طويلة من ضروس العقل .

إننا قد نجد ضرس العقل مدفوناً تماماً فى الفك ومغطى بطبقة كثيفة من العظم ، وقد نجد ضرس عقل مدفوناً جزئيا فى الفك وجزءاً منه فقط غير مغطى بالعظم ولكنه مغطى بقطعة رخوة من نسيج اللثة .

وضرس العقل المدفون قد يأخذ أوضاعاً غريبة فى الفك . إنه قد ينحنى نحو الضرس المجاور وقد ينحنى بعيداً عنه . قد يوجد عمودياً فى الفك وقد يوجد أفقياً أيضاً ، بل إنه يوجد مقلوباً رأساً على عقب .

أما ضرس العقل العلوى فقد يذهب بعيداً ويدخل جزء من جذوره فى الكهف العظمى المجاور للأنف بل إنه فى حالات أخرى نادرة قد يذهب أبعد من ذلك ويستقر أسفل العين .

ومن المعروف أن ضرس العقل فى الفلك السفلى له جذران وضرس العقل فى الفلك العلوي له ثلاثة جذور . وبرغم ذلك فإن جذور كل ضرس قد تلتحم وتصبح جذراً واحداً فقط ، بل إن هذه الجذور قد تتعدد وتصل إلى ستة جذور أو أكثر . وليس هذا فقط بل إن حجم وشكل ضروس العقل تتعدد هى أيضاً . إن ضرس العقل قد يكون صغيراً جداً فى حجم سنة صغيرة لطفل رضيع وقد يكون ضخماً جداً مثيراً للدهشة .

بل إنه من الغريب أحياناً أننا نجد ضرس عقل كامل النمو فى عظم الفلك وعنده الفرصة كاملة للظهور وبرغم ذلك لا يظهر فى الفم أبداً .

إن هذا ليس إلا جزءاً من التطور الطبيعى الذى يجعل الإنسان الحديث لا يحتاج إلى ضروس العقل بالمرة .

عند ما يسبب ضرس العقل التهاباً

إن أول ما ينبه الإنسان إلى وجود ضرس العقل قد يكون هو الالتهاب الحاد الذى يسببه ذلك الضرس . إن ضرس العقل قد يكون غير مدفون تماماً فى عظم الفلك . جزء منه غير مغطى بأى عظم بل مغطى بقطعة رخوة من نسيج اللثة فقط . وبين نسيج اللثة هذا وبين الضرس يوجد تجويف صغير . . . جيب . . . هذا الجيب هو نقطة البدء فى الالتهاب الشديد الذى يسببه ضرس العقل. إن ميكروبات الفم تتجمع وتتكاثر فى هذا الجيب.

إن كل الظروف مواتية لهذا التجمع وهذا التكاثر للميكروبات . إن فضلات الطعام التى تملأ هذا الجيب تقدم الغذاء الشهى للميكروبات . والسخونة والظلام والبلل فى هذا الجيب تهيئ الجو المناسب للميكروبات لوجود الالتهاب الحاد الذى يسبب عشرات المتاعب للمريض .

ويبدأ المريض فى الشكوى . ألم شديد فى منطقة ضرس العقل . ورم أخذ ينمو فى هذه المنطقة تدريجياً . إن المريض أصبح لا يستطيع أن يفتح أو يغلق فمه بسهولة ، بل إنه لا يستطيع أن يبلع الطعام الذى يأكله . وقد بدأت رائحة كريهة تصدر من فمه وبدأت الحمى تنتابه والتعب والإعياء يسيطران عليه .

أيكون كل ذلك بسبب هذا الضرس الملعون ؟

نعم . . . إن كل ذلك بسبب ضرس العقل بل إن هذا الضرس قد يفعل أكثر من ذلك .

الآلام الشديدة التى يسببها ضرس العقل

ضرس العقل المدفون فى الفك السفلى مثلا قد يكون سبباً فى آلام شديدة جداً للمريض . إن عصب الفك يوجد أسفل الضرس المدفون . ولذلك فإن هذا الضرس قد يضغط على عصب الفك ويسبب هذه الآلام الشديدة . بل إن هذه الآلام لا توجد فى المنطقة التى يمدها عصب الفك فقط . ولكن توجد أيضاً فى ضروس الفك العلوى أو فى الأذن أو فى العين مثلاً فى نفس

الجانب من الوجه .

إن ضرس العقل يصبح البؤرة التى توزع الآلام على منطقة كبيرة من رأس المريض . هذه الآلام ليست دائماً شديدة بل إنها أحياناً تكون بسيطة وقد تكون مستمرة أو قد تأتى على فترات .

وضرس العقل المنحنى نحو الضرس المجاور قد يسبب آلاماً شديدة . إنه قد يضغط على الضرس المجاور ويسبب تآكل جزء كبير منه أو قد يجعل التسوس يتغلغل فى الضرس المجاور نتيجة لتجمع الميكروبات وفضلات الطعام فى هذه المنطقة . وفى كلا الحالتين فإن عصب الضرس المجاور قد ينكشف ويسبب آلاماً هائلة للمريض .

إن خلع ضرس العقل فى هذه الحالة لا يشفى المريض تماماً من الآلام ، بل قد يحتاج إلى خلع الضرس المجاور أيضاً .
ماذا يصنع ضرس العقل أيضاً ؟

إن ضرس العقل المدفون يسبب آلاماً هائلة أو التهاباً شديداً ، أو يسبب تلفاً فى الضرس المجاور فقط . بل قد يتسبب فى التهاب اللوزتين أيضاً .

وكذلك فإن نفس هذا الالتهاب أيضاً قد يمتد إلى أسفل إلى الجزء العلوى من العنق ويسبب التهاباً وورماً به وقد يصل ذلك إلى تكوين خراج فى هذه المنطقة .

وأحياناً قد يتكون خراج فى مؤخرة جذور ضرس العقل المدفون وخاصة إذا كان هذا الضرس قد أصابه التسوس .

وفى حالات أخرى ليست بالقليلة فإن الالتهاب فى منطقة ضرس العقل قد يمتد إلى عظم الفك نفسه ويسبب التهاباً شديداً فيه قد ينتهى بحدوث تآكل فى جزء كبير من هذا الفك .

وليس هذا فقط بل قد يمتد الالتهاب المحيط بهذا الضرس إلى البلعوم أو إلى الأذن مثلاً .

بل إن تأثير ضرس العقل المدفون قد يصل إلى العين أيضاً . إنه قد يؤدى إلى حدوث آلام شديدة فيهاأو إلى إضعاف البصر نفسه . وفى حالات أخرى نادرة قد يؤدى إلى حدوث العمى الكامل .

وكذلك فإن ضرس العقل المدفون يعتبر بؤرة تنتقل منها العدوى إلى مختلف أجزاء جسم المريض .

طريق العلاج للمريض

إن ضرس العقل يعتبر قطعة من جسدك الحى ولذلك فلا تظن أن كل ضرس عقل يجب خلعه . إن الخلع لا يحدث دائماً . إننا أحياناً نحافظ على ضرس العقل بكل السبل . إن ذلك يحدث عندما يكون ضرس العقل فى وضع طبيعى فى الفك . يجب أن نعامله كأى ضرس آخر . إذا أصابه أى شىء نسرع إلى معالجته .

وذلك لأن هذا الضرس – ضرس العقل – قد يصبح يوماً غاية الأهمية للمريض . وذلك عندما يحتاج إلى عمل استعاضة صناعية بعد خلع الضرس أو الضرسين المجاورين لضرس العقل . إننا فى هذه الحالة نعتمد على ضرس العقل اعتماداً كبيراً لحمل الاستعاضة الصناعية .

إن خلع ضرس العقل يحدث فقط عندما يكون التسوس متغلغلا فيه إلى العصب .

وعندما يسبب ضرس العقل المدفون التهاباً حاداً فى المنطقة المحيطة به فإننا لا نفعل شيئاً إلا محاولة تهدئة هذا الالتهاب ثم نقوم بخلع ضرس العقل بعد ذلك . إن خلع ضرس العقل فى وجود الالتهاب الحاد يعرض المريض لمضاعفات لا حد لها ، ولذلك فإن الانتظار بضعة أيام حتى يهدأ الالتهاب الحاد هو خير علاج .

إلا أنه أحياناً و بعد أن يهدأ الالتهاب قد لا نخلع ضرس العقل بل نكتفى بإبعاد الجزء الرخو من نسيج اللثة الذى يمنعه من الظهور .

وفى أحيان أخرى كثيرة يكون علاج الالتهاب الحاد المحيط بضرس العقل فى الفك السفلى بخلع ضرس العقل العلوى المقابل له فوراً .

هل تتصور هذا ؟ إن السبب بسيط . إن الضرس العلوى يعتبر هو العامل المهيج للالتهاب الذى يصيب اللثة المغطية لضرس العقل السفلى . وذلك بسبب الاحتكاك المستمر الذى

يحدثه ضرس العقل العلوى مما يسبب التهاب اللثة المغطية لضرس العقل السفلى .

وعندما يكون ضرس العقل مدفوناً تماماً فى الفك فإننا لا نخلعه دائماً من مكانه . ذلك لأنه أحياناً يكون ضرس العقل مدفوناً فى الفك وبرغم ذلك فإن المريض فى صحة جيدة ولا يشكو من أى شىء أبداً .

أما ضرس العقل المدفون الذى يسبب مثلا آلاماً للمريض فإننا نخلعه دون إبطاء حتى نستطيع إنقاذ المريض من الآلام التى يشكو منها .

إننا نسمى خلع ضرس العقل خلعاً جراحياً . لا تجعل الخوف يتسرب إلى نفسك بسبب هذه الكلمات . إن المسألة غاية فى البساطة . إن أخصائى جراحة الفم فى البداية يضع خطة لخلع ضرس العقل المدفون . إن وجود هذه الخطة السليمة هو الذى يمكن جراح الفم فى النهاية من إبعاد الضرس المدفون وإراحة المريض منه نهائياً . إن خلع ضرس العقل المدفون قد يثير دهشتك أحياناً . إن جراح الفم قد يلجأ إلى تقسيم الضرس المدفون إلى أقسام وخلع كل قسم منفصلا عن الآخر . وقد يكون هذا التقسيم عمودياً يقسم الضرس إلى قسمين ، وقد يكون أفقياً عند عنق الضرس ثم تفصل الجذور كل عن الآخر وتبعد واحداً وراء الآخر .

والآن . . . أرأيت المتاعب التى يحدثها ضرس العقل لشباب هذا العصر ؟

٨

وجع الأسنان

هل جربت وجع الأسنان ؟

هل سهرت الليالى لم يغمض لك جفن بسبب آلام أسنانك؟

إن الناس جميعاً لا يملون الحديث أبداً عن آلام أسنانهم . كيف حدثت لهم ؟ متى بدأت ؟ كم استمرت هذه الآلام ؟ !

إنهم يقاسون كثيراً من وجع الأسنان ولا تمر فترة واحدة من فترات حياة كل منهم إلا ويشكو طويلا من أسنانه ويصرخ متوجعاً من آلام هذه الأسنان . ذلك لأن آلام الأسنان تعد من أبشع أنواع الآلام التى تصيب الإنسان . إنها تجعل أكثر الناس رزانة ووقاراً يصرخ ويولول كطفل صغير . إنها لا تمكنه أبداً من الأكل أو الشرب ،ولا تسمح له بالكلام أو النوم، ولا تتيح له فرصة للعمل أو حتى بضع لحظات فى هدوء .

ولكن يجب ألا تظن أن آلام الأسنان دائماً شديدة . إن قدرة الناس على تحمل هذه الآلام تختلف من شخص إلى آخر . وما يستطيع أن يتحمله شاب يافع قد لا تستطيع أن تتحمله فتاة صغيرة . إن هذه الآلام أشكال وألوان . إنها قد تكون بسيطة وقد تكون حادة شديدة . قد تستمر ليلاً ونهاراً

وقد تأتى من حين لآخر . . . على فترات — قد تصيبك أثناء الأكل أو بعد الأكل وقد تزداد وأنت مستيقظ بالنهار أو عندما تبدأ فى النوم . . . بالليل . بل إن آلام الأسنان قد تصبح شديدة عندما تضع فى فمك قطعة من الحلوى أو ترشف فنجاناً من القهوة الساخنة أو كوباً من الشاى المثلج مثلا .

ولكن . . . ما هى أسباب آلام الأسنان ؟

إن هذه الآلام فى أحيان كثيرة تعتبر دقة الناقوس التى تنبه بعض الناس إلى أن أسنانهم فى خطر . إن أسباب آلام الأسنان كثيرة ولكنى سوف أذكر لك هنا أكثر أسباب هذه الآلام انتشاراً بين الناس .

تسوس الأسنان

إنه ما يكاد يهاجم ميناء تلك الأسنان ويصل إلى الطبقة التالية لذلك الميناء إلا وتبدأ أنت فى الشكوى . لقد أصبح ضرسك يسبب لك ألواناً من الآلام وخصوصاً عندما تضع فى فمك قطعة من الحلوى أو تتناول طعاماً أو شراباً ساخناً أو بارداً . إن عصب الضرس يصبح حساساً جداً . لقد تفتت ميناء الأسنان وتهدمت تلك الطبقة العازلة التى تحمى عصب الضرس فلم يجد ذلك العصب بداً بسبب كل هذه الإثارة — من أن يسبب لك الكثير من الآلام .

وفى أحيان كثيرة قد يتغلغل التسوس فى الضرس إلى أن

يصل إلى العصب نفسه . إن الآلام حينئذ لا تطاق أبداً ولن تسمح لك بالنوم بالمرة . بل إن وضعك على السرير عند النوم قد يزيد من أوجاعك وآلامك .

هل تظن أن تسوس الأسنان سوف يقف عند هذا الحد ؟ أبداً . . . أبداً . . . إن الميكروبات والمواد المتلوثة سوف تنطلق من خلال جذور الضرس المصاب إلى الأنسجة المحيطة بمؤخرة هذه الجذور وتسبب التهابها .

بل إن ورماً سوف يتكون فى المنطقة المحيطة بذلك الضرس. وقد ينتشر ذلك الورم فى كل الأنسجة الناعمة المحيطة به. بل إنه قد يصل ذلك الورم إلى العنق نفسه .

لقد تكون صديد فى المنطقة المحيطة بمؤخرة جذور الضرس المصاب . وهذا الصديد يسبب ضغطاً مستمراً شديداً يريد أن يصنع لنفسه فتحة يخرج منها إلى منطقة واسعة كالفم مثلا . وإلى أن يفعل ذلك سوف تعيش نهباً للآلام بسبب ذلك التسوس الراقد فى أسنانك .

تغييرات العمر

عندما يمضى بك العمر فإن أسنانك سوف تخضع لظروف كثيرة. إن ميناء الأسنان تتآكل رويداً رويداً ـ بمضى الزمن ـ لأسباب ميكانيكية طبيعية أثناء تناولك لطعامك . إن تعودك على تناول أطعمة صلبة خشنة سوف يجعل أسطح المضغ فى أسنانك تتآكل

تدريجياً ولذلك فإن ميناء الأسنان فى أحيان كثيرة لا تتآكل وحدها فقط ، بل إن ذلك التآكل قد يمتد أيضاً إلى العاج .

. . . وكلما مضى بك العمر سوف تنحسر اللثة تدريجياً عن جذور الأسنان وسوف تنكشف هذه الجذور الحساسة وتتعرض لتغييرات الحرارة فى طعامك أو لتيارات الهواء الباردة التى تدخل فمك . إن الآلام سوف تنتشر فى أسنانك حينئذ على الفور . إن انحسار اللثة هذا وكشف جذور أسنانك ليس إلا ضريبة الزمن .

التهابات اللثة

التهابات اللثة تحدث كثيراً بين الناس . إن الالتهاب البسيط فى اللثة آلامه طفيفة جداً قد لا تذكر أبداً . ولكن هناك نوعاً آخر من التهابات اللثة عندما يكون حاداً يسبب للمريض آلاماً لا يمكن أن تنسى أبداً . يصحب هذا النوع من الالتهاب فى اللثة قروح ونزيف ورائحة كريهة تصدر من الفم. إن لثة المصاب تصبح شديدة الحساسية لأقل لمسة أو للطعام الحريف .

البيوريا

إن المصابين بالبيوريا يقاسون من آلامها كثيراً . إن اللثة عادة تنحسر عن جذور أسنانهم ولذلك فإنه ما يكاد أحدهم

يضع قطعة من الحلوى فى فمه أو يتناول طعاماً أو شراباً ساخناً أو بارداً إلا وتهاجمه الآلام من كل جانب من جوانب أسنانه . ذلك لأن جذور الأسنان حساسة للتغيرات فى الحرارة والمواد الحلوة والمالحة أيضاً . وليس هذا فقط بل إن المصابين بالبيوريا لا يستطيعون المضغ على أسنانهم بسهولة أبداً . إن ذلك المضغ سوف يسبب لهم آلاماً مبرحة وخصوصاً عندما يدفع ذلك المضغ فضلات الطعام ويجعلها تتجمع فى الجيوب التى تحدثها البيوريا . إن الآلام عندئذ تصبح لا تطاق .

آلام ضرس العقل المدفون

ضرس العقل عادة تصادفه صعوبات كثيرة أثناء محاولته الظهور فى الفك . إنه يعانى من استحالة ميكانيكية لا تمكنه من الظهور فى الوضع الطبيعي فى ذلك الفك . لذلك فإنه يظل مدفوناً فى عظام الفك مسبباً ألواناً من الآلام التى لا تطاق أبداً . إنه قد يسبب التهاباً فى الجزء الرخو من نسيج اللثة الذى يغطيه . وقد يضغط على الضرس المجاور ويسبب تآكلا شديداً أو تسوساً فيه . بل إنه قد يؤدى إلى كشف عصب ذلك الضرس المجاور نفسه .

وضرس العقل أيضاً إذا كان مدفوناً فى عظام الفك السفلى قد يضغط على عصب الفك الراقد أسفله ويسبب آلاماً مبرحة

تجعل المريض يصرخ صراخاً مستمراً من شدة تلك الآلام التى يسببها ذلك الضرس المدفون .

عندما تكون أسنانك غير منتظمة

بعض الناس يعانون بسبب عدم انتظام أسنانهم فى أوضاع طبيعية فى الفكين . إن الضغوط المستمرة من أسنان الفك العلوى على أسنان الفك السفلى هى السبب فى تلك الآلام التى يعانى منها هؤلاء الناس. إن عدم انتظام أسنانهم سوف يجعل ضغوط أسنان الفك العلوى على أسنان الفك السفلى غير موزعة توزيعاً عادلا .

إن ذلك سوف يجعل بعض الأسنان هدفاً لضغوط تزيد كثيراً عن قوة احتمالها . ولذلك وبمرور الزمن يتمزق النسيج الرقيق الذى يثبت هذه الأسنان فى أماكنها بل سوف يتآكل العظم المحيط بتلك الأسنان فى الفك . وخلال ذلك كله يكون المريض نهباً لآلام شتى مستمرة .

عند ما توجه ضربة إلى أسنانك

عندما توجه ضربة مباشرة إلى أسنانك فإن آلاماً شتى سوف تكون غالباً فى انتظارك . إن أسنانك الأمامية هى أكثر الأسنان تعرضاً للضربات والصدمات .

إن الآلام الناتجة من تلك الضربات والصدمات سوف تزداد كثيراً عند محاولتك استعمال هذه الأسنان فى الأكل مثلا.

إن تلك الأسنان سوف تصبح حساسة جداً وخصوصاً إذا كسر جزء كبير من السنة المصابة أو إذا كشف عصب تلك السنة مثلا أو إذا تمزق النسيج الذى يربط بين جذور تلك السنة والعظام المحيطة بها فى الفك .

حاول دائماً ألا تعرض أسنانك لتلك الضربات والصدمات حتى يمكن أن تتلافى آلاماً مبرحة أنت فى غنى عنها .

بعد أن تخلع ضرسك

قد تخلع ضرسك الذى يسبب لك الآلام ومع ذلك فإن هذه الآلام قد لا تتوقف أبداً . والسبب هو أن الجرح الناتج من خلع الضرس يتلوث أحياناً بميكروبات وتتفتت الجلطة الدموية التى تكونت فى الجرح عقب خلع ذلك الضرس . مما يسبب لك آلاماً شديدة قد تجعلك تظن أن جزءاً من ضرسك لا يزال باقياً فى الفك .

كيف توقف وجع الأسنان ؟

قد لا تستطيع دائماً أن تذهب إلى طبيب الأسنان مباشرة عندما يهاجمك وجع الأسنان . فإليك بعض النصائح التى تستطيع أن تستعين بها إلى أن يمكنك التوجه إلى الطبيب :

١ ــ مضمض فمك جيداً بالماء الدافئ بضع مرات حتى يمكن أن تبعد كل فضلات الطعام من فجوة ذلك الضرس

المتسوس ، ثم ضع فى تلك الفجوة قطعة صغيرة من القطن بعد أن تغمسها فى زيت القرنفل .

٢ ـ وإذا لم يهدأ الألم ابتلع قرصاً من أحد المسكنات . ولكن لا تستعمل الإسبرين أبداً موضعياً فى الفم . إن فعلت ذلك سوف يحرق ذلك الإسبرين الأنسجة الناعمة فى الفم ويسبب لك متاعب شتى .

٣ ـ استعمال مضمضة أو مكمدات ساخنة أو باردة يساعد أحياناً على إيقاف وجع الأسنان . إن الطريقة المثلى هى استعمال المضمضة بماء ساخن ومكمدات ثلج أو ماء بارد على الوجه ناحية الضرس المصاب . وإذا كانت المكمدات الساخنة هى الشىء الوحيد الذى يوقف الآلام استعملها مؤقتاً ولكن اذهب إلى طبيب الأسنان سريعاً حتى يحدد لك العلاج المناسب.

٤ ـ إذا هاجمتك آلام الأسنان عند النوم فغالباً ما يكون السبب فى ذلك هو وضعك الأفقى أثناء هذا النوم . ضع وسادة أخرى عالية تحت رأسك وتناول إن احتجت قرصاً من أحد المسكنات.

٥ ـ إذا توقفت آلام أسنانك لا تظن أن كل شىء قد انتهى وأنه لا ضرورة للذهاب إلى الطبيب . إن توقف آلام أسنانك سيكون مؤقتاً فقط لأن سبب هذه الآلام لا يزال رابضاً فى فمك . لا تستعمل مزيداً من المسكنات ولكن عالج المرض فى أسنانك قبل أن يعاودك وجع الأسنان من جديد .

٩

حشو أسنانك

كيف يبعد الطبيب التسوس عن ضرسك ؟

إن الطبيب سوف يظل يبعد التسوس من ضرسك حتى يصل إلى مناطق خالية تماماً من هذا التسوس . وذلك حتى يقطع الطبيب طريق العودة على هذا التسوس و يمنعه من الحدوث مرة أخرى .

وليس هذا فقط بل إن الطبيب يراعى دائماً فى صنع الفجوة فى ضرسك نوع الحشو الذى سوف يستعمله لهذا الضرس . وذلك حتى يمكن أن يظل الحشو ثابتاً فى مكانه فى الضرس ويعمل الحشو والضرس معاً كوحدة واحدة يتحملان كل الضغوط التى تقع عليها أثناء مضغ الطعام يومياً .

وفى خلال ذلك كله لا ينسى الطبيب أنه يجب أن يحافظ على لب الضرس حتى يظل ضرسك بعيداً عن المشاكل فيما بعد.

ولهذا فإن الطبيب قد لا يبعد كل التسوس من ضرسك دفعة واحدة. إنه قد لا يبعد إلا الأجزاء السطحية فقط ، و بعد يوم أو يومين أو حتى بعد بضعة أيام سوف يهدأ عصب الضرس وتسكن آلامه وعندئذ يستطيع الطبيب أن يواصل إبعاد بقية التسوس عن ضرسك تمهيداً لحشوه .

حشو أسنانك ! !

عشرات العوامل سوف تلعب كل منها ضد الأخرى عندما يبدأ الطبيب فى اختيار الحشو المناسب لأسنانك .

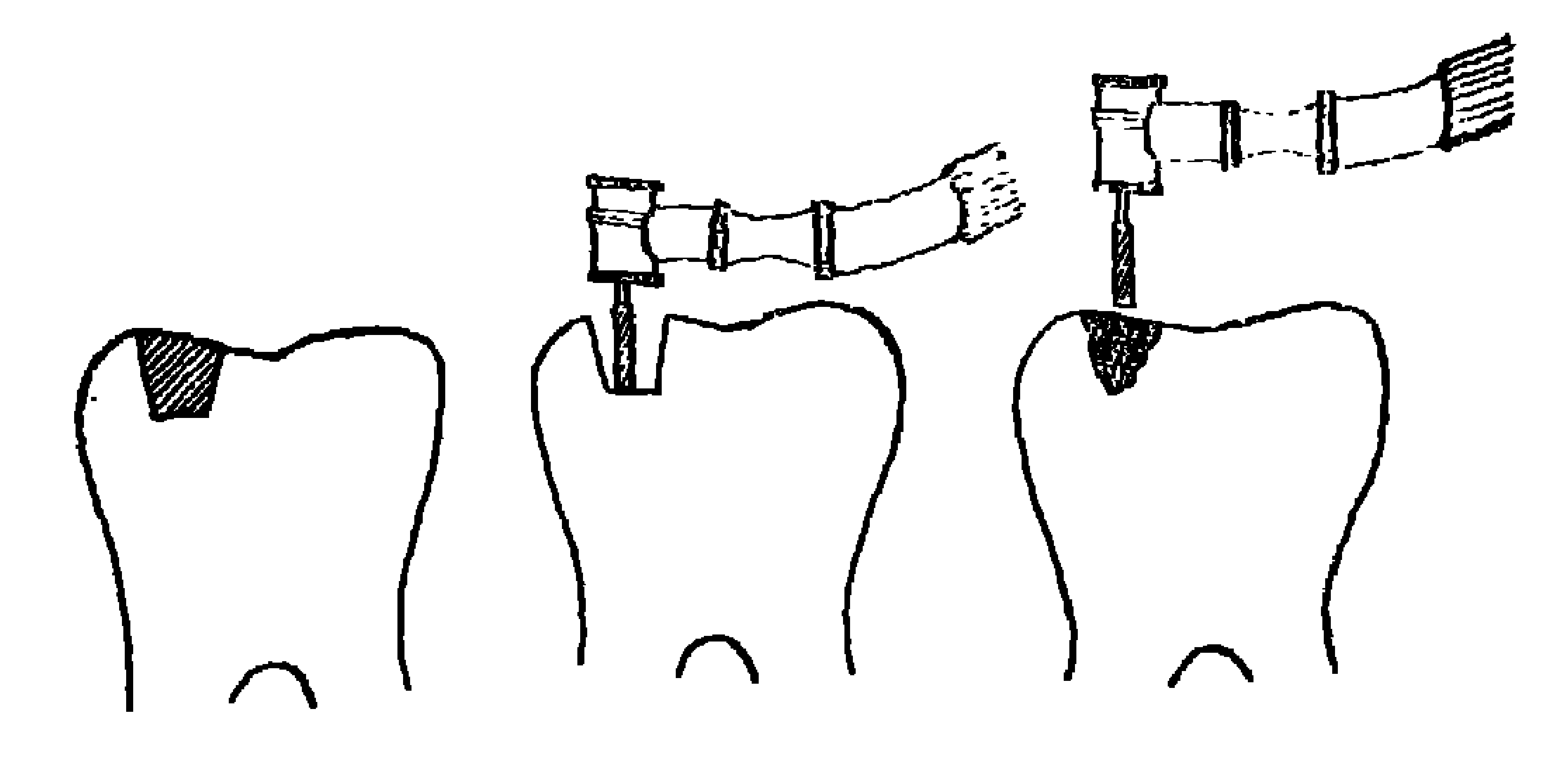
إنك سوف تصمم على أن يكون حشو أسنانك الأمامية يشابه تماماً لون هذه الأسنان . . أليس كذلك ؟

إنك تقول إن شكل هذه الأسنان يعتبر جزءاً مكملا لشكل الوجه كله ولذلك فإن أى حشو ليس له اللون الطبيعى للأسنان الأمامية سوف يصبح ملحوظاً للناس جميعاً وسوف يسبب لى مضايقات شتى وأنا فى غنى عنها .

إن طب الأسنان يا صديقى العزيز قد وفر لك الحشو الذى تبحث عنه ذا اللون المناسب لأسنانك الأمامية .

إن هذا الحشو قد يكون مثلا فى صورة كتلة من صب الصينى (البورسلين) لونها يشبه لون أسنانك الأمامية تماماً بحيث يصعب على أى شخص أن يكتشف أن هناك حشواً فى أحد هذه الأسنان الأمامية .

وقد يكون هذا الحشو فى صورة عجينة خاصة تصنع من مسحوق أبيض ومحلول خاص يضاف كل منهما للآخر تمهيداً لحشو أحد أسنانك الأمامية بهذه العجينة التى سوف تعطى لك فى النهاية حشواً أبيض جميلا يبعث السرور إلى نفسك والهدوء إلى قلبك .



إبعاد التسوس | إعداد الفجوة فى الضرس لاستقبال الحشو المناسب | الحشو بعد وضعه فى الضرس

خطوات إبعاد التسوس من الضرس تمهيداً لحشوه بالحشو المناسب

أما فى حالة ضروس المنطقة الخلفية من فلك فإن الأمر سوف يختلف تماماً . إن كل ما يعنينا هو أن يكون حشو هذه الضروس متيناً جداً حتى يستطيع أن يتحمل ضغط مضغ الطعام عليه سنوات طويلة .

إن « الأملجم » هو أوسع أنواع حشو الضروس انتشاراً . إن الناس تسمى هذا الحشو « بلاتين » إن هذا الحشو فى لون الفضة ويتكون من سبيكة من الزئبق والفضة وبضعة معادن أخرى . تخرج مكونات هذه السبيكة معاً حتى تصبح متوسطة الصلابة ثم توضع فى فجوة الضرس بعد إعدادها — ويترك الحشو حتى يتصلب تماماً .

ولذلك فيجب ألا تمضغ لمدة أربع وعشرين ساعة كاملة على جانب الفم الذى يوجد به هذا الحشو حتى يمكن أن يتصلب الحشو تماماً ويصبح متماسكاً متيناً .

وفى أحيان أخرى قد يفضل حشو الضروس الخلفية بالذهب سواء كان هذا الذهب فى صورة حشو أم فى صورة كتلة من الذهب الصب فى شكل فجوة الضرس المتسوس بعد إعدادها .

إن ذلك الذهب ذو قدرة كبيرة على تحمل ضغوط مضع الطعام خصوصاً عندما تكون الفجوة فى الضرس كبيرة إلى حد أن يصبح «الأملجم» غير صالح لحشو هذا النوع من الفجوات .

وقبل أن يضع الطبيب فى ضرسك أياً من هذه الحشوات المعدنية فإنه لا ينسى أبداً — خصوصاً إذا كانت الفجوة فى ضرسك عميقة — أن يضع فى قاع الضرس طبقة عازلة من مادة خاصة تمنع وصول الحرارة أو البرودة إلى عصب الضرس فيما بعد. ذلك لأن الذهب والأملجم موصلان جيدان للحرارة وسوف يسببان اضطرابات شديدة فى لب الضرس إذا لم يوضع فى قاع ذلك الضرس هذه الطبقة العازلة منذ البداية .

ماذا عن حشو جذور الأسنان ؟

لا تظن أن الحشو لا يستعمل إلا لملء الفجوة التى سببها التسوس فى ضرسك . إن هذا الضرس قد يحتاج إلى حشو جذوره

أيضاً . . إن ذلك يحدث عندما يسبب التسوس التهاباً شديداً في لب الضرس أو عندما يودع هذا اللب الحياة بسبب التسوس القادم نحوه أو عندما يكون هذا التسوس عميقاً إلى حد أن يصل إلى لب الضرس ويلوثه فعلا .

إن إبعاد هذا اللب من ضرسك يصبح أمراً ضرورياً .

إن الذي يحدث عادة هو أن الطبيب يبعد لب الضرس من القنوات التي تتخلل جذور هذا الضرس وينظف هذه القنوات تماماً من كل محتوياتها تمهيداً لوضع حشو خاص تملأ به هذه القنوات .

إن كل ما نريده هو أن تبقى وظيفة الضرس الأساسية وهي قدرته على مضغ الطعام وتحمل ضغوط هذا المضغ .

وفي أحيان أخرى كثيرة قد تمتد المواد المتلوثة من لب الضرس وتذهب إلى العظام المحيطة بمؤخرة جذور الضرس وتحدث تآكلا فيها .

إن الطبيب يستطيع ــ خصوصاً في الأسنان الأمامية ذات الجذر الواحد ــ أن يبعد هذه العظام المريضة المتآكلة وكذلك يبعد جزءاً صغيراً من مؤخرة جذر السنة وذلك بعد أن يزيل لب هذه السنة ويضع حشواً خاصاً في قناة جذرها .

إنه يفعل كل ذلك لكي تظل أسنانك الأمامية باقية في فمك تعطي لشكلك طبيعته ولابتسامتك جمالها .

١٠
لماذا تخلع الناس أسنانها ؟

الطابور الطويل الذى يقف أمام قسم الخلع بكلية طب الأسنان يثير يومياً ابتسامتى . . عشرات من الناس . . . خليط عجيب من الناس . . يتدافعون . . . وكل منهم يمسك قلبه بيده ويريد أن يسبق الآخر فى التخلص من أسنانه التالفة .

إن الذى يثير ابتسامتى حقاً هو أن كلاً من هؤلاء المرضى يظن . . — وهو مقبل على خلع إحدى أسنانه — أنه يتمتع بقدر كبير من الشجاعة النادرة .

ولم لا ؟ ! . . .

أليس هو مقبل على فقد ضرس عزيز عليه . . عاش داخل فمه سنوات طويلة يمضغ عليه طعامه ثلاث مرات يومياً ؟ !

وأليس فى استسلامه لطبيب الأسنان أثناء خلع ذلك الضرس قد يعرضه للكثير من الأوجاع والآلام ؟

وأليس فقده لذلك الضرس يعنى أنه قد انسحب نهائياً من بين صفوف الشباب وأنه . . . خلاص . . . قد أصبح واحداً من العجائز الكبار ؟

إنها شجاعة إذن تلك التى تجعل هؤلاء الناس يتدافعون

من أجل خلع أسنانهم . . . ولكن لماذا . . ؟ لماذا يخلع الناس أسنانهم ؟ !

لماذا يخلع الناس أسنانهم ؟

(ا) لتركهم التسوس يتغلغل فى أسنانهم إلى أن يصل إلى العصب .

(ب) وعندما تكون أسنانك مصابة بالبيوريا ... تتآكل العظام المحيطة بهذه الأسنان وتسبب آلاماً يليها الخلع .

(ج) وعندما يكون الضرس بؤرة عفنة تنتقل منها العدوى إلى باقى أجزاء الجسم كله .

الجذور التى فى فمك

اذهب إلى أقرب مرآة بجوارك . . افتح فمك أمام هذه المرآة ثم دقق النظر جيداً داخل هذا الفم .

هل توجد جذور فى فمك ؟ !

لا تمكث دقيقة واحدة هادئاً إذا اكتشفت جذوراً فى فمك . . اذهب إلى الطبيب قبل أن تكون هذه الجذور بؤرة عفنة .

ماذا تفعل بعد أن تخلع ضرسك ؟

١ – بعد أن تخلع ضرسك يضع لك الطبيب بطريقة خاصة قطعة من الشاش أو القطن على فتحة الجرح الذى يحدث عقب الخلع . أغلق فمك واضغط بين الفكين على قطعة القطن أو الشاش هذه بشدة لمدة نصف ساعة على الأقل . إنها تعمل كسدادة توقف النزيف الذى يحدث عادة عقب الخلع وتساعد على تكون الجلطة الدموية فى ذلك الجرح ، إن هذه الجلطة الدموية هى الغطاء الضرورى الذى يجب أن يحدث فى الجرح عقب خلع كل ضرس .

والنزيف يتوقف عادة وحده عندما تتكون هذه الجلطة الدموية عقب الخلع بفترة وجيزة لا تزيد على بضع دقائق .

٢ – حاول أن تتلافى مضمضة الفم لمدة أربع وعشرين ساعة كاملة من وقت خلع الضرس .

٣ – إذا كان لا يزال يصدر نزيف بسيط من الجرح املأ فمك فى هدوء – دون مضمضة – بماء دافئ مذاب به بعض الملح واتركه فى الفم حتى يبرد ، وبعد ذلك أفرغ الماء من فمك فى هدوء أيضاً واملأه مرة أخرى بكمية من ذلك الماء الدافئ المذاب به بعض الملح . كرر ذلك بضع مرات حتى يتوقف النزيف البسيط تماماً .

أما إذا كان النزيف شديداً ومستمراً فاذهب إلى طبيب

الأسنان على الفور . وإلى أن تستطيع الذهاب إلى ذلك الطبيب أحضر قطعة نظيفة من الشاش وضع فيها بعض الشاى أو البن الناشف واربطهما جيداً بالخيط . اغمس هذه الربطة فى ماء دافئ قليلا ثم ضعها سريعاً على مكان خلع الضرس وضع عليها قطعة أخرى من الشاش أو القطن واضغط على كل ذلك بشدة بين الفكين مدة نصف ساعة على الأقل .

أما إذا حدث نزيف عقب الخلع بأربع وعشرين ساعة فإن السبب فى ذلك هو تلوث الجلطة الدموية وتلفها وتمزقها . لا تنتظر . اذهب إلى طبيب الأسنان على الفور .

٤ ـ قد تصيبك الآلام عقب الخلع بعد انتهاء مفعول المخدر الموضعى . تناول قرصين من الإسبرين أو قرصاً من أحد المسكنات حتى تتوقف هذه الآلام . وهذه الآلام قد تحدث بعد يوم أو بضعة أيام من وقت خلع الضرس . وقد يكون ذلك مصحوباً بطعم ردىء فى الفم . إن السبب فى كل ذلك قد يكون هو تلف الجلطة الدموية وتلوثها . إن زيارة الطبيب تعتبر أمراً ضرورياً لإسكات هذه الآلام والأوجاع التى قد تحدث عقب خلع الضرس .

٥ ـ تلافى لبضعة أيام عقب الخلع تناول الطعام الذى يحتاج إلى مضغ شديد ولا تمضغ طعامك أبداً فى هذه الأيام على جانب الفم الذى يوجد به الضرس المخلوع . ومن المناسب

لك تناول عصير الطماطم أو البرتقال أو الليمون وكذلك اللبن وشربة الخضار مثلا . . وكذلك مضغ اللبان حتى تساعد على زيادة الدورة الدموية فى الفكين وتزيل الصلابة التى قد تحدث فى فمك عقب الخلع .

٦ — لا تضع إصبعك أو لسانك فى الجرح أبداً . ولا تنفخ فى اتجاه ذلك الجرح أو تمص ناحيته إطلاقاً . . إنك لو فعلت ذلك سوف تساعد على تلوث ذلك الجرح وإتلاف الجلطة الدموية فيه وإحداث مضاعفات كثيرة أخرى أنت فى غنى عنها .

٧ — من الضرورى النظافة المستمرة للفم عقب خلع إحدى أسنانك . وإذا استعملت الفرشاة فى تنظيف أسنانك لا تقترب من مكان الخلع أبداً . استعمل فى اليوم التالى عقب خلع ضرسك أحد أنواع المضمضة بضع مرات يومياً حتى يمكن أن تتلافى الرائحة الكريهة التى تصدر عادة من الفم عقب خلع إحدى الأسنان .

والآن . . . هل عرفت ماذا تفعل بعد أن تخلع ضرسك ؟!

١١

أشعة الأسنان ... عين سحرية فى خدمتك !!

هل تعرف أشعة إكس ؟

هل تعرف تلك العين السحرية التى استخدمها الأطباء فى فترات كثيرة من حياتك للكشف على الأجزاء المختلفة من جسمك ؟

أنت لابد قد عجبت طويلا لهذه الأشعة التى لا تراها بعينيك ومع ذلك تستطيع أن تكشف عن خبايا جسدك وأسرار تكوينك .

إن تلك الأشعة العجيبة يمكنها أن تفعل من أجلك الكثير ... تستطيع أن تكشف عن الكسور التى قد تحدث – لا قدر الله – لعظامك وعن الأمراض التى قد تصيب – لا قدر الله – أى جزء من أجزاء جسدك .

تستطيع الأشعة أن تكشف عن قرحة فى المعدة أو حصوة فى الكلى أو اضطراب فى القلب . والأشعة – أيضاً – تستطيع أن تكشف عن كل ما يدور داخل فمك . . . التسوس الذى يكون قد أصاب الأسنان . . . وتآكل العظام المحيطة بالأسنان فى حالة الإصابة بالبيوريا . . والأوضاع الغريبة التى قد يتخذها ضرس العقل المدفون .

وفى مقدور الأشعة أيضاً أن تكشف عن تلك الخراريج التى ترقد فى خبث عند نهايات جذور الأسنان وتعمل فى خطة محكمة كبؤر عدوى تنشر الأمراض فى كل أجزاء جسمك . وحتى يمكنك أن تعرف كل شيء عن الخدمات التى تستطيع الأشعة أن تقدمها لك لتحافظ على صحة أسنانك إليك عشرة أسئلة وأجوبة عن أشعة الأسنان . . . تلك العين السحرية التى تعمل فى خدمتك .

(س) هل يستطيع طبيب الأسنان أن يشخص أمراض الفم والأسنان تشخيصاً دقيقاً دون استعمال أشعة إكس ؟

(ج) كلا . . إن هذا ليس فى استطاعته . . . إنه إن فعل ذلك سوف يكون كمن يحاول أن يرسم صورة جميلة وهو جالس فى حجرة مظلمة . إن صور الأشعة هى وحدها التى تستطيع أن تبدد الظلام الذى يحيط بطبيب الأسنان وهو يحاول أن يكون دقيقاً فى تشخيص الأمراض التى تصيب أسنان مريضه .

(س) لماذا يعتبر وجود صور الأشعة ضرورياً عند الكشف على أسنان المريض ؟

(ج) لا يمكن أن يعتبر الكشف على أسنان المريض كاملا إلا إذا صحب ذلك صوراً بالأشعة للأسنان التى يشكو منها ذلك المريض . إن صور الأشعة تكشف عن مدى تآكل العظام المحيطة بالأسنان (البيوريا) وعن الخراريج أو الأسنان المدفونة فى الفلق وكذلك عن تسوس الأسنان فى مراحله المختلفة وخاصة

فى تلك المناطق من الأسنان التى لا تستطيع أدوات طبيب الأسنان الكشف عنها .

(س) ما هى أهمية الكشف الشامل بالأشعة على الأسنان ؟

(ج) لقد أصبح الكشف الشامل بالأشعة هو القاعدة الأساسية لتشخيص وعلاج أمراض الأسنان. وليس هذا فقط، بل إن الأشعة اليوم تقوم بدور فعال فى الوقاية من هذه الأمراض حيث يمكن للأشعة اكتشاف أمراض الأسنان وهى لا تزال فى مراحلها الأولى وبذلك يمكن التحكم فى هذه الأمراض والوقاية من زيادة شرورها .

ويصبح الكشف الشامل بالأشعة على أسنان المريض ذا أهمية قصوى فى حالات المرضى الذين يشكون من أمراض عامة فى الجسم، ويريد أطباء الأمراض الباطنة التأكد من خلو أفواه هؤلاء المرضى من البؤر العفنة إذ لا يمكن التأكد من هذا بالمرة دون اللجوء إلى الكشف الشامل بالأشعة على أسنان المريض . ولذلك فإن الكشف الشامل بالأشعة على الأسنان يعتبر ضرورة قصوى فى حالات المرضى المصابين بالروماتيزم — السكر — أمراض العيون المزمنة — أمراض الجلد والأذن والأنف والحنجرة . . . إلخ .

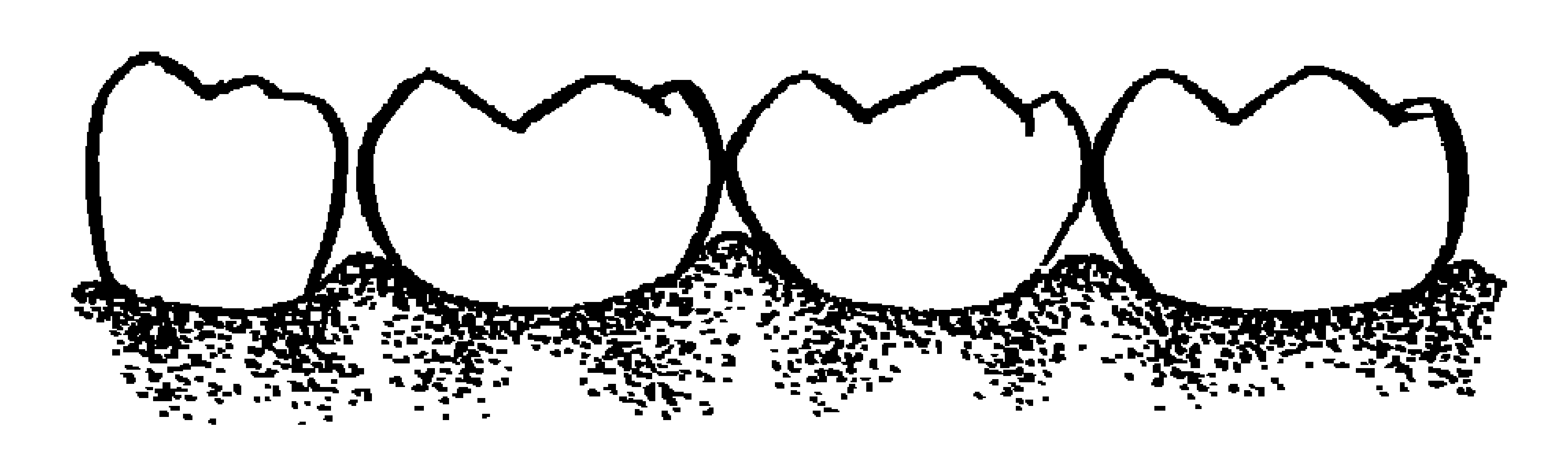
(س) هل من الضرورى الكشف الشامل على الأسنان بالأشعة فى فترات محددة من حياة الإنسان ؟

(ج) نعم هذا ضروري جداً . ذلك لأن أغلب أمراض الأسنان من النوع المزمن الذي لا يمكن اكتشافه إلا في وقت متأخر بعد أن يكون قد توغل إلى حدود بعيدة وسبب للمريض الأوجاع والآلام .

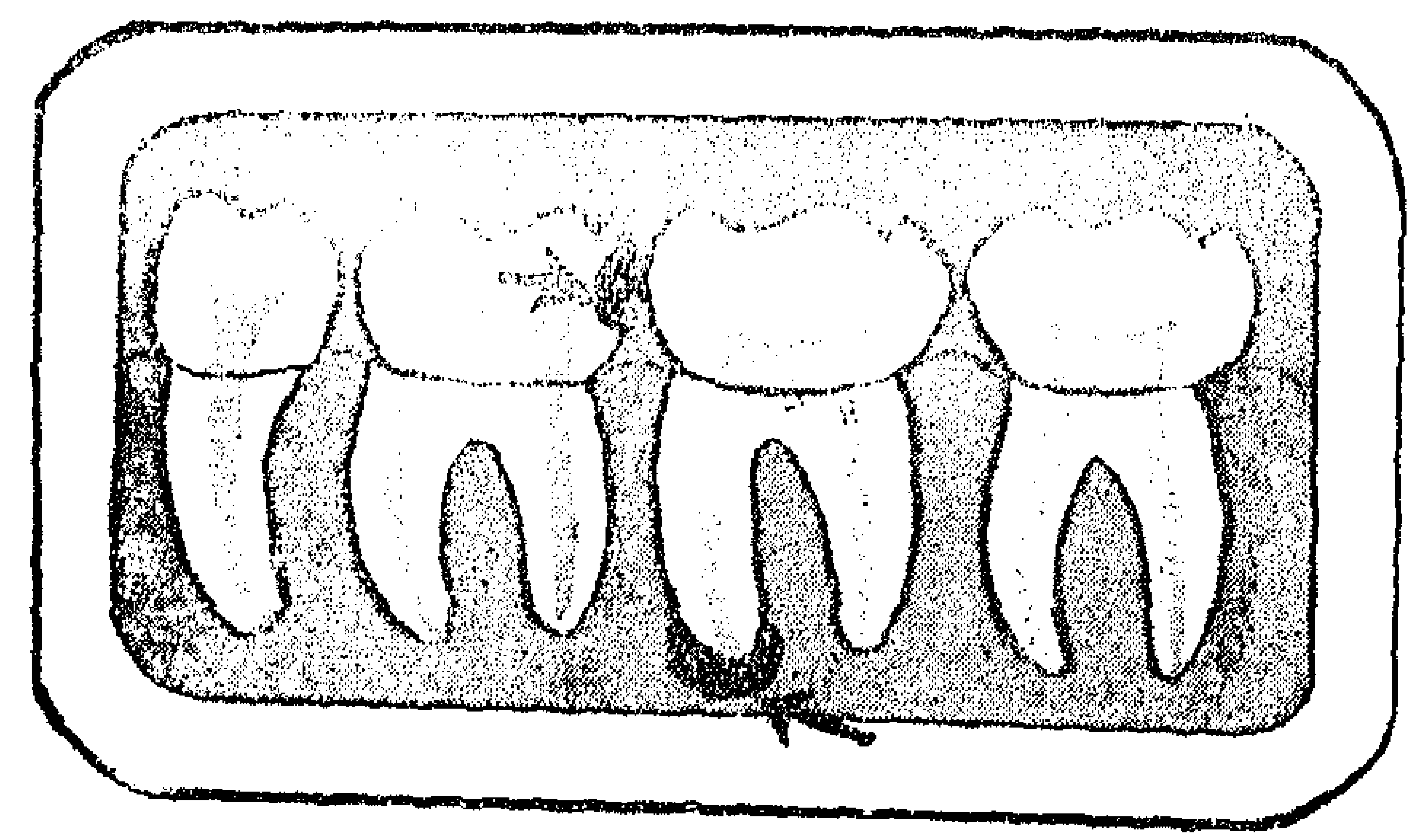
ولذلك فإنه من الضروري للشخص العادي أن يكشف بالأشعة على أسنانه كشفاً شاملاً كل ثلاث سنوات وذلك حتى يمكنه أن يعرف كل التغيرات التي حدثت في تلك الأسنان أثناء هذه الفترة وهي لا تزال في مراحلها الأولى ، ويوقفها قبل أن تصل إلى مراحل خطيرة تؤدي إلى أن يفقد الشخص أسنانه واحدة وراء الأخرى .

(س) ما هو فيلم الأشعة المزدوج ؟

(ج) يعتبر هذا النوع من أفلام الأشعة ذا أهمية قصوى إذ أنه يقوم بدور فعال جداً في الكشف على التسوس الذي يصيب جوانب الضروس وخاصة في حالات التسوس التي لا تستطيع أدوات طبيب الأسنان أن تساعده في اكتشافها .



شكل الأسنان بالعين المجردة



شكل الأسنان فى فيلم الأشعة وهو يكشف عن تسوس فى جانب أحد الأضراس وخراج عند نهاية جذر ضرس آخر .

يستطيع فيلم الأشعة المزدوج أن يحدد — فى دقة بالغة — كمية العظم المتآكلة فى حالات البيوريا بطريقة أفضل من فيلم الأشعة العادى .

(س) هل صحيح أنه من الضرورى الكشف بالأشعة على فك المريض الذى خلع بعض أو كل أسنانه وذلك قبل البدء فى عمل التركيبات الصناعية له ؟

(ج) نعم — هذا صحيح جداً . لقد ثبت فى العديد من الحالات وجود جذور أو بؤر عفنة أو ضروس مدفونة . . . إلخ فى أفواه الكثير من المرضى ، وذلك عقب صناعة أطقم الأسنان لهم سواء كانت تلك الأطقم جزئية أو كاملة . إن وجود أى من هذه الأشياء فى فم المريض يسبب العديد من الأوجاع والآلام وتجعل

استعمال المريض لأطقم الأسنان مستحيلاً .

ومن الضرورى علمياً وعملياً الكشف بالأشعة على تلك المناطق من الفك التى خلع منها الأسنان وذلك قبل عمل التركيبات الصناعية للتأكد من عدم وجود أى من هذه الجذور أو الضروس المدفونة أو البؤر العفنة . . .

(س) هل يقتصر عمل أخصائى أشعة الفم على الكشف بالأشعة على الأسنان من داخل الفم فقط ؟

(ﺟ) كلا . إن ميدان تخصص أشعة الفم أوسع من ذلك كثيراً . إن أخصائى أشعة الفم يستطيع أن يقوم بإعداد كل أفلام الأشعة الخاصة بالرأس والفكين فى الحالات التى لها صلة بأمراض الفم والأسنان مستعملا لذلك أفلام أشعة من خارج الفم . وبذلك يمكنه أن يشخص ما يشكو منه المريض مستعملا بذلك كل الأنواع الضرورية من أفلام الأشعة . .

والآن . . . أرأيت ماذا يمكن أن تفعل أشعة الأسنان — تلك العين السحرية — من أجلك ؟

١٢

كوبرى .... فى .... فمك ! !

هل تتصور هذا ؟

هل تتصور أن يقام كوبرى . . داخل فمك ؟

أنت بعد أن خلعت بعض ضروسك التالفة أخذت تعانى من عدم القدرة على مضغ الطعام بعد أن فقدت تلك الضروس العزيزة عليك ، فتذهب إلى الطبيب شاكياً .

ويرد عليك الطبيب على الفور والابتسامة العريضة تعلو وجهه إن أفضل شىء لك هو تركيب كوبرى . . . فى . . . فمك ! !

وظهرت علامات الدهشة على وجهك وأخذت تتساءل : أركب كوبرى داخل فمى ؟ ! . . يا خبر . . . كوبرى طويل عريض . . . أنا عايز يا دكتور أركب ضروس بدل اللى انخلعت . . . ضروس صناعية فقط . . . مش كوبرى .

وفى ابتسامة أخرى عريضة قال لك الطبيب إن الكوبرى ما هو إلا أسنان صناعية ، إن هذا الكوبرى أفضل أنواع تلك الأسنان الصناعية بالنسبة لك .

إن هذا الكوبرى يا عزيزى ليس إلا أسناناً صناعية

متينة . . جميلة . . سوف تزيل كل متاعبك فى مضغ الطعام وتعيد إلى أعصابك هدوءها .

لماذا يجب أن تستعمل أسناناً صناعية ؟ !!!

إذا كنت يا صديقى تريد المحافظة على بقية أسنانك فى حالة جيدة وعلى أنسجة فمك فى حالة سليمة وإذا كنت ترغب فى ألا تنهار هذه الأسنان الباقية وألا تتعرض أنسجة فمك للخطر يجب أن تفكر جيداً فى تركيب أسنان صناعية، إن هذه الأسنان الصناعية سوف تحميك من متاعب كثيرة أنت فى غنى عنها.. وترفع عنك أخطاراً لا أظن أنك ترغب فى التعرض لها.

ماذا يحدث إذا لم تستعمل أسناناً صناعية ؟

عندما تفقد ضرساً من أضراسك وتترك مكانه خالياً عاماً وراء الآخر فلا تظن أن كل شىء يسير على ما يرام داخل فمك .

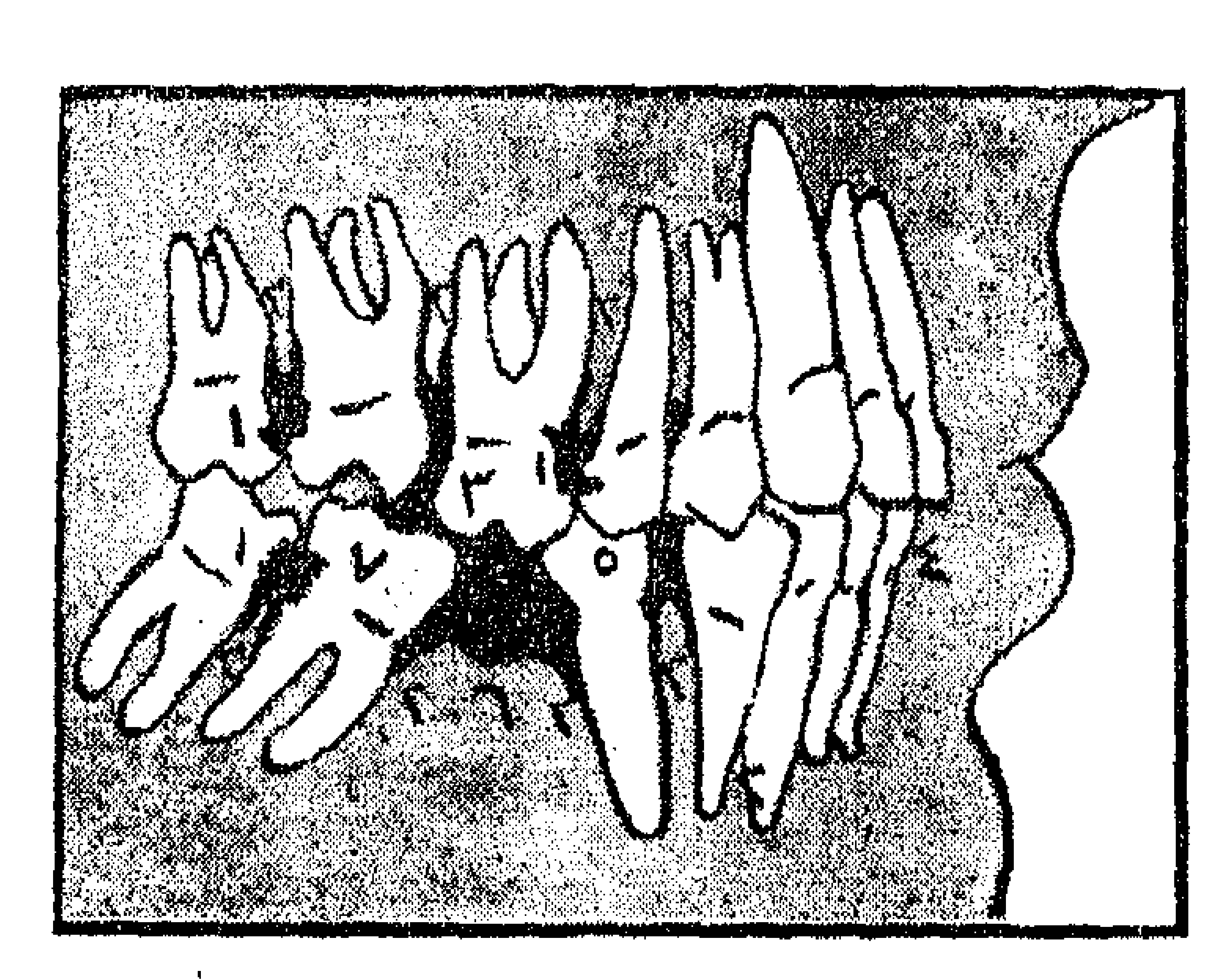
إن توازن القوى بين أسنان الفك العلوى وأسنان الفك السفلى سوف تضطرب اضطراباً شديداً عقب فقدك لذلك الضرس .

إن أسنان كل فك تضغط عادة على أسنان الفك الآخر أثناء مضغ الطعام ضغوطاً طبيعية تمتص بواسطة الأنسجة الرقيقة التى تربط بين جذور هذه الأسنان وعظام الفك المحيطة بها .

والذى يحدث عندما تفقد أحد أضراسك أن الضغوط التى كانت توجه تجاه ذلك الضرس المفقود سوف توجه حتماً تجاه الضروس المجاورة له .

وتكون النتيجة أن هذه الضروس سوف تجد نفسها أثناء مضغ الطعام هدفاً لضغوط شديدة لا تستطيع أن تستمر فى تحملها أبداً .

إن هذه الضروس سوف تنوء يوماً بسبب تلك الأحمال الشديدة التى لا طاقة لها بها . إن النسيج الرقيق الذى يربط بين جذور تلك الأسنان وعظام الفك المحيطة بها سوف يتمزق تدريجيًّا . وعظام الفك المحيطة بالأسنان نفسها سوف تتآكل



النتائج المتوقعة لخلع ضرس من الأضراس مع ترك مكانه خالياً دون شغله بأسنان صناعية .

١ — تسوس الأسنان

٢ — تآكل فى العظام المحيطة بالأسنان .

٣ — الضرس المواجه للضرس المخلوع يخرج من مكانه تدريجياً .

٤ — المكان الخالى عقب خلع الضرس .

رويداً رويداً . وكل هذا ليس إلا بداية صغيرة لطريق طويل سوف يجعل أسنانك فى النهاية تنهار تماماً .

إن الضروس المجاورة للضرس المخلوع سوف تتحرك تجاه مكان الضرس المخلوع بل سوف تتباعد مما يؤدى إلى تجمع فضلات الطعام فيما بينها إلى حد أن إصابة هذه الضروس بالبيوريا يصبح أمراً مؤكداً .

وليس هذا فقط بل إن الضرس الذى كان يواجه الضرس المخلوع فى الفك الآخر سوف يستطيل ويتحرك تجاه الفراغ الموجود الذى كان يشغله الضرس المخلوع ، ذلك لأن هذا الضرس لا يجد من يقف فى مواجهته ويمنعه من التحرك فى ذلك الاتجاه أبداً . وتكون النتيجة أن يفقد ذلك الضرس اتصاله بالضرسين المجاورين وهذا يؤدى إلى أن تتجمع فضلات الطعام فيما بينهما وتتكون جيوب حول جذور ذلك الضرس وتتآكل العظام المحيطة بتلك الجذور . وهذا يؤدى إلى أنك سوف تفقد ذلك الضرس أيضاً فى النهاية .

إنها أخطار كثيرة إذن تلك التى يتعرض لها من يفقد بعض أسنانه الطبيعية ولا يركب أسناناً صناعية بدلاً منها تقوم مقامها وتحمل مسئوليتها كاملة . .

والآن . . .

ماذا تختار . . .؟

« كوبرياً . . . أم . . . طقماً جزئياً ؟ »

عندما ترغب فى تركيب أسنان صناعية بدلاً من تلك التى فقدتها من أسنانك الطبيعية . . ماذا تفضل « كوبريًا » . . . أم . . . « طقماً جزئيًا » ؟

إنى أظن أنك سوف تفضل على الفور . . . الكوبرى . . . ذلك لأن هذا الكوبرى ثابت دائماً فى الفم وحجمه صغير وشكله طبيعى ومن السهل عليك أن تتعود على وجوده فى فمك .

إن الكوبرى يستعمل فى الفم بدلاً من سنة أو اثنتين أو ثلاث على الأكثر من أسنانك، ذلك لأن الكبارى عادة تحمل بواسطة الأسنان الطبيعية المجاورة التى توجه إليها الضغوط أثناء مضغ الطعام على هذا الكوبرى .

وهذه الأسنان الطبيعية المجاورة من الجانبين لا تستطيع أن تتحمل ضغوطاً توجه لأكثر من سنة أو اثنتين أو ثلاث من أسنانك .

وكبارى المنطقة الأمامية من فمك تكون عادة أهم صفاتها أنها تعيد إلى شكلك طبيعته، أما كبارى المنطقة الخلفية من فمك فإنها يجب أن تكون من المتانة إلى حد أن تتحمل الضغط المتوالى عليها أثناء مضغ الطعام ثلاث مرات يوميًا .

والكبارى عموماً يصنع بعض أجزائها من الذهب أو من صلب لا يصدأ وتصنع الأجزاء الباقية من البلاستيك (الأكريل). إلا أن بعض الكبارى التى تصنع فى الأجزاء الخلفية من الفم تكون كلها من الذهب حتى تستطيع أن تتحمل الضغط عليها

أثناء مضغ الطعام .

أما إذا كنت قد فقدت من أسنانك عدداً كبيراً أو إذا كانت أسنانك الطبيعية المجاورة للمناطق الخالية من الأسنان فى فمك لا تستطيع أن تتحمل الضغوط الشديدة التى توجه عادة لمثل هذه الأسنان عند استعمال الكبارى فإنى أفضل لك أن تستعمل طقماً جزئياً . . . إن هذا الطقم الجزئى ما هو إلا طقم صغير : يتكون من عدد من الأسنان الصناعية تماثل تلك التى فقدتها من أسنانك الطبيعية . وهذا الطقم الجزئى يصنع عادة من البلاستيك الذى تخرج منه أجزاء معدنية (مشابك) تحيط بالأسنان المجاورة حتى يمكن أن يثبت ذلك الطقم الجزئى فى مكانه أثناء الكلام أو مضغ الطعام مثلاً . وأثناء مضغ هذا الطعام توجه ضغوط ذلك المضغ ليس على الأسنان الطبيعية المجاورة فقط ولكن على اللثة وعظام الفك التى يرقد عليها الطقم الجزئى .

ومن السهل عليك أن تخرج الطقم الجزئى من فمك لتنظيفه ثم تعيده ثانية .

والأطقم الجزئية تفضل عادة فى حالة صغار السن — قبل سن الواحدة والعشرين — وكذلك فى حالة مرضى السكر أو أولئك المصابة أسنانهم بمرض البيوريا

كيف تستعمل أسنانك الصناعية ؟

أنت فى حاجة إلى كل صبرك وهدوء أعصابك حتى يمكن أن تتعود على استعمال طقم أسنانك الجزئى .

انتظر حتى تمر فترة تعودك عليها ذلك الطقم الجزئى ويصبح فى مقدورك فى النهاية استعماله فى راحة كاملة .

فإذا شعرت فى البداية أن هناك جسماً غريباً ضخماً فى فمك وأنك . . . متضايق ... فلا تمد يدك وتخرج ذلك الطقم من فمك وترفض استعماله بالمرة .

وإذا كان من الصعب فى الأيام الأولى أن تمضغ طعامك وهذا الطقم الجزئى داخل فمك لا تظن أن الصعوبة التى تجدها أثناء مضغك للطعام على هذا الطقم سوف تستمر طويلاً . . إنها مؤقتة فقط . . تناول طعامك فى أجزاء صغيرة وامضغ فى بطء وهدوء فى مدة طويلة وتلافى قضم الطعام فى هذه الأيام الأولى بالأسنان الصناعية الأمامية .

وإذا كنت تشعر أن ذلك الطقم الجزئى يمنعك من الكلام فى وضوح ويجعل نطقك للألفاظ غريباً عليك لا تتردد فى الاستمرار فى استعمال ذلك الطقم حتى يصبح كلامك واضحاً ونطقك للألفاظ سليماً بعد بضعة أيام قليلة .

ونصيحتى إليك أن تستعمل ذلك الطقم الجزئى ليلاً ونهاراً فى الأيام الأولى حتى يمكن أن تكيف وتتلاءم أنسجة فمك سريعاً

على ذلك الضيف الجديد الذى جاء بينها .

وإذا أصابتك الآلام عقب استعمالك لذلك الطقم الجزئى أو لاحظت وجود أى التهاب أو قروح فى فمك أو إذا استمرت طويلاً الصعوبة فى الكلام أو مضغ الطعام لا تتردد فى الذهاب إلى طبيب الأسنان فوراً .

كيف تعنى بأسنانك الصناعية ؟

نظف أسنانك – الكوبرى من بينها – بالفرشاة والمعجون عقب كل وجبة من وجبات الطعام حتى يمكن أن تحافظ على أسنانك الطبيعية الباقية سليمة .

أما إذا كنت تستعمل طقماً جزئياً ، أو طقماً كاملاً فيجب أن تخرج ذلك الطقم من فمك عقب كل وجبة من وجبات الطعام وتنظفه جيداً بالماء العادى والصابون مستعملاً فرشاة ذات شعيرات خشنة .

ويجب أن يكون ذلك التنظيف بعناية شديدة حتى لا تتلف الأجزاء المعدنية المثبتة فى ذلك الطقم الجزئى أو الخارجة منه .

ويحسن أن يكون ذلك التنظيف فوق منشفة أو وعاء متوسط الحجم به بعض الماء حتى لا ينكسر الطقم إذا سقط من بين يديك أثناء تنظيفه .

ولا تستعمل أبداً فى تنظيف ذلك الطقم الجزئى ماءساخناً أو أية مواد كيمائية غير معروف وظيفتها تماماً حتى لا يتلف الطقم نتيجة لذلك .

وعند النوم ضع طقم أسنانك الجزئى — بعد تنظيفه — فى كوب خاص به بعض الماء المضاف إليه بضع قطرات من إحدى المواد التى تستعمل فى مضمضة الفم . إن هذا هو الوسيلة التى تجد بها فى الصباح طقم أسنانك الجزئى نظيفاً سليما ذا رائحة مقبولة ترتاح إليها نفسك .

١٣

كيف تحمي نفسك من أمراض الفم والأسنان؟

لا يوجد إلا طريق واحد . إنه اتباع الوسائل الصحيحة للمحافظة على صحة الفم . إن أمراض الفم والأسنان — غالباً — مزمنة . تنمو في بطء شديد يوماً وراء الآخر حتى تستفحل وتصبح في النهاية شديدة الخطر . ولذلك فإن الوقاية منها لا تتأتى إلا بالتعود على عادات يومية معينة لا تسمح بوجود هذه الأمراض أبداً.

ولكن . . . أولاً . . . كيف تتعرض صحة الفم للخطر ؟

فضلات الطعام

لا تظن — بعد أن تتناول طعامك — أن الماء والصابون وحدهما يكفيان لإبعاد كل فضلات الطعام من فمك . إن الكثير من هذه الفضلات — غالباً — يتبقى بين أسنانك وعلى أسطحها المختلفة . لابد أنك قد جربت قطع اللحم الصغيرة عندما تنحشر بين أسنانك وفتافيت الخبز والأرز والمكرونة عندما تنتشر هنا وهناك على أسطح أضراسك . . إن كل فضلات الطعام هذه تعرض صحة الفم للخطر .

إن تسوس الأسنان يحدث عندما تعمل الميكروبات الموجودة فى الفم على فضلات المواد النشوية والسكرية وتنتج حامضاً مركزاً يصنع لك تسوس الأسنان بكل متاعبه وآلامه . وإن التهابات اللثة والرائحة الكريهة التى تصدر من الفم والبيوريا وسلسلة أخرى طويلة من أمراض الفم والأسنان لا تحدث إلا بمساعدة فضلات الطعام .

فما الذى إذن يجعلك تسمح ببقاء فضلات الطعام هذه فى فمك؟ ولماذا لا تلجأ – عقب كل وجبة – إلى فرشاة الأسنان لتبعد بها كل فضلات الطعام من فمك ؟

الرواسب الجيرية

ليست فضلات الطعام وحدها هى التى تعرض صحة الفم للخطر . إن الرواسب الجيرية تصنع ذلك أيضاً . هذه الرواسب الجيرية تترسب من لعاب الفم على أسنانك دائماً . إنها قد تترسب على ضرس واحد فقط أو مجموعة أضراس أو على أسنان الفم كله .

إنك من الممكن أن ترى هذه الرواسب الجيرية على أسنانك بالعين المجردة ذلك لأنها تترسب على الجزء الظاهر من الأسنان فى الفم .

وفى البدء تكون هذه الرواسب الجيرية ناعمة تحتاج من ١٢ إلى ٢٤ ساعة حتى تصبح صلبة . وطبعاً تزداد صلابتها من

يوم إلى يوم ومن شهر إلى شهر . إن تلك الرواسب الجيرية حتى وهى لا تزال ناعمة لا يمكن إبعادها بمجرد المضمضة بالماء مثلاً . إن استعمال فرشاة الأسنان ضرورة لازمة لإبعاد هذه الرواسب الجيرية . إن ذلك يحدث إذا استعملنا فرشاة الأسنان مرتين يومياً على الأقل . ذلك لأن هذه الرواسب الجيرية بعد الاثنتى عشرة ساعة الأولى من ترسبها يصبح من الصعب إبعادها بفرشاة الأسنان ولا يمكن هذا إلا لطبيب الأسنان وحده . إنه يكحتها من مكانها بآلات خاصة .

إنك إذا نظرت فى المرآة إلى أسنانك جيداً سوف تجد هذه الرواسب الجيرية كثيرة جداً على أسطح الضروس العليا الخلفية من ناحية الخد وكذلك على أسطح الأسنان السفلى الأمامية من ناحية اللسان. ولأنه قريب من هاتين المنطقتين توجد فتحات الغدد اللعابية حيث يفرز اللعاب ويترسب منه تلك الرواسب الجيرية .

وهناك نوع من الرواسب الجيرية متوسط الصلابة ويلتصق بشدة بالأسنان ولا يمكن إبعاده بالفرشاة أبداً . ولكن من الممكن للطبيب أن يكحته من مكانه بسهولة .

وهناك رواسب أخرى توجد على أسطح الأسنان المختلفة . وتتكون من بكتيريا الفم وفتافيت الطعام وكذلك من مواد تترسب من اللعاب. إن كل تلك الرواسب التى ذكرتها لك بكل أنواعها

المختلفة تثير اللثة وتسبب التهابها وقد يستفحل هذا الالتهاب ويجعلك بعد شهور أو سنوات تفقد أسنانك واحدة وراء الأخرى .

فرشاة الأسنان هى الحل الوحيد

إن هذه الفرشاة سوف تنظف الأسنان جيداً وتقلل من احتمال تسوسها وتجعل شكل هذه الأسنان جميلاً وجذاباً . كما أنها تحدث التدليك اللازم لتقوية اللثة وتزيد الدورة الدموية فيها وبذلك يمنع احتمال حدوث الالتهابات فى هذه اللثة . وتعرية جذور الأسنان وبذلك تصبح هذه الأسنان حساسة ومؤلمة جداً .

إن استعمال فرشاة الأسنان استعمالاً خاطئاً قد يصيب الأسنان واللثة إصابات بالغة خصوصاً إذا استعملت القسوة فى تحريك الفرشاة — كأن تحدث تسلخات وجروح فى اللثة وهذه الإصابات قد تزمن .

ولا تظن أن معنى هذا أنه يجب أن تستعمل فرشاة الأسنان بطريقة سريعة خاطفة . . إن هذه الطريقة لها عيوبها أيضاً .

إن مجرد استعمالك لفرشاة الأسنان بهذه الطريقة السريعة مرة أو مرتين فى اليوم لا يعنى أبداً أنك تستفيد من هذا الاستعمال

إنك بهذه الطريقة لا تبعد أبداً من فمك كل فضلات الطعام وكل الرواسب الجيرية الناعمة وتكون النتيجة أنه لا يوجد

فرق كبير بينك وبين الذى لا يستعمل فرشاة الأسنان أبداً .

إذن . . . بعد كل هذا . . . ما هى الطريقة الصحيحة لاستعمال فرشاة الأسنان ؟

كيف تستعمل فرشاة الأسنان ؟

إن هناك أنواعاً ثلاثة من فرش الأسنان . هناك فرشاة أسنان ذات شعيرات ناعمة يفضل استعمالها مثلاً للذين يشكون من التهاب اللثة . وهناك فرشاة أسنان ذات شعيرات متوسطة الخشونة وتفضل فى الأحوال العادية . وأخيراً هناك فرشاة أسنان ذات شعيرات خشنة وتفضل فقط للذين يملكون لثة قوية قادرة على تحمل خشونة شعيرات هذه الفرشاة .

إن تنظيفك لفمك بفرشاة الأسنان بعد زيارتك لطبيب الأسنان يصبح ذا فائدة كبيرة ذلك لأن الفم قد أعد إعداداً مناسباً قبل استعمالك لهذه الفرشاة .

والآن . . . ما هى الطريقة الصحيحة لاستعمال فرشاة الأسنان ؟

الطريقة الصحيحة لاستعمال الفرشاة

- أحضر فرشاة أسنانك جافة .
- اغسلها جيداً بالماء الدافئ

● ضع على شعيراتها بعضاً من معجون الأسنان .

إننا عادة ننظف أسنان الفك العلوى أولاً ونبدأ ذلك من الجانب الأيسر من الفم فننظف أسطح الضروس العليا من ناحية الخد .

● ضع فرشاة الأسنان فى تلك المنطقة من الفم بحيث يكون جانبها مرتكزاً على اللثة وبحيث يكون اتجاه أطراف شعيراتها إلى أعلى ثم حرك الفرشاة إلى أسفل على اللثة أولاً ثم على الأسنان كأنك تريد أن تشد اللثة وتغطى بها الأسنان .

● أعد الحركة السابقة الذكر بضع مرات فى اتجاه واحد فقط إننا بذلك نريد ألا تعمل فرشاة الأسنان ضد اللثة حتى لا تجعل هذه اللثة — بمرور الزمن — تنحسر من على الأسنان وتتعرى جذور هذه الأسنان وتحدث مضاعفات لا حد لها .

● نظف بهذه الطريقة أسطح أسنان الفك العلوى من ناحية الخدود والشفاه . ابدأ من الجانب الأيسر الفم وانته عند الجانب الأيمن منه .

● ولتنظيف أسنان الفك السفلى ابدأ من الجانب الأيمن من الفم . ضع فرشاة الأسنان بحيث يرتكز جانبها على اللثة وبحيث يكون اتجاه أطراف شعيراتها إلى أسفل .

● حرك الفرشاة على اللثة أولاً ثم على الأسنان من أسفل إلى أعلى بضع مرات كأنك هنا أيضاً تريد أن تجذب اللثة وتغطى بها الأسنان .

● بنفس القواعد التى ذكرتها لك سابقاً بالنسبة لأسنان كل من الفكين على حدة نظف أسطح الأسنان العليا والسفلى من ناحية سقف الحلق واللسان .

● نظف بعد ذلك — بتحريك الفرشاة بشدة — الأسطح الباقية من ضروس الفكين . إنها أسطح المضغ . إن تلك الأسطح بها الكثير من الحفر والتجاويف ولذلك فيجب أن تبعد كل فضلات الطعام المتجمعة فى تلك الحفر والتجاويف.

● مضمض فمك عقب ذلك بالماء عدة مرات .

● اغسل الفرشاة جيداً ثم ضعها على اللسان وحركها بضع مرات فى اتجاه واحد إلى الخارج . إنك بذلك تنظف اللسان وتبعد كل المواد المتراكمة عليه .

● اغسل بعد ذلك فرشاة الأسنان جيداً بالماء الدافئ والصابون واتركها تجف فى الهواء الطلق أو تحت أشعة الشمس إن أمكن ذلك . لا تستعملها أبداً مرة أخرى إلا بعد أن تجف تماماً .

إن تنظيف الأسنان بالفرشاة يجب أن يكون عادة متبعة عند كل الناس عقب كل وجبة من وجبات الطعام . إن ذلك التنظيف فى كل مرة يجب أن يستغرق دقيقتين على الأقل ولا أهمية مطلقاً إذا كنت تبدأ تنظيف أسنان الفك العلوى أو أسنان الفك السفلى أولاً أو إذا كنت تبدأ فى الفم من ناحية اليسار أو من ناحية اليمين ولكن الأهمية الكبرى فى أن تتبع القواعد

التي ذكرتها لك لتحريك فرشاة الأسنان ولا تحرك هذه الفرشاة ضد اللثة أبداً .

ماذا عن معجون الأسنان ؟

لا تصدق أن أى معجون من معاجين الأسنان له أى وظيفة علاجية لأى مرض من أمراض الفم والأسنان . إن كل ما تصنعه معاجين الأسنان هى أنها تساعد الفرشاة فى عملية التنظيف وتجعل هذه العملية نفسها محببة للنفس بما تحتويه تلك المعاجين من مواد ذات رائحة وطعم مقبولين .

لاحظ عنـــد اختيارك لمعاجين ومساحيق الأسنان أن تكون هذه المعاجين والمساحيق . . ناعمة . إنها إن كانت خشنة سوف تحدث تآكلا فى ميناء الأسنان .

وتذكر دائماً أن فرشاة الأسنان عندما تستعمل بطريقة صحيحة تعتبر أهم عامل فى تنظيف الأسنان حتى بدون أى معجون أو مسحوق من معاجين أو مساحيق الأسنان .

إبعاد فضلات الطعام من بين الأسنان

بعد أن تتناول طعامك لابد أنك تلاحظ كثيراً أن قطع اللحم الصغيرة وبقايا الطعام تنحشر بين أسنانك. قبل أن تستعمل فرشاة الأسنان أبعد هذه الفضلات من بين أسنانك أولا .

استعمل لذلك أعواد الخلال أو الأعواد الخشبية الخاصة بذلك والتى تسمى مسلكات الأسنان أو خيط الحرير Dental floss الذى يباع فى بعض الصيدليات .

استعمل هذه الوسائل برفق وعناية كاملتين حتى لا تجرح الجزء الحرى من نسيج اللثة الذى يوجد بين كل سنة وأخرى .

طريق الوقاية . . . فى سطور

حتى يمكن أن تحمى نفسك من أمراض الفم والأسنان اتبع النصائح التالية :

١ ـ قلل فى طعامك دائماً من المواد النشوية والسكرية وأكثر من الفواكه والخضراوات . وخصوصاً عند نهاية كل وجبة من وجبات الطعام . إن هذه الفواكه والخضراوات تساعدك على تنظيف الأسنان وتقوية اللثة .

٢ ـ بعد انتهاء تناولك من طعامك أبعد فضلات الطعام المتبقية بين أسنانك بأعواد الخلال أو الأعواد الخشبية أو الخيط الحريرى .

٣ ـ استعمل فرشاة ومعجون الأسنان عقب كل وجبة من وجبات الطعام وخصوصاً عقب وجبتى الإفطار والعشاء . ولذلك فلا داعى لاستعمال الفرشاة والمعجون عند الاستيقاظ من النوم . اكتف حينئذ بالماء الدافئ والصابون فقط .

٤ ـ يجب خلع كل الجذور والأسنان غير الصالحة للبقاء .

ويجب حشو الأسنان المتسوسة وعلاج اللثة الملتهبة وإبعاد كل الرواسب المتراكمة على أسنانك، ثم تلميع هذه الأسنان فى النهاية؛ وبذلك يمكن أن تحصل على أحسن النتائج عند استعمال فرشاة الأسنان .

والآن . . . إنى أرجو أن أكون قد جمعت بين يديك كل الخيوط التى تجعلك قادراً على حماية نفسك من أمراض الفم والأسنان .

١٤
ماذا عن تسنين الأطفال ؟ !

أيام من القلق والحيرة سوف تكون فى انتظارك يا سيدتى عندما يبدأ طفلك فى التسنين . إن ذلك الصغير لن يكف عن الصراخ والبكاء أبداً . سوف يظل يتوجع ويتلوى . وسوف تبدأ حرارته فى الارتفاع قليلا وسوف تظنين أنت أن الحمى قد بدأت تغزو جسد الطفل وأن صحته قد أصبحت معرضة للخطر وأن تلك القطعة من جسدك الحى قد أصابتها عوامل الضعف والانهيار .

أنت يا سيدتى وسط قلقك عليه وحيرتك قد لا تظنين أن ضرساً صغيراً يحاول الظهور فى فم طفلك قد يكون هو السبب فى كل شكوى ذلك الطفل الصغير .

إن ذلك يحدث عندما تحاول أسنان طفلك اختراق اللثة ثم الظهور فى الفم . إنها سوف تجد فى طريقها لثة صلبة لا تسمح لها فى الظهور فى الفم بسهولة على الرغم من الضغوط الشديدة التى تحدثها هذه الأسنان ضد اللثة .

إنه من المفروض فى الأحوال العادية أن يزول نسيج اللثة هذا تدريجيا عندما تضغط الأسنان ضده عند الظهور فى الفم

ولكن ذلك النسيج فى أحيان كثيرة يجعل مهمة تلك الأسنان صعبة وعسيرة .

إلا أنه فى أحيان كثيرة تسبب تلك المقاومة من اللثة التى تصادفها الأسنان أثناء محاولتها الظهور فى الفم ضغط جذور تلك الأسنان التى لم تكتمل بعد على عصب الفك فتحدث آلاماً شتى لطفلك على الرغم من أنه قد لا يظهر فى فم ذلك الطفل أى دليل على أنه حقاً يقاسى بسبب التسنين .

متى تظهر الأسنان اللبنية ؟

عندما يولد طفلك يا سيدتى فإنه لن يوجد ظاهراً فى فمه أية أسنان إطلاقاً . أجزاء صغيرة فقط من أسنانه اللبنية تكون قد تكونت داخل الفكين . إلا أنه فى بعض الأحوال النادرة قد يولد الطفل ويكون ظاهراً فى فمه سنة صغيرة فى الجزء الأمامى من الفك السفلى هذه السنة غالباً تكون زائدة . ولم يتم تكوين جذرها فى الفك البعيد . ولذلك فإنها تكون كثيرة الحركة وتميل ناحية اللسان خصوصاً عندما يعض الطفل على أى جسم يضعه فى فمه .

وقد يصبح من الضرورى خلع تلك السنة ، ذلك لأنها كثيراً ما تسبب قروحاً فى لسان الطفل أو تسبب صعوبات أثناء الرضاعة أو تؤذى ثدى الأم .

أما إذا أثبتت صور الأشعة التى تؤخذ على فك الطفل أن تلك السنة هى اللبنية الطبيعية وليست زائدة فإن كل مجهود

يجب أن يبذل للمحافظة عليها وعدم خلعها حتى لا يؤدى ذلك الخلع إلى متاعب شتى للطفل فيما بعد .

إن الطبيعة يا سيدتى قد نظمت ظهور الأسنان اللبنية فى فم طفلك فى مجموعات تتكون كل منها من أربع أسنان . تظهر إحدى تلك المجموعات فى فم الطفل كل أربعة أشهر . والذى يحدث هو أن الأسنان الخاصة بكل مجموعة تظهر اثنتان منها فى الفك العلوى واثنتان فى الفك السفلى واحدة فى الجانب الأيمن وواحدة فى الجانب الأيسر من كل فك .

إن طفلك يا سيدتى سوف يبدأ تجربة التسنين فى الشهر السابع من عمره .سوف يظهر فى ذلك الوقت أربع أسنان (قواطع) فى الجزء الأمامى من الفكين . ولا تظنى يا سيدتى أن تلك الأسنان الأربع سوف تظهر معاً فى الفم دفعة واحدة . إن الذى يحدث عادة هو أن أسنان الفك السفلى تظهر قبل أسنان الفك العلوى بفترة وجيزة .

وفى الشهر الحادى عشر من عمر طفلك يا سيدتى سوف يظهر فى الجزء الأمامى من الفكين أيضاً أربع أسنان أخرى . كل سنة من تلك الأسنان الأربع سوف تأخذ مكانها بجوار سنة من الأربع الأسنان التى ظهرت فى الفم قبل ذلك .

وعندما يصبح عمر الطفل خمسة عشر شهراً فإن أربعة ضروس سوف تظهر فى الجزء الخلفى من الفكين تدريجياً .

إن تلك الأنياب الأربعة عادة تتأخر فى الظهور فى الفم بضعة أشهر ولا تظهر إلا عندما يصبح عمر الطفل تسعة عشر شهراً تقريباً .

وبعد ذلك يا سيدتى لا يتبقى من أسنان طفلك اللبنية إلا أربعة ضروس فقط ، سوف يظهر واحد من تلك الضروس فى نهاية كل جانب من جوانب الفكين حينما يصبح عمر الطفل ثلاثة وعشرين شهراً تقريباً . وبذلك يكون قد تم ظهور أسنان الطفل اللبنية وعددها عشرون فى نهاية السنة الثانية من عمره .

إن تأخير أو تقديم أوقات ظهور الأسنان فى فم طفلك فى حدود أربعة أو خمسة أشهر لا يعنى شيئاً خطيراً أبداً .

ماذا يحدث للطفل فى فترة التسنين ؟

فى فترة ظهور الأسنان اللبنية هذه فى فم طفلك يا سيدتى قد يعانى ذلك الطفل الكثير من المتاعب والآلام التى تحدث له بسبب ذلك التسنين . إن التسنين عملية فسيولوجية من المفروض أن تتم فى هدوء وسلام ولكن قد يكون من حظ طفلك أن يقاسى بسبب محاولة إحدى أسنانه اللبنية الظهور فى الفم.

إن التهاب اللثة المغطية لتلك السنة قد يكون هو البؤرة التى تسبب ألواناً من الاضطراب لطفلك .

قد يكون هذا الالتهاب مصحوباً بقروح ونزيف وآلام

ورائحة كريهة تصدر من الفم وقد ينتشر هذا النوع من الالتهاب فى باقى أنسجة الفم الناعمة كلها تدريجياً .

وقد تلاحظين أن طفلك فى فترة التسنين هذه يقرض على أسنانه دون وعى أو يسيل لعابه من فمه كثيراً أو يصرخ ويبكى بسبب الأوجاع والآلام التى يسببها له ذلك الضرس الذى يحاول الظهور فى الفم .

إن طفلك قد يرفض تناول الطعام تماماً. لقد فقد شهيته. وقد يتقيأ من حين لآخر أى طعام يتناوله ولا يتبقى منه فى جوفه أى شىء إطلاقاً .

وقد تنتابه نوبة من نوبات الربو أو كحة شديدة وقد يتبول بكثرة أو من يدرى فقد لا يستطيع أن يتبول إلا بصعوبة بالغة . وقد يعانى من الإسهال أو من الإمساك أو من حمى تجتاح جسده الصغير قد يستيقظ طفلك مذعوراً ويظل يصرخ ويبكى ويحرك يديه ورجليه ذات اليمين وذات اليسار. لقد أصاب الاضطراب نوم ذلك الصغير. قد تلاحظين يا سيدتى علامات الضيق والتعب على وجه طفلك. إنه قد يتشنج أو تنتابه نوبات من الرعشة الشديدة مثلا .

إنك يا سيدتى قد تفزعين وتدهشين . . . أيكون كل ذلك بسبب التسنين ؟

إن طفلك يا سيدتى أيضاً قد يصاب بالتهاب اللوزتين أو

التهاب الأذن الوسطى أو التهابات فى الأنف لا تستجيب لأى علاج أبداً .

وقد يكون وجه طفلك الجميل يا سيدتى هدفاً لطفح جلدى وقد لا يحدث ذلك فى الوجه كله ولكن فى جانب واحد منه فقط الذى يوجد به ذلك الضرس الذى يحاول الظهور فى الفم .

ولا تظنى أن أعراض التسنين التى قد تحدث لطفلك سوف تصيبه فى حياته مرة واحدة فقط . فمن يدرى فقد تزوره نفس تلك الأعراض أكثر من مرة فى فترات التسنين التالية . وتلك الأعراض أيضاً قد يعانى منها طفلك فى كل مرة بضعة أيام فقط أو بضعة أسابيع ولكنى أرجو ألا تظنى أنها دائماً بسبب التسنين . إن الاضطرابات التى تحدث فى جسد طفلك الصغير كتلك التى تحدث بسبب نقص التغذية مثلا قد يكون لها يد طولى فى الكثير من تلك الأعراض .

ماذا تصنعين لطفلك وقت التسنين ؟

عندما يقاسى طفلك يا سيدتى فى فترة التسنين فإنه سوف يكون فى حاجة إلى خبرة طبيب أطفال وكذلك فى حاجة إلى خبرة طبيب أسنان .

إن طبيب الأطفال سوف يقوم بعلاج طفلك الصغير حسب الأعراض التى يشكو منها وسوف يظل ذلك الطبيب

يباشر ذلك العلاج حتى تختفى تلك الأعراض تماماً .

أما طبيب الأسنان فإنه سوف يقوم بعمل العلاج الموضعى اللازم الذى يحيط بمنطقة الضرس الذى يحاول الظهور فى الفم . وإذا لم تتحسن الأحوال فسوف يشق الطبيب اللثة التى تغطى الضرس الذى يحاول الظهور فى الفم ويصنع فتحة فيها وبذلك يجعل من السهل على ذلك الضرس أن يظهر فى الفم سريعاً .

وفى خلال ذلك كله اعتنى يا سيدتى بغذاء طفلك . أعطى له أحد المهدئات أو المسكنات حتى تسكن تلك الآلام التى يصرخ منها . واعتنى بنظافة فمه وكذلك اعتنى بنظافة أوانى التغذية الصناعية التى قد يستعملها الطفل . إن عدم العناية بتلك الأوانى قد يكون هو السبب الذى يلوث الجرح الذى يحيط بذلك الضرس الذى يحاول الظهور فى الفم . وقد يكون هذا التلوث هو السبب فيما قد يعانيه طفلك من اضطرابات كالحمى مثلا .

والآن يا سيدتى أرأيت ماذا يحدث لطفلك الصغير فى فترة التسنين ؟ !

١٥

أسنان طفلك ياسيدتى ! !

أسنان طفلك اللبنية يا سيدتى لا تحظى دائماً بالوفير من عنايتك ، إن تلك الأسنان التى يمضغ عليها الطفل طعامه فى فترة حيوية من حياته قد لاتستحوذ دائماً على الكثير من اهتمامك. بل إن المصادفة وحدها هى التى قد تنبهك إلى خطورة ما يصنعه الإهمال فى فم طفلك . ولذلك فأنت ما تكادين تلمحين التسوس قد أخذ طريقه إلى أسنان طفلك إلا ويعتريك الدهشة .

هل تريدين أن تعرفى حقًّا السبب فى تسوس أسنان طفلك؟ إنها الحلوى التى يلتهمها ذلك الصغير فى نهم شديد. إن الميكروبات التى توجد طبيعياً بالملايين فى فمه تعمل على تلك الحلوى وسائر بقايا المواد النشوية والسكرية الأخرى وتصنع حامضاً مركزاً يفتت سريعاً أجزاء كبيرة من أسنان طفلك .

إن تلك الأسنان اللبنية الغضة لا تستطيع المقاومة كثيراً . إن التسوس فى بضعة أشهر قليلة يستطيع أن يتغلغل فى تلك

الأسنان ويجعلها تؤلم الطفل ألماً شديداً لا يستطيع معه أبداً أن يمضغ طعامه على تلك الأسنان المريضة .

وتقررين حسماً للموقف أنه يجب أن تذهبى بالطفل إلى طبيب الأسنان حتى يقتلع السنة التالفة التى يشكو طفلك بسببها ويريحه منها نهائياً . ولم لا ؟ أليست هذه السنة اللبنية مؤقتة ؟ أليست تؤلم الطفل وتجعله يصرخ صراخاً عالياً ؟

فما الداعى إذن لبقائها ؟ لابد من خلعها فوراً . إنها حتماً سوف تزول يوماً من فم الطفل بل إن السنة الدائمة ، سوف تظهر مكان السنة اللبنية عقب الخلع مباشرة .

متى تظهر الأسنان الدائمة ؟

سوف يطول انتظارك يا سيدتى للسنة الدائمة التى تظنين أنها سوف تظهر مكان السنة اللبنية عقب الخلع مباشرة . لقد كان ظنك هذا حلماً يصعب تحقيقه تماماً .

إن أسنان الأطفال لا تظهر فى الفم اعتباطاً أبداً . إنها تظهر فى أوقات محددة .

وحتى تكون الصورة أمامك على حقيقتها فإنى سوف أقص عليك القصة الكاملة لظهور الأسنان فى فم طفلك .

إن فكى الطفل يعتبران المصنع الذى يمده فى خلال الاثنى عشرة سنة الأولى من حياته بثمان وأربعين سنة . عشرون سنة لبنية وثمان وعشرون سنة دائمة .

وهذه الأسنان اللبنية وتلك الأسنان الدائمة يكونان مجموعتين من الأسنان منفصلتين تماماً . الأولى تعتمد فى نموها على صحة وتغذية الأم أثناء فترة الحمل، أما الثانية فتعتمد فى تكوينها على صحة وتغذية الطفل فى السنوات السبع الأولى من حياته بينما تتكون طرابيش تلك الأسنان الدائمة داخل الفكين .

ولا تظنى أبداً يا سيدتى أن الأسنان اللبنية ما هى إلا شىء مؤقت لا قيمة له إطلاقاً . . إن تلك الأسنان اللبنية العشرين ذات أهمية قصوى للطفل فى خلال الاثنتى عشرة سنة الأولى من حياته، إنه يمضغ عليها طعامه فى تلك الفترة الهامة من حياته ووجودها فى حالة سليمة يعتبر ضرورياً لنمو الوجه والفكين بل إن تلك الأسنان اللبنية تؤثر إلى حد كبير على نمو الأسنان الدائمة وتقرر مصيرها .

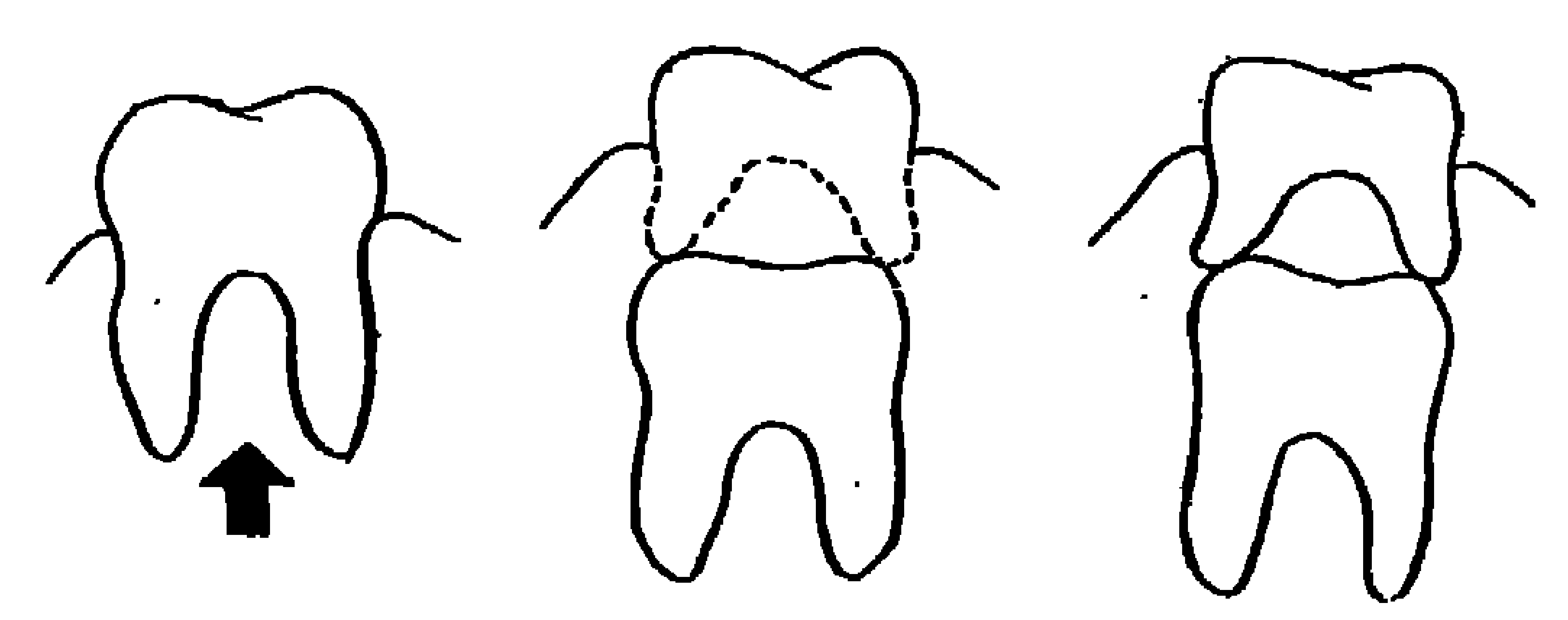
وتلك الأسنان اللبنية يبدأ ظهورها فى الفم واحدة وراء الأخرى منذ أن يصبح عمر الطفل سبعة أشهر ويتم ظهورها عندما يصبح عمر ذلك الطفل عامين أو عامين ونصف عام تقريباً . .

إن طفلك يا سيدتى يظل يستعمل تلك الأسنان اللبنية وحدها إلى سن السادسة أو السابعة ، وبعد ذلك يبدأ فى اجتياز فترة هامة أخرى من حياته هى فترة تبديل الأسنان اللبنية وإحلال الأسنان الدائمة مكانها. يحدث ذلك فى خلال الست السنوات التالية فى حياة الطفل من سن السادسة إلى سن الثانية عشرة .

وفى تلك الفترة يدور فى فك طفلك معركة هدم وبناء . هدم للأسنان اللبنية وبناء للأسنان الدائمة . إن تلك الأسنان اللبنية سوف تسقط من الفم فى أوقات محددة واحدة وراء الأخرى بسبب تآكل جذورها .

وفى أثناء فترة تآكل جذور تلك الأسنان اللبنية ثم السقوط من الفم تأخذ الأسنان الدائمة فى النمو والبناء ثم الظهور فى الفم فى نفس أماكن الأسنان اللبنية . وفى خلال كل ذلك فإن الفكين يكونان فى نمو مستمر حتى يمكن أن يوفرا لكل سنة من الأسنان الدائمة مكاناً لتظهر من خلاله فى الفم .

وتلك الأسنان الدائمة يا سيدتى عادة تظهر فى مجموعات يتكون كل منها من أربع أسنان متشابهة ، اثنتين فى الفك العلوى



خطوات تبديل الأسنان (سقوط الأسنان اللبنية وظهور الأسنان الدائمة)

واثنتين فى الفك السفلى ، واحدة إلى اليمين وواحدة إلى اليسار من كل فك .

فى سن السادسة يظهر الضرس الدائم (الطاحن الأول) فى نهاية كل جانب من جوانب الفكين خلف الضروس اللبنية . هذا هو أول الضروس الدائمة التى تظهر فى الفم والتى لا يسبقها أسنان لبنية . اهتمى يا سيدتى بذلك الضرس اهتماماً كبيراً واعتنى به كثيراً . إنه يعتبر حجر الزاوية فى فم طفلك .

وفى سن السابعة تسقط القواطع اللبنية الأولى الأربعة من فم طفلك وتظهر مكانها القواطع الدائمة الأولى . وفى سن الثامنة تسقط القواطع اللبنية الثانية الأربعة من فم الطفل وتظهر مكانها القواطع الدائمة الثانية .

أما فى سن العاشرة فإن أول الضروس اللبنية يسقط من الفم ويظهر مكانه فى الفك ضرس اسمه الضاحك الأول .

وفى سن الحادية عشرة يسقط الضرس اللبنى الثانى ويظهر مكانه ضرس آخر اسمه الضاحك الثانى .

وفى سن الثانية عشرة يظهر الطاحن الثانى الدائم فى الفم فى نهاية كل جانب من جوانب الفكين بجوار الطاحن الأول الدائم . إنى أسمعك يا سيدتى الآن تتساءلين : وماذا عن الأنياب ؟

الواقع أن الأنياب الدائمة تظهر فى أماكنها بين القاطع الدائم الثانى والضاحك الأول عقب سقوط الأنياب اللبنية فى حوالى سن الثانية عشرة من عمر طفلك .

والواقع أن أوقات سقوط الأسنان اللبنية ثم ظهور

الأسنان الدائمة فى أماكنها ليست محددة تماماً . إن التقديم أو التأخير فى حدود عام أو عامين مثلا لا يعنى شيئاً خطيراً أبداً .

ومنذ سن السابعة عشرة إلى سن الخامسة والعشرين تقريباً ترقبى يا سيدتى ظهور ضروس العقل فى فم طفلك . . . آسف . . فى فم ابنك الذى أصبح شاباً كبيراً .

أخطار يسببها الخلع المبكر لطفلك !

لا تظنى يا سيدتى أن خلع إحدى أسنان طفلك اللبنية لا تعنى شيئاً أبداً : إن ذلك الخلع لو حدث مبكراً وقبل أن يأتى موعد سقوط تلك السنة اللبنية وظهور السنة الدائمة مكانها — لأدى إلى نتائج خطيرة قد يظل يعانى منها طفلك طيلة حياته .

ماذا يمكن أن يحدث لو خلع مبكراً آخر ضروس طفلك اللبنية فى الجانب الأيمن من الفك السفلى فى سن الرابعة أو الخامسة مثلا .

هل تذكرين يا سيدتى متى يسقط ذلك الضرس اللبنى ومتى يظهر مكانه الضرس الدائم ؟

فى سن الثانية عشرة تقريباً . . .

ماذا تظنين ؟ ماذا يمكن أن يحدث ذلك فى الفك فى مكان خلع ذلك الضرس اللبنى فى فترة السبع أو الثمانى سنوات الباقية هذه ؟

إن الذى يحدث عادة هو أن الضرس الدائم الذى سوف يظهر فى الفم فى سن السادسة خلف الضروس اللبنية (الطاحن الأول) سوف يجد بجواره فراغاً مكان الضرس اللبنى المخلوع وحينئذ فإن ذلك الضرس الدائم سوف يظهر فى الفم مائلا إلى الأمام معتدياً على جزء من مكان الضرس المجاور .

وفى نفس الوقت فإن فك الطفل سوف يصيبه بعض الانكماش فى ذلك الجانب الأيمن الذى خلع منه الضرس اللبنى وتكون النتيجة أن يضيق ذلك الفراغ الموجود رويداً رويداً عاماً وراء عام . وعندما يحين موعد ظهور الضرس الدائم فى سن الثانية عشرة من عمر طفلك سوف يجد مكانه لا يرحب به أبداً ضرس طفلك الدائم ولن يتمكن من أن يظهر فى مكانه فى راحة تامة إطلاقاً . لقد أصبح مكانه فى الفك ضيقاً للغاية .

ولا يجد ذلك الضرس الدائم أمامه إلا طريقين إما أن يظل مدفوناً فى الفك معلناً فشله فى محاولته الظهور فى الفم وإما أن يظهر فى الفم ولكن فى مكان آخر بعيداً عن مكانه الأصلى الضيق كأن يظهر فى نفس الفك ولكن من ناحية اللسان مثلا .

إنى أظنك تريدين أن تسأليني الآن : وماذا أفعل إذا اضطررت على الرغم منى أن أخلع إحدى أسنان طفلى اللبنية؟

إنى أعلم يا سيدتى أن ذلك الخلع المبكر فى أحيان كثيرة

يكون شراً لابد منه كأن يكون السبب فى ذلك مثلا التسوس العميق وإصابة عصب الضرس بحيث لا يكون هناك إلا حل وحيد فقط هو خلع ذلك الضرس على الفور .

إن الإجراء الضرورى يا سيدتى عقب ذلك الخلع هو أن نصنع تركيبة خاصة عبارة عن طقم جزئى صغير يستعمله الطفل مكان الضرس المخلوع يحافظ به على مكانه دون تغيير حتى يحين موعد ظهور الضرس الدائم فيجد مكانه مناسباً على استعداد لاستقباله فى راحة تامة .

ولكن يا سيدتى لماذا تسكتين حتى تضطرى على الرغم منك إلى خلع أحد أسنان طفلك ؟ لماذا لا تلجئين إلى الوقاية منذ البداية ؟

كيف تعتنين بأسنان طفلك يا سيدتى ؟

١ — قللى من كمية الحلوى التى يتناولها طفلك . لا تعطيه شيئاً منها أبداً بين الوجبات . قللى عموماً من المواد النشوية والسكرية التى يتناولها الطفل وأكثرى من الخضراوات والفواكه . عودى طفلك منذ أيام الطفولة الأولى على ذلك .

٢ — نظفى فم طفلك منذ ولادته حتى سن الثالثة بقطعة من القطن أو الشاش المغموسة فى حامض البوريك المخفف . هذه الطريقة كافية فى تلك الفترة لتنظيف فم الطفل وأسنانه عقب

كل وجبة من وجبات الطعام .

٢ ــ علمى طفلك يا سيدتى منذ سن الثالثة كيف يستعمل فرشاة الأسنان، لتكن هذه الفرشاة صغيرة ذات شعيرات ناعمة أو متوسطة الخشونة فقط . وليبدأ طفلك أولا فى استعمال هذه الفرشاة مع ماء دافئ ثم بعد ذلك يستعمل أيضاً معجون أسنان يفضله حتى تكون عملية تنظيف الأسنان محببة إلى نفسه . عودى طفلك أن ينظف أسنانه ، مثله مثل الكبار تماماً .

إن تنظيف الأسنان يا سيدتى عادة يومية ذات أهمية كبيرة يجب أن تعودى عليها طفلك منذ البداية .

٤ ــ يجب أن يبدأ طفلك فى زيارة طبيب الأسنان كل ستة أشهر منذ سن الثالثة تقريباً . إن الطبيب يستطيع أن يكتشف مبكراً التسوس الذى قد يحدث فى أسنان طفلك ويستطيع أن يبعد ذلك السوس قبل أن يستفحل ثم يحشو أسنان طفلك بالحشو المناسب . والطبيب أيضاً يستطيع أن يستعمل فلوريد الصوديوم الموضعى على أسنان طفلك فيقلل بذلك من نسبة تسوس أسنان ذلك الطفل كثيراً .

٥ ــ لو أن التسوس فى بعض أسنان طفلك كان عميقاً وسبب تلوث العصب يجب عمل العلاج اللازم فوراً وإذا قرر الطبيب فى بعض هذه الأحوال خلع الضرس المصاب فيجب عقب ذلك استعمال التركيبات الصناعية اللازمة للمحافظة على

مكان الضرس الدائم حتى يحين موعد ظهوره فى الفم .

٦ ـ إذا سقط طفلك يا سيدتى على أسنانه أو إذا أصيبت تلك الأسنان بصدمة فيجب ألا تهملى هذه الإصابات أبداً . إن إجراء العلاج اللازم فوراً ضرورة قصوى للمحافظة على أسنانه .

٧ ـ إذا كانت أوضاع بعض أسنان طفلك غير سليمة فإن تعديل هذه الأوضاع وتقويم هذه الأسنان ضرورة لازمة للمحافظة على تناسق هذه الأسنان والسماح للفكين بالنمو نمواً سليما ثم عدم إصابة أسنان طفلك ببعض الأمراض مستقبلا .

١٦

هل تغذين طفلك صناعيًّا ياسيدتى ؟ !

طفلك يا سيدتى . هل تغذينه صناعياً ؟ هل تحرمينه من الرضاعة وتجعلينه يتناول طعامه عن طريق زجاجات التغذية الصناعية ؟ !

أنت تعرضين طفلك يا سيدتى إلى خطر كبير . إنه لن ينسى أبداً أنه قد حرم من أشهى وأحسن غذاء فى الدنيا . إن لبن الرضاعة يا سيدتى لا يمكن أن يشابهه أى غذاء آخر لتغذية الأطفال . وكذلك فإن عملية مص ثدى الأم أثناء تلك الرضاعة تعتبر ضرورة لازمة لنمو فكى الطفل طبيعياً وتناسق أسنان طفلك فى شكل بديع وجذاب .

وأثناء حملك لطفلك فى فترات الرضاعة يا سيدتى يكون فيها هذا الطفل الصغير هدفاً لعطفك وحنانك . فأنت تحملينه على صدرك وتمنحينه ثديك وتربتين على ظهره بيدك الرقيقة ، فتشعرينه بالسعادة والاطمئنان .

ولكنك يا سيدتى قد لا تكونين دائماً قادرة على إرضاع طفلك . أنا أعلم أن السبب فى ذلك خارج عن نطاق إرادتك . لقد طلب منك الطبيب أن تمتنعى عن إرضاع طفلك لأسباب

صحية خاصة بك مثلاً . إنك سوف تلجئين مضطرة إلى زجاجات التغذية الصناعية . ولكن مهلاً يا سيدتى إن تلك الزجاجات قد تصنع لطفلك أخطاراً كثيرة .

أخطار التغذية الصناعية !

عندما تضعين البزازة فى فم طفلك فإن تلك البزازة — بمرور الأيام والسنين — سوف تضغط على الأسنان العليا الأمامية وتجعلها تبرز إلى الأمام كثيراً . إن « الضب » سوف يكون من نصيب طفلك يا سيدتى .

إن الضغط المستمر لتلك البزازة على الجزء الأمامى من الفك العلوى أثناء فترة نموه قد يجعل ذلك الفك ينحرف عن اتجاهه الصحيح ويبرز للأمام بروزاً شديداً .

وليس هذا فقط بل إن ذلك الفك العاوى سوف يضيق كثيراً وسوف تنتشر الفوضى فى أسنان طفلك وتفقد تناسقها الجميل .

إن سوء اختيار البزازة وسوء وضع تلك البزازة فى الفم وسوء وضع الطفل أثناء وجبات التغذية الصناعية هى السبب فى كل ما سوف يعانيه الطفل فيما بعد بسبب زجاجات التغذية الصناعية.

أظنك تريدين أن تقولى : إذن بعد كل هذا ما العمل ؟

كيف تختارين بزازة لطفلك ؟

إذا كان لابد أن يتغذى طفلك صناعياً يا سيدتى فيجب

أن تدقق النظر عندما تختارين بزازة زجاجات التغذية الصناعية لطفلك . إن حسن اختيار تلك البزازة ضرورة لازمة حتى تمتنع أو تقل الأخطار التي قد تسببها للطفل .



تكوين « ضب » بسبب « البزازة »

وإذا نظرت إلى بزازة طفلك يا سيدتى سوف تجدين أن لها فتحة واحدة فقط يخرج منها اللبن إلى فمه. لا تكتفى بهذه الفتحة. اصنعى فى حلمة البزازة على الجوانب بضع فتحات صغيرة حتى يقل الميل للسرعة أثناء الغذاء وتقل أيضاً كمية الهواء الذى يبتلعه الطفل مع اللبن .

ولا تنسى أبداً يا سيدتى أن تحملى طفلك على صدرك أثناء وبعد وجبات التغذية الصناعية . اجعلى الطفل يلتصق بك فى ذلك الوقت . اجعليه دائماً يشعر بعطفك ورعايتك وحنانك .

١٧

هل يمص طفلك أصابعه ياسيدتى ؟

طفلك الرقيق الجميل هل يمص أصابعه ؟

إنى أعلم أن مص طفلك لأصابعه يسبب لك الكثير من القلق والحيرة .

أنت يا سيدتى فى غمرة كل ذلك القلق وكل تلك الحيرة تحاولين أن تمنعى طفلك من الاستمرار فى مص أصابعه . إنه يسبب لك حرجاً كبيراً عندما يضع أصابعه داخل فمه أمام الناس والجيران والأصدقاء . إنك تسارعين وتمدين يدك وتنتزعين أصابعه تلك من فمه وتصرخين فى وجهه : « ميت مرة أقولك بطل العادة دى ».

إن طفلك يا سيدتى عندئذ سوف يبكى طويلاً ويصرخ عالياً ثم — تحت ضغط زجرك وتأنيبك — سوف يرضخ لك فى النهاية وتظنين أنت أنه خلاص . . عقل وتاب وتخلص من تلك العادة السيئة .

. . . وفى المساء عندما يجد طفلك نفسه على السرير مغطى بالملاءة . . . بعيداً عن مراقبتك . . . يستمر على الرغم منك فى مزاولة هوايته . إنه حينئذ سوف يمص أصابعه فى نهم وخبث

شديدين يثيران العجب والدهشة .

وعندما ترفعين الملاءة من على وجه طفلك عفواً وتفاجئينه وهو يمص أصابعه سوف يسارع بإبعاد يده من فمه ويصطنع النوم العميق جداً . هل تعرفين سبب مصه لأصابعه ؟

هل تريدين حقاً يا سيدتى أن تعرفى سبب مص طفلك الرقيق الجميل لأصابعه ؟

لماذا يمص طفلك أصابعه ؟

عندما تمنعين طفلك يا سيدتى من اللعب مع أصدقائه الصغار أو عندما يرفض هؤلاء الصغار أن يلعب طفلك معهم سوف يسارع ذلك الطفل الحزين على الفور ويمتص أصابعه .

وعندما يكون طفلك هدفاً لزجر وتأنيب والده مثلاً ويكون بعيداً عن حبكما وحنانكما سوف يسارع على الفور ويمص أصابعه .

وعندما يجد طفلك نفسه وحيداً غير مرغوب فيه ليس موضع اهتمام أو عناية أحد سوف يسارع على الفور ويمص أصابعه .

وعندما ينظر طفلك حوله فيجد بيتاً منقسماً على نفسه مملوءاً بالمشاحنات والمنازعات سوف يسارع على الفور ويمص أصابعه .

إنه يجد فى مص تلك الأصابع سعادته ، إنه يشعر أن السرور قد بدأ يصل إلى قلبه وأن التوتر الذى يعيش فيه قد بدأ يزول من نفسه .

ولذلك يا سيدتى لا تصدقين جيرانك الذين يقولون لك

إن الجوع وحده هو السبب فى مص طفلك لأصابعه . إن الجوع ليس دائماً هو الذى يجعل الطفل يصر على مص أصابعه .

ولكن . . . هل يعنى هذا أن الاضطرابات النفسية التى تصيب الطفل هى السبب فى مص أصابعه ؟

أبداً ! ! إن هذا لا يحدث دائماً . إن الكثير من الأطفال — وخصوصاً فى السنتين الأوليين من حياتهم — يمصون أصابعهم لا لشىء إلا لأن مص الأصابع يبعث فى نفوسهم السرور والسعادة دون أن يكون الضيق والتوتر هما السبب فى ذلك .

بل إنه من الغريب أحياناً أن الجنين الذى لم يولد بعد وهو فى شهره الثامن أو التاسع قد يمد أكبر أصابع يده إلى فمه ويأخذ فى مصه بشدة . إن ذلك الجنين يعتمد على دم الأم فى تناول غذائه ولذلك فإنه يمص أصابعه لا لشىء إلا لأن ذلك المص حاجة ملحة يريد إشباعها .

ولعله من الطريف يا سيدتى أن أقول لك إن طفلك عندما يمص أصابع إحدى يديه فإنه لا يترك أصابع اليد الأخرى دون عمل غالباً . إن أصابع تلك اليد تقوم ببعض الحركات الإضافية كاللعب فى الأذن أو جذب الشعر مثلاً .

ولعله من الطريف أيضاً أنه قد يوجد أكثر من طفل فى نفس العائلة يمصون أصابعهم فى وقت واحد .

أخطار يصنعها مص الأصابع لطفلك !

هل رأيت يا سيدتى فتاة حلوة جميلة يشوه « الضب » حلاوتها وجمالها ؟

أنت لابد تذكرين ذلك « الضب » جيداً يا سيدتى . إنه بروز الأسنان العليا الأمامية كثيراً . إن ذلك البروز سوف يثير الحزن والأسى فى نفسك بسبب كل ذلك التشويه الذى أتلف تناسق الأسنان الطبيعية .

إن طفلك يا سيدتى عندما يستمر فى مص أصابعه مدة طويلة سوف يتعرض للإصابة بذلك الضب . إنه عادة يمص أضخم أصابع يده وهو الإبهام الذى يعتبر أكثر الأصابع التى يمصها الأطفال انتشاراً .

إن طفلك عندما يمص ذلك الإصبع يحدث ضغطاً مستمراً على الجزء الأمامى من الفك العلوى . وبمرور الأيام والسنين فإن ذلك الضغط البسيط فى تلك المدة الطويلة سوف يدفع الأسنان العليا الأمامية إلى الأمام ويجعل الأسنان السفلى الأمامية تتقهقر إلى الخلف . وفى نفس الوقت سوف يساعد ذلك عضلات الخدود على أن تضغط على الفك العلوى ضغطاً شديداً يؤدى إلى أن يضيق ذلك الفك العلوى كثيراً .

وأنت تعلمين يا سيدتى أن سقف الحلق يعتبر أرضية للأنف . وعندما يضيق ذلك السقف سوف يجعل التنفس من الأنف غاية

فى الصعوبة وقد يشجع طفلك على التنفس من فمه وهذا سوف يصنع المزيد من الفوضى فى أوضاع أسنانه . وعندما يمص طفلك أصابعه يا سيدتى فإنه يترك تلك الأصابع بين الأسنان العليا الأمامية والأسنان السفلى الأمامية وذلك سوف يؤدى غالباً إلى وجود « فتحة » عندما يغلق طفلك فمه ويجعل الأسنان الخلفية العليا والسفلى تنطبق كل على الأخرى . إن الضغط المستمر لإصبع طفلك هو الذى صنع تلك الفتحة التى تسبب المزيد من الاضطراب فى نظام أسنانه . وقد يحدث كثيراً أن يظهر اللسان من تلك الفتحة ويساعد على بقائها مدة طويلة .

والآن يا سيدتى هل تظنين أن هذا هو كل ما يمكن أن يصنعه مص الأصابع لطفلك ؟

أبداً . إن التشوهات التى تحدث فى أسنان طفلك المسكين سوف تعرضه للكثير من الاضطرابات النفسية لأنه سوف يصبح هدفاً لسخرية زملائه وكل من حوله مما يجعله ينعزل عن هؤلاء ويعيش داخل نفسه .

وليس هذا فقط بل إن تلك التشوهات سوف تمهد الطريق لإصابة ذلك الطفل بتسوس الأسنان والبيوريا مبكراً .

وفى البنات . . فإن ذلك الضب الذى يحدث لهن سوف يعرض مستقبلهن كله للخطر وخصوصاً أن هؤلاء البنات أكثر حساسية واهتماماً بمظهرهن عن الأولاد .

كيف تنقذين طفلك من مص أصابعه ؟

إذا لاحظت يوماً يا سيدتى أن طفلك يمص أصابعه لا تسمحين للذعر أن يجتاح نفسك . لا خطر هنالك أبداً . إن هذا ليس إلا دليلاً على أن الطفل يعانى من ظروف قاسية وفى حاجة إلى المزيد من اهتمامك وعنايتك .

لا تحاولى أن تلجئى معه إلى العنف والشدة . لا تسارعى وتخرجى أصابعه من فمه بالقوة . ولا تؤنبيه ولا توبخيه على عادته تلك وخصوصاً أمام الأطفال الآخرين أو المعارف والجيران . إنك إن فعلت ذلك يا سيدتى فإنى أؤكد لك أنك سوف تساعدين على أن تزداد حالة طفلك سوءاً . إنه لن يقلع عن مص أصابعه أبداً . بل إنه أيضاً سوف يتعود على عادات أخرى سيئة كقرض أظافره أو عض اللسان أو الشفاه مثلاً .

إن طفلك فى حاجة ماسة إلى حبك وحنانك . أعطى له المزيد من وقتك واهتمامك . أتيحى له الفرصة فى أن يلعب مع الأطفال الآخرين كثيراً وأكدى له أنك بجواره وعلى استعداد دائم لمساعدته .

وإذا كان طفلك يا سيدتى يميل إلى مص أصابعه بكثرة فى السرير وقت النوم لا تتركيه وحده أبداً . ابقى بجوار سريره . لاعبيه . احكى له قصصاً مسلية أو اقرئى له من كتاب به قصص يحب أن يسمعها . أعطى له قبيل النوم لعبة يحبها ليمسكها بأصابعه بدلاً من أن يضع تلك الأصابع داخل فمه . استمرى

فى ذلك يومياً يا سيدتى ولا تسمحى لليأس بأن يتسرب إلى نفسك أبداً . وحتى إذا ظل طفلك يمص أصابعه حتى سن الخامسة ثم توقف بعد ذلك عن مصها فإن كل الاضطرابات فى أوضاع واتجاهات أسنانه سوف تزول وحدها تدريجياً وسوف تصحح نفسها بنفسها غالباً .

ولكن لك يا سيدتى أن تجزعى إذا ظل طفلك يمص أصابعه بعد سن الخامسة أو السادسة . إن هذا ليس إلا دليلاً مؤكداً على أن طفلك لا يزال يعانى من اضطرابات نفسية شديدة . ابحثى عن تلك الاضطرابات بنفسك وأخصائى الأمراض النفسية يستطيع أن يساعدك . إن السبب قد يكمن داخل المنزل . قد يسبب اضطراب العلاقة بين الأم والأب أو قد يكون بسبب وجود نظام صارم فى ذلك المنزل . إن الطفل يصبح فى حاجة إلى أن يكسب الوالدان صداقته ويتعاونا معه لإيقاف تلك العادة .

إنهما من الممكن أن يُفهما الطفل — بطريقة مبسطة — أخطار تلك العادة ويجعلاه على دراية ووعى بتلك الأخطار التى من الممكن أن تحدث له إذا استمر يمص أصابعه .

ويجب أن تساعدى طفلك على إعادة علاقاته مع الأطفال الآخرين الذين يحب اللعب معهم ويرتاح إليهم . ويجب مساعدته على ذلك بإحضار وسائل اللعب التى يريدها ويرغب فيها . ومن الممكن يا سيدتى أن تلجئى إلى الجد و الجدة

أو أخى الطفل أو أخته إذا كان فى وسع أى من هؤلاء أن يكسب صداقته وأن يساعدك فى تخليص طفلك من عادة مص أصابعه .

إن القاعدة فى العلاج هنا هى أن تحل كل الصعوبات النفسية التى يعانى منها الطفل أولاً والتى كانت السبب فى أن يمص أصابعه وعندئذ سوف يتوقف ذلك الطفل عن مص تلك الأصابع مباشرة .

وأنت يا سيدتى سوف تحتاجين إلى معونة أخصائى تقويم الأسنان إذا ظل طفلك مصرًّا على مص أصابعه وإذا أحدث ذلك المص تشوهات واضحة فى أوضاع واتجاهات أسنانه . إن ذلك الأخصائى قد يلجأ إلى استعمال وسائل معينة تمنع الطفل من الاستمرار فى مص أصابعه . وأنه قد يصنع جهازاً خاصاً يساعد الطفل فى أن يتخلص من عادته تلك . وقد يقوم ذلك الأخصائى بعمل أية أجهزة أخرى مناسبة تصحح التشوهات فى أسنان طفلك وتعيد إليه جمال ابتسامته .

١٨

هل يتنفس طفلك من فمه يا سيدتى ؟

أنف طفلك يا سيدتى . أنف طفلك الدقيق الصغير قد يكون هو سر تعاسته ! !

إن كل الناس تتنفس من الأنف . إن ذلك الأنف هو المدخل الطبيعى الوحيد للهواء الذى يريد أن يأخذ طريقه إلى الرئتين .

وهذه الطريقة فى التنفس تساعد كثيراً على النمو السليم للفكين والوجه عموماً . بل إن التنفس من الأنف يعتبر ضرورة لازمة حتى يمكن أن ينمو الوجه والفكان نمواً طبيعياً . فلماذا إذن يتنفس طفلك من فمه يا سيدتى ويعرض نفسه للكثير من الأخطار ؟

إن طفلك — فى الحقيقة — لا يتنفس من فمه بإرادته أبداً . إنه يفعل ذلك على الرغم منه . إن ذلك يحدث عندما يجد الهواء الداخل إلى الأنف نفسه أمام مقاومة شديدة داخل ذلك الأنف . إن وجود زوائد أنفية مثلا هو الذى يصنع كل تلك المقاومة أمام الهواء الذى يحاول الدخول إلى الأنف ولا يجد ذلك الهواء بداً من أن يحول طريقه ناحية الفم ويتنفس طفلك من فمه.

وليست الزوائد الأنفية دائماً هى التى تجعل طفلك يتنفس

من فمه . إن تضخم اللوزتين أو الإصابة بالربو مثلا قد يرغم طفلك على أن يتنفس من فمه على الرغم « من أنفه » وهذا التنفس من الفم يا سيدتى قد يحدث لطفلك فى أى فترة من فترات حياته . قد يصيبه وعمره لا يزال بضعة أشهر فقط وقد يصيبه وعمره عام أو عامان أو حتى خمسة أعوام كاملة . ولا تظنى أن طفلك يتنفس من فمه طول اليوم دائماً . إنه قد لا يصنع ذلك إلا وقت النوم بالليل فقط ، ولا تظنى أيضاً أن هناك دائماً ما يرغم طفلك على التنفس من فمه . إنه قد لا يفعل ذلك النوع من التنفس إلا بالتعود فقط . إن طفلك تدريجياً قد يتعود على أن يتنفس من فمه دون أن يكون هناك سبب مادى يدفعه إلى أن يفعل ذلك .

ماذا يصنع التنفس من الفم لطفلك ؟

إذا كان يضايقك يا سيدتى أن طفلك يبدو على وجهه الكثير من علامات الغباء والكآبة ، ففكرى جيداً فى أن التنفس من الفم قد يكون هو السبب. هل تريدين أن تتأكدى من ذلك؟ تعالى معى إذن لترى ماذا يمكن أن يصنع أيضاً التنفس من الفم لطفلك . إن فمه يظل مفتوحاً قليلا غالباً . شفته العليا تكون قصيرة . إنها متباعدة عن شفته السفلى كثيراً . إن أسنانه العليا الأمامية بارزة إلى الأمام بروزاً شديداً.. آه ... إن ذلك المسكين قد يكون له « ضب » كبير . وليس هذا فقط بل إن اللثة فى

منطقة تلك الأسنان العليا ملتهبة ومتورمة كثيراً .

افتح يا عزيزى الصغير فمك قليلاً . آه . . . إن فكه العلوى ضيق كثيراً وسقف حلقه عال جداً ، بل إن الفوضى قد أصابت كل أسنانه وجعلتها تفقد تناسقها .

هل يصنع التنفس من الفم كل هذا الاضطراب ؟

نعم يا سيدتى ، بل إنه أيضاً قادر على تأخير نمو الوجه والفكين وتعريض طفلك للإصابة بالكثير من النزلات البردية .

كيف تمنعين طفلك من التنفس من فمه ؟

لقد كان يا سيدتى ما صنعه التنفس من الفم لطفلك مفاجأة لك . إن مشاكل الحياة قد جعلتك لا تتنبهين إلى ذلك إلا أخيراً . ولكنى أعلم أنك تريدين أن تساعدى طفلك فى التخلص من تلك العادة السيئة . . . عادة التنفس من الفم . أعلم أيضاً أنك تريدين أن تعيدى إلى طفلك التناسق الذى فقده فى أسنانه وأن تبعدى كل الاضطراب الذى حدث فى تلك الأسنان . فهل تريدين أن تصنعى كل ذلك حقاً ؟

إن إبعاد كل أسباب التنفس من الفم يجب أن يكون فى البدء هو أساس كل علاج . إن أخصائى الأنف والأذن والحنجرة يستطيع مساعدتك فى هذا الصدد . إذا كانت الزوائد الأنفية أو تضخم اللوزتين مثلا هى السبب فى التنفس من الفم أزال ذلك الأخصائى تلك الزوائد الأنفية أو اللوزتين المتضخمتين ،

إننا نريد دائماً أن يصبح الطريق مفتوحاً دائماً للهواء الذى يريد الدخول من الأنف . وعندما يصبح التنفس من ذلك الأنف شيئاً سهلا ومؤكداً يأتى دور أخصائى تقويم الأسنان . إنه يصنع حاجزاً بسيطاً يضعه الطفل فى فمه عند النوم . لا يسمح ذلك الحاجز للهواء بالدخول من الفم أبداً . يوضع ذلك الحاجز فى الفم فى المنطقة التى توجد بين الأسنان من ناحية والشفاه والخدود من الناحية الأخرى. وعندئذ سوف لا يجد الهواء بداً من أن يمر من خلال الأنف .

١٩
ماذا عن أسنان مرضى السكر ؟

السكر . . . المر . . . أصبح واسع الانتشار بين الناس فى هذه الأيام .

إنه لا يرحم أبداً .

حتى الشباب فى أجمل سنوات العمر وحتى الأطفال على الرغم من براءة طفولتهم لا يرحمهم السكر أبداً .

لقد أصبح هذا المرض شهيراً فى هذا العصر الحديث .

إن أكثر من ربع مليون مواطن فى هذا البلد قد أصبحوا من رعايا مرض السكر .

وإن هذا المرض يرهقهم بمطالبه اليومية ويتشدد معهم فى كل تصرفاتهم، بل إنه يتحكم أيضاً فيما يأكلون وما لا يأكلون . هل تتصور هذا ؟ هل تتصور إلى أى حد يصل جبروت وغطرسة هذا المرض ؟

إن الكثيرين من الناس – على الرغم من كل هذا – لا يجدون بداً من احتماله إطاعة كل أوامره .

إلا أن بعض الناس تظل نفوسهم دائماً تهفو إلى نسيم الحرية . إنهم يضيقون بكل تحكمات هذا المرض ورغباته .

وعلى حين فجأة يضربون عرض الحائط بكل هذا الضغط المتوالى ويطلقون العنان لكل رغباتهم .

إنهم يرفضون وخز الإبر وابتلاع البلابيع وأيضاً يتناولون كل الطعام الذى تشتهيه نفوسهم بالكميات التى تتفق مع مزاجهم . وعندما تحذرهم يقولون لك : «يا عم ولا يهمك . هو حد واخد من الدنيا دى حاجة . ما أجمل أن تعيش حياتك كده بالعرض يا حبيبى » .

ورويداً رويداً ويوماً وراء الآخر تبدأ علامات الخطر تظهر فى حياة هذا النوع من المرض إنها المضاعفات . لقد بدأت هذه المضاعفات تغزو جسم المريض المسكين الذى صمم على أن سلطان رغباته فوق كل سلطان .

إن مرض السكر لا يساوى شيئاً بجانب مضاعفاته . بل إن أخطر ما فى هذا المرض هو هذه المضاعفات .

وما يحدث فى فم مريض السكر وأسنانه من إصابات ليس إلا مضاعفات لهذا المرض المر .

فما هى هذه الإصابات التى تحدث فى فم مريض السكر وما هى الأمراض التى تصيب أسنانه ؟

شىء اسمه البيوريا !

لثة المريض بالسكر لا تسكت أبداً . إنها تلتهب وتتورم وتنزف بسهولة جداً . بل إن لونها يكون شديد الحمرة كلون

الطماطم تماماً ، ثم تنحسر عن الأسنان ، ويمد المريض أصابعه ليطمئن عن متانة أسنانه . . إن الأسنان تتحرك من أماكنها . . إنها تتلخلخ .

فهل تريد أن تعرف السبب؟ إن العظام المحيطة بالأسنان تتآكل... النسيج الرقيق الذى يربط بين هذه الأسنان وعظام الفك يتمزق... تتكون جيوب بين هذه الأسنان واللثة ... يتجمع صديد داخل هذه الجيوب يخرج إلى الفم من حين إلى آخر. هذه هى البيوريا التى تجعل أسنانك تتحرك من أماكنها إلى حد قد يثير دهشتك . بل إن لسان ذلك المريض قد يكون جافاً متورماً يسبب له الكثير من الأوجاع والآلام، وقد تتكون خراريج حول نهايات جذور بعض الأسنان .تصنع هذه الخراريج هى والبيوريا بؤراً عفنة تنتقل منها العدوى إلى باقى أجزاء الجسم كله .

إن هذه السموم تقلل من قدرة الجسم على تمثيل المواد الكربوهيدراتية . ولذلك تزيد من نسبة السكر فى الدم وتزيد من كمية الأنسولين التى يصبح المريض فى حاجة يومية إليها .

ماذا يصنع المريض بالسكر قبل أن يخلع ضرسه ؟

إذا قرر طبيب الأسنان أن أحد مرضى السكر يجب أن يخلع إحدى أسنانه أصاب ذلك المريض الجزع وأخذ فى التردد طويلا . فى الوقت الذى قد يكون الخلع للمريض ذا فائدة قصوى . إن خلع ضرس ذى خراج فى مؤخرته لا يحسن الصحة

العامة للمريض فقط ولا يزيد من قدرة جسمه على تمثيل المواد الكربوهيدراتية فقط ولكن كمية الأنسولين اليومية التى يحتاج إليها تقل أيضاً . إنها نتائج رائعة تلك التى يحصل عليها المريض بالسكر لو تخلص من أسنانه المريضة .

إن كل ما نريده هو أن تكون نسبة السكر فى الدم قبيل ذلك الخلع فى الحدود الطبيعية تقريباً . ولا يتأتى ذلك إلا بعد أن يتناول المريض كمية الأنسولين اليومية التى قررها له طبيب الأمراض الباطنية الذى يكون المريض تحت رعايته الدائمة . إن أفضل وقت لخلع هذه الأسنان المريضة هو بعد تناول طعام الإفطار وكذلك بعد تناول كمية الأنسولين اللازمة بساعة ونصف الساعة إلى ثلاث ساعات. إن نسبة السكر فى الدم فى ذلك الوقت تكون حقيقة فى حدود معقولة . ولا تنس أبداً أن استعمال البنسلين أو أحد مركباته قبيل ذلك الخلع يعتبر ذا فائدة كبيرة أيضاً . إن مقاومة مريض السكر عادة تكون ضعيفة واستعمال البنسلين يمنع المضاعفات المحتملة ويساعد على التئام الجرح الذى يحدث عقب خلع الضرس .

كيف يعنى المريض بالسكر بصحة فمه ؟

١ — إن القاعدة الذهبية هى التحكم فى مرض السكر فى الجسم كله وجعل كمية ذلك السكر فى الدم فى الحدود الطبيعية دائماً . إن ذلك يجب ألا يكون بتناول الأنسولين فقط إن تناول

طعام خاص ثم معالجة أية مضاعفات قد تحدث للمريض يعتبر أيضاً ضرورياً جداً . ولذلك يجب أن يكون المريض بالسكر تحت عناية أخصائى الأمراض الباطنة دائماً .

٢ — يجب أن يكون المريض بالسكر تحت رعاية طبيب الأسنان المستمرة حتى يمنع الأمراض التى قد تصيب فمه قبل حدوثها .

٣ — يجب ألا يتردد المريض بالسكر فى خلع أسنانه المريضة.

٤ — نظافة الفم يجب أن تحظى بعناية المريض الزائدة . وذلك باستعمال الفرشاة والمعجون عقب كل وجبة من وجبات الطعام .

٢٠

طقم أسنانك . . . صديق الشيخوخة؟

لا تظن أنك الوحيد الذى سيستعمل طقم أسنان . إن فى بلد كالولايات المتحدة الأمريكية يوجد أكثر من عشرين مليون شخص يستعملون أطقم أسنان، وليس هذا فقط. بل إنه فى ذلك البلد أيضاً يصنع سنويًّا ما يزيد على مليونى طقم جديد للأسنان . وعموماً فأكثر من نصف عدد الناس فى حوالى سن الخمسين يستعملون أطقم أسنان .

ولذلك فلا تكتئب من طقم الأسنان .. إن هذا الطقم سوف يزيد من فرصك فى التمتع بالحياة . . أنت تستطيع أن تأكل به جيداً وأن تستمتع بهذا الأكل . تستطيع أن تعيد به اندماجك فى المجتمع وبين الناس دون أن يكون فقدك لأسنانك حائلاً بينك وبين هذا المجتمع وهؤلا الناس .

إنى أظنك لا تمانع الآن فى أن تمر بهذه التجربة الجديدة فى حياتك ، تجربة استعمال طقم أسنان ؟

متاعب طقم أسنانك

عشرات المتاعب والمضايقات سوف يسببها لك طقم أسنانك فى البداية . . إنه قد لا يثبت فى مكانه أبداً . وإنه سوف يأخذ

فى التحرك ذات اليمين وذات اليسار وخصوصاً أثناء الأكل أو الكلام . بل إن الطقم العلوى قد يسقط إلى أسفل كثيراً وفى أحيان أخرى فإنك قد تشعر بميل إلى التقيؤ عندما تضع طقم الأسنان فى فمك . إن ذلك يحدث كثيراً عندما تضع الطقم العلوى بالذات فى فمك .

وطقم أسنانك أيضاً قد يسبب لك ألواناً من الآلام التى لا حد لها فى مناطق مختلفة من فمك .

أنت يا صديقى العجوز فى حاجة إلى صبر كثير . لا تنس أن طقم أسنانك جسم غريب عن فمك . ولذلك فأنت فى حاجة إلى وقت طويل حتى يمكن أن تتعود عليه ، وحتى يمكن أن تتلاءم وتتكيف أنسجة فمك معه . إن طبيب الأسنان سوف يزيل بعض أسباب شكواك من الطقم ، ولكنه فى حاجة إلى معونتك وإلى صبرك حتى يمكن أن تحصل من طقم أسنانك على أروع النتائج .

وحتى تستطيع أن تساعد نفسك وأنسجة فمك على التعود على طقم أسنانك فإنى أنصحك أن تستعمله فى الأيام الأولى ليلاً ونهاراً . إنك بذلك سوف تعطى أنسجة فمك فرصة كاملة للتعود الذى تريده . إن طقم أسنانك سوف يصبح بعد ذلك مريحاً تماماً .

ولكنك يجب ألا تنسى أبداً أن تذهب إلى طبيبك فوراً

عندما تلاحظ أى ألم أو ورم أو قروح فى فمك عقب استعمالك لطقم أسنانك .

هل سيبدو شكلك طبيعيا ؟

هذا السؤال قد يحيرك كثيراً عندما تفكر فى أن تعمل طقم أسنان . إنك قد تظن أنه عندما تستعمل طقم أسنان سوف تفقد شكلك الطبيعى نهائياً .

إن هذا غير صحيح .

إن التجاعيد المحيطة بمنطقة فمك سوف تختفى عندما تستعمل طقم أسنان. وشكل ولون اللثة فى ذلك الطقم سوف يكونان تماماً مثل شكل ولون اللثة الطبيعية . وكذلك فإن لون وشكل وتنظيم أسنان طقمك سوف تكون هى الأخرى طبيعية جداً . إننا نريد منك فقط أن تتصرف كما لو كانت أسنانك الطبيعية لا تزال فى فمك . لا تضع يدك على فمك عندما تبتسم أو تضحك مثلاً . ولا تحاول أن تغلق فمك كثيراً لتخفى أسنانك بشفتيك . حاول أن تتصرف طبيعياً سوف يكون شكلك طبيعياً .

كيف تأكل بطقم أسنانك ؟

عندما تضع طقم أسنانك فى فمك وتأخذ فى رشف فنجان من القهوة الساخنة أو كوب من الشاى المثلج لا تنتظر أن هذه البرودة أو تلك السخونة سوف تنتقل إلى منطقة سقف حلقك مثلاً .

إن السبب فى ذلك هو أن مادة الأكريل التى تصنع منها الأطقم الصناعية عاجزة عن توصيل حرارة الطعام الذى تأكله أو تشربه إلى أى جزء تغطيه من أنسجة فمك . ولذلك فإنه فى بعض الأطقم الصناعية يصنع الجزء المغطى لسقف الحلق من مادة معدنية كالذهب أو من سبيكة من الكروم والكوبلت مثلا . إن حرارة الطعام سوف تنتقل بسهولة إلى سقف الحلق من خلال هذه المادة المعدنية .

ولا تظن أنك سوف تستطيع أن تأكل كل شىء منذ اليوم الأول الذى تضع فيه طقم الأسنان فى فمك . أنت فى حاجة إلى بعض الصبر ، عندما تتناول طعامك سوف تواجهك فى البداية صعوبات بالغة ولكن لا تأبه بها أبداً .. اختر فى الأيام الأولى طعامك من النوع الناعم الذى لا يحتاج إلى مضغ كثير وامضغه فى بطء شديد . ويوماً وراء الآخر سوف تستطيع أن تأكل أى شىء . ولكن حاذر فى البداية من أن تقضم التفاح أو تكسر البندق أو تأكل البلح الناشف مثلاً . انتظر قليلاً حتى تتعود عضلات فمك على ضغط طقم الأسنان عليها أثناء الأكل . وبعد ذلك التعود لك أن تأكل أى شىء تريده .

ولكن دائماً يجب أن تعطى لثتك فرصة للراحة . ولذلك لا تأكل شيئاً بين الوجبات حتى يمكن أن تستريح هذه اللثة التى يضغط عليها الطقم كثيراً وقت تناول الطعام .

وكيف تتكلم بهذا الطقم ؟

سوف تواجهك فى البداية صعوبات كثيرة وأنت تحاول أن تتكلم وطقم الأسنان داخل فمك . وقد تفشل محاولاتك هذه فى أن تتكلم كلاماً واضحاً فى الساعات أو الأيام الأولى من استعمالك لذلك الطقم .

لا تيأس . استمر فى المحاولة . وتدريجيًّا وبعد مرور هذه الساعات أو الأيام سوف تستطيع فى النهاية أن تتكلم كلاماً واضحاً بطقم أسنانك .

إن هذه الصعوبة سوف تختفى تدريجيًّا بل إنك بعد ذلك قد لا تنتبه إلى وجود طقم الأسنان نفسه فى فمك بالمرة .

وفى البداية أيضاً قد تجد طقم الأسنان يتحرك من مكانه إذا ما حاولت الكلام وهو داخل فمك . إن السبب فى ذلك هو أن عضلات الفم هى التى تحرك الطقم من مكانه أثناء الكلام . وهذه العضلات فى حاجة إلى بعض الوقت حتى يمكن أن تتكيف حسب الظروف الجديدة .

إذا أردت أن تتغلب على هذه الصعوبات فى الكلام سريعاً اقرأ فى الأيام الأولى بصوت عال نصف ساعة يوميًّا وطقم الأسنان داخل فمك .

إن عضلات اللسان والشفاه والخدود سوف تتعود فى النهاية على المحافظة على طقم الأسنان فى مكانه ولن تحركه أبداً أثناء الكلام.

كيف تنظف طقم أسنانك ؟

تذكر دائماً أنك قد فقدت أسنانك الطبيعية بسبب إهمالك فى تنظيفها والعناية بها . ولذلك فحتى يمكن أن يكون طقم سنانك سبب صحة لا مصدر مرض وحتى يمكن أن يظل ذلك الطقم جميل المنظر ولا تصدر منه أية رائحة كريهة فإن ذلك الطقم يجب أن يحظى بعنايتك الزائدة .

أخرج الطقم من فمك بعد كل وجبة من وجبات الطعام. نظف فمك بدون الطقم بالماء والصابون ثم اغسل الطقم بالماء الدافئ — لا الساخن — والصابون مستعملاً فرشاة ذات شعيرات للتخلص من الرواسب الجيرية .

وفى المساء . . . قبل النوم . . . ضع طقم أسنانك فى كوب خاص به بعض الماء المضاف إليه بضع قطرات من إحدى المواد التى تستعمل فى مضمضة الفم .

متى تجدد طقم أسنانك ؟

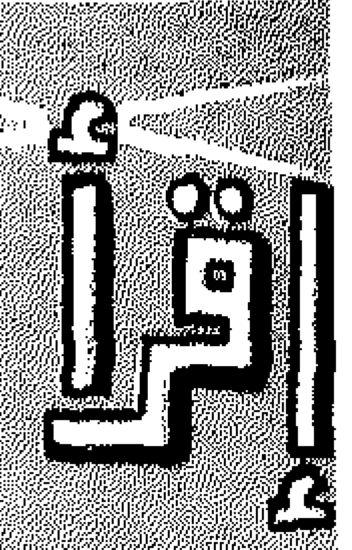
إن الطقم مثله مثل نظارة البصر فى حاجة إلى التغيير من وقت لآخر .

إن الطقم لا يتغير . ولكن أنسجة فمك هى التى تتغير بمرور الزمن . إن الفكين سوف ينكمشان قليلاً إلى حد أن يصبح طقم أسنانك فى النهاية كالرداء الواسع الفضفاض .

إنك سوف تلاحظ كل ذلك بنفسك. سوف تلاحظ مثلاً أن طقم أسنانك سوف لا يثبت فى مكانه بسهولة وأنه أصبح يتحرك ذات اليمين وذات اليسار. بل إنك قد تلاحظ أن ذقنك نفسها أخذت تبرز إلى الأمام قليلاً والتجاعيد المحيطة بفمك قد زادت وأصبحت أكثر عمقاً ووجهك عموماً أصبح يبدو أكبر سناً عما كان قبل ذلك .

لقد تقادم طقم أسنانك وأصبح من الضرورى أن تعيد النظر فيه . لقد حان الوقت لتغيير ذلك الطقم أو تجديد قاعدته على الأقل . إن تجديد القاعدة يشبه تماماً تجديد بعض القطع التالفة فى العربة التى استعملت بضع سنوات . إنك سوف تحتاج إلى عمل ذلك التغيير بعد بضعة أعوام من استعمالك لذلك الطقم . وعموماً فلعله من الأفضل لك أن تزور الطبيب مرة كل عام حتى يمكن أن يعيد النظر فى طقم أسنانك وأن يصنع لك فيه أية تغييرات ضرورية .

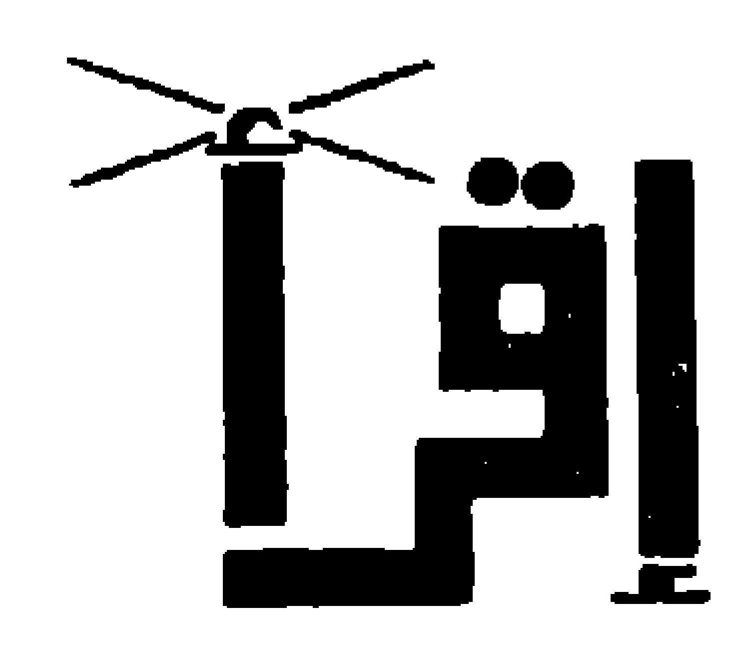
مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩



فى مواجهة إسرائيل

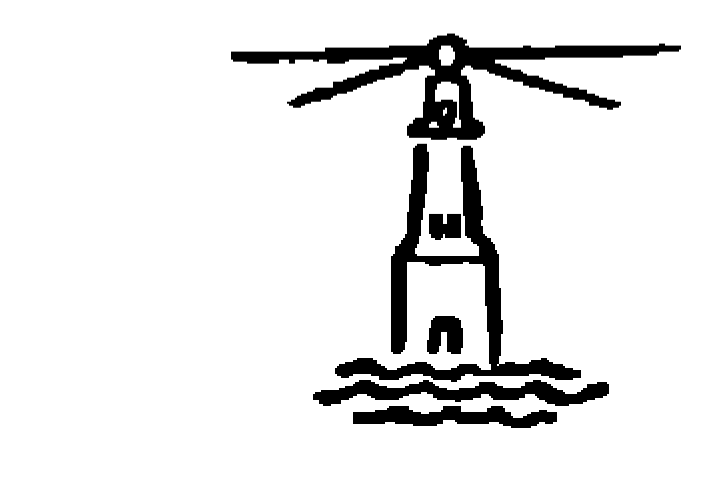
الدكتور إسماعيل صبري عبد الله

دار المعارف بمصر



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر



إسماعيل صبري عبدالله

في مواجهة إسرائيل

اقرأ ٣١٩
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣١٩ – يوليو سنة ١٩٦٩

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

إلى أطفال دير ياسين

إلى أين المصير . . ؟

عرفت الثورة العربية خلال السنوات العشر الأخيرة حركة مد وجزر متعاقبين . وقد عرفت القوى الثورية قبلنا المد والجزر . ولسنا نقول هذا تبريراً لأخطاء ، أو تعزية حيث لا عزاء . فليس حتماً مقضياً على كل ثورة أن تعرف على التوالى التقدم والتراجع . وإنما نحاول أن نضع الساعة الراهنة موضعها الصحيح من سلسلة الزمن المعاصر حتى لا يلهينا حدث على فداحته عن إدراك حركة الأحداث فى جوهرها . إن الثورة العربية بأبعادها الثلاثة : التحررى ، والتقدمى ، والوحدوى قد أحرزت نجاحات مؤكدة على رأسها استقلال الجزائر وثورة اليمن الشمالى وتحرر اليمن الجنوبى ، وإجراءات التحرر الاقتصادى والتحول الاجتماعى فى عدد من الأقطار العربية ، واتضاح المحتوى التحررى والتقدمى الضرورى لفكرة الوحدة العربية . وقد تعثرت الثورة فى مواقع كثيرة لأسباب متعددة فى مقدمتها تفرق القوى الثورية والتقدمية والصراع العنيف بينها . ولكن الجزر الأعظم الذى واجهته حركة التحرر العربى هو يقيناً هزيمة سنة ١٩٦٧ ، نعم لقد كانت تلك الهزيمة بآثارها العميقة ، وأبعادها الرهيبة ، أعتى ما أصاب الأمة العربية فى العصر الحديث : اقتطاعاً من الجسد ، وامتهاناً للعزة ، وامتحاناً عسيراً للعقل والإرادة .

وإذا كان رد الفعل المباشر والتلقائى للجماهير العربية قد جاء رائعاً وملهماً : رفض للهزيمة ، وصمود فى وجه العدوان ، وإصرار على النضال حتى النصر ، واستعداد للتضحية بلا حدود ، فإن ردود الفعل فى دوائر الحكم والسياسة وأوساط المثقفين وطلائع الشباب لم تكن دائماً فى مستوى الأحداث . لقد انتاب البعض بلبلة فكرية هائلة دعتهم إلى إعادة النظر

فى كل شىء ، والشك فى كل شىء . واشرأبت روح الهزيمة والاستسلام تتشفى بالقوى الثورية وما أصابها وتشيع باسم التعقل والاعتدال والواقعية الدعوى إلى التسليم للاستعمار الجديد والتماس الأمن فى ظل عصا الإمبريالية الأمريكية الغليظة وأداء ما تقتضيه تلك الحماية من إتاوة فى شكل التخلى عن آمالنا العراض فى الحرية والاشتراكية والوحدة. وفى الطرف الآخر وقف ثوريون شرفاء تقطر وطنيتهم مرارة وأسى ، يكاد القنوط أن يملك عليهم نفوسهم ويحملهم إلى المطالبة بالمغامرة بأى شىء كمن يشتهى غسل عار الهزيمة ، وسقى فولاذ الإرادة ، والتطهر من أخطاء وصلت أحياناً إلى حضيض الخطيئة فى نار حرب تحقق ذلك كله أو لا تبقى على شىء . . . وليس فى ردود الأفعال غنى لشعوبنا . إذ لا غنى لأى شعب يواجه ما نواجه من امتحان إلا فى التفكير الهادئ والحساب الدقيق . وهذا ما لا يتأتى إلا بمعرفة بالواقع شاملة وكافية . ولكن الفرق بين الثوريين و « الواقعيين » فى هذا المجال يكمن فى أن تلك المعرفة تنتهى بالآخرين إلى الاستسلام للواقع ، فى حين أنها فى نظر الأولين ضرورة بالدقة لتجاوز الواقع بفاعلية ونضال بدل الفرار منه تعلقاً بالخيال ، ومن الناحية الأخرى لا شك أن الحماسة ذخر للمقاتل لا تعادله ذخيرة، والوطنية المشبوبة درع واقية من سهام الاستعمار الجديد ، ولكن التحليل العلمى « على البارد » هو وحده الذى يهدى إلى سبل النصر .

وهذا التحليل العلمى المنشود من أصعب الأمور . ولا ترجع صعوبته فقط إلى ما يجيش بالنفوس من غيظ كظيم وألم مضطرم وسخط متقد ، بل ترجع كذلك إلى أننا نواجه ظاهرة عدوانية بالغة التعقيد تشابكت عندها عوامل متعددة ، وتراكمت حولها عبر السنين أحداث ذات آثار متنوعة ، ومن ثم لا يمكن أن نملك لها حلا فرداً بسيطاً وواضحاً . لقد

٩

عرفت بلادنا الاحتلال الأجنبي وما صاحبه من أشكال للسيطرة تحت أسماء مختلفة من حماية إلى انتداب إلى مستعمرات التاج أو الضم إلى أرض المستعمر . وفى كل هذه الحالات كانت القضية بسيطة وواضحة : طرد المحتل . وكانت الأمور جميعاً تتحدد بالاحتكام إلى هذا الهدف الفرد الذى لا يقبل التبديل ولا التأجيل . أما مواجهة الظاهرة الصهيونية الإمبريالية فى فلسطين والوطن العربى فلا بد بالضرورة أن تمتد أفقياً من حيث التنوع الموضوعى فى الأساليب والوسائل ، ورأسياً من حيث الأمد التاريخى . ذلك أنها نجحت فى خلق دولة أجنبية على جزء من أرض الوطن العربى بطرد أكثر سكانه منه ووضع البقية موضع الأقلية المهضومة الحق فى أرضها . كما نجحت فى أن تضفى من الناحية الشكلية على الاغتصاب طابع « المشروعية » بإقراره من هيئة الأمم المتحدة واعتراف الدول به . ثم أخذت تنفذ خطوة بخطوة مخططاً رهيباً للتوسع والسيطرة . والسؤال : إلى أين المصير ؟ يجب أن يسبقه سؤال آخر : ما هو المصير ؟ ما ظهر منه وما استتر .

١

النظرة الجزئية خطأ وخطر

منذ أن حلت بالوطن العربى نكبة الصهيونية سادت فى بلادنا فى أوقات مختلفة ، وتعاصرت أحياناً ، نظرات إلى الظاهرة الصهيونية الإمبريالية تركز على جانب واحد منها ، وأحياناً تتوهم فهم أحد الجوانب ، وتهمل بقية حقائقها المعقدة . ولابد من الخلاص من تلك النظرات ومن الفكريات التى تعبر عنها . وكلما تخلصنا من واحدة منها رفعنا عن البصر غشاوة حتى يصبح حديداً لا يخطئ الرؤية .

هل اليهود عنصر فاسد ؟

وأكثر تلك النظرات فجاجة هى النظرة العنصرية التى قوامها أن اليهود عنصر شرير يدبر باستمرار لإفساد البشرية والسيطرة عليها مستغلا المال والجنس ، يسيطر فى الخفاء حتى يتمكن فيسيطر فى العلن . وتستند تلك النظرة إلى ما يسمى « بروتوكولات حكماء صهيون » ، وتستمد الكثير من الحجج من مستنقع النازية . وهذه النظرية تتناقض تماماً مع قيم الحضارة العربية التى قامت وازدهرت تحت شعار : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » والتى رفضت بصفة عامة المفاهيم العنصرية . إن العرب لم يروا فى اليهودية « عنصراً » وإنما رأوا فيها ديناً من الأديان السماوية ، لمن يعتنقه ضمانات وفرها الإسلام . وقبل ظهور الإسلام اعتنق فريق كبير من عرب اليمن شريعة موسى ، وكانوا وغيرهم من العرب اليهود ، تكذيباً صارخاً لدعوى العرقية الصهيونية التى تزعم أن

اليهود جميعاً ينحدرون من الأسباط الاثنى عشر . وحين طرد الإمبراطور الرومانى طيطس اليهود من بيت المقدس لجأ عدد كبير منهم إلى مصر وإلى الجزيرة العربية . ثم عاد اليهود إلى القدس بعد ذلك بحوالى ستة قرون حين حررها العرب من حكم بيزنطة . وحين احتل الصليبيون المدينة المقدسة ، أعملوا التذبيح فى المسلمين والمسيحيين وطردوا منها اليهود . ولما حررها صلاح الدين عاد أهلها من اليهود إليها خلف جيش البطل العربى الكبير . وفى الوقت الذى كانت فيه أوربا فى العصور الوسطى تحاصر اليهود فى أحياء لا يخرجون منها تسمى « جيتو » وتفرض عليهم صنوفاً من الاضطهاد كان الفكر اليهودى يزدهر فى بلاد العرب . وتنمو الفلسفة اليهودية مقتفية أثر الفلسفة الإسلامية ، على منهج المتكلمين أولا ثم متأثرة بفلاسفة الإسلام الكبار . وأكبر الأسماء فى تاريخ الفلسفة اليهودية حتى العصر الحديث كانت بلا أدنى شك أسماء موسى بن ميمون تلميذ ابن رشد وطبيب صلاح الدين ، ويوسف بن سعيد الفيومى المشهور عند اليهود باسم سعديا . وكانت المدارس الدينية فى الأقطار العربية وفى مقدمتها مدرسة « سورا » فى العراق منارات الفكر اليهودى . وكان معلموها يؤلفون بالعربية وبالعبرية على حد سواء . وأخيراً حين قرر ملوك إسبانيا والبرتغال طرد اليهود من شبه الجزيرة الأيبرية بعد أن طردوا العرب المدجنين والمستنصرين ، لجأت غالبية اليهود إلى الأقطار العربية فى شمالى إفريقيا حيث كان التسامح الإسلامى ، فى الوقت الذى كانت محاكم التفتيش فيه ترهب كل أوربا .

إن الفكر العنصرى ظهر وتأكد وانتشر فى أوربا ، ليس ضد اليهود وحدهم ، وإنما كسلاح أيديولوجى فى خدمة السيطرة الأوربية . فواطن روما سيد غير منازع فى كل أنحاء الإمبراطورية . « والسلام الرومانى » معناه خضوع الأمم لسيطرة روما لتعيش فى سلام تفرضه

جيوشها، تماماً كما يتصور القوم فى واشنطون اليوم «السلام الأمريكى» .
و «اللاسامية» ليست إلا أحد مظاهر ذلك الاتجاه العنصرى الأصيل الذى يتمثل فى الموقف من السود ، أو من الصفر ، أو من شعوب العالم الثالث كلها لأن جوهر اللاسامية هو إنكار صفة «الأوربى» على اليهودى الأوربى ، أى رفض بأن ينتمى إلى العنصر الممتاز ورده إلى مرتبته العنصرية بين «العناصر الدنيا» فى سلم التمييز العنصرى البغيض . والتسليم بمعاداة السامية مطبقة على اليهود يسقط كل حجة ضد تطبيقها على العرب . ذلك أننا بمنطق العنصرية ساميون كاليهود تماماً . إن تقاليدنا الحضارية رفضت هذا الفكر . وعاش اليهود بيننا يعانون ما يعانى مجتمعنا ويتمتعون بما يصيب من تقدم . واللغة دائماً شاهد حضارى لا يكذب . لقد تكلم يهود البلاد العربية لغة العرب . فى حين أن الاضطهاد حملهم فى أوربا على أن يستخدموا لغات خاصة بهم . ومن المعروف فى علم اللغة ، أن اللغات الخاصة تنشأ من احتياج الجماعات المضطهدة إلى استخدام لغة لا يعرفها مضطهدوها . وهكذا نشأت « اليدش » و «اللادينو» . وليست أى منهما تعبيراً عن حفاظ على لغة قومية . فالأولى وهى لغة الأشكناز مشتقة من الألمانية (وكلمة أشكناز نفسها تعنى ألمانيا) والثانية وهى لغة السفارادىم مشتقة من الإسبانية (وسفراد تعنى إسبانيا) . واليهود قد فقدوا ارتباطهم بالعبرية منذ قرون طويلة . فى القرن الثانى الميلادى كان يهود مصر عاجزين عن قراءة التوراة ، مما حمل بطليموس ملك مصر على تكليف عدد من الأحبار بترجمتها إلى اليونانية (الترجمة السبعينية) .

والتسليم بهذه النظرة العنصرية يطمس نهائياً دور الاستعمار فى إنشاء إسرائيل ودعمها . ومن المعروف أنه لولا بريطانيا لما وجد الوطن القومى ولا نشأت إسرائيل ، ولولا سلاح فرنسا وأموال وسلاح ألمانيا الغربية ،

وأموال وسلاح ونفوذ الولايات المتحدة لما أصبحت إسرائيل ما هى عليه اليوم ، كما أنه يؤدى إلى خطأ فادح فى فهم سياسة الاستعمار يتمثل فى الظن بأن موقف أمريكا الموالى لإسرائيل مرجعه نفوذ الصهيونية هناك . أى بعبارة أخرى أن اسرائيل توجه سياسة أمريكا لا العكس . ومثل هذا الظن يهبط إلى مستوى السذاجة ويقود حتما إلى منطق استرضاء الاستعمار لكى تكون له فى بلادنا مصالح يقاوم أصحابها نفوذ الصهيونية . وهل يحلم الاستعمار الجديد بأكثر من أن تكون تلك هى الفكرة السائدة فى بلادنا ، تدعو لفتح الأبواب على أوسع ما يكون أمام زحفه الاقتصادى؟ ولكن أخطر ما فى النظرة العنصرية هى أنها تسليم كامل بوجهة نظر العدو الصهيونى نفسه ؛ فالصهيونية تقوم على فكرة أن اليهود عنصر متميز بين سائر البشر . حقاً إنها تعتبره العنصر الممتاز . أما اعتباره على العكس العنصر المنحط فإنه لا يغير من التسليم بأنه عنصر متميز على كل حال .

هل إسرائيل مجرد أداة للاستعمار ؟

وثمة نظرة أخرى ، على جانب كبير من الصواب ، ولكنها تخطئ حين تصاغ فى إطلاق يهمل حقائق أخرى ، وأعنى بها نظرية إسرائيل أداة الاستعمار . ولها ولا شك فضل إلقاء الأضواء على دور الاستعمار فى نشأة إسرائيل ودعمها ، وعلى دور إسرائيل فى خدمة الاستعمار . ولكنها تهمل دور الصهيونية كحركة استعمارية لها مكانها المتميز داخل إطار الاستعمار العالمى . فإسرائيل ليست مجرد قاعدة عسكرية تابعة لأمريكا مثل جوانتانامو فى كوبا . ومهما يكن من مدى اعتمادها على الغرب بصفة عامة وعلى أمريكا بصفة خاصة ، فإنها تستند إلى حركة صهيونية منظمة تنتشر فى بلاد كثيرة ، يقودها احتكاريون كبار ، وتملك من وسائل التأثير ما بدا واضحاً مثلا فى الانفصام الكامل بين

سياسة ديجول وموقف الصحافة الفرنسية ، أو حتى الإذاعة والتليفزيون بالرغم من تبعيتهما للدولة . وهى حركة ذات نفوذ واسع للغاية بين اليهود فى مختلف بلاد العالم ، أياً كانت الأسس التى يستند إليها ذلك النفوذ . كما أنها تتجاهل حقيقة وجود مجتمع إسرائيلى يتجاوز المليونين عداً له صراعاته ، وبه طبقة مسيطرة ، وأيديولوجية توسعية ، وقدرات عسكرية ، تجعل إسرائيل أقرب إلى الشريك الصغير للدول الإمبريالية ، منها إلى مجرد الأداة معدومة الأطماع الذاتية . فإلى جانب دور إسرائيل كأداة للاستعمار ، توجد إسرائيل كدولة استعمارية . بل إنها بقدر نجاحها فى دورها فى خدمة المصالح الاستعمارية للدول الكبرى تؤكد وجودها المستقل وتفرض مطالبها الخاصة . وإهدار طبيعة إسرائيل كدولة استعمارية يقود إلى أحد أمرين: الاقتناع بأن التفاهم مع أمريكا ينهى الخطر الإسرائيلى ، أو على العكس الظن بأن الصراع ضد الاستعمار بصفة عامة يغنى عن الصراع ضد إسرائيل على سبيل التخصيص . ولا يهون من شأن إسرائيل كدولة استعمارية ضيق الرقعة أو قلة عدد السكان . ولنتذكر أن هولندا وهى البلد الصغير كان يحكم إمبرطورية واسعة . وحتى اليوم تقف البرتغال شاهداً غنياً بالعبرة .

فلسطين والجزائر

وخلال كتابات ما بعد نكسة سنة ١٩٦٧ ظهر شيئاً فشيئاً أن جوهر الظاهرة الصهيونية الإمبريالية هو أن الدولة الصهيونية امتداد عنصرى للغرب الاستعمارى فى قلب الوطن العربى . إنها آخر محاولات الاستعمار الاستيطانى التى قام بها الغرب ، والتى اتخذت دائماً شكل هجرة بعض مئات الألوف من الأوربيين إلى أرض أجنبية يسيطرون عليها وينشئون منها دولة غربية « فيما وراء البحار » ، كما كان يقال بلغة القرن الماضى .

ولكن حقيقة إسرائيل كاستعمار استيطانى لا ينبغى أن تقودنا فوراً إلى القياس بأحداث الجزائر . فالمستوطنون فى إسرائيل قدموا من بلدان شتى ، وبالتالى ليس لهم « وطن أم » يفكرون فى العودة إليه جميعاً إذا ضاقت بهم سبل الحياة فى فلسطين . ولهذا فالشعور السائد بينهم هو أنهم يقاتلون وظهورهم إلى البحر . إن المستوطن الأوربى فى الجزائر كان من الناحية القانونية فرنسياً يعيش فى الجزائر . أما المستوطن الإسرائيلى فليس له جنسية أخرى . وبالتالى عليهم أن يستميتوا من أجل البقاء . ومن ناحية أخرى ، قدم عدد كبير من هؤلاء المستوطنين من البلاد العربية . وليس خافياً أن السياسة الخاطئة التى عمدت إليها بعض الحكومات العربية فى تشجيع اليهود على مغادرتها نهائياً قد لعبت دوراً حاسماً فى الدعم البشرى لإسرائيل . فى الخمسينات كانت موجة الفرار من أوربا قد انحسرت بعد انهيار النازية واستقرار الأوضاع فى شرقى القارة وغربيها ، ولولا يهود اليمن ويهود العراق ثم يهود المغرب لما زاد عدد المهاجرين إلى إسرائيل على النحو الذى تم به . ومهما يكن من أمر ، فهذا الفريق من المستوطنين الإسرائيليين ليس أوربياً ولا يفكر فى العودة إلى أوربا . ومن ناحية ثالثة نشأ فى إسرائيل جيل جديد « السابرا » ولد بها وسط دعاية أيديولوجية مركزة تفهمه أن تلك هى أرضه وأرض آبائه ولا يعرف لنفسه وطناً آخر . وأخيراً ، لم ينتشر المستوطنون داخل بلد أغلبية سكانه من قومية أخرى ، كما كانت الحال فى الجزائر . بل فرضوا لوجودهم مرحلياً حدوداً لهم فيها الأغلبية الواضحة ، وزاوجوا بين التوسع الإقليمى وطرد السكان العرب بغية أن تكون لهم الأرض خالصة . وكل تلك أمور تعقد ظاهرة الاستيطان الإسرائيلى . ويتعين دائماً أخذها فى الحسبان .

٢

المخطط الصهيونى : أبعاده ووسائله

الاستعمار الاستيطانى

حقاً إن إسرائيل فى الجوهر مشروع استعمار استيطانى أوربى أقامته الصهيونية العالمية . فالهجرة إلى فلسطين ظلت إلى ما بعد قيام دولة إسرائيل ، أوربية خالصة . ولم يهاجر يهود الشرق إلى « أرض الميعاد » إلا على أثر المشكلات التى خلقها فى البلاد العربية قيام تلك الدولة وولاء بعضهم لها على حساب الوطن الذى نشئوا فيه ، وسياسة الحكومات العربية الرجعية التى ساعدت على هجرتهم . وهذا أمر مفهوم تماماً . فأوربا هى موطن اضطهاد اليهود الذى كان « روتينياً » عادياً طوال العصور الوسطى وحتى الثورة الفرنسية ، والذى اشتدت وطأته فى شرق أوربا حيث يكثر عدد اليهود وحيث تخلفت الثورة البورجوازية . وليس هنا مجال البحث المستفيض حول ظاهرة اللاسامية فى أوربا . ولكن التعصب العنصرى يحكمه ، كما يقول مكسيم رودنسون ، قانون أساسى ، وهو أنه يشتد كلما التقت الفوارق العنصرية — حقيقية كانت أو مدعاة — مع فوارق اقتصادية . وقد احترف اليهود فى العصور الوسطى تجارة المال والإقراض بالفائدة ، كانوا الرأسماليين فى وسط مجتمع إقطاعى ، فحل بهم سخط الإقطاعيين ورقيق الأرض فى آن واحد . ولكن حين تمت الرأسمالية فى أوربا الغربية على مستوى المجتمع كله اختفت المشكلة اليهودية ، لأن أوربا الغربية غدت — كما قال ماركس — كلها يهودية ، أى رأسمالية . ومهما يكن من أمر ، فإن ما يستحق الاهتمام هو أن اليهود

المضطهدين ، كانوا يهاجرون قبل قيام الحركة الصهيونية ، كغيرهم ممن تضيق بهم أسباب الحياة فى أوربا فى القرن التاسع عشر ، ضمن تيارات الهجرة الأوربية الأساسية : إلى العالم الجديد ثم إلى أستراليا ونيوزيلاندا[١]. . . إلخ . ولكن الصهيونية حاولت منذ البداية تغيير هذا الاتجاه . وينبغى أن ننبه هنا إلى أن الصهيونية فى البداية لم تكن تصر على فلسطين بالذات ، وإنما كانت تحاول إقامة دولتها أيضاً فى سوريا . بل إن هرتزل زار مصر سنة ١٩٠٤ ليفاوض الإنجليز والخديو فى تنفيذ المشروع فى شبه جزيرة سيناء . ومن ثم يتضح أن القضية لم تكن فى المحل الأول « إيماناً بالوعد الإلهى فى أرض كنعان » وإنما كانت رغبة من الصهيونية كقوة متميزة فى المشاركة فى اقتسام تركة « الرجل المريض » كما كانت تسمى الإمبراطورية العثمانية فى ذلك الوقت . لقد نجح كبار الرأسماليين اليهود فى أوربا فى احتلال مكانة مرموقة فى المجتمع الرأسمالى وتمتعوا بكل ما تضفيه الثروة من مزايا فى ذلك المجتمع ، وتولوا مناصب الحكم وحصلوا على ألقاب الشرف . ولكن ذكريات الازدراء فى الماضى ، ومظاهر الاضطهاد فى شرقى أوربا كانت تحملهم على التفكير فى إقامة دولة تكون خالصة لهم وركيزة لإمبراطورية واسعة . وهكذا شجع عدد كبير منهم الصهيونية التى جندت جماهيرها بين يهود شرقى أوربا بعزلهم عن الحركة الاشتراكية وصرفهم عن النضال من أجل تحرير الأوطان التى ولدوا فيها . وهكذا كانت الصهيونية تحاول وسط السباق

---

(١) والدليل على ذلك هو عدد اليهود فى الولايات المتحدة الأمريكية (٥,٥ ملايين) وهو يقارب نصف عدد اليهود فى العالم كله . وحتى سنة ١٩٢٤ بلغ عدد اليهود المهاجرين من شرقى أوربا أكثر من مليونين ونصف المليون . وقبلهم كانت الهجرة أساساً من ألمانيا حتى ١٨٧٠ حين سوى القانون الألمانى بين اليهود وغيرهم من المواطنين .

الإمبريالى المحموم حول أشلاء إمبراطورية آل عثمان أن تقتطع لنفسها نصيباً فى وقت بلغ فيه الاستعمار القديم ذروته . ولكن قادة الصهيونية لم يكونوا متمردين على أوربا التى اضطهدت اليهود ونكلت بهم كأفظع ما يكون التنكيل ، بل إنهم كانوا يحسبون ويفكرون كأوربيين[١] . والواقع التاريخى يناقض ما تزعمه الصهيونية من أن يهود أوربا كلهم من أصل عبرانى . فقد تبنى بعض الأوربيين اليهودية كدين . واختلطت دماؤهم بدماء الشعوب التى عاشوا فيها خلال قرون طويلة ، فليس هناك عنصر بشرى نقى من كل اختلاط . وتكفى نظرة واحدة للفروق الحضارية بل الجسمانية بين الصقالبة (السلافيين) من يهود شرقى أوربا ، وبين يهود فرنسا أو إيطاليا . كما أن يهود غرب أوربا ، ومنهم كان معظم الرأسماليين ، كانوا قد تمثلوا تماماً الحضارة الغربية وأنبتت كل صلة لهم بماضى العبرانيين السحيق وتقبلتهم مجتمعاتهم مواطنين كاملى الحقوق . لكل ذلك كانت القيادة الحقيقية للحركة الصهيونية تعتبر نفسها جزءاً من الاستعمار الأوربى ، ولا تسعى إلا لمجرد التميز فى داخله للاشتراك ، كطرف مستقل ، فى اقتسام الكرة الأرضية . ومن ثم كان الاهتمام بالشرق العربى يرجع فى المقام الأول للأهمية الاستراتيجية البالغة لهذه المنطقة التى جعلت منها المسرح الأول للصراع العنيف بين كل الدول الأوربية منذ حملة نابليون إلى مصر . فمن يضع قدمه فى هذه

---

(١) ولكن بعض يهود شرق أوربا من صغار الحرفيين والعمال الذين هاجروا من المستعمرات الأولى (الرواد ـ كما يسمونهم فى إسرائيل) كانوا رافضين لحضارة أوربا الرأسمالية ، متأثرين بالمثل العليا الاشتراكية ، وكانت فكرة « العودة إلى الأرض المقدسة » عندهم مقترنة ببعض تصورات عن نوع من « الاشتراكية العبرانية » . وهذا هو جذر ما يسمى الاتجاه الاشتراكى القديم فى إسرائيل .

المنطقة يمد يداً فى إفريقيا وأخرى فى آسيا ، فى حين يظل على قرب نسبي من أوربا .

وقد حدد هرتزل الأمور بأوجز عبارة حين كتب فى ١٩٠٨ يقول : « إن دولة يهودية فى فلسطين أو سوريا ستكون امتداداً للحضارة الغربية وحصناً ضد الهمجية الشرقية » . فمؤسس الحركة الصهيونية لم يكن يفكر فى يهود الشرق « المتخلفين » وإنما كان يفكر فى يهود أوربا ويراهم جزءاً من حضارتها . أن هرتزل بالرغم من كل نظريته العنصرية فى تمييز اليهود يؤمن بأنهم فى النهاية أوربيون . وإذا قدر للصهيونية بعد ذلك أن تهتم بيهود البلاد العربية ، فإنما ذلك يماثل محاولة الاستعمار الغربى اجتذاب « مسيحيي الشرق » : اهتمام ظاهره أن هؤلاء القوم (بحكم دينهم أو عنصرهم) أكثر استعداداً للتحضر ، وجوهره سياسة فرق تسد ؛ بالإضافة إلى احتياج الصهيونية إلى يهود الشرق لدعم إسرائيل سكانياً بعد انحسار موجة الهجرة الأوربية . وليس أدل على ذلك من وضع اليهود الشرقيين داخل الدولة الصهيونية كمواطنين من الدرجة الثانية .

ويقول بعض المثقفين الغربيين الذين ينتسبون إلى اليسار إن إسرائيل ليست استعماراً استيطانياً ، لأن الاستعمار الاستيطانى فى نظرهم يقوم على فكرة استغلال قوة عمل أهل البلاد الأصليين ، وسياسة إسرائيل كانت الحلول محل أهل فلسطين[1]. وهذا النظر يعمم بعض تجارب الاستعمار الاستيطانى ولا سيما فى الجزائر وجنوب إفريقيا . فى حين أنه يغفل أن أكبر تجارب الاستيطان تمت على أساس إبادة أهل البلاد

---

(١) أفاض جان بول سارتر فى عرض وجهة النظر هذه خلال مناقشة أجراها بالقاهرة مع أسرة مجلة « الطليعة » .

الأصليين . وأعظم شاهد على ذلك مصير الهنود الحمر فى الولايات المتحدة الأمريكية . لقد حرص الأوربيون هناك على التخلص من أهل البلاد ، لدرجة أنهم حين لمسوا الحاجة إلى توفير يد عاملة بأبخس الأثمان لجئوا إلى استيراد الرقيق من إفريقيا ، ونظموا النخاسة على أوسع نطاق عرفه التاريخ ، وكشفوا عن مدى إيمان الرأسماليين بالحرية والمساواة والإخاء التى جعلت منها الرأسمالية الغربية شعارات لثوراتها ضد الإقطاع . ومن ناحية أخرى لم يكن بوسع الصهيونية أن تدعى استعمار منطقة الشرق العربى كلها كما فعل الإنجليز بأستراليا مثلا. ومن ثم كان عليها أن تركز جهودها فى جزء محدود ثم تسعى للتوسع والسيطرة .

التوسع الإقليمى

ومن يتأمل التطور التاريخى لتنفيذ المخطط الصهيونى يرى بوضوح منهج الصهيونية فى التوسع . فقد بدأت الحركة الصهيونية بالدعوة بين اليهود فى أوربا الشرقية ، وبالذات فى روسيا القيصرية ، للهجرة إلى فلسطين . وبدأت بالفعل وفود من المهاجرين تفد إلى الأرض المقدسة دون أى سند ، اللهم إلا نظام الامتيازات الأجنبية الذى كان سائداً فى الإمبراطورية العثمانية والذى كان يبيح للدول الأجنبية التدخل باسم « حماية رعاياها » لتوفر لهم فى ممتلكات « الدولة العلية » وضعاً يفضل وضع المواطن الأصلى فى كثير من الأمور . وكانت الهجرة فى البداية محدودة للغاية لعدة أسباب . فالدعوة الصهيونية كانت حركة فى بدايتها . واليهود الذين كانوا يرغبون فى الهجرة كانوا يفضلون العالم الجديد وأستراليا ونيوزيلاندا لاحتمالات النجاح والثراء الواسعة التى كانت معقودة على تلك البلاد الجديدة الغنية . والمهاجر اليهودى إلى فلسطين لم يكن له وضع متميز ، بل كان عليه أن يستمد الحماية من جنسية الدولة التى هاجر منها .

ولكن كان لا بد من بداية . ونشطت الوكالة اليهودية منذ إنشائها فى جميع الأموال من أغنياء اليهود لتمكن لفقرائهم المهاجرين إلى فلسطين أسباب الاستقرار . واستفاد الصهاينة من الأوضاع الإقطاعية السائدة آنذاك فى فلسطين وفى وجود عدد من كبار الملاك غير العرب أو غير الفلسطينيين ، فاستخدموا الوسائل الاقتصادية للحصول على الأرض بصورة « قانونية » عن طريق الإقراض ثم نزع الملكية لعدم السداد أو عن طريق الشراء . وهكذا نشأت المزارع الأولى « الكيبيوتز » ، وظلت أرضها ملكاً للوكالة اليهودية ضماناً لاستمرارها حتى ولو عاد المهاجر فغادر فلسطين إلى أوربا أو أمريكا . وكان التبرير الدينى لهذا الوضع هو أن الأرض « ملك للشعب اليهودى كله » . وكان المهاجرون يتقبلونه إما لأنه لم يكن لديهم خيار ، وإما لتعلقهم بفكرة الملكية الجماعية وعدم تحمسهم للملكية الفردية الرأسمالية .

وكانت الخطوة التالية الحصول من المستعمر البريطانى على ترخيص بإنشاء « وطن قومى » فى فلسطين ، ثم تأكيد هذا الترخيص بقرار من عصبة الأمم التى كانت تسيطر عليها الدول الاستعمارية الأوربية سيطرة كاملة . وكانت أهم دلالة عملية لوعد بلفور المشئوم هى الترخيص لأعداد معينة من اليهود بالهجرة إلى الأراضى المقدسة بصفتهم يهوداً ينتمون إلى المنظمة الصهيونية العالمية وتمثلهم لدى سلطة الانتداب الوكالة اليهودية . لم يعد اليهود يهاجرون محتفظين بجنسياتهم الأصلية ليعيشوا كأجانب ، وإنما أصبحت الهجرة تعنى التخلى عن الجنسية الأصلية واكتساب « الرعوية البريطانية » بصفة مواطن فى فلسطين . لقد وفد المهاجرون أولا كأجانب ، ثم أصبحوا يفدون ليكتسبوا صفة المواطن بمجرد حلولهم بأرض فلسطين .

وكانت الخطوة التالية هى أن يطرد المواطن الجديد المفروض بقوة

الجيش البريطانى ، المواطن الأصيل من أرض آبائه وأجداده . ولم يكن من المتصور أن تطرد الصهيونية الفلسطينيين من أرضهم كلها دفعة واحدة . ولذلك كان من الطبيعى أن ترفع شعار التقسيم . وكان الهدف هنا واضحاً وهو الحصول على إقليم غالبية سكانه من اليهود ليكون له وضع الدولة المستقلة — يشكل نقطة الارتكاز لكل توسع مقبل . ومن هنا كان إصرار الصهيونية الرهيب على تخريب أى حل لمشكلة فلسطين يقوم على تعايش سكانها من العرب واليهود فى ظل دولة واحدة أو حتى دولة اتحادية على النمط السويسرى كما اقترح آنذاك . ومن هنا كانت أعمال الإرهاب الوحشية مثل مذبحة دير ياسين التى استهدفت خلق جو من الرعب يحمل العرب على ترك أراضيهم ليكون لليهود الأغلبية فى حدود التقسيم .

ولكن قرار التقسيم الذى أصدرته الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ وقبلته الصهيونية ، لم يكن فى نظر قادتها إلا الخطوة الأولى . ولذلك فإنهم لم ينفذوا منه إلا ما كان فى صالحهم ، وهو الإقرار بمبدأ دولة مستقلة لهم ، أما وجود دولة أخرى عربية ، ووجود شكل من الوحدة الاقتصادية بين الدولتين ، وقيام لجنة وصاية من الأمم المتحدة لمتابعة تنفيذ القرار وصيانة حقوق كل الأطراف المعنية ، فقد ضربت به القيادات الصهيونية عرض الحائط وجعلت منه نصاً ميتاً سرعان ما انسحب عليه ظل النسيان . بل لقد ذهب الصهاينة إلى أبعد من هذا فى الاستهتار بقرار الهيئة الدولية الذى يتمسكون به شكلا كسند شرعى لوجود دولتهم . لقد احتلت قوات الهاجاناه يافا وعكا مثلا قبل ١٥ مايو ١٩٤٨ . والمدينتان واردتان فى قرار ٢٩ نوفمبر ضمن حدود الدولة العربية . واحتلالهما سابق لتاريخ انسحاب القوات البريطانية ، وبالتالى سابق لتدخل الدول الربيعة الذى اتخذته إسرائيل ذريعة لضم أجزاء أخرى واسعة من إقليم

الدولة العربية (١) . كما تعمدت إسرائيل تأخير توقيع اتفاقية الهدنة مع شرقى الأردن حتى يتم لقواتها احتلال إيلات والحصول على منفذ على خليج العقبة . وحين تم توقيع اتفاقيات الهدنة سنة ١٩٤٩ كان الرأى السائد فى الدوائر الصهيونية هو أن من مصلحة إسرائيل ألا تتقرر لها حدود دولية معترف بها ، لأن حدودها التى انتهت إليها حرب ١٩٤٨ ، فى نظرهم حدود مؤقتة . وتوالت تصريحات بهذا المعنى ليس من « المتطرفين » من أمثال مناحم بجين (الوزير الحالى) الذى أكد باستمرار أن إسرائيل يجب أن تضم بقية أرض فلسطين والضفة الشرقية للأردن ، وإنما كذلك من قائد إسرائيل الأول بن جوريون . بل إن ضابطاً برتبة كولونيل فى الجيش الإسرائيلى قال سنة ١٩٤٩ بصراحة : «لا نريد حدوداً نهائية الآن» وهذا الضابط هو موشى ديان . وما إن استقرت أوضاع إسرائيل نسبياً حتى عملت على تلمس الذرائع لعدوان جديد يتيح لها فرصة التوسع الإقليمى . وكان من الضرورى لذلك أن تخلق حالة من التوتر المستمر على الحدود ترهب بها الفلسطينيين الذين لجئوا إلى الأقطار العربية المجاورة وتستفز القوات المسلحة لتلك الأقطار . ولهذا بادرت باحتلال المناطق المنزوعة السلاح وفقاً لاتفاقيات الهدنة والتى كانت تفصل بينها وبين الدول العربية فخلقت بذلك حالة مواجهة مستمرة على المستوى العسكرى . وتعللت فى عام ١٩٥٦ وفى عام ١٩٦٧ بأعمال المقاومة الفلسطينية مدعية أنها من صنع الدول العربية لتحاول تبرير العدوان والتوسع . وفى هذا كله ما يلقى الضوء على ما تدعيه إسرائيل من الرغبة فى « حدود آمنة معترف بها» . فقد رفض الصهاينة فكرة الحدود النهائية كما رأينا ، كما أنهم

---

(١) ومع ذلك فقد نجحت الدعاية الصهيونية فى إيهام الرأى العام العالمى بأن العرب هم الذين بدءوا حرب سنة ١٩٤٨ . بل إن كثيراً من العرب تسرب إليهم هذا الاقتناع نتيجة لجعجعة الحكومات العربية آنذاك .

عملوا بتصفيتهم لوضع المناطق منزوعة السلاح على خلق التوتر على الحدود واستمراره .

وفى منطق الدعوى الصهيونية يبدو التوسع الإقليمى حتمية ملازمة للوجود الإسرائيلى . فالهدف المعلن لإسرائيل وللصهيونية هو تجميع اليهود كلهم أو معظمهم فى إسرائيل . ولا يتصور أن تستوعب تلك الدولة الصغيرة عشرة ملايين مثلا إلا إذا امتدت حدودها إلى آفاق بعيدة . ويمكن للمقارنة أن نذكر أن مجموع سكان سوريا ولبنان والأردن وعرب فلسطين يكاد لا يتجاوز سبعة ملايين .

ونحن لا نسوق رقم العشرة ملايين اعتباطاً . فقد دعا ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل السابق رسمياً عقب حرب يونية إلى إنشاء « إسرائيل الكبرى » بضم أجزاء من الأراضى التى احتلها الجيش الإسرائيلى بحيث يصبح سكان الدولة الصهيونية عشرة ملايين . وكثيراً ما يقول بعض المثقفين الغربيين إنه ليس من المنتظر أن تستمر الهجرة إلى إسرائيل بمعدلات مرتفعة . وإن وصول عدد سكانها إلى أضعاف الرقم الحالى حلم لن يتحقق . وحجتهم فى ذلك هى أن الغالبية العظمى من يهود « الدياسبورا » موزعة حالياً بين الاتحاد السوفييتى (حوالى ثلاثة ملايين) والولايات المتحدة (أكثر من خمسة ملايين ونصف المليون) . ويهود هاتين الدولتين لن يهاجروا إلى إسرائيل ، وإن اختلفت الأسباب فى ذلك . ويمكن الرد على هذا القول بأن مستقبل القضية العربية لا يتصور أن يترك معلقاً على تطورات السياسة الداخلية فى دول أخرى . فليس من المستحيل مثلا أن تتغلب على السياسة الداخلية فى الولايات المتحدة الأمريكية عناصر فاشية متطرفة تضيق على اليهود . إلا أن الأمر الأهم من احتمالات المستقبل هو حقائق واقع اليوم . وهذا الواقع هو أن إسرائيل بعدد سكانها الحالى كانت مدفوعة بالفعل نحو التوسع . وذلك لأن الإقليم الذى أقيمت

عليه الدولة الصهيونية يستحيل أن يأوى أكثر من مليونين من المهاجرين وأن يوفر لهم فى نفس الوقت مستوى المعيشة السائد فى أوربا . إن أعظم تناقض وقعت فيه التجربة الصهيونية هو أن البقعة التى كانت فى نظرها توفى بالغرض من الناحية الأيديولوجية باعتبارها « أرض الميعاد » كانت من الناحية الاقتصادية عاجزة عن استيعاب الهجرة المطلوبة . وإن بعض البيانات الاقتصادية الأساسية لتكفى لإظهار هذه الحقيقة بشكل لا يدع مجالا للشك .

فمساحة إسرائيل فى حدود هدنة عام ١٩٤٩ لا تزيد على ٢١,٠٠٠ كيلومتر مربع . وبالنظر لعدد السكان الذى بلغ فى أوائل سنة ١٩٦٧ قرابة المليونين ونصف المليون تكون كثافة السكان كبيرة نسبياً . ولكن الأدهى من ذلك هو أن ثلثى المساحة المذكورة مناطق صحراوية . وقد ترتب على ذلك أن ٦٠ ٪ من سكان إسرائيل يحتشدون فى مثلث الرملة — تل أبيب — حيفا ، بل إن ٣٠ ٪ منهم يقطنون العاصمة تل أبيب . ولإعطاء فكرة عن هذا الوضع الشاذ ، نسوق على سبيل المثال وضع إقليم « القاهرة الكبرى » الذى يشمل محافظة القاهرة وجزءاً كبيراً من محافظة الجيزة وأجزاء من محافظة القليوبية . فسكان هذا الإقليم يمثلون ١٢ ٪ من سكان الجمهورية العربية المتحدة . ويرى الخبراء أن هذا الإقليم مزدحم أكثر مما ينبغى ، وأنه لابد من تخطيط إقليمى على مستوى الجمهورية للحد من الهجرة إلى العاصمة . ومن ناحية أخرى تتميز أراضى إسرائيل فى المناطق القابلة للزراعة بالفقر الشديد . فليس بها دلتا خصبة ولا تربة غنية . والموارد المائية محدودة للغاية . ومشروعات الرى التى قامت بها الحكومة الصهيونية باهظة التكاليف ولم تسمح باستصلاح مساحات واسعة . لقد ارتفع نصيب الزراعة فى الاستثمارات الإجمالية من ١٦,٥ ٪ سنة ١٩٤٩ إلى أكثر من ٢٥ ٪ سنة ١٩٦٠ ومع ذلك لم يزد نصيب الإنتاج الزراعى فى الدخل

القومى إلا بنسبة تافهة : من ٩,٥ ٪ سنة ١٩٤٩ إلى ١٢,٥ ٪ سنة ١٩٦٠ . وبالرغم من الجهد الدعائى الضخم حول «تحويل صحراء النقب إلى جنات» لم تجرؤ حكومة تل أبيب على أن تنشر أى أرقام عن الاستثمارات التى تمت فى النقب ، والنتائج التى أدت إليها . والواقع أن المزارع التى أنشئت فى النقب تخدم فى الأساس أغراضاً عسكرية ، ولذلك فهى لا تخضع لأى تقويم اقتصادى . فهى مواقع أمامية محصنة ، سكانها مدربون عسكرياً ، وهى تابعة لوزارة الدفاع .

ولا يقف فقر الموارد الطبيعية عند هذا الحد . فجوف الأرض لا يحتوى إلا على بعض المعادن قليلة القيمة مثل الفوسفات . أما البترول والغاز الطبيعى فلم يتجاوز الإنتاج منهما ٢٠ ٪ من احتياجات البلد . كذلك لا توجد موارد كهربائية مائية ، ولذلك فإن التيار الكهربائى يخرج من محطات حرارية تعتمد على منتجات بترولية مستوردة مما يجعل سعره مرتفعاً. وفى مثل هذه الظروف يتعذر قيام صناعة قوية ونشيطة نظراً لافتقاد الطاقة المحركة والمواد الأولية الزراعية والمعدنية . حقاً لقد نجحت إسرائيل فى إنشاء بعض الصناعات. وأبرزها وأهمها هى بلا شك صناعة الماس . وهى نموذج بليغ للصناعة التى تدين بوجودها للاعتبارات السياسية والارتباطات المالية ولا تستند إلى أى أساس من الموارد الطبيعية للبلاد أو موقعها الجغرافى . فالماس « الخام » تستورده إسرائيل من جنوب إفريقيا . والماس المصنع تشتريه احتكارات الماس العالمية التى تنشط أساساً فى أمستردام.وكل ما تملكه إسرائيل فى هذا المجال هو خبرة صائغى الماس من اليهود الهولنديين الذين نجحت فى تهجيرهم إلى الأراضى المقدسة . ويمثل الماس المصنع ٣٥ ٪ من صادرات إسرائيل . وهذا فى ذاته دليل ساطع على مدى خضوع الصناعة الإسرائيلية للمصالح الاستعمارية . فاستمرار صناعة الماس يتوقف من ناحية على رضا النظام العنصرى الرجعى فى جنوب

إفريقيا ، ومن ناحية أخرى على تشجيع الاحتكارات العالمية ذات الجنسية الهولندية . وبالإضافة إلى ذلك حاولت إسرائيل تنمية بعض الصناعات الخفيفة مثل الدواء والمنسوجات والمعدات الكهربائية والإليكترونية . ولكن نموها يصطدم بضيق السوق المحلية . والمقاطعة الاقتصادية العربية لا تترك أمام إسرائيل سبيلا لتصريف إنتاجها الصناعى إلا فى أسواق بلاد أكثر منها تقدماً (الدول الأوربية) أو بلاد تنافسها فيها منتجات أمريكا واليابان وفرنسا وألمانيا الغربية . . . إلخ .

الموارد الأجنبية والتوسع الإقليمى

ومع ذلك ، وبالرغم من كل تلك الظروف غير المواتية ، نجحت إسرائيل خلال الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٥ فى تحقيق معدل نمو اقتصادى يلى مباشرة ما حققته اليابان ويدور حول ١١ ٪ سنوياً .وهكذا يتحدث الصهاينة عن المعجزة التى صنعتها إسرائيل . وينطلقون فى جو عنصرى كامل يمجدون مزايا « شعب الله المختار » وعبقريته . ولكن الاقتصاد لا يعرف المعجزات . وكل ظاهرة اقتصادية تجد تفسيرها فى الواقع الاقتصادى ذاته . والمعجزة الإسرائيلية تجد تفسيرها فى الموارد المالية الهائلة التى حصلت عليها الدولة الصهيونية ، وهى موارد لم يسبق لها مثيل ولم تحظ بمثلها أى دولة . ويجب أن نقف قليلا عند هذه الموارد ونحاول تصنيفها :

١ — لقد بدأت إسرائيل حياتها بعملية نهب استعمارى تقليدى ، تمثلت فى الاستيلاء على ممتلكات الفلسطينيين الذين طردتهم من أراضيهم . فقد قررت غداة الهدنة فرض الحراسة على أموال الغائبين . ثم تعالت بعدم عودتهم — وهى التى تحظر تلك العودة — لتبرير المصادرة النهائية ، وهذا هو الأسلوب الذى استخدمه الاستعمار الاستيطانى فى كل أرض حل بها .

لقد كانت الإدارة الفرنسية فى القرن الماضى تتذرع بأتفه الحجج لتصادر أرض الجزائريين وتعطيها للمستوطنين . وكذلك كانت سيرة الإنجليز فى كينيا . . . إلخ . ويقدر الاقتصادى المعروف يوسف صايغ قيمة الممتلكات التى نهبتها إسرائيل على هذا النحو بحوالى سبعمائة مليون جنيه إسترلينى ، أى قرابة ١,٥٠٠ مليون دولار . ويكفى تدليلا على أهميتها أن ٢٥٠,٠٠٠ إسرائيلى كانوا ، فى سنة ١٩٥٤ ، يعيشون على العقارات التى « تركها » العرب (أى حوالى ثلث السكان اليهود فى ذلك الوقت) . وقد ساهمت بريطانيا فى تيسير عملية النهب ، فأفرجت لحساب إسرائيل عن أرصدة فلسطين الإسترلينية المجمدة فى سنة ١٩٤٨ دفعة واحدة .

٢ ــ وتلقت إسرائيل مبالغ طائلة تحت أسماء مختلفة دون أى التزام بردها كلياً أو جزئياً . ويقدر ما حصلت عليه فى الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٤ (أى بعد سنتين من قيام الدولة الصهيونية وما صحب إنشاءها من تبرعات ضخمة) بمبلغ ٣٠٠٠ مليون دولار موزعة على النحو التالى بترتيب أهمية المصدر :

(ا) **التعويضات الألمانية :** ١,٦١١ مليون دولار . وتلك التعويضات فضيحة فى تاريخ العلاقات الدولية . فألمانيا الغربية قد دفعت ٨٤٧ مليون دولار تعويضاً لمواطنين إسرائيليين عن أضرار لحقت بهم أو بأفراد من أسرهم فى ظل النازية . ولا شك أن مبدأ التعويض عن جرائم النازيين مبدأ سليم . ولكن المريب فى الأمر هو أن ألمانيا الغربية لم تدفع تعويضاً لأحد خارج إسرائيل . فلم تعوض مثلا البولنديين أو التشيك أو اليوغوسلافيين أو الفرنسيين أو السوفييت . . إلخ . بل إن اليهود الذين يحملون جنسية غير الجنسية الإسرائيلية لم يحصلوا حيث يقيمون على أى تعويضات ألمانية . ولكن الدلالة

العظمى لموقف ألمانيا تتضح فى دفعها مبلغ ٧٦٤ مليون دولار للحكومة الإسرائيلية مباشرة كتعويض عما لحق اليهود بصفة عامة حيث تعذر تحديد ضرر حل بشخص أو بأسرة على وجه التحديد . فكأن حكومة بون تعترف بإسرائيل ممثلا لليهود فى كل أرجاء العالم وأياً كانت جنسيتهم .

وهى تعوض إسرائيل مثلا عما لحق بيهود بولندا أو أكرانيا ..! وعبثاً يبرر ساسة بون هذا الموقف بعقدة الذنب . لأننا نتساءل عندئذ هل أذنبت النازية فى حق اليهود وحدهم . ألم يقتل النازيون مئات الألوف من كل شعوب أوربا فى غير ميادين القتال؟ ألم يهلك فى معسكرات الاعتقال إلى جانب اليهود عشرات الألوف من معارضى النازية والمتمردين ضد القهر والاحتلال الألمانى ؟ كذلك لا يمكن تفسير موقف حكومة بون بالضغط الأمريكى . فألمانيا الغربية اليوم قوة اقتصادية من الطراز الأول بوسعها أن تضغط على أمريكا ، ومن باب أولى من السهل عليها أن ترفض لها طلباً . والدليل على ذلك أنها رفضت حتى الآن توقيع معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية رغم حرص الولايات المتحدة على تلك المعاهدة . وإذا كانت هناك مساومة مع أمريكا بشأن مساندة إسرائيل فإن موضوعها ليس مبدأ المساندة ولا حتى حجمها ، وإنما ضمان تأييد الولايات المتحدة لمواقف بون العدوانية المتطرفة إزاء ألمانيا الديمقراطية وبولندا . إن واقع الأمر أكثر تعقيداً من ذلك . إن تحالف الصهيونية والرجعية الألمانية ظاهرة قديمة . لقد رحب النازيون بفكرة الوطن القومى لليهود فى فلسطين لأنها تتفق مع فكرهم العنصرى ومع رغبتهم فى التخلص من يهود ألمانيا . وكانت حكومة هتلر حتى سنة ١٩٣٧ تسمح لليهود الذين يغادرون ألمانيا

إلى فلسطين بتحويل جزء كبير من أموالهم بشرط أن يتخذ شكل سلع ألمانية ، ونشطت الحركة الصهيونية فى تصريف تلك السلع فى منطقة الشرق الأوسط كلها . واليوم نجد فى ألمانيا الغربية المقر الرئيسى لنشاط شبكات التجسس الإسرائيلى على البلاد العربية . ويكفى دليلا على ذلك حالة « لودز » ذلك الضابط السابق فى الجيش الهتلرى الذى كان يتجسس لإسرائيل فى القاهرة والذى طالبت إسرائيل بتسليمه إليها ضمن أسرى الحرب . وبالإضافة إلى هذا الالتقاء « الأيديولوجى » ، تنظر ألمانيا الغربية إلى إسرائيل باعتبارها منفذاً لها فى الشرق فى حلمها الاستعمارى القديم « الزحف نحو الشرق » . وهى تشترك فى عدد من الصناعات الإسرائيلية وفى مقدمتها الأبحاث الذرية [1] . وتكتمل عناصر الفضيحة حين يقبل حكام إسرائيل الذين يتشدقون دائماً بما عاناه اليهود من الاضطهاد تعويضاً عن ملايين القتلى من اليهود سلاحاً يستخدمونه فى قتل العرب . إن العقلية العنصرية النازية أو الصهيونية لا تقيم وزناً لأى اعتبار أخلاقى ، وتؤمن بالقوة والسيطرة والقهر ، وتتلمس لها كل الوسائل والسبل بغض النظر عن المبادئ .

(ب) **التبرعات اليهودية :** وتبلغ فى نفس الفترة ١,٥٣٥ مليون دولار . فالحركة الصهيونية تستنزف اليهود فى كل بلاد العالم لصالح إسرائيل. وقد قدمت المنظمات اليهودية فى مختلف بلاد العالم إلى إسرائيل تبرعات تبلغ ١٠٣٥ مليون دولار . أما الباقى وقدره ٥٠٠ مليون

---

(١) بل إن تأثير ألمانيا الغربية لعب دوراً فى تحديد موقف رومانيا من إسرائيل بعد عدوان يونية ١٩٦٧ . فمن المعروف أن هناك مشروعات مشتركة بين الدول الثلاث تقدم فيها بون التمويل ، وتوفر إسرائيل الخبرة الفنية . وعقب اعتراف بوخارست بحكومة ألمانيا الغربية ، عقدت مع إسرائيل معاهدة تعاون اقتصادى .

دولار فهو عبارة عن تحويلات من يهود فى الخارج إلى يهود فى إسرائيل . وسنعود إلى الحديث عن الوسائل التى تلجأ إليها الصهيونية العالمية لابتزاز الأموال لصالح إسرائيل . ونريد أن نشير هنا إلى حقيقة أن أكثر من ثلثى هذا المبلغ قد جاء من اليهود الأمريكيين . ولا يفسر هذا فقط عدد اليهود فى الولايات المتحدة وثراؤهم . وإنما يفسره أيضاً تأييد حكومة واشنطون لحركة التبرع لإسرائيل . ويكفى للتدليل على ذلك أن هذه التبرعات تخصم من الدخل الخاضع للضريبة الأمريكية أياً كانت قيمتها .

(ح) **هبات من الحكومة الأمريكية:** وقد بلغت فى نفس الفترة ٢٩٤ مليون دولار . وهكذا لا تقتنع الحكومة الأمريكية بتشجيع اليهود الأمريكيين على التبرع لإسرائيل ، بل تمنح من أموال دافع الضريبة الأمريكى هبات مباشرة للدولة الصهيونية .

٣ – والمورد المالى الثالث الذى اغترفت منه إسرائيل هو القروض والاستثمارات . وفى الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٤ بلغ إجمالى القروض التى حصلت عليها إسرائيل ١٢٢٦ مليون دولار ، وهى كلها قروض طويلة الأجل لأننا نحينا جانباً القروض قصيرة الأجل لضعف دلالتها فيما يتعلق بالنمو الاقتصادى . ومن هذا المبلغ ٣٨٠ مليون دولار قدمتها الحكومة الأمريكية مباشرة أو عن طريق بنك «الاستيراد والتصدير» المملوك لها . ومنها ٤٥٠ مليون دولار جاءت فى شكل اكتتاب فى سندات تصدرها دولة إسرائيل . وقد تمت تغطية هذه السندات كلها تقريباً فى الولايات المتحدة ، وإذا كان من المعقول أن نفترض أن اليهود الأمريكيين قد اكتتبوا فى جزء هام منها ، فإنه من المعروف أيضاً أن كثيراً من الشركات الاحتكارية الأمريكية ، بغض النظر عن دور اليهود فيها ، تكتتب فى تلك السندات .

أما الاستثمارات ، ومقدارها ٧٧٩ مليون دولار ، فقد قامت بها أساساً احتكارات أمريكية كبرى مثل : فورد ، وكيزر — فريزر ، وكوكا — كولا . . . إلخ . وبعض الاحتكارات الألمانية والفرنسية .

وخلاصة ذلك أنه إذا تركنا جانباً كل ما أنفق قبل قيام دولة إسرائيل وأثناء حرب ١٩٤٨ وما تلاها مباشرة ، نجد أن الدولة الصهيونية قد حصلت من الغرب على سبعة آلاف مليون دولار فى أربعة عشر عاماً . أى ما يساوى ثلاثة آلاف دولار لكل إسرائيلى ، وهو مبلغ يعادل ثلاثة أضعاف متوسط دخل الفرد فى إسرائيل فى سنة ١٩٦٤ . . ! وقد حصلت إسرائيل على نصف هذا المبلغ تقريباً دون أى مقابل ودون التزام بالسداد أو دفع فوائد : هبة خالصة لطفل الاستعمار المدلل ; ولو حصلت الجمهورية العربية المتحدة على مثل هذا العون بنسبة عدد سكانها لأتيحت لنا موارد تعادل تكاليف بناء السد العالى أكثر من أربعين مرة . . !

بهذه الموارد الضخمة وحدها امكن لإسرائيل ان تحقق معدل نمو مذهل طوال الفترة المذكورة ، وأن تستوعب موجات متتالية للهجرة ، وتحافظ بعد تلك الموجات على معدل زيادة سكان لا يقل عن ٤ ٪ ، وتحقق مع ذلك ارتفاعاً منتظماً فى مستوى دخل الفرد . وهكذا كان من الممكن أن تعيش الدولة الصهيونية مؤقتاً دون توسع إقليمى . ولكن الأمور بدأت تتغير منذ ١٩٦٤ . فقد استنفدت إسرائيل التعويضات الألمانية . وبدأت أقساط القروض الخارجية تلقى عبئاً إضافياً على ميزان المدفوعات . كما أن جمع التبرعات كان من المستحيل أن يستمر إلى الأبد على نفس المعدلات . وبالفعل هبطت نسبة رأس المال الوافد من الخارج إلى الدخل القومى الصافى من ٣٤,٣ ٪ سنة ١٩٥٢ إلى ٢٤,٣ ٪ سنة ١٩٦٤ . وتوالى الهبوط بعد ذلك . فقد انخفض إجمالى رأس المال الوافد من ٦٢٩ مليون دولار سنة ١٩٦٤ إلى ٥٠٥ ملايين دولار سنة ١٩٦٦ . وكان التقدير

السائد أن الانخفاض سيستمر حتى يصل إلى ٣٠٠ مليون دولار فقط سنة ١٩٦٨ . وانعكس هذا الوضع فوراً على كل المؤشرات الاقتصادية . فقد انحدر معدل النمو إلى ٧ ٪ سنة ١٩٦٥ ثم إلى ١,٥ ٪ سنة ١٩٦٦ . ولأول مرة منذ نشأة إسرائيل انخفض مستوى متوسط دخل الفرد ، لأن عدد السكان زاد فى نفس السنة بنسبة ٢,٥ ٪ . وارتفعت نسبة البطالة من ٣,٣ ٪ فى سنة ١٩٦٤ إلى ٦,٦ ٪ فى سنة ١٩٦٦ ثم إلى ١٠,٥ ٪ فى ربيع سنة ١٩٦٧ . ولكن أخطر ما فى الأمر فى نظر قادة الصهيونية كان ازدياد عدد المهاجرين من إسرائيل بحيث تجاوز عام ١٩٦٦ عدد المهاجرين إليها . وفى هذه الظاهرة ضربة قوية لكل الأيديولوجية الصهيونية : فاليهود يغادرون بملء إرادتهم أرض الميعاد . ولم يتخيل قادة إسرائيل للأزمة مخرجاً إلا الحرب بهدف التوسع الإقليمى .

السيطرة الاقتصادية :

إن إسرائيل ليس أمامها من خيار إلا التوسع أو الانهيار الاقتصادى والبشرى . فأمام البطالة وانخفاض مستوى المعيشة لا بد أن يهاجر من إسرائيل كل أولئك الذين يرفضون أن يعيشوا فى مستوى أقل من الذى عرفوه فى أوربا . وسيكون أول المهاجرين بالطبع من الفنيين والعلماء والخبراء الذين ترحب بهم أوربا وأمريكا . أى أن الهجرة لن تكون تكذيباً فقط لدعوى العودة ، وإنما إضعافاً لإسرائيل فى أهم قواها الحيوية .

على أن التوسع الإقليمى له حدود ودونه مصاعب . فإسرائيل لا تتوسع فى خلاء ، وإنما فى أرض تعيش عليها أمة ذات حضارة عريقة ، قد خسرت فى تاريخها الطويل معارك كثيرة ، ولكنها كانت تنتصر فى النهاية وتحافظ على وجودها وشخصيتها القومية . ومن ثم فإن إسرائيل تسعى فى الوقت نفسه إلى السيطرة الاقتصادية على الشرق العربى . فليس من

الضرورى — ولا الممكن — أن تمتد بالفعل دولة إسرائيل سيادياً من النيل إلى الفرات لتستكمل عناصر الاستعمار الاستيطانى بتوفير اتساع الرقعة واليد العاملة الرخيصة . وإنما يمكن أن تكون إسرائيل فى « حدود إقليمية معقولة » قاعدة صناعية تسيطر اقتصادياً على المنطقة المحيطة بها دون حاجة إلى احتلالها عسكرياً . فالحلم الذى يردده حتى بعض أولئك الذين يتكلمون فى إسرائيل عن السلام مع العرب هو تحقيق « التكامل الاقتصادى » للشرق الأوسط على أساس أن تكون إسرائيل قاعدته الصناعية وتكون الأقطار العربية مورد المواد الأولية وسوق تصريف المنتجات الصناعية . فالصناعة فى إسرائيل فى أمس الحاجة إلى المواد الأولية التى تنتجها البلاد العربية تستثمر فيها خبراتها الفنية ورؤوس الأموال الاستعمارية الضخمة التى تستطيع تعبئتها . وسوق إسرائيل الداخلية كما قلنا ضيقة لا تستوعب إنتاجاً يذكر ، والمنافسة فى الأسواق الأوربية عسيرة ، ومن ثم كان أمل إسرائيل هو أن تستوعب البلاد العربية إنتاجها الصناعى . وليس هذا مجرد استنتاج أو استقراء للنوايا . فالاقتصادى الإسرائيلى شارل مزراحى يكتب بصريح العبارة فى مجلة « اسبرى » الفرنسية (سبتمبر ١٩٦٦) « إن البلاد العربية تنتج البترول والقطن وغيرهما من المواد الأولية التى تحتاج إليها الصناعة الإسرائيلية ، ونحن نملك من أسباب التقدم التكنولوجى ما يسمح لنا بتصنيع تلك المواد وتزويد الأسواق العربية بما تحتاج إليه من منتجات صناعية » . وفى ذهن قادة الاقتصاد الإسرائيلى ذكريات فترة الحرب العالمية حين نشأت الصناعات « اليهودية » الأولى فى فلسطين ، وأهمها الأدوية ، وكان إنتاجها يباع فى الأسواق العربية بفضل قرارات « مركز تموين الشرق الأوسط » البريطانى .

بل أكثر من ذلك يمكن أن تصبح إسرائيل بمثابة « كنتوار » للاحتكارات العالمية تقيم فيها مصانع للتجميع والتركيب والتجهيز للكثير

من منتجاتها التى تبيعها بالفعل فى الأسواق العربية . فمثلا حين أقامت شركة فورد مصنعاً للتجميع فى إسرائيل فإن لنا أن نتساءل كم سيارة فورد يمكن أن يستوعبها الاقتصاد الإسرائيلى سنوياً ؟ وعندئذ نجد المشروع غير معقول . ولابد أن يكون قد روعى فى تنفيذه البيع لتركيا واليونان وقبرص . . . إلخ . أو تزويد الجيش الإسرائيلى بالمركبات . ولكن فى حالة وجود علاقات اقتصادية عادية مع الدول العربية يمكن أن يزود المصنع المذكور كل السوق العربية ؛ بهذه النظرة تهدف إسرائيل إلى ضرب الاقتصاد اللبنانى القائم على تجارة الترانزيت وتصفية وضع بيروت ، وأن تكون تل أبيب هى نافذة المنطقة على الحياة الغربية حتى فى عبثها .

ولا شك أن للبترول مكانة خاصة فى خطط إسرائيل . فالصهيونية العالمية تريد أن تكون شريكاً فى استغلال البترول العربى ، وأن تكون إسرائيل قاعدة لتصديره ومركزاً لتصنيعه تستقر فيه صناعة بتروكيميائية ضخمة تغطى احتياجات المنطقة كلها . إن للعناصر الصهيونية مصالحها فى احتكارات البترول التى تعمل فى الأرض العربية . وهى ترغب ولا شك فى أن تستفيد إسرائيل من البترول وأن تدب الحياة فى خطوط الأنابيب وتتضاعف طاقة مصفاة حيفا ، وأن تنتقل من مجرد التكرير إلى تصنيع البترول والبتروكيميائيات ، بل إن المطامع يمكن أن تصل إلى حد حصول شركات إسرائيلية على امتيازات بترولية فى البلاد العربية .

وبعبارة أخرى تعرض علينا إسرائيل كأساس للسلام والوئام « الميثاق الاستعمارى » Pacte colonial الذى فرضه الاستعمار على كل المستعمرات . والخلاف فى إسرائيل بين « المتطرفين » و « المعتدلين » ليس خلافاً حول الهدف ، وإنما حول الوسائل . فالمتطرفون يريدون فرض الميثاق الاستعمارى بالقوة ، بأساليب الاستعمار القديم . أما المعتدلون فيرون أن هذا الأسلوب يجافى روح العصر ومن ثم لا بد من الاعتماد

على أساليب الاستعمار الجديد . ومن المعروف أن هذه الأخيرة تقوم على الروابط الاقتصادية التى تفرضها الدولة الاستعمارية عن طريق التسلل إلى اقتصاد البلاد وتنمية فئات اجتماعية موالية لها وبث الفرقة والشقاق على أسس قومية أو إقليمية أو قبلية . . . إلخ . ولهذا فإن المقاطعة العربية لإسرائيل ، ورفض الاعتراف بها والإصرار على عدم التسليم بالأمر الواقع ليست مجرد موقف غضب للكرامة المهدرة والحق السليب فحسب ولكنها وسائل فعالة فى مواجهة المخطط الصهيونى ، بل إنها كانت أنجح ما استخدم العرب من وسائل حتى الآن .

وليس خطر السيطرة الاقتصادية مقصوراً على الشرق العربى ، بل إنه يمتد كذلك إلى المغرب . فبين الإسرائيليين عشرات الألوف قدموا من الشمال الإفريقى وعاشوا على فتات الاستعمار إبان سيطرته هناك ، وما زالت تراودهم أحلام الرخاء السابق ؛ وثروات دول المغرب العربى ، من ليبيا إلى مراكش ، البترولية والمعدنية ، يسيل لها اللعاب ، وإنتاج تونس والجزائر ومراكش من الموالح منافس قوى للإنتاج الإسرائيلى . . . . إلخ .

٣

الأيديولوجية الصهيونية

الصهيونية العالمية تريد إذن فى التحليل الأخير إقامة نوع من الدولة الاستعمارية تفرض سيطرتها على المنطقة كلها ، اقتصادياً على الأقل ، وتعمل كشريك صغير للإمبريالية العالمية : تخدمها وتستفيد منها . وككل مشروع للاستعمار الاستيطانى ، لا بد للمخطط الصهيونى من أيديولوجية تضمن تعبئة القائمين به وتحمسهم لتنفيذه ، وتحاول فى الوقت نفسه تبريره أمام الرأى العام العالمى . فالغزو الأوربى للشرق العربى فى العصور الوسطى تستر وراء الصليب . وكذلك فعل « الكونكوبستادور » حين دمروا حضارة الأنكا والأزتك فى أمريكا الجنوبية والوسطى ، يباركهم أساقفة إسبانيا باسم ملكها الذى كان يصف نفسه بأنه « الكاثوليكى جداً » . وفى شمالى أمريكا كان أولئك الذين غادروا أوربا فراراً من الاضطهاد الدينى أو السياسى ليبنوا فى العالم الجديد مجتمعاً أفضل لا يتورعون باسم ذلك المجتمع عن القضاء على الهنود الحمر أو استيراد الرقيق من إفريقيا يغذى بعرقه ودمه أرض القطن والتبغ . وغزا الاستعمار الأوربى إفريقيا تحت شعار نشر المدنية ومقاومة تجارة الرقيق ... إلخ . فما هى عناصر الأيديولوجية الصهيونية التى تؤثر بها فى اليهود أولا ، ثم فى الرأى العام العالمى ثانياً ؟

العنصرية فى صورة عارية

وأول سلاح فى الترسانة الأيديولوجية للصهيونية هو العنصرية . ففكرة هرتزل الأساسية فى إنشاء دولة لليهود تقوم على أساس اعتبار اليهود عنصراً

بشرياً متميزاً . وليست تلك أول دعوى عنصرية عرفتها البشرية فى تاريخها الحديث . ولكنها دعوى تصل بالفكر العنصرى إلى أبعد الحدود بشكل لا يكذبه العلم فحسب وإنما لا يتصور أن يتقبله العقل . فالعنصريون فى الولايات المتحدة يزعمون تفوق البيض على السود . ولا شك أن الإنسان العادى يرفض أن يكون للون البشرة نتائج على المستوى العقلى تهبط بالأسود إلى مستوى أدنى من الأبيض . ولكن على أية حال تلك دعوى عريضة تشمل مئات الملايين من البشر وتتخذ لها سنداً من مظهر مادى هو لون البشرة . والعنصريون فى جنوب إفريقيا أو روديسيا يستندون إلى نفس النظرة . أما العنصرية النازية فكانت تقوم على تمجيد العنصر الآرى ، وهو فى زعمهم مجموعة الشعوب التى تتكلم لغات تواضع علماء اللغة على ردها إلى أصل مشترك هو « الهندية الأوربية » التى لم يثبت تاريخياً أى أثر لها . أما العنصرية الصهيونية ، فهى تعصب عرقى فى أشنع صوره لأنها تزعم أن كل اليهود فى مختلف أرجاء المعمورة من نسل رجل واحد هو إبراهيم عليه السلام . . ! « فشعب الله المختار » ينحدر كله من الأسباط الاثنى عشر الذين رزقهم يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، الذى أطلق عليه اسم إسرائيل « لأنه قاتل ملاكاً من ملائكة الرب » ، ومعنى ذلك أن نسل يعقوب ظل نقياً خالصاً من كل اختلاط بدم آخر عبر آلاف السنين ورغم انتشار اليهود فى أنحاء الأرض من الحبشة إلى آلاسكا، ومن الهند إلى الأرجنتين ، وبالتجاهل الكامل للفروق الجسمانية الواضحة بين « الفلاشة » ذوى البشرة السوداء، ويهود بولندا شقر الوجوه ، أو بين يهود كاى فينج الصينيين ويهود اليمن ، وهذه الأسطورة تكذبها كل حقائق العلم ووقائع تاريخ اليهود نفسه .

١ — تغيير الدين : لقد تعرضت اليهودية كأى دين إلى ظاهرة تغيير دين مزدوجة ، فقد اعتنق كثير من اليهود الإسلام أو المسيحية . ومن



التاريخ يشهد . . .

المقطوع به أن يهود فلسطين الأصليين قد تحول عدد كبير منهم إلى المسيحية وعدد أكبر إلى الإسلام ، وفى أوربا كان اعتناق المسيحية ظاهرة عادية ومتكررة . وعلى العكس اعتنق كثير من غير العبرانيين الديانة اليهودية . وإذا تركنا جانباً الحالات الفردية ، نجد فى التاريخ شواهد على حالات جماعية من أقدمها تحول عدد كبير من عرب اليمن إلى اليهودية فى عهد ذى نواس (أوائل القرن السادس الميلادى) . ومنها تحول شعب الخزر إلى اليهودية فى القرن الثامن ، كما شهدت روسيا والمجر حالات تحول جماعى إلى اليهودية فى القرنين الخامس عشر والتاسع عشر .

٢ ــ التزاوج : تجيز الشريعة الموسوية لليهودى أن يتزوج من غير يهودية إذا اعتنقت الدين اليهودى . وقد كثرت حالات الزواج من هذا النوع منذ عصر السبى فى بابل ، ثم أثناء انتشار اليهود فى البلاد المختلفة عبر العصور .

٣ ــ الاختلاط بالشعوب الأخرى قبل ظهور الشريعة الموسوية ، فاليهود كانوا كثيرى الترحال بين أرض العراق وفلسطين ومصر . ولم تكن قد استقرت عندهم بعد فكرة الشعب المختار وما تمليه من تفضيل الزواج داخل القبيلة . والثابت أن العبرانيين كانوا خليطاً من الشعوب تمايز أقسامه المختلفة منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام . والدليل على ذلك أن العبرانيين الذين نراهم على النقوش المصرية يختلفون عن العبرانيين الذين تصورهم الآثار البابلية المعاصرة .

وهكذا يقول رافاييل باتاى مدير « معهد هرتزل » بمدينة نيويورك بالحرف الواحد : « إن ما واصل إليه علم الأنثروبولوجيا الطبيعية يبين أنه بعكس المعتقد الشائع لا يوجد عنصر يهودى » . . . وشهد شاهد من أهل الصهيونية !

ونحن فى الوطن العربى ألفنا أن ننظر إلى اليهودية كدين ، كأحد الأديان السماوية الكبرى التى يتمتع معتنقوها بوضع خاص فى دولة الإسلام . ولهذا يصعب علينا أن نتصور تميز اليهودى بشىء آخر غير الدين ، ولا نفهم كيف يتقبل الأوربى أو الأمريكى فكرة التمايز اليهودى . ولكن الأمور فى أوربا سارت على غير التسامح الدينى الذى عرفته بلادنا . فى نظر الكنيسة لم يكن اليهود مجرد « كفار » لا يؤمنون بالنصرانية ، بل كانوا يحملون مسئولية صلب السيد المسيح ، جريمة تلاحقهم جيلا بعد جيل . ومن ثم كان لابد من الامتناع عن الاختلاط بهم ، وعزلهم عن المجتمع ، وإلزامهم بالمعيشة وحدهم بعيداً عن بقية البشر . وكانت الكنيسة تحظر التعامل بالفائدة لأنه رباً . أما عند اليهود فالمحظور هو اقتضاء الفائدة من يهودى آخر فقط . وبالتالى اشتغل اليهود بعمليات الاقتراض ، وأصبحت صورة اليهودى حتى فى عصر النهضة هى تلك التى خلدها شكسبير فى « تاجر البندقية » . وقد أدى كل هذا إلى الإبقاء على عناصر تمايز لدى الأقليات اليهودية استمرت أمداً طويلا . وقد نجحت الثورة البورجوازية فى تصفية هذا الوضع إلى حد بعيد فى أوربا الغربية . وقد كان من أبرز تشريعات حكومة الثورة فى فرنسا منح اليهود كل حقوق المواطن الفرنسى . ولكن تخلف الثورة فى أوربا الشرقية ، حيث تجمع تاريخياً العدد الأكبر من يهود أوربا ، حال دون تحقيق مثل هذا الاندماج . ولذلك تأكد التمايز اليهودى . وتكونت تجمعات كبيرة نشأت لها لغة خاصة هى اليديش وتكونت لها تقاليد ثقافية متميزة . وإزاء أوضاع التخلف الاقتصادى والاستبداد السياسى كانت تلك البلدان تموج بالتيارات الثورية ، ابتداء من المثقفين الليبراليين والعناصر الرأسمالية التى كانت تطمع فى استكمال الثورة البورجوازية إلى الطبقة العاملة والمثقفين الثوريين الذين بدأت تنتشر بينهم أفكار

الاشتراكية . وفى البداية كانت الدعوة السائدة لدى كل هذه التيارات التقدمية هى أن الاندماج والمساواة الكاملة هى طريق حل المشكلة اليهودية . غير أن الدعوة الصهيونية ولدت بالذات فى تلك الفترة وناضلت بكل ما تملك من قوى ضد الاندماج . وكان شعار الاندماج أكثر رواجاً بين الرأسماليين اليهود الذين كانوا يرون فيه الوسيلة لإسقاط الحواجز القانونية التى تحول بينهم وبين التمتع بكل ما تضفيه عليهم الثروة من مزايا . أما فى الطبقات الشعبية فقد كان عبء القهر والاستغلال مضاعفاً ، شأن كل أقلية فى مجتمع استغلالى . ولهذا لاقت فيها أفكار الصهيونية رواجاً .

ووجدت الصهيونية كل تأييد من حكام روسيا القيصرية العنصريين المعادين للسامية الذين كانوا يقاومون بدورهم فكرة الاندماج . وتولى عدد كبير من اليهود إحداث انقسام فى الحركة العمالية فى روسيا القيصرية وأنشئوا تنظيماً خاصاً بهم اسمه « البوند » (أى الرابطة) له أيديولوجية هى خليط من الأفكار الصهيونية عن تمايز اليهود ، وبعض أفكار الاشتراكية الخيالية . وكان يمكن أن يؤدى انتصار الثورة فى روسيا القيصرية إلى تصفية هذا الوضع الشاذ . وبالفعل ألغت حكومة الثورة كل القيود التى كانت مفروضة على اليهود . وفضلا عن ذلك أخذت الحكومة بعين الاعتبار وجود عدد ضخم من اليهود الذين ألفوا أن يعيشوا معاً والذين يتكلمون « اليديش » فأتاحت لهم فرصة تكوين إقليم مستقل استقلالا ذاتياً . ولكن تجربة إقليم بيروبيجان هذه أخفقت وفضل العدد الأكبر من اليهود الاندماج فى حياة الشعوب السوفييتية المختلفة . وعلى أية حال هبت الصهيونية تقاوم ما تعتبره أعظم نيل من عقيدتها وهو الاندماج والمساواة . وهاجمت الاتحاد السوفييتى . وغادر قادة « البوند » وكادرها الأساسى أرض الثورة إلى العالم الغربى . وكان منهم وايزمان وبن جوريون وموشى شاريت وجولدا مائير . . . كما استفادت الصهيونية من انتصار الثورة

المضادة فى الدول المجاورة للاتحاد السوفييتى وظهور الاتجاهات العنصرية الفاشية لتأكيد الدعوة إلى الهجرة إلى فلسطين . ثم كان ظهور النازية فى ركب من الجرائم البربرية التى ذهب ضحيتها مئات الألوف من اليهود مما أعاد طرح المشكلة اليهودية على الضمير الأوربى ، وفى أعنف صورة مأسوية . وهذا ما يفسر عطف عدد كبير من الناس الشرفاء فى أوربا على رغبة اليهود فى أن يكون لهم موطن يلجأ إليه من يحس منهم بأنه لا يستطيع الاندماج فى الوطن الذى يعيش فيه . والحركة الصهيونية تستخدم المنطق العنصرى كاملا فى تعبئة اليهود « المشتتين » حول فكرة دولتها فى إسرائيل . ولكنها لا تلح بالفكر العنصرى على الرأى العام الأوربى ، بل تقنع باستغلال العطف على اليهود بسبب ما عانوه على يد النازية وترتب عليه ضرورة دعم جهودهم فى إنشاء دولة لهم . وكثيراً ما ينزلق الناس الشرفاء تحت تأثير أجهزة الإعلام والنشر التى للصهيونية فيها نفوذ واسع فينسون الفكر العنصرى الذى يستتر وراء تلك الدعوة ، ويتناسون أن دولة الصهيونية لا تنشأ فى أرض خلاء ، وإنما على أرض شعب يسلب منه وطنه باسم رفع الظلم !

هل هناك قومية يهودية ؟

وحين تخشى الصهيونية ما تثيره النعرات العنصرية من ردود فعل مضادة فى الرأى العام تحاول الاستناد إلى مبدأ القوميات وتدعى أن اليهود يشكلون قومية متميزة، وهكذا أطلق الصهاينة على مشروعهم الأول اسم « الوطن القومى لليهود » . وتحمل إحدى المؤسسات الصهيونية العالمية اسم « الصندوق القومى لليهود » . ويتحدث كتاب الصهيونية عن « الشعب اليهودى » .

وهذه الدعوى القومية لا تستند إلى أى أساس . فماذا يربط بين اليهود

فى مختلف بلاد الأرض ؟ نحن نقول إنه لا يربط بينهم إلا مجموعة من المعتقدات الدينية . ولكن الصهيونية ترفض هذا المنطق السليم لأنه يجعل من اليهودية ديناً فحسب . ومع ذلك فهى تعجز عن تقديم أى سمة أخرى مشتركة بين اليهود. فهم لا يعيشون على أرض واحدة بل انتشروا فى ربوع المعمورة منذ أقدم العصور . وهم لا يتكلمون لغة واحدة ، بل إنهم فى كل البلدان يتكلمون لغة البلد الذى يعيشون فيه باستثناء فريق من يهود شرقى أوربا الذين كانت لهم لغة متميزة هى اليديش ، ازدهرت وكانت لغة أدب وثقافة . وذلك بعكس اللادينو لغة اليهود السفاراد التى اضمحل شأنها بالتدريج . أما العبرية فكانت لغة ميتة منذ ألفى عام إلى أن عملت الصهيونية على إحيائها فى إسرائيل . وحيث لا توجد لغة مشتركة يستحيل وجود تراث حضارى مشترك . وأى مشاركة حضارية يمكن أن توجد بين يهود نيويورك ويهود اليمن قبل هجرتهم إلى إسرائيل ؟ إن التفاوت الحضارى ما زال ملموساً داخل إسرائيل نفسها كما هو معروف . أما السمات الجسمانية فقد سبق أن أوضحنا أنها منعدمة أصلا ، فضلا عن عدم أهميتها فى تحديد محتوى القومية . فماذا يبقى بعد ذلك ؟ ليس هناك إلا الشعور بالتضامن الذى خلفته ذكريات الاضطهاد خلال قرون متعاقبة . وهذا الشعور بالاضطهاد يتلاشى بمرور الزمن وبنجاح اليهود فى الاندماج فى المجتمعات التى يعيشون فيها . وهكذا تنتهى دعوى القومية اليهودية إلى الأساس العنصرى مرة أخرى . إذ لا بد أن تقول الصهيونية إن اليهود شعب واحد وقومية واحدة لأنهم ينحدرون تاريخياً من أصل واحد ، وإن دم يعقوب يجرى فى عروقهم جميعاً ! . . والحقيقة هى أنه فى كل البلاد التى ساوت بين اليهود وغيرهم من المواطنين لم تعد هناك فروق ولا حواجز ، وأصبح اليهود فكراً وحضارة جزءاً من الأوطان التى تفتحت لهم . أما تجمعات اليهود فى شرقى أوربا التى كان لها وضع

متميز ولغة خاصة ، فإنه كان من المتصور نظرياً أن تكون قومية متميزة ضمن القوميات الكثيرة التي تحفل بها المنطقة ، لا يربطها ببقية اليهود إلا الدين ، باعتبار أن الشريعة الموسوية كالمسيحية أو الإسلام دين عالمي تتبناه شعوب تنتمي لقوميات مختلفة . ولكن الصهيونية العالمية حاربت في غير هوادة لتقضي على هذه الظاهرة ، وكافحت لتقتل لغة حية هي اليديش وتحيي لغة ميتة هي العبرية ، وصرفت أنظار يهود شرق أوربا عن مستقبلهم فيها لتربطهم « بأرض الميعاد » . وكان ذلك ضرورة لها ، لأن هؤلاء اليهود وحدهم كان يمكن التعويل عليهم في الهجرة بعكس يهود غربي أوربا الذين يفضلون دائماً أوطانهم الحالية . وعلى أية حال يبدو أن فكرة القومية اليديش ضربت في أساسها ، بدليل إخفاق تجربة إقليم بيروبيجان في الاتحاد السوفييتي وترك اليهود له .

على أن لدعوى القومية اليهودية جانباً آخر بالغ الخطورة . فالتسليم بها يؤدي إلى اعتبار اليهود في كل بلد « أقلية قومية » ، فيهود فرنسا بهذا المنطق ليسوا فرنسيين وإنما يهود فرضت عليهم فرنسا الجنسية الفرنسية وحرمتهم من ثقافتهم القومية ولغتهم الخاصة . . ! ويهود الولايات المتحدة الذين يؤثرون بأصواتهم ونفوذهم في سياسة واشنطون ليسوا مواطنين أمريكيين ، وإنما هم أقلية أجنبية . ويهود الاتحاد السوفييتي ليسوا من أبناء الوطن الاشتراكي وإنما غرباء دخلاء تمنعهم السلطة السوفييتية من « العودة » إلى وطنهم إسرائيل . . . إلخ . ويمكن أن يرتب البعض على هذا المنطق شرعية التمييز ضد اليهود وإبعادهم عن المواقع الحساسة في الدولة والاقتصاد أو الجيش ، ما داموا أجانب وليسوا مواطنين . إن الصهيونية بما تروجه من أفكار وما تمارسه من تأثير على اليهود قد أثارت بالفعل ، ولا سما بعد حرب يونية ، قضية « الولاء المزدوج » لليهودي ، وانتمائه إلى وطنين ، ومدى الاطمئنان إلى موقفه إذا اصطدمت مصالح البلد الذي يحمل جنسيته مع

مصالح إسرائيل[١] . إن الصهيونية تبعث الحياة من جديد فيما اصطلح على تسميته « معاداة السامية » . وليس هذا غريباً ، فالصهيونية عرفت أزهى عصور نجاحها فى الفترات التى اشتدت فيها سياسة اضطهاد اليهود ، وبالذات فى نهاية القرن الماضى فى روسيا القيصرية ، ثم فى ظل النازية . إنها كحركة عنصرية تتغذى من كل الحركات العنصرية الأخرى ولا سيما إذا كانت معادية لها .

ومهما يكن من أمر ، فإن الأساس العنصرى فى يد الصهيونية سلاح هام وفعال لتعبئة اليهود فى كل مكان لمساندة إسرائيل . وهى تستخدمه فى كل المستويات ابتداء من التعصب العنصرى عند بعض هؤلاء اليهود ، إلى مجرد التعاطف الطبيعى الذى يحس به عدد كبير منهم باسم الانتماء التاريخى ، أو ذكريات الاضطهاد ، أو التماسك الدينى ، أو حتى العطف على من يعتقد المرء أنهم ضحية اضطهاد أو عدوان . . والأمر الذى ينبغى ألا يغيب عن الأذهان هو أن قدرة الصهيونية على تعبئة يهود العالم ترتهن بإشاعة الإحساس بأن يهود إسرائيل فى خطر . ومن ثم كانت حرب يونيه فرصة ضخمة لاستنزاف اليهود لصالح الدولة الصهيونية . ومن ناحية أخرى لا تتورع التنظيمات الصهيونية عن الالتجاء إلى أشكال ابتزاز سافر وفرض التبرعات فرضاً كإتاوة يدفعها اليهودى رضى أم كره . وقد استخدمت فى هذا السبيل وسائل العصابات الإجرامية من التهديد بالمقاطعة الاقتصادية ،

---

(١) وقد اتضح هذا فى بولندا حين اتخذت حكومتها موقفاً يتسق مع المبادئ الاشتراكية ومع مصالح بولندا القومية فى النضال ضد الإمبريالية ، فعارضه يهود فى أعلى مستويات المسئولية فى الجيش وفى وزارة الخارجية واحتفلوا بانتصار إسرائيل . كما اتضح أيضاً فى فرنسا حيث انقلبت الصهيونية فجأة من تأييد حكم ديجول إلى معارضته معارضة شديدة ، وحين كان المتظاهرون من اليهود الفرنسيين يهتفون « فرنسا معنا » أى مع إسرائيل .

وبإتلاف المتاجر . . . إلخ . ومن ثم فإن اليهود الذين يعارضون الصهيونية يواجهون مصاعب جمة فى حياتهم الاقتصادية والمهنية ويتعرضون للتهديد والإهانة ، مما يؤكد شجاعتهم الأدبية التى تستحق التقدير . ويبقى بعد ذلك أن تأييد « الدياسبورا » — أو اليهود المشتتين بلغة الصهاينة — عنصر أساسى فى دعم إسرائيل يأتى مباشرة بعد التأييد الاستعمارى من حيث درجة الأهمية .

والقومية الإسرائيلية ؟

يقول بعض المثقفين المتزنين فى كثير من البلدان إنهم لا يقرون النظرة العنصرية التى تدعو لها الصهيونية ، كما أنهم لا يعتقدون أن ثمة قومية يهودية . ولكنهم ، على العكس ، يؤكدون أنه قد تكونت فى إسرائيل خلال العشرين عاماً التى عاشتها قومية إسرائيلية متميزة حتى عن بقية يهود العالم . ويدللون على ذلك بأن نسبة لا يستهان بها من الإسرائيليين قد ولدوا فى أرض فلسطين ولم يعرفوا لأنفسهم وطناً آخر ، وهم الذين يسمون « السابرا » . وهؤلاء تعلموا العبرية منذ طفولتهم فأصبحت لغتهم الأصلية ، وليس لغة إضافية يتحدثها المرء لقضاء الأعمال فى حين يتكلم فى بيته الفرنسية أو الإنجليزية أو البولندية . . . إلخ كما هى الحال فى أوساط المهاجرين . كما أن مصالح إسرائيل كشعب وكدولة أصبحت تتميز عن مصالح الحركة الصهيونية العالمية واتجاهاتها . وقد شهدت المؤتمرات الصهيونية العالمية فى السنوات الأخيرة صراعاً حاداً بين القادة الإسرائيليين من أمثال بن جوريون وبين قادة المنظمة الصهيونية العالمية من أمثال جولدمان . وهذا الصراع فى نظر أولئك المثقفين يعبر عن التناقض فى المصالح وفى الفكر . وأخيراً يقول بعضهم إن استماتة الإسرائيليين فى القتال ، بعكس حال الجنود الأمريكيين فى فيتنام ، تعبير عن إحساسهم

بالارتباط الوثيق بالأرض وإدراكهم أنها وطنهم الوحيد .

ولكن هذا الاستدلال لا يصمد طويلا أمام المناقشة الواقعية . فعنصر الزمن فى ذاته لا يكفى لتكوين أمة متميزة . لقد عاشت أسر فرنسية فى الجزائر ثلاثة أو أربعة أجيال . وفكر المستوطنون الفرنسيون هناك غداة الحرب العالمية الثانية فى الانفصال عن فرنسا خوفاً من انتصار القوى التقدمية فيها واشتراكها فى الحكم — تماماً كما تستقل اليوم روديسيا عن بريطانيا . وظن بعض كبار رجال السياسة التقدميين فى فرنسا قبل ثلاثين عاماً أن واقع الجزائر يبشر بتكوين أمة جديدة هى خليط من العناصر الأوربية الأصل والعناصر الجزائرية الأصلية . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . لقد ظل المستوطنون مجموعة متميزة بعيدة عن الشعب الجزائرى لغة وحضارة وفكراً ، تتعلق بتفوقها السياسى والاقتصادى وبسلطة الاستعمار ، ولا تتصور لنفسها وضعاً فى البلاد غير وضع السيد . ومن المعروف أن اتفاقية إيفيان سنة ١٩٦١ بين فرنسا وحكومة الجزائر المؤقتة منحت المستوطنين حق الاختيار بين حلول ثلاثة : الاحتفاظ بالجنسية الفرنسية ، أو اكتساب الجنسية الجزائرية بقوة القانون ، أو الجمع بين الجنسيتين لمدة ثلاث سنوات يكون بعدها الاختيار . ولكن المستوطنين غادروا الجزائر جميعاً . ولم يكن ذلك لعدم ارتباطهم بالأرض ؛ على العكس فقد بلغ من حرصهم على البقاء فيها أن أعلنوا التمرد على حكومة باريس وحاولوا قلبها ، ونظموا لأنفسهم قوة مسلحة خاصة بهم هى « الجيش السرى » ، وإنما لأن ذلك الارتباط يقترن عندهم بالسيادة والسيطرة . فعنصر الزمن فى ذاته لا يكفى لتكوين أمة ، كما أن التمسك بالسيطرة على أرض ما ليس دائماً تعبيراً عن شعور وطنى .

وفى داخل إسرائيل يوجد انقسام حضارى خطير بين اليهود الأوربيين واليهود الشرقيين ، أو كما يقولون بين « الإشكناز » و « السفاراد » .

وليس من شأننا الخوض فى تحليل تلك الظاهرة . ولكننا نريد فقط التنبيه إلى أنها ليست مبنية على خلاف بين مذاهب دينية ؛ إنها أقرب إلى الصراع العنصرى ، وجوهرها هو إحساس «الإشكناز» بتفوقهم على «السفاراد» واعتزازهم بهذا التفوق واستهانتهم ببنى دينهم من اليهود الشرقيين وحرصهم على الإبقاء على هيمنتهم على الدولة والاقتصاد والجيش . فنحن هنا نلمس قلب الظاهرة الإسرائيلية : إنها مشروع استيطان أوربى : مبنى على الإيمان بتفوق الحضارة الغربية وما يضفيه ذلك التفوق على الأوربى من حق فى انتزاع أرض الآخرين وتشكيل مصيرهم وفقاً لإرادته واستغلالهم اقتصادياً وقهرهم سياسياً وثقافياً باسم نشر المدنية وتحقيق التقدم . إنها نفس عقلية غلاة المتعصبين من البيض فى الولايات المتحدة الأمريكية الذين يؤمنون بحق «البيض الأنجلوسكون البروتستانت» فى السيادة والسيطرة والذين يرون فى البيض الكاثوليك أو الأرثوذكس القادمين من إيطاليا أو إسبانيا أو اليونان أو أرمينيا مجرد قوة عاملة لابد منها لتعمير الأرض الشاسعة وتشغيل المصانع الكبيرة ، ليس لها من أفضلية إلا على العنصر الأفريقى الأصل . ولا شك أن هذا الانقسام الحضارى الخطير يقف عقبة فى سبيل انصهار يهود إسرائيل فى وحدة قومية واحدة . ولكنه ليس الانقسام الوحيد . فالمهاجرون ما زالت لهم ارتباطات ثقافية متميزة بحسب الوطن الذى هاجروا منه . وما زالت البيوت فى إسرائيل تتحدث معظم لغات العالم ، وكأن هذا البلد الصغير برج بابل .

غير أن العقبة الرئيسية فى سبيل تكوين أمة متميزة فى إسرائيل هى الرابطة الصهيونية . فإسرائيل لا يمكن أن تصبح أمة إلا إذا تخلت نهائياً عن اعتبار نفسها وطناً لكل يهود العالم . إن فكرة القومية الإسرائيلية نفى بالضرورة للقومية اليهودية . وهى لا يمكن أن تتبلور وتتأكد إلا فى الحدود التى تضمحل فيها وتتلاشى فكرة أن اليهود فى العالم كله شعب واحد .

إن إصرار الإسرائيليين على البقاء جزءاً من كل مشتت يقتل عناصر التميز ويحول دون إبراز شخصية قومية لهم . والواقع أنهم لا يعتبرون أنفسهم أمة متميزة ، ولا ينكرون بهذه العقلية . ومن المسلم به أن من عناصر القومية هذا الإحساس العميق بالشخصية المستقلة .

وأبلغ شاهد على ذلك هو « قانون العودة » . واسمه فى ذاته بالغ الدلالة . فاليهودى الذى يفد إلى إسرائيل ليس مهاجراً من وطنه ووطن أجداده ، وإنما عائد إلى وطنه الأصيل . وحقه فى هذه العودة غير مشروط ، إنه لصيق بصفته كيهودى . ويجد سنده الشرعى فى « التوراة » قبل أن يجده فى قوانين إسرائيل . ولذلك فإن نصوص قانون العودة تبدو فريدة لا نظير لها فى العالم . فوفقاً لها يكفى أن يحضر اليهودى إلى إسرائيل بغية الإقامة ليكتسب الجنسية الإسرائيلية ، حتى دون أن يقدم طلباً بذلك . إن قانون العودة يعتبر أن اليهودى فى هذه الحالة يسترد جنسيته الأصلية ، ولا يعده راغباً فى التجنس بجنسية جديدة : فكيف تكتمل معالم الأمة ومكوناتها غير قابلة للتحديد بل خاضعة للتغيير المستمر وفقاً للهجرة من إسرائيل وإليها .

وهكذا تكون الأيديولوجية الصهيونية حائلا دون نمو قومية مستقلة فى إسرائيل بإصرارها العنصرى من ناحية على وحدة اليهود فى العالم ، وبرفضها من ناحية أخرى أن تنفصم إسرائيل عن الغرب لتصبح جزءاً من المنطقة المحيطة بها . ولا يمكن لأحد أن يفترض فى إسرائيل ما يرفضه الإسرائيليون أنفسهم ؛ ولا يجوز أن يحدثنا أحد عن أمة إسرائيلية ، فى حين أن أصحاب الشأن يصرحون ألا أمة إسرائيلية وإنما شعب يهودى .

استغلال الدين

وإلى جانب العنصرية تستغل إسرائيل الدين أسوأ استغلال . ويبدأ

ذلك بمحاولة تأسيس الدعوة لإنشاء إسرائيل ، ثم لتبرير وجودها بالحديث عن « الوعد الإلهى لبنى إسرائيل بأرض كنعان » . فالعقل لا يمكن أن يقبل الاستناد فى احتلال أرض فلسطين إلى واقع أن دولة يهودية كانت قائمة فى جزء منها قبل ألفى عام . ولو أخذنا بمثل هذه الحجج لوجب رد الولايات المتحدة لقبائل الهنود الحمر . فالتاريخ هنا عمره لا يزيد على خمسة قرون . والأمر الغريب حقاً هو أن عدداً من المثقفين الأوربيين المتعاطفين مع إسرائيل لا تصطدمهم عدم استقامة المنطق ، ويتقبلون فى سهولة استخدام حجتين متناقضتين . فهم يقيمون وزناً كبيراً للعشرين عاماً التى مضت على قيام إسرائيل ويهدرون الألفى عام التى عاشها العرب على أرض فلسطين . أو بصورة أخرى يقبلون الزعم الصهيونى عن حقهم فى أرض فلسطين باسم مملكة زالت منذ أكثر من ألفى عام ، ويرفضون حق العرب الذين طردوا من أرضهم منذ عشرين عاماً فقط . ولا يمكن لأى إنسان يحترم عقله أن يستفيض فى مناقشة لأسطورة يراد لها أن تكون سنداً لاغتصاب . . ويكفى هنا أن نشير إلى بعض الحقائق البارزة فى التاريخ . فالنصوص التى يستند إليها الصهاينة من الكتاب المقدس واضحة فى أن الأرض فى الأصل أرض الكنعانيين . ومن ناحية أخرى ، كان هناك شعب يسكن القسم الغربى من فلسطين هو الذى أعطى للأرض المقدسة اسمها التاريخى « فلسطين » يغلب أنه من أصل فينيقى ، ولم يتمكن اليهود من إبادته . وفى عهد أقرب إلينا ، دون التاريخ وقائعه ، وأعنى به القرون القليلة التى سبقت ظهور المسيح كان للعرب النبطيين مملكة قوية فى الجزء الجنوبى من فلسطين وفى شمال الحجاز . ثم كان أن هاجرت قبائل عربية إلى فلسطين حتى تم استعرابها قبل ظهور الإسلام ، وقامت فيها مملكة الغسانيين . فالزعم الصهيونى حتى لو سلمنا بحقيقته التاريخية لا يعدو أن يكون مطالبة بالأرض باسم حق الفتح الذى مارسته القبائل

العبرانية فى عصر سحيق من تاريخ فلسطين . . .

على أن دعوى الصهيونية أصابت تاريخياً وتراً حساساً لدى أكثر جماهير اليهود تخلفاً . لقد تعلمت تلك الجماهير عن طريق رجال الدين جيلا بعد جيل لعدة قرون أن شعب الله المختار قد أغضب الرب. ولهذا دمر « يهو » ملك إسرائيل وشتت اليهود وفرض عليهم صنوف العذاب والتنكيل . وكان من أثر هذه التعاليم أن اعتبر كثير من اليهود المتدينين ما يحل بهم من الاضطهاد، وعداً مكتوباً للتكفير عن ذنوب الآباء . ولكن غضب « يهو » لم يبلغ حد نقض الوعد الذى قطعه على نفسه ليعقوب . بل إن نسل يعقوب يبقى الشعب المفضل عند الرب ، ولآلام اليهود نهاية هى الخلاص الذى يتمثل فى ظهور مخلص من نسل داود النبى الملك ، يكون مثله نبياً لبنى إسرائيل، ومجدداً لملك العبرانيين . لقد كذب يهود فلسطين قبل ألفى عام المسيح وحاربوه . وصهاينة اليوم يسمون بن جوريون « النبى المسلح » . . ! إن الحركة الصهيونية تستغل تلك الشحنة العاطفية التى تراكمت عبر القرون وتخلع على قادتها مسوح الأنبياء المقاتلين . ولكن الخدعة تصبح بشعة مفضوحة حين يتضح أن عدداً من هؤلاء « المتنبئين » لا دينيون لا يؤمنون بشىء مما جاء بالتوراة ، وإنما يستغلون العاطفة الدينية لتحقيق أغراض استعمارية دنيوية خالصة شأنهم شأن كل المستعمرين . ولهذا ليس غريباً أن نرى طائفة كبيرة من اليهود تعارض دولة اسرائيل على أسس دينية ، لأنها لا ترى فيها تلك السمات التى نصت عليها التوراة . . . ومع ذلك ، فإن قادة إسرائيل جعلوا منها دولة « ثيوقراطية » فريدة فى القرن العشرين . فأولئك الذين يخاطبون الرأى العام الأوربى قائلين إنهم حملة التقدم فى منطقة ما زالت تعانى تخلف العصور الوسطى ، يقيمون دولة تجعل من الدين أساساً لصفة المواطن فيها ، وتعجز حتى اليوم عن أن تصوغ لنفسها دستوراً لأن أصحاب

النفوذ فيها يرون فى كتب السلف الدستور الوحيد المشروع . وحين يثور الخلاف حول اختيار جولدا مائير رئيسة للوزراء يعترض الحزب الدينى لأن الكتب المقدسة لم تذكر لإسرائيل ملكة ، وأن ملوك إسرائيل يجب أن يكونوا من الذكور . . !

ولا يقف استغلال الدين عند هذا الحد . فالصهيونيون المتعصبون يستخرجون من نصوص التوراة التى بيدهم ما يبررون به جرائمهم :

فإقامة الدولة الصهيونية على أرض الغير ، وانتزاعها من أصحابها . ليس أمراً مشروعاً فحسب بل إنه استجابه لمشيئة الرب . لقد وعد « يهو » بنى إسرائيل بأرض كنعان ، أى بأرض مملوكة لغيرهم ، وقادهم :

« إلى مدن عظيمة لم تبنها ، وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها ، وآبار محفورة لم تحفرها ، وكروم وزيتون لم تغرسها ، وأكلت وشبعت »

(العهد القديم ، سفر التثنية ، إصحاح ٦ الآية ١١)

وحين يطردون العرب من أرضهم ، يعتبرون هذا تكليفاً دينياً فرضه عليهم « يهو » كما جاء فى سفر « الخروج » من العهد القديم :

« فإنى أدفع إلى أيديكم سكان الأرض فتطردهم من أمامك . لا تقطع معهم ولا مع آلهتهم عهداً . لا يسكنوا فى أرضك لئلا يجعلوك تخطئ »

(سفر الخروج : إصحاح ٢٣ ، الآية ٢٢ و ٢٣)

فبقاء العرب فى أرض سيطرت عليها إسرائيل خطيئة ، والواجب الدينى فى نظر الصهاينة هو طردهم والاستيلاء على ممتلكاتهم .

أما المطامع التوسعية ، فسندها عندهم وارد فى التوراة ، وعداً من الرب :

« لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات »

(سفر التكوين : إصحاح ١٥ ، الآية ١٨)

فهل بعد ذلك من تفسير لحرص الصهاينة على عدم تحديد حدود نهائية لإسرائيل قبل بلوغ تلك الحدود الإلهية ، التى بلغ بهم التبجح أن صاغوها على جدران الكنيست هدفاً معلناً يلتزم به حكام إسرائيل ؟ ألم ير الإسرائيليون فى انتصار يونية سنة ١٩٦٧ تنفيذاً لوعود الرب ، واحتشدت جموعهم فى بيت المقدس تمجد « يهو رب الجنود » ؟

على أن استغلال الدين لا يقتصر على التأثير على جماهير اليهود ، وإنما يمتد على يد الصهاينة إلى بعض المسيحيين . فمن المعروف أن المذهب البروتستانتى قد تميز بالدعوة إلى دراسة العهد القديم ، وتمثل أحكامه والتأثر بها . ومن ثم تستغل الصهيونية هذه الأوضاع فى استدرار عطف البروتستانت على إسرائيل باعتبار أن قيامها وإعادة بناء « الهيكل » بشير بظهور السيد المسيح من جديد . وقد نجحت بالفعل فى زيادة العطف على إسرائيل فى بريطانيا وأمريكا ، كما أن مراجعة موقف الفاتيكان من مسئولية اليهود عن صلب المسيح تدخل فى إطار التقريب من المذاهب المسيحية ، فضلا عن التأثير المباشر للصهيونية على الكنيسة الكاثوليكية نفسها . وإن كان ذلك لم يمنع إسرائيل من اضطهاد العرب المسيحيين ومن تدنيس الأماكن المقدسة المسيحية فى استهتار جامح بكل المقدسات .

التفوق الأوربى

وأخيراً تستخدم الصهيونية السلاح الأيديولوجي التقليدى للاستعمار ألا وهو « التفوق الأوربى » . لقد آمنت أوربا وأمريكا الشمالية لعشرات السنين بأنها موطن المدنية ، وأنها أرقى شعوب العالم ، وأن رسالتها التاريخية هى تحضير البشرية . وما زالت فى الغرب دوائر ترى فى تحرير السود والصفر وزيادة عددهم خطراً داهماً يهدد المدنية الأوربية وحضارة الإنسان كلها . ويقدم الصهاينة إسرائيل للغرب على أنها جزء منه ، تتجسد فيها

حضارته فى مواجهة العرب . ولهذا نجد القوى اليمينية المتطرفة وأصحاب الاتجاهات الفاشية والعنصرية فى أوربا وأمريكا تتبنى قضية إسرائيل ، وتقف إلى جوارها ضد العرب . بل إننا نجد النازيين السابقين والجدد يتفانون فى خدمة إسرائيل ومعاونتها والتجسس لحسابها ، لا تكفيراً عن الجرم أو شعوراً بعقدة الذنب كما يقال فى ألمانيا الغربية ، وإنما استمراراً فى الموقف العنصرى الأصيل . لقد قالت النازية إن اليهود جرثومة تهدد الحضارة الأوربية لأنهم ليسوا أوربيين ، بل ساميون أى شرقيون . وهجرتهم إلى إسرائيل هى بالتالى استجابة لمنطق النازية العنصرى . ومعاونة النازيين لهم تأكيد لتخليص أوربا منهم واستخدام لهم فى مواجهة هبة الشرق العربى التحررية . إن العنصريين يلتقون دائماً . وحكام روسيا القيصرية قد أيدوا هرتزل والدعوة الصهيونية . وكبار القادة الصهيونيين كانوا على صلة بهتلر وطغمته . وفيما وراء الدوائر المتعصبة والرجعية ، نجد إسرائيل دائرة واسعة من العطف بين فئات كثيرة ليست بالضرورة ذات موقف رجعى فى بلادها ، ولكنها قد ترسب فى ضميرها تفوق الغرب وتشجيع كل ما هو أوربى[1] . والواقع أن مصاير إسرائيل بيد يهود أوربيين هم أوربيون قبل كل شىء ، يقيمون بالفعل دولة مصطنعة هى امتداد لأوربا فى قلب الوطن العربى . وهذا ما يلقى الضوء على رفض هؤلاء أن « يعيشوا كجزء من أهل المنطقة » كما يحلم بعض مثقفى اليسار الأوربى . إنهم مستوطنون أوربيون لهم عقلية المستوطن التى لا تتصور العلاقة بأهل البلد الأصليين إلا فى صورة قهر وطرد وإبادة أو سيطرة واستغلال . وتلتقى عند هؤلاء اليهود الأوربيين بالذات مجموعة من العقد النفسية والمعتقدات الخاطئة . فهم باعتبارهم أوربيين يؤمنون إيماناً عميقاً بتفوقهم

---

(١) لقد أجرت إحدى هيئات قياس الرأى العام استفتاء فى فرنسا فى نوفمبر ١٩٦٧ اتضح منه أن غالبية الفرنسيين يعتبرون بالفعل إسرائيل دولة غربية .

الأصيل ، لا على العرب وحدهم بل على اليهود الشرقيين . ويثقون ثقة لا حد لها بتقدمهم التكنولوجى ومعارفهم العلمية . وهم كيهود عانوا من الاستهانة بشأنهم فى أوربا حريصون على أن يثبتوا للأوربيين امتيازهم ليس فى العلم أو فى جمع المال فحسب وإنما أيضاً فى المجال العسكرى وفى سياسة الفتح وقهر الشعوب والسيطرة عليها التى كانت عماد الإمبراطوريات الأوربية [1] .

(١) وغداة حرب يونية كتب مثقف يهودى فرنسى كبير فى جريدة « لوموند » الجادة يمجد انتصار إسرائيل ، ويقول ها هم أولئك الذين قال عنهم النازيون إنهم « أشباه رجال » ينتصرون نصراً لم يسبق له مثيل فى حرب كانت نسبتهم العدديةفيها إلى أعدائهم أقل من واحد إلى عشرين .

فهذا المثقف الذى يؤيد عادة الدعوة إلى السلام ويدين الحرب ويقول بالمساواة بين الشعوب ينفعل فيسلم بالتفوق العنصرى ويجعل الانتصار فى الحرب أكبر دليل عليه . . . !

٤

دور إسرائيل فى خطط الاستعمار

قامت إسرائيل فى قلب الوطن العربى كخنجر غرسته يد الصهيونية والاستعمار . وحرصت الصهيونية ، بطبيعتها وبمصلحتها ، على أن تؤكد دائماً أن إسرائيل رأس جسر للغرب ، إنها جزء منه فيما وراء البحر الأبيض المتوسط . فمنذ البداية قال هرتزل : « إن دولة اليهود ستكون حصناً أمامياً للحضارة الأوربية ضد الهمجية الشرقية » . ومنذ نشأة الدولة الصهيونية وحكامها يقدمون الدليل تلو الدليل على ولائهم لسياسة مؤسسى الحركة الصهيونية . ولكن ما هو موقف الإمبريالية العالمية من إسرائيل ؟ إنه من نافلة القول ذكر ما قدمته الدول الإمبريالية لإسرائيل من مساعدات . ولكن السؤال الذى نثيره هل كانت تلك المساعدات ظاهرة عارضة ، أو سلسلة من الظواهر العارضة ، أملتها فى كل مرة ظروف محددة ، واعتبارات تكتيكية ؟ أم أنه على العكس تشكل تلك المساندة جزءاً جوهرياً من استراتيجية الاستعمار فى الوطن العربى ؟

الواقع أن المخطط الاستعمارى يلتقى فى خطوطه الرئيسية مع المخطط الصهيونى بحيث إنهما يتحركان جوهرياً فى نفس الاتجاه وبغض النظر عن الخلافات الجزئية . وإدراك هذه الحقيقة إدراكاً عميقاً أمر حيوى لوضع استراتيجية سليمة فى النضال ضد إسرائيل . إن موقف الاستعمار من إسرائيل ليس مجرد مصادفة ، ولا هو نابع من العطف على اليهود بعد طول اضطهاد . فالسياسة الدولية لا تحكمها العواطف ولا تسيرها مصادفات ، وإنما هى فى التحليل الأخير تعبير عن مصالح محددة .

وإنه لمن السذاجة بمكان أن نتوهم أن هذا الموقف من صنع الأقليات اليهودية فى الدول الاستعمارية . إننا تكلمنا طويلا عن أهمية دور « الدياسبورا » فى دعم إسرائيل . ولكن نفوذ اليهود لا يكفى لتفسير سياسة الدول الكبرى ، لقد قال ماكجورج باندى مستشار كيندى السابق ، ورئيس المكتب الذى شكله جونسون فى يونية ١٩٦٧ لمتابعة أحداث الشرق الأوسط ، بالحرف الواحد : « إن سياستنا فى تأييد إسرائيل تنبع من مصالحنا القومية ، وليست وليدة تأثير الأمريكيين ذوى الأصول اليهودية » . إن مبدأ مساندة إسرائيل إذاً مؤسس على مصالح الاستعمار ذاتها . أما نفوذ اليهود فإنه يلعب دوره فى حجم المساندة وأشكالها وفى تكييف الرأى العام عن طريق أجهزة الإعلام والنشر وفى تنظيم المساعدات غير الحكومية . . . إلخ .

وإن نظرة لصلة الاستعمار بالوطن العربى لتبرز على الفور الدور الذى تلعبه إسرائيل فى مخططاته .

إسرائيل تجسيد للوجود الاستعمارى

ويل للأمم التى لا تستفيد دروساً من تاريخها ! وإن لنا تاريخاً مع الاستعمار يجب أن نعرفه لا على مستوى الوقائع المتتابعة والأحداث المتعاقبة فحسب ، وإنما على مستوى المغزى العميق والدلالة البعيدة . ولنترك جانباً أول محاولة لأوربا الغربية للاستيلاء على الشرق العربى ، وهى الحروب الصليبية ، حتى لانغوص فى تاريخ بعيد نسبياً . ولنقصر الكلام على ما اصطلح على تسميته « التاريخ الحديث » . لقد حاولت أوربا غداة الثورة الفرنسية الكبرى الاستيلاء على الشرق العربى من جديد . وجاء نابليون إلى القاهرة ثم حاول احتلال فلسطين . واصطدمت المحاولة بمقاومة عنيفة من الشعب المصرى جعلت بقاء قوات الحملة الفرنسية

فى مصر جحيما متصلا . ثم اصطدمت بالصراع مع بريطانيا التى اتخذت عندئذ موقف مساندة السلطان العثمانى . وكانت الحملة الفرنسية حدثاً فريداً فى تاريخ الاستعمار . لقد فتحت أعين المصريين على التقدم الأوربى وقدمت لهم صوراً منه ، ولكنها لم تنجح فى إرساء حكم استعمارى يعطل أخذ المصريين بسبيل التقدم . ولهذا هب الشعب المصرى بقيادة محمد على فقضى على الإقطاع المملوكى وطور الزراعة وأنشأ الصناعات الحديثة ، وانفتح ثقافياً على أوربا عن طريق الخبراء والبعثات . وحين حاولت بريطانيا أن تحل محل فرنسا متعللة بتأييد بعض المماليك ضد محمد على هزمت حملتها فى رشيد هزيمة قضت على المحاولة فى مهدها . وكان يمكن لمصر أن تعرف تطوراً كالذى عرفته اليابان . ولكن الاستعمار الأوربى كان بالمرصاد . فتكاتفت دول أوربا ، على ما بينها من خلافات ، لتضرب الجيش المصرى . ونجحت بالفعل فى وقف التقدم . ولما تبين للشعب المصرى أن خلفاء محمد على لم يكونوا فى مستوى المسئولية ثار بقيادة واحد من أبنائه ، أحمد عرابى ، ليؤكد وضع مصر الخاص فى ظل الخلافة ، ويؤكد الديمقراطية والتطور . وكان أن تدخل الإنجليز واحتلوا مصر بحجة مساندة عرش الخديو . ولكنهم لم يجرؤوا على تحويلها إلى مستعمرة أو حتى فرض الحماية عليها ، وإنما أكدوا أن احتلالهم مؤقت هدفه تثبيت العرش وحماية مصالح الأجانب . وظلت بقية بلاد الشرق العربى بعيدة عن الاستعمار فيما عدا عدن وساحل الخليج العربى .

وكان على الاستعمار الأوربى أن يحسم خلافاته بصورة أو بأخرى ، وأن يصفى إمبراطورية آل عثمان لكى يحتل الشرق العربى. وقد تم ذلك فى إطار الحرب العالمية الأولى حين نجح التحالف البريطانى الفرنسى فى هزيمة ألمانيا والقضاء على « الدولة العلية » . ولكن احتلال الشرق العربى لم يكن قضية سهلة . فالثورة العربية تأججت خلال الحرب تحت شعار

إنشاء دولة عربية مستقلة . ومصر لم تقبل الحماية البريطانية التى فرضت عليها سنة ١٩١٤ وكانت تنتظر نهاية الحرب لتطالب باستقلالها كاملا فى وحدة مع السودان . كما أن الثورة الروسية اندلعت قبل نهاية الحرب : وظهرت فى عالم الوجود أول دولة اشتراكية تعلن حق الشعوب فى الحرية وتفضح المعاهدات السرية وتتنازل عما كانت تلك المعاهدات قد خصتها به من أسلاب . ولذلك عملت بريطانيا على الالتفاف حول القيادة الإقطاعية للثورة العربية والتظاهر بمساندتها . وفى الوقت الذى كان فيه ممثلها ما كماهون يبذل الوعود للشريف حسين وأولاده ، كانت حكومة لندن توقع مع فرنسا معاهدة سايكس — بيكو لاقتسام أرض الشام . وليس من قبيل المصادفة أن يعاصر صدور وعد بلفور المعاهدة المذكورة من ناحية والوعود المبذولة للشريف حسين من ناحية أخرى . إن الاستعمار البريطانى بالذات كان يدرك صعوبة الاستقرار فى الأرض العربية ، ويخشى الثورات المتصلة بها ، ولذلك تبنى المشروع الاستيطانى الصهيونى فى أرض فلسطين ليخلق كياناً أوربياً فى قلب الوطن العربى يكون وجوده فى الأجل القصير ركيزة تبرر البقاء البريطانى بحجة الصراع بين عرب فلسطين واليهود ، بعد أن أخفق الاستعمار فى الاستناد إلى العرب المسيحيين فى دعوى « حماية الأقليات » . إن بريطانيا منحت نفسها بوعد من أحد وزرائها لحاييم وايزمان حجة لاحتلال فلسطين تستخدم على حسب الأحوال ضد العرب الذين يريدون دولة عربية واحدة ، وضد الفرنسيين الطامعين فى أرض الشام . وبالفعل آلت فلسطين لبريطانيا فى حين نالت فرنسا سورية ولبنان . وتضمن صك الانتداب الذى أصدرته عصبة الأمم لبريطانيا على فلسطين تكليفها بتنفيذ وعد (بلفور) ، وبذلك أصبح بقاء الإنجليز ليس متوقفاً فقط على وصول الفلسطينيين إلى مستوى الاستقلال وإنما كذلك بتحقيق الوطن القومى لليهود . أما فى الأمد

الطويل فإن تطور الوجود الصهيونى يلقى عبئاً ضخماً على حركة التحرر العربية ويضمن بقاء الغرب الأوربى فى صورة رأس جسر ، حتى ولو أرغم البريطانيون على الانسحاب . وأيدت أحداث ما بعد الحرب هذا الاتجاه . فبريطانيا وفرنسا لم تنجحا فى تحويل الشرق العربى إلى مستعمرات وكان أقصى ما حصلتا عليه هو « انتداب » من عصبة الأمم ، من الفئة الأولى ، يلزمهما بمساعدة تلك الشعوب على حكم نفسها بنفسها حتى تصل إلى الاستقلال . ومع ذلك فقد اندلعت الثورة فى مصر وسورية وفلسطين والعراق . بل امتدت إلى المغرب العربى . وبخليط من إجراءات القمع والتنازلات نجحت الدولتان الاستعماريتان فى تثبيت سيطرتهما . ولكن الثلاثينات عرفت الهبات الوطنية من جديد فى العراق ومصر وسورية وفلسطين حيث وصلت الأمور إلى مستوى الكفاح المسلح . وهكذا كان طبيعياً أن تعمل بريطانيا ، وتؤيدها فرنسا ، وتباركها عصبة الأمم على تيسير هجرة اليهود إلى فلسطين ، وتعترف بالوكالة اليهودية ممثلا لهم ، وتترك لهم فى مستعمراتهم وفى مدنهم سلطات واسعة لم يكن لها مثيل فى المدن والقرى العربية الخالصة . وتستر الحكم البريطانى على التدريب العسكرى فى المستعمرات اليهودية ، وعلى تكوين تشكيلات عسكرية باسم وحدات الدفاع الذاتى . وفى سنوات الحرب العالمية الثانية تجمع مزيد من اليهود فى المنطقة . وكان قادة الصهيونية كثيراً ما يقيمون فى القاهرة حيث عمل أبا إيبان كضابط بالمخابرات البريطانية تحت اسم « الماجور إيفانز » . وأصبح لفلسطين وضع خاص فى الخطط البريطانية ، وليهودها دور هام فى اقتصاديات المنطقة ، وانضم عدد كبير من شباب اليهود إلى الجيش الثامن البريطانى ، ثم تشكلت منهم وحدات متميزة كانت نواة «الهاجاناه» .

وكانت هزيمة الفاشية العالمية فى الحرب العالمية الثانية نذيراً للاستعمار

بتفجير حركة التحرر الوطنى فى مختلف أنحاء ما يسمى اليوم العالم الثالث ، وعلى مستوى لم يسبق له مثيل . وكان أن اشتعلت الثورة فى أرض العرب التى لم تخمد نيرانها فيها تماماً طوال فترة ما بين الحربين . وبالفعل اندلعت الثورة فى الجزائر سنة ١٩٤٥ حيث قوبلت بقمع دموى رهيب . ثم التهب الموقف فى سورية ولبنان واضطرت فرنسا للانسحاب واكتسب البلدان استقلالهما كاملا . وشهد عام ١٩٤٦ مدا ثورياً عارماً على ضفاف النيل . ورفض الشعب المصرى محاولة التفاهم مع بريطانيا التى تمثلت فى مشروع معاهدة صدقى — بيفن . وفى العراق أسقط الشعب مشروع معاهدة مماثل عرف باسم بيفن — جبر . بدا الوطن العربى ، وبصفة خاصة الشرق العربى ، كالبركان لا تهدأ ناره فى موقع حتى تتوهج فى موقع آخر . وأدرك الاستعمار أن قبضته المباشرة لابد أن تنفك ، وأن قواته المحتلة محكوم عليها بالرحيل فى أجل غير بعيد . وفى هذه الظروف تبنى الاستعمار مشروع تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية على أرض العرب . وكان هذا الموقف جديداً ، يخالف كل وعود الدول الغربية . فبريطانيا نصت صراحة فى وعد بلفور على « ألا يمس إنشاء الوطن القومى لليهود » بحقوق عرب فلسطين ، وكانت تحاول عقب الحرب مباشرة كبح جماح المطامع الصهيونية المغالية وترفض أى تفكير عن التقسيم لاستحالته عملياً نظراً لتداخل المناطق ذات الأغلبية اليهودية فى المناطق ذات الأغلبية العربية ، ثم فجأة تحولت إلى تأييد التقسيم . والولايات المتحدة كانت قد قطعت عهداً على لسان روزفلت أثناء وجوده بالقاهرة بألا توافق على أى حل فيه إهدار لحقوق عرب فلسطين ، ومع ذلك تبنت مشروع التقسيم . ولا يمكن فصل هذا الموقف الجديد عن تطور حركة التحرر العربى وما كانت تبشر به من انتصارات . لقد بدا مشروع الدولة الصهيونية التجسيد الحى للوجود الغربى الاستعمارى فى وسط منطقة تعج

بالثورة الوطنية . ومن ثم كان حرص الغرب الاستعمارى على قيام إسرائيل
ثم دعمها . ولم تقنع الدول الاستعمارية بالتصويت على قرار الأمم
المتحدة ، بل أصدرت سنة ١٩٥٠ التصريح الثلاثى الذى أعلنت به أنها
تضمن سلامة إسرائيل . ولكن المشكلة أصبحت فيما بعد ، أن إسرائيل
هى التى اعتدت بحيث أصبح من المتعذر الاستناد إلى التصريح الثلاثى
وتعين البحث عن صيغ أخرى لمساندة إسرائيل .

وكان مجرى الأحداث فى ربع القرن الذى انقضى منذ نهاية الحرب
العالمية الأولى فى اتجاه المزيد من الانتصارات لحركة التحرر العربى ،
والمزيد من التصفية لقواعد الاستعمار فى مصر والعراق والأرن والجزائر
واليمن الجنوبى . وظهرت فى الوطن العربى دول متحررة ترفض الأحلاف
الاستعمارية وكل أشكال الارتباط بالاستعمار وترفع راية الحياد الإيجابى .
ثم أخذت الثورة الوطنية فى عدد من البلاد تكتسب آفاقاً اجتماعية وتستهدف
التحول الاشتراكى . وكان رد الاستعمار المزيد من الدعم لإسرائيل .
وتعاونت بريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية والولايات المتحدة على تزويد
إسرائيل بكل ما تحتاج إليه فى سخاء لا يكفى لتفسيره نفوذ الصهيونية فى
تلك البلاد ، وإنما يفسره أساساً إحساس الدول الاستعمارية بأنها تدافع
عن قضية تمسها بشكل مباشر ، وبأنها تصون مصالح للاستعمار الغربى
أو « للعالم الحر » كما يقولون .

الإنكشارية الجديدة

ولكن الوجود الإسرائيلى قد أثبت أنه قادر على أداء خدمات جليلة
للاستعمار تفوق مجرد السيطرة على جزء من الوطن العربى ، تعزل مصر عن
أقطار الشام والعراق ، وتقطع الطريق البرى إلى شبه الجزيرة العربية .
فالكفاءة العسكرية الإسرائيلية أضفت بعداً جديداً على دورها فى

المنطقة ، بعداً يستحق من الاستعمار كل تقدير وتحصل فى مقابله الدولة الصهيونية على المزيد من المساندة الاستعمارية . لقد رشحتها تلك الكفاءة لأن تكون كاب الحراسة الشرس الذى يحمى مصالح الاستعمار . فى كل فترة مد لحركة الثورة العربية ، كانت إسرائيل تتحرك لتضرب جاراتها العربية محاولة تعطيل التقدم .

فالحرب التى ولدت منها إسرائيل ، والتى أخذت الصهيونية المبادرة فى إشعالها — باحتلال يافا وعكا وغيرها من المناطق التى كانت فى قرار التقسيم جزءاً من الدولة العربية الفلسطينية — قبل ١٥ مايو، الموعد المحدد لتنفيذ القرار المذكور ، لم تكن تعنى بالنسبة للعرب فقدان المزيد من أرض فلسطين فحسب ، بل إنها كانت فرصة ذهبية للاستعمار والرجعية العربية لضرب الحركة الوطنية واعتقال وقتل العناصر الثورية ، وإشاعة الإرهاب البوليسى لشل الحركة الوطنية بغية فرض شكل جديد من أشكال الارتباط بالاستعمار . لقد كانت تلك الحرب نكسة كبرى للعمل الوطنى ، كسرت موجة الثورة العارمة التى هزت أرجاء الوطن العربى من قسطنطينية إلى بغداد ، نكسة لم تخرج منها إلا بعد أربع سنوات عندما انتصرت فى مصر ثورة يولية ١٩٥٢ .

وفى مستهل عام ١٩٥٥ ، حين رفضت حكومة مصر مشروع حلف بغداد ، وخرجت تقاومه على المستوى العربى وتطرح فى مواجهة الحلف الاستعمارى فكرة الحلف العربى الخالص ، تقدم الجيش الإسرائيلى لاحتلال المنطقة المنزوعة السلاح على طول الحدود المصرية الإسرائيلية واعتدى على تلك الحدود . وحين أرادت القاهرة أن تدعم قدراتها الدفاعية ضد العدوان الإسرائيلى بشراء السلاح من الولايات المتحدة الأمريكية (وهى لم تكن عضواً فى حلف بغداد) ماطلت واشنطون ثم رفضت مؤكدة أن الوسيلة الوحيدة للحصول على السلاح الأمريكى هى الانضمام إلى حلف بغداد . ولكن هذا الرفض لم يزد مصر إلا إصراراً على

موقفها الاستقلالى . واشترك جمال عبد الناصر بدور بارز فى مؤتمر باندونج الذى كان نقطة البداية فى تصفية الاستعمار القديم . ثم أقدم على خطوة جريئة فى تحرير سياسة مصر الخارجية ، فاشترى السلاح من الاتحاد السوفييتى وتشيكوسلوفاكيا . وما كاد خبر هذه الصفقة يعرف فى خريف عام ١٩٥٥ ، حتى قامت إسرائيل بعدوان جديد على الحدود المصرية فى نوفمبر من نفس السنة . بل لقد بلغ التبجح بالصهاينة حداً بعيداً . فحين هب الشعب الأردنى ليحبط محاولة ضم الأردن إلى حلف بغداد ، وبدا العرش الهاشمى مهدداً ، أعلنت جولدا مائير . وهى آنذاك وزيرة الخارجية فى تل أبيب ، إن إسرائيل تعتبر أى تغيير سياسى فى الأردن سبباً يبرر الحرب Casus belli . . . !

وفى سنة ١٩٥٦ ثبتت الثورة الجزائرية أقدامها ، وبدأ الكفاح المسلح يأخذ طابع الحرب الشعبية الشاملة بمساندة من الدول العربية وفى مقدمتها مصر . وأصبح الاعتقاد السائد لدى بعض الدوائر الفرنسية أن إسقاط النظام الحاكم فى مصر يمكن أن يكون ضربة قاضية للثورة الجزائرية . وفى الوقت نفسه لجأت أمريكا وبريطانيا للضغط الاقتصادى على مصر بسحب عرض تمويل السد العالى ، وبإلزام البنك الدولى بالرجوع عن اتفاقه مع القاهرة على الإسهام فى هذا المشروع الكبير . ومرة أخرى لم ينحن عبد الناصر ، بل بدأ إجراءات التحرر الاقتصادى بتأميم شركة قناة السويس . وثارت ثائرة الاستعمار الأوربى . فهذه شركة احتكارية عالمية تؤمم ، ويخلق تأميمها سابقة خطيرة . ومصر تجد فى موقفها تأييداً شاملا على مستوى الوطن العربى كله ، وكسب معركة التأميم يشكل دفعة جبارة لحركة التحرر العربى . ومن ثم كانت المؤامرة التعيسة . لقد تقدمت حكومة بن جوريون تعرض خدماتها . والتقى رؤساء وزارات بريطانيا وفرنسا وإسرائيل كالمتآمرين فى ظل سرية مطلقة ليعدوا حملة عسكرية ضد مصر وشعبها

المناضل . وبدأت خيوط المؤامرة بعدوان إسرائيل . فاقتحمت القوات الإسرائيلية فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ حدود مصر بحجة وجود نشاط للمقاومة الفلسطينية ، وتقدمت صوب قناة السويس تحميها طائرات فرنسية وإنجليزية . وفى اليوم التالى تعللت بريطانيا وفرنسا بأن الحرب تهدد الملاحة فى قناة السويس لتوجه إنذاراً لمصر بالانسحاب غربى القناة وترك شاطئيها لتحتلهما قوات فرنسية إنجليزية . ولم تكن مصر تملك إلا رفض الإنذار . فتم الغزو التعيس فى بور سعيد .

وفى سنة ١٩٦٧ جاء العدوان الإسرائيلى بعد أن افتضحت مؤامرة الإخوان المسلمين فى القاهرة ، وصمدت الجمهورية العربية المتحدة أمام الضغوط الأمريكية التى تمثلت بنوع خاص فى رفض بيع القمح الأمريكى وفقاً لشروط قانون فائض المحصولات الزراعية الأمريكى (والمعروف بالقانون رقم ٤٨٠)، وبعد أن خاض الحكم التقدمى فى سورية معركة هامة ضد الاحتكارات البترولية لاسترداد حقوق الشعب السورى فى الرسوم المفروضة على خطوط أنابيب البترول . كما نجح فى مقاومة تحركات الرجعية محاولة الانقلاب الخطيرة التى افتضحت فى سبتمبر عام ١٩٦٦ . وبدت الثورة اليمنية قادرة على الصمود ، فى حين انتصرت الثورة المسلحة فى اليمن الجنوبى بآفاقها التقدمية الواضحة . وهكذا اقتربت حركة الثورة العربية من منطقة الخليج أغنى مستودع عالمى للبترول . وبدا التقارب واضحاً بين الدول العربية التقدمية . وعندئذ كان لابد من عدوان خارجى . ولم يكن من السهل أن تتصدى أمريكا بنفسها لهذه العملية نظراً لتورطها فى فيتنام ولعلاقات القوى على الصعيد العالمى . وتقدمت إسرائيل لتتولى المهمة القذرة . حقاً إن إسرائيل كان لديها ، كما أوضحنا ، الأسباب الخاصة التى تحملها على العدوان . وقد قال أبا ايبان فى محاضرة له فى أمريكا فى يولية ١٩٦٥ بالحرف الواحد: « إنه ليس من المستبعد أن نرى

الدول العربية غداً تطالب بالعودة إلى حدود ١٩٦٦ ، أو ١٩٦٧ كما تطالب اليوم بالعودة إلى حدود ١٩٤٧» . ولكن التوقيت للعدوان جعل منه فى الوقت نفسه خدمة كبرى للاستعمار العالمى ، وبصفة خاصة للاستعمار الأمريكى.

وهذا الدور الذى تلعبه إسرائيل فى الشرق الأوسط يكسبها أهمية خاصة فى نظر واشنطون . فأمريكا التى تريد أن تقوم على نطاق العالم كله بدور الشرطى فى حماية مصالح الاستعمار وضرب حركات التحرر تحلم بوجود عدد من الدول تعتمد على مساعدات أمريكا الاقتصادية والعسكرية والسياسية وتتولى عنها عبء الصدام مع قوى التحرر . تلك الفكرة التى عبر عنها الجنرال ماك أرثر سنة ١٩٥٠ بصيغة «لنجعل الآسيويين يقاتلون الآسيويين » . ولكن هذه الفكرة لم تنجح إلا فى إسرائيل . ففى فيتنام لم تقف الحكومات العميلة على قدميها واضطر الجيش الأمريكى للتدخل على نطاق واسع . وفى سان دومينجو تدخلت مشاة البحرية الأمريكية . وفى كوبا آلت عملية «خليج الخنازير» التى كانت تعتمد على الكوبيين فى المنفى إلى إخفاق ذريع . وفى كوريا الجنوبية وفيتنام الجنوبية وغيرهما من الدول الخاضعة للنفوذ الأمريكى سخط عظيم على واشنطون وسياستها وعلى الحكومات العميلة التى تقيمها . أما إسرائيل فهى الدولة الوحيدة التى ترحب بالمساعدات الأمريكية ويغمرها العرفان بالجميل الأمريكى . وبها نظام حكم قوى ومستقر . ولها جيش ضخم يستحق وقفة قصيرة . لقد كتب معلق فرنسى من إذاعة «أوربا رقم ١» أن الجيش الإسرائيلى أكثر جيوش العالم ديموقراطية لأن كل الشعب الإسرائيلى فى الجيش . والواقع عكس ذلك تماماً ، وهو أن الجيش يسيطر على كل شىء فى حياة البلاد . إن إسرائيل بأكملها معسكر حربى كبير . ويبدأ تدريب الإسرائيليين من الجنسين على السلاح منذ الطفولة . وينشأ الشباب على العدوان وتمجيد العنف والتعلق بالسلاح . وكل من هم فى سن

التجنيد جنود فى الجيش العامل يرتدون ثياب الميدان بصفة دورية ويعيشون على صلة دائمة بالسلاح . مما يخلق جواً عسكرياً عاماً تمحى فيه الفروق بين العسكريين والمدنيين وتسود روح القتال وحب السلاح الشعب بأكمله .
ووزارة الدفاع الإسرائيلية تسيطر مباشرة على عدد كبير من الأجهزة والهيئات التى تبدو لأول وهلة وكأنها لا شأن لها بالجيش مثل مزارع النقب ومزارع الحدود بصفة عامة . وشركة طيران « العال » . . . إلخ . والمؤسسة العسكرية تهيمن فى الواقع على الحياة السياسية فى البلاد . وتلك المؤسسة يسعدها أن تلعب دور « الإنكشارية » فى خدمة الاستعمار . وواشنطون من ناحيتها مستعدة لأن تدفع الثمن لمن يكفل لها حماية مصالحها فى البلاد العربية وفى مقدمتها البترول ، ويعفيها من التورط المباشر بما يسببه لها من تعقيدات دولية تنشأ عن المساس بتوازن قوى عالمى غاية فى الدقة ، ومن مشكلات داخلية تتولد عن مقتل المجندين الأمريكيين فى حروب استعمارية .

الهدف الاستراتيجى للغرب الاستعمارى

وفيما وراء المصالح المادية الملموسة لهذه الدولة الاستعمارية أو تلك . يلوح الهدف الاستراتيجى للغرب الاستعمارى ، ألا وهو الحيلولة دون الثورة العربية ودون تحقيق وحدة الأمة العربية فى دولة متحررة ، ديمقراطية وتقدمية . إن الغرب يرى فى إسرائيل جزءاً منه زرعه زرعاً فى قلب الوطن العربى ليقسم الأرض العربية ، ويكون ركيزة أمامية تحد من انطلاق الثورة العربية وتستنزف الكثير من مواردها . إن الجو الذى صاحب العدوان الإسرائيلى فى الغرب كان جو « حرب صليبية » يعيد إلى الأذهان أيام بربا روسة وقلب الأسد ولويس التاسع . إننا كثيراً ما ننسى حقيقة الصدام الحضارى بين الغرب والوطن العربى . إن دعاة الحضارة الغربية يرون أنها الحضارة الأسمى (أو الحضارة الوحيدة الجديرة بهذا الاسم ، ولدت فى)

اليونان ، وانتصرت وانتشرت على يد الرومان ، ثم تفجرت ينابيعها من جديد بعد ظلمات العصور الوسطى في أوربا الغربية ، ثم بلغت أوجها اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية . ولكن بلادنا هي التكذيب الصارخ لهذا التبسيط العنصري لتاريخ الحضارة البشرية . لقد كان في وسع الغرب أن يتجاهل الصين والهند — على عراقة الحضارة فيهما — نظراً لبعدهما ولتأثيرهما المحدود في تطور بقية البشرية . أما بلادنا فهي على الساحل المقابل من البحر المتوسط . وفيها ولدت أقدم الحضارات على ضفاف النيل والفرات وفي شمالي سورية وجنوبي جزيرة العرب .

وحين سيطرت أوربا الرومانية على هذه المنطقة لم تستطع أن تغير من وجهها ، ولا أن تطمس حضارتها أو تصبغها بصبغة الرومان . بل إن المسيحية التي ظهرت في أرض فلسطين هي التي غزت الإمبراطورية وقوضت دعائم حضارتها القائمة على الرق . وحين صادرت الدولة الرومانية دين الناصرة وبيت لحم لحسابها ، وحاولت استغلاله في دعم سيطرتها ، قاومها مسيحيو الشرق ، وفي مقدمتهم أقباط مصر .

ثم ظهر الإسلام نوراً وقوة فتحررت الأرض ، وقامت دولة كبرى ذات حضارة زاهرة ، رفضت التعصب العنصري والديني ، وعرفت من التسامح ما لم يسبقها إليه أحد ، تمثلت ما سبقها من حضارات ، وأخرجت للبشرية أعلاماً في الفكر والفلسفة والعلوم . وحين أخذ التفكك يدب في الدولة العربية الإسلامية ، سارعت أوربا لغزو الشرق العربي متسترة وراء الصليب . وغلب العرب في مواقع كثيرة ، ولكنهم نجحوا في النهاية في رد الصليبيين على أعقابهم مدحورين . وانهارت مملكة أورشليم التي أقامها الصليبيون بعد أن عاشت قرابة المائة العام ، ولحقت بها إمارة أنطاكية ، وتطهرت أرض العرب من الغزاة الأجانب . وتعاون المسيحيون العرب مع المسلمين في النضال من أجل هذا التحرر .

ولم تنس أوربا الهزيمة ولا فقدت الطمع . وحين دخل المارشال ألنبي القدس في نهاية الحرب العالمية الأولى ، كانت أولى كلماته : « الآن قد وضعنا حداً للحرب الصليبية ». ولكن بلادنا كانت في العصر الحديث آخر بلاد وقعت في قبضة الاستعمار الغربي . وكانت أول بلاد تمردت عليه وتخلصت منه . وهي من البلاد النادرة التي لم يستطع أن يغير من شخصيتها القومية ، أو يقتلع لغتها ، أو يضيع معالم حضارتها . إن مئات الألوف من الفرنسيين يؤيدون إسرائيل ، لا حباً في اليهود ، ولكن لأنهم لا يغتفرون للعرب تأميم قناة السويس أو تحرر الجزائر . والبريطانيون يعادون العرب لأنهم طردوا من الشرق العربي كله . وكل الأمريكيين الذين تشبعوا بفلسفة تفوق أسلوب الحياة الأمريكي ورسالة الولايات المتحدة في حماية « العالم الحر » وحضارته يرون في حركة التحرر العربي عملا شيطانياً ، مثل وجود المعسكر الاشتراكي ، يهدد حضارة الرجل الأبيض وسيادته ... ويحمل في طياته احتمالات تأميم البترول .

إن نجاح الثورة العربية يعني قيام دولة كبرى ، لها من عدد السكان واتساع الرقعة والموقع الجغرافي وغنى الموارد والتراث الحضاري ما يجعلها قادرة ، برغم ما تعاني من تخلف في الحاضر ، على أن تتبوأ في السياسة العالمية مركزاً مرموقاً ، وأن تقطع في طريق التقدم شوطاً بعيداً في زمن قصير . وتجربة الصين الشعبية ، التي دخلت عصر الذرة بعد أقل من عشرين عاماً من انتصار ثورتها ، دليل ساطع على القدرات الكامنة لدى الشعوب الكثيرة العدد العريقة الحضارة . والغرب الاستعماري يدرك هذا كله . ولذلك فهو لا يألو جهداً في التربص بحركة التحرر العربي ، ويستخدم كل ما تحتويه ترسانته من أسلحة الاستعمار قديمه وجديده ؛ لينال منها داخلياً وخارجياً : يستنزف قواها ومواردها ، ويفرق صفوفها ؛ ويحاول النيل من عزيمتها . وإسرائيل هي القطعة المختارة في لعبة الاستعمار الآثمة.



ألم الحاضر وأمل المستقبل . . .

٥

استراتيجية للنضال العربى

سراب الواقعية

لقد كشفت الصفحات السابقة عن حقيقة التحدى المروع الذى تواجهه الأمة العربية . فإسرائيل عدوان مستمر على شعب فلسطين تحرمه أرضه ووجوده الوطنى المستقل . وهى حالياً قد اعتدت على الدول العربية الثلاث : مصر وسوريا والأردن ، واحتلت أجزاء هامة من أراضيها ترفض الانسحاب منها ولا تتراجع أمام المطالبة الصريحة بضمها نهائياً وقيام دولة « إسرائيل الكبرى » كما قال ليفى أشكول . وهى مستقبلا خطر توسعى يهدد كل الشعوب العربية بالعدوان أو بالسيطرة الاقتصادية سواء فى ذلك عرب الشرق وعرب الغرب . وكل تلك المخططات الصهيونية تندرج فى التحليل الأخير فى إطار مخططات الإمبريالية العالمية ضد الوطن العربى ، وتشكل داخلها جزءاً متميزاً بأطماعه الخاصة وقدراته الذاتية .

وفى ضوء هذا الفهم لأبعاد التحدى الصهيونى الإمبريالى ينكشف سراب الواقعية أياً كان اللون الذى تظهر به . لقد وجد بين ظهرانينا من توهموا أن الاستعمار يحاربنا لأننا نقف موقف الحياد الإيجابى ولأننا قررنا هجر طريق الرأسمالية وتبنينا الاشتراكية هدفاً لمجتمعنا . ولكن العدوان الإسرائيلى على مطار بيروت وضع حداً ، أو ينبغى أن يضع حداً ، لكل تفكير « واقعى » من هذا النوع . فلبنان بلد رأسمالى بعيد كل البعد عن أى اتجاه نحو تدخل الدولة . وعلاقة لبنان بالدول الغربية ، وفى مقدمتها الولايات المتحدة ، علاقات طيبة للغاية .

وبيروت هى المقر الرئيسى للمصالح الأمريكية فى المنطقة . ومع ذلك فإن هذا كله لم يحل دون العدوان الاسرائيلى . ولم تفد العلاقات الطيبة بالدول الغربية لبنان شيئاً . ولم يحصل القطر الشقيق إلا على قرار من مجلس الأمن بإدانة العدوان . أما تحرك فرنسا الذى تمثل فى حظر تصدير الأسلحة وقطع الغيار العسكرية إلى إسرائيل . فليس مرجعه الوحيد ما تحرص عليه باريس تقليدياً من علاقة خاصة بلبنان . وإنما هو فى المقام الأول امتداد للسياسة التى اختطتها حكومة ديجول منذ يونية ١٩٦٧ إزاء النزاع العربى الإسرائيلى ، والتى سنعود لتحليل أسبابها بعد قليل .

والدول العربية المنتجة للبترول تقع فى وهم خطير إذا ظنت أن مصالح الاستعمار البترولية تقيها ضد مطامع إسرائيل . فالبترول نفسه هدف يسيل له لعاب الصهيونية .. والاحتكارات البترولية مفتوحة للنفوذ الصهيونى شأنها فى ذلك شأن كل الاحتكارات العالمية . ومن السذاجة بمكان أن نكتفى بقبول الشركات العاملة فى أرضنا مبدأ عدم إرسال موظفين يهود للعمل فى بلادنا ، ونعتقد أننا بذلك نضع حداً للنفوذ الصهيونى فيها . فكلنا نعرف مدى القوة المالية لكبار الرأسماليين اليهود فى الولايات المتحدة ودورهم الكبير فى الاحتكارات الكبرى . فكيف يتأتى بعد ذلك الاعتقاد بأن احتكارات البترول بمنأى عن ذلك ؟ إن الاحتكارات البترولية الأمريكية بالذات يسعدها أن تشارك إسرائيل . وأن تعتمد على الخبرات الفنية التى توجد بها فى أعمال التنقيب والاستخراج . كما أنه يكون من المريح لها أن تركز عمليات تكرير البترول وتصنيعه فى حيفا وغيرها من موانئ إسرائيل لتصدر لأوربا منتجات بترولية بدل تصدير البترول الخام . فزيادة نسبة التصنيع تعنى زيادة الأرباح ، ونقل المنتجات البترولية أقل تكلفة من نقل البترول الخام .

ومن بين المثقفين من يتأثر بحديث فريق من مثقفى اليسار الأوربى .

فتراهم يسلمون بأن سياسة العداء لإسرائيل تمهد الطريق لوثوب العسكريين إلى السلطة فى البلاد العربية ، وتهدد الحريات الديمقراطية ، وتحمل الاقتصاد القومى أعباء تسليح جسيمة تقتطع من الاستثمارات اللازمة للتنمية الاقتصادية . ويسوقهم هذا التفكير إلى توهم أن نظرة واقعية للأمور يمكن أن تحد من الخسائر . وأن التسليم بفقدان جزء من الوطن العربى والانصراف إلى بتطوير أوضاع البلاد العربية الأخرى يكون أجدى للشعوب العربية . وموطن الزلل فى هذا الاستدلال هو افتراض أن إسرائيل يمكن أن تقنع بالوضع الذى كان قائماً قبل حرب يونية ، مع أننا قد أوضحنا فيما سبق كيف أن إسرائيل محكوم عليها بالتوسع والسعى للسيطرة الاقتصادية . أن مثل هذا النوع من الواقعية لا يعنى فقط التخلى عن شعب فلسطين الشقيق ، ولكنه فوق ذلك يفقدنا اليقظة ضد مخططات العدوان الصهيونى الإمبريالى . إننا لا نملك أن نسالم إسرائيل ، لأن السلام الذى تريده إسرائيل ، كالسلام الاستعمارى ، لا معنى له إلا السيطرة من جانبها والخضوع المتزايد من جانبنا . إننا لم نناضل منذ عشرات السنين ضد الاستعمار الأوربى لنترك استقلالنا السياسى والاقتصادى لقمة سائغة لحفنة من الصهاينة وسادتهم المستعمرين . وعبثاً يقال إن السياسة العربية تستعدى إسرائيل وتحملها على العدوان حملا بتهديدها المستمر للوجود الإسرائيلى . فعوامل العدوان والتوسع كامنة فى طبيعة إسرائيل . ونقد السياسة العربية السلبية يتمثل فى أنها تفيد الدعاية الصهيونية وتمكنها من قلب الأوضاع فى نظر الرأى العام العالمى فيبدو المعتدى الحقيقى فى ثوب الحمل الوديع المهدد بالإبادة ، فى حين يظهر المعتدى عليهم فى صورة الجبار الأثيم الذى يبيد الحرث والنسل ويقتل النساء والأطفال . إن إسرائيل يصدق عليها المثل الصينى : « إنك لا تستفز النمر ، لأنه مستفز بطبعه » .
ولا ينبغى أن ينال منا ما يقال لنا عن سياسة التعايش السلمى . لأنه

لا تعايش سلمى بين المعتدى والمعتدى عليه - أو بين الاستعمار بالشعب الذى يثور ضده . وإنما التعايش السلمى والمنافسة السلمية تكون بين النظام الاشتراكى والنظام الرأسمالى المستقر كل منهما فى عدد من الدول المستقلة ذات السيادة . كذلك يحلو لبعض المثقفين الأوربيين أن يلعبوا دور « حمامة السلام » على الأقل فى أوساط المثقفين . ويطيلون الحديث عن أهمية تسوية الخلافات بالطرق السلمية ، ويذكرون « روح طشقند » التى حالت دون الصدام المسلح بين الهند وباكستان . والقياس هنا مع الفارق الكبير . فالمشكلة فى الشرق الأوسط ليست صراعاً محلياً على الحدود بين دولتين مستقلتين ، وإنما هى مشكلة انتزاع أرض من أهلها وحرمانهم من الوجود الوطنى ليقوم محله وجود استعمارى غريب يهدد أمن البلاد العربية واستقلالها . ولنا أن نتساءل : فيم هذا الكلام الكثير عن التسليح وأضراره بالتنمية الاقتصادية ؟ ولماذا لا يستغرب أحد أن تنفق بلاد محايدة لم يمس حيادها أحد منذ عشرات السنين ، مثل سويسرا أو السويد ، اعتمادات طائلة على التسليح ، ونجد من ينكر على بلد مثل مصر تعرض للعدوان ثلاث مرات خلال عشرين عاماً أن يعد لنفسه أسباب القوة ؟ إن التنمية الاقتصادية لا يمكن أن تطرد وتؤتى ثمارها إلا فى ظل الاستقلال الكامل . ولذلك فإن نفقات صيانة هذا الاستقلال هى ، من الناحية الاقتصادية ، من النفقات العامة الضرورية التى لا بد منها لإجراء التنمية ، شأنها شأن وجود جهاز الدولة ، وتوفير الأمن الداخلى أو نشر الثقافة . . . إلخ . والمشكلة الوحيدة التى تثور بصدد التسليح هى مدى فاعلية الإنفاق عليه ، أو بعبارة أخرى هى مشكلة الحصول على أعظم النتائج الممكنة من إنفاق معين . وهى القاعدة التى تحكم كل الاستثمارات غير الإنتاجية مثل التعليم والإسكان والصحة . . . إلخ .

تحديد الهدف

إن صراعنا ضد المخطط الصهيونى الإمبريالى لا فكاك منه . إنه قدرنا المحتوم . فالإنسان لا يملك الاختيار بين الحرية والاسترقاق . لأنه إذا تخلى عن الأولى فإنما يتخلى عن طبيعته كإنسان . والشعوب العربية تدرك تلك الحقيقة إدراكاً عميقاً ، لا ينال منه تردد بعض الأوساط الحاكمة أو البلبلة الفكرية عند بعض المثقفين . لقد نجحت الدعاية الصهيونية فى إيهام قطاعات واسعة من الرأى العام العالمى بأن « العداء لإسرائيل » شعور يؤججه بعض الحكام العرب بطريقة مفتعلة ليصرفوا شعوبهم عن قضاياها الداخلية . ولكن هبة الشعب العربى فى مصر ، وفى كل البلاد العربية ، غداة هزيمة يونية ١٩٦٧ رافعاً شعار الاستمرار فى النضال كان ينبغى أن يضع حداً لتلك الأوهام . إن العداء للصهيونية والاستعمار فى نظر شعوبنا هو المحك الأول الذى يقوّم به الحكام والحكومات . وإن أعظم رصيد لأى زعيم عربى هو بالدقة نضاله الثابت ضد مخططات الإمبريالية والصهيونية . بل إن إسرائيل بتجسيدها للعدوان فى أبشع صوره وأكثرها فجاجة تحقق فى الصف العربى إجماعاً ضدها لا يجرؤ أحد على الخروج عليه . وتلك حقيقة جوهرية من حقائق ما يسمى « أزمة الشرق الأوسط » يتعين على كل من يعنيهم الأمر أن يأخذوها فى الحسبان .

وعلينا أن نقر بأنه بينما أخذت الشعوب العربية زمام المبادرة فى النضال ضد أشكال الاستعمار القديم حتى كادت تقضى عليه تماماً من ربوع الوطن العربى ، وتنبهت لأساليب الاستعمار الجديد فشنت ضدها نضالا لا يلين ، كانت المبادرة فى الصدام مع إسرائيل بيد الصهيونية بصورة تكاد تكون دائمة . لقد تساءلنا كثيراً فى أعقاب النكسة الكبرى عن أخطاء السياسة العربية إزاء إسرائيل . وفى تقديرى أن الخطيئة الأولى فى هذا

المجال كانت بالذات عدم وجود سياسة عربية أصلا . لقد تمسكنا بموقف مبدئى هو رفض التسليم بالأمر الواقع الذى صنعته الصهيونية بمساندة الاستعمار . وكان الإصرار على هذا الرفض برغم الهزائم والنكبات والضغوط العنيفة موقفاً رائعاً ونبيلا . ولكنه لم يكن كافياً بحال أمام الزحف الصهيونى . وإن الصدام بين حركة التحرر العربى وبين مخطط الصهيونية والاستعمار . أياً كانت الأشكال التى يتخذها ؛ هو من طبيعة الحرب . ولذلك فلا يمكن أن نقنع فيه بصفة دائمة بموقف الدفاع تاركين المبادرة بيد العدو . بل لا بد أن تكون لنا خطة للهجوم . ولا يمكن أن تكون لنا مثل هذه الخطة إلا إذا تحددت أمامنا أهداف واضحة نناضل من أجلها وتحكم حركتنا كلها . وتلك الأهداف لا يمكن أن تكون مجرد « إعادة الأحوال إلى ما كانت عليه قبل عشرين أو خمسين عاماً » . فالتاريخ لا يرجع القهقرى ؛ وإنما يسير إلى الأمام . وتصورنا لأهداف نضالنا يجب أن يدخله البعد التاريخى ، فيكون تصوراً للمستقبل آخذاً فى الحسبان وقائع الحاضر المادية ؛ واحتمالات الغد فى حياتنا وحياة أعدائنا وحياة العالم المحيط بنا وبهم .

نعم . لقد اتسمت تصرفاتنا خلال العشرين عاماً الماضية بطابع « رد الفعل » إزاء تصرفات العدو . ولم تتخذ قط طابع « الفعل » . وبقدر قصور حركتنا إزاء حركة الصهيونية كان صوتنا عالياً وتهديداتنا صارخة ومواقفنا عصبية ومتفرقة . ولكى « نفعل » لا بد أن يكون محتوى الفعل واضحاً لا يشوبه لبس وإلا غدا قعقعة لا تغنى أو ارتد إلى صدورنا سهاماً قاتلة . ولكى نتحرك ، لا بد أن يكون لمسيرتنا غاية نهدف إليها ونهتدى بها ، وإلا غدا السير تيهاً فى الصحراء يمكن أن يدور فى حلقة مفرغة . وبشىء من ضبط النفس وهدوء التفكير ، وقدر معقول من الواقعية الثورية ، يمكن أن نحدد هدفنا بشكل حاسم بأنه :

« تصفية وضع إسرائيل كقاعدة صهيونية استعمارية فى قلب الوطن العربى »

وبهذا التحديد يتبين فوراً أننا لا نستهدف بأية حال من الأحوال إبادة اليهود المقيمين فى فلسطين ، أو إلقاءهم إلى البحر ، أو طردهم بالقوة . فمثل تلك الأغراض غريبة تماماً عن تقاليدنا الحضارية . فى تاريخنا الطويل كانت رسالة العرب حضارة وسلاماً ولم تكن هدماً ولا تخريباً ولا إبادة . كما أن المشكلة فى مستوى الصراع الحالى ليست مشكلة « ثأر » ، لسنا بصدد تطبيق قانون التوراة « العين بالعين والسن بالسن » وأن نفعل باليهود فى إسرائيل ما فعله الصهاينة بالعرب . إن نسبة غير صغيرة من الإسرائيليين كانوا يعيشون فى البلاد العربية قبل الهجرة التى جرفتهم إليها أمواج الدعاية الصهيونية وأموال الوكالة اليهودية . وهم أقرب إلينا حضارياً منهم إلى اليهود الغربيين . والحق أن المشكلة تكمن لدى اليهود فى إسرائيل أكثر مما هى فى يد العرب . إن ما يعنينا فى الجوهر أمور ثلاثة :

١ — حق الشعب الفلسطينى فى أرضه ووطنه واستقلاله .

٢ — ألا يعنى وجود يهود فى فلسطين الادعاء بوجود وطن بها لكل يهود العالم .

٣ — ألا يكون هذا الوجود تجسيداً لارتباط بالغرب الاستعمارى .

وعلى ذلك فإن مستقبل الطائفة اليهودية فى فلسطين يتوقف على تسليمها بحقوق شعب فلسطين ، وفصمها لعرى الصهيونية العالمية ، وبتقبلها أن تصبح جزءاً من المنطقة التى تعيش فيها وليس رأس جسر أجنبى ضد آمالها وأمانيها . إن الأمة العربية حين تناضل فى سبيل وحدة أراضيها وحين تضع صيغة اتحادية تجمع شملها ، تدرك حقيقة أن هذه الأرض تضم فى أجزاء منها أقليات قومية . والشعار الثورى الوحيد هو التمسك بوحدة

التراب العربي . مع احترام حقوق الأقليات القومية . إننا نؤمن بفكرة أن شعباً يقهر شعباً آخر لا يمكن أن يكون هو نفسه شعباً كامل الحرية . والثورة العربية بأبعادها التحررية والاجتماعية تلفظ القهر القومي والتعصب العنصري فى كل الصور . إننا لا يمكن أن نقبل بقاء قاعدة استعمارية عدوانية على أرضنا . ولا يمكن أن يستهدف نضالنا هدفاً غير تصفية تلك القاعدة . ولكننا لا نضمر عداء عنصرياً لليهود كأفراد . ولا نقول هذا بقصد التأثير فى الرأى العام العالمى . فنحن نعلم أننا لا يمكن فى قضايانا الأساسية أن نتكلم لغتين . فنقول كلاماً للاستهلاك الخارجى . وآخر للجماهير فى الداخل . بل نعلن هدفنا واضحاً فى الداخل والخارج معاً . وسنده فى المجالين هو تاريخنا ذاته بشقيه : رفض السيطرة الأجنبية ، ورفض التعصب العنصرى .

صراع طويل ومرير

وبتحديد الهدف على هذا النحو يتبين لنا أنه يعنى نضالا طويلا وشاقاً . متشعباً فى مجالاته ، متنوعاً فى أساليبه ، مريراً فيما يستوجب من تضحيات . فتصفية القاعدة الصهيونية الاستعمارية لا يمكن أن تتم بين يوم وليلة .. ويجب ألا نخدع أنفسنا عن هذا الواقع المرير . يجب أن ندرك تماماً أنه فى حدود علاقات القوى الحالية فى المنطقة لا يستطيع العرب سحق العسكرية الإسرائيلية حتى بدون تدخل مباشر من القوات الاستعمارية . وعبثاً نحاول أن ندور حول هذه الحقيقة برفع شعار الحرب الشعبية . ذلك أن الحرب الشعبية فى جوهرها حرب ثورية يخوضها شعب ضد جيش احتلال أجنبى أو جيش رجعى محلى . وهدفها فى الحالة الأولى إقناع المحتل باستحالة الاستمرار فى الاحتلال لأن تكلفته باهظة تفوق بكثير كل المزايا التى يحصل عليها المستعمر منه .

وهذا بالدقة ما حدث فى الجزائر فحمل حكومة ديجول على المفاوضة ثم الانسحاب . وهذا ما يحدث اليوم فى فيتنام . فالنضال البطولى للشعب الفيتنامى لم يقذف بالأمريكيين فى المحيط ، ولكنه أثبت لهم استحالة استمرار العدوان وتحقيق أهدافه . أما فى الحرب الأهلية ، فإن الحرب الشعبية إما أن تفضى إلى انهيار النظام الرجعى من الداخل ، وإما أن تتحول إلى حرب نظامية . وجيوش « ماو » التى وجهت الضربة القاضية إلى تشانج كاى تشيك واحتلت بكين وكانتون وشنغهاى كانت جيوشاً نظامية . أما إسرائيل فإنها تمركز قوتها الضاربة داخل حدود دولية معترف بها وفى إطار سيطرتها العددية . وحتى إذا تخيلنا جدلا مواجهة عامة للاستعمار وإسرائيل بحرب شعبية على نطاق الشرق العربى كله ، فإن الإعداد لها وتوفير ظروفها داخل الدول العربية أمر يستغرق عدة سنوات ، كما أن الحرب الشعبية نفسها ليست حرباً خاطفة وإنما هى سنوات قتال طويلة . ولكل ذلك فلا بد أن نتخلى عن نفاد الصبر وقصر النفس وبدل أن نعلل أنفسنا بعمل خارق علينا أن نهيئها لنضال طويل ومرير . ولنا أن نتمثل تجربة العدو الصهيونى الذى رسم استراتيجيته على مدى قرن ، فقد مرت أكثر من عشرين سنة بين تحديد الصهيونية لهدف إقامة دولة فى إسرائيل وبين الحصول على وعد بلفور ، ومرت ثلاثون سنة بين الوعد المشئوم وإقامة الدولة بالفعل . ولم يكن كل ذلك إلا خطوة أولى .

وليكن واضحاً تماماً ما نريد أن نقول . إنه بعيد تماماً عن فكرنا أن نهوّن من دور المقاومة الفلسطينية ، بل على العكس سنعود لنؤكد أنه حجر الزاوية فى كل خطة من أجل فلسطين . كما أننا لا نعارض الكفاح المسلح ، بل نرى من الضرورى أن تتخذ المقاومة فى كل أرض محتلة فى مرحلة ما من مراحل تطورها شكل الكفاح المسلح . وأخيراً نحن لا نستبعد أصلا فكرة الحرب الشعبية ، فقد نواجه أوضاعاً تكون فيها تلك الحرب

أنسب أشكال القتال من أجل أهدافنا . وإنما كل ما نريد إبرازه هو الخطر الداهم الذى يتمثل فى توهم أن ثمة شيئاً معيناً بذاته يمكن أن نفعله فنتخلص فوراً من القاعدة الصهيونية الاستعمارية . ففى مواجهة قوتها العسكرية لابد من أن ننمى جنباً إلى جنب المقاومة بكل صورها (وفى مقدمتها الكفاح المسلح) والقوة العسكرية النظامية للدول العربية .ولكننا لا نواجه إسرائيل وحدها . وإنما نواجه القوى الاستعمارية التى تساندها . ومن ثم يكون من الخطأ الجسيم أن نركز كل جهودنا ضد إسرائيل . ونهمل المعركة ضد الاستعمار . أن نستعد مثلا لقتال المعتدى الإسرائيلى وننسى قواعد عسكرية للاستعمار يمكن من داخل الوطن العربى أن تهب لمساندة العدو .

ومن ناحية أخرى الحرب فى عالم اليوم ليست ظاهرة عسكرية خالصة . بل إن القوة العسكرية هى التعبير الأخير عن تقدم اقتصادى وتكنولوجى وطاقات بشرية أخذت بأسباب الحياة الحديثة . ومن ثم فإن تطوير اقتصادنا القومى ، وتصنيع بلادنا ، وتحرير الإنسان العربى من القهر والاستغلال . وإتاحة أحدث المعارف البشرية له جزء أساسى من عدتنا فى النضال .

وعلاقات القوى الدولية ، وموقف الرأى العام العالمى ، بل حالة الرأى العام داخل إسرائيل نفسها . . . كلها عوامل لها تأثيرها الهام فى مجرى الصراع ويجب أن تحظى بجانب كبير من عناية العرب .

وخلاصة ذلك كله أننا بصدد صراع طويل ومرير . ولا بد إذاً من تخطيط طويل الأمد لهذا الصراع . أو بعبارة أخرى لا بد من تحديد استراتيجية للصراع العربى الإسرائيلى . فالاستراتيجية فى لغة العسكريين هى خطة كسب الحرب ، فى حين أن التكتيك هو خطة كسب معركة معينة . ومن المسلم به أن الاستراتيجية تحكم التكتيك ، بمعنى أن المعارك

المتوالية يجب أن تسير فى خط متسق بحيث تفضى فى النهاية إلى كسب الحرب . ولما كانت الحرب ليست إلا استمراراً للسياسة بوسائل عنيفة . فإن الصراع السياسى نفسه يخضع لقاعدة التمييز بين الاستراتيجية والتكتيك . والصراع الذى نخوضه ضد الصهيونية والاستعمار صراع شامل تدخل فى إطاره السياسة والحرب جميعاً . ومن ثم فلابد أن تكون لنا استراتيجية واضحة المعالم تندرج فى إطارها كل مواقفنا التكتيكية أياً كانت طبيعتها : عسكرية أو سياسية أو دعائية . فليست هناك معركة واحدة حاسمة فى مثل هذا الصراع . وإنما النصر فيه تتويج لكثرة من المعارك السياسية والعسكرية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية يتكامل مفعولها بحيث تفضى فى النهاية إلى تصفية قاعدة العدوان .

عناصر لاستراتيجية عربية

وتخطيط استراتيجية للنضال العربى ضد مخططات الصهيونية والاستعمار ليس أمراً سهلا . لقد عرضنا فى الصفحات السابقة لأهم الأوضاع البالغة التعقيد التى تحيط بالظاهرة الإسرائيلية . كما أن أوضاع الوطن العربى وما نعرفه من مشكلات وخلافات ليس من شأنها تيسير الرؤية الصادقة والتقدير الموضوعى . ومن ناحية ثالثة ليست الخطة الاستراتيجية مجموعة من « الوصفات » تلتقط هنا وهناك من بين صفحات الكتب أو من واقع تجارب الشعوب المعاصرة بطريقة انتقائية ، وبغض النظر عن كل ضرورات الاتساق الداخلى والمطابقة لواقع النضال فى البلاد العربية . وأخيراً ، وليس هذا بأقل الأمور أهمية ، استراتيجية النضال لا يمكن أن تكون عملية حسابية معقدة يعد عناصرها « خبراء » وتعطى حلها الحاسبات الإليكترونية ، فليس هناك حلول « تكنولوجية » لقضايا الشعوب التى تكافح من أجل الحرية .

وفى تقديرنا أن تحديد استراتيجية النضال العربى ضد الظاهرة الصهيونية والاستعمارية يجب أن يكون الواجب الأول للقوى الثورية العربية . لقد اختلفت تلك القوى فيا بينها خلال السنوات العشر التى سبقت العدوان كأشد ما يكون الخلاف . وتصارعت حتى بلغ الصراع حد الصدام الدموى . ولكن ذلك كله يدور حول قضايا السلطة . وأشكال الحكم ، وطرق التطور الاجتماعى ، وسبل التوحيد القومى ، واختلطت الأمور خلال هذا كله اختلاطاً شديداً . واستنزف الصراع الداخلى بين القوى الثورية طاقات ثورية هائلة ، وحرم النضال العربى من كثير من المناضلين ذوى الخبرة والصلابة . وأشاع البلبلة فى صفوف الجماهير . وعاق تحقيق مكاسب وطنية وقومية واجتماعية كانت ممكنة التحقيق . ولكن أخطر ما أسفر عنه هذا الصراع . هو أن بعض القوى الثورية العربية لم تضع النضال ضد الاستعمار والصهيونية موضعه الصحيح : فى رأس قائمة المهام الثورية . حقاً إن الجميع كانوا يندون بالاستعمار وبإسرائيل ويحذرون من الإمبريالية ومؤامراتها . ولكن الأمور كثيراً ما كانت تقف عند هذا الحد من التأكيد المجرد الذى لا يصاحبه تخطيط للأهداف الوسيطة وتحديد للوسائل . وأحياناً كانت الأمور تتدهور فتطرح قضية فلسطين لتكون عنصر مزايدة . لقد كان من الميسور دائماً أن يقول هذا السياسى أو ذاك أعنف الكلام ضد إسرائيل، لأنه فى واقع الحال سيظل كلاماً ، وإذا سئل قائله لماذا لم ينفذه احتج بأن تقاعس حكومات عربية أخرى منعه من تنفيذه . هذا ، فى حين أن الوعود فى قضايا داخلية حين تصدر ممن هم فى السلطة تحسبها الجماهير وتحاسب على عدم تنفيذها. وليس أسوأ من جو المزايدة حين يتعين التفكير الهادئ والمسئول . إن الشعوب العربية تطالب بعد نكسة ١٩٦٧ قادة الاتجاهات الثورية بالجدية والشعور بالمسئولية . . إنها كانت تتطلع لأن تكشف النكسة

بأبعادها الرهيبة الغطاء عن كل عين فتتداعى القوى الثورية والوطنية لتقف كتفاً إلى كتف فى معركة المصير . ولكننا نرى والأسف ملء القلوب ، أنه بالرغم من بعض المظاهر الصحية التى بدت فى الجو العربى بصفة عامة ، ما زال التفرق هو الطابع المميز للقوى الثورية . وبدل أن يكون ظهور قوى ثورية جديدة عنصر دعم وتعزيز ، أصبح مظهراً جديداً للفرقة والحركة غير المتسقة . وما زالت المزايدات لغة شائعة ، وما زال شعب فلسطين موضوعها المفضل . إن تآلف القوى الثورية لا يمكن أن يكون ثورياً إذا أخذ شكل مصالحة غير مبدئية أو مهادنة وقتية . فوحدة الثوار لا تتم إلا باتفاقهم على خط ثورى . ولا يعنى الالتقاء حول خط ثورى أساسى تلاشى كل الخلافات ، وإلا تحولت تلك القوى جميعاً إلى قوة واحدة . وإنما معنى وحدة القوى الثورية الواقعى هو الالتقاء حول خط أساسى فيما يتعلق بالمعركة الرئيسية مع الاحتفاظ بوجهات النظر المختلفة فى قضايا أخرى كثيرة . لقد انتشرت فى صيف سنة ١٩٦٧ فكرة « مؤتمر للقوى الشعبية على مستوى الوطن العربى » . وحاول بعد ذلك بعض الذين حضروا « ندوة الاشتراكيين العرب » فى الجزائر ، تحريك منظميها لعقد دورة أخرى ، أوسع نطاقاً وأكثر التحاماً بقضايانا الراهنة . ويبدو أن البعض ما زالوا مترددين خشية أن يسفر أى اجتماع بين القوى الثورية عن مزيد من الفرقة ، أو على الأقل عن مزيد من الإعلان عن الخلافات . وفى تقديرى أنه من الضرورى أن ينعقد مثل هذا المؤتمر ليناقش موضوعاً وحيداً هو « استراتيجية العمل العربى ضد الصهيونية والاستعمار » ، على أن يعد له إعداد طيب وتقدم له وثائق مدروسة . وإذا لم يفض المؤتمر إلى إجماع ، فإنه سيكون خطوة فى سبيل الإجماع لأنه سيحدد على الأقل مشروعاً للاستراتيجية يتبناه عدد من القوى الثورية . وعندئذ يطرح هذا المشروع بين جماهيرنا العريضة للبحث والمناقشة بغية التطوير والتعديل

وبعدها يمكن فى اجتماعات لاحقة تحقيق قدر أكبر من التقريب بين وجهات النظر. إنه طريق يبدو طويلا ووعراً. ولكن ليس ثمة طريق آخر. فاستراتيجية العمل العربى هنا لا يمكن أن ينفرد بها حزب أو اتجاه أو بلد عربى. لأنها تحيط بالوطن العربى كله بالضرورة. ومن ثم لابد من إشراك كل القوى الثورية فى إعدادها، بل من إشراك الجماهير نفسها. وليتم كل ذلك على المستوى الشعبى لكى تبقى للحكومات حرية حركتها كاملة فى الظروف الحرجة التى تمر بها البلاد.

وإذا كان ذلك رأينا فى كيف توضع استراتيجية للعمل العربى ضد الصهيونية والاستعمار، فإنه من غير المتصور أن يدعى كاتب أو مفكر أو سياسى أن بوسعه أن يضع وحده ولو الخطوط العريضة لتلك الاستراتيجية. وكل ما يستطيع المرء أن يقدمه فى هذا المجال هو أن يؤكد على أمور يرى أنها عناصر أساسية فى أى استراتيجية جادة لمواجهة هذا الصراع المصيرى. وفى تقدير كاتب هذه السطور أن من أبرز تلك العناصر ما يلى:

١ — دور الشعب الفلسطينى، فهو الضحية الأولى، وصاحب الحق المهضوم ونضاله من أجل وطنه قضية واضحة لا يمكن طمسها بحال.

٢ — محاصرة إسرائيل، وما يعنيه ذلك من عدم الاعتراف بها وعدم المفاوضة معها.

٣ — تشديد النضال ضد الاستعمار.

٤ — بناء الوطن العربى اقتصادياً وسياسياً وثقافياً وعسكرياً.

٥ — اليقظة والقدرة على الردع.

٦ — عرض قضيتنا على الرأى العام العالمى.

٧ — فضح الصهيونية وحكام إسرائيل أمام الجماهير الإسرائيلية وأمام اليهود بصفة عامة.

ولنفصل فى الصفحات التالية بعضاً من هذا الإجمال.

٦

الشعب الفلسطينى
الضحية الأولى وصاحب الحق الأول

مؤامرة الصمت

كتب هرتزل منذ أكثر من ستين عاماً يقول : « إن الصهيونية مسألة نقل . فهناك شعب لا وطن له ، ووطن لا شعب فيه ؛ والصهيونية تريد أن تنقل الأول إلى الثانى » . وفى منطق أوربا فى العصر الذى كان يكتب فيه هرتزل لم يكن قوله هذا ليصدم شعور غالبية الأوربيين . ففى معتقدهم آنذاك أن القومية والوطن والاستقلال مفاهيم ذات دلالة فقط بالنسبة للشعوب المتحضرة ، أى للشعوب الأوربية أو ذات الأصل الأوربى . أما شعوب آسيا وإفريقيا فليس لها علاقة بمثل تلك المفاهيم الرفيعة . ولكن ما نريد أن نبرزه هو أن الحركة الصهيونية قد التزمت بفكر مؤسسها فى هذا الشأن ، وعملت بكل طاقاتها على أن تسحب على حقوق شعب فلسطين ، بل على وجوده ذاته ، ظل النسيان . وما زلنا نسمع الناس فى أوربا يرددون حتى اليوم مثلا أن الصهيونية لم تغتصب الأرض من أهلها ، وإنما اشترت جزءاً كبيراً منها من الملاك العرب ، واستصلحت جزءاً آخر كان العرب عاجزين تماماً عن استصلاحه . فلا غصب ولا اغتصاب . وقد سبق أن أشرنا إلى أن كل محاولات الاستعمار الاستيطانى كانت تصطحب بمحاولات لإضفاء طابع « القانونية » — ولا نقول المشروعية — على عملية اغتصاب الأرض من أصحابها . ومع ذلك فالقسم الأساسى من الأرض العربية الذى استولت عليه الصهيونية كان ملكاً للعرب الذين طردتهم

إسرائيل سنة ١٩٤٨ . أى منذ أن تقرر إنشاؤها وفى الشهور الأولى لحياتها كدولة . وتقول الدعاية الصهيونية هنا إنها لم تطرد أحداً ، وإنما هاجر العرب استجابة لنداء من بعض قادتهم وأملا فى العودة منتصرين خلف جيوش الدول العربية ، وتركوا أملاكاً شاغرة كان من غير المتصور أن تبقى كذلك . وهذا افتراء كامل . فالمذابح التى لجأت إليها بعض العصابات الصهيونية ، وعمليات الإرهاب التى مارستها السلطات الإسرائيلية الرسمية تمت بهدف واع هو إشاعة الفزع بين العرب وحملهم على مغادرة الأرض . وهيئة الأمم المتحدة قد أصدرت عدداً كبيراً من القرارات يلزم إسرائيل بقبول عودة اللاجئين أو تعويضهم ولم تنفذ إسرائيل أياً من تلك القرارات . والمهم فى كل ذلك هو تحايل الصهيونية بقصد إلغاء مشكلة شعب فلسطين إلغاء ، وإثبات أن اليهود قد هاجروا إلى أرض خلاء ، ولم ينتزعوا وطن أى شعب .

ولا شك أن أخطاء القيادات الفلسطينية فى الفترة التى سبقت قيام دولة إسرائيل لعبت دوراً هاماً فى هذا المجال . لقد توهم بعض أولئك القادة أن ألمانيا الهتلرية ، بحكم عدائها لليهود ، يمكن أن « تنصف » العرب . وجذر هذا الخطأ كان فى كثير من الأحوال الوضع الطبقى لأولئك القادة الذى كان يمنعهم من الاعتماد على الشعب الفلسطينى ونضاله ويجعلهم يعرضون عن كل فكر ديمقراطى أو تقدمى . وقد تورط هؤلاء القادة إلى أبعد الحدود فى التعاون مع النازية والفاشية ، متناسين تنكيل موسولينى بالوطنيين فى ليبيا . وكان من نتائج هذا التورط أن بدت الأمور أمام الرأى العام العالمى كما لو كانت اختياراً بين ضحايا النازية من جهة ، والمتعاونين مع النازية من جهة أخرى . وما كان أسهل عندئذ أن تصف أبواق الصهيونية هؤلاء الساسة بأنهم « عملاء النازية » أو « مجرمو حرب » لا يتصور أن يكونوا ممثلين لشعب . وفى مثل هذا الجو يمكن أن يغطى

الضجيج على الشعب نفسه ومأساته . كذلك كان من أخطاء القيادات الفلسطينية فى سنة ١٩٤٧ وسنة ١٩٤٨ سوء تقديرها للموقف المحلى والدولى الذى ساقها عملياً إلى أن تضع الشعب الفلسطينى أمام اختيار بين عدم وجود فلسطين أصلا ، أو بقائها عربية كاملة . إن قرار التقسيم كان قراراً جائراً يحاول إصباغ صفة المشروعية على عملية اغتصاب استعمارية . وكان من غير المتصور أن يسلم به الشعب الذى اغتصب جزء من أراضيه . ولكن السؤال هو : لماذا لم تتمسك القيادات الفلسطينية بالدولة العربية الفلسطينية التى نص عليها قرار التقسيم ؟ لقد تظاهرت إسرائيل بقبول قرار التقسيم ولكنها لم تنفذ منه إلا ما تعلق بوجودها كدولة ، بل اعتدت عليه باحتلالها أجزاء من إقليم الدولة العربية . ولم يكن هناك ما يمنع إطلاقاً من إدانة قرار التقسيم ورفضه ، مع التمسك فى نفس الوقت بقيام الدولة العربية حفاظاً على اسم فلسطين وإبقاء على جزء من أرضها يكون قاعدة للنضال من أجل حقوق شعبها كاملة غير منقوصة . لقد رفضت جبهة التحرير الجزائرية أى حل يقوم على التقسيم وتمسكت بوحدة التراب الجزائرى . ولكن ظروفها كانت مختلفة . فعلاقات القوة كانت تسمح لهذا الهدف بأن يكون واقعياً ، وتضمن فرصاً معقولة لنجاح النضال من أجله . ولم يكن ثم قرار دولى بالتقسيم . أما فى فلسطين سنة ١٩٤٧ ، فإن القيادات الرسمية نفسها كانت تسلم مقدماً بعجزها عن مقاومة الصهيونية ، ومع ذلك فقد تخلت عن حق شعب فلسطين فى جزء من أرضه .

وشاركت الحكومات العربية القائمة فى ذلك الوقت فى اكتمال عناصر المأساة . فقد شجعت الحكومات القادة الفلسطينيين بتأكيدها لهم أن الجيوش العربية ستتدخل بمجرد انسحاب الإنجليز وأن لها من القدرة ما يمكن من سحق العصابات اليهودية والقضاء على « إسرائيل المزعومة » . لقد قال رئيس وزراء مصر فى الجلسة السرية للبرلمان عند مناقشة ما سمى

آنذاك « حملة فلسطين » إن المسألة لن تعدو أن تكون نزهة حربية .
وطمأن أعضاء المجلسين بإبلاغهم تأكيد الإنجليز بأن الأسلحة والذخيرة
المتوافرة فى القاعدة البريطانية على قناة السويس ستكون تحت تصرف
الجيش المصرى . ولم تكن تلك الحكومات الرجعية جادة فى أى شىء .
إن أول ما اهتمت به هو استغلال حرب فلسطين فى فرض الأحكام
العرفية للتنكيل بخصومها السياسيين وضرب الحركة الوطنية ومحاولة تصفية
المد الوطنى الذى نجح فى إسقاط عدد كبير من الوزارات . وأخذ الملوك
يتنافسون حول من تكون له القيادة العليا ، ومن يحتل قبل غيره أجزاء من
فلسطين . وحالت تلك المنافسات دون التنسيق بين الجيوش العربية . وبلغ
الإجرام حد اتخاذ الحرب وسيلة للإثراء السريع بتزويد المقاتلين بأسلحة
فاسدة . إن الحكومات الرجعية كانت عاجزة عجزاً أصيلا عن كسب
تلك الحرب ، لأنها كانت فى جوهرها حرباً ضد الاستعمار . ولم يكن
متصوراً أن أولئك الذين يقبلون بقاء الاحتلال فى بلادهم يستطيعون مخالفة
المستعمر وإحباط خططه فى فلسطين . وكانت خاتمة هذا الركب الرهيب
من المسئوليات الجسام ضم الضفة الغربية إلى شرق الأردن ضمن مملكة
جديدة تحمل اسم الأردن . إننا لا نطرح اليوم موضوع وحدة الأراضى
الأردنية ، ونرفض أى محاولة إسرائيلية تتعلل بأن الضفة الغربية فلسطينية
لترفض الانسحاب منها وتسليمها للأردن . ولكننا نريد أن نقول إن ماحدث
سنة ١٩٤٩ قضى نهائياً على اسم فلسطين . لقد محى الاسم من الخرائط .
لم تعد فلسطين بلداً اعتدى عليه غزاة أجانب فانتزعوا جزءاً من أرضه ،
بل اختفت فلسطين تماماً .

وكان طبيعياً بعد ذلك أن تلح إسرائيل فى إزالة كل ما يذكر باسم
فلسطين . وأن تحدث العالم كله بأن عدم الاستقرار فى الشرق الأوسط
مرده تهديد جاراتها العربية لأمنها وسلامتها . لم تعد هناك مشكلة فلسطين

إلا فى أذهان الفلسطينيين أنفسهم والشعوب العربية . وغدت القضية عالمياً قضية توتر على الحدود بين إسرائيل والدول العربية . لقد تكاتفت كل تلك العوامل على سحب صاحب الحق الأول من الصورة ، وحرمانه من كل صوت . واستقر فى الأذهان بطريقة أو بأخرى تفكير سقيم ملخصه أن الشعب الفلسطينى وحده لا يستطيع مقاومة إسرائيل ، بل لابد من الجهود المشتركة للدول العربية ، وما دامت الأمور كذلك فإنه من الواجب أن يكون لتلك الدول الكلمة الحاسمة فى كل ما يتصل بالموضوع . وباسم الدفاع عن شعب فلسطين ، فرضت عليه الوصاية ، وحظر عليه أن يفكر لنفسه أو يناضل من أجل أرضه . ولم يبق من المشكلة كلها أثر حى ملموس إلا مليون لاجئ ، تنطق مخيماتهم بعدوان الصهيونية وتآمر الاستعمار وأخطاء القيادات وتخاذل بعض الحكومات والمزايدات الفارغة من البعض الآخر . وحتى هذه المشكلة حرصت الصهيونية والإستعمار على تقديمها للعالم كمشكلة لاجئين ، وليس كمشكلة شعب حرم من وطنه ويريد أن يسترد أرضه ليحيا فيها حراً يصوغ حياته بإرادته . وقارات العالم جميعاً تعرف ظاهرة اللاجئين . والمجتمع الدولى يقدم لها عادة حلا ينحصر فى المعونة والتوطين . ومن ثم كانت الدعاية الصهيونية لا تكف تردد أن الدول العربية تفتعل مشكلة اللاجئين لأنها ترغمهم على البقاء فى مخيمات وتمنعهم من التوطن فى أراضيها الشاسعة ذات الموارد البترولية الضخمة . ثم تتهم الحكومات العربية بالحرص على الإبقاء على تلك المشكلة لأنها تؤجج شعور العداء نحو إسرائيل . وهو على حد قولها المتنفس لكل سخط مرده المشكلات الداخلية فى البلاد العربية . ومنذ أن بدأ العمل الفدائى فى أبسط صوره فى ١٩٥٥ ، بادرت إسرائيل إلى اتهام الحكومات العربية بتدبيره . وتقبل الرأى العام العالمى هذا الكلام بسهولة ، لأن مؤامرة الصمت كانت قد نجحت فى إخراج فلسطين وشعبها من الأذهان . لم تعد نقطة البدء أن هناك شعباً

يناضل من أجل حقوقه المشروعة .

وتجاوزت آثار مؤامرة الصمت هذه الإجرام فى حق شعب فلسطين إلى الإضرار بالقضية العربية كلها . فقد ترتب على التخلص من المشكلة الفلسطينية على هذا النحو ، أن أصبح فى وسع الصهيونية أن تطرح على الرأى العام العالمى كل نزاع فى المنطقة على أنه صدام بين مائة مليون عربى ومليونين فحسب من الإسرائيليين . وهل يستغرب بعد ذلك أن تنجح فى استدرار عطف الملايين من الناس الشرفاء ؟ لقد بلغ من أثر الدعاية القائمة على تصوير الأمور على هذه الصورة أنه بعد سنتين من العدوان ، ومع تسليم إسرائيل نفسها بأنها هى التى بدأت الحرب ، ما زالت أقسام واسعة من الرأى العام العالمى تعتقد أن إسرائيل كانت بالفعل مهددة بغزو يقوم به مائة مليون عربى لإلقاء اليهود فى البحر كما كانت تقول بعض أصوات الدعاية العربية قبل حرب يونية . وابتداء من هذا الفهم للأمور ، تجد إسرائيل من يبرر عدوانها ، أو على الأقل تجد من « يفهم مخاوفها » وإن كان لا يقر أساليبها فى مواجهتها .

شعب لم يستسلم

واليوم فى وسعنا أن نقول إن أهم ظاهرة إيجابية فى فترة ما بعد يونية سنة ١٩٦٧ هى بروز دور الشعب الفلسطينى . لقد فرضت المقاومة الباسلة على الرأى العام العالمى فرضاً قضية شعب فلسطين . واكتسبت « أزمة الشرق الأوسط » بعداً جديداً يطرح حقوق هذا الشعب الذى يناضل فى ظروف قاسية ، ويبذل أغلى التضحيات فى سبيل حقه فى الحياة فى وطن مستقل . إن الوجود الإسرائيلى ، والتوسع الإسرائيلى ، وكل المخططات الصهيونية تصطدم اليوم ولأول مرة فى كل المحافل الدولية ، بالأمر الوحيد الذى يمسها فى جوهرها وهو حقوق الشعب الفلسطينى .

ويخطئ من يتوهم أن الشعب العربي الشقيق قد استيقظ فجأة ، أو يظن أن نضاله قد انبعث بين يوم وليلة - أو أنه مدين بالعودة إلى الوجود لقيادة معينة أو تنظيم محدد . فنضال شعب فلسطين عريق ومجيد . لقد ظهرت معارضة المطامع الصهيونية فى الأرض المقدسة منذ أن بدأت الهجرة الأولى فى مستهل القرن العشرين . ولكن أهل فلسطين لم يكونوا يملكون أمر أنفسهم ولا يحكمون وطنهم . لقد كانت فلسطين وبقية أقطار الشام جزءاً من الإمبراطورية العثمانية . وبرغم كل أساليب الضغط والإغراء التى لجأت إليها الحركة الصهيونية ، وبرغم كل الفساد المستشرى فى دولة آل عثمان لم يتورط خليفة المسلمين فى إعطاء الصهيونية سنداً للهجرة اليهودية إلى الأراضى المقدسة . كل ما نجحت فيه تلك الجهود هو التساهل « عملياً » فى قبول بعض المهاجرين . ولم يزد عدد اليهود فى فلسطين غداة الحرب العالمية عن ثمانين ألفاً منهم أولئك الذين كانوا يقيمون فى البلاد من قديم؛ ولكل ذلك لم تأخذ الأمور طابع الحدة والتوتر . وإبان الحرب العالمية الأولى تبلورت الحركة الوطنية العربية . واتضح أن الإمبراطورية العثمانية فى طريق الانهيار ، وتعلق الوطنيون فى فلسطين بصفة عامة بأمل إنشاء دولة عربية مستقلة كبيرة تضم الجزيرة العربية كلها (فيما عدا عدن) والعراق وما أصبح فيما بعد سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن . لا سيما أن بريطانيا على لسان مندوبها الجنرال ما كماهون أخطرت الملك حسين بتأييدها للمشروع بتحفظ وحيد يتعلق بولايتى بيروت وحلب ومطامع فرنسا فيهما . ولكن بعد صدور وعد بلفور من ناحية ، وبدء تقسيم المغانم بين فرنسا وبريطانيا التى ابتلعت كل وعودها للعرب وفرض الانتداب البريطانى على فلسطين من ناحية أخرى ، هب الشعب الفلسطينى يطالب باستقلاله ويستنكر وعد بلفور ويعلن صدوره عن غير ذى صفة وعدم التزامه به . وامتدت إلى فلسطين الموجة الثورية

التى هزت الشرق العربى كله والتى بدأت فى مصر فى مارس ١٩١٩ .
واستمر النضال الشعبى مشتعلا فى الأرض المقدسة طوال عامى ١٩٢٠
و ١٩٢١ . وحاولت بريطانيا كالعادة أن تجمع بين القهر والوعود. وأعلنت
عن عزمها على إعداد دستور للحكم الذاتى يمهد للاستقلال . ولما تكشفت
الوعود الكاذبة تفجر الموقف مرة أخرى فى ١٩٢٩ . وكان الشعار الأساسى
هو المطالبة باستقلال فلسطين . ولكن السنوات العشر التى مرت على الوجود
البريطانى كانت قد أرست للهجرة الصهيونية أسساً راسخة ، ومنحت
لممثليها أوضاعاً متميزة ، واستعانت الإدارة البريطانية فى وظائفها بعدد
كبير من اليهود . وخرج الصهاينة عن سياسة التحفظ والمسالمة إلى سياسة
التعالى والعجرفة ، وكونوا وحدات مسلحة ، وأخذوا يلعبون دوراً مباشراً
فى قمع الحركة الوطنية الفلسطينية . فشهدت أحداث عام ١٩٢٩ صداماً
مزدوجاً : بين العرب والقوات البريطانية من جانب ، وبين العرب واليهود
من جانب آخر . وكانت تلك ظاهرة جديدة فى أرض السلام . ولم يفض
القمع الذى تعاون فيه الاستعمار بقواته المسلحة مع أولئك الذين كانوا
يزعمون الفرار من الاضطهاد حرصاً على الحرية ، إلى تصفية الحركة
الوطنية . وهكذا شهد عام ١٩٣٣ تجدداً للنضال الوطنى اتخذ طابعاً عنيفاً
بسبب إجراءات القمع البريطانية وأعمال العصابات الصهيونية . ولذلك
كانت هبة شعب فلسطين سنة ١٩٣٦ تتميز عن كل الهبات الوطنية
المعاصرة لها فى مصر وسورية والعراق بأنها كانت منذ البداية هبة مسلحة
تدافع عن الأرض بالدم . وحاول البريطانيون أن يظهروا الأمور على
أنها صدام بين العرب واليهود فى فلسطين ، وأن عليهم أن يلعبوا دور الحكم
إن لم ينجحوا فى أن يكونوا حمامة السلام . ولكن الواقع كان مرة أخرى
هو تعاون قوات الأمن البريطانية مع الوحدات المسلحة الصهيونية فى تنسيق
كامل للقضاء على هبة شعب مطلبه الأول الاستقلال وصيانة أراضيه .

إن عرب فلسطين لم يقبلوا أبداً أن تكون بريطانيا حكماً بينهم وبين اليهود : لأنهم كانوا يعلمون أن السيطرة البريطانية هى التى مكنت لليهود فى أرض العرب . ولو كانت فلسطين قد حصلت على استقلالها سنة ١٩١٩ لما كانت هناك مأساة ولا اغتصاب .

حقاً لقد كانت هزيمة ١٩٤٨ صدمة رهيبة للشعب الفلسطينى . لقد فقد الجزء الأكبر من أرضه ، وطردت غالبيته من بيوتها ليعيشوا فى المخيمات أو ليشتتوا فى بقاع المعمورة وكأن الصهيونية التى تريد جمع شتات اليهود تحرص على تشتيت الفلسطينيين . وانفضحت قيادات كثيرة منحها الشعب ثقته واختفت من مسرح السياسة . وانهارت المنظمات السياسية التى زعمت لنفسها طويلا شرف تمثيله . ووجد الشعب الفلسطينى نفسه بلا وطن ولا أرض وبدون تنظيم ولا قيادة . لم يكن فى وضع جيش هزم هزيمة مرة ، ولكنه قصرْ خطوطه وتراجع برغم الخسائر الفادحة إلى مواقع جديدة ، واحتفظ عبر ذلك كله بهيكله التنظيمى الأساسى ومستوياته القيادية بغض النظر عن الأفراد الذين تتشكل منهم . بل وجد نفسه فى وضع جيش هزم ففرت قيادته وانهار تنظيمه وتفرق فلولا وشراذم ممزقة النفس مبددة الطاقة . ولم تمد له الحكومات العربية القائمة فى ذلك الوقت يد المعونة الفعالة التى تساعده على الحفاظ على كيانه الوطنى . كان على هذا الشعب الشهيد أن يبدأ كل شىء من الصفر وفى أصعب ظروف متصورة . كان عليه أن يستأنف النضال من قاع الهزيمة ، وإسرائيل تطارده والحكومات العربية تضيق عليه وقياداته التقليدية مفلسة وروح الانهزام تسرى فى أقسام منه ، والمسكن ولقمة العيش وأبسط اللباس مشكلة تكاد أن تستعصى على الحل بالنسبة للغالبية العظمى من أفراده . إن أى حركة وطنية تضرب مثل هذه الضربة لابد أن تشل لعدة سنوات . وحين تغدو النكسة انهياراً لابد من زمن طويل لإعادة البناء . لكل هذا ليس

مستغرباً أن يخفت صوت الشعب الفلسطيني غداة ١٩٤٩ . وليس في هذا ما يمكن أن يؤخذ عليه أو يؤاخذ به . ومع ذلك فإن عدداً لا يستهان به من المناضلين الفلسطينيين استأنفوا النضال ، متفرقين وفي أشكال جديدة . لقد اعتقد عدد من المثقفين أن الطريق الأساسي لمقاومة المخطط الصهيوني الاستعماري الرهيب ليس المقاومة المحلية . وإنما وحدة الشعوب العربية وتكوين دولة كبرى لها من الإمكانيات ما يجعلها في مستوى الصدام . وفعلا أسهم عدد منهم بدور إيجابي في الحركات السياسية القومية التي كانت الوحدة العربية محورها الأساسي مثل حزب البعث العربي وحركة القوميين العرب . وسرعان ما اجتذبت تلك الحركات المئات من الفلسطينيين في البلاد العربية المختلفة ، ومن ناحية أخرى فرض ضم الضفة الغربية إلى شرقي الأردن على سكانها واجب النضال من داخل إطار الدولة الجديدة والتعاون مع القوى الوطنية في الضفة الشرقية . وكان لهم دور فعال في تنشيط العمل السياسي في المملكة الأردنية وتأكيد الاتجاهات التحريرية والقومية. ولكنهم لم يغفلوا قضيتهم الأساسية ، بل كان كل ما يتعلق بفلسطين وبإسرائيل في رأس اهتماماتهم .

وبعد فترة وجيزة بدأت في معسكرات اللاجئين حركة المقاومة ضد إسرائيل في شكل عمل فدائي . لقد كانت البداية تلقائية وطبيعية . فالشاب الذي يرى والده يشير عبر الأسلاك الشائكة إلى حقل أسرتهم الذي يزرعه اليهود لابد أن يفكر في المخاطرة باجتياز حاجز الإثم والعدوان ليجني بعضاً من ثمار الحقل ، أو ليضرب واحداً من المغتصبين . لم يكن اللاجئون في حاجة لمن يلقنهم مبادئ العمل الفدائي . وإنما كانوا في حاجة لمن يشجعهم ويساعدهم ويزودهم بالسلاح ويدربهم عليه . وقد وجدوا هذا التشجيع غداة ثورة ١٩٥٢ . وظهر اسم « الفدائيين » لأول مرة بين شباب غزة . وقد رأينا أن إسرائيل تعللت بنشاطهم لتحتل المنطقة المنزوعة

السلاح أولا ، ثم لتبدأ عدوان ١٩٥٦ . ولكن الأمر لم يكن مقصوراً على شباب غزة وحده . بل إن المحاولات المماثلة تمت فى كل المناطق التى تضم اللاجئين . ولكن مصير العمل الفدائى كان يتوقف على موقف كل حكومة عربية فى الظروف المعينة . فأحياناً كان التشجيع والمساندة ، وأحياناً أخرى كان السجن والمطاردة .

وشيئاً فشيئاً أدرك القادة الثوريون فى البلاد العربية ضرورة بروز الشخصية الفلسطينية ، واتضاح دور متميز للشعب الفلسطينى فى النضال ضد الاستعمار والصهيونية ، ومن ثم كانت الدعوة إلى وجود « كيان فلسطينى » . ولكن تلك الدعوة كانت تصطدم فكرياً فى أوساط كثيرة بالفهم القائم على أنه لا حل لقضية فلسطين إلا فى إطار حركة توحيد البلاد العربية . وكانت تلك الأوساط تؤكد ذلك الفهم بحجتين : الأولى أن شعب فلسطين وحده لا يمكن أن يقدر على مواجهة إسرائيل ، والثانية هى أن الرغبة فى إظهار دور خاص للشعب الفلسطينى تعكس عند أصحابها رغبة خفية فى التخفف من المسئوليات التى يفرضها النضال من أجل إنقاذ فلسطين من براثن الصهيونية . ولذلك شقت فكرة الكيان الفلسطينى طريقها فى بطء . ولم يساعد على تطويرها إلا حرص الفلسطينيين أنفسهم على تكوين تنظيمات متميزة مثل اتحاد عمال فلسطين ، واتحاد طلبة فلسطين ، واتحاد نساء فلسطين . . . إلخ . وأخيراً استجابت الحكومات العربية للفكرة وقرر مؤتمر القمة العربى الأول فى يناير سنة ١٩٦٤ إعطاءها تجسيداً تنظيمياً بإنشاء « منظمة تحرير فلسطين » . ولكن الحكومات العربية لم تتخل بذلك تماماً عن الوصاية على قضية فلسطين . وكان اعتماد التنظيم الجديد على الجامعة العربية (التى تلتزم فى قراراتها بقاعدة الإجماع) ولا سيما فى مجال التمويل يعنى التدخل فى اختيار قيادة المنظمة والتأثير على خطها النضالى . وبالفعل كان الطابع

العام لقيادة المنظمة الوليدة هو حصر الاختيار فى الفئات الاجتماعية التى قدمت فيما مضى معظم قيادات العمل الوطنى الفلسطينى فى فترة ما قبل ١٩٤٨ . كما كان من الميسور لإسرائيل نظراً للارتباط الوثيق بين منظمة تحرير فلسطين والحكومات العربية الأعضاء فى جامعة الدول العربية أن تروج لفكرة أنها صنيعة لتلك الحكومات وليست بحال تعبيراً عن حركة وطنية فلسطينية . ولكن الأمر المؤكد هو أن إنشاء المنظمة كان حدثاً عظيم الدلالة ، كان شهادة بميلاد جديد لشعب فلسطين .

ولكن الميلاد نفسه كان من صنع جيل جديد من الفلسطينيين . فالشباب الذى لم يعش هزيمة ١٩٤٨ وإنما كبر فى وسط ما خلفته من أنقاض هو الذى أعطى العمل الوطنى الفلسطينى شكلا ومحتوى جديدين . إن هذا الشباب لم تدمغه الهزيمة بحيث تضعف فيه روح المقاومة . وله من حماسته ما يجعله يستهين بالمخاطر . وهو كذلك يحس بأنه من المستحيل أن يترك مستقبله ومستقبل وطنه فى يد الغير ، ولو كان هذا الغير البلاد العربية الشقيقة . والشباب الفلسطينى يعيش ويفكر فى عصر صنعت فيه الشعوب المناضلة المعجزات . فالشعب الجزائرى حين أصر على أن يناضل حتى الاستقلال مهما طال أمد النضال ومهما عظمت التضحيات ، انتصر ضد فرنسا ومن خلفها حلف الأطلنطى . ولم يجل فقط قوات احتلال وإنما تخلص من مستوطنين كانوا على أرضه منذ أكثر من مائة عام وبلغوا المليون عداً . وكوبا الصغيرة ذات السبعة ملايين نسمة صمدت أمام عملاق الإمبريالية وحطمت السيطرة الأمريكية على نصف الكرة الغربى المستقرة منذ إعلان مبدأ مونرو . وأخذت تبنى على مرمى مدفع من فلوريدا مجتمعاً اشتراكياً . وشعب فيتنام الذى عانى حرباً ضد فرنسا استمرت تسع سنوات ، لم يتردد فى أن يخوض حرباً جديدة ضد الاستعمار الأمريكى وأن يحطم مخططاته . إن الدرس المستفاد من تجربة حركة

التحرر الوطني المعاصر هو أن أى شعب يصر على الحرية ويقبل دفع الثمن ويوفر لنفسه التنظيم الفعال والقيادة الثورية لا بد أن ينتصر مهما تكن قوة العدو الاستعماري . فلماذا لا يكون الأمر كذلك بالنسبة لشعب فلسطين ؟ لقد حاولت إسرائيل استخدام دعايتها التقليدية فى الزعم بأن العمل الفدائى من صنع الحكومات العربية . وركزت بالذات اتهاماتها على حكومة دمشق فى الفترة السابقة مباشرة لعدوان ١٩٦٧ . ولكن يكذب هذا الزعم أمور كثيرة . فالشعب الفلسطيني كأى شعب سلبت حقوقه لابد أن يحاول استردادها بشكل أو بآخر ، وبعد فترة تطول أو تقصر . ولايمكن فى عصرنا الراهن أن يندثر شعب أو تضيع قضيته إلى الأبد . ومن ناحية أخرى بدأ العمل الفدائى ينشط فى أشكاله الجديدة منذ أوائل الستينات ، وقبل قيام الحكم الحالى فى سورية بعدة سنوات . ومن ناحية ثالثة نشأ فى نفس الفترة تقريباً عدد كبير من المنظمات الفدائية فى مواقع متعددة ودون أى تنسيق أو ترابط ، نذكر منها : فتح ، أبطال العودة ، شباب الثأر . . . إلخ . ولكن التكذيب الأساسى لمزاعم إسرائيل كان ولا شك تعاظم العمل الفدائى واتساع نطاقه وتعدد أساليبه واجتذابه لعشرات الألوف من الفلسطينيين بعد هزيمة ١٩٦٧ . فغداة النكسة كانت الحكومات العربية فى البلاد المعتدى عليها تضمد جراحها وتدبر فى عجلة شئونها الداخلية وتحاول الوقوف على قدميها . ومد الاحتلال الإسرائيلى ظله الكئيب على مناطق واسعة فعزل بين بعض الدول العربية وبين الفلسطينيين فى الأرض المحتلة . وكان من شأن ذلك كله أن يفت فى عضد الشعب الفلسطيني ويشيع فى صفوفه روح اليأس . ولكن الذى حدث هو العكس وانبلج نور العمل الفدائى فى وسط ظلمات الهزيمة أملا تلتف حوله قلوب العرب ، وحقيقة ساطعة نبهت الرأى العام العالمى بعد غفلة استمرت عشرين عاماً إلى وجود الشعب الفلسطيني ونضاله من أجل وطن مستقل .

طريق التحرير

لقد نجح الفلسطينيون إذن فى إعادة طرح قضية فلسطين على الرأى العالمى، ووقفوا — بما يبذلون من تضحيات — على طريق التحرر الحقيقى . وكان ذلك حدثاً رائعاً يؤرخ به ؛ وبداية جادة لصراع طويل خاتمته لابد أن تكون فى مصلحة فلسطين إذا ما تزود المناضلون بعدة النضال من جلد وطول نفس ووضوح رؤية وحسن تنظيم . واتخذ النضال الفلسطينى فى المرحلة الحالية طابع العمل المسلح . وحاولت الدعاية الصهيونية مسخه : فنعتته « بالإرهاب » . ولكن كل الشعوب التى قاومت الاحتلال الأجنبى سمعت المعتدين يسمون رجال المقاومة « بالإرهابيين ». ومن ثم لم تفلح تلك الدعاية كثيراً ولا عمرت طويلا . فلجأت الصهيونية إلى التهوين من شأن العمل المسلح والقائمين به ، زاعمة أنهم أقلية قليلة لا يعتد بها . ولكن استمرار النضال واتساع نطاقه وانتظام عملياته وخطورة بعض تلك العمليات بددت المزاعم الصهيونية . وفى الوطن العربى لاقى العمل الفدائى تأييداً حماسياً واسع النطاق . ومع ذلك تحفظت إزاءه بعض القوى الثورية بدعوى عدم نضج الظروف للكفاح المسلح ، واحتمال عزلة المقاتلين عن الجماهير ، وعدم وضوح خطوطهم السياسية . ولكن ظروف الاحتلال العسكرى بذاتها تولد مناخاً مواتياً لأعمال المقاومة ، ولا يبقى بعد ذلك إلا أن ينضج المناضلون بنضالهم الدؤوب ظروف الكفاح ليؤتى العمل المسلح أعظم الثمرات . كما أن التجربة قد أثبتت أن العمل الفدائى قد نجح فى الالتحام بجماهير عريضة ، تلتف حوله وتسانده وتضفى عليه طابعاً شعبياً واضحاً . وأخيراً فإن استمرار الكفاح المسلح ، واتساع نطاقه ، والتحامه بالجماهير ، وتزايد عدد القائمين به يفرض على قيادته فرضاً أن تعلن عن مواقف سياسية تزداد تحديداً يوماً بعد يوم ، ولا بد أن تنتهى

إلى تشكيل خط سياسي متكامل تستطيع الجماهير بدورها أن تحكم عليه تأييداً أو اعتراضاً أو تطويراً . ومن ناحية أخرى ، برز فى الوطن العربى اتجاه يبالغ فى تمجيد العمل الفدائى ويرى فيه « وصفة سحرية » يمكن بالتوسع فى استخدامها تصفية القاعدة الصهيونية الإمبريالية فى وقت وجيز . وقد تعرضنا فى الفصل السابق لخطأ هذا الرأى وخطر الانزلاق إلى تعلق غيبى بشكل معين من أشكال النضال فى معركة لابد أن تتعدد فيها أشكال النضال وتتشابك بحيث يكمل بعضها بعضاً .ومن ناحية ثالثة ، هناك جوانب فى العمل الفدائى الفلسطينى يعتقد كثير من الثوريين العرب أنها تثير القلق؛ ولكنهم كثيرا مايترددون فى إثارتها علناً خوفاً على هذا العمل المجيد من أن ينال النقد من عزيمة القائمين به أو من تأييد الجماهير العربية له . ونحن نعتقد أن هذه النقطة تستحق أن نقف عندها قليلا .

إن النتيجة الطبيعية والحتمية لتصدى الشعب الفلسطينى بنفسه لقضية تحريره هى أن تكون للفلسطينيين الكلمة الأولى والأخيرة فيما يتعلق بمستقبلهم وبطرق النضال من أجل هذا المستقبل . فليس من حق أى عربى أن يتكلم باسم فلسطين إلا أهلها . ولا يملك إنسان أن يفرض عليهم أمراً . وعلينا جميعاً أن نحترم هذا الوضع ولا نزج بأنفسنا فى الشئون الداخلية للنضال الفلسطينى . ليس لأحد أن يفرض وصاية من أى نوع على مقاتلين يواجهون بالسلاح العدو الغاصب لأرضهم . فالموقف هنا لا يمكن أن يختلف جوهرياً عن موقف القوى الوطنية العربية من ثورة الجزائر : مساندة كاملة، مع ترك تقرير المصير بيد جبهة التحرير الوطنى وحدها . وكل ما تملكه القوى الثورية العربية الأخرى ، وما يتعين عليها ألاتتردد فى ممارسته، هو النصح والمشورة . وفى ضوء هذا الفهم يمكن أن نطرح على المناضلين الفلسطينيين ما نعتقد أنه فى مصلحة النضال الفلسطينى ، وبصفة خاصة :

١ ــ أشكال المقاومة : لقد نوهنا بأهمية المقاومة المسلحة وبضرورتها فى مواجهة الاحتلال . ولكن النضال المسلح لا يمكن أن يكون الشكل الوحيد للمقاومة . وذلك لأسباب كثيرة . فالعمل المسلح بطبيعته لا يمكن أن يمارسه إلا عدد محدود نسبياً ، أولئك الذين لهم من السن والصحة والاستعداد ما يؤهلهم له . وبالتالى فلابد من أشكال أخرى للنضال يمارسها من لا يستطيعون حمل السلاح . كما أن فلسطين تواجه استعماراً استيطانياً يعمل على طرد الفلسطينيين من أرضهم . ومن ثم فإن الصمود للضغوط والبقاء فى الأرض بأى ثمن شكل أساسى من أشكال المقاومة . ولكل ذلك لابد أن تتعدد أساليب المقاومة . لا بد لقيادتها من فضح مستمر لكل إجراء يتخذه العدو ، وتزويد الجماهير بالشكل المناسب للرد عليه . لا بد من الإلحاح على البقاء فى المناطق المحتلة . بل إنه من الضرورى دراسة الوسائل والأشكال التى يمكن أن يلجأ إليها النازحون للعودة إلى المناطق المحتلة . لقد مارست الصهيونية فى فترات معينة أسلوب الهجرة غير القانونية إلى فلسطين ونجحت فى أن تنقل إلى الأراضى المقدسة أعداداً من المهاجرين لم تكن السلطة البريطانية توافق على دخولها . فالأمر إذن ليس مستحيلا ، ويجب التفكير فيه والإعداد له . كذلك لا بد من ابتكار أشكال متعددة ومتجددة لعدم التعاون مع المحتل وإفساد خططه الإدارية والاقتصادية فى المناطق المحتلة . وليس ثمة حجة لإبراز أهمية الإضرابات والمظاهرات الشعبية كتلك التى شهدتها غزة فى عدة مناسبات . . . وبهذه الأساليب المتعددة يمكن أن يسهم كل فلسطينى بصورة ما فى أعمال المقاومة ، وتلتحم كل الجماهير بالعمل النضالى ضد العدو .

٢ ــ وحدة المقاومة : إنه لمن قبيل التزيد أن نؤكد أن وحدة العمل الوطنى شرط أساسى للانتصار . فتجربة كل الشعوب المناضلة تنطق بهذا المعنى . ولا يكفى فى هذا المجال مجرد التنسيق بين مختلف التنظيمات .

فالتنسيق يمكن أن يفيد مرحلياً فى الحد من سلبيات التفرق وفى التقريب بين المناضلين . ولكن التقاء المناضلين جميعاً فى جبهة واحدة تقود العمل السياسى والعسكرى معاً يفتح أمام العمل الوطنى آفاقاً رحبة من حيث الإمكانيات والفاعلية . وثمة جانب آخر بالغ الأهمية ، إننا نريد جميعاً أن يكون للشعب الفلسطينى القيادة المعترف بها من كل أبنائه ، التى تمثله وتتحدث باسمه دون أن يستطيع أحد التشكيك فى شرعية ذلك التمثيل . ويكفى تدليلا على أهمية ذلك أن ننبه إلى أن من يسمون أنفسهم « اليسار الصهيونى » يقولون الآن إن الدول العربية تتدخل فيما لا يعنيها ويجب أن تنفض يدها من مشكلة فلسطين لأن الشعب الفلسطينى هو وحده الطرف الذى يمكن أن نتفاهم معه ، ثم يضيفون إن هذا التفاهم يصبح ممكناً عندما « تنضج » الحركة الوطنية الفلسطينية وتتضح لها قيادة مسئولة تتمتع بثقة كل الفلسطينيين . وكأن هؤلاء الصهيونيين قد نصبوا من أنفسهم أوصياء على مصالح الشعب الفلسطينى !

ووجود جبهة التحرير الوطنى الجزائرية ونجاحها فى كسب ثقة الغالبية الساحقة من الشعب الجزائرى من فرحات عباس يميناً إلى الشيوعيين يساراً ، هو الذى جعل من الممكن تشكيل حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية لاينازع أحد فى صفتها التمثيلية بحيث أمكن للدول العربية وبعض الدول الصديقة أن تعترف بها قبل تحرير الجزائر . ونحن حين نلح على الوحدة إنما نؤكد مبدأ عاماً ولا نتخيل شكلا معيناً لتلك الوحدة . فالواقع الفلسطينى وإرادة الفلسطينيين وحدهم وظروف النضال هى التى ستحكم فى النهاية الشكل الذى يمكن أن تتخذه الوحدة . ولكننا نعود فنكرر أن القضية من الأهمية بحيث لا يجوز أن تقف فى سبيلها عقبات فى أمور غير أساسية . وهنا يجب أن يكون الشعار هو أن ما لا يدرك كله لا يترك كله . والالتقاء يمكن أن يتم حول خط أساسي للنضال وتبقى

قضايا كثيرة محل خلاف فى الرأى . كما أن توحيد العمل فى المجالات الأساسية لا يقتضى بالضرورة ذوبان كل التنظيمات فى منظمة واحدة .

٣ ـ دور العرب داخل إسرائيل : ولا يمكن أن تظل الأقلية العربية المضطهدة داخل إسرائيل بمنأى عن حركة النضال الوطنى الفلسطينى . وإذا كانت ظروفها الخاصة لا تسمح بالعمل المسلح ، فإنها مع ذلك أقلية مناضلة ، لم تكف لحظة واحدة عن الدفاع عن حقوقها ، ولها نشاطها السياسى ، كما أنها ترتبط ببعض التنظيمات السياسية أو تنضوى تحت لواء تنظيمات خاصة بها . ولا بد من تنظيم الاتصال بالعرب داخل إسرائيل وتنسيق أشكال النضال بينهم وبين بقية الشعب الفلسطينى وتكليفهم بالمهام التى تتفق مع ظروفهم الخاصة وأشكال النضال المتاحة لهم . وليكن واضحاً تماماً أن النضال الأساسى من أجل وطن فلسطينى مستقل لا يتنافى إطلاقاً مع نضال العرب داخل إسرائيل ضد أشكال الاضطهاد والتمييز العنصرى والاستغلال الاقتصادى التى تفرضها عليهم الصهيونية برغم ادعائها أنهم قانوناً مواطنون فى دولة إسرائيل .

٤ ـ الثورة الفلسطينية والثورة العربية : وكل ما قلناه عن الدور المتميز لشعب فلسطين لا ينفى أن الثورة الفلسطينية جزء لا يتجزأ من الثورة العربية الشاملة . والمطالبة بوطن فلسطينى مستقل لا تتناقض مع وحدة النضال العربى ولا مع استهداف وحدة البلاد العربية . بل إن تحرر كل بلد عربى خطوة ضرورية فى سبيل تحقيق الوحدة العربية . ولذلك فإن استقلال الثورة الفلسطينية بمسئولية النضال الفلسطينى ، يكمله حتماً تعاونها الوثيق مع القوى الوطنية والثورية فى كل أرجاء الوطن العربى . ويمكن أن تلعب الثورة الفلسطينية دوراً هاماً فى التقريب بين تلك القوى وأن تكون محوراً للالتقاء . لقد ذكرنا من قبل أن وحدة القوى الثورية العربية يمكن أن تتحقق من خلال بحث استراتيجية النضال العربى ضد الظاهرة



معلمات رام الله يضربن عن الطعام .

الصهيونية الاستعمارية . ومعنى ذلك أن قضية فلسطين بأوسع أبعادها فى قلب مثل هذه المحاولة . ومن ثم تكون الفرصة متاحة للثورة الفلسطينية لتدفع فى طريق الالتقاء والتعاون والتنسيق . ولكن شرط قدرة الفلسطينيين على النجاح فى هذا الدور هو توحيد الصف الفلسطينى . فتفرق حركات المقاومة الفلسطينية يفتح الطريق أمام ارتباط كل منها بهذا الاتجاه أو ذاك من الاتجاهات التى تسود الوطن العربى ، وبذلك تغذى الفرقة وتدعمها بدل أن تناهضها وتقاومها . وهذا الارتباط بالقوى الثورية ضرورة للثورة الفلسطينية . ولكنه لا يعنى بالضرورة تخلى الفلسطينيين عن محاولة تعبئة أكثر ما يمكن من جهود حول قضيتهم العادلة ، أو رفض أى مساعدة عربية حتى ولو جاءت من قوى لا يمكن اعتبارها من قوى التقدم ما دامت تلك المساعدة لا تحد من حرية الحركة اللازمة للثورة الفلسطينية .

٥ — الثورة الفلسطينية والقوى التقدمية فى العالم : إن الثورة الفلسطينية ثورة تحرير وطنى ، وبالتالى فهى جزء من ذلك التيار الجبار الذى يلعب دوراً حاسماً فى تشكيل العالم المعاصر ونعنى به حركة التحرر الوطنى التى تهز أرجاء العالم الثالث . وقد نجحت إسرائيل فى التأثير على عدد من الدول المستقلة حديثاً ، وحاولت أن تظهر أمامها فى ثوب الدولة الصغيرة النامية الآسيوية ، التى تملك ناصية التكنولوجيا وتضرب المثل فى التقدم وتستطيع بذل المعونة . ولم تكن تلك الدول ترى من أثر باق من مشكلة فلسطين إلا قضية اللاجئين ، وآسيا وإفريقيا تعرفان فى معظم أجزائهما مشكلات لاجئين . ولا يستطيع رفع النقاب عن وجه إسرائيل الاستعمارى القبيح إلا المناضلون الفلسطينيون أنفسهم حين يطرحون قضية حق شعبهم فى وطنه المستقل . إن الوضع الطبيعى أن تصبح كل حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث حليفاً لشعب فلسطين تؤيده وتناصره ، كما كانت بالأمس تناصر شعب الجزائر ، وكما تساند اليوم شعب فيتنام ، وقضية

التحرر الوطني تلقى التأييد الكامل من القوى الاشتراكية والعمالية فى مختلف أنحاء العالم ، وليس الأمر هنا مجرد تقرير مبدأ وانتظار نتيجته . ولا مجال لإحساس بالمرارة لما نعتقد أنه إهمال أو تقصير فى الاهتمام بقضية شعب فلسطين طوال العشرين عاماً الماضية . ولندرك جيداً معنى وأبعاد التأييد الأممي . إن الثورة لا تصدر . ولا يمكن أن يقوم شعب بعبء النضال محل شعب آخر . إن الأساس فى كل ثورة هو شعب البلد الثائر نفسه . وبقدر ثباته وتصميمه فى النضال وإقدامه على أغلى التضحيات ووضع قضيته وضعها الصحيح ، تتآلف حوله قوى التقدم وتبذل له ماتستطيع من تأييد ومساندة . إن قوى التقدم والتحرر فى العالم لم تأخذ المبادرة لتحرير شعب فيتنام الجنوبية . ولكن حين هب الشعب البطل يناضل بنجاح وصمود فى سبيل حريته وقف إلى جواره إخوته فى الشمال ، ثم التف حول قضيته أوسع تأييد عالمى فى كل أرجاء المعمورة ، حتى داخل الولايات المتحدة نفسها . ومهما يكن من أمر ، فإن من أول الواجبات الثورية تحديد الأعداء وتحديد الأصدقاء ، ثم محاولة عزل الأعداء عن كل تأييد وكسب الأصدقاء والعاطفين على مختلف المستويات . وخير خدمة تقدم للصهيونية والاستعمار تتمثل فى محاولة عزل الثورة الفلسطينية عن بعض قوى التقدم المعادية للإمبريالية .

تصفية آثار العدوان وقضية فلسطين

ويتساءل البعض منذ أن تطورت المقاومة الفلسطينية هل يمكن أن تعنى تصفية آثار عدوان ١٩٦٧ تصفية قضية فلسطين ، أو على الأقل الإضرار بها ؟ ولأول وهلة يبدو هذا السؤال غريباً . فكيف نتصور تناقضاً بين مصالح شعب فلسطين ومصالح الشعوب العربية المجاورة وكلها ضحية لنفس المعتدي ، وكلها هدف دائم لمخططاته العدوانية ؟

ولكن أولئك الذين يتساءلون يقولون إن المقاومة الفلسطينية تنشط بالذات فى تلك الأجزاء من فلسطين التى احتلتها إسرائيل منذ عدوان يونية ١٩٦٧ . وبالتالى فإن انسحاب القوات الإسرائيلية من تلك الأراضى يحرم المقاومة من مسرح عملياتها الوحيد فى الوقت الراهن . ومن ناحية أخرى ، ترتكز المقاومة إلى أراضى الدول العربية الأخرى حيث تنظم مراكز التجمع والتدريب وتقيم قواعد العمليات . ومن يضمن فى حالة تصفية آثار العدوان الصهيونى الأخير استمرار الحكومات العربية المختلفة فى تقديم نفس التسهيلات التى تحصل عليها منظمات المقاومة حالياً ؟

ولا يجدى شيئاً أن يستفزنا مثل هذا التساؤل فنعرض عنه . فالعواطف هنا غير ذات غناء . ولا مجال فى هذا الصراع المصيرى الرهيب ، كما قلنا ، إلا التفكير الهادئ والحساب الدقيق . ونقطة البداية التى تحدد سير التفكير فى هذه القضية هى بدون أدنى شك معرفة كيف يمكن إجبار إسرائيل على الانسحاب إلى حدود ٤ يونية ١٩٦٧ ، بالرغم من إصرارها الواضح على أن تضم أجزاء هامة من الأراضى التى تحتلها ، وألا تتخلى عن بقيتها إلا مقابل أبهظ الأثمان . وكفرض جدلى محض ، يمكن أن نتصور أن هذا الانسحاب يتم نتيجة لإجماع الرأى العام العالمى وضغطه الذى يجد تعبيره فى شكل قرار من مجلس الأمن توافق عليه الدول الأربع الكبرى وتوفر له ضمانات التنفيذ . ونحن نعلم حق العلم أن الرأى العام العالمى منقسم حتى الآن فيما يتعلق بأزمة الشرق الأوسط ، وأن أقساماً هامة منه تعطف على إسرائيل برغم كل شىء . كما نعلم أن قوى الاستعمار العالمى وفى مقدمتها الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الغربية تساند إسرائيل إلى أبعد حدود المساندة ، لأنها تريد أن تستغل ظروف نكسة النضال العربى الحالية لتوجه إليه ضربات فى الصميم وتنتزع منا مكاسب أساسية وتعيد غزو بلادنا فى صورة استعمار جديد . ولذلك فنحن لا نطرح

احتمال « الحل السلمى » فى إطار علاقات القوى الراهنة إلا من قبيل الجدل فقط . فقد أدانت بعض منظمات المقاومة مقدماً وبشكل مطلق « أى حل سلمى » . ولهذا فإنه من الضرورى لسلامة الرؤية أن نبحث أثر مثل هذا الحل على قضية النضال الفلسطينى . وأول ما ينبغى التنبيه إليه هنا هو أن إسرائيل ولدت بالعنف وتوسعت بالقوة وعاشت بالإرهاب . فمنذ ١٩٤٧ حتى الآن نجحت إسرائيل باستمرار فى فرض ما تريد بالقوة ؛ وتلك قضية حيوية بالنسبة للوضع الداخلى فى إسرائيل . فأولئك الذين فروا إليها خوفاً من اضطهاد حيث ولدوا ، أو أملا فى حياة أفضل مادياً وأدبياً ، لن يستقر بهم المقام إلا إذا اطمأنوا تماماً لقدرة الدولة الصهيونية على أن تعيش بالقوة ، وأن تتوسع بالتدريج ، وأن ترغم العرب فى النهاية على التسليم بوجودها والاستسلام لسيطرتها الاقتصادية ونفوذها السياسى . ولو أجبرت إسرائيل على الانسحاب دون أن تجنى شيئاً من حرب سنة ١٩٦٧ فإن معنى ذلك أن سياسة القوة أصبحت غير مثمرة ، وأن إسرائيل لن تستطيع التوسع الإقليمى ولن تحقق السيطرة الاقتصادية ، وأنها لن تلعب دور كلب الحراسة فى حماية مصالح الاستعمار . وبالتالى لن يكون بوسعها الاحتفاظ بمستوى المعيشة الحالى . وسيكون لهذا كله آثاره فى وقف الهجرة إلى إسرائيل ، وتزايد الهجرة منها ، وتنبه أقسام من الشعب الإسرائيلى إلى سراب الصهيونية . ومن ناحية أخرى ، لقد أصبح الشعب الفلسطينى بفضل المقاومة ما كان يجب أن يكون دائماً : طرفاً أصيلا لا يملك أحد أن يتحدث باسمه ولا يستطيع أحد أن يتجاهله . فالدول العربية المعتدى عليها لا تملك التنازل عن جزء من أراضيها المحتلة ، وهى من باب أولى لا تملك التنازل عن شىء من حقوق شعب فلسطين لأنها لا يجوز أن تتصرف فيما ليس من حقوق سيادتها . وليس بمقدور أحد أن يفرض على الفلسطينيين أن يكفوا عن

النضال دون أن يستردوا حقوقهم السليبة . بل إن جهود الشعوب العربية المثقلة حالياً بآثار عدوان ١٩٦٧ ستتخلص عندئذ لتلتف حول شعب فلسطين . وسيكون إفلاس سياسة القوة دفعة جبارة لنضال هذا الشعب العظيم .

ولهذه الأسباب بالدقة لن تقبل إسرائيل الحل السلمى . ولو كانت إسرائيل تريد السلام حقاً كما يزعم بعض قادتها أحياناً . لتقدمت بعروض محددة غداة نصرها العسكرى الساحق . ولكنها فى الواقع رفضت كل مقترحات التسوية ، ولم تصدر عن قادتها إلا التصريحات التى تؤكد الجشع الذى تغذيه عجرفة السلاح المنتصر . ولذلك فإن الأمر الذى يبدو اليوم محسوساً هو حتمية الصدام المسلح . والحرب أعنف صور السياسة وأحفلها بالمخاطر . ولذا فإنها تستلزم تقديرات واضحة للأهداف وتحديدات ملائمة للوسائل . وهنا نعود فنكرر أن علاقات القوى على المستوى المحلى : ودون تدخل مباشر من جانب الجيوش الاستعمارية ، لا تجعل من الممكن للعرب أن يسحقوا العسكرية الإسرائيلية بحيث يصبح ميسوراً أن يفرضوا عليها شروط السلام العادل التى تؤمنهم نهائياً ضد الصهيونية ومخططاتها وترد كل الحقوق إلى أصحابها . وإنما الأمر الممكن ، والذى يجب أن يكون ، هو أن تهزم الجيوش العربية جيش إسرائيل وترغمه على التراجع منسحباً من الأراضى التى احتلها فى عدوانه الأخير . وعندئذ يصبح من المتصور أن يصدر مجلس الأمر قراراً بوقف إطلاق النار مع انسحاب القوات الإسرائيلية إلى حدود ٤ يونية سنة ١٩٦٧ ، وأن تنصاع إسرائيل لمثل هذا القرار . ومن ثم يصبح السؤال : هل تستمر الجيوش العربية فى الحرب ؛ ضاربة عرض الحائط بالرأى العام العالمى ، وتواجه الإسرائيليين وهم يقاتلون مستميتين لأن ظهرهم إلى البحر ، وتقبل فتح الباب لتدخل عسكرى استعمارى مباشر تحت شعار حماية إسرائيل من التدمير والإبادة ؟

وبعبارة أخرى هل نتجاوز الحساب الدقيق ، لنقدم على مغامرة نتائجها معروفة مقدماً ؟ فى تقديرنا أن الإجابة يجب أن تكون بالنفى وبصورة قاطعة . ولا ينبغى أن يستخفنا حديث عن التفكير التقليدى والتفكير الثورى . لأن الثورة علم ، والتفكير الثورى تفكير علمى . والثوريون يجرون حسابات دقيقة لا يميزها عن حسابات الاستعمار إلا قدرة القيادات الثورية على تعبئة طاقات الشعوب غير المحدودة . وها هو ذا العدوان الأمريكى يختنق فى فيتنام ، ومع ذلك فالقادة الثوريون هناك لم يترددوا لحظة واحدة فى الجلوس إلى مائدة المفاوضات مع الأمريكيين ، ولم يشترطوا حتى وقف أعمال الحرب بل اكتفوا بوقف الغارات على فيتنام الشمالية . ونحن لا يمكن أن نعترف بإسرائيل . ولا نتفاوض معها ، ولا نوقع معها صلحاً . ولكن هذا ليس معناه الحرب فوراً حتى تزول إسرائيل أو تسلم بحقوق شعب فلسطين كاملة غير منقوصة . لقد قلنا إن النضال طويل ، وإن الظاهرة الصهيونية الإمبريالية بالغة التعقيد ، وإن تصفية القاعدة الاستعمارية الصهيونية رهن باستراتيجية متكاملة متعددة الأساليب تخطط لنضال طويل ومرير .

ولهذا فإننا نعتقد أنه عند نجاح الدول العربية فى تصفية آثار العدوان إثر صدام مسلح ، يجب أن يحقق نضال شعب فلسطين تقدماً جذرياً . وأن يتعاون شعب فلسطين والشعوب والحكومات العربية على ذلك . وهذا التقدم يتمثل فى تقديرنا فى المطالبة بتنفيذ قرارات هيئة الأمم المتحدة التى صدرت لصالح شعب فلسطين . وأول هذه القرارات هو حق اللاجئين فى العودة إلى أراضيهم . ويجب هنا أن تتم التعبئة على أساس إصرار الفلسطينيين عند أى استفتاء على العودة ورفض مبدأ التعويض . فالعودة استرداد للأرض ، فضلا عن أنها تعقد الوضع الداخلى فى إسرائيل وتحد من إمكانيات الهجرة إليها . ولكننا نعتقد أيضاً أنه لابد من الإلحاح

على تنفيذ قرار الأمم المتحدة بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ والمعروف باسم قرار التقسيم . إننا لن نقر أبداً مشروعية التقسيم ، ولا يمكن أن نسلم به . ولكننا يجب أن نتمسك فى الحال بما تركه لنا هذا القرار الجائر ألا وهو « دولة فلسطين العربية » . ومرة أخرى يجب أن نتأمل كيف تصرفت الصهيونية . لقد أعلنت قبولها لقرار التقسيم ومع ذلك لم تنفذ منه إلا البند الخاص بإنشاء دولة إسرائيل ، وخرقت بقية البنود قبل الموعد المحدد لتنفيذ القرار (بالعدوان على يافا وعكا وغيرهما من المناطق العربية) وبعد تنفيذه (بضم مناطق واسعة من أرض فلسطين) . ونحن نرفض النفاق. ولا أحد يلزمنا بالاعتراف بمشروعية قرار التقسيم . ولكن من حقنا أن نطالب أولئك الذين أصدروه أن يعملوا على تنفيذه . وأهم ما يترتب على ذلك هو أن تصبح للنضال الفلسطيني قاعدة من أرض مستقلة يتحرك منها ، ويتحرر من أى ضغط خارجي ، أو حتى عربى . يعود اسم فلسطين للوجود على خرائط العالم . ينشأ إلى جوار المقاومة جيش نظامى . تحصل الدولة الفلسطينية على اعتراف دولى وتحاول أن تلعب دورها فى السياسة الدولية وأن تستفيد من تناقضاتها . وتنفيذ قرار التقسيم بحذافيره ، معناه تحرير جزء آخر من أرض فلسطين ، هو ذلك الذى ضمنته إسرائيل فيما وراء القرار المذكور . معناه تغيير ديناميكية الأحداث رأساً على عقب ، فالمبادرة تصبح بيد العرب ، وعرب فلسطين بالذات ، والتوسع الإسرائيلى يتحول إلى انكماش . إنها تكون بداية ضخمة لعودة الأمور للسير فى اتجاه التاريخ . وستكون الآثار الداخلية فى إسرائيل واسعة المدى. فستدرك جماهير عريضة نهاية الحلم الصهيونى الاستعمارى. ولن تستطيع الصهيونية بتعصبها العنصرى أن تعصب أعين الناس هناك عن أن يروا الواقع وأن يختاروا الخيار الحاسم : مغادرة البلاد أو التعايش مع أهلها فى سلام وبرغبة صادقة فى مصير مشترك .

٧

الاعتراف والمفاوضة

معنى الصلح

يواجه كل عربى تتاح له فرصة مناقشة الأجانب فى قضية العرب وإسرائيل بمشكلة يبدو فيها الأجانب عاجزين تماماً عن فهم موقفنا . ويتفاوت تعليقهم على هذا الموقف بين الصمت المؤدب ، والتحفظ ، والنقد اللاذع . وتلك هى مشكلة « الرفض العربى لإسرائيل » الذى جعل منه أحد أصدقاء العرب فى فرنسا عنواناً لكتاب كامل . أو بعبارة أخرى إصرار العرب على موقف : « لا اعتراف بإسرائيل ، ولا صلح معها ، ولا مفاوضة » . وكثيراً ما يقال لنا ، لماذا الإصرار على عدم الاعتراف بإسرائيل؟ ألايعنى هذا الإصرار تبييت النية على العدوان عليها وتدميرها ؟ وكيف ترفضون الصلح ؟ أليس الصلح الشكل الطبيعى لإنهاء الحروب ؟ وهل تريدون أن تعيشوا فى حالة حرب مستمرة مع إسرائيل ثم تشكون بعد ذلك إذا أخذت تلك الدولة أحياناً المبادرة فى العمليات العسكرية ؟ إن مثل هذه المبادرة لا تكون عدواناً جديداً ما دامت الحروب قائمة على كل حال . والطريق إلى الصلح هو المفاوضة . فمنذ وجدت الدول وقامت بينها حروب ،كان الأسلوب للخروج من حرب لم يسحق فيها أحد الطرفين الطرف الآخر هو المفاوضة بقصد الوصول إلى تسوية قوامها تنازلات متبادلة تحل السلام محل الحرب . ويقال لنا إن موقفنا هذا لا تفسره إلا اعتبارات عاطفية ، والسياسة لا تخضع للعواطف ، وإنما للحقائق المادية وحدها . وكثيراً ما يحتار المتحدث العربى فى بحثه عن الرد المقنع على تلك الحجج ، لأنه يكون فى حاجة إلى حجج يقبلها الرأى العام

العالمى . ولا تغنيه تلك التى يمليها الشعور الوطنى العربى وحده . بل إن بعضنا يتأثر بمنطق هؤلاء الأجانب — ولا سيما إذا أداروا الحديث من زاوية العطف على قضايانا والحرص على تقدم بلادنا — فيتساءل ألا يعبر موقفنا هذا عن نوع من سياسة النعامة التى تخبئ رأسها حتى لا ترى الواقع فتظن أن غيرها لا يراه ؟

ولكن هذا المنطق لا يصمد طويلا أمام مناقشة جدية . ويمكن من واقع الحجج المقبولة عالمياً أن ندافع عن موقف تمليه مصالح مادية حالة ومستقبلة أكثر مما تمليه العاطفة . ولنبدأ بمشكلة الاعتراف بإسرائيل . وأول ما يجب إبرازه هنا هو أنه ليس فى أحكام القانون الدولى العام ما يلزم دولة بالاعتراف بدولة أخرى اعترافاً قانونياً شاملا . إن القانون الدولى . وبصفة خاصة نصوص ميثاق الأمم المتحدة وغيرها من القواعد التى تستهدف إقرار الأمن الدولى ، تحظر على كل دولة أن تعتدى على دولة أخرى فقط ولكنها لا تلزمها بالاعتراف بها . وثمة حالات كثيرة وشهيرة لعدم الاعتراف . فالصين ، وهى تضم خمس البشرية كلها ، لم تعترف بها أغلبية الدول حتى الآن . وبسبب موقف أمريكا — أكبر مدافع عن الاعتراف بإسرائيل — لم يتمكن شعب الصين حتى الآن من أن يحتل مقعده الدائم فى مجلس الأمن . والولايات المتحدة تستخدم كل ما تملك من نفوذ لتمنع دولا كثيرة من الاعتراف بالصين ، كما أنها تفرض عليها حصاراً اقتصادياً شاملا . ومن حقنا أن نرد على الإيطاليين والهولنديين والبلجيكيين . . . إلخ الذين يقولون لنا لماذا لا تعترفون بإسرائيل ؟ بسؤالهم لماذا لا يحملون حكوماتهم على الاعتراف بالصين ؟ وليست الصين وحدها فى هذا الوضع . ففيتنام الديمقراطية لم تحصل على أى اعتراف ديبلوماسى من الدول الغربية والدول الدائرة فى فلكها . وواشنطون تفاوض هانوى دون أن تعترف بها . وكذلك الأمر فيما يتعلق بجمهورية كوريا

الديمقراطية . بل إن الأمور تصل إلى حد التعنت فى حالة جمهورية ألمانيا الديمقراطية . فحكومة بون تصر على أنها الممثل الوحيد لألمانيا كلها . وتنكر مجرد وجود دولة ألمانيا الديمقراطية . وهى تهدد باسم مبدأ « هالشين » كل دولة تعترف بحكومة برلين بقطع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية . ومعنى هذا الموقف يتجاوز مجرد عدم الاعتراف إلى التهديد الجدى لأمن جمهورية ألمانيا الديمقراطية وللسلام العالمى . فحكومة ألمانيا الاتحادية لا تسمى الدولة الألمانية الأخرى إلا « منطقة الاحتلال السوفيتى » . وهى ترفع فى نفس الوقت شعار توحيد الأرض الألمانية . والتوحيد بغير التفاهم مع ألمانيا الديمقراطية لا معنى له إلا التوحيد بالقوة . ومع كل ذلك فلم نسمع فى عواصم الغرب موجة من الأصوات التى تطالب بالاعتراف بحكومة برلين . فالموضوع إذن ليس قضية مبدأ يراه القوم ضرورياً لصيانة السلام العالمى . وإنما هو قضية عطف بارز على إسرائيل ، أو على الأقل انسياق وراء دعاية ذكية تستخدم حججاً ظاهرها الحق والمنطق وباطنها الباطل والعدوان . وعلى ذلك فالعرب لا يخلون بقواعد القانون الدولى حين يرفضون الاعتراف القانونى بالدولة الصهيونية . ولا تثريب عليهم من هذه الزاوية . إن الالتزام الوحيد الذى يفرضه القانون الدولى على الدول العربية هو عدم الهجوم العسكرى على إسرائيل . والأمر الثابت تاريخياً خلال العشرين عاماً الماضية هو أن الجيوش العربية لم تهاجم إسرائيل ، بل على العكس اعتدت إسرائيل على جاراتها العربية ثلاث مرات عدواناً سافراً مركزاً ، بالإضافة إلى المئات من حالات العدوان المحدود النطاق على حدود هذه الدولة أو تلك . ولا بد أن نذكر هنا أنه حتى فى ١٩٤٨ كانت إسرائيل هى البادئة بالعدوان لأن قواتها احتلت مناطق كانت واردة فى قرار التقسيم ضمن أراضى دولة فلسطين العربية قبل تدخل الجيوش العربية . والأمر الذى يجب التنبيه إليه هو أن الشعب الفلسطينى غير ملزم حتى باحترام

أمن اسرائيل . فهو محروم من الوجود الوطنى فى شكل دولة مستقلة تقع فى حقها الالتزامات الدولية . ومن ثم فإن كل طرق النضال مشروعة أمامه. ولا يتصور بحال أن تلتزم الدول العربية بحماية أمن إسرائيل ضد نضال شعب فلسطين . فمثل هذا الكلام سخف لا سند له فى القانون الدولى . وإنما هى تعلات تلجأ إليها إسرائيل لستر نواياها التوسعية وأعمالها العدوانية .

كذلك ليس صحيحاً ما يقال من أن كل حرب لا بد أن تنتهى بمعاهدة صلح . فالحرب التى تؤدى إلى سحق أحد الطرفين المتحاربين تكون خاتمتها إملاء شروط المنتصر . وفى عصرنا الراهن ، ومع وجود التنظيمات الدولية وعلى رأسها مجلس الأمن يمكن أن ينتهى القتال ، بل تنتهى الحرب ، بقرارات دولية ودون معاهدة صلح . وانتهاء الحرب بدون معاهدة صلح ليس أمراً غير متصور . فقد مر ربع قرن تقريباً على انتهاء الحرب العالمية الثانية ولم يتم توقيع معاهدة صلح مع ألمانيا . بل إن هناك خلطاً متعمداً ، تغذيه الدعاية الصهيونية ، بين فكرة السلام والشكل المسمى معاهدة صلح . فالسلام لا يمكن أن يستقر إلا إذا كان قائماً على العدل . وإلا كان هدنة طويلة الأجل يجمع فيها الطرف الذى يعد نفسه مهضوم الحق كل قواه ليستأنف القتال ويسترد حقه أو يتجاوزه ليسلب حق الطرف الآخر . ولنعد لألمانيا مرة أخرى ، وإنما قبل خمسين عاماً ، فى نهاية الحرب العالمية الأولى . فقد تم توقيع معاهدة صلح هى « معاهدة فرساى » . ولكن تلك الوثيقة كانت عبارة عن سلسلة طويلة من الشروط والقيود التى فرضت على ألمانيا . والمفاوضات الطويلة التى سبقتها لم تكن بين الحلفاء من ناحية وألمانيا من ناحية ، بل كانت مفاوضات داخلية أجراها المنتصرون فيما بينهم ، وكان موضوعها اقتسام الأسلاب . ولهذا فإن « صلح فرساى » لم يقر السلام فى أوربا . وقد استغلت النازية ما اعتبره الشعب الألمانى تعسفاً من المنتصرين لتفجر حرباً دامية مدمرة بعد عشرين عاماً من توقيع

المعاهدة المذكورة . إن السلام لن يستقر فى الشرق الأوسط إلا إذا كان العدل أساسه . أى إذا قام على احترام حقوق الشعوب العربية وفى مقدمتها شعب فلسطين . وأى معاهدة صلح يتصورها خبير فى القانون الدولى . لن تكون من الناحية الفعلية إلا هدنة طويلة الأمد نسبياً . لأن الشعوب العربية لا بد أن تناضل حتى تحصل على حقوقها . إن أولئك الذين يهمهم مستقبل السلام فى هذه المنطقة من العالم يجب أن يركزوا اهتمامهم على الشروط الموضوعية لإقامة سلام عادل . أما الشكل القانونى فإنه لن يغير شيئاً من حقيقة الأمور . ولدى إسرائيل أسباب محددة تجعلها تصر على المطالبة بمعاهدة « صلح » . فهى بمنطق القرن التاسع عشر تتصور وثيقة يوقعها طرف منتصر وطرف مهزوم فيدفع الثانى ثمن الهزيمة ويجنى الأول ثمار النصر . ويصاغ كل ذلك فى شكل معاهدة دولية . إن الإصرار على « معاهدة للصلح » وليس على إجراءات لتحقيق الأمن والسلام ، يرجع إلى أن إسرائيل تنظر إلى تلك المعاهدة على أنها « كشف تسليم المغانم » . على أن هدف الصهاينة يذهب إلى أبعد من ذلك بكثير . فهم بإصرارهم على توقيع معاهدة صلح يريدون أن يصيبوا حركة النضال العربى فى صميمها : فى روح الصمود وإرادة المقاومة ورفض التسليم بالأمر الواقع . إنهم يريدون صكاً يسلم فيه العرب بشرعية الاغتصاب ويتنازلون فيه نهائياً عن حقوق شعب فلسطين . وثمة فرق هائل بين التزام الدول العربية باحترام ميثاق الأمم المتحدة وقراراتها وعدم مبادأة إسرائيل بالعدوان، وبين التسليم بشرعية اقتطاع جزء من الوطن العربى ، وإقامة قاعدة صهيونية إمبريالية تدنس الأرض وتهدد المستقبل . إن التخلى عن الحقوق المشروعة أمام القوة الغاشمة طريق له بداية وليست له نهاية . فإذا تخلينا أمام إسرائيل، فهل يمكن أن نقاوم بعدها الاستعمار؟ إن المراد منا هو فى التحليل الأخير التخلى عن إرادة الحرية ، عن حقنا فى تشكيل مصيرنا كما

نشاء، فى بناء وطننا ووحدتنا القومية ، فى رفع مستوى معيشة الإنسان العربى ليستأنف مسيرته على طريق الحضارة بعد أن حرفته السيطرة الأجنبية عنه أمداً طويلا . ومن ناحية ثالثة تريد إسرائيل « بالصلح » وما يعنيه من تصفية لإرادة المقاومة أن تفتح السبيل لما تسميه « علاقات عادية مع البلاد العربية المجاورة » ، وفى مقدمتها العلاقات الاقتصادية . وقد رأينا فيما سبق تصور الصهيونية لتلك العلاقات بين طرف متقدم اقتصادياً يتمتع بمساندة الإمبريالية العالمية ، وطرف فى مرحلة النمو . إن الصلح فى منطقهم تمهيد لنشر نفوذهم الاقتصادى فى المنطقة كلها حتى تحقق إسرائيل السيطرة الاقتصادية التى تحلم بها .

الأمن والتوسع

وبرغم قوة حجتنا كثيراً ما يقال لنا : ولكن من حق إسرائيل أن تشعر بالأمن . وموقف عدم الاعتراف ورفض التوقيع على معاهدة الصلح يحمل فى ثناياه شبهة النية المبيتة على الهجوم على « الدولة اليهودية الصغيرة » . وهذا كلام مردود . فالصين تعتبر — وهى على حق فى ذلك — أن هونج كونج وتايوان (فورموزا) جزء من أراضيها . ولكن لم يكن معنى ذلك أن تحارب الصين بريطانيا وأمريكا لتحرر فوراً تلك الأراضى المقتطعة من جسد الوطن . ويمكن أن نتصور حالات أخرى يتم فيها ذلك التحرر دون قتال : ثورة شعب تايوان ضد الحكم العميل (وهو أمر غير مستبعد ويكفى للتدليل على إمكانه ثورة شعب فيتنام الجنوبية)، سلسلة هزائم يتلقاها الاستعمار الأمريكى فى الشرق الأقصى فتجبره على تقصير خطوطه كما تفعل اليوم بريطانيا حين تسحب بقرار منها قواتها العسكرية من دول لم تطالب حكومتها بالانسحاب البريطانى ، بل إن بعضها — على العكس — يصرخ مطالباً ببقاء جنود جلالة الملكة (مثل ماليزيا) . . . إلخ . فالدول

العربية ترفض الاعتراف والصلح . ولكنها أعضاء فى الأمم المتحدة تلتزم بعدم الالتجاء إلى القوة فى فض المنازعات . وكما ذكرنا قبل قليل كان تاريخ العشرين عاماً المنصرمة تاريخ حروب ثلاث شنتها إسرائيل وكانت جاراتها العربية فيها جميعاً ضحية العدوان . وهذا ما حمل المتحدث الرسمى باسم الجمهورية العربية المتحدة لأن يصرح — حين سأله صحفى أجنبى عن رأيه فى مطالبة إسرائيل بأن تكون لها حدود آمنة — بأن الدول العربية هى التى تطالب بحدود آمنة ، لأنها كانت دائماً ضحية العدوان . وينكشف زيف ادعاء إسرائيل بأن أمنها مهدد إذا تذكرنا الإجراءات التى كانت كفيلة بصيانة ذلك الأمن ، والتى ألغتها إسرائيل بإرادتها المنفردة .

(١) لقد كانت هناك اتفاقيات هدنة دائمة بين إسرائيل وجاراتها العربية وقعت سنة ١٩٤٩ . وأقامت الأمم المتحدة جهازاً من المراقبين الدوليين للسهر على احترام الأطراف المعنية لتلك الهدنة . ولكن إسرائيل ألغت من جانبها تلك الاتفاقيات جميعاً بقرار منها . وكانت حجتها فى ذلك أن الفدائيين الفلسطينيين لم يكونوا يحترمونها . وهى حجة ساقطة . فالفلسطينيون لم يكونوا طرفاً فى تلك الاتفاقيات لأن إسرائيل أهدرت كل حقوقهم وسعت للقضاء على وجودهم الوطنى المستقل وعطلت تنفيذ قرار الأمم المتحدة بإنشاء دولة فلسطينية عربية ، ورفضت أن تتعامل معهم إلا بأسلوب الطرد والقهر . فكيف يمكن أن يلتزم شعب باتفاق لم يوقعه ، بل لم تتح له حتى فرصة التوقيع عليه ؟ إن إسرائيل كانت تنكر على الحركة الفدائية طابعها الفلسطينى الأصيل ، وتزعم أنها من صنع الحكومات العربية . وقد بدد تطور حركة المقاومة غداة هزيمة يونية كل هذه الدعاوى . كذلك لا يمكن أن تلتزم الدول العربية بمحاربة النشاط الفدائى ، فمعنى ذلك أن تقوم الجيوش العربية بحراسة إسرائيل ضد الشعب الفلسطينى ، وهذا ما يرفضه العقل وقواعد القانون الدولى . إن إخلال

الفلسطينيين « بأمن إسرائيل » ليس له من علاج إلا الإقرار بحقوقهم فى العودة إلى أراضيهم وإقامة دولتهم المستقلة . إن دم الضحية يطارد القاتل ليل نهار . وما دام هناك شعب سلبت حقوقه فهو يطالب بها فليس من أمن أو هدوء إلا بالإقرار بحقه فى الحياة .

٢ — كان من ضمن الترتيبات التى اشتملت عليها اتفاقيات الهدنة فى سنة ١٩٤٩ إنشاء مناطق منزوعة السلاح من الجانبين على طول الحدود الإسرائيلية . وواضح أن تلك المناطق كانت تحول دون المواجهة المباشرة بين القوات المسلحة من الطرفين ، وتترك لمراقبى الهدنة فرصة لأداء مهمتهم . ولكن إسرائيل احتلت بالتدريج كل المناطق المنزوعة السلاح وخلقت بذلك ظروف المواجهة المباشرة والتوتر المستمر . ولم يكن فى « تسلل » الفدائيين ما يكفى لتبرير هذا الإجراء . فمقاومته كان يمكن أن تتم بنفس الفعالية فيما وراء المناطق المنزوعة السلاح . أما النشاط الفدائى فى تلك المناطق ذاتها ، فكان بوسع إسرائيل أن تلجأ إلى الأمم المتحدة بشأنه . ولكن هذا كان أمراً غير مقبول بالطبع فى نظر الصهيونية لأنه كان سيثير من جديد مشكلة شعب فلسطين .

٣ — وتقرر فى الوقت نفسه تشكيل لجنة توفيق دولية لحسم قضية الحدود النهائية وحل مشكلة اللاجئين . وانعقدت اللجنة بالفعل فى لوزان . ولكن إسرائيل انسحبت منها لأنها لم تكن تريد حل أى من المشكلتين .

٤ — قررت الأمم المتحدة سنة ١٩٥٦ وضع قوات طوارئ دولية على جانبى الحدود بين مصر وإسرائيل . وقبلت مصر القرار ونفذته ، فى حين رفضت إسرائيل السماح لتلك القوات بالوجود على أرضها . واليوم حين يدور الحديث حول تأمين حدود إسرائيل ، يكون من الطبيعى التفكير فى قوات دولية على تلك الحدود . ولكن إسرائيل ترفض هذا رفضاً قاطعاً . ولا يبرر

هذا الرفض ما يقال بأن وجود تلك القوات لم يمنع مصر من طلب سحبها فى مايو ١٩٦٧ . فالرد على ذلك واضح وبسيط : لأنه لو كانت تلك القوات موجودة أيضاً على الجانب الإسرائيلى من الحدود لاستمر وجود الأمم المتحدة . وإنما هذا الوجود كان سيحول دون العدوان الإسرائيلى . ولذلك فإسرائيل تحتفظ باستمرار بحرية الحركة فى حين تستنكر أن طالبت مصر بتلك الحرية فى فترة أزمة ، وبعد أن قبلت بقاء قوات الطوارئ أكثر من عشر سنوات . وليس مفهوماً أن تقبل الدول العربية وجود قوات دولية على أرضها مع إصرار إسرائيل على رفض تلك القوات ، لأن معنى ذلك تقييد حرية الدول التى اعتدى عليها أكثر من مرة ، وإطلاق حرية الحركة للمعتدى .

والواقع إذن أنه يمكن ضمان « أمن » إسرائيل دون أى تعديل للحدود . وليس مقبولا أن تحتج القوى الصهيونية بأن حدود إسرائيل ليست مؤمنة طبيعياً . فمرتفعات الجولان تهيمن على مناطق من إسرائيل ، والضفة الغربية تمتد فى بعض المواقع لتكون على مرمى مدفع عادى من تل أبيب . فالرد على ذلك هو أن العرب كانوا من الأصل يرون فلسطين غير قابلة للتقسيم . وأن وجود دولتين فى أرض محدودة بهذا الشكل سيترتب عليه تداخل إقليميهما فضلا عن ضيق كل منهما . ولكن الصهيونية أصرت على التقسيم وخلقت هذا الوضع الشاذ . وليس لها اليوم أن تشتكى مما صنعت يداها . ويكفى وجود قوات دولية لتوفير الأمن الذى تدعى إسرائيل أنها تنشده . ولكن الواقع المرهو أن إسرائيل تحت شعار « الأمن » تريد فرض التوسع . فالمنطق الصهيونى هو أن تضم إسرائيل المناطق التى تراها لازمة لأمنها . وهذا مبدأ مرفوض فى القانون الدولى لأن حقيقته هى التوسع على حساب الدول الأخرى . ويمكن أن نتساءل عند أى خط تعتبر إسرائيل أن الأمن قد توافر لها ؟ لقد ثارت دعاية واسعة حول مرتفعات جولان . ولكن ليو

أشكول تكلم أيضاً عن وجود إسرائيلي في سيناء لتأمين الملاحة في خليج العقبة . فالتوسع له منطقه . وليس له حدوده . وهذه الخطط التوسعية هي التي تساعد على فهم إلحاح إسرائيل في أنه لا سلام بدون مفاوضة مباشرة مع العرب . فما هو موضوع المفاوضة التي تريدها إسرائيل؟ إن السلام يمكن أن يتحقق بمجموعة من الإجراءات يقررها مجلس الأمن ويقبلها الطرفان . وإذا كانت إسرائيل تقبل مبدأ الانسحاب من الأراضي المحتلة كلها ولا تضم منها شيئاً ، فإن قرار مجلس الأمن الصادر في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٧ يرضي كل مطالبها الأخرى : حدود آمنة معترف بها ، إنهاء حالة الحرب ، حرية الملاحة في الممرات المائية الدولية . فماذا تريد فوق ذلك ؟ الواقع أنها لا تريد الانسحاب . وتبغي من وراء المفاوضة المساومة على الأرض المحتلة . بل مساومة كل دولة عربية على حدة لمحاولة ضربها ببعضها البعض . ولا توجد حكومة عربية تستطيع التنازل عن شبر واحد من الأراضي المحتلة . ومن ثم فإن المفاوضات غير ذات موضوع . وموقفنا في رفضها سليم تماماً . ليس فقط لأن المفاوضة يمكن أن تستتبع الاعتراف القانوني بإسرائيل أو تفضي إلى معاهدة صلح وهي أمور واضح ضررها بالقضية العربية ، وإنما لأن المفاوضة لن يكون لها من موضوع إلا مصير الأرض المحتلة ، وهذا المصير لا يمكن أن يكون محل مفاوضة أو مساومة . إن من يريد السلام لا تهمه الأشكال التي يتحقق بها . وعلينا أن نفضح حقيقة موقف إسرائيل ، وبيان أن مطالبتها بالمفاوضات ليست رغبة في السلام ، لأن قرار مجلس الأمن يمكن أن يوفره ، وإنما هي رغبة في استغلال النصر العسكري في توسع إقليمي . ويقول لنا بعض المثقفين ورجال السياسة في الغرب : لقد هزمتم عسكرياً وعليكم أن تدفعوا الثمن . ونحن نقول لهم : تكلموا لغة واحدة ، فإما إقرار بوجود مجتمع دولي يدين العدوان ومنظمة دولية تعمل على صيانة السلام بإقراره على أسس عادلة

ـ ولا مجال عندئذ لتقدير الأمور بشروط المنتصر وتنازلات المهزوم : وإما سيادة قانون الغابة ـ وهنا نعلن أننا لم وان نلق السلاح وأن الحرب يمكن أن تستمر ولو مائة عام . فأرضنا واسعة وأعدادنا غفيرة ، ونحن ندرك معنى التاريخ ونعرف أن حركته فى صالحنا .

الوقاية واليقظة

وحتى لا تكون « سياسة نعامة » ، لا يكفى أن نرفض لاعتراف بإسرائيل والتفاوض معها وعقد الصلح . لا يمكن أن نقنع بتجاهل الوجود الإسرائيلى والانصراف إلى شئوننا الأخرى . وليس هذا فقط لأننا لا يجوز أن نتخلى عن مساندة شعب فلسطين ، وإنما لأن إسرائيل بوضعها الراهن قاعدة صهيونية إمبريالية عدوانية كما سبق أن أوضحنا . ولكن ما يجب الإقلاع عنه هو التفكير السطحى الذى ينم عن نفاد الصبر والذى يتمثل فى القول بأن علينا أن نختار بين حرب شاملة وثورية لتدمير إسرائيل . وبين التعايش معها . كل ذلك التفكير الذى محوره الضيق بالمشكلة والرغبة فى التخلص منها بأى شكل ، ولو كان الشكل الأرجح عندئذ فى ضوء علاقات القوى الحالية ضاراً بالعرب أبلغ الضرر. لقد ذكرنا وكررنا أن الهدف الاستراتيجى للنضال العربى هدف بالضرورة طويل الأمد ، لا يمكن تحقيقه بين يوم وليلة ، ومن ثم فالأمر الذى لا مفر منه هو أنه سيكون هناك تواجد مادى لفترة طويلة نسبياً بين إسرائيل بوضعها الراهن وبين الدول العربية . وسنوضح فى الصفحات التالية ما نرى من واجب العرب صنعه فى تلك الفترة للاقتراب من الهدف المنشود والأسمى . ولكننا نريد أن نؤكد هنا ثلاثة أمور :

١ ـ ضرورة مساندة الدول العربية للمقاومة الفلسطينية ، والتضامن الكامل مع الشعب الشقيق فى نضاله الطويل . وقد سبق أن أوضحنا أن

قضية شعب فلسطين قضية تتضح أكثر فأكثر أمام الرأى العام العالمى باعتبارها قضية تحرر وطنى لابد أن تلتف حولها وتتعاطف معها قوى التحرر والتقدم فى كل بقاع الأرض . ونحن أبناء القومية الواحدة أولى الناس بأداء واجب التضامن والمساندة . ولا تناقض بين تصفية آثار العدوان ومساندة شعب فلسطين كما شرحنا فى الفصل السابق . ونحن نقول بوضوح إن السلام الوحيد الذى يمكن أن يعمر فى الشرق الأوسط هو السلام القائم على العدل . ولا عدل بدون الإقرار بحقوق الشعب الفلسطينى وتمكينه من تجسيد وجوده الوطنى فى دولة مستقلة وعودة اللاجئين إلى ديارهم . . . إلخ . وللمساندة العربية أشكال كثيرة ومتنوعة . ولنا فى تجربة مناصرة الثورة الجزائرية دروس يمكن الاستفادة منها وتطويرها .

٢ ــ دعم المقاطعة الاقتصادية لإسرائيل . فهدف الصهيونية الخبىء وراء كل حديث عن السلام والصلح والعلاقات الطبيعية هو غزو بلادنا اقتصادياً لحساب الصهيونية والاحتكارات العالمية . ولقد كانت المقاطعة أنجح إجراء اتخذه العرب منذ قيام السرطان الصهيونى فى فلسطين . وعلينا أن ندعمها ونطورها كإجراء وقائى لحماية الاقتصاد القومى للدول العربية . وليكن واضحاً أن المقاطعة لن تؤدى إلى خنق إسرائيل ، فلها من مساندة القوى الصهيونية والإمبريالية فى العالم ما يكفل لها أسباب الحياة ، ولذلك فالمقاطعة ليست إجراء عدوانياً ضد إسرائيل ، وإنما هى قبل كل شىء إجراء دفاعى لحماية استقلالنا الاقتصادى ، وصناعتنا الناشئة والسير فى طريق التنمية ورفع مستوى المعيشة . ونحن حين نقاطع الشركات التى تنشئ مصانع فى إسرائيل إنما نفعل ذلك لأن تلك الشركات تدعم الطاقة الحربية ، بالمعنى الواسع للحرب الحديثة ، عند المعتدين الصهيونيين .

٣ ــ اليقظة والقدرة على الردع . ذلك أننا حتى ولو لم نهاجم إسرائيل

فلن نأمن شر عدوانها ، إنها تعمل باستمرار على تعطيل حركة التحرر العربى وتوجيه الضربات لها لشل تقدمها . وهى كثيراً ما تعتدى بتوصية من الإمبريالية العالمية التى تريد حماية مصالحها الاستعمارية المهددة فى الوطن العربى . ولكل ذلك فإن إسرائيل يمكن أن تعتدى فى أى وقت . ومن ثم يجب أن تكون لنا القدرات الاقتصادية والسياسية والعسكرية التى تمكننا من رد العدوان ودحره حتى تدرك إسرائيل أنها لا يمكن أن تقوم دائماً بدور « البلطجى » فى المنطقة ، وأن العدوان لعب بنار تحرق أصابع من أشعلها . وبدون القدرة على الصد والردع ستعيش إسرائيل سكرى بخمر القوة ، تعربد بالسلاح أنى تشاء .

الرأى العام الإسرائيلى

ولكن ما أثر ذلك كله على الأوضاع الداخلية فى إسرائيل ؟ إن كل طرف فى صدام مثل ذلك الذى نعيشه مع الصهيونية يحاول دائماً التأثير فى صفوف الطرف الآخر ، ويبذل أقصى الجهد لعزل أقسام من الشعب عن القيادات المتصدية للصدام . فالحلفاء فى الحرب العالمية الثانية كانت لهم دعايتهم الموجهة إلى الشعب الألمانى والتى كانت تدور حول فكرة أنهم يحاربون هتلر والنازية ولا يحاربون ألمانيا والشعب الألمانى . وفيتنام الديمقراطية لها دعايتها الموجهة إلى الجيش الأمريكى الذى يحتل جنوبى فيتنام ويحارب شماليها ، ومحورها عدم العداء للشعب الأمريكى والرغبة فى العيش فى سلام معه . ويوجه عدد من الإذاعات العربية برامج باللغة العبرية ليسمعها الناس فى إسرائيل ؛ أى أن الحكومات العربية ، أو بعضها على الأقل ، لا تيأس من إمكانية التأثير فى الرأى العام الإسرائيلى . ومن ثم لا بد من أن نحدد بوضوح ماذا يمكن أن نقول للجماهير فى إسرائيل لنعزلها عن القيادات العنصرية الرجعية الاستعمارية

المغامرة التي تقود تلك الجماهير - في المدى الطويل - إلى أسوأ مصير ؟

يعتقد البعض - من أصحاب الفكر العنصرى - أن هذا السؤال غير وارد . فاليهودى عندهم شرير بالطبيعة ومن العبث بذل أى جهد لتغيير موقف يهود هم بالضرورة فاسدون مفسدون فى الأرض - لا ضد العرب وحدهم - بل ضد الاشتراكية السوفييتية والاحتكارية الأمريكية . . ! فأية جدوى هناك فى محاولة التأثير فى الرأى العام فى إسرائيل ؟ ولكن أصحاب هذا الفكر المشين هم والحمد لله قلة قليلة فى وطننا العربى . وقيم الحضارة العربية وتقاليد العرب التاريخية تدين مثل هذا الفكر . وهو لا يجد صدى إلا فى أشد المجتمعات العربية تخلفاً . وهى ذات أثر محدود للغاية فى السياسة العربية وفى مقاومة مخططات الصهيونية والاستعمار .

وهناك رأى آخر أكثر « عصرية » يقول إن الصدام الدامى الذى تشهده الأرض العربية هو صدام قومى تختفى أمامه كل القضايا الطبقية ، وبالتالى تنصهر فيه وحدة الشعوب والتيارات عند الطرفين . ويقول بعض أصحاب هذا الرأى إنه لو كانت الجمهورية العربية المتحدة بلداً رأسمالياً ، لتعرضت مع ذلك للعدوان الإسرائيلى . فالنظام الاجتماعى لا صلة له بالموضوع . ويضيفون ، من الناحية الأخرى ، أن إسرائيل مجتمع مصطنع ليس له وجود طبيعى وبالتالى لا تتبلور فيه طبقات ولا يظهر صراع طبقى . وأول نقد نوجهه لهذا الرأى هو أنه يتضمن التسليم بوجود قومية يهودية ، وهذا التسليم يجافى الواقع ولكنه يخدم إلى أبعد الحدود الفكرية الصهيونية كما سبق أن أوضحنا . والنقد الثانى يتعلق بتجريد مفهوم القومية من كل محتوى اجتماعى . إننا نؤمن بأن القومية بمعنى رغبة كل أمة فى أن تعيش مستقلة وموحدة وأن تتقدم بين الأمم ، من أعظم القوى التى لعبت دوراً حاسماً فى تشكيل عالمنا المعاصر ، وما زالت تلعب كل هذا الدور . ولكن حين تحاول بعض الدوائر الحاكمة المستغلة أن تستخدم الشعور

القومى فى تعصب شوفينى يبرر غزو الشعوب الأخرى والسيطرة عليها تصطدم بمعارضة حادة داخل بلادها . فالفرنسيون الذين عارضوا حرب الجزائر وأيدوا نضال الشعب الشقيق من أجل استقلالها لم يكن شعورهم بالقومية أقل من أنصار « الجزائر فرنسية » من المتطرفين واليمنيين والفاشيين . والألمان الذين حاربوا النازية . كانوا أكثر حباً لوطنهم من عصابات هتلر الإجرامية . والمثقفون الأمريكيون الذين يعارضون حرب فيتنام يعلون شأن أعظم قيم الحضارة التى قامت عليها الولايات المتحدة . . . إلخ .
ومن ناحية ثالثة ، ليس صحيحاً أن النظام الاجتماعى لا أثر له فى الصدام الذى نعيشه . حقاً إنه من وجهة نظر الصهيونية التوسعية التى تريد ضم مناطق جديدة ، لا يمكن التردد فى الاستيلاء على أرض لأن نظامها الاجتماعى متخلف وحكامها موالون للاستعمار ؛ بل على العكس ربما سهل هذا للصهاينة الأمور . ولكن إذا نظرنا إلى القضية من زاوية المصلحة العربية نجد أن المجتمع الإقطاعى المتخلف لا بد أن يكون عاجزاً عن مقاومة عدوان الصهيونية وتوسعها . كما أن ارتباطاته بالاستعمار تحول دونه ودون القيام بدور فعال فى مقاومة إسرائيل . إن حرصنا على أعلى درجة ممكنة من الوحدة بين العرب فى الظروف الراهنة يمنعنا من ضرب الأمثلة من واقعنا المر . ويكفى أن نشير إلى أن إصرار بعض النظم على الاعتماد فى التسليح على أمريكا وبريطانيا يشل من قدراتها العسكرية . كما أن المصالح البترولية تقيد حركة البعض الآخر . كذلك البلد العربى الذى يتبنى الرأسمالية لابد أن يرتبط بالاستعمار . وقد عرضنا طويلاً لعلاقة إسرائيل بالاستعمار . ولهذا فلابد أن تكون مقاومة مثل هذا البلد لمخططات الصهيونية والاستعمار محدودة ومحصورة . ومرة أخرى لا داعى لضرب أمثلة تعرفها الشعوب العربية جيداً . ويجب ألا نهدر بأنفسنا حقيقة اقتنعت بها أقسام واسعة من الرأى العام العالمى وهى أن العدوان الإسرائيلى استهدف

فى رأس أهدافه ضرب النظم التقدمية فى البلاد العربية . وأخيراً فإنه من العبث أن ننكر وجود صراع طبقى فى إسرائيل . فهذا كلام ينافى الواقع ويجافى حقائق العلم . فأى مجتمع حتى ولو كان ذا طابع مؤقت لابد أن ينشأ فيه صراع طبقى ما دام هناك مستغلون وضحايا للاستغلال . وشعور الإسرائيليين السائد هو أنهم يقيمون مجتمعاً دائماً وليس موقوتاً . ونفى الصراع الطبقى داخل إسرائيل ينتهى فى التحليل الأخير إلى نفى وجود ظاهرة استغلال اجتماعى واقتصادى هناك . وهكذا يصل الأمر بأصحاب هذا الرأى إلى تأييد الصهيونية فى أكبر أكاذيبها ألا وهو ادعاؤها أن المجتمع الإسرائيلى اشتراكى ، أو أنه لا يعرف الاستغلال . ومن المهم أن ننبه هنا إلى أن تصرف الجماهير تصرفاً ينافى مقتضيات الصراع الطبقى لا ينفى حقيقة وجود ذلك الصراع . فعشية الحرب العالمية الأولى أعلنت الأحزاب الاشتراكية الأوربية أن الحرب التى يعد لها حرب استعمارية لا مصلحة للشعوب فيها ، وقررت أنه إذا اندلعت الحرب فلا بد أن تقاومها الشعوب والحركات العمالية وأن تتآخى عبر خطوط القتال . ولم ينفذ هذا القرار إلا الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى . ولم يكن معنى ذلك أن الصراع الطبقى لم يكن موجوداً فى ألمانيا أو فرنسا أو بريطانيا . فمن الممكن دائماً أن يوجد فرق بين واقع الصراع الطبقى وبين أشكال التعبير عنه .

ويقول بعض الاشتراكيين العرب إن المواطن الإسرائيلى رجعى بالضرورة . لأنه لو كان يهودياً تقدمياً لأدان الصهيونية ولرفض الهجرة ولبقى فى موطنه الأصيل يناضل إلى جانب القوى التقدمية فيه . وهذا تبسيط شديد للأمور ، ونفى كامل لآثار التضليل واحتمالات انخداع الجماهير . وبهذا المنطق كان يتعين اعتبار الأغلبية الساحقة من الألمان رجعيين أصلاء ، لأن الواقع التاريخى هو أن الحزب النازى قد حصل ، لعدة سنوات ، على تأييد شبه إجماعى فى ألمانيا ، وكان معارضوه قلة

معدودة . كما أن هذا الرأى يغفل تماماً العوامل التى ساعدت فى أوربا الدعوة الصهيونية ، وفى مقدمتها عمليات إبادة اليهود والتنكيل بهم فى ظل سيطرة هتلر على أوربا كلها . وأخيراً فإن هذا الرأى يفترض الجمود المطلق فى مواقف الناس الاجتماعية والفكرية . فصاحب الفكر الرجعى يستحيل أن يتطور تفكيره إطلاقاً ، بل لابد أن يظل رجعياً إلى الأبد ..! وهذا سخف يستغرب أن يروج له قوم عاشوا هم أنفسهم تجربة التطور الفكرى وتبنوا الاشتراكية فى نهاية مسيرة سياسية طويلة كانت بدايتها عند البعض منهم على الأقل مواقف رجعية بل فاشية أحياناً . وأخيراً هم ينظرون إلى التقدمية نظرة مجردة منبتة الصلة بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، متناسين أن الأصل فى الفكر الاشتراكى أن الناس يميلون إلى الأفكار التقدمية أساساً لأنهم ضحايا استغلال اقتصادى أو قهر اجتماعى أو قومى أو ثقافى . والمجتمع الإسرائيلى حافل بأشكال من القهر لا تنفرد الأقلية العربية بتحمل آثارها .

وفى الطرف المقابل تماماً ، نجد رأياً شائعاً بين صفوف اليسار الأوربى وله أصداؤه فى الوطن العربى يقول إن حل القضية كلها يكمن فى التحليل الأخير فى انتصار القوى الاشتراكية داخل إسرائيل وتصفيتها للأيديولوجية العنصرية وللتبعية الاستعمارية وإقبالها على التعاون مع الشعوب العربية. وهنا أيضاً نصطدم بقدر كبير من التبسيط والتجريد . وفى تقديرنا أن إسرائيل ، كأى مجتمع ، بها صراع طبقى ، وأن مصالح الكادحين ضحايا الاستغلال هناك تتفق فى النهاية مع مصالح الشعوب العربية . فالمصلحة المؤكدة لكل شعوب العالم هى تصفية الاستغلال بكل صوره . ولكن هذا الصراع الطبقى لا يجد فى الواقع اليومى تعبيراً صادقاً عنه . بل إن هناك عوامل كثيرة تطمس هذا الصراع ، كما أن القيادات التى تمثل الفئات والطبقات العاملة تضللها وتقودها فى طريق

العنصرية والتبعية للاستعمار . وأهم عامل فى طمس معالم الصراع الطبقى هو العنصرية . وتجربة الأمم أمامنا غنية بالدروس . ففى الجزائر كان فقراء المستوطنين الفرنسيين فى معظم الأحوال أشد عداء للثورة الجزائرية من كبار الاحتكاريين . ومنهم وجدت منظمة الجيش السرى العدد الكبير من الأعضاء الذين حولتهم إلى قتلة ومخربين . وفى الولايات المتحدة الأمريكية نجد صغار المزارعين البيض أعنف فى موقفهم من السود من الاحتكارى الكبير روكفلر ، وهم الذين يشكلون قاعدة منظمة « كو — كلوكس — كلان » الإرهابية المتخصصة فى قتل السود أو إحراقهم أحياء . وفى إسرائيل يحس المواطن العادى بأنه مدين بكل شىء للتنظيم الصهيونى العالمى . فالصهيونية هى التى أقامت دولة إسرائيل . وهى التى ساعدت على الهجرة ووفرت للمهاجر الأرض أو العمل . كما أنها تقنعه بأنها ردت إليه كرامته كإنسان وخلصته من ذل استمر قروناً ، وتحميه اليوم من خطر الإبادة أو الطرد من أرض الميعاد . ولذلك فإن نفوذ الصهيونية واسع وعميق . ويساعد على ذلك ما اتسمت به الحركة الصهيونية من مرونة جعلها تستوعب فى أحضانها اتجاهات سياسية مختلفة ، بما فى ذلك أولئك الذين استعاروا من الماركسية بعض أفكارها وتصدوا لمهمة مستحيلة هى التوفيق بينها وبين الصهيونية . لكل ذلك ما زال للموقف العنصرى الغلبة والتقدم على الموقف الطبقى . وتلك حقيقة يجب أخذها فى الحسبان . ومن ناحية أخرى يؤدى الوضع الاقتصادى الشاذ لإسرائيل إلى حرف الصراع الطبقى عن مجراه الأصيل . فالعامل الإسرائيلى ضحية استغلال بلا شك . وهذا كان من شأنه أن يحمله على الصراع ضد مستغليه . والشركات الكبرى ذات صلات استعمارية . ومن ثم كان من المنطقى أن يمتد نضال العمال فى اتجاه التحرر من السيطرة الاقتصادية الاستعمارية . ولكن العامل الإسرائيلى يدرك أن هذه

المصانع أقيمت دون سند مادى من موارد البلاد ودون ضرورة اقتصادية لأصحاب رأس المال . وأنه إذا تجاوز نضال العمال حدوداً معينة يمكن أن يسحب الرأسماليون الأجانب أموالهم . بل يمكن لرأس المال اليهودى نفسه أن يهرب إلى الخارج فينهار الاقتصاد الإسرائيلي ويجد العامل نفسه فى بطالة دائمة ويتعين عليه مغادرة أرض الميعاد ليجوب العالم مرة أخرى سعياً وراء العمل . ومن ثم فإنه حتى بين العمال الإسرائيليين يسود شعور بضرورة المحافظة على العلاقة بالدول الاستعمارية وبالاحتكارات العالمية . ويغذى هذا الشعور بلا شك الدعاية الصهيونية التى تلح على أنه بدون العلاقات الخاصة مع الاستعمار الغربى يدمر العرب إسرائيل ويهلكون الحرث والنسل . والطبقة العاملة الإسرائيلية ما زالت محرومة من تنظيم نقابى سليم يدافع عن حقوقها لأن الهيستادروت ليس اتحاداً للنقابات وإنما اتحاد للعمل على الطريقة الفاشية يضم العمال وأصحاب الأعمال ويمارس نشاطاً رأسمالياً واسعاً يتمثل فى امتلاك « الكيبوتز » وكثيراً من المصانع والمحال التجارية . والأحزاب « العمالية » أحزاب صهيونية نقطة البدء فى تفكيرها موقف عنصرى . وخطوطها السياسية ليست إلا تنويعات على لحن واحد . ولا يشذ عن هذا الوضع إلا حزب « راكاح » وهو الحزب الشيوعى العربى اليهودى الذى يقوده ماير فلنر وتوفيق طوبى . فهو يدين الصهيونية والعدوان والحروب التوسعية . وليس فى إسرائيل طبقة من الفلاحين الفقراء بالمعنى المفهوم . وإنما هناك مزارعون أعضاء فى الكيبوتز معظمهم لم تكن له صلة بالزراعة قبل الهجرة . مرتبطون بالهيستادروت . خاضعون فى أحيان كثيرة للجيش الإسرائيلى . يعيشون حياة هى أقرب إلى حياة المخيم العسكرى منها إلى حياة الفلاح .

ولكل ذلك فإن القوى التى تعادى الصهيونية والاستعمار داخل إسرائيل هى اليوم محدودة للغاية ، تكاد تنحصر فى حزب راكاح وبعض مجموعات

ضيقة من المثقفين ، وأثرها على الجماهير - وبالتالى على السياسة الإسرائيلية ضعيف بلا شك . ولكن علينا أن نحيي شجاعة موقفها ، وأن نشجعها بأن نؤكد أنها تسير فى الطريق السليم . وهنا لابد من جهد دعائى ينفى كل الاتجاهات العنصرية ويوضح أننا لا نريد القضاء على اليهود كأفراد ولا حتى على حقوقهم الإنسانية المشروعة ، وإنما نناضل ضد وضع إسرائيل كقاعدة صهيونية استعمارية . ولنقل بصراحة فى هذا المجال منعاً لكل تضليل أو بلبلة ، إننا لا نعد بين التقدميين إلا الإسرائيليين الذين يدينون العدوان ويطالبون بانسحاب القوات المعتدية ويقرون بحقوق شعب فلسطين ، ويستنكرون جوهر الفكر الصهيونى ألا وهو تحويل إسرائيل إلى وطن لكل يهود العالم على حساب شعبها العربى والشعوب المجاورة . وسيؤتى هذا الجهد الدعائى ثماره إذا دعمته أعمالنا النضالية . فحين ننجح فى ضرب القوة العسكرية لإسرائيل وتبديد أحلام فرض الإرادة بالقوة ، وحين نجبر القوات الغازية على الانسحاب ، وحين يتعاظم نضال الشعب الفلسطينى لابد أن ترتفع الغشاوة عن عيون جماهير واسعة فى إسرائيل فتعيد التفكير فى كثير مما تعتبره اليوم من المسلمات . وعندئذ يمكن أن ينمو اتجاه تقدمى فى إسرائيل .

٨

الحرية والاشتراكية والوحدة

تصفية الاستعمار من الوطن العربى

وفيما وراء كل الإجراءات العاجلة (إبراز دور الشعب الفلسطينى ، تصفية آثار العدوان ، محاصرة إسرائيل) يظل العمود الفقرى للاستراتيجية العربية فى مواجهة مخطط الصهيونية والإمبريالية هو بناء الوطن العربى سياسياً واقتصادياً وعسكرياً . لقد أصبح من قبيل التكرار القول بأن العدو استفاد من ضعفنا أكثر مما اعتمد على قوته . كما أن لقوة العدو عناصر يجب تحليلها وفهمها وإعداد ما يقابلها فى الوطن العربى .

وحجر الزاوية فى بناء بلادنا هو تصفية الاستعمار ، هو القضاء على مصالح الإمبريالية ونفوذها فى كل شبر من الأرض العربية . وليس هذا الكتاب مجال الحديث المطول عن الإمبريالية وجرائمها . ونحن من واقع تاريخنا نعرف ما صنع الاستعمار بنا . ونحن نقف فى وضوح وصراحة ضد أساليب الاستعمار الجديد ، ونرفض تماماً كل الدعاوى التى تروج له ابتداء من تلك التى تزعم أن الاستعمار قد اختفى من العالم إلى تلك التى لا ترى ضيراً — بل ربما رأت خيراً — فى نشاط الشركات الاحتكارية أو فى وجود القواعد العسكرية الأجنبية . ولكن ليس هنا مقام التدليل على حقائق تؤمن بها الغالبية الساحقة من الأمة العربية ، ولا يجادل فيها إلا نفر قليل بدافع من المصلحة الشخصية أو الطبقية أو لقصر فى النظر يصل إلى حد فقدان البصيرة . وإنما نذكر بأن التقدم الاقتصادى

والاجتماعى والثقافى ودعم القوة العسكرية والسير فى طريق الوحدة القومية ، أمور غير متصورة إلا فى إطار التخلص من السيطرة الإمبريالية ونفوذها . تلك الإمبريالية التى مزقت أراضينا ، وفرقت صفوفنا ، ودعمت أكثر القوى الاجتماعية تخلفاً بين ظهرانينا ، وحرصت على أن نبقى مصدراً للمواد الأولية اللازمة لصناعتها وسوقاً لمنتجاتها الصناعية ومرتعاً لرؤوس أموالها الجشعة ، وعملت ما وسعها الجهد على أن يستمر التخلف الحضارى فى أرض الحضارات . إن التحرر من الإمبريالية هو قبل كل شىء استرداد لحرية الإرادة الوطنية لتبنى الشعوب العربية مستقبلها على النحو الذى تبتغيه.

ولقد عرضنا فى الفصول الأولى من هذا الكتاب لعلاقة إسرائيل بالاستعمار . فقلنا إن الصهيونية فى ذاتها ظاهرة استعمارية تشكل جزءاً لا يتجزأ من الإمبريالية العالمية ، وبينا دور الاستعمار فى إنشاء إسرائيل ودعمها بكل أشكال الدعم . كما أوضحنا أن إسرائيل تمثل فى نظر الإمبريالية التجسيد المادى للوجود الغربى الاستعمارى فى قلب الوطن العربى ، وتقوم فى نفس الوقت بدور « الانكشارية » فى حماية المصالح الإمبريالية فى البلاد العربية . ولكل هذا كانت إسرائيل فى التحليل الأخير قاعدة عدوانية للصهيونية والاستعمار . ولذلك فإن النضال ضد الاستعمار والنضال ضد إسرائيل وجهان متلازمان لا يمكن بحال الفصل بينهما . وثمة أدلة إضافية تؤكد هذا المعنى الأصيل . فمن المعروف أن القواعد العسكرية الأجنبية فى البلاد العربية أسهمت بطريقة أو بأخرى فى عدوان ١٩٥٦ الثلاثى ، وكذلك فى عدوان ١٩٦٧ . فكيف نتصور أن ندخل فى صدام مسلح مع إسرائيل اليوم أو غداً دون أن نضع تقديراً لاحتمال استخدام تلك القواعد مرة أخرى ؟ وبالمثل كيف نعتمد اعتماداً كلياً فى التسليح على الدول الغربية ، وعلى أمريكا وبريطانيا بالذات ، وهى تعلن بوضوح أنها تبيعنا السلاح — وهذا مصدر ربح لها — بشرط أن تكون قوة إسرائيل

العسكرية أكفأ من مجموع القوى العسكرية للدول العربية ؟ ! وكيف يمكن أن نربط اقتصادنا كله باحتكارات عالمية ضالعة مع الصهيونية ؟ وعبثاً أن نعود فنظن أن تأييد الدول الاستعمارية لإسرائيل مرده نفوذ اليهود فى تلك الدول . فهذا ما تكذبه تصريحات المسئولين الرسميين فيها . كما أن اليهود موجودون فى بلاد أخرى مثل الاتحاد السوفييتى ولم يكن لهم نفس الأثر . أما إذا كان المقصود هو النفوذ الصهيونى ، فإن الصهيونية ذاتها حركة استعمارية، هى جزء لا يتجزأ من الإمبريالية العالمية . وكل حديث عن النفوذ الصهيونى يجب أن يكون المقصود به نفوذ مجموعة إمبريالية فى إطار الإمبريالية العالمية تجمعها بها المصالح الأساسية ولا تفرقها إلا تناقضات ثانوية .

إن كل قوة للاستعمار العالمى فى أى ركن من الوطن العربى هى فى الحال أو الاحتمال قوة لإسرائيل . وليس هذا مقصوراً على القوة العسكرية فقط ، ولكنه يصدق أيضاً على مراكز الاستعمار الاقتصادية . فلا ينبغى أن يخفى على أحد ، مثلا، أن جزءاً لا يستهان به من الأرباح التى تحققها الاحتكارات البترولية من الثروة العربية يؤول إلى الصهيونية فى شكل أرباح واكتتاب فى سندات الدولة الإسرائيلية وهبات خالصة ... إلخ . وللولايات المتحدة القدح المعلى فى هذا المضمار . فهى السند الرئيسى لإسرائيل تمدها بالمال والسلاح وتساندها بالقواعد العسكرية وبالأسطول السادس . وهى فى هذا لا تصدر فقط عن اعتبارات محلية تتعلق بأوضاع منطقة الشرق الأوسط ، ولكنها تستوحى استراتيجيتها العالمية . فقد تصدت واشنطون لتقوم بدور الشرطى العالمى فى الدفاع عن « العالم الحر » ضد حركات التحرر الوطنى والتغيير الاجتماعى فى مختلف بقاع الأرض . وبالتطبيق على هذا المبدأ تسعى الولايات المتحدة للحلول محل كل دولة استعمارية يتقلص نفوذها وتضطر إلى الانسحاب . فبعد هزيمة فرنسا فى

فيتنام واضطرارها إلى الانسحاب سنة ١٩٥٤ من الهند الصينية سارعت أمريكا للحلول محلها . وفى سنة ١٩٥٧ ظهر « مشروع أيزنهاور » الشهير الذى أعلن أن انسحاب بريطانيا وفرنسا وتراجع نفوذهما عقب عدوان ١٩٥٦ قد ترك فراغاً فى منطقة الشرق الأوسط يتعين أن تشغله أمريكا . وكان تدخل الأسطول السادس فى لبنان سنة ١٩٥٨ تطبيقاً بليغ الدلالة لتلك السياسة . وإسرائيل فى نظر أمريكا هى القاعدة التى ترتكز إليها فى مد نفوذها فى المنطقة ، لأنها المخفر الأمامى للاستعمار الأمريكى فى قلب الوطن العربى . وإذا كان دور بريطانيا فى هذا المجال قد أصبح مفضوحاً لا يحتاج إلى معاودة التذكير بتاريخها فى صنع إسرائيل ، فإن الدور الهام الذى لا تسلط عليه أضواء كافية هو ذلك الذى تقوم به ألمانيا الغربية . لقد قدمت حكومة بون من المال والسلاح لإسرائيل بالمجان ما لم تقدمه أى دولة أخرى . « فتعويضات » ألمانيا الغربية لإسرائيل هى فى حقيقتها هبات تجاوزت قيمتها كل ما حصلت عليه الدولة الصهيونية من منح أمريكية وتبرعات جمعتها المنظمات الصهيونية . وتمثل جزء أساسى من تلك التعويضات فى أسلحة فتاكة تقدمها تلك الدولة التى لا تستحى مع ذلك من ادعاء صداقتها للعرب . ومن خلال الشركات الألمانية العاملة فى البلاد العربية تنشط الجاسوسية الإسرائيلية . فضلا عما تقدمه المخابرات الألمانية من خدمات لمخابرات إسرائيل تكاد تفوق تلك التى تقدمها لها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية . وكل هذا أمر منطقى تماماً ، لأنه يندرج تحت فكرة اعتبار الاستعمار الغربى لإسرائيل تجسيداً لوجوده فى أرض العرب وقاعدة أمامية «للعالم الحر» . ويجب أن نرتب نحن هذا على الواقع نتيجة رئيسية ألا وهى أن تصفية كل موقع استعمارى فى بلادنا هى ضربة موجهة إلى إسرائيل . بل أكثر من هذا ، إن قواعد النضال السياسى ، كقواعد العمل العسكرى ، تقتضى أن نوجه ضرباتنا للعدو فى أضعف مواقعه .



ولا شك أن إسرائيل بقدراتها العسكرية هي أقوى مواقع الاستعمار . ولذلك فإن حصر النضال العربى فى نطاق النضال ضد إسرائيل وحدها معناه مواجهة العدو فى أقوى مواقعه وإهمال نقاط الضعف فى خطوطه . وسلامة النضال العربى ونجاحه تتوقف على مقدرتنا فى أن نصفى أولا بأول أضعف المواقع الاستعمارية . ولذلك فإن النضال من أجل الاستقلال الكامل لبقية الأقطار العربية وتصفية القواعد العسكرية الاستعمارية يجب أن تكون فى قمة جدول أعمالنا . فتلك أهداف ممكنة التحقيق فى مستقبل قريب ، وآثارها فى علاقات القوى فى المنطقة بالغة الأهمية .

وتلعب إسرائيل من جانبها دور « الانكشارية » فى حماية المصالح الاستعمارية . فهى تستنفد جزءاً ضخماً من طاقات النضال العربى ، وكثيراً ما تعتدى للإطاحة بالنظم المعادية للإمبريالية ، وتضرب بعنف عند كل منعطف حاسم فى طريق الثورة العربية . وبقدر نجاحها فى هذه المهمة تلقى المزيد من التأييد الاستعمارى . وبمفهوم المخالفة بقدر نجاح العرب فى التصدى لقوتها العسكرية ورد هجماتها العدوانية والانتصار عليها عسكرياً فى بعض المواقع ، بقدر ما تفقد من تلك الأهمية . ومن ناحية أخرى يتناسب التأييد الاستعمارى تناسباً طردياً مع أهمية مصالح كل دولة استعمارية فى البلاد العربية وبصفة خاصة فى الشرق العربى . ولنا فى موقف فرنسا دروس عميقة المعانى . لقد حاربت فرنسا إلى جانب إسرائيل ضد مصر سنة ١٩٥٦ ، ثم وقفت موقف الحياد سنة ١٩٦٧ ، ثم أصبح هذا الحياد متسماً بالعطف على قضية العرب فى ١٩٦٩ . إن النظرة الذاتية والشخصية لقضايا السياسة تجعل الكثيرين منا يفسرون هذا التغيير فى موقف فرنسا بالتغيير فى الأشخاص . فجى موليه عميل للصهيونية وديجول رجل مبادئ . ولكن تلك النظرة ساذجة وفجة . فالديجوليون فى البرلمان الفرنسي لم يعارضوا حملة السويس سنة ١٩٥٦ . وإنما أساس التغيير هو

أن السنوات الإحدى عشرة قد شهدت حدثاً ضخماً هو انتهاء حرب الجزائر بانتصار الشعب الشقيق وإعلان استقلاله . ففرنسا اشتركت فى حملة السويس لا حباً فى إسرائيل وإنما انتقاماً من تأميم شركة قناة السويس ، وسعياً لضرب ثورة فرنسا فى نهاية الأمر عن طريق النصر فى السويس . ذلك أن تحرر الجزائر بعد أن ظلت مائة وثلاثين عاماً تعتبرها مجرد أربع مقاطعات فرنسية كان أمراً ترفض الطبقات الحاكمة مجرد تصوره . أما الآن وقد صفيت المواقع الاستعمارية الفرنسية فى الوطن العربى ، فلم يعد لإسرائيل أهميتها الحيوية فى نظر باريس ككلب حراسة . وأدركت أقسام واسعة من الرأسمالية الفرنسية أنها لم تخسر الجزائر فحسب ، وإنما كانت حرب السويس كارثة على كل مصالحها الاقتصادية فى الشرق العربى . فقد دفعت باعتبارها الشريك الأصغر فى المغامرة الاستعمارية أبهظ الأثمان . وبينما نجحت بريطانيا فى استرداد بعض مواقعها ظلت فرنسا خارج الصورة . وتجلى هذا فى أزمة لبنان سنة ١٩٥٨ .ففرنسا منذ عدة قرون تحرص على أن يكون لها علاقة خاصة بالقطر الشقيق ، أيا كان الشكل الذى تمارس به تلك العلاقة . ولكنها فى تلك الأزمة لم تملك أن تحرك ساكناً وحلت أمريكا محلها ، باستعراض القوة أولا ، وبمد النفوذ الاقتصادى والسياسى ثانياً . ولذلك كان طبيعياً أن يتبلور فى فرنسا اتجاه نحو استعادة العلاقات الاقتصادية والثقافية مع البلاد العربية . وكان طبيعياً أن يرفض أصحاب هذا الاتجاه أن تقف المطامع التوسعية الإسرائيلية عقبة فى سبيل التعامل مع سوق تضم قرابة مائة مليون وأرض تضم ثروات ضخمة . وساعد على دعم هذا الاتجاه أنه يتفق تماماً مع سياسة فرنسا إزاء العالم الثالث بعد تصفية وضع المستعمرات الفرنسية فى إفريقيا ، هذا الاتجاه الذى يقوم على محاولة إنشاء علاقات اقتصادية وثقافية مع القوى الجديدة التى ناضلت من أجل الاستقلال بدل مناهضتها

بقوة السلاح ، تلك المناهضة التى ليس لها من نتيجة فى النهاية إلا المزيد من الثورية لدى حركة التحرر الوطنى والمزيد من الارتباط بالمعسكر الاشتراكى . ومن المعروف مثلا أن ديجول كان يرى أن تبنى كاسترو وأنصاره للماركسية اللينينية تم تحت ضغط التشدد الأمريكى ، وأن السياسة الفرنسية قد نجحت على العكس من ذلك ، فى المحافظة على علاقات مثمرة مع الجزائر بعد استقلالها ، برغم كل ما خلفته حرب السنوات السبع من مرارة لدى طرفيها . كذلك كانت سياسة فرنسا إزاء أزمة الشرق الأوسط تتسق تماماً مع سياستها الأوربية والعالمية التى تتمثل فى موقف استقلالى من أمريكا وتزعم لحركة الوحدة الأوربية . فإسرائيل تتحرك فى تعاون وثيق مع أمريكا وألمانيا الغربية ولم تصغ لنصائح فرنسا ، ولذلك فليس هناك ما يبرر وقوف فرنسا إلى جانبها ، وإلا كانت باريس تخدم فى النهاية فى الشرق الأوسط السياسة التى تقاومها فى أوربا وفى حلف الأطلسى . والمهم هو أن حجر الزاوية فى سياسة فرنسا كان عدم حاجتها إلى إسرائيل لتقوم بدور الانكشارية فى الوطن العربى . وهى كدولة غربية استعمارية تحرص على الوجود الإسرائيلى . وقد أكد ديجول أكثر من مرة هذا المعنى . ولكنها فى ظروف ١٩٦٧ لم تكن لها أية مصلحة فى التحرك العسكرى الإسرائيلى ، ولذلك لم تسانده . وكانت السياسة حكيمة ، إذ فتحت أمام فرنسا باب صفقات مربحة فى مجال السلاح والبترول ، فضلا عن أنها وفرت عليها أى تعقيدات فى الجزائر ، مورد تموينها الأساسى من البترول . ويمكن أن نقول إن موقف بريطانيا بدأ يتغير بعد انسحابها من اليمن الجنوبى وتقرير مبدأ الانسحاب من الخليج . ولولا ارتباط سياسة بريطانيا الخارجية على المستوى العالمى بالسياسة الأمريكية لكان موقف بريطانيا من أزمة الشرق الأوسط أكثر تطوراً .

ونخلص من هذا كله إلى أن تصفية المواقع الاستعمارية إضعاف لإسرائيل من زاويتين . من زاوية أن تلك المواقع تخدم إسرائيل ، ومن زاوية أن دور إسرائيل فى حمايتها يزيد من مساندة الاستعمار للدولة الصهيونية . وهذا التغيير فى أوضاع المنطقة لابد أن ينعكس على الأوضاع الداخلية فى إسرائيل . فضعف المواقع العسكرية للاستعمار يقلل من حرية حركة الصهيونية ، لأن إسرائيل قد تعودت أن تتحرك عسكرياً معتمدة على أن وجودها فى نهاية الأمر مصون بقوى الاستعمار العالمى وأن أقصى ما تخاطر به هو الإخفاق فى عملياتها التوسعية . فإذا تغير هذا الأساس يتعين عليها أن تفكر مرتين قبل أن تعتدى . وبالتالى تتضاءل فرص التوسع أمامها . وقد رأينا أهمية التوسع الإقليمى لاستمرار الوجود الصهيونى ذاته .

ومن ناحية أخرى ضعف اهتمام الاستعمار بإسرائيل لابد أن يقلل من حجم ما تحصل عليه من معونات ، وقد سبق أن رأينا أن تلك المعونات الهائلة هى التى مكنت إسرائيل من الحياة والنمو حتى الآن دون توسع إقليمى منتظم . وبالتالى فإن انكماشها سيؤدى إلى ضائقة اقتصادية فى إسرائيل وتدهور فى مستوى المعيشة من شأنه أن يدفع إلى الهجرة منها بشكل يصفى جزئياً وجودها السكانى . كذلك تحرر تصفية المواقع الاستعمارية الإرادة العربية . وهذا واضح تماماً فى وضع القواعد العسكرية. ولكنه حقيقة أيضاً فيما يتعلق بالمواقع الاقتصادية الاستعمارية وبالذات البترول. إن المصالح البترولية فى البلاد العربية هى أهم المواقع الاقتصادية للاستعمار الأمريكى . فأمريكا تملك حوالى ٦٤ ٪ من رؤوس الأموال الأجنبية المستثمرة فى البترول العربى . وهى مصدر أرباح ضخمة يسيل لها اللعاب . وأمريكا تستخدم تلك المصالح فى تفريق الصف العربى على أساس دول غنية ودول فقيرة ، كما أنها تحنو على إسرائيل لأنها فى نظرها الحارس الأمين على تلك المصالح . ويوم ينجح العرب فى تأميم

البترول ، أو تأميم المصالح الأمريكية على الأقل ، ستفقد إسرائيل جزءاً كبيراً من أهميتها فى نظر الولايات المتحدة . إن البترول يلعب حالياً فى تحديد سياسة أمريكا فى المنطقة الدور الذى كانت تلعبه ثورة الجزائر فى تحديد سياسة فرنسا إزاءها سنة ١٩٥٦ . والبترول العربى يتميز بوضع استثنائى يسهل تأميمه . فالمستهلك الأساسى له هو أوربا الغربية ، فى حين أن المساهم الأساسى فى رأس المال الأجنبى المستثمر فيه هو أمريكا. ولذلك فلن تكون هناك مقاطعة فعالة للبترول العربى غداة تأميمه، لأن أوربا سيكون من مصلحتها أن تشترى البترول العربى باستمرار . وهى لن تضار بالتأميم بحيث تقف منا موقف العداء . بل إنه يمكن أن تشترى بشروط أفضل . فنى وسع العرب أن يخفضوا بعد التأميم سعر البترول بنسبة ٢٥ ٪ مثلا ، ومع ذلك يزيد دخلهم منه لأنهم سيستولون عندئذ على نسبة ٥٠ ٪ من الأرباح التى تستولى عليها حالياً الاحتكارات العالمية .

فما أعظم ضلال أولئك الذين يحلمون بإمكان كسب تأييد الدول الاستعمارية ضد إسرائيل ! إن الدولة الصهيونية جزء من الظاهرة الإمبريالية العالمية لا يمكن فصلها عنها . ومحاولة كسب التأييد الاستعمارى بزيادة حجم المصالح الاستعمارية فى الأراضى العربية هو فى التحليل الأخير تسليم بأهداف الاستعمار والصهيونية . فالاستعمار يساند إسرائيل لحماية مصالحه . فإذا حصل على مزيد من المصالح ، فإن تمسكه بإسرائيل سيزيد لأنه يعلم أن الشعوب لن تسكت عن الاستغلال الاستعمارى ، بل لابد أن تتمرد عليه . ومن ثم لابد من تقوية «الانكشارية» لمضاعفة الحراسة . كما أن ضغط المصالح الاستعمارية على الدول العربية يشل من حرية حركتها فى مواجهة إسرائيل . إن الاستعمار لا يمكن أن يكون حتى فى موقف المحايد فى هذا الصدام ،

لأنه طرف أصيل فيه . وليس معنى ذلك أنه لا توجد تناقضات بين إسرائيل والدول الاستعمارية المختلفة . فالعلاقات الاستعمارية بطبيعتها حافلة بالتناقضات . ومن واجبنا ألا نهمل تلك الحقيقة وأن نحاول الاستفادة من التناقضات بقدر الإمكان ، ودون الجرى وراء خيالات كاذبة . فعاداتنا للاستعمار ليس معناها قطع كل علاقة تجارية أو اقتصادية أو ثقافية معه . ونحن نمارس تلك العلاقات فى الحدود التى تفيد اقتصادنا القومى ولا تهدد استقلالنا السياسى . وبالتالى يمكن أن نميز فيها دولة على دولة أخرى حسب درجة مساندتها لإسرائيل . وبهذا الشكل نؤكد التناقضات مثلا بين فرنسا وإسرائيل. ولكن لا يكون معنى ذلك التنازل عن حقوق سيادة لصالح فرنسا ، أو توهم أن فرنسا يمكن مثلا أن تقف إلى جانبنا إذا أصبح الوجود الإسرائيلى مهدداً ، أو حتى مجرد أمن إسرائيل . بل إنه من المتصور أن يوجد تناقض بين إسرائيل وأمريكا . فبعض الأوساط الحاكمة فى أمريكا لا تنظر بعين الرضا إلى ما تعتبره مطامع توسعية إسرائيلية مبالغاً فيها ، ولا تطمئن إلى أن تكون إسرائيل قادرة فى أى وقت على شن حرب خاطفة على جيرانها دون موافقة واشنطون . فالصهيونية فى إسرائيل لها مصالح استعمارية واضحة ، وهى ليست مجرد أداة فى يد الاستعمار ، فى حين أن إسرائيل فى نظر أمريكا يجب أن تكون قطعة شطرنج فى لعبة السيطرة العالمية ، قطعة ممتازة ولا شك ولكنها مجرد قطعة على كل حال . ومن هنا ليس عبثاً أن نحاول التأثير فى السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط . ولكن الخطر هو أن نتوهم لهذا التأثير أبعاداً كبيرة أو غير واقعية .

التنمية الشاملة

والفضيلة الكبرى للتحرر من السيطرة الاستعمارية هى استرداد

حرية الإرادة الوطنية . ولذلك فإن الاستقلال السياسي تكمن أهميته في أنه يفتح الطريق أمام ما كان مستحيلا بدونه . ويبقى بعد ذلك أن قيمته الحقيقية تتوقف في نهاية الأمر على ما نصنع بعد الحصول عليه . فالحرية في يد الشعوب ، كالحرية في يد الأفراد ، مكنة غنية بالاحتمالات . ولكن تحويل ما هو كائن بالقوة إلى قائم بالفعل يحكمه في النهاية كيف يستخدم الشعب حريته المستردة . وثمة بلدان في العالم الثالث في هذا النصف الثاني من القرن العشرين حصلت على الاستقلال السياسي ولكن حكامها يتمسكون بأذيال الاستعمار ، ويستجدون بقاء قواعد له (حتى بلغت الأمور في بعض الأحوال حد عرض تعويض المستعمر عما ينفقه على تلك القواعد . . !) ، ويتمسحون في حضارته ويصرون على الانتماء إلى « الكومنولث » أو « الجماعة الفرنسية » . . . إلخ . وفي مثل هذه الأحوال لا يعدو الاستقلال السياسي مجرد بعض الظواهر الشكلية : ألقاب رياسة الدولة ، العلم الوطني والنشيد ، وأحياناً شركة طيران تحمل اسم البلد وتملكها إحدى الشركات العالمية . ونحن حين نطالب باستكمال استقلال البلاد العربية ، إنما نريد أن تكون للشعوب العربية حرية تطوير حياتها جذرياً لتسترد مركزها بين الأمم المتقدمة التي تقدم للبشرية عناصر حضارة العصر وتفوز من ثمار انتصارات الإنسان العلمية والتكنولوجية بأعظم نصيب . بعبارة أخرى ، إن هدفنا هو تنمية المجتمع العربي . وقد استخدمنا عن قصد كلمة « التنمية » دون أن نلحقها بنعت « الاقتصادية » . فنحن نعني هنا التطوير الشامل لكل مظاهر الحياة العربية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية . إننا يجب أن نقضي على عقدة « التفوق الأوربي » التي تتيه بها إسرائيل . والصدام بيننا وبين العدو الصهيوني الإمبريالي لن يكون في كل لحظة من لحظاته صداماً عسكرياً خالصاً . بل إنه صدام حضاري بأوسع معاني تلك الكلمة .

فطموح إسرائيل فى السيطرة الاقتصادية على المنطقة مبنى على فكرة عجزنا عن استغلال مواردنا بأنفسنا لتخلفنا العلمى والتكنولوجى . وأملها فى الأسواق العربية قائم على الاقتناع بقصور الصناعة العربية عن تغطية تلك الأسواق . ومكانة إسرائيل فى كثير من الأوساط المثقفة فى العالم ترجع إلى دور العلماء والأدباء والفنانين الإسرائيليين فى كل مظاهر الحياة الفكرية العالمية . ونفوذ إسرائيل فى عدد كبير من بلدان العالم الثالث لا يرجع فى الأساس « للمال والجنس » كما كتبت بعض الصحف العربية أحياناً ، وإنما يرجع قبل كل شىء لقدرة إسرائيل على أن تقدم لتلك البلدان خبراء من مستوى عالمى يتميزون بالفاعلية والجدية ، ومشروعات مدروسة على أسس علمية . ويجب ألا نخدع أنفسنا عن شىء من ذلك كله . بل إن الصدام العسكرى نفسه أصبح فى عصرنا يعتمد إلى حد كبير على درجة تقدم المجتمع . فالأسلحة الحديثة آلية معقدة يقتضى استعمالها مستوى حضارياً معيناً . وإنتاجها وصيانتها وإصلاحها ، تفترض تقدماً صناعياً ملموساً . والحرب العصرية حرب شاملة تستلزم تعبئة اقتصادية كاملة غير متصورة فى ظروف التخلف الاقتصادى الشديد . . . إلخ .

التنمية ، بمعناها الواسع ، إذن هى البنيان الشامخ الذى يمكن أن يصمد لهجوم الاستعمار والصهيونية ، ثم يدحره ، ثم يصفى قواعده تصفية حاسمة وقاطعة . وحجر الأساس فى تلك التنمية الشاملة هو بلاشك التنمية الاقتصادية . فنشر التعليم ، والرعاية الصحية ، وتوفير السكن ، وتطوير البحث العلمى تبقى أحلاماً بعيدة المنال ما دام الشعب لا يملك الوسائل المادية لتوفيرها . فالزيادة المطردة فى الإنتاج بمعدلات عالية هى وحدها التى تضمن اضطراد الزيادة فى الدخل القومى وارتفاع مستوى المعيشة وتوفر الإمكانية الموضوعية لانطلاقة حضارية تمكن العرب من تصفية مخلفات قرون من القهر والتخلف . وضرورة هذه التنمية الاقتصادية هى التى

تفرض الحل الاشتراكى فرضاً . ذلك أنه فى ظروف عالم اليوم يعجز النظام الرأسمالى عجزاً مطلقاً عن إحداث تنمية اقتصادية جدية ومنتظمة. وليس هنا مجال الإفاضة فى التدليل على ذلك . وإنما يكفى التذكير بأن التنمية الرائعة التى تمت فى البلدان الرأسمالية المتقدمة جرت فى ظروف يستحيل تكرارها اليوم . فقد بدأت فى غربى أوربا فى وقت كان العالم كله يجهل الصناعة الحديثة واستفادت من عمليات نهب المستعمرات ، واعتمدت على استغلال بشع للطبقة العاملة (١٢ ساعة عمل فى اليوم وأجور بالغة الانخفاض . . . إلخ) . أما اليوم فالبلدان النامية تبدأ التصنيع بعد أن سبقتها إليه دول صناعية كبرى . وهى لا يمكن أن تستغل شعوباً أخرى ، ومن المستحيل أن تفرض على شعوبها ما عاناه الشعب الإنجليزى مثلا فى النصف الأول من القرن الماضى . وفى العصر الحديث النموذج الوحيد للتنمية الاقتصادية هو النموذج الاشتراكى ، لأن الملكية العامة وما تتيحه من إمكانية التخطيط ، وما توفره من تعبئة جماهيرية فى خدمة الإنتاج تعطى فرصاً ضخمة لتطور اقتصادى سريع ومنتظم . ولكل ذلك فاختيار طريق الاشتراكية ضرورة تمليها اعتبارات النضال الوطنى من أجل التقدم ، بقدر ما تبررها اعتبارات العدل الاجتماعى وتفسرها النظرة العلمية إلى تطور المجتمع البشرى .

إن الاشتراكية هى طريق التنمية ، طريق بناء الوطن العربى اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً لتلحق بركب التقدم ولتقف على نفس المستوى العلمى والتكنولوجى الذى يقف عليه العدو . إن هذا البناء هو العمل الحاسم فى تاريخ الصدام العربى الصهيونى ، وطريقه الوحيد هو الاشتراكية . ونود أن ننبه هنا إلى خطر الخلط بين الغنى والنمو الاقتصادى . فارتفاع متوسط الدخل القومى ليس دليلا مطلقاً على التنمية الاقتصادية . ومن المعروف أن هذا المتوسط أعلى فى أبى ظبى مثلا منه فى الولايات المتحدة

الأمريكية ، بأى طريقة كان حساب الدخل القومى . ولا يزعم أحد أن الإمارة العربية الصغيرة أكثر تقدماً من أمريكا . وحتى لو تم توزيع الدخل القومى بطريقة معقولة تسمح بارتفاع حقيقى فى مستوى معيشة الجماهير الشعبية ، فإن هذا لا يعنى أن هناك تنمية اقتصادية . فلا تنمية بدون تصنيع . وحين يعد بلد معين نفسه غنياً لأنه يحصل على عوائد عالية مقابل تسليم ثروة طبيعية مثل البترول للاحتكارات العالمية الكبرى ، فإنه بالرغم من ارتفاع مستوى المعيشة لا يحقق التنمية الشاملة بمعناها الحضارى الواسع . فمصدر الثروة ، وهو البترول مهدد بعوامل شتى : نضوب الآبار ، انخفاض سعر البترول بشكل حاد على أثر اكتشاف حقول بترول وغاز طبيعى متعددة وغنية (مثل حقول سيبريا ، وآلاسكا وجنوب شرقى أستراليا وتسمانيا ، التى يقول الخبراء إنها لا تقل غنى عن حقول الشرق الأوسط) أو نتيجة للتوسع فى استخدام مصدر جديد للطاقة مثل الطاقة النووية . وليس أدل على أن هذا الوضع لا يؤدى إلى تنمية حقيقية من أنه بدل أن يقود إلى استقلال اقتصادى فعلى يؤدى إلى مزيد من الارتباط بالاستعمار . فالاعتماد على عائدات البترول وحدها يجعل الدول المنتجة تحت رحمة أى تهديد بالمقاطعة أو بتخفيض الإنتاج . كما أن الدخل الضخم الذى يتدفق فجأة مع تدفق البترول يدفع إلى الإنفاق البذخى ولاينمى أى اتجاه نحو الادخار والاستثمار ، لأنه يخلق شعوراً يماثل شعور من عثر على كنز يظن أنه لا ينفد. وحتى حين يدخر الحكام أو الحكومات يتخذ الادخار أساساً شكل الإيداع فى البنوك العالمية مع ما يتضمنه ذلك من خطر تجميد تلك الودائع فى حالة الصدام مع الاستعمار . وكلنا نعرف أن الدول الغربية جمدت الحسابات المصرية فى بنوكها ، مثلا ، غداة تأميم شركة قناة السويس سنة ١٩٥٦ . وربما كان من المفيد أن نشير هنا إلى أن الدول الاستعمارية تحصل فعلياً على

أكثر من ٥٠ ٪ من أرباح البترول . وهى على أية حال تسترد الجزء الأعظم مما تحصل عليه الدول المنتجة فى شكل بيع سلع استهلاكية إليها أو فى شكل ودائع لتلك الدول فى بنوك الدول الاستعمارية . وأخيراً فإن هذا الغنى لا يحقق التقدم الحضارى المنشود ، بل إنه يستخدم عادة فى المحافظة على هيكل اجتماعى متخلف سياسياً وثقافياً واجتماعياً .

حقيقة القومية العربية

كثيراً ما نقول إننا مائة مليون عربى ، ولا بد بالتالى أن نتغلب على المليونين ونصف المليون من الإسرائيليين . وتقفز الدعاية الصهيونية لتستفيد مما نقول فتصرخ فى الرأى العام العالمى : انظروا إنها قصة داود وجوليات من جديد ، إن الجموع العربية الزاخرة تزحف لتقضى على الدولة الصغيرة المسالمة . ثم يقع الصدام فإذا « الحمل الوديع » ينكشف عن معتد أثيم ، قادر على أن يهزم الدول العربية الأربع عشرة . فهل نستغرب بعد ذلك أن تشيع البلبلة فى صفوفنا ، ويسود الخلط دوائر واسعة من الرأى العام العالمى؟إننا مرة أخرى نخلط ما هو ممكن بالقوة بما هو قائم بالفعل. فالقومية العربية حقيقة علمية ، بمعنى أن العرب يكوّنون أمة واحدة . وشعور الجماهير الفياض يفرض ذلك الواقع فرضاً فى كل المواقف الحاسمة وبغض النظر عن مواقف الحكام أو ذبذبة بعض الفئات الاجتماعية ، أو الجدل النظرى الذى يثيره بعض المثقفين . والوحدة هدف أصيل لكل الجماهير العربية فيما وراء كل النزعات الإقليمية التى تطفو على السطح فى بعض الظروف هنا أو هناك ، تلك النزعات التى لا تختلف كيفياً من حيث الأهمية عن النزعات الإقليمية أو الطائفية التى نشاهدها داخل هذه الدولة العربية أو تلك . ولكننا نجد فى مواجهة هذا الهدف وما يثيره من طاقات نضالية ، واقع التجزئة وما يفرضه من قيود وحدود

على النضال العربى .

إن الأمة العربية لها من عدد السكان ، واتساع الأرض ، والموقع الجغرافى ، والموارد الطبيعية ، والتراث الحضارى ، ما يجعل من المتصور أن تحتل يوماً ما مكانة ممتازة بين الأمم . ولكن طريق الوحدة شاق ووعر . والقوى التى تقاوم الوحدة كثيرة وقوية : الاستعمار ، الصهيونية ، الرجعية ، الحكام وقادة الأحزاب الذين يؤثرون الانفراد بالسلطة فى دولة معينة على التضحية من أجل التوحيد القومى . كما أن هناك عقبات موضوعية فى طريق التوحيد . وفى مقدمة تلك العقبات التفاوت فى مستوى التنمية وأثره فى الفكر وفى خشية سيطرة الأكثر تقدماً ، النمو الاقتصادى المتماثل الذى يخلق تعارضاً فى المصالح بدل التكامل بينها ، انقسام الدول العربية إلى دول غنية (المنتجة للبترول) ودول فقيرة ، مخلفات واقع التجزئة الذى استمر أحياناً فترات طويلة (وبنوع خاص عزلة المغرب العربى عن المشرق العربى ، ثم محاولة عزل وادى النيل عن المشرق والمغرب جميعاً) ، الارتباطات والمواقع الاستعمارية التى ما زالت قائمة فى بعض أجزاء الوطن العربى . ويضاف إلى ذلك كله الخلاف الفكرى حول المحتوى السياسى والاجتماعى للوحدة القومية والذى ظل محوره لفترة طويلة : الوحدة قبل كل شىء ولو فى ظل النفوذ الاستعمارى أو حتى تحت قيادة الإقطاع أو البورجوازية ، أو الوحدة فى إطار تحررى وديمقراطى وتقدمى .

لقد جرت محاولات متعددة للسير فى طريق التوحيد القومى من الجامعة العربية إلى اتفاقيات الدفاع الثنائية إلى الوحدة المصرية السورية والاتحاد الهاشمى . ولم يكن التوفيق حليف تلك المحاولات فى أغلب الأحوال . وقد أعقب قيام الوحدة بين سورية ومصر ثم انفصامها نوع من الردة الإقليمية تمثل فى الانصراف إلى القضايا الداخلية فى كل بلد على حدة ، والإبقاء على التوحيد القومى فى حالة هدف بعيد وغامض أقرب

إلى الأمل الذى يداعب الأحلام منه إلى المقصد المحدد الذى يشغل الأذهان . ولكن نكسة يونية ١٩٦٧ كشفت النقاب مرة أخرى وبعنف ومرارة عن حقيقة وحدة المصير العربى ، وتجدد الشعور بأهمية التفكير المباشر فى الوحدة العربية . وظهرت فى الأفق فكرة وحدة الصف العربى على أوسع نطاق ، وفكرة وحدة الدول العربية التقدمية وحدها ، وفكرة التنسيق العسكرى بين الدول التى اعتدت عليها إسرائيل، وفكرة الوحدة من خلال الالتفاف حول العمل الفدائى . . . إلخ . والأمر الذى يجب أن نتفق عليه هو أن التوحيد القومى حتمية تاريخية تمليها حقيقة القومية العربية ووحدة المصير العربى ، وأن طريقه ليس مفروشاً بالرياحين . ولكن ثمة علامات على هذا الطريق ينبغى أن نتفق عليها ، لأنها مستمدة من واقع نضالنا ومن تجارب التوحيد القومى ومن حقائق عالمنا المعاصر :

١ — التوحيد القومى الشامل هدف استراتيجى يستغرق النضال من أجله سنوات طويلة . والمهم هو ألا نهمله لأنه بعيد التحقيق ، وإنما نتخذه بالفعل هدفاً استراتيجياً . بمعنى أنه يجب أن يحكم الكثير من تصرفاتنا الحاضرة والمستقبلة لتكون حركتنا فى اتجاهها الأساسى بحيث تقربنا منه لا أن تبعدنا عنه .

٢ — لن يتم التوحيد الشامل إلا على أساس تحرر كل أجزاء الوطن العربى ، واتجاه العمل الوطنى فى كل منها فى اتجاه ديمقراطى واشتراكى. فالوحدة العربية إما أن تكون تحررية وديمقراطية وتقدمية وإما لن تكون أصلا . فلن تكون وحدة يباركها الاستعمار أو يهيمن عليها الإقطاع أو تقودها الرأسمالية المستغلة ، فمثل تلك الوحدة لن ترحب بها الشعوب بل ستقاومها .

٣ — التنسيق بهدف تحقيق التكامل الاقتصادى يدعم النضال الوحدوى لأنه يحد من التناقضات الإقليمية ويقلل من التفاوت فى التنمية ويخلق

المزيد من المصالح المشتركة التى تضيق بالحدود الحالية بين الدول العربية .

٤ ــ لن يؤدى التوحيد القومى إلى قيام دولة عربية مركزية : فالتفاوت فى التنمية ، وواقع الخصائص الإقليمية ، وطبيعة التفكير المعاصر فى أسلوب إدارة الدول الكبيرة ، أمور تحتم كلها تغليب الأشكال الاتحادية أو الفيدرالية .

٥ ــ من الطبيعى أن تسبق التوحيد القومى الشامل إجراءات توحيد بين بعض الأقطار العربية المتجاورة ، ذات المصالح المتكاملة . ويجب أن ننظر إلى مثل تلك الإجراءات لا على أنها بديل للتوحيد الشامل ، بل على أنها خطوات فى طريقه . ذلك رهينة أن يكون المحتوى التحررى والديمقراطى والتقدمى واضحاً فى جميع الأحوال .

٦ ــ يجب الاهتمام بالجوانب الموضوعية وعدم التركيز على الشكل . فبدل السعى وراء أشكال توحيد دستورية لا تعبر عن الواقع بل تضيق عن احتوائه أو تكون ثوباً فضفاضاً لا يعنى شيئاً ، يجب أن نعنى بكل ما يرسى دعائم واقعية للتوحيد . فبرامج التعليم الموحدة ، وشبكات المواصلات ، ومشروعات التنمية المشتركة ، وزيادة حجم التبادل التجارى أبعد أثراً فى التمهيد للوحدة من « إنشاء قيادة سياسية مشتركة » أو محاولة التوحيد عن طريق وحدة الحزب الحاكم .

٧ ــ كل حديث عن الوحدة القومية يفقد معظم دلالته وجديته إذا لم يصطحب بإجراءات عملية لتحقيق الوحدة الوطنية فى داخل كل بلد عربى . إن القضية القومية لا يمكن أن تكون ملكاً لحزب معين أو لقيادة محددة . وكل من يظن أن انفراده بالسلطة فى بلد عربى يؤهله للانفراد بقيادة حركة التوحيد القومى يضل ضلالا بعيداً . إن الوحدة لا تنبع من الانقسام والتفتيت . ولا يمكن أن يكون من يفتت القوى الوطنية فى الداخل مناضلا جاداً فى سبيل الوحدة القومية ، لأن هذه الأخيرة غير متصورة

إلا على أساس أوسع تعاون بين قوى وطنية وثورية ذات منطلقات فكرية مختلفة وتجارب نضالية متباينة .

٨ — التوحيد القومى فى التحليل الأخير عملية نضالية. ولذلك فإن الطريق إليه لابد أن يمر بوحدة العمل النضالى فى معارك محدودة ومتوالية . وقد خلق عدوان يونية ١٩٦٧ أوضاعاً تقتضى عملا مشتركاً على النطاق العربى . ولذلك فإن وحدة العمل من أجل تصفية آثار العدوان محك حقيقى لصدق الاتجاهات الوحدوية وسلامة رؤيتها .

٩ — يظل الالتفاف حول نضال الشعب الفلسطينى ومساندته فى غير ما وصاية عليه محوراً أساسياً من المحاور التى تبنى عليها الوحدة القومية .

١٠ — الإجراءات الوحدوية يجب أن تتعدد وأن تتفاوت ولا يلغى بعضها بعضاً . فى المعركة من أجل تصفية العدوان يمكن أن نتصور مستويات متعددة من وحدة العمل العربى ، مستوى عال من التنسيق السياسى بين الدول العربية التقدمية يكمله ويسانده تنسيق شعبى بين القوى الثورية العربية ، تنسيق عسكرى بين الدول التى اعتدت عليها إسرائيل ثم مع الدول الراغبة فى المشاركة فى العمل العسكرى والقادرة على ذلك فى إطار تكوين ودعم الجبهة الغربية والجبهة الشرقية ، أشكال معاونة متعددة ومتنوعة من بقية الدول العربية تتناسب مع إمكانياتها الواقعية .

١١ — وأخيراً ، وليس ذلك أقل الأمور أهمية ، التوحيد عملية نضال شعبى . ولهذا فلا بد من نشاط فعال فى مجال اللقاء والتعاون والتنسيق على مستوى التنظيمات الشعبية ، السياسية والجماهيرية : الأحزاب ، النقابات العمالية ، منظمات الطلبة والشباب والنساء . . . إلخ .

٩

نحن والعالم

وحتى تكتمل صورة النضال العربى ضد مخططات الصهيونية والاستعمار ، لا بد أن نضعه فى محله الصحيح من أحداث العالم المعاصر وتياراته . فقد أصبح من نافلة القول الحديث عن دور وسائل الاتصال الحديثة وإلغائها للمسافات مما غدا معه من المستحيل عزل أى مشكلة جادة فى نطاق إقليمى محدود وبعيداً عن بقية البشرية كما كانت الأحوال عبر آلاف السنين . والمنطقة العربية بما لها من أهمية استراتيجية تجذب تقليدياً اهتمام كل القوى العالمية ، لأن كل تغيير جوهرى فيها له أثره على السياسة العالمية . والعدو الإسرائيلى يعتمد على أوسع نطاق على المساندة الخارجية . والاستعمار من ورائه طرف أصيل فى الصراع . ولكل ذلك فنحن لا نملك أن نتجاهل العالم الخارجى فلا ندخله فى حساباتنا ، فأثره على نضالنا مباشر وملموس . وسنة المناضلين فى هذه الحال هى أن يحددوا حلفاءهم الطبيعيين الذين تربطهم بهم مصالح مشتركة . ثم عليهم أن يبذلوا غاية الجهد ليحرموا العدو من أكبر قدر ممكن من القوى التى تسانده ، إما بكسبها بالكامل لقضية نضالهم أو لكسب عطفها أو ضمان حيدتها فى القدر الأدنى . فعزل العدو فى السياسة كما فى الحرب من القواعد الأولية للصراع . ولا شك أن هذا الجهد الشامل يفرض علينا أن نتكلم لغات متعددة ، حتى نتحدث مع كل طرف الحديث الذى يعنيه ويمس القضايا التى تشغله . وليس معنى ذلك أن ننافق ونقول هنا عكس ما نقول هناك كما تخيل البعض أنه يمكن أن نستعين بالدول الاشتراكية بأن نؤكد عداوتنا للاستعمار ، ونكسب عطف الإمبريالية بتأكيد معاداة الشيوعية .

فمثل هذا المنهج عبث يرتد إلى أصحابه بخسارة على كل الجبهات . وتعدد اللغات لا ينفى وحدة المضمون . فنضالنا له محتوى لا يمكن طمسه ، وإنما علينا أن نؤكد لكل طرف نخاطبه ، ذلك الجانب من نضالنا الذى يلقى لديه القبول والعناية فى ضوء ما يشغله من قضايا . وفيما يلى تفصيل وتدليل .

الدول الاشتراكية

إن الثورة العربية بأهدافها الثلاثة : التحررى والتقدمى والوحدوى جزء لا يتجزأ بطبيعة الأشياء من مجموعة التيارات الثورية التى تلتقى فى النهاية حول هدف رئيسى هو تخليص البشرية من كل أشكال الاستغلال والقهر . ولذلك فكل القوى الثورية فى مختلف بقاع الأرض حليف طبيعى لنا ، لأنها فى النهاية تستهدف نفس هدفنا . وانتصارنا تعزيز لنضالها ، كما أن وجودها ونضالها وانتصاراتها بإضعافها للإمبريالية تدعم النضال العربى . وفى رأس القوة الثورية فى عالم اليوم تقف مجموعة الدول الاشتراكية وفى مقدمتها الاتحاد السوفييتى . ولا شك أن حسن الفهم المتبادل بين الحلفاء شرط أساسى لتطوير التعاون بينهم . ولذلك فإنه من المفيد أن نناقش موقف الاتحاد السوفييتى سنة ١٩٤٨ قبل أن نشير إلى مواقفه التالية .

لقد صوت الاتحاد السوفييتى آنذاك إلى جانب قرار التقسيم فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ، ثم بادر بالاعتراف بدولة إسرائيل فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ . وبقى هذا الموقف غير مفهوم من أوسع الجماهير العربية . ومع تطور الصداقة العربية السوفييتية جرت العادة « على ترك هذا الموضوع الحساس جانباً » فى حين دفع هذا التطور كل أعداء تلك الصداقة وأعداء الشعوب العربية ، إلى القيام بمحاولات متكررة لاستغلال « موقف ١٩٤٨ » بقصد التشكيك فى الأسس المبدئية التى تقوم عليها

علاقاتنا بالاتحاد السوفييتى . وباسم هذه العلاقات الحيوية ولصالحها نطرح فى صراحة تلك القضية . وفى تقديرنا أن موقف موسكو فى ١٩٤٧/ ١٩٤٨ كان خطأ انبنى على تقدير خاطئ للواقع . فالاتحاد السوفييتى ، كما جاء فى التصريحات الرسمية فى ذلك الوقت ، كان يعتقد اعتقاداً جازماً بأن يد بريطانيا لعبت الدور الهام فى الوقيعة بين العرب واليهود فى فلسطين تطبيقاً للقاعدة المشهورة : فرق تسد . فعدم الوصول إلى حل يوفق بين الطرفين معناه استمرار الاحتلال البريطانى لفلسطين . وإذا انسحبت بريطانيا فستحل محلها أمريكا كما حدث حين أعلنت لندن عجزها عن التدخل فى تركيا واليونان فأصدرت واشنطون « مبدأ ترومان » الشهير سنة ١٩٤٧ تؤكد دورها فى المنطقة . وبهذا ازداد الاتحاد السوفييتى تمسكاً بموقفه التقليدى فى ضرورة الإسراع بجلاء المستعمر وإعلان الاستقلال كخطوة أساسية فى تحرير الشعوب وتمكينها من حل مشكلاتها. وهو على أية حال وافق فى ٢٧ نوفبر سنة ١٩٤٧ على قرار متكامل بإنشاء دولتين مستقلتين فى فلسطين وتحقيق نوع من العلاقة الفيدرالية بينهما وأن يتم ذلك كله تحت إشراف لجنة من الأمم المتحدة لضمان حقوق جميع الأطراف . وإذا كان الاتحاد السوفييتى لم يعترف بالدولة العربية فى فلسطين ، فذلك لأنها لم توجد . وحتى الآن تظهر الخرائط السوفييتية إسرائيل فى حدود قرار التقسيم وتظلل المناطق التى احتلتها فيما وراء تلك الحدود باعتبارها مناطق احتلال . ولم يسلم الاتحاد السوفييتى أبداً بنقل العاصمة الإسرائيلية إلى القدس الجديدة . ومع كل ذلك فإن موقفه فى ذلك الوقت قد تأثر بلا شك بتقديرات لجوانب أخرى محيطة بالمشكلة لم تؤكد الأيام صحتها . منها اعتقاده أن اليهود الذين كانوا ضحايا العنصرية الفاشية وناضلوا ضدها سيسود بينهم اتجاه ديمقراطى يرحب بالتفاهم مع العرب والتعايش معهم . ومنها أن الهجرة إلى فلسطين لن تستمر لأن شرقى

أوربا — الموطن الأساسى للهجرة — قد قامت فيه ديمقراطيات شعبية ألغت كل أثر للتفرقة العنصرية ، ولا يتصور أن يفر مواطن عادى ردت إليه حقوقه من مجتمع يبنى الاشتراكية . وبانتهاء « المسألة اليهودية » فى أوربا على هذا النحو ستفقد الصهيونية — التى لم يكف الاتحاد السوفييتى لحظة واحدة عن اعتبارها حركة عنصرية — الأرضية التى نمت فيها وترعرعت . ومنها أن الحكومات القائمة فى العالم العربى آنذاك كانت جميعاً حكومات رجعية ضالعة مع الاستعمار . ولكن تطور الأحداث أثبت خطأ كثير من تلك التقديرات . فضحايا العنصرية الفاشية قد أصبحوا بدورهم عنصريين لا يتورعون فى تطبيق أساليب النازية ، وكأنما الصورة المثلى فى نظرهم للتبرؤ نهائياً من كل آثار الإذلال والاستضعاف أن يفعلوا ما كان يفعل بهم أولئك الذين ظنوا أنفسهم سادة البشر . ونجحت الصهيونية فى اجتذاب أعداد غفيرة من يهود الديمقراطيات الشعبية التى شجعت حكوماتها فى أحوال كثيرة تلك الهجرة أو على الأقل سمحت بها ، تحت تأثير نفوذ عناصر موالية للصهيونية ، أو رغبة فى التخلص من أناس بدا أنه من الصعب أن ينخرطوا فى عملية البناء الاشتراكى . وتضخمت الهجرة بأفواج لا تقل عن ذلك عدداً قدمت من البلاد العربية . وتأكدت قبضة الصهيونية على الدولة الناشئة التى عملت منذ اللحظة الأولى على التوسع الإقليمى . وازداد ارتباط إسرائيل بالاستعمار الذى عاونها على إبطال بقية بنود قرار التقسيم وعدم تنفيذها كل القرارات التى صدرت من هيئة الأمم لصالح عرب فلسطين . وفى الوقت الذى تحولت فيه الدولة الصهيونية إلى قاعدة عدوانية من أبرز قواعد « العالم الحر » ، تفجرت الثورة فى مختلف أرجاء العالم العربى وخرجت إلى الوجود نظم متحررة تقدمية تعادى الاستعمار والإمبريالية عداء أصيلا وتتجاوز أفق الثورة الوطنية إلى أبعاد التحول الاجتماعى . نعم لقد أخطأ الاتحاد السوفييتى آنذاك . ولكنه كان خطأ فى

التقدير، ولم يكن تخلياً عن المبادئ الأساسية التى تحكم سياسته ، والتى تقوم عليها الصداقة العربية السوفييتية ، وهى مبادئ النضال ضد الإمبريالية ، والتضامن مع حركات التحرر الوطنى والوقوف بحزم ضد العنصرية والعدوان .

ويبقى بعد ذلك أن مجرد وجود الاتحاد السوفيتى ودول المجموعة الاشتراكية يعد فى ذاته كسباً ضخماً للحركات الثورية فى كل أنحاء العالم . فلم يعد التقدم الاقتصادى والقوة العسكرية والأهمية السياسية احتكاراً للدول الاستعمارية . لم يعد فى وسع الاستعمار أن يعربد كما شاء بأساطيله البحرية والجوية وجيوشه البرية يبطش بالشعوب . وأصبح من المتعين عليه قبل كل خطوة يخطوها أن يحسب حساب رد الفعل السوفييتى . ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد، فقد قدم الاتحاد السوفييتى والدول الاشتراكية الأخرى للنضال العربى ، وما زالت تقدم ، كل أشكال العون السياسية والاقتصادية والعسكرية . وهكذا أمكن للدول العربية المتحررة أن تحطم احتكار السلاح ، وأن تحرر تجارتها الخارجية ، وأن تنمى اقتصادياتها مستندة إلى المعاونة الصادقة من الحكومات والشعوب فى البلاد الاشتراكية . وفى تصريحات القادة العرب ، وبصفة خاصة الرئيس جمال عبد الناصر ، ما يغنى عن كل تعليق فى مجال تقدير موقف السوفييت . ولقد كشف عدوان ١٩٦٧ وما تبعه من أحداث فى الأرض المحتلة وفى إسرائيل ، وفى البلدان الاشتراكية وفى الأمم المتحدة جوانب فى الظاهرة الصهيونية الإمبريالية كان الصهيونيون يجتهدون فى إخفائها عن الرأى العام الاشتراكى . ومع ذلك فإن علينا أن تُبذل جهداً كبيراً لتأصيل موقف مساندة العرب ليس فقط لدى الحكومات الاشتراكية والأحزاب الشيوعية ، وإنما لدى الرأى العام فى تلك البلدان الذى ما زال يتأثر بأصداء من الدعاية الصهيونية . علينا أن نفضح تماماً علاقة إسرائيل بالاستعمار ، ولا سيما بأمريكا وألمانيا الغربية . وعلينا أن

نبين العداء الأصيل الذى تكنه الدوائر الحاكمة فى تل أبيب إزاء الاشتراكية ، وأن نذكر بأن معظم قادة إسرائيل روس بيض أو بولنديون بيض اختاروا بين الاشتراكية والصهيونية ففضلوا الثانية على الأولى ، وبأن عدداً كبيراً من الإسرائيليين هجروا أوطاناً اشتراكية ليقيموا فى ظل الصهيونية وحماية الأسطول السادس الأمريكى . ولنا فى نشاط الدوائر الصهيونية لتؤلب اليهود فى البلاد الاشتراكية ضد حكوماتها دليل ناصع على كل ذلك . وفى الوقت نفسه يجب أن نؤكد وقوفنا بصلابه ضد الإمبريالية والاستعمار الجديد ونضالنا من أجل السلام العالمى ، وأن نثبت بالعمل جديتنا فى تطوير بلادنا بما يتفق ومقتضيات نضالنا ويمهد الطريق لبناء الاشتراكية . فالدعاية الصهيونية لا تركز فى — الدول الاشتراكية — على تزويق الوضع فى إسرائيل بقدر ما تركز على تشويه الأوضاع فى البلاد العربية وإبراز كل نواحى القصور والمبالغة فيها .

العالم الثالث

والثورة العربية جزء من تيار التحرر الوطنى الجبار الذى يسهم اليوم فى تشكيل صورة العالم فى الحقبة المقبلة . وبالتالى فإن الأمر الطبيعى والمنطقى أن تلقى قضايانا التأييد والمساندة من بلدان العالم الثالث . ولكن الواقع لا يتفق مع الطبيعة والمنطق . والمسئول الأول عن تلك المجافاة بين ما هو كائن بالفعل وما ينبغى أن يكون هو تقصيرنا الفادح فى طرح قضايانا بالأسلوب الصحيح . ولا بد قبل الاستطراد فى هذا المعنى من تفنيد رأى يروج له فى بعض الأوساط يقول إن العالم الثالث لا وزن له فى نهاية الأمر . وحتى فى هيئة الأمم يتحدد تصويت العدد الأكبر من دوله وفقاً لضغوط الدول الاستعمارية الكبرى ومواقفها . هذا بالطبع تبسيط شديد للأمور . فدول المجموعة الفرنسية فى إفريقيا مثلا لم تصوت جميعاً كما صوتت

فرنسا فى الدورة الطارئة للجمعية العمومية التى انعقدت فى يوليه سنة ١٩٦٧ بناء على طلب الاتحاد السوفييتى . ولكن الأهم من ذلك هو أن الحكومات تتغير وتزول ، أما الشعوب فباقية ولها الغلبة فى نهاية الأمر . والتقصير الفادح الذى نعنيه هو إهمال عرض قضايانا على شعوب العالم الثالث وإقناعها بعدالتها . فإزالة آثار العدوان الإسرائيلى مطلب يجب أن يقدم لتلك الشعوب من زاوية أنه رفض لمبدأ التوسع الإقليمى بالقوة ، أو تغيير الحدود بالقوة . وبهذه الصورة تحوز القضية اهتمام كل شعوب العالم الثالث ، بل حكوماته ، لأن معظم دوله لها مشكلات حدود أو يتعرض لخطر تعديل الحدود بالقوة . وقضية فلسطين ليست مشكلة مليون لاجئ كما دأبنا على الحديث عنها فى التجمعات الإفريقية ، أو الإفريقية الآسيوية . فمعظم تلك البلدان لها مشكلات لاجئين ، ولا ترى للوهلة الأولى أهمية خاصة لوضع الفلسطينيين . وإنما يجب أن نبرز حقيقتها على أنها قضية تحرر وطنى ، قضية شعب سلب أرضه واستقلاله ويطالب بحقه فى الحياة المستقلة ويناضل من أجل حقوقه بالسلاح . عندئذ تصبح قضية فلسطين كقضية أنجولا أو موزمبيق أو غينيا المسماة بالبرتغالية ، ويلتف حولها عطف الشعوب فى أرجاء العالم الثالث .

ويمكن أن نصيب الدعاية الإسرائيلية فى العالم الثالث فى مقتل إذا ركزنا على إبراز الوجه العنصرى لإسرائيل . فشعوب العالم الثالث ، وغالبيتها ملونة ، قد عانت من التعصب العنصرى الأبيض . وحساسيتها مرهفة ضد العنصرية . وعلينا إذاً أن نكشف لها عن الأساس العنصرى الذى تقوم عليه الدولة الصهيونية . وأنه لا ينحصر فقط فى العنصرية اليهودية . بل إنه عنصرية بيضاء تزدرى السود . والدليل الحاسم على ذلك امتناع إسرائيل عن محاولة تهجير « الفلاشة » يهود أثيوبيا ، « وبنى إسرائيل » يهود الهند لأنهم ملونون . ومن ارتكب منهم حماقة الهجرة إلى أرض الميعاد لقى

فيها ما يلقاه الملون فى أشد المجتمعات البيضاء تعصباً . ولم تشفع له صفة اليهودية الثابتة ، وتخلت الصهيونية إزاءه عن دعواها الأصيلة فى انحدار اليهود جميعاً من نسل يعقوب . كما أن العنصرية الصهيونية عنصرية أوربية تضطهد غير الأوربيين من اليهود . والتمييز العنصرى داخل إسرائيل يصيب اليهود الشرقيين ولا يقتصر على الأقلية العربية المقهورة . وأخيراً ، لقد أجمعت الدول الإفريقية والآسيوية على الاستنكار الشديد لسياسة حكومة جنوب إفريقيا ، وقطعت كل العلاقات بها ، ورأت فيها التجسيد البشع للعنصرية فى أكثر صورها تعنتاً وحماقة . وعلينا أن نفضح حقيقة العلاقات الوثيقة بين حكام بريتوريا وقادة تل أبيب . فالاقتصاد الإسرائيلى يعتمد اعتماداً أساسياً على تصنيع الماس الخام الوارد من جنوب إفريقيا . وحملات التبرع لإسرائيل تجمع من البيض هناك أموالا طائلة . والدولة الصهيونية ترد الجميل ، فتساند الحكم العنصرى البغيض وتقدم له الخدمات ، وتلعب دور الوسيط فى معاملاته التجارية فى العالم الثالث حتى يتغلب على قرارات المقاطعة .

وأخيراً ، فإن بين بلدان العالم الثالث ، دولا متحررة ، وحكومات أكثر اتساقاً فى عدائها للإمبريالية ، وقيادات تلتقى فى فكرتها الأمانى الوطنية بالمثل العليا للاشتراكية . وهنا يجب أن نوضح فى دأب طبيعة علاقة إسرائيل بالاستعمار ، ودورها كوسيط للاستعمار الجديد ، وعداءها الأصيل لحركات التحرر الوطنى والتحول الاجتماعى . علينا أن نذكر بدور الخبراء الإسرائيليين فى التآمر ضد نكروماه ، وبرحلة ديان وغيره من الضباط إلى فيتنام ، وبمساعدات إسرائيل لمنظمة الجيش السرى الإرهابية فى الجزائر ، وبدور الإسرائيليين فى مساعدة الاستعمار البرتغالى فى حربه مع حركات التحرر الوطنى ، وبدور الخبراء الإسرائيليين فى الكونغو .

الرأى العام فى الدول الغربية

يساند الاستعمار الغربى ، كقاعدة عامة ، إسرائيل مساندة واسعة . ولكن هذا لا يعنى أن أبواب الدول الغربية موصدة أمام من يدعو للقضية العربية ، أو أن الآذان هناك صماء لا تسمع أى صوت عربى . فالرأى العام فى تلك الدول — نتيجة لأوضاعها الطبقية — بعيد تماماً عن التجانس . كما أن مصالح الدول الاستعمارية ذاتها تتناقض فى أمور كثيرة . وعلينا أن ندرس بعناية الأوضاع السياسية العامة والأوضاع الداخلية فى تلك الدول ، وأن نحدد لدعايتنا خطاً أساسياً ، نعبر عنه فى تنويعات مختلفة يؤثر كل منها فى قطاع معين من قطاعات الرأى العام . كذلك يجب أن تكون نقطة البدء فى تحركنا الدعائى فى العالم الغربى أن نعرف بالدقة الصورة التى نجحت الصهيونية فى إثباتها لدى أوسع أقسام الرأى العام هناك ، وأسهمت الدعاية العربية بأخطائها أحياناً وبغيبتها أحياناً أخرى فى تأكيدها . والملامح الأساسية لتلك الصورة تبدو على النحو الآتى . أولا ، إنكار وجود الشعب الفلسطينى كطرف أصيل ومستقل فى نزاع الشرق الأوسط ، فليس هناك إلا مشكلة لاجئين خلقتها الحكومات العربية بدعوتها عرب فلسطين إلى ترك الأراضى التى تخضع لسلطة إسرائيل فى سنة ١٩٤٨ وأبقت عليها بامتناعها عن توطينهم فى أراضيها الواسعة ذات الموارد الطبيعية الضخمة . وثانياً ، أن مصدر التوتر فى المنطقة هو التهديد المستمر لأمن إسرائيل من جانب الدول العربية التى تجد فى هذه القضية متنفساً لسخط الجماهير على الأوضاع الداخلية . وهذه الدول ، ثالثاً ، متخلفة يحكمها إما ملوك وأمراء إقطاعيون أغناهم البترول ، وإما عسكريون شبان مغامرون . أما حركة القومية العربية فقوامها تعصب عنصرى وديني متخلف يقدم العداء للغرب بديلا عن النضال من أجل

التقدم وهدفها تكوين إمبراطورية يسيطر عليها هذا أو ذاك من حكام العرب ، وهى بذلك حركة تهدد السلام ولا تخدم التقدم .

ولتبديد هذه الصورة يجب أن تسفر الثورة العربية عن وجهها الحقيقى ، كحركة تحرر وطنى وتقدم اقتصادى واجتماعى . لقد أساء إلى قضيتنا ما توهمه بعضنا فى وقت من الأوقات من أننا فى صراعنا ضد إسرائيل يمكن أن نكسب عطف الأوساط اليمينية فى الغرب المعروفة بعدائها للسامية . وكان هذا خطأ بعيداً ، مبناه عدم تقدير دور الاستعمار فى نشأة إسرائيل ودعمها . وقد تكفلت الأحداث ببيان مدى هذا الخطأ . فعشية حرب يونية وغداتها التفت أقصى قوى اليمين الأوربى تطرفاً حول إسرائيل . وكان ذلك طبيعياً ، فهذه الأوساط الرجعية الاستعمارية تعادى حركة التحرر العربى ، ولا بد أن تناصر كل من يحاربها . كما أن إسرائيل هى الحل الموفق فى نظر العنصريين الأوربيين للتخلص من اليهود . وقد استغلت إسرائيل مع ذلك على أوسع نطاق وجود بعض الخبراء من الألمان الغربيين فى مصر فى فترة معينة لتصرح بأننا نؤوى النازيين ونتعاون معهم ، مع أن حكام بون والنازيين السابقين أصحاب النفوذ فى الجمهورية الاتحادية الألمانية هم الذين ساندوا إسرائيل بالمال والسلاح وأعمال التجسس . ومهما يكن من أمر ، فلابد أن نخلص نهائياً من أى وهم حول إمكان كسب عطف القوى الرجعية والاستعمارية على الثورة العربية . وعلينا ، على العكس ، أن نكسب كل قوى التقدم التى تضللها الدعاية الصهيونية ، أو تبلبلها بعض أعمالنا وأقوالنا . ولا خطر فى أن يؤدى هذا إلى حصر التأييد لقضيتنا فى نطاق ضيق . فشعب كوبا تمسك بموقفه الثورى الكامل ونجح مع ذلك فى كسب أوسع تأييد متصور ضد تحركات أمريكا . والشعب الفيتنامى يحوز اليوم تأييداً شبه إجماعى من الرأى العام فى أوربا الغربية ، ووجه الثورة الفيتنامية الاشتراكى ليس

سراً بالنسبة لأى إنسان . وسلاحنا الأساسى فى كسب الرأى العام التقدمى هو التركيز على منجزات الثورة العربية فى مجالات التحرر الوطنى والبناء الاقتصادى والتقدم الاجتماعى ، ثم تحقيق المزيد من المنجزات . وبصفة خاصة بناء وحدة القوى الوطنية فى داخل كل دولة عربية مما يسمح بتطوير الديمقراطية ويمحو الآثار التى خلفتها فى الأذهان النتائج السلبية للصراع الحاد بين تلك القوى والتى تمثلت فى اتخاذ بعضها إجراءات إرهابية ضد البعض الآخر . ولا يكفى فى هذا الميدان أن نتحدث مرة ، بل علينا أن نكرر الحديث ولا نمل التكرار . وعلينا أن نؤكد القول بالعمل . فالأعمال حقائق ناصعة يصعب طمسها . وعلى سبيل المثال لعبت المقاومة الفلسطينية دوراً حاسماً فى إعادة طرح قضية الشعب الفلسطينى على الرأى العام يفوق كل جهد دعائى متصور .

واليسار الغربى مكون من قوى متعددة ذات اتجاهات مختلفة . فهناك أولا اليسار الشيوعى . وهو يقف حالياً إلى جانب العرب . وجهد الدعاية بالنسبة إليه يجب أن يتركز فى تأكيد الطابع التقدمى للثورة العربية من ناحية ، وفى الفضح المنتظم لطبيعة العنصرية الصهيونية والأعمال العدوانية التى ترتكبها إسرائيل ، وحقيقة صلتها بالاستعمار ، ودورها فى المنطقة ككلب حراسة للمصالح الإمبريالية وقاعدة للعدوان . فالهدف هنا هو تأصيل موقف الأحزاب الشيوعية الحالى ليتجاوز مستوى التأييد ضد عدوان محدد ويغدو موقف مساندة دائمة فى صراعنا الطويل ضد الصهيونية والاستعمار أما اليسار المسمى « الاشتراكية الديمقراطية » مثل حزب جى موليه فى فرنسا وحزب بيترو نينى فى إيطاليا فإن وضعه أكثر تعقيداً . فالحركة الصهيونية لها ، عن طريق « البوند » ثم الأحزاب العمالية الصهيونية (التى وجدت من قبل أن تقام إسرائيل) ، علاقات وثيقة بتلك الأحزاب التى يجمعها تنظيم دولى هو « الأممية الثانية » ولذلك فهى

بعكس الأحزاب الماركسية اللينينية ، تعتبر الصهيونية حركة قومية ، وتعطف عطفاً أصيلا على فكرة وجود دولة يهودية يضاف إلى ذلك أن عدداً من قادة تلك الأحزاب يتبنى فى الواقع الدفاع عن المصالح الاستعمارية والارتباط بحلف الأطلسى وقبول قيادة الولايات المتحدة . وبالنسبة للحزب الاشتراكى الفرنسى بالذات ، ما زالت ذكرى إخفاق حملة السويس حية تذكى ضراوة العداء للعرب وبصفة خاصة مصر . ومع ذلك فإن قواعد هذه الأحزاب لا يمكن أن تتخذ بانتظام موقف عدم المبالاة بقضية شعب يدافع عن كيانه الوطنى مثل الشعب الفلسطينى. كما أنها لا يمكن أن تتقبل فى سهولة مبدأ التوسع الإقليمى بالقوة . ومن ثم فإن المشقة يجب ألا تثنينا عن محاولة النفاذ إلى صفوف تلك الأحزاب وعرض أكثر جوانب قضيتنا وضوحاً . فعلى الأقل يمكن إلزام قياداتها على التخلى ولو قليلا عن مبدأ التأييد التلقائى والمنتظم لكل ما تصنع إسرائيل . وتلك القواعد تعيش فى نقاش مستمر ، وأحياناً كثيرة فى معارك مشتركة ، مع قواعد الأحزاب الشيوعية . ولذلك فإنه بقدر ما نزود هذه الأخيرة بالحجج والأسانيد ، بقدر ما سيكون فى وسعها التأثير فى أعضاء الأحزاب الاشتراكية . وفى بداية حرب فيتنام كانت قيادات معظم تلك الأحزاب تؤيد التدخل الأمريكى . ولكنها لم تعد اليوم قادرة على التمسك بذلك الموقف . وهناك أخيراً تلك القوى التى يطلق عليها بصفة عامة اسم « اليسار الجديد » ، وبعضها يريد أن يكون أكثر ثورية حتى من الأحزاب الشيوعية . وهى مشكلة أساساً من جماعات من المثقفين متأثرين بدرجات متفاوتة بالثورة فى الصين وكوبا وفى فيتنام . ويمكن لقضية شعب فلسطين أن تكسب بسهولة تأييداً كبيراً فى تلك الأوساط . وعلينا أن ندعم هذا التأييد ونوسعه ، دون أن يعنى ذلك أى إهمال للعمل الدعائى الموجه للأحزاب الشيوعية والاشتراكية الديمقراطية .

وثمة أمور يجب أن تراعى كقاعدة عامة فى طرح قضايانا على الرأى العام الغربى . فهذا الرأى العام حساس جداً لفكرة السلام وفض المنازعات بالطرق السلمية . ونحن كثيراً ما نستخدم لغة الحرب فى غير موضعها وبغير مناسبة . وقد كان لموقف الحكومات العربية ، وبصفة خاصة حكومة القاهرة خلال العامين الماضيين من المساعى المبذولة لإيجاد حل سلمى لأزمة الشرق الأوسط أبعد الأثر فى تبديد كثير من الأصداء التى خلقتها الدعاية الصهيونية . وبدا العرب قوماً يريدون السلام ولا يعشقون الحرب لمجرد الحرب ، فى الوقت الذى ظهر فيه تعنت إسرائيل واتجاهاتها التوسعية . كذلك تركت أحداث الحرب العالمية الثانية فى أوربا عطفاً على اليهود يؤدى إلى تضامن تلقائى فى كل مرة يظن الناس فيها أن ثمة اتجاهاً عنصرياً يحاول تجديد حملات الإبادة والتشريد . وبالتالى فإن وضوح موقفنا المعادى للعنصرية أمر حاسم فى كسب العطف على قضيتنا.والتمييز الواضح بين نضالنا ضد الصهيونية وبين مشاعرنا نحو اليهود ، لا فى القول فقط ، وإنما فى المواقف العملية المحددة كذلك، من شأنه أن يحد من نطاق التأييد التلقائى الذى تتمتع به إسرائيل فى كثير من الدوائر غير الرجعية . كذلك من الأمور البالغة الأهمية أن ننفى الفهم الشائع فى أوربا الغربية والذى يرى فى أزمة الشرق الأوسط صراعاً بين مائة مليون عربى ومليونين من الإسرائيليين ، وأن تبرز مأساة الشعب الفلسطينى ونضاله من أجل وجوده الوطنى المستقل ونوضح أبعاد العدوان الإسرائيلى وتكراره . وأخيراً يجب أن ننفى بكل ما نملك من قوة الفكرة التى تروج لها إسرائيل مؤخراً وهى أن الصراع فى الشرق الأوسط ليس إلا مظهراً محلياً للصراع الكونى بين جبارى العصر : الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى . فالاتجاه الغالب فى أوربا الغربية هو نفض يد أوربا من هذا الصراع . ونحن نعلم أن حقيقة الأوضاع تخالف ذلك تماماً . فالعرب

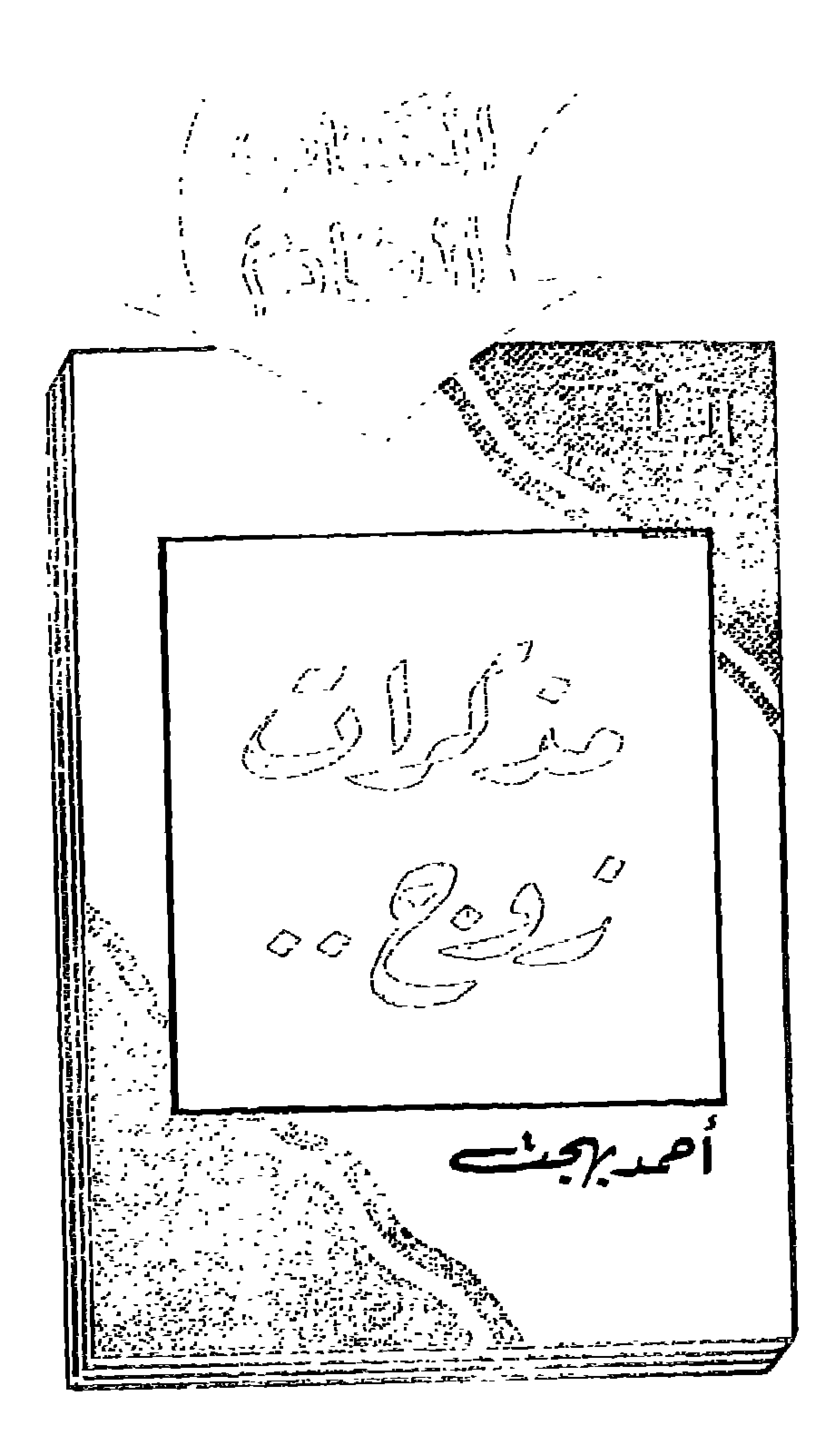
هم الطرف الأصيل في هذا الصراع الضخم من أجل حريتهم وتقدمهم ووحدتهم . وإذا كانت إسرائيل عملياً جزءاً من الاستعمار العالمى تساندها كل قوى الإمبريالية ، بل تشاركها فى العدوان، فإن الاتحاد السوفييتى ينحصر دوره فى تقديم التأييد لشعوب تناضل من أجل حقوقها المشروعة . وإذا كان للاتحاد السوفييتى مصلحة فى أن تستقل البلاد العربية وتتقدم وتتخلص من كل أثر للسيطرة الإمبريالية ، فنحن نسعد بذلك لأنه ضمان لاستمرار التأييد السوفييتى . ولكننا نبقى قبل ذلك التأييد وبعده الطرف الأصيل صاحب المصلحة الحقيقية الذى يتعين عليه تحمل العبء الأساسى فى النضال ، الذى لا يحارب بدل أحد ، ولا يطالب أحداً بأن يحارب محله

وفى إطار العمل الدعائى فى الغرب ، يجب أن نفرز مكاناً مختاراً للدعاية بين اليهود . فالصهيونية نجحت إلى حد كبير فى تجنيد غالبية اليهود لخدمة أغراضها العدوانية . ولكن ثمة عدداً لا يستهان به قد تحفظ إزاء الدعوة الصهيونية أو حتى عارضها معارضة كاملة . ويمكن دعم التيار المناهض للصهيونية بين اليهود بأمرين . أولا ، الإلحاح فى توضيح موقفنا غير العنصرى إزاء اليهود ، والتذكير بتقاليدنا الحضارية فى هذا المجال ، ونبذ الكلام غير المسئول الذى يصدر أحياناً عن بعضنا مثل التهجم على اليهود بصفة عامة أو المطالبة بتدمير إسرائيل أو إلقاء الإسرائيليين فى البحر . . . إلخ . والأمر الثانى هو إبراز أثر النشاط الصهيونى فى إحياء نعرة اللاسامية فى أوربا . لقد أثار التضامن الواسع مع إسرائيل، وبغض النظر عن السياسة الرسمية لهذه الدولة أو تلك، التساؤل حول ولاء المواطنين اليهود وهل يذهب أولا إلى إسرائيل أو إلى البلد الذى يحملون جنسيته . وهكذا أصبح مطروحاً الأساس الذى قامت عليه سياسة الاندماج وإلغاء كل تفرقة ضد المواطنين اليهود . ومعنى ذلك أن النشاط الصهيونى بدل أن يحمى اليهود أصبح مصدر خطر على ظروف حياتهم فى أوطانهم الحالية .

فهرس

الصفحة

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩


مذكرات زوج
أحمد بهجت



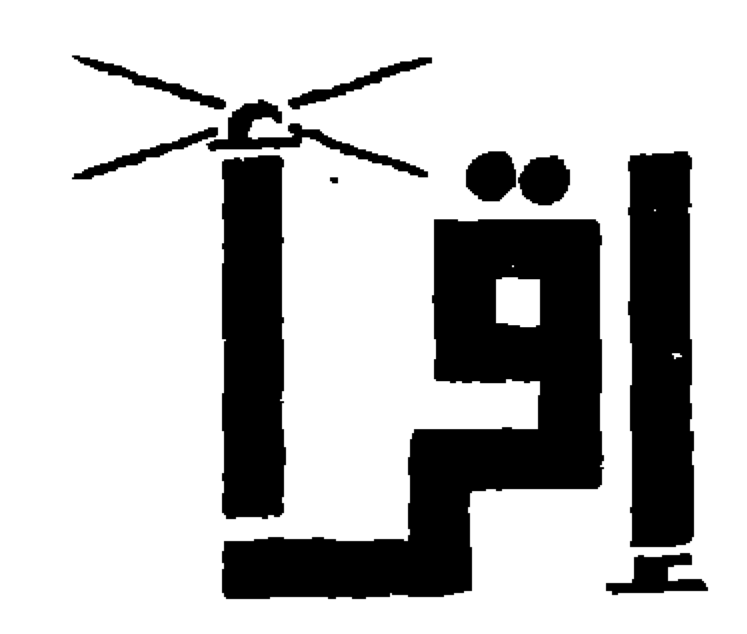
أحمد بهجت
اقرأ
مذكرات زوج

لبنان ١٠٠ ق. ل   سوريا ١٠٠ ق. س   الأردن ١٠٠ ف. أ

العراق - الكويت ١٠٠ ف. ع الخليج العربي ١٥٠ ف السعودية ٢ ريال

عدن ٣,٥ شلن   السودان ١٢٠ مليما   ليبيا ١٥ قرشاً

تونس ٢٠٠ مليم   الجزائر ٢,٢٥ دينار   المغرب ٢,٢٥ درهم



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان





أحمد بهجت

مذكرات زوج

اقرأ ٣٢٠
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٢٠ – أغسطس سنة ١٩٦٩

إلى روح الشيخ عبد العزيز البشرى
إعجاباً بكتابته المصرية الساخرة

أحمد بهجت

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

«أن يكون الإنسان رصيناً له زوجة وأطفال وعمل وأصدقاء وعادات موروثة وعادات مكتسبة، شيء لا يمنع أن تكون له مذكرات يخبئها عن زوجته».

مذكرات ٦ سبتمبر ١٩٦٤

عند ما يكتب الإنسان مذكراته فهذا يعنى أن هناك شيئاً هاماً يريد من الآخرين معرفته، وأنا لا أصدق هذا الإحساس بالأهمية، لم يخامرنى هذا الإحساس فى البيت أو فى العمل، فأنا رجل متزوج فى البيت، ولى أكثر من رئيس فى العمل، وأنا لا أشكو شيئاً سوى البلادة والوحدة، ولقد قررت اليوم أن أكتب مذكراتى. إن الكتابة عمل مسكر ورائع، فعندما يكتب المرء يشعر بأنه ليس وحيداً فى هذا العالم، لكننى لا أكتب لهذا السبب، إننى أكتب لأننى أحس أن كل إنسان فى العالم قد أضحى جزيرة منفصلة ليس بينها وبين الآخرين اتصال، هذه المذكرات ليست إلاّ محاولة يائسة للتلويح والصراخ أمام ما نتصور أنه سفينة مارة، بينما هو فى حقيقة الأمر سراب مائى. وسيبقى لنا من الحوار مع السراب صمت عظيم.

كيف يحصل الإنسان على الصمت فى مثل هذا البيت، إن الخادمة تغسل الصحون، أو بالأحرى تضرب الصحون وهى تغسلها؛ وتحدث زوجتى ضجة هائلة تتعلق باكتشاف بقعة من التراب فوق مائدة تقع فى يسار الصالة، ويزعق أطفالى فى حجرتهم كأن بينهم مباراة فى الصياح؛ وتموء القطط مواء عابثا يبدو أنها تقصد منه أن تتلاءم مع الجو النفسى للبيت...

هذا الموقف يدفعنى إلى التأمل...

إن الإنسان يحتاج إلى تأمل حياته بين فترة وأخرى : ولقد مضت على سبع سنوات وأنا زوج مثالى . وفى هذه السنوات لا أنكر أننى سألت نفسى أسئلة خبيثة . . . مثلا : هل يستحق الزواج بسبب لحظة أن يبقى إلى جانبنا كائن من جنس آخر . . . ومن نفسية أخرى . . وأن يدوم بقاؤه إلى الأبد ، امرأة تعتبر أن من حقها أن تسألك فى أى وقت : فيم تفكر . . . ولماذا تسكت . . . امرأة تفتش فى أحلامك عن أخطاء تؤكد بها صدق نظرتها فيك . . .

كم يكون جميلا لو يستطيع المرء تحضير الزوجة فى المطبخ كما يحضر الحساء حتى يختلف طعمها من وقت لآخر ، هذه الأمنية العبقرية ليست من اكتشافى ، إنها مدينة بالوجود لأحد أبطال كاتب روسى لم يتهمه أحد بالتحيز ضد النساء . يعتقد هذا البطل نفسه أن هناك شيئاً مخيفاً ومصطنعاً فى النساء ، إن رغبتهن الطفيلية فى التعلق برجل تكفى وحدها لإدانتهن ، ولقد مرت بى تجارب تأكدت بعدها أن المرأة عند ما تنظر فى المرآة لا تفعل ذلك لتصلح زينتها ، إنما تفعل ذلك لتتأكد من وجودها ، وتحاول تأكيد هذا الوجود بشتى الطرق . لا أتحدث عن كل النساء ، لا أكره النساء وبالتالى لا أكره زوجتى . . . إننى أحب النوع الإنسانى كله بشكل عام ، ويبلغ افتتانى بالنساء حد الدهشة التى أحس بها عند ما أرى وجه فتاة لم أره من قبل . . . وأنا لا أحاول إخفاء هذه الدهشة عن زوجتى وأنا أسير معها فى الشارع . إننى رجل صادق . . . إننى أحس ساعتها أن شيئاً يشرق فى داخلى ، وأتأكد من وجود الحياة فى أماكن أخرى وأرواح أخرى . إن كلمة الروح تتردد فى الحديث بين زوجتى والخادمة. إن زوجتى تشير إلى أن تصرفات الخادمة ستزهق روحها ، والحقيقة أن زوجتى تبالغ قليلا مثل أردأ كتاب المسرح ، وهى أيضاً مثل كثير من كتابه الفاشلين قديرة على خلق أكبر كومة ممكنة من الحوار الذى لا يؤدى إلى شىء ؛ وعند ما تقرر زوجتى إنهاء الحوار تصرخ صرخة قصيرة تشبه

صرخات القبائل البدائية التي تهتز بها أعداءها قبل الوثوب عليهم . . . ثم تأمر بتنظيف البوفيه ، لماذا تزوجت ؟ ! .

مذكرات ١٣ سبتمبر ١٩٦٤

زمان كانت تجلس أمامى وتستمع . . . وكانت تجيد الاستماع . وكنت أحكى لها مشاكل العمل أحياناً ، وأنا رجل لا أحب كثيراً أن أكشف كل حياتى فى العمل للآخرين ، فهناك هذه اللحظات التى تكون بين المرء ورئيسه ، والتى يقول فيها الرئيس أشياء كثيرة تتصل بالذكاء والغباء وحسن التصرف وسوء التصرف . . . هذه أشياء لا تقال للآخرين . لكننى لم أكن أعتبرها من الآخرين ، وكنت حين أحدثها عن اضطهاد يقع فوق رأسى . أراها تبتسم ابتسامة واسعة ، وتقشر لى قطعة من الفاكهة وتفهمنى أننى يجب أن أحتمل ، فهذه المتاعب نتيجة طبيعية للذكاء الذى ولدت به ، ويجب أن أدفع ضريبة العبقرية المبكرة ، فما دام الترقى فى هذه المصلحة بالأقدمية فلا شك فى أن رئيسى يضايقه كثيراً وجود أحد العباقرة فى نفس القسم الذى يرأسه ، كانت تضع فى فمى قطعة الفاكهة وتبتسم قائلة : إن الأذكياء يثيرون المتاعب والشغب دائماً ، ويجب أن تتحمل ؛ إن رئيسك يعتبر نبوغك أحد أخطائك . . . وكان تفسيرها يرضينى ويقنعنى . ويرفع كثيراً من روحى المعنوية . ولقد فوجئت بعد دخول المصيدة بأن الرقة لم تكن إلا تمثيلا للرقة ، وأن هذا الفهم العميق الشامل لم يكن إلا ادعاء يفتقر إلى الصحة . . . لا يتبادر إلى الذهن أن اكتشافى قد تم فجأة وسطع فى حياتى مثلما تسطع الشمس على السطوح المجاورة . . . أبداً . . . لقد حدث هذا بتدريج . أغلب الظن أننى لم ألحظه إلا بعد وقت متأخر تماماً . . . لاحظت بعد سنوات من الزواج أننى حينما أحدثها عن متاعب العمل تتبنى وجهة نظر رئيسى فى العمل ، وتدافع عن اتهامه لى بسوء التصرف ، وتحاول أن تدرس موقفى فى البيت فى ضوء موقفى فى العمل ،

وتحاول أن تكتشف فى مزيداً من العيوب. . . لماذا تحاول الزوجة أن تعرف كل مواطن الضعف فى زوجها . . . هل تفعل ذلك لأنها تعتبر الزواج معركة يجب فيها معرفة ثغرات العدو . لا أفهم لماذا يحدث ذلك ، ولماذا يتغير كثير من الزوجات بعد الزواج . . . أفهم طبعاً أن التغيير شىء يتفق مع طبيعة الحياة ، وأفهم أنه ما من شىء فى الدنيا إلا يتغير . حتى الأرض . تنقص جزءاً من أطرافها كل عام . لكن الذى لا أفهمه أن تتغير مشاعر الإنسان من الرقة إلى الجمود إلى القسوة . أحياناً يخيل إلى أن زوجتى مثل زوجة لويس السادس عشر ، أما الصلة بينها وبين زوجة لويس السادس عشر فهى تلك القسوة التى تكمن فى الضعف . . . وعدم الفهم الذى هو صفة مشتركة بين النساء . . . معظم النساء . . . إن مارى أنطوانيت حينما أطلت على مظاهرة الجائعات من مخبئها فى القصر وسألت عما يردنه . . . وقيل لها : إنهن يطالبن بالخبز . . . واقترحت هى أن يأكلن « الجاتوه » . . . لم تكن قاسية ، كانت غبية . . . ببساطة لم تكن تقدر الوضع على حقيقته . . . إن تقدير الأمور صفة من صفات الرجولة والمسئولية . . . ما هو السر فى أننى لا يمكن أن أتعرض لخطأ يمكن إثباته على فى العمل . . . ببساطة لأن هناك مائة مسئول فى المصلحة التى أعمل بها ، ولكى أوقع أنا ورقة ما فى العمل . . . يجب أن أقرأ توقيعات ثلاثة من رؤسائى المباشرين على الورقة . . . أنا إذن لا أتخذ قرارات فى عملى . . . وهذا سر فوضى العمل واضطرابه ، وتحاول زوجتى إيهامى بأن هذا هو أفضل شىء يصنعونه معى فى العمل ، هذا يضمن سير العمل وهدوءه كما تقول ، ومن الأولى بى فى البيت أن أتصرف مثلما أفعل فى العمل . . . أترك كل شىء لها . . . تتخذ هى القرارات وأتحمل أنا المسئولية . . . وأنا أرفض هذا فى البيت كما أرفضه فى العمل ، وأحياناً أختلى بنفسى مثلما أفعل الآن ، وأفكر فى رئيسى المباشر وزوجتى . . . فى السلطتين اللتين تسير حياتى بينهما كقطار يسير فوق قضيبين من الحديد . . . إن رئيسى

فى العمل وزوجتى عند ما يحاولان قتل ذبابة يفكران فى ضربها بقنبلة . .
أليس هذا مخيفاً . . . إن أبسط الأشياء تحتاج منهما إلى ضجيج هائل
يشبه دوى القنبلة . . . وهكذا ترون تعاستى . . . أسمع صوتها يقترب . . .

مذكرات ٢٠ سبتمبر ١٩٦٤

علمنى الزواج أن أختزن كثيراً من التعليقات فى جوفى . لا أبوح بها
لمعرفتى أن كلمة ساذجة قد تجر إلى متاعب كثيرة ، وقديماً كانت الحرب
تنشأ بسبب كلمة طائشة.وفى هذه اللحظة تتحدث زوجتى حديثاً أود أن
أفقد خمس سنوات من عمرى لأعلق عليه ،لكننى لا أفعل ذلك : إننى
أجلس ساكناً وألتف بكل صمتى وأتدثر بحكمتى وأكبت رغباتى رغم
معرفتى .أن الكبت ضار بالصحة .

ها هى زوجتى تلتفت إلى وتسألنى :

— بتفكر فى إيه ؟

لن أجيب ، فلعل هذا السؤال فخ منصوب ، إننى أكتفى بأن أبتسم
ابتسامة أحشوها بكل طاقتى من البلاهة .

ما أشد ظمئى لرؤية محمود ، هذا أحد أصدقاء العصر الذهبى قبل
الزواج ، والساعة الآن التاسعة مساء ، وهناك ضيوف كثيرون قرروا أن
يشرفونا بزيارتهم الليلة . إننى أفكر جديا فى ارتداء ملابسى والخروج ، أكاد
أذوب شوقاً لذلك ، وتفكيرى جدى إلى درجة أنه يتحول أمام عينى إلى
حلم لن يرى النور أبداً . . . إن زوجتى سيدة جامدة ورصينة وصارمة ولن
تفهم أبداً كيف أترك ضيوفنا لأخرج . . . ولو قلت لها إننى أحس بالحنين
لرؤية واحد من أولئك الذين شهدوا حياتى الماضية ، واحد من أولئك الذين
شاركوا فى حياتى القديمة . . . لا لشىء إلا لنبكى معاً . . .

لو قلت لها ذلك فسوف تتصور أن سوء طالعها قد اكتمل ، وأن
الحياة لم تكتف بكل المتاعب التى رزقتها بها ، فها هى تكمل جميلها

وتزوجها بزوج مجنون ، ولو أنني افتعلت عذراً وخرجت بعد انصراف الضيوف . . . فسيكون معنى ذلك أن الوقت متأخر ، والوقت المتأخر فى نظر الزوجة لا يعنى غير شيء واحد . . . امرأة أخرى . . .

لن أقول إن هذا الاتهام لفرط ترديده قد أصبح أمنية عزيزة . . .

ها هو الطعام قد أعد . . . وامتلأت المائدة ، ونهض الضيوف للعشاء . إن زوجتى تنظر إلىّ بعينها نظرة معناها أن على أن أقوم بنوع من النشاط يقصد به حث الضيوف على التهام أكبر كمية ممكنة من الطعام ، لكنى أتجاهل نظرتها وتزداد ابتسامتى اتساعاً وبلاهة . ليس الضيوف فى حاجة لمن يستحثهم على الأكل ، لقد جاءوا خصيصاً للعشاء وسينصرفون بعده مباشرة . وسيحتج كل واحد منهم بعذر لينصرف ، ولن يبقى غيرى وغير زوجتى . . . كم تغيرت زوجتى . . . كم تغيرت . . . إنها تزداد امتلاء وسمنة ، وفى المرة الوحيدة التى ذكرت لها فيها أنها تزداد امتلاء وسمنة ردت بأنها تعيش وسط هموم متصلة أنا أحد أسبابها . كم تغيرت زوجتى عن أيام الخطبة . لقد كانت نحيلة ومضحكة ، وكانت فكرة وجود رجل يحبها ويجلس قريباً منها تملأ أوصالها بسرور عظيم ، وكان سرورها يعدينى ، وكنت مسروراً أنا الآخر ، لكننى لا أستطيع أن أقول إننى كنت أحبها هذا الحب الذى نقرأ عنه فى القصص ، لقد تقدمت لزواجها ، وحملت زوجتى نفسها على الاعتقاد (ولا أدرى لماذا) بأننى ما دمت أريد زواجها فلا ريب أننى أعشقها وأهيم بها ، وأخذت على عاتقها كواجب إنسانى أن تنظر إلى بعينين طافحتين بالحب ، وأن تخفف بنكاتها عن قلبى المكلوم ، واستمعت إليها بأدب وتحفظ حتى اكتشفت ذات يوم أن رجلا غريباً يرتدى عمامة ويأمرنى أن أقول وراءه : إننى تبت إلى الله ورجعت إليه وعزمت على ذلك ، كان ثمة مأذون يزوجنى بها ولم أكن قد قررت التوبة يومها ، لكننى تزوجت وأنا أحس بضعف شديد وحيرة غامرة .

لقد جلس الضيوف أمام المائدة وبدأت سيمفونية المضغ والبلع .

مذكرات ٢٧ سبتمبر ١٩٦٤

ما الذى أفقدنى وعيي ودفعنى إلى الزواج ؟

يحتاج هذا السؤال البسيط إلى محاولة جادة لمعرفة الإجابة . أعتقد أنه يحتاج لهذه المحاولة حقاً . لقد كنت سعيداً بنفسى قبل الزواج . لم أكن سعيداً بدرجة كبيرة إذا تحرينا الدقة ، فنفسى فى حقيقة الأمر شيء محير جدا . أعتقد أن نفوس الآخرين كذلك . عند ما نكون وحدنا نهفو إلى امرأة ، وعند ما يغلق علينا الباب مع امرأة ونعرف أن الباب قد أغلق إلى الأبد نبدأ فى نبش الحائط بأظافرنا والبحث عن سكين لنرسم به خريطة تقول للأصدقاء أين نحن حتى يهبوا للنجدة . .

خرجت زوجتى منذ ساعة . صحبت الأولاد والخادمة وذهبت إلى أمها لتزورها . أليس مدهشاً هذا الحب بين البنت وأمها . . يخيل إلى أحياناً أن الحب بين زوجتى وأمها ليس حباً بالمعنى المألوف . . . إنما هو نوع من اطمئنان الكتلة الكبيرة على الكتلة الصغيرة التى هى امتداد لها ، والتأكد من أن هذه الكتلة الصغيرة تأخذ طريقها نحو النمو المنتظم . . . إن الأم حين تزورنا وتقبل ابنتها تمسكها بيديها كأنما تزنها . . فإذا كانت زوجتى شاحبة لأنها خرجت لتوها من مشاحنة حامية مع الخادمة أو معى ، ألقت الأم محاضرة قصيرة عن السعادة الزوجية وعلاقتها بنقص الوزن والشحوب . . . وخلصت إلى الإيهام بأن ابنتها قد تكون تعيسة ، ثم راحت تذكر بشكل عرضى عدد الرجال الذين تقدموا للزواج من ابنتها وكيف كانوا أفضل جميعاً منى ثم فضلتنى البنت رغم ذلك عليهم ، وتتنهد الكتلة الكبيرة وتلقى بالمسئولية كلها على الحب . . . ويبدو كلامها طبيعياً وبريئاً إلى درجة تجعل من العسير على مقاطعتها أو تصحيح معلوماتها مثلا . . . فهى تدردش قليلا وتشرب زجاجتين من الكوكاكولا وفنجاناً من القهوة ثم تنصرف ، وبعد أن

تنصرف أكتشف أنها قالت كل ذلك. . . وأسأل نفسي : لماذا جاءت فلا أجد سبباً غير أنها جاءت تزن ابنتها . . . وتطمئن عليها ، ما الذى تتصوره هذه السيدة . . . هل تتصور أنى سآكل ابنتها يوماً . . . هذا هو نوع الحب بينهما إذن . . . وأحياناً يخيل إلى أن خطأ ما قد حدث حين ولدت زوجتى ولم ينقطع الحبل السرى الذى يصلها بالأم...ولهذا السبب ما زالت ترتبط بها ارتباطاً كاملا...واليوم قررت زيارتها...واعتذرت عن مصاحبتها متعللا بأن ورائى عملا أفضل أن أؤديه فى البيت.ولم يكد شبح زوجتى يختفى فى نهاية الشارع حتى أسرعت إلى دولابى وفتحته وأنا أمنى نفسى بجلسة طيبة مع الأصدقاء فى المقهى... وبحثت فوق الشماعة عن قميص فلم أجد . . . أين القميص الذى خلعته بعد عودتى من العمل . . . ؟ وبدأت أبحث عنه ، واكتشفت خلال بحثى اليائس أن القميص مبتل تماماً ويرقد مع قمصان كثيرة غيره ، وعددت القمصان ، اكتشفت أن واحداً منها غير موجود . . . وتعلقت بهذا الأمل . . . وعاودت البحث ، واكتشفت خلال هذا البحث أننى أعيش فى مغارة تمتلىء بمئات الأشياء التى لا أفهم سبباً لوجودها ، عثرت على الف شىء لكنى لم أعثر على القميص الغائب .

لعله عند المكوجى ، وخرجت إلى الشرفة لأنادى البواب ، نحن نسكن فى الدور الخامس والرجل سمعه لا يمتد لأكثر من ثلاثة أمتار ، وينبغى أن أملك صوتاً هائلا ليسمعنى . . . وزعقت عليه آلاف المرات لكن الرجل ظل مسمراً فوق دكته الخشبية التى تغير مكانها طبقاً لحركة الشمس . . . فتوجد دائماً فى البقعة الظليلة فى الصيف ، ولا تحتل غير الأجزاء المشمسة فى الشتاء . . . وحين رفع الرجل رأسه إلى أخيراً وأفهمته ما أريد . قال إنه لا يعرف المكوجى الذى نستخدمه الآن ، أفهمنى أن الست تشاجرت مع المكوجى الأخير وغيرته ، وأنه قد أعلن عدم تحمله مسئولية هذا المكوجى الجديد الذى لا يعرفه هو . . . من الذى

يعرف مكانه إذن ؟ . . . الخادمة . . . أين الخادمة ؟ . . . ذهبت مع الست . . . وهكذا عدت من الشرفة وفى رأسى نفس الدوار الذى عاد به كريستوفر كولمبس من رحلته لأمريكا ، مع فارق بسيط واحد ، أنه نجح فى اكتشاف أمريكا ، أما أنا ففشلت فى اكتشاف مكان القميص الغائب . . . ويئست أخيراً فوضعت رأسى بين كفى واستسلمت للسجن . . وأضاء فى نفسى معنى أن يكون الإنسان حراً .

مذكرات ٤ أكتوبر ١٩٦٤

تؤمن زوجتى بالحب ، وتعترف بوجوده ، وتعتقد أن الجنسين كانا فى الزمن القديم جنساً واحداً ، ولكن الآلهة بسبب « خبث البشر » ، قطعت الإنسان نصفين ، تماماً « كاللفت » الذى يشق نصفين للتخليل ، وكل منا حين انفصل ، لم يكن إلا نصف إنسان أو نصف لفتة ، هذا النصف يتطلع دائماً إلى النصف الآخر ، هذا النزوع نحو النصف الآخر هو الحب ، وهكذا يتحول الساحر الذى يصنع المعجزات بين يدى زوجتى إلى قطعتين من اللفت تتحرك كل منهما فى اتجاه الأخرى لإنجاب مزيد من اللفت . أليست هذه صورة منفرة للحب .

أعلم أن زوجتى إنصافاً للحقيقة والتاريخ ليست مسئولة عن هذا التعريف ، فقد ورد التعريف على لسان ارستوفانز فى محاورته المادبة لأفلاطون ، وأغلب ظنى أن زوجتى قرأته أيام الجامعة أو سمعته بعد ذلك ؛ فعلق بذهنها واستهواها التعريف ، على أى حال لا شك فى أن انتزاع الكلام من موضعه فى المحاورة وعرضه بهذا الشكل يسىء كثيراً إلى اللفت وإلى الحب. منذ سنوات كنت أتصور أننى أفهم الحب بعقل الفيلسوف وأحسه بوعى العاشق ، وكنت أتصور اسمى إلى جوار اسماء العاشقين الذين سجل التاريخ أسماءهم ، ثم مر الوقت وبدأت أفكارى عن الحب تضطرب وتتخلخل ، وارتفع من أرض الواقع سحاب ترابى ملأ دنيا الحب ، ولم يعد

الحب فى نظرى هو هذا القصر الخشبى الأنيق الذى يمتد البحر عند قدميه . ولم يعد هو هذا الكوخ المسحور الذى تبنيه أحلامنا وتقسم على وجوده فوق سحب لا مثيل لرقتها . . . لم تعد صورة الحب كذلك فى نظرى . . . اهتزت الصورة وسقط كثير من الريش على الأرض وكبر الحيوان . وعاد الوقت يمر ، وطرأ على نظرتى للحب تغيير آخر . راودنى الشك فى وجوده أصلا ، وأقنعت نفسى أن الحب كلمة من اختراع شعراء الأقاليم ، وأراحنى هذا التفسير فعشت زمناً فى تعاسة الحجارة التى تصنع منها أرصفة الموانئ . . . ثم نبهتنى آلاف الزيجات التى تقترف كل يوم بدعوى الحب . . . نبهتنى آلاف القبلات التى يرن صوتها داخل الغلاف الهوائى المحيط بالأرض . . . نبهتنى هذه الأشياء إلى وجود الحب . وعجبت أن يبدو الحب قبل الزواج فى حرارة الشهب فإذا دخل منطقة الزواج تثلج والتف بشرائط الموميات المقدسة ودخل التاريخ . . . لكن عجبى لم يلبث أن ذاب عند ما دققت النظر فى فهمنا للحب قبل الزواج وبعده . الحب قبل الزواج محام مهمته الدفاع . . . محام يعرف أن موكله آثم لكنه يختلق له المعاذير ويفتش عن الظروف المخففة ويضنى نفسه لاكتشاف نقط الضعف فى القانون حتى يخترقها ويظفر بالبراءة . . أما الزواج فينظر إلى الموضوع نظرة قاض لا يمكن شراء ضميره ، قاض أمامه نص فى قانون العقوبات وأمامه واقعة مادية ينطبق عليها النص ولا مفر من الحكم . قاض لا تؤثر فيه بلاغة الدفاع ولا محاولته المكشوفة لتغطية الجريمة . . . ولأن الحب محام نراه يفهم الخطأ ويغفره ، ولأن الزواج قاض نراه يحكم طوال الوقت . لا يكف عن الأسئلة ولا يؤجل الحكم . وزوجتى لا تكف عن إصدار الأحكام على ، ولا تكف عن استجوابى ، وأحياناً تعمد إلى التعذيب رغم أن القانون يمنع ذلك . ولو اختلف الوضع وعكسنا النظريتين وأصبح الحب هو القاضى وأصبح الزواج هو المحامى لقلت الأخطاء وعرف الهدوء طريقه للقلب .

إن الحب فى نهاية الأمر اختيار تتوقف عليه مئات الأشياء ، ويجب أن نختار بنفسية القاضى . فإذا وقع هذا الاختيار أو وقعت الفأس فى الرأس وارتبطنا بإنسان آخر فلنعش معه بنفسية المحامى الذى يفهم الأخطاء ويغفرها .

مذكرات ١١ أكتوبر ١٩٦٤

ونحن نجلس إلى المائدة فتحت زوجتى فمها وأصدرت تصريحاً تؤكد فيه أننى لا أفهم فى الحب ، ولا أعرف معنى أن يكون الإنسان عاشقاً ، ولذت بالصمت العميق بعد صدور هذا التصريح . وانسدت نفسى عن الأكل ، وبدأت أفكر جدياً فى الثورة ، فكرت أن أقلب عليها المائدة وأصيح قائلا : إن هذه عيشة لا تطاق ، ثم أقنعتنى نظرة سريعة إلى المائدة بأننى أحتاج إلى ثلاثة رجال لتحريكها من مكانها ، فكرت أن أمد يدى إلى الأطباق وأبدأ تكسيرها صائحاً : إننى لم أعد أحتمل إهانات . ثم خشيت أن ينطوى هذا التصرف على نوع من أنواع البطر الذى يزيل النعمة ، فقد كانت الأطباق كلها تمتلىء بالطعام . فكرت أن أقول شيئاً يجرح زوجتى ويؤلمها ويجعلها تبكى ، لكننى لم أعثر على شىء يساوى ما قالته منذ لحظات . لقد اتهمتنى بأننى زلطة ، أو شجرة . . أو قطعة من الحجر ، لقد اتهمتنى بأننى لست إنساناً ، فأى إنسان لا بد أن يفهم فى الحب ، والذين لا يفهمون فى الحب هم قطع الحجارة والزلط وجذوع الأشجار ، حتى أغصان الأشجار تفهم فى الحب لأنها تثمر ، ونهضت من المائدة بعد قليل وأنا أحس بالغضب والحيرة ، ولم تلبث مشاعر الحيرة أن تقدمت واستولت تماماً على المكان المخصص لمشاعر الغضب ، لا أفهم فى الحب... ونظرت داخل حياتى نظرة طويلة... وتتابعت أمام عين الذاكرة مواكب الفتيات اللاتى عرفتهن . . . وتدفقت على الروح هذه الذكريات القديمة التى تحمل عبير الطفولة ، وشاهدت نفسى أقف

أمام شباك ابنة الجيران أيام كنا نسكن فى شبرا . . . فتحة الشباك الصغيرة كانت أول قصة حب فى حياتى : كانت تنتمى لدين لا أنتمى إليه ، وكانت تكبرنى بعشرة أعوام ، ولا أعرف حتى الآن حقيقة مشاعرها نحوى ، لكننى أحببتها حباً لم يمنحه رجل قط لامرأة ، وكان عمرى أيامها ثلاثة عشر عاما ، وكنت أحس أننى رجل ، أليست الرجولة هى الإحساس بالمسئولية ؟ لا ريب أنى كنت رجلا أيامها ، فقد اعتبرت نفسى مسئولا عنها ، وكنت أوصلها كل يوم إلى مدرسة الراهبات . والويل لمن يتجرأ على مغازلتها أثناء سيرها فى الطريق . . . كنت أخبطه فى كتفه بطريقة لاتدع له مجالا للالتفات لشيء سوى أن يعيد ما تبعثر من نفسه . وتقدم بى الحب ، وتعودت أن أهبط المشتل القريب لأسرق منه وردتين أو وردة لأعطيها لها وهى عائدة من المدرسة ، كنت أعجب لهذا الشيء الذى يجعل قلبى يخفق بملايين الأحلام دفعة واحدة وأنا أقدم لها الوردة ، وكانت تعرف أننى صديق شقيقها ، وكانت ترانى فى بيته معه أحياناً .

وكانت تسألنى : إيه ده . . .

وكنت أتلعثم ، وأصف لها المشتل القريب وأحدثها عن زهوره الجميلة وأحكى لها كل شيء عن المكان الذى كانت وردتها تعيش فيه . . .

وكانت تتناول منى الوردة وتقربها من أنفها الصغير وتحنى رأسها وتبتسم وتسير . . . لا تقول كلمة . . . لا تقول حتى أشكرك . . . وأتوقف حتى تسبقنى بمسافة كافية ، ثم أبدأ حراستى لها مثل كلب وفى . . .

لم تكن أحلامى تجرؤ على الدنو من جسدها ، لم تكن بالنسبة لى غير كائن مجرد هو الحب نفسه . . .

وانكسر الحب فجأة . . .

أذكر اليوم المشئوم الذى وقفت فيه السيارة الصغيرة الكالحة أمام بيتها وهبط منها شاب طويل مع امرأة عجوز واختفيا فى باب العمارة . . . وذاع النبأ فى المنطقة بعدها بيومين . . . قاله شقيقها لى ، ووقفت بلا حول ولا قوة

أسمع نبأ زواجها . . .

وخرجت البنت من حياتى ، دخلت ذات يوم سيارة زرقاء كبيرة وهى ترتدى طرحتها البيضاء ومضت . . .

كانت السيارة تثير كثيراً من التراب وهى تمضى . . . وكان التراب والسيارة وطرحتها البيضاء والورود والمشتل ومدرسة الراهبات وسانت تريز وشارع شبرا تبدأ الغرق وسط موجة من الدمع أعتقد أنه كان يفيض من مكان لست أعرفه داخل نفسى . . .

بتفكر فى إيه . . . ؟ هذا صوت زوجتى ، ما أقسى النقلة المفاجئة .

مذكرات ١٨ أكتوبر ١٩٦٤

تمر بالإنسان لحظات من السلام النفسى التى يحس فيها بالصفاء العميق والشفافية ، حتى ليجهل ساعتها من يكون وإلى أى كوكب ينتمى.. لحظات نادرة تمر بالمرء قليلا لكنها عند ما تجىء تدفع الإنسان مباشرة فى قلب الوجود، فيتصل بالكون، ويتصل بخالق الكون، ويتسمع لحفيف أجنحة الملائكة ويروح يفكر فى قلبه . . . هذا القلب البشرى الذى يملك القدرة على دفع الدم فى الأنسجة كما يملك القدرة على دفع الدمع فى العيون ، كما يملك القدرة على الامتلاء بملايين الأحلام الجميلة ، ويظل الإنسان يرق ويرقب نفسه ، ويتأمل فيها العظمة الخالقة ، ثم يعتصر المعدة جوع يجعلها تتحرك ، ويفكر المرء فى الطعام ، فى المعدة ، فى هذا المعمل الكيميائى المعقد الذى يمتلئ بأحماض تهضم كل شىء باستثناء المعدة نفسها ، ويعمق الاتصال ويشف الإنسان ويفهم نعمة خلقه إنساناً ، وكان يمكن أن يخلق قطعة من الطوب أو فرعاً فى شجرة ، ولو أنه خلق هكذا لما وجد فى نفسه الجرأة على أن يسأل خالقه لماذا لم يخلقه إنساناً بدلا من خلقه جماداً تعيساً أو نباتاً يأكله الآخرون . . . ويغمر الإنسان شعور بأنه يريد أن يجمع كل صلوات الشكر فى كلمة يقدمها إلى الله . . .

وقبل أن يهم الإنسان بذلك يتغير المنظر .

تقتحم الزوجة الحجرة فجأة كزوبعة هائلة . . . وتستدير الزوبعة وتتلفت . . . لعلها تبحث عن شيء . . . إنها تدور بعينيها فى أرجاء الغرفة . . ها هى تنحنى أخيراً على شيء فى الأرض . . . الحمد لله . . . لقد وجدت ما كانت تبحث عنه . . . وستتركنى فى حالى وتخرج . . . ولكنها تلاحظ وجودى . . . إننى جزء من المنظر الطبيعى الذى يقع أمامها مباشرة . . . وتلاحظ مع وجودى هذا الهدوء الذى أستمتع به . . . وكنوع من استخسار الهدوء فى ينفجر سؤالها فجأة . . . ولا أتبين مفردات السؤال . . .

* نعم . . .

— الله ينعم عليك . . .

آه . . . ها هى تعود إلى المناورة . . . لماذا لا تلقى على السؤال مرة أخرى فأجيبها فتستريح ، وأؤكد لها أننى لم أسمع . . . وتقول وهى ترقبنى بنظرات الشك :

* غريبة إنك ما سمعتش . . . بسألك سرحان فى إيه ؟

— أبداً . . . ولا حاجة . . .

وترمقنى بنظراتها الصارمة ، وتسأل :

* فيه بنى آدم يقعد ساكت من غير ما يفكر فى حاجه ؟

وأرد عليها وأنا أتذكر اتهامها لى بأننى لا أعرف الحب : البنى آدم اللى ما يعرفش يحب ده مش بنى آدم ، ويبقى ممكن يقعد ساكت من غير ما يفكر فى حاجة .

وتشيح بيدها إشارة إلى سأمها من استمرار المناقشة حول الحب . . . وتغادر الغرفة . وتملؤنى حركة يدها إحساساً بأن كل عاطفتى تلقى من النافذة التى تطل على بحيرة دائمة صنعتها المجارى منتهزة فرصة الفيضان الماضى . أحس أننى زائد فى المكان . . . أليس غريباً أن يكون لزوجتى رأيها المضحك

فى الحب ثم تتهمنى بالتجرد من العاطفة. . . هل صحيح أننى لا أعرف كيف أحب؟ إذا كان حديث زوجتى غير صحيح فلماذا أشعر بكل هذا الضيق . . ؟ يبدو أنها أصابت بحديثها جزءاً من الحقيقة . . . أعرف أنها أصابت هذا الجزء . . . أحياناً أسأل نفسى : أين تعلمت الحب . . ؟ قد يبدو السؤال مضحكاً وغريباً : لكنه جدير بأن يناقش . . . أين يتعلم الإنسان الحب ؟ ! .

فى المدرسة؟ . . . قطعاً لا . . . إن مدارسنا تنظر إلى الحب نظرتها إلى الخطيئة . . . ولا تعلمنا المدارس أى شىء على وجه الخصوص . إنها تفتح أدمغتنا وتسكب فيها عدداً من المعلومات السخيفة التى لا تلبث أن تنزلق من رؤوسنا بعد الامتحان مثلما ينزلق الزئبق على الزجاج . . .

إننى أذكر المدرسين الذين درسوا لى . . . كلهم بلا استثناء كانوا مرهقين لأمر لا أعرفه ، كلهم بلا استثناء كانت ملامحهم تعكس تعباً نفسياً هائلا . . .

وكانوا جميعاً غير قادرين على منح الحب أو استقباله . . . وكان احترامنا لهم يتناسب تناسباً طردياً مع قسوتهم . . . وكانوا جميعاً قساة . . . باستثناء واحد منهم أو اثنين . . . وكان المدرسون يدخلون الفصل ويفتحون أفواههم ويكومون أمامنا المعلومات المقررة ويمضون . . . لم يعلمونا كيف نحب . . . ولا كانوا هم أيضاً يحبون . . .

مذكرات ٢٥ أكتوبر ١٩٦٤

المدرسة لا تعلمنا الحب لأنه ليس مادة قررتها وزارة التربية ، والبيت لا يعلمنا الحب لأنه يفتقده . . . وفاقد الشىء لا يعطيه ، ولا يبقى فى الميدان بعد ذلك غير الصورة التى تقدمها السينما والإذاعة والقصص للحب. . . وهى صورة يستحيل بعدها أن نعرف غير حب مريض ليست له القدرة على الوجود الصحيح داخل أسرة .

وإنى لأذكر أيام كنت تلميذاً صغيراً أغنية تقول (على غصون البان عصفورتان تتناجيان بأعذب الألحان)... وكانت هذه هى الصورة المبسطة الأولى للحب ... وكل كلمات الأغانى أيامها تسلك إلى الحب طريقين : إما طريق العصافير والبلابل وهو طريق يمتلئ بأخيلته الرومانسية وولائها الشديد للطبيعة ، أو تسلك إليه طريق العذاب . . . فإذا هى تتحدث عن الحب فلا ترى فيه غير جانب الأسى والضنى والألم .

كانت الأغنية تقول أيامها : « ثريا . . محلى حياة الأسيه . . . » . وكانت ثريا هذه فتاة لا ترسم الأغنية صورة لملامحها النفسية بقدر ما ترينا كمية الصداع المستمر الذى تسببه لحبيبها . . . حتى ليبلغ الألم حداً يجعله يبكى ، ويبلغ الخوف حداً يجعله يستحلى مذاق البكاء ، ومن الغريب أننى أحببت بتأثير الأغنية فتاة تسمى ثريا ، وكنت تلميذاً بالابتدائى ، وكانت توصلنا سيارة صغيرة يقودها الحاج رضوان . . . وكانت البنات يجلسن بجوار عم رضوان ويجلس الأولاد فى الخلف . . . وأوقعتنى هذه الرقة الآسرة التى تشع من عينيها . . . وقررت أن أحبها بطريقة الأغانى . . . وهكذا رحت أكتب إليها خطابات بالحبر الأحمر الذى كان أبى يستخدمه . . . مصدراً كل خطاب بهذه العبارة « أكتب إليك بدمى» . . . وكنت أعطى هذه الخطابات لأحد أصدقائى الصغار ، وكان يسكن فى شقة تواجه شقتها ويقسم لى أنه يقوم بتوصيل هذه الخطابات إليها . . . بغير أن يقرأها . . . ودفعتنى سخافة الدراسة إلى أن أكتب إليها أكثر من مائة خطاب طوال السنة . . . وحين جاءت نهاية العام تصورت أن القلعة الصغيرة لا بد أن تكون مشتعلة بنيران الحب . . . ثم فوجئت بأبى يستدعينى يوماً إلى حجرته ولم يكن يستدعينى إلى حجرته إلا فى الأمور الخطيرة ، ودخلت عليه لأجد كل خطاباتى التى أرسلتها وهى ترقد أمامه . . . قال أبى يومها وهو يضع رأسه بين يديه ويمثل دور رجل أصابته كارثة فى ابنه الوحيد :

— بتقول إنك بتذاكر طول السنة وأنت قاعد تحب . . .

قالها أبى وأبعد يديه عن رأسه . . . وعاد يردد فى ذهول :

ــ يا خبر اسود . . . قاعد تحب طول السنة وتضحك على وسايب المذاكرة . . . أعمل فيك إيه . . . قل لى أعمل فيك إيه . ؟

وحاولت أن أبحث معه عن عقوبة يوقعها على حتى يهدأ غضبه فلم أجد شيئاً . . . وفوجئت بشىء ثقيل يسقط على وجهى وأغلب الظن أن هذا الشىء الثقيل كان يده . . . ومنعنى الذهول والخوف من البكاء . . . وتحدث أبى وصوته يعلو تدريجاً عن دكان العجلاتى الذى يقع عند رأس الشارع . . . وارتفع صوت أبى أكثر وهو يقسم أننى إذا رسبت فسوف يرمى طوبتى تماماً ويأخذنى من يدى إلى العجلاتى ويتركنى عنده رهينة لأتعلم حرفته ، ويتحدد مستقبلى إلى الأبد . . . وكان التهديد شيئاً مخيفاً ، فلم تكن الأفكار الاشتراكية منتشرة كهذه الأيام . . . وأقنعتنى التجربة ألا أعود إلى الحب بطريق الأغانى مرة ثانية . . . وكانت الأغانى تضرب فى تيه الذهول وتتحدث عن حلاوة عيشة الفلاح وسعادة العامل ، وتصور فى نفس الوقت كسل المحبين وعجزهم عن اللحاق بالحبيبة فتقول الأغنية : هاتوا لى حبيبى . . . وحين دخلت الحرب العالمية الثانية سقطت الأغنية من سماء الرومانسية بكل سحابها الحالم إلى أرض الجنس الطينية الغليظة . . . وراحت الأغانى تخاطب جانباً واحداً من جوانب الإنسان . . . هذا الجانب الذى يقف فيه الإنسان وزميله الحيوان على قدم المساواة .

وتسللت كلمات من اللغة الإنجليزية إلى الأغانى ، مجاراة لشعور جنود الحلفاء الذين كانوا ضمن المستمعين . . . وهبط المعنى وزاد غباء اللحن وانحطت الأغنية . وحورب سيد درويش بشكل منظم وهادىء ، وانحسرت آخر بقايا الموجة التى خلفها سيد درويش بشكل منظم ، وعادت راية التفاهة ترفرف على أشلاء الفن الحقيقى والأصالة . . . أى حب تعلمه هذه الأغانى . . . ولم تكن السينما أحسن حظاً من الأغانى . . . وكانت الأفلام تدور غالباً حول هذه الفكرة . . . ابن ذوات يحب فتاة

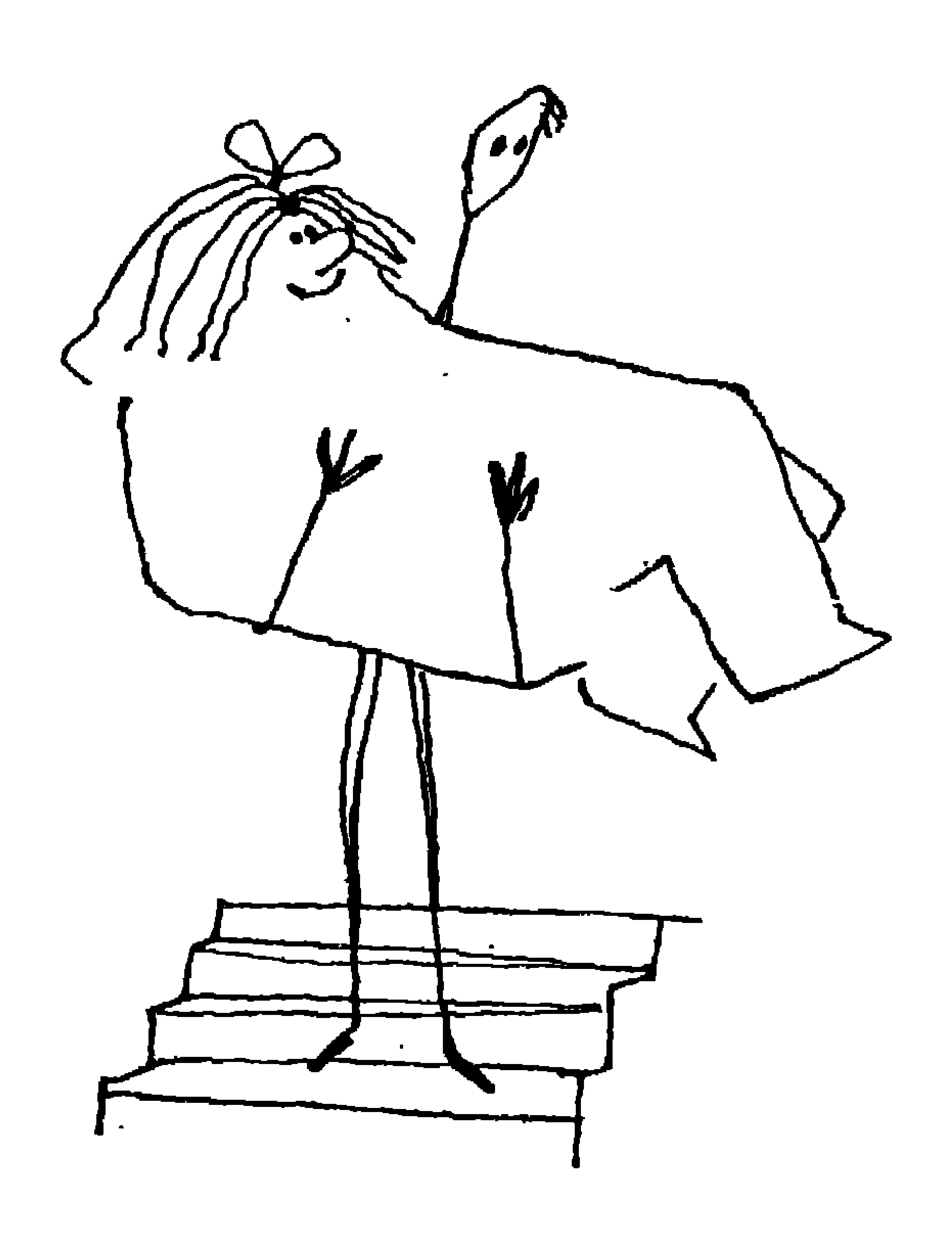
فقيرة . . . يحبها رغم أنف والده . . . يثور الوالد . . . يبرز فى الجو غريم سيئ يجتذب الفتاة . . . الفتاة تنساق . . . البطل الطيب يسقط فى كأس من الويسكى فى مكان فيه راقصة . . . الراقصة تنهض واقفة وتهز جسدها . . يستيقظ الطبل ويبدأ الرقص . النهاية سعيدة . البطل يتزوج من البطلة . . . فى الزفاف راقصة . . . الطبل يبدأ والرقص يشتغل . . . ولم تكن القصص أيضاً تشذ عن القاعدة . . . معظم القصص كانت تصور القاهرة كحجرة كبيرة تضيئها لمبة حمراء وتزمجر فيها السيارات المحمومة إلى جوار المصابيح العارية . . .

وكان أثمن شيء يساوى أى شيء . . . وكمن الروح المصرى هذا الكمون الذى ينبئ باقتراب عاصفة تنزع الجلد من اللحم وتنزع اللحم من العظم وتغسل الجلد وتغسل اللحم وتغسل العظم وتطهر .

أين كان يمكن لزوج مصرى مثلى أن يتعلم الحب . . . ما أغرب الذكريات . . . عند ما أنظر فى طفولتى أستطيع أن أحس بمدى القسوة التى تكمن فى الحرمان من الحب . . . ولم تكن بيوتنا وهى تضم آباءنا المرهقين الغاضبين دائماً . . . وأمهاتنا المتعبات الشاكيات دائماً . . . لم تكن بيوتنا تصلح مكاناً لتعلم الحب . . .

مذكرات ١ نوفمبر ١٩٦٤

عندما يقع القتال بين الزوج وامرأته تستخدم المرأة قوتها اليومية وتكسب المعركة بأقل الأسلحة . . . أحياناً أنظر لزوجتى وأرقبها خلال قتالها معى . . إنها لا تنتصر بالقتال أو الشجاعة ، بل بالمثابرة والنشاط ، وقتال الرجل صريح وواضح ، لكنه أقل ثباتاً ، والرجل أكثر استعداداً من المرأة للصلح والتسليم فى سبيل الحصول على السلام ، والمرأة أكثر قدرة على الثرثرة ، وتنتصر المرأة بالتكرار والإلحاح ، تماماً مثل إعلان سخيف يتكرر يوماً بعد يوم حتى يحتل مساحة خاصة فى ذهننا ويصبح الإقبال عليه



شيئاً يدخل ضمن تكويننا النفسي . وبرغم ضعف المرأة الجسدى نراها تحكم الرجل فى نهاية الأمر ، وكل نجاح عظيم يحققه الرجل تستفيد منه زوجته أولا ، وتسخره ليحقق نجاحاً غيره دون أن يدرى ، حتى نابليون لم يستطع حكم زوجته مع أنه تمكن من حكم قارة ، أليس هو القائل : « لم أكن فى نظر أسرتى إلا رجلا ضعيفاً ، وكانت زوجتى تعرف عنى ذلك . . . وتتغلب على غضبى بالعناد والمثابرة وتسوقنى إلى تحقيق ما تريده لمجرد سأمى من استمرار القتال » .

لست أعظم من نابليون ، وإن كنت أعتقد أن زوجتى أكثر دهاء من جوزفين . . . وليس اعتقادى فى دهاء زوجتى اعتقاداً مؤبداً . . . أبداً . . . هناك ملايين اللحظات التى أحس فيها أن زوجتى أكثر حمقاً من جحا الذى كان يحرض الصبيان على أهل بيت مدعياً أن هناك حفلة عرس تقدم الطعام مجاناً . . . فإذا مضى الصبيان إلى العرس المزعوم صدق هو كذبته ومضى وراءهم ، أمس فقط أمسكت زوجتى الجريدة وانهمكت فى القراءة . . . كانت تقرأ موضوعاً يقول عنوانه : « إتيكيت الصعود على درجات السلم والركوب فى الأسانسير » . وسمر العنوان عينى فوقه ، قلت لنفسى : كم من أشياء يجهلها الإنسان فى هذا العالم . . . هذا أحدها بلا شك . . . صعود السلالم ونزولها . . . مجرد دخول الأسانسير ، هناك إتيكيت لذلك ، وانحنيت على الجريدة ورحت أقرأ ، بدأ الموضوع هكذا . . . « أول ما تدخلين من باب منزلك تتركين الشارع وتبدئين فى الصعود على درجات السلم ، أو تركبين الأسانسير ، يجب أن تتصرفى وتتعاملى بلباقة مع الأشخاص الذين تقابلينهم حتى لا يتهمك أحد بأنك جاهلة بأبسط أصول وقواعد الإتيكيت ، وعلمى أيضاً زوجك وأبناءك هذه القواعد » . ما أجمل هذا الكلام ! . . . قلتها لنفسى ثم أدركت أن هذه مقدمة . . . وأننا لم نعرف حتى الآن إتيكيت صعود السلم ونزوله وكيف يكون ذلك ، وعدت أنحنى على الجريدة وأقرأ : « إذا قابلت

رجلا غريباً فى أثناء الصعود على درجات السلم فمن واجبه أن يحييك بابتسامة وبانحناءة خفيفة من الرأس ، وعليك أن تردى هذه التحية بنفس الأسلوب ، ثم عليه أيضاً أنْ يفسح لك الطريق ويتجه نحو الحائط لكي يتركك إلى جوار درابزين السلم » .

رفعت رأسى عن الجريدة وأنا أمتلئ بالدهشة . . . ما هذا ؟ . . . كيف تشجع الصحيفة زوجتى على هز رأسها لرجل غريب مع ما يستتبعه هز الرأس من ابتسامات يعلم الله مداها ، وعدت أنحنى على الجريدة وأقرأ . . . « الزوج يجب أن يتبع زوجته عند ما تكون فى صحبته عند الصعود على السلم ، ويسبقها عند النزول لتجنب أى حوادث فى حالة ما إذا انزلقت قدماها مثلا أو وقعت » . ورفعت رأسى عن الجريدة ... ما أغرب هذا الكلام ! ! معنى هذا أن يتأخر الرجل عن زوجته وهى تصعد السلم حتى إذا وقعت وقعت عليه وكسرت رأسه ، فإذا نجا من ذلك وجب عليه أن يسبقها عند النزول حتى إذا سقطت سقطت فوقه وفقأت عينه ، وفى الحالتين يتصدى الرجل للخطر . . . أهذا هو إتيكيت صعود السلالم ونزولها ؟ . لماذا لا ينص الإتيكيت على أن يحمل الرجل زوجته عند صعود السلالم ونزولها حتى لا يصيبها التعب . . .

مذكرات ١٥ نوفمبر ١٩٦٤ .

اليوم عيد ميلادى . . .

فى مثل هذا اليوم . . . منذ ٣٢ عاما . . . وفى الساعات الأولى من الفجر . . . وحين كان المؤذن يقول شيئاً لم تتبينه أمى . . . فى هذه اللحظات ولدت ، لا أعرف كيف كان إحساسي وقتذاك ، فأنا لا أذكر اليوم شيئاً معيناً بالتحديد ، سمعت من أمى أنها كانت تتألم ، وأعرف أننى لو عشت حياتى كلها أقبل الأرض عند قدميها فلن أعيد الزمن وأمحو لحظة من لحظات ألمها العظيم ، أعلم ذلك وأحسه ، وتملؤنى الدهشة إزاءه .

وكان أبى كما يقولون يرتجف خارج الغرفة ، ولا أحد يدرى غير الله ماذا كان يدور فى نفسه من مشاعر ، وأغلب الظن أنه كان محكوماً بالخوف . فقد مات له ولد قبل ذلك خلال ولادته ، وكنت معقد رجاء كبير . ولقد قيل لى : إن أول سيدة تلقتنى بيديها هى زوجة خالى الكبير . ولقد أحببتها حين كبرت حباً عظيماً لهذا السبب .

أخيراً ولدت . . . واستغرقت رحلتى نصف ساعة من الآلام تركت بعدها حجرتى المظلمة إلى الضوء .

من الغريب أن هناك شيئين لا ينكرهما الإنسان وإن كان لا يعرف عنهما أى شىء : الميلاد والوفاة . . . نحن نعرف تماماً أننا نولد . . . نحن على ثقة أننا سنموت . . . ورغم تأكدنا التام ووثوقنا الشديد من هاتين الحقيقتين لا نذكر مشاعرنا ساعة الميلاد ، ولا نعرف أحاسيسنا ساعة الوفاة ، وتبقى أخطر حادثتين فى حياتنا مغموستين تماماً فى الضباب .

ما أشد حمق الذين ينكرون الخالق لأنهم لا يرونه . إن أحداً لم ير ميلاده هذه الرؤية الواعية ، كما أن أحداً لا يرى وفاته هذه الرؤية الواعية ، ما أغربنى اليوم ، ما الذى أفكر فيه . لماذا ينحدر تفكيرى نحو الموت ، هل يمكن أن تكون هذه الشعيرات البيضاء التى لاحظت وجودها هذا الصباح خلال مرورى على المرآة هى المسئولة عن ذلك ، لا أعتقد أننى اليوم بحالة طبيعية ، مجرد شعورى بأننى أحمل كل هذه الأعوام فوق ظهرى يكاد يكسر ظهرى ، ما أغرب شباب هذه الأيام ، إن أحدهم يعرف الحب فى الثامنة عشرة ، وينكسر قلبه فى العشرين ، ويعدو تفكيره نحو الموت فى الثلاثين ، يجب أن أنبذ هذه الأفكار وأنصرف لعملى ، كان اليوم هادئاً فى العمل ، ونسيت خلال مشاعر العمل أن اليوم عيد ميلادى ، ثم دق التليفون يطلبنى فى الساعة الثانية عشرة ، وضعت السماعة فوق أذنى ودهشت ، هذا صوت امرأة لا أعرفه . . . صوت يقول لى : كل سنة وأنت طيب . لم يكن هذا صوت زوجتى . . . قلت

بخوف وصوتى ينخفض رغماً عنى :

ــ من الذى يتحدث ؟

ــ قال الصوت النسائى بدهاء : كنت تقسم أنك لن تنسى . قالتها وضحكت . . . وتذكرتها من ضحكتها على الفور . . . عرفت من تكون . . . تلك كانت فتاة أحببتها فترة من عمرى ثم انضمت إلى سلسلة الأشياء التى فقدت منى وضاعت خلال حياتى على الأرض . . .وتفجرت داخل روحى ، وأنا أستمع إليها ، آلاف الصواريخ . وهزتنى فرحة طفلة وأنا أتحدث معها ، كم كانت رقيقة لأنها تذكرت عيد ميلادى . . . وانتهى الحديث بيننا بأن سألتنى عن دنياى وسألتها عن دنياها ، وتمنى كل منا لصاحبه ما يتمناه لنفسه . وعدت إلى البيت وأنا أحمل لها كثيراً من مشاعر الامتنان . . . ولم أكد أدخل البيت حتى فاجأتنى زوجتى بقصة طويلة عن الخادمة . . . وارتفع صوتها وهى تتحدث . . . ولم تكد تمضى دقائق حتى كانت تشير بيدها إشارات غاضبة فى وجهى . . . وتشاءمت من الطريقة التى تتحدث بها زوجتى ، قلت لنفسى : إنها تجرنى إلى معركة صغيرة قبل الغداء حتى لا أميز طعم ما يقدم إلى ، وابتسمت فى وجهها واعتذرت لها نيابة عن الخادمة وعن البواب وعن البقال وعن الترام المزدحم وعن الجو السيئ وعن كل أخطاء الحياة فى حقها . . . ثم جلسنا إلى المائدة . . . ورحت أنتظر . . . كنت قد تراهنت بينى وبين نفسى على أنها لن تذكر عيد ميلادى . . . ومر الوقت وأفكارها تذهب وتجيء لكنها لا تقترب من يوم مولدى أبداً . . . ورحت أقول لنفسى : إنها ستذكر اليوم ، لكن آلاف الأشياء الصغيرة كانت تشغلها تماماً عنى . . . وفى نهاية اليوم كانت قد طرقت مئات الموضوعات باستثناء هذا الموضوع ، وتفاءلت خيراً حين قالت لى قبل أن ننام : نسيت أن اقول لك شيئاً . . قلت لنفسى : ها هى أخيراً تتذكر . . . لكنها قالت إنها نسيت أن تخبرنى بأن أنبوبة البوتاجاز أصبحت فارغة وأن على غداً أن أتصل بالشركة

وأطلب أنبوبة . . . قالت كلمتها وأعطتنى ظهرها وانزلقت إلى النوم ... ساعتها . . . وساعتها فقط . فكرت فى الصوت النسائى الآخر . . .
واكتشفت كم كانت صاحبته رقيقة وعذبة !

مذكرات ٢٢ نوفمبر ١٩٦٤

مأساة الزوجة المصرية أنها عند ما تعمل تتصور أن من حقها أن تصبح رجلا فى البيت ، وعند ما تتزوج تقنع رئيسها فى العمل بأن كل تأخرها فى المجىء ولا مبالاتها وعدم تحملها المسئولية راجع إلى أنها زوجة وأن عليها أعباء هائلة فى البيت . . .

ويلعن الزوج رئيس زوجته الذى يؤدى لتقهقرها فى البيت ، ويلعن الرئيس زوج الموظفة لأنه يؤخرها فى العمل. . . وتتوزع المسئولية بين الرجلين وتنجو المرأة . . . هذه مأساة المرأة المصرية . . . إنها تنظر إلى الخلف فترى المرأة تحظى بحب الرجل واحترامه فتطالب بمثل هذا الحب والاحترام ، وتنسى تماماً ما كانت هذه المرأة تقدمه من خدمة لزوجها . . . خدمة تذهب إلى حد طقطقة أصابعه ، أما زوجتى فهى تطالب بحقها أولا وتنسى واجبها تماماً مثل عامل يتصور أن الاشتراكية هى مجموعة من الحقوق لا يقابلها أى واجب ، وتفرح الزوجة المصرية بالحرية التى لم تكن جدتها تستمتع بها ، لكنها لا توظف هذه الحرية فى شىء تثرى به حياتها ، إنما تقضى نصف عمرها وهى ترقب مذيعات التليفزيون لتحاول أن تتعلم منهن أسرار الأناقة والتجميل وارتداء باروكات الشعر . .

أذكر كتابا قديماً قرأته لملك حفنى ناصف ، ولا أحسب أنى احترمت امرأة وأكبرتها وأحسست بمدى وعيها وجهادها من أجل الحياة ، كما احترمت ملك حفنى ناصف . . .

ولقد كتبت ملك حفنى ناصف مقالات كثيرة فى الجريدة التى كان يرأس تحريرها أحمد لطفى السيد .

كتبت تقول :

« الزوجة المصرية مسلوبة الحق مظلومة فى كل أدوار حياتها . نراها يتشاءم منها حتى وهى جنين ، فإذا ظهرت مولودة تستقبلها الحياة مقطبة والصدور منقبضة ، ترى القابلة وهى تحملها منكمشة لا تبدئ ولا تعيد كأنما كان لها بعض الذنب فى ولادتها أنثى . . . كذلك حالها فى التربية يتزوجها الرجل ويستبد بها إلى درجة تميت نفسها وتفقدها الإحساس والحياة ، ويحتقر الرجل المرأة فيجلس لطعامه وحده ولا يدعوها لمشاركته فيه ، فإذا فرغ منه تأخذ لقمة من هنا وأخرى من هناك كما يفعل الخدم . . . ويظهر احتقار الرجل للمرأة جلياً فى أفعاله وتصرفاته . إذا حزن يوماً لا يكاشفها بما يؤلمه . . . يخرج من البيت ولا يعود إليه إلا لأمر ضرورى وكل أسراره نهب للأصدقاء ، أما زوجته فلا يعدها إلا طاهية أو خادمة ، وأظن أن الرجل لولا بقية حياء فيه لما جاء منزله ، ولولا أن أكله فى الفنادق يكلفه كثيراً لما ذاق طعام بيته » .

تلك كانت حالة زوجة الأمس . . . أليس جديراً بزوجات هذه الأيام أن يقبلن أيديهن كل يوم مرتين لأنهن ولدن فى عصرنا هذا . . . عصر الحقوق النسائية التى لا تقابلها واجبات . . . وعصر الواجبات الرجولية التى لا تقابلها حقوق . . .

مذكرات ٢٧ ديسمبر ١٩٦٤

لو أستطعت أن أجمع الرجال . . . كل رجال الأرض . . . لنتفق على خطة موحدة إزاء النساء ، لو استطعت أن أقول لهم يا أزواج العالم اتحدوا فلن تخسروا غير القيود ، لو استطعت ذلك لاسترحت ، لكن ما يؤلمنى ويحز فى نفسى أننى أعلم أن الأزواج جميعاً يستعبدون على حدة ، ويقاومون على حدة ، وتقوم كل زوجة بكسر هذه المقاومة كل يوم بشكل منظم وهادئ ، حتى تذوب . . .

وهذه هي طريقة كل الطغاة.

دخلت زوجتي البيت منذ دقائق . . .

أعصابي كلها تحس وقع هذا الدخول . إن زوجتي مثل جنكيز خان الفاتح الشهير تحدث أكبر ضجة ممكنة حين تدخل مكاناً أو تخرج منه . ولقد كان البيت يسبح في السلام منذ لحظات ، ثم انكسر حائط برلين فجأة ودخلت هي . عرفتها من وقع قدميها ؛ ثم تبينت صوتها الآمر وهي تصدر سلسلة من التعليمات للبواب . . . بعد ذلك سمعت صوت شيء يوضع على الأرض ، وكان لهذا الشيء رنين غريب ، وخرجت من الغرفة يدفعني حب الاستطلاع فشاهدت سخاناً على الأرض . آه . . . لقد انتصرت زوجتي أخيراً وحضر السخان .

لقد بدأت معارك السخان في بيتنا بالاحتجاج ضد البرد ، وهو احتجاج تلقيناه بفتور . ثم صدر قرار بمقاومته . ثم بدأت سلسلة إطراء للمخترعات الحديثة ومن بينها السخان ، ثم حصل تركيز على السخان ، وأخيراً تقدمت بطلب للنقود .

ولقد كنت أستمع لكل ملاحظاتها وتنهداتها عن السخانات في البيوت المجاورة وكأنني أشاركها رأيها ، حتى جاء اليوم المشهود وطلبت مني نقوداً للسخان . . . وأفهمت زوجتي أنني مفلس ، وأنه ليست هناك أي بارقة أمل في الأفق للحصول على نقود ، وأن رئيسي في العمل قد أصبح ينظر إلى بدهشة كلما صادفني وكأنه مدهوش لأنني ما زلت أعمل ولم أفصل بعد . أما الأصدقاء فهم في مثل موقفي من انعدام القدرة المالية ؛ والأقارب عقارب كما تعلمين ، وإمكانيات الاقتراض من البنك غير ممكنة لأن السلفة القديمة ما زالت تقتطع من المرتب . . .

— أنت صاحبة أرض ، لماذا لا تبيعين هذه الأرض وتشترين سخاناً من أجلنا . . .

قلت لها ذلك وأنا أكتم الضحك داخلي ، فزوجتي تملك سبعة

عشر قيراطاً من الطين ، وهذه القراريط تقع فى إحدى محافظات الوجه البحرى قريباً من الصحراء ، وأغلب الظن أن هذه القراريط تنتمى للصحراء الكبرى إذ أنها تدر إيراداً يقدر بالقروش كل عام . . . وبرغم كل هذه الحقائق يتملك زوجتى زهو عظيم حين تجىء سيرة الأملاك .

— قطعة الأرض التى نملكها فى الشرقية .

هذه بداية الحديث إذا كان الحديث أمامى ... أما إذا كنت غائباً . فإنها تقول بابتسامة متواضعة . . . عزبتنا فى الشرقية .

ويصدق السامع أن هناك عزبة ، ولقد حدث من فرط تكرار زوجتى لهذا الحديث أنها أحياناً تخطىء أمامى فتتحدث عن عزبتها فى الشرقية ، وليست هذه العزبة بالتى تدر أكثر من ثلاثين قرشاً كل شهر ... فالرجل الذى يستأجرها رجل طيب تبدو عليه علامات الانزعاج الشديد . والأرض فى المنطقة لا تعطى شيئاً ، والإيجار لا يتماسك أبداً فى جيب الرجل الطيب ، والأعذار التى يقدمها حين يتحدث عن الآفات التى أهلكت الزرع تؤكد أن هناك زرعاً فعلا ، وتوحى بوجود عزبة حقيقية . . . على أى حال . . . ليس المال هو الموضوع الذى يهم زوجتى من العزبة أبداً . . . هناك شىء آخر . . . هذا السبب هو كبرياء المحتد ... تتصور زوجتى أن الطين أحد أسباب الفخر العائلى ، وفى ليالى الصفاء تحكى زوجتى قصة هذه الأرض فتقول : إن الشرقية كلها والمحافظة المجاورة كانتا ملكاً لأحد أجدادنا الأتراك ، وكان رجلا يحب الطعام والنساء فأنفق كل شىء ، وتعاقب الأولاد يضيعون ثروة الجد حتى صفصفت فى النهاية على بضعة أفدنة وبضعة قراريط تقاسمتها مع العائلة ، وتضم الحكاية احياناً منظراً يقف فيه أولاد العم بالبنادق ويهجمون على أرض الفتيات ويبتلعونها . . . ولقد كنت أستمع لهذه القصص بحبور عظيم ، فهى فى نهاية الأمر لن تكون أسخف من حكايات الإذاعة ، ولا ضرر مطلقاً من هذه المحاولات التى تأتيها زوجتى لتثبت لى أنها تتفوق على تفوقاً تاريخياً

وأن من حقها ممارسة نوع من أنواع السيادة .

ثم فوجئت بالسخان وقد حضر ، وقصت على زوجتى قصة طويلة مؤداها أن العزبة قد نقصت بعض حجمها ، وأدهشتنى هذه المعجزة . أرض الصحراء تتحول إلى سخان . . .

مذكرات ٣ يناير ١٩٦٥

يعتقد الكثيرون أن الزواج عمل سهل ، بمعنى أن كل إنسان يستطيع أن يأتى هذا العمل ، وهذه إحدى المغالطات الكبيرة فى مسألة الزواج ، لقد اتضح لى أن الزواج عمل صعب ، يشبه العملة الصعبة تماماً ، ولعل أقرب وجوه الشبه بينهما أنه بينما يكون للعملة الصعبة سعر رسمى ، يكون لها فى الواقع سعر آخر غير رسمى ، ومن ثم يجب ألا ننخدع بالمظاهر ، وفى دنيا الزواج يجب ألا ننخدع بالمظاهر أيضاً ، فأنا مثلا يبدو على أنى زوج سعيد ، عند ما يجىء إلى بيتنا أحد نهرع أنا وزوجتى للترحيب به ، ونرسم على وجوهنا ابتسامة بلهاء واحدة ، ونتساءل فى صوت واحد : هل يفضل الشاى أو القهوة ؟ ونعتذر فى صوت واحد لعدم وجود سكر ، ثم نتحدث فنبدأ بجمل متشابهة ونختم بضحكات لها نفس الصدى والرنين ، ويقول الضيف فى نفسه : ما أجمل هذا التفاهم ، فإذا انصرف الضيف وجلسنا وحدنا نظر كل منا إلى صاحبه نظرة عالم الحشرات إلى حشرة جديدة فوجىء بوجودها تحت ميكروسكوبه .

ونتكلم أحياناً فيخيل إلى أن هناك سوراً بيننا ، سوراً غير مرئى يحجب الكلمات ويمتص صدى الصوت وتضيع فى حجارته المعانى فلا يفهم أحدنا أبداً ما يقوله الآخر ، وأحياناً أحسب أننى تزوجت امرأة تركية أو صينية ، ليس هذا الكلام عربياً ، لكن حروف الهجاء فيه وتكوينات الجمل عربية ، أين تكمن الصعوبة إن لم تكن تكمن فى المعانى التى يقولها كل منا للآخر وأسلوب التفكير المختلف ، ولقد وصلت إلى اقتناع عميق

بأن زوجتى لا تهتم بالأمور العامة ولا بالمسائل ذات الصفة الإنسانية .

أحياناً تقع فى عالمنا الصغير حوادث ، وتهزنى هذه الحوادث إلى الأعماق ، وتثير فى إحساساً بالقلق أو التشاؤم أو الخوف ، وأتلفت إلى زوجتى لعلى أجد صدى لهذه الأحاسيس فأطمئن إلى أننى بخير ولم يصبنى الجنون بعد ، لكن عبثاً أجد عندها صدى لما لدى من أحاسيس ، الذى يحدث أننى أجدها غارقة فى وسط عالمها الخاص ، وهو عالم نسائى بحت ، عالم لا وجود فيه للدول ولا للقنابل الذرية ولا لآبار البترول ولا للأزمات الاقتصادية . . . عالم غريب محدود تكاد جدرانه وأرضه وسماؤه تنحصر داخل الفستان الذى ترتديه الزوجة .

إننى أذكر حادث اغتيال لومومبا ، وأذكر أن الإحساس الذى ملأنى يومها كان إحساساً بأننى ساهمت بطريقة أو بأخرى فى مقتله ، ولقد سقطت فى وجوم كئيب وملأنى الشعور بالحزن ، واكتشفت زوجتى أننى حزين ، لم تعترض على هذا الحزن إنما سألت عن سببه ، وحين علمت لم تحزن مثلى وإنما قالت لى بهدوء وبساطة .

– انت مش زعلان عشان السبب ده . انت أصلك غاوى نكد .

لهذا السبب ومئات الأسباب غيره قررت أن أحب .

نعم . . . قررت أن أقع فى الحب وأن تكون لى مغامرات مثل غيرى من الرجال . . . وقررت أن أبدأ بإحدى صديقات زوجتى ، وهى سيدة جميلة لضحكاتها ذيل غريب ، وبدأت أنظر لهذه السيدة نظرات حالمة ورقيقة ، وأبتسم كلما صادفتنى عيناها وأنا أبحلق فيها ، ثم اكتشفت أنه ليس هناك أى رد فعل على الإطلاق ، وحاولت أن أعرف السبب ، وأدهشنى السبب ،لم أكن أنظر إليها نظرات حالمة وإنما نظرات مذعورة؛ فهناك شبح زوجتى دائماً ، وهناك الرعب الذى خلقته داخلى والذى لا يفتأ يلازمنى وينغص على كل مشروعات الحب . . . لا بأس . لقد كانت هذه غلطتى من البداية ، فكيف أهاجم زوجتى فى عقر دارها .

يجب أن أبحث عن حب خارج منزلنا .

سأحب فى مكان العمل إذن، وبدأت أختار من سيقع عليها عبء الحب، واكتشفت أن كل الفتيات اللائى يعملن معنا يتمتعن بقسط وافر من الرجولة، لا أمل فى العثور على الحب، ويبدو لى أن زوجتى ستكون هى طبق الطعام الوحيد الذى قدرت الأقدار أن أظل أطعمه حتى الموت...

مذكرات ١٧ يناير ١٩٦٥

تعبر زوجتى عن فرحتها بالحياة بأحد طريقين : إما رفع صوتها وإعلان هذه الفرحة بشكل مزلزل ، وإما بالتهام مزيد من الطعام . والعيد من بين المناسبات السعيدة، ولقد عبرت زوجتى عن فرحتها بالتهام نصف صاج من الكعك .

راقبت زوجتى وهى تأكل كعك العيد ودهشت . كانت تأكل وهى تتحدث . . . وكانت تتحدث بسرعة وتأكل بنفس السرعة ، ولم يظهر لى أى تعارض بين الحديث والأكل . . . على العكس من ذلك ، كانت تستغل الحديث فى خدمة الطعام . . . فهى تفتح فمها وتوظف عملية النطق فى المضغ، فإذا قررت ابتلاع الكعكة قالت كلمات يمكن نطقها وفمها مغلق . . . وأدهشتنى هذه المقدرة ، وعجبت لذوقها الردىء فهذا هو الكعك الذى صنعته حماتى ، وهى سيدة شديدة الطيبة وكل عيبها أن إجادتها لصنع الطعام لا تتفق مع إجادتها للحديث فى السياسة ، وأعتقد أن حماتى هى السيدة الوحيدة التى تتابع كل الأزمات الدولية بصبر لا ينفد، ولطول مرانها السياسى أصبحت لها آراء فى مواقف الدول وتصرفاتها ، وهى آراء يدهشها أن الأيام لا تثبت سدادها ، المهم أن حماتى هى التى صنعت الكعك ، وإذا كان الحديث عن الغائبين لا يصح فإننى أفضل ألا أنتقد الكعك ، كل ما فى الأمر أن له طعماً يشبه الـ[illegible]رة ، وهو يحدث فى الحلق نوعاً من أنواع السد الذى يتعذر معه النطق عدة دقائق ، إلى

جوار ثقله الشديد فى المعدة ، وهو ثقل يخيل للإنسان معه أنه يحمل فى بطنه قالباً من الطوب . كيف يتفق هذا مع الطريقة التى تأكل بها زوجتى هذا الكحك ، أيمكن أن تكون فكرة المجتمع الحازئة عن الحماة هى التى سممت نظرتى لموضوع الكحك ، أم أن الحب بين زوجتى وأمها هو المسئول عن التهامها الشديد لكل ما تصنعه الأم . لا أعرف . . . كل ما أعرفه أننى أمام ظاهرة تستحق التسجيل والدراسة . الحقيقة أننى ألاحظ على نفسى فى الأيام الأخيرة ميلا إلى تسجيل الظواهر ودراستها مع عدم إبداء الرأى فيها ، وهذا معناه أننى قد أصبحت فيلسوفاً ، لا شك أننى قد أصبحت فيلسوفاً ، إن الزواج بعد فترة معينة يجبر الإنسان على التفلسف . إن الفلسفة هى كلمة ، لماذا ؟

ومضيا بالفلسفة إلى نهايتها القصوى لاحظت أننا كشعب نحب الطعام بوجه عام ونحب الكحك بوجه خاص .

نحبه إلى الدرجة التى تثير كثيراً من المنازعات حوله ، وهى منازعات تصل إلى حد دخول المحاكم والوقوف أمام القاضى ، ولا يثير الكحك منازعات تنتهى بالطلاق ، إنما يثير (شأنه شأن الفن الجيد) مناقشات وأسئلة وأجوبة ، قرأت فى الجريدة منذ أيام سؤالا وجه لأحد رجال الدين عن الكعك . . .

ليكن ذلك موقف المجتمع من الكعك . . . هذا لا يفسر أن تأكل زوجتى نصف صاج منه . . . إن الكمية التى كانت ترقد أمامها فى الطبق وتشبه كثيباً من الرمال لو وضعت بشكل مسطح فسوف تملأ نصف صاج . إن أهمية الكعك تجعلنى أفكر فى القيام بدراسة علميه جادة اسميها : كعك العيد قديماً وحديثاً ، وتتناول الدراسة طعمه ونشأته التاريخية والتحولات التى طرأت عليه وعلى جسمه ، والأسر التى تخصصت فى صناعته والأسر التى تخصصت فى الشجار بسببه وعدد القضايا التى رفعت من أجله ، وموقفه فى ظل الرأسمالية ومستقبله فى ظل الاشتراكية . . .

وقد أجد فى بطون الكتب القديمة حرباً نشبت بسبب كعكة . . . إن بحثاً كهذا جدير بأن يثير المجتمع لكننى لا أبحث عن إثارة المجتمع هذه الأيام . . . وأغلب الظن أن الزواج سيقتل موهبتى ويمنعنى من إتمام هذا البحث التاريخى الهام . . .

مذكرات ١٤ فبراير ١٩٦٥

يا رب أريد أن أحب .

إن الثعابين تغير جلدها كل عام مرة ، والطيور ينبت لها فى فصل الربيع ريش ملون ، وتطل من عيون الحيوانات نظرة حانية عند ما تعثر على الإلف . . . وأنا وحدى زوج محنط من الأزواج الذين لا يتلقون من زوجاتهم غير نظرات العتاب وصرخات الغضب . ما الذى دهى زوجتى ، يخيل إلى أنها تفقد رقتها كلما كبرت فى السن ، أليس العكس هو المفروض ؟ ما سر هذا الحصار الذى تحيطنى به هذه الأيام؟ هل عرفت بغريزتها السادسة أننى أفكر فى الحب ؟

هل اكتشفت شيئاً من المذكرات . . . لم يحدث ذلك بدليل أننى لا زلت حياً أرزق . ما هو الموضوع إذن ؟

كل ما أعرفه أنها فى هذه الأيام تقول لى عند ما أدخل فى المساء :

— أين كنت ؟ . . ما سر هذا السرور البادى عليك؟ . . من أين أنت قادم ؟ . . اقترب منى . . . دعنى أشم رائحة فمك . . . ها ها . . . نعناع . . . منذ متى وأنت تأكل النعناع ؟ . لماذا لا تقول لى أين كنت ؟ لماذا لا تعترف ؟ . لن أغضب ؟ !

يا إلهى . . . ماذا أقول لها . . . لقد جلست مع ثلاثة أصدقاء وشرب كل منا كأساً واحدة لنقاوم البرد . . . لم أشرب غيرها ، ومزجتها بالكوكا كولا . . . هل هذه جريمة . . ؟

قلت لها : إنها كأس واحدة فقط . . . قلت لها : إننى كنت مع أصدقاء

وكان أحدهم يحتفل بعيد ميلاده فشاركناه فى احتفاله، ولم أكد أنتهى من القصة حتى انفجرت زوجتى فى بكاء عميق وراحت تنهنه . . . تصورت فى البداية أنها تمثل هذا البكاء ، ثم أقنعتنى الدموع الغزيرة بأنها تبكى حقيقة ، وطارت الكؤوس العشر من رأسى على الفور ، أحسست فجأة باليقظة . . .

وبعد أن تحطمت أعصابى تماماً سألتنى :

— قل لى أين كنت حقيقة ؟

وحاولت أن أقول لها الحقيقة ولكنها رفضت أن تستمع . . .

— هناك امرأة فى الموضوع .

— يا سيدتى يا زوجتى أقسم لك بالله أنه ليست هناك امرأة . . .

أشاحت بوجهها ورفعت يدها وفتحت فمها وهمست :

— يجب أن تقول الحقيقة . . . هناك امرأة فى الموضوع . لماذا لا تعترف . . ؟ أريد الحقيقة كاملة . وخيل إلى أن زوجتى لا تريد الحقيقة وإنما تريد أن تسمع ما فى ذهنها هى ، تريد أن تؤكد لنفسها أن زوجها رجل مطلوب ، وأن النساء تجرى وراءه ، وأن له مغامراته . وقررت أن أكذب . . . وبدأت أقول لها : إن هناك امرأة فى الموضوع . . .

قالت لى فى دهاء شديد : هل هى راقصة . . .

وفاجأنى السؤال فى الحقيقة ، لم أعرف ما الذى يريحها لأقوله، أخيراً فكرت وقلت لها : إنها ليست راقصة فى الحقيقة ، إنها أشبه ما تكون بذلك . . .

وارتسم فى وجهها شعور غريب بالراحة ، ما أجمل أن تحس ربة البيت أن منافستها راقصة . . . هذا يعطيها إحساساً بالتفوق والامتياز . . .

قلت لها دون تردد : أنت تعرفين صديقى محمود . . .

قالت : آه . . . هذا رأيى فيه دائماً . . . هذا رجل فاسد لا يمكن أن يقود أحداً إلى الخير . . . أكمل القصة . . . أريد الحقيقة كاملة، إلى

أى حد وصلت العلاقة ؟ .

قلت : إلى الحد الذى لا يخجل أحداً . . .اقتصر بقاؤنا على الأماكن العامة ، وضغطت يدها مرتين ، ثم شربت اليوم معها كأساً فى حضور أكثر من عشرة أشخاص . . .

قالت زوجتى : يجب أن تترك صديقك محمود إلى الأبد . . . اختر لنفسك واحداً من اثنين : أنا أو هو . . . سوف أنسى كل شىء عن هذه الراقصة . . . سأنسى علاقتك بها . . . فقط يجب أن تعدنى بأن تقطع علاقتك بصديقك هذا ... وبكل أصدقائك أيضاً ،لم نر من وجههم غير الخسارة . . .

وفهمت ساعتها سر المناورة ، ها هى القوات المعادية تكشف عن خططها وتطلب منا قطع علاقاتنا بكل الأصدقاء . . .

وعدتها بذلك . . ومرت الليلة .

يارب . . . أريد أن احب حقيقة . . .

أريد لظنها أن يتحقق . . . ولو مرة واحدة .

مذكرات ٢١ فبراير ١٩٦٥

ما أعجب الحب !

اسمها أمل. لم أكن أتصور أن وقتاً سيجىء على وأنظر فى عينيها لأقرأ هل هى سعيدة أو تعيسة ، بعدها أقرر أن أكون سعيداً طبقاً لما تقوله النشرة الجوية التى تصدر من عينيها .

أكتب هذه الكلمات وأنا زو ج وأب . . . ويبدو لى أننى قد جننت . . . أو ربما عدت عشر سنوات إلى الخلف ، إن الإحساس الذى أعيشه هذه الأيام لا يمكن أن يحسه رجل فى مثل عمرى .

ما أعذب الحب وما أرق ما يمنحه للإنسان من مشاعر . كنت قبل أن أعرفها ضجراً متبرماً لا أجد طعماً لشىء فى حياتى غير سجاير البلمونت،

ثم بدأت شركة البلمونت بعد إقبال زبائنها تعبث بهم وتغير الفيلتر يوماً وتغير الدخان يوماً آخر حتى لم يعد للبلمونت طعم فى فمى . والآن تغير كل شيء.

لم تعد السجائر الرديئة توقظ تمردى أو تشعل ضجرى ، أصبحت أدخن ولا أتأمل من السجاير غير دخانها وهو يصعد فى حلقات ترسم أشكالا راقصة فى الهواء .

كيف حدث ما حدث . هل أحببتها لهذا الحد . . . أهى رقتها العظيمة أم حزنها الصامت أم ضحكتها الصافية أم عيناها اللتان تبعثان دفئاً أحس معه أننى أتصبب عرقاً وارتباكاً ورغبة فى قول الشعر . ما أتعس أن يكون الإنسان مجرداً من الموهبة . ما أتعس أن يحب الإنسان ولا يكون شاعراً ليعلن حبه لكل الكائنات فتشترك معه فى الفرح . . . ابتسامتى تضيء بالفرح . . . زوجتى تلاحظ ذلك وتسأل :

— أنت مش طبيعي ليه اليومين دول ؟

الصوت يرمينى من أعلى قمة فى السحاب إلى الأرض . أسمع صوت عظامى تتهشم . . . ابتسمت ابتسامة مجرمة وزحف الشحوب على وجهى وقلت لزوجتى :

— أبداً مش طبيعي ازاى يعنى . . ؟

— انت بتسألنى أنا . . ؟

— مش انتى اللى بتقولى .

— يعنى بترد على السؤال بسؤال ؟

— أبداً والله . . .

— لا انت مش طبيعى . . . حاسه كده اليومين دول إنك نافش ريشك ، بدال ما تكون مكسوف تقوم تنفش ريشك .

— مكسوف ليه ؟

— ما انتش عارف ليه ؟

آه . . . إن زوجتى تتحدث عن القصة الوهمية التى حكيتها لها عن الراقصة لأرضى غرورها ... يا زوجتى الصارمة ، أنت تتحدثين عن حكاية وهمية ، وهناك الآن شيء حقيقى لا تعرفينه فما أجمل السر وما أصفى الغباء وراحته . . . أنت لا تعرفين أننى فى الطريق لامرأة . . . لكننى أعرف وهذا هو المهم . . . الطريق واسع تملؤه الأتربة التى كرهتها فجأة لأنها ستلوث ياقة القميص الذى اختير بعناية ، والناس تتحدث فى آلاف الأشياء وأنا أسير . . . الآن أستطيع أن أفهم معنى خلق هؤلاء الناس جميعاً . . . أيها الحب . . . ها هو وجهك العظيم ينتظرنى فى الكازينو المظلم على النيل . . . الدنيا شديدة البرودة لكننى أمتلىء بالدفء والإحساس بالإثم مع شيء من الخوف والفرح . . .

اخترت مائدة منعزلة وجلست أمامها وطلبت لها كوباً من الشاى وأخرجت علبة السجاير ووضعت السيجارة بالعكس فى فمى وأشعلتها فضحكت ضحكة صغيرة . السيجارة الثانية وقعت من يدى مرتين فما أحلى نظراتها وما أرق التعبير فى وجهها . . . كل الجالسين فى الكازينو يتهامسون وتتماسك أيديهم فى رقة . . .

وصل الشاى ووضعه الرجل على المائدة وانصرف . . . مددت يدى لأمسك يدها فأمسكت كوب الشاى ودلقته . . . لحظات من الفزع والضجيج الذى أيقظ كل العاشقين حولنا وجعلهم جميعاً يتأملوننا بغضب يمتزج بالسخرية . انتقلنا بعد إحصاء الخسائر لمائدة ثانية . ماذا أقول لها . . . أريد أن أقول كلاماً لم يقله رجل من قبل لامرأة . أريد أن أقول لها آلاف الأشياء . أريد أن آخذها تحت جفونى وأسدل عليها هذه الجفون . . . لكننى لا أقول شيئاً وأكتفى بالارتعاش والنظر فى وجهها . . .

— بتبص لى كده ليه . . . بتلخبط .

ليس للرقة غير هذا الوجه الذى يجلس أمامى ، فما الطريق إلى عقلها لأعرف فيم تفكر . وطال الصمت ورحت أستمع لصوت النيل وهو يمس

الشاطئ ، وقفزت قطة هناك نحو سمكة صغيرة ألقتها المياه على الشاطىء ... وغرست القطة أظفارها فى ظهر السمكة التى استسلمت أخيراً . . . ماذا يقول الناس فى مثل هذا الموقف؟ كيف يعبرون عن حبهم ؟ . إن داخلى طاقة تستطيع أن تنظم من نجوم السماء عقداً كاملا وتهديه إليها ، لكن هذه الطاقة كلها سجينة داخلى مثل عفاريت سيدنا سليمان؛ فمتى تفتح الزجاجة ويخرج الدخان ويطلق سراح المارد . . .

. . . .

وفتح الجرسون فى المائدة المجاورة زجاجة الليمون ، وعادت القطة من شاطىء النيل وهى تمسح عن وجهها طعم السمكة ، وازدادت برودة الجو وتحرك العشب الجاف الذى ينمو إلى جوار الشاطىء . . . ونظرت فى وجه « أمل » وارتعشت . . . عفريت سيدنا سليمان لم يزل سجيناً فى زجاجته ، ويبدو أنه مستدفئ أو نائم . . . والموائد جميعاً تكشف عن رؤوس متقاربة تهامس ، والشماسى تنكفىء على الموائد وتزيد من عتمة الظل تحتها ، والدنيا ليل فما قيمة الشماسى ، والضوء الأصفر الشاحب يبدو كعيون أصابها رمد قديم ، والحديث هامس وخافت والحب يحمل عينين كعيون المصابيح فما أسخف البرد ، وتساءلت عن حكاية الشماسى وناديت الجرسون وهمست إليه بالسؤال فلمعت عيناه كأنما وقع على كنز ، وحنى رأسه وقد زادت كمية الإثم فى صوته وقال : سعادة البك . . . سأدبر لك شمسية بعد قليل . . . من عينى الاتنين .

ولم أفهم وأعيانى تفسير ما قاله . . . سألت عن قصة الشماسى ولم أسأله عن شمسية محددة . وعدت أتأمل تضاريس الكازينو وموقعه فتملؤنى الدهشة . النيل الساكن يبعث على النوم والموج المظلم يستثير فى النفس رغبة مستريحة فى الرقاد ، والهمسات التى تصدر من الموائد تحمل ملايين الأشكال وتختلف الأصوات التى تمضى بها لكنها فى نهاية الأمر تنبع وتصب من مضمون واحد... الرجال جميعاً يقررون فى غرور

رغم انعدام الفوارق بينهم أن كل واحد فيهم نسيج وحده وأنه ليس مثل الآخرين ، والنساء جميعاً رغم الظلمة التي تجعل الفارق بينهن ضعيفاً يقررن فى ثبات أن المرأة هى التى تعرف الحب وتكتوى بناره ، وأن الرجال جميعاً مخادعون . وكمية الوعود الصادرة من الموائد تكفى لبناء ألف جنة صغيرة . ويخيل إلى أن هناك انتخابات غير مرئية وأن كل واحد من العشاق مرشح يشد قوس الكذب ويرمى ، ويبتسم الوجه الأنثوى ويطالب العاشق الغارق فى الحديث بأن يقلب الإسطوانة على وجهها الثانى ليستمر الغناء ، وعلى مبعدة يقف الجرسونات كأنهم لصوص فى معبد الحب ، لصوص يغمضون أعينهم عما يجرى وإن كانوا يفتحونها حتى لا يدس أحد العشاق شوكة أو سكينة فى جيبه كتذكار .

والوقت يمر وأنا أجلس صامتاً أنظر فى عينيها ، ولا أدرى ماذا أقول . . ومدت يدها وأمسكت يدى . ماذا تكون رعشة عصفور صغير فى عشه وهو يستقبل الندى إن لم تكن هى رعشة يدى . أراك عصى الدمع شيمتك الصبر . أما للهوى نهى عليك ولا أمر ؟ . . . جاء الصوت من مائدة يجلس إليها عاشقان من غزة ، وكان أحدهما يمسك ترانزستور صغير فتحه فجأة على الأغنية . . .

أعترف بأننى ضعيف أمام هذه الأغنية .

نعم أنا مشتاق وعندى لوعة . . . ولكن مثلى لا يذاع له سر .

أحسست أننى أنهار . . . شددت على اليد التى امتدت إلى . كانت يدها باردة وخيل إلى أنها ترتعش .

لا ريب أن هذه هى سرعة الضوء الذى يستحيل فيه كل جسم إلى ضوء .

إن المرأة تستطيع أن تدفع الرجل إلى الموت وتقنعه بالحب إنه يلد ولا يموت . . الجرسون ينحنى على ويهمس أن الشمسيه قد خلت فتفضل . . . ونهضت واقفاً ونهضت هى وتبعناه كالمسحورين إلى الشمسية

حيث تصبح كتفك عند الجلوس جوار كتف الحبيبة تماماً ، وحيث يمكن أن تلتقى الرؤوس خلال هزة الرأس عند الحديث المعتاد . . . ولتكمل الظلمة وشاعرية المكان ما بقى بعد ذلك .

بصراحة لم أشعر بأى شاعرية . . . على العكس . . . دهمنى مثل سيارة مسرعة خوف مفاجىء يمتزج بالتقزز . . . كانت كل الشماسى المجاورة ساكنة كأن على رأسها الطير... وبدلا من الحديث اللطيف كانت القبلات المسروقة الصامتة تملأ جو الشماسى المظلم بفقاقيع لا ترى وإن كانت تحس . . . وعبث العاشق صاحب الترانزستور به فانبعثت منه إحدى الأغنيات السخيفة ، وتلاعبت عصا من النيون فتشتت انتباهى وتساءلت : أيمكن لعصر الترانزستور والنيون أن يكونا بقعة ملائمة لنمو الحب . . . إن الجالسين تحت الشماسى يظهرون كأنهم لصوص يتقاسمون شيئاً سرقوه ويتعاركون فى صمت خشية أن يستيقظ أهل البيت ويمسكوهم . . . كيف يمكن للحب أن يعيش فى الأماكن المظلمة هكذا . . . الصراصير هى وحدها التى تحب العيش فى الأماكن المظلمة . . . وتراخت يدى من يدها وأحسست أننى سخيف ومضحك وأمتلىء بالبرد الشديد ، وطلبت كوباً من الشاى ، وطلبت هى زجاجة من الليمون فدهشت لقدرتها على شرب زجاجة من الليمون المثلج . . . لكننى رجل أقترب من الكهولة وأسير وسط العقد الخامس والثلاثين بنفسية شيخ فى الخامسة والتسعين ولهذا أتشبث بكوب الشاى وأحتضنه بيدى وداخلى شعور بالخوف الشديد الذى اكتسب صفة الفزع . . . هذه الشماسى كلها يمكن أن تتعرض لكبسة من الآباء أو الأزواج أو الزوجات الغيورات ، يجب أن أنصرف فوراً ... إننى أشم رائحة زوجتى ويجب أن أنصرف على الفور ... مالك . ماذا جرى لك . ما الذى ضايقك . ألا يعجبك المكان . هل تحس بالبرد . . . أنت لا تحبنى كما يجب . . . أبداً يجب أن أنصرف على الفور من هذا المكان ! .

مذكرات ١٤ مارس ١٩٦٥

عدت إلى البيت وإحساس الخوف لم يزل لاصقاً بي. . . وخيل إلى خلال طريق العودة أن زوجتي ستنظر في وجهي وتكشف كل شيء ، واحترت كيف أداري ما حدث وأبدو طبيعياً ، ثم مررت خلال عودتي بمكان يبيع الزهور . . . لم يكن دكاناً بالمعنى المفهوم إنما كان فجوة بين عمارتين ،وكان الرجل يضع في هذه الفجوة بعض الجرادل التي تمتلىء بالزهور فإذا جاء الليل زحزح الجرادل بعيداً ومد فراشه في الفجوة ونام جنب الزهور . . . وأيقظت الرجل وسألته أن يعطيني عدة ورود . . . وتثاءب الرجل وسأل عن الساعة ثم مد يده وأخذ الشلن وأعطاني حفنة من الورود. ما أقسى الطريقة التي تعامل بها الورود في مصر. قلت لنفسي : إذا وجدت زوجتي مستيقظة أعطيتها الورد ، فإن كانت نائمة ألقيت به من الشباك ونمت أنا الآخر . . . كانت زوجتي مستيقظة ونور البيت كله مضاء . . . وأنا أصعد السلم كنت أحس أنني أنزله ، وجرفني الخوف وشحب وجهي كما لاحظت زوجتي فيما بعد، ودسست المفتاح في ثقب الباب ودخلت . . . كدت أصرخ في البداية . كان وجه زوجتي أمامي مباشرة . حصل إيه ، تساءلت فزعاً . وقالت وهي تبتسم ابتسامة باردة وكبيرة : إيه حصل إيه ؟ . ولما أجابتني عن السؤال بسؤال ، أيقنت أن شيئاً لم يحدث ، وهنأت نفسي وهدأت من خوفي وحاولت أن أبتسم .

قالت زوجتي وهي تغلق الباب الذي نسيته مفتوحاً : مال وشك مخطوف. وتحسست وجهي وقلت : أبداً. . .لقيت نور البيت كله منور خفت يكون فيه حاجة حصلت . تساءلت وهي تقرض أسنانها : حيكون حصل إيه يعني؟. .آه . . إنها تلجأ الآن لطرق التعذيب التي كان يلجأ إليها الجستابو. . . تحاول أن تقرأ أفكاري لتعاقبني على قراءتها . . . مددت يدي بالورد وقلت لها :

— الورد ده ظريف خالص . . . خدى .

وأمسكت بالورد وشمت رائحته ، ثم أزاحته بعيداً وزحف على وجهها شبح ابتسامة خبيثة وهى تسأل : بيوزعوا عليكوا ورد فى الشغل وانتوا خارجين بالليل . . . وضحكت محاولا أن أزدرد خلال ضحكتى كل ما بقى من خوفى .

— أبداً . . . أنا لقيت الراجل صاحى قلت اشتريهم .

الراجل مين . . . الراجل بتاع الورد . ورد إيه . الورد اللى هناك ، هناك فين . . . هناك كده . . . انتهى الأمر ولم تصدق زوجتى قصة الورد وبقى على أن أقدم تفسيراً آخر لهذا الورد . . . وهكذا تنطبق الحكمة الجنائية : « إن المجرم يحوم دائماً حول مكان الجريمة حتى يضبطه رجال العسس » .

لقد كنت فى حديقة فإذا بى أحمل الحديقة معى وأنا عائد إلى البيت . وإذا بى أحمل جسم الجريمة وأقدمه إلى العسس .

قلت وأنا أخلع رباط الرقبة فى حرص بغير أن أفكه حتى يظل مربوطاً كما هو للمرة القادمة : الشك ده حيودينا فى داهيه . انتى متصوره انى ايه يعنى . روميو . دون جوان . كازانوفا . قيس . فاكره إيه . غنى وفاضى وحبوب . أنا راجل غلبان موظف ضرورى أشتغل وأسهر وأتعب . . . يبقى لما أجيب لك وردتين وأنا راجع تفتحى لى محضر . . . إيه البواخه دى . زى ما نكون عايشين فى فيلم .

ظلت زوجتى صامتة حتى انتهيت من ارتداء البيجامه ، وقالت فى هدوء :

— حد يشترى ورد بالليل . . . عمرك ما اشتريته الصبح . . . قلت لها وأنا آخذ الورد وأستنشق رائحته : يا سلام على ثانى أوكسيد الكربون . وحكيت لها حكاية العاشقين اللذين حاولا الانتحار فى قصر قديم فاختارا حجرة مغلقة وفرشاها بالورود وناما حتى الصباح فقتلهما ثانى أوكسيد الكربون المعطر . وانتهت الحكاية فاتسعت عينا زوجتى من الدهشة .

قالت ببطء وهدوء : وانت عايز تموت مين بالورد ده ؟

وأنشبت أظفاري فى الضحك وأطريت ذوق زوجتى فى اختيارها الوقت المناسب لتفجير النكت ورحت أضحك وأقول وسط الضحك : كم تحتفظ بدم خفيف . . . وأشرت خلال هذه المسرحية القصيرة التى استمرت ثلاث دقائق إلى أن حكاية الورد هذه مجرد حكاية وليست لها دلالات أبعد من ذلك . وانتهيت من تناول العشاء وشربت الشاى وأحسست أننى قد تخلصت تماماً من الشعور بالخوف . . . بعدها لم أتمالك نفسى من التفكير فيها . . . وجدت أفكارى تحوم حول الورد والحدائق ، ثم تنتهى إليها . . . ما أعذب التفكير فى الحب نفسه وما أغرب الزواج ، يخيل إلى أن زوجتى أصبحت تشبهنى . الالتصاق الشديد بإنسان يجعلنا فى نهاية الأمر نشبهه . . . أحياناً أرى زوجين عجوزين فأتصور أنهما شقيقان وليسا زوجين . . . أشعلت سيجارة وقلت لنفسى : إن الرجل يحب حتى تزيد عدد العيون التى تبكيه بعدموته. . . ترى ماذا يجرى للإنسان بعد موته . . أين يذهب وكيف يمضى أوقات فراغه من جسده . حدثتنى زوجتى عن آلاف الأشياء وكنت أستمع إليها نصف مغمض وأنا أفكر فى الأخرى ماذا لو انفتح رأسى فجأة وشهدت زوجتى ما يدور فيه من أفكار . . . كم تستولى عليها الدهشة ، ما أعذب النوم .

مذكرات ٢١ مارس ١٩٦٥

ناولتنى زوجتى خطاباً اليوم .

كان الخطاب مفتوحاً ، ودهشت لأن الظرف يحمل اسمى ، وبرغم ذلك فالخطاب مفتوح ، إلا ريب أننى قرأته ، ولكن ما دمت لم أقرأ الخطاب فلا ريب أن زوجتى هى التى قرأته باعتبارها ممثلة رسمية لى . . . ضايقتنى فكرة التمثيل الرسمى وبدأت أقرأ. هذا توقيع جدى . خطاب من جدى . تذكرت فجأة أن لى جداً فى إحدى قرى مصر ،ودهشت

لأنه يكتب إلى ، وبدأت أمتلىء بالحزن وعيناى تمضيان فى القراءة . كان جدى يتحدث إلى فى رقة مشوبة بالعتاب ، إنه يموت وإننى يجب أن أحس على دمى وأراه قبل أن يموت . أنهى الجد خطابه بقوله مهدداً إننى إذا لم أسافر إليه فسوف يحضر هو إلى . . . وكان هذا التهديد المضحك يتعارض مع تصريحه بأنه يموت . . . ولم أدر هل أضحك أم أبكى . . ؟ ونظرت إلى زوجتى .

ــ أنا مسافر بكره حضرى لى الشنطة

وامتثلت لأوامرى فزادت ثقتى بنفسى وعدت أقرأ الخطاب . أحسست بالحنين نحو قريتنا التى لم أرها فى حياتى أكثر من مرات ، ونازعنى نحو الحيوانات والأبقار هذا الحب القديم المفقود الذى لا ريب كان ناشئاً بين رجل الكهوف وحيوانات المنطقة . . . وتذكرت أيام طفولتى حين كان جدى يجىء لزيارتنا فى بيت أبى وينشأ بينه وبين أمى هذا الصراع الخفى الذى يمثل القرية والمدينة . وكانت المدينة (أمى) تنظر إلى القرية (جدى) نظرات متعالية متكبرة . . . وكان جدى بذكائه الريفى المستتر يهرب من هذه النظرات ومن الصراع السافر بأن يحتضننى مع إخوتى وكأنه يقول لأمى :

ــ لولا هؤلاء الأولاد لما احتملناك ولا احتملنا كبرياءك .

وكان جدى يحضر لنا كثيراً من الفراخ والفطير والبيض والعيش الرحالى عند ما يجىء للزيارة ، وكانت هذه الأشياء بالنسبة لأمى . . . بمثابة تأشيرة الدخول إلى البيت . . . وكنت أحب طعام القرية حبا شديداً لكننى كنت أحب جدى أكثر مما أحب الطعام الذى يحضره ، فقد كان الرجل العجوز غريباً كل الغرابة .

كان يصلى ويقرأ القرآن ويقول الشعر ويغازل البنات الصغيرات ويتحدث فى الدنيا ويقول الحكمة ويرفع القضايا على خصومه ويبدو وكأنه يعرف الدنيا كما يعرف أصابع يديه . وكان برغم تدينه الشديد لا يفتأ يعلن أنه قرر الزواج من بنت قاهرية عمرها ١٦ سنة حتى ترد إلى أعوامه

الثمانين شبابه الغارب ، وظل جدى طوال حياته يردد هذه الحكاية ولا يفعلها أبداً ، وقد فهمت فيما بعد أن هذا كان سيفاً مصلتا يهدد به جدتى ويلزمها طاعته . وعند ما كان العصر يجىء كان جدى يصحبنى معه إلى أحد مقاهى العتبة لنجلس معاً وسط كبار القوم ونشرب السحلب ونمد أقدامنا للبوهيجى ليعيد تلميع الأحذية. وكان جدى يشتهر فى هذا المقهى شهرة عظيمة ، فالناس يهشون له بمجرد رؤيته ، وعلية القوم يجلسون معه فى المقهى ويلاطفوننى تملقاً لجدى ويقولون له إننى أشبهه تمام الشبه فسبحان من يخلق الفرع كالأصل وأنضر .

ولم أر جدى حزيناً مرة واحدة ، لم أسمعه يشكو أبداً .

حتى القضايا التى يخسرها كان يعود بعدها وقد حمل مزيداً من السمك واللحم فيطلب من أمى أن تعد لنا غذاء مضاعفاً فقد خسر القضية ، ويضع الرجل همه فى الأكل وينسى كل شىء . . . بعدها يعود البشر إلى وجهه ويعود إلى السخرية من الحياة ويفتح بالضحك العظيم صدره وقلبه . وكانت أمى تحسده على هذه القدرة على تناسى الهموم . . . وكان أبى يعرف من إقبال جدى على الطعام أنه قد خسر قضية . . . ويسأله عن نتيجة القضية فيعرف أنه خسرها فيربد وجهه ويحزن ، ونعرف على المائدة أن جدى قدخسر قضيته فتنسد أنفسنا عن الأكل ونحزن ، وينقلب البيت إلى مظاهرة صامتة من الحزن ، وهو وحده صاحب الشأن يغرق فى الضحك ويبدو كأن الأمر لا يعنيه . . . وكانت أمى تنظر إليه وتكز على أسنانها وتقول :

— الراجل ده حيعيش ١٠٠ سنه . ده عمره ما زعل .

ذلك كان تعليق المدينة على القرية .

وكان جدى يسمع هذه العبارة فيغرق فى الضحك وتنتشى أعطافه ويحتضننى سائلا :

— تروح السيما النهارده . . ؟

وهكذا نذهب معاً إلى السينما . وكان إخوتى يحقدون على لأن جدى يختصنى بحبه ، ولهذا كانوا يأخذون جانب أمى فى صراعها التقليدى معه ، وكنت آخذ جانب القرية . فكانت أمى تنتهز فرصة ارتكابى أى خطأ تافه لتضربنى وهى تقول :

ــ العرق يمد لسابع جد . إنت طالع لئيم كده لمين ! .

كيف أتجاهل دعوة جدى وقد تحملت فى سبيله ما تحملت .

ترى كيف أصبح الرجل العجوز الذى كذب ظن الناس جميعاً وعاش حتى تعدى عمره مائة عام .

إلى القرية إذن . وليذهب العمل للجحيم . وفى الإجازة العارضة متسع للجميع .

* * *

الأحد ٢٨ مارس ١٩٦٥

الطريق إلى قريتنا يخترق قلب الدلتا ثم يعرج قليلا إلى اليمين حتى نغادر عاصمة المحافظة ونتجه نحو الحقول ، والأوتوبيس يمتلىء بالقفف والأسبتة وأصوات « الراديونات » التى يحملها الفلاحون والفئات الأخرى . وضعت سيدة بدينة تحت قدمى قفة ضخمة وانحشرت قدماى فرفعتهما قليلا وقلت أضعهما على القفة فصرخت المرأة .

ــ فيها عيش يا ضناى ما تدوسش عليها حرام .

وهكذا علقت قدمى فى الهواء . وفوق شبكة الأوتوبيس وضع رجل مجهول لفافة أغلب الظن أن فيها جبنة ضابحة لم تزل تحمل مياهها ، وكانت المياه تغافل الجبنة وتسقط فوق رأسى فى رذاذ خفيف ، وقد صرخت مرتين سائلا عن صاحب الجبنة لكن كل ركاب الأوتوبيس نظروا إلى ببراءة وأنكروا ملكيتهم للجبنة ، وفكرت فى إلقاء اللفافة كلها من شباك الأوتوبيس لكننى ترددت مستجيباً لوازع دينى ، فهذه فى نهاية الأمر

نعمة . . . وعلى امتداد النظر تبدو الحقول الخضراء أرق تعبير عن استواء الطبيعة المصرية ، ورائحة الريف تصافح أنفى فأحس بمشاعر متضاربة : وأفكر فى قصة حبى وأتساءل عن السر الذى يجعلنى خائباً كل هذه الخيبة مع النساء ، ، وسطع داخلى فيما يشبه الإلهام أن زوجتى هى المسئولة عن ذلك ، فقد ألقت فى حياتى ظلاً من الرعب الذى يجعل كل مغامراتى مع النساء تقع فى خيالى ، أو يقع الجزء المهم منها داخل عقلى المضطرب . هذا إحساس يجب أن أتخلى عنه وأطرده . . . يجب أن تكون لى مغامرات وقصص حب ، لقد تحولت حياتى بفضل زوجتى إلى صحراء قاحلة تخلو من الحب . السيارة تكاد تدهس خروفاً يجرى وسط الطريق ، حمداً لله ؛ لقد أنقذ الخروف . ثم إن زوجتى لا تفهمنى ، صحيح أن هذه العبارة قد ابتذلت وأصبحت مثل حجج الاستعمار فى المحافظة على توازن المناطق ، لكنها رغم ذلك تستخدم بسبب وبلا سبب . . . وها أنذا ألجأ لاستخدامها بلا وعى . توقفت السيارة عند قريتنا فهبطت. صافحتنى رائحة التبن المبلل والحقول الخضراء ، وانساب من نفسى الحنين نحو جدى وتذكرت حبه العظيم ووصيته بأن أنتمى إلى القرية وألا أنساها فى زحمة المدينة كما فعل أبى وإخوتى ،وشققت طريقى إلى بيتنا الذى أدين له فى نهاية الأمر بالوجود . ورفعت الأبقار نظرها عن البرسيم الذى تأكله وألقت مع نظرتها بالسلام ثم عادت تدس أنفها فى الخضرة ، وتأملنى كلب أصفر فهز ذيله برغم أننى لم أتشرف بمعرفته قبل ذلك ، وملأتنى الرغبة فى أن أربت بيدى على رؤوس الأبقار والكلاب لكننى قاومت هذه الرغبة وأسرعت فى المسير نحو البيت حتى شارفت الحديقة التى تقع أمامه . ما أحلى العنب والتين الذى كنت آكله من هذه الحديقة أيام كان جدى هو الذى يشرف عليها ويرعاها بنفسه ... لم يعد فى الحديقة غير شجرتين من أشجار السنط وعشب كان أخضر ثم مات لونه ، ووسط الشمس على سجادة قديمة كان جدى يجلس منكمشاً على نفسه

وأمامه نصف كوب من الشاى . . . لم يكن معه أحد وسقط ظلى على الأرض أمامه فرفع رأسه وظلل عينيه بيده وتعرف على . أضاء وجهه وحاول أن ينهض ،وهويت على يده أقبلها واحتضنت عوده النحيل وتأملت وجهه العجوز الذى يشبه جذوع الأشجار الهرمه ؛ وأحسست أن الرجل فقد الكثير من وزنه . وجلست إلى جواره على الأرض لكنه زعق معلناً مجيئى ،ولم تمض دقائق حتى كانت القرية كلها قد أحيطت علماً بزيارتى ؛ وصافحت مئات الوجوه التى راحت تتأملنى ، كما لو كنت حيواناً غريباً لم يصادفهم مثله ، وشدت على يدى مئات الأيدى الخشنة ، وتأملتنى العيون بوجوم ، فقدمت آلاف التفسيرات المتناقضة لغيابى عن القرية ؛ وانتهت مراسم الاستقبال وخلوت أخيراً بجدى .

* انت فين يا راجل تشوف جدك قبل ما يموت .

وأصدرت بفمى تمتمة تقول : « بعد الشر » . رفع يده ليسكتنى وعاد يقول :

* كلهم عايزينى أموت . أنا عارف ونفسى فى كده ، لكن أعمل إيه وما باليد حيله .

ودافعت عن حياته بعنف لكنه قال بهدوء :

* دول مش زيك . انت غيرهم . . . دلوقتى أنا بقيت عاله عليهم بعد ما كانوا كلهم عاله على ، أنادى حد منهم يعمل نفسه أطرش ، أزعق عليه يزعق فى — عايز إيه يا أخى ما تقوم تنام بقه .

كأنه بيقول لى ما تقوم تموت بقه ، انت لسه عايش تعمل إيه . معاهم حق . طب أنا عايش أعمل إيه . . . عنيه ضعفت من زمان ولا أسمع إلا لما يصرخوا فى ودانى ، وذاكرتى ادهورت ، وأصحابى الله يرحمهم كلهم ، والشيخوخة تقيله والحساب قرب ، والموت أهو زى النوم إنما اللى بعده . . .

وسكت الرجل ، ورسمت ملامح وجهه خوفاً يشبه خوف الأطفال فى الظلمة الحالكة . مات أصدقاؤك الذين كانوا يفهمونك فما أقسى الشيخوخة ! ولم تعد غير فم يأكل الطعام فما أعظم بؤس الذين يأكلون ولا يعملون! وعما قريب تقف أمام الله لتقديم الحساب عما فعلت فما أشد خوفك ممن لا تخفى عليه خافية . . . قال جدى فجأة :

— الحمد لله ع الإيمان ، لكن العمل إيه فى أيام الجهل .

لم أفهم نصف عبارته الأخيرة . . . سألته عما يقصده بأيام الجهل فقال إنه يعنى أيام الشباب ، وأدهشنى أنه يقصد النساء . وحاولت أن أستدرجه لأعرف مغامراته أيام الجهل أو أيام الشباب ، لكنه أطبق فمه وتظاهر بأنه اليوم قد سمع ما فيه الكفاية . وذهبت كل محاولاتى أدراج الرياح ، وأنشأ هو يتحدث فى موضوعات عجبت لاهتمامه بها ، فقد حكى قصة الفرخة التى تآمروا عليها وذبحوها رغم أنه كان يأكل ما تبيضه كل يوم . وعزز كلمته بالمثل الذى يقول إن بيضتها أحسن من ليلتها . . . وعاد لحديثه عن النساء فقال وهو يلتفت إلى فجأة .

— اتوصى بمراتك يا ابنى دول أهلها ناس طيبين .

وبحثت فى ذاكرتى عن السبب الذى يجعله يحكم بالطيبة على ناسها ، وتذكرت أنه زار حماتى فى بيتها مرة فأطلقوا يده عند الغداء وقدموا إليه فرخة كاملة وأقسموا جهد أيمانهم أنه لا بد أن يأكلها عن آخرها ، وتمنع جدى قليلا ثم انقض على الفرخة وأصدر حكمه بعدها بأن هؤلاء الناس من أطيب الناس أصلاً وأنقاهم معدناً وأكرمهم محتداً ، لقد قبلت الرشوة يا جدى فدعنا من وصيتك وحدثنا عن شبابك أو جهلك كما تسميه فأنا هذه الأيام أعيش جهلى العظيم وأحب.

الاثنين ٢٩ مارس ١٩٦٥

رفض جدى أن يتحدث تماماً عن مغامراته النسائية ونحن نجلس

أمام النار فى المساء ، واكتفى بالتحديق فى قوالح الذرة الجافة وهى تشتعل فى المدفأة النحاسية القديمة . وعبثاً حاولت أن أخرجه عن صمته ، كان وجهه يزداد تغضناً وانكماشاً كلما ألححت عليه فى السؤال ، وبدا لى أن الرجل يتحرك لكنه لا يحيا ألبتة ، كان يستخدم قواه الحية مثلما يستخدم الأطفال قواهم الحية . . . بلا هدف خارجى . . . ليس فى حياتهم هدف يسبب الحركة . . . الأطفال لم يبدأ بعد عملهم والشيوخ انتهى دورهم . . . والاثنان ليس لديهم لعبة سوى الجسد . وعند ما تصبح تصرفات الجسد غاية وليست وسيلة إلى شىء ، عند ما يصبح الجسد موظفاً من أجل الجسد عند ما يصبح تناول الطعام والحديث والنوم والبكاء والاشتغال بأمر ما . . . عند ما يصبح هذا كله بلا هدف تصبح الحياة شيئاً لا يطاق.. .ومثلما يضيق الناس من الأطفال بسبب نشاطهم الذى لا معنى له ، كذلك يسأمون من حركة الشيوخ التى لا معنى لها . . . إن جدى يتحدث لا ليقول شيئاً وإنما لأنه يريد أن يمرن عضلات رئتيه ولسانه ، وهو يبكى مثل طفل صغير لأنه فى حاجة إلى غسل عينيه . . . وهو يغضب ويصيح ويشتم لأنه لا يجد شيئاً يشغله أو يفعله ... وطوال النهار يجلس جدى فى حديقة الدار . . . صامتاً يتأمل أعواد القش أمامه . فيم يفكر . بم يحلم . الله وحده يعلم . . . أحياناً يحس أنه فى حاجة لسماع صوته للتأكد من أنه لم يمت بعد ، فيصرخ منادياً ابنته . . . فإذا جاءت لم يعرف لماذا كان يطلبها . أحياناً يحس أنه فى حاجة إلى القلق . . . فهو إنسان يحتاج مثل باقى الناس للقلق . . . ساعتها يسأل عن أخبار الحمار وأحوال البقرتين وطول عيدان القمح . . . ويجيبونه أى أجوبة ، ويغتاظ الرجل فهو يريد أن يعرف الحقيقة . . . لكنهم يحسون أنه أصبح أضعف من تحمل الحقيقة البسيطة .

حدث أن ولدت الجاموسة ، وباعت العائلة بغير علم الرجل الكبير هذا المولود ، وثار جدى حين نقل إليه أحد جواسيسه من الأطفال نبأ بيع العجل الصغير . . . وجدها فرصة لا تعوض لفرض وجوده والإحساس

بثقله . . . ووقف الرجل وسط البيت منحنياً على عصاه وراح يلعنهم جميعاً لأنهم يتصرفون فى ماله وهو حى ولا ينتظرون موته . . . وكان الرد عليه صمتاً طويلا ونظرات خاطفة وابتسامات مكتئبة مكتومة ، ودهشة تقول : فيم كل هذا الضجيج وما الذى يريده العجوز . . ؟ لقد أنهى مهمته فى العالم وأصبح باعثاً على الشفقة ؛ فلم لا يسكت ؟

وعند ما يثيره الصياح ويهد قواه يجلس فى الحديقة وهو يغمغم : إنها مؤامرة لقتلى ، إنهم جميعاً يتآمرون لقتلى . . . يعلم بإحساسه الداخلى أنه يبالغ قليلا لكنه يتمسك بأقواله . . . اللعنة على الضعف . . . ثم لا يلبث أحد أحفاده الذين لم يبلغوا عامهم الثانى أن يحبوا إليه ، ويمسك الصغير قبضة من القش فيقذف جده بها ، ويرد الجد عليه بابتسامة تعنى أنه مكتئب ولا يريد اليوم أن يلعب ، لكن إلحاح الطفل وابتساماته يخرجانه من اكتئابه وينزعانه إلى اللعب . . . ويلعبان معا . . . الجد الذى تعدى المئة والطفل ذو العامين ، ويبدو الاثنان منسجمين تماماً ، ولا تنقضى دقائق حتى يكون الجد وحفيده قد أغرقا فى الصياح المرح والضحك وراحا يحركان جسميهما هذه الحركة التى لا هدف من ورائها ، ويبلغ الخبر بقية الأطفال فيهرعون إلى الحديقة ، ويبدو الجد وحوله كومة الأطفال مثل ثمرة جافة من ثمرات البسلة التى تشققت عن حباتها الخضراء النضرة ، ولا أحد بعد أن يحصل على ثمار البسلة يبحث عن مصير الغلاف الأصفر .

وأشعلت له سيجارته . وحدق الرجل فى النار وهى تخمد والتفت هامساً يسأل وكأن الفكرة طرأت على باله للتو :

ـــ الواحد لما يموت يحاسبوه على طول والا يستنوا عليه لما يبعث يوم القيامة ؟ .

كان جدى وهو يسألنى يحاذر أن يسمعه أحد ، وكان يكتم قلقاً كفت عيناه لضعفهما عن البوح به ، وكان واضحاً أن هذا الموضوع

لم يطرأ على ذهنه الآن فقط وإنما يشغل باله منذ أيام . لم أعرف كيف أجيبه ، أدهشني السؤال فقلت محاولا أن أدارى جهل معلوماتى الدينية .

* فى الغالب حيحاسبوه يوم القيامة . . .

وأطلق الرجل تنهيدة ارتياح فعدت أسأله :

* خايف من إيه يا جدى ؟

لم يقل الرجل شيئاً لكن صديقاً له حدثنى فى القرية عما يخيفه . طيش الشباب . كان جدك فى شبابه شقياً يعرف كيف يثنى العمة ويزحلقها إلى الوراء ويطوح على يده الجبة الشفيوت الفاخرة ويقتحم طريقه لقلب المرأة ببساطة ، وعلى أيام جدك يا ابنى كان الخروف بجنيه ونصف ، والعشر بيضات بقرش . والمتعة والفن يقدمان فى روض الفرج وعماد الدين ، وجدك يبيع القطن وينسرق وحده إلى القاهرة فيغيب ما شاء له الغياب ، ويبدو فى القاهرة مرحاً يستشهد بالشعر فى حديثه ويدندن بالغناء خلال سيره وينفق ما ينفقه ثم يعود إلى القرية نادماً مستغفراً يصلى فيطيل الصلاة ويدعو فيطيل الدعاء . . . ومضى العمر وأسلمته الطفولة إلى الشباب فالكهولة فالشيخوخة فالطفولة ، أتم الرجل دورته حول نفسه وأثبت أن بذور المتعة التى يلقيها الإنسان فى شبابه هى نفسها ثمار الخوف التى يمضغها فى كهولته وهو يقترب حثيثاً من خالقه . . .

* لا تخف يا جدى فأنت رجل طيب .

تجاهل الرجل كلمتى وأشار لكلب مقطوع الذنب كان قد تجرأ ودخل الغرفة وراء رائحة الخبز الذى نأكله فى العشاء . . . صرخ جدى .

— الكلب ده بيعمل إيه هنا . . . امشى بره .

وانحنى على الأرض وقام بتمثيل أنه يمسك طوبة ورفع يده المضمومة ، فنظر الكلب إلى الخبز وإلى يده وقرر البقاء . . . وأحس جدى بالإهانة فها هو الكلب نفسه لم يعد يخشاه ، وطوح بيده فى الهواء ممثلا أنه ألقى

الطوبة فتراجع الكلب خطوتين للوراء وظل ينقل نظراته بين وجه جدى ووجه الرغيف ، وكانت نظراته تخطف نفسها من وجه جدى لتموت على الخبز . . . يا جدى ألا تعلم أن خاطئاً كبيراً دخل الجنة فى كلب ظامئ سقاه . . . وذهبت قسوة الوجه على الفور . . . لانت ملامح الرجل العجوز ورمق الكلب بشىء يشبه الحب ومد يده بقطعة الخبز وقذفها له . . . والتقم الكلب قطعة الخبز من الهواء برشاقة ، ثم استدار وخرج من الغرفة وهو يهز فرحاً ما بقى من ذيله .

وظلت نفسية جدى طيبة طوال السهرة ، وهى سهرة قضاها نائماً بيننا . . . وغداً أعود إلى القاهرة فقد انتهت الإجازة العارضة ، فما أسمج العودة !

* * *

الأحد ١١ أبريل ١٩٦٥

فى حياة كل زوجة مصرية وقف مجهول أو جد ثرى أو ثروة ضائعة يجرى البحث عنها .

لا بد من توافر أحد هذه العناصر ، وفى اللحظات التى يفتح فيها المجس بين الحقيقة والخيال ينطلق الحديث وتختلط الحقائق بالأمانى حتى يكاد المرء لا يفرق بينهما .

ومنذ يومين ذكرت لى زوجتى شيئاً عن وقف حدثتها عنه أمها . . . وأخبرتها أن الأوقاف قد ألغيت من زمن ، لكنها قالت إنه شىء يشبه الوقف ، ولم أستمع لحديث زوجتى .

تذكرت أمى على الفور ، وتذكرت وقفاً مماثلا كانت عائلتنا تجرى وراءه ، وكانوا يقولون إن الوقف كله يساوى عشرة ملايين من الجنيهات ، سننال منها خمسة ملايين دفعة واحدة ، بعد الضرائب والذى منه . . . هذا ما قيل ونحن أطفال فى الثانية من عمرنا ، وكبرنا ووصل عمرنا إلى

الخامسة عشرة ، وكنا نسمع كل عام أن المحاولات مستمرة والقضايا تتلاحق والمحاكم مهتمة بالموضوع والوقف آت فى الطريق ، وكبرنا ووصلنا الثلاثين ونحن نسمع عن الوقف الذى لا بد أنه فى الطريق ، وها نحن نكبر أكثر ونتزوج فإذا بنا نلتقى بأسطورة الوقف الذى تتحدث عنه الزوجة ، وهو وقف ورثته عن أمها مثلما ورثت الوقف عن أمى ، وهكذا ينتقل الوقف بالميراث جيلا بعد جيل . ويكبر الحلم يوماً بعد يوم حتى يبتلع الحقيقة ولا يبقى من الوقف المزعوم غير الكلمات الحالمة عنه .

وينشأ الوقف غالباً من ورقة طويلة يبلغ طولها متراً أو أكثر هى حجة الوقف ، وتوجد هذه الورقة فى أمتعة الجد السابع أو الخامس أو الثالث بعد أن يموت . وتلقيها العائلة جانباً خلال فترة الحداد ثم تبدأ فى فحص هذه الورقة فى ساعة من ساعات الصفاء . . . وتكتشف أن فيها كتابة تصلهم بأحد أقرباء بيت كان يسكن بجوار النبى صلى الله عليه وسلم . وتمتلىء العائلة بالكبرياء فجأة فهم أقرباء للنبى ، كما يكتشفون فى الورقة الطويلة كلاماً عن قطعة أرض هائلة اشتراها المرحوم بثلاثة جنيهات ونصف وحدد مكانها بأنها تقع وراء بركة الأزبكية ، ويبدأ بحث العائلة عن بركة الأزبكية . ويكتشفون وجودها أيام الأمير « أزبك » أتابك الجيش فى دولة السلطان قايتباى . ثم ردمت بعد ذلك ومكانها الآن حديقة الأزبكية عظيم جداً . ويتطوع أكثر أفراد العائلة مشاغبة ويقوم برسم خريطة تقريبية من الذاكرة لمكان قطعة الأرض . ويكتشف أن الأرض هى نصف شارع ٢٦ يوليو مع شارع عبد الخالق ثروت . هذه الأرض كلها ملكنا . عظيم جدا . لم يبق إلا استخلاص هذه الأرض من براثن الحكومة ويتطوع فرد آخر ليسأل محامياً فى الموضوع . . . ويكون هذا المحامى مريضاً بألم موضعى فى جيبه . ولأن الكساد الشديد مؤلم فلذلك يعرض المحامى فهمه القانونى وحنكته القضائية تحت أنظار العائلة ، بعد تحذيره لهم أن هذا الموضوع سيكلفهم نقوداً قد تكون طائلة ، وتختاره العائلة

ليعود إليها بالحق المسلوب ، ويمد المحامى يده ويقبض مقدم الأتعاب ، وعند ما تشعر العائلة أنها قد دفعت مالاً فى القضية يزداد إحساسها بأنها تقترب من هدفها فى قبض نقود الوقف نفسه . . . وعلى قدر وفرة النقود التى تنفقها العائلات لاستخلاص أوقافها السحيقة . . . تكون معزة الوقف وغلاوته . وتسمى الموضوع : « مسألة الوقف » . . . برغم أن الحكاية لا علاقة لها بالوقف . . . بعد ذلك تقوم العائلة بعمليات حسابية سريعة لتقدير ثمن الوقف زمان وتقدير ثمنه الآن . كان ثمنه ثلاثة جنيهات ونصف جنيه أيام الجنيه الجبس ، ثمنه الآن ملايين الجنيهات . نصف شارع ٢٦ يوليو وشارع عبد الخالق ثروت . . . شارع ونصف شارع . كم يساوى الآن . مليوناً . . . مليونين . . . عشرة ملايين لا أقل من عشرة ملايين . وترفع القضية . وتكتشف العائلة لدهشتها الشديدة أن هناك حجة أخرى مطابقة لحجتها يطالب أصحابها بنفس هذه الأرض . . . مع فارق بسيط ، إن هذه العائلة تطالب بنصف شارع عبد الخالق ثروت وكل شارع ٢٦ يوليو . . . وبدلا من الالتفات للحكومة ، يلتفت المطالبون لبعضهم . وتبدأ القضايا وتستمر بالثمانين عاما منظورة أمام المحاكم والتأجيل لا ينتهى لتقديم المستندات .

وتترك العائلة المطالبة بالوقف لأحد أبنائها مهمة متابعة أخبار الوقف وتنصرف بنفسها أى العائلة إلى توزيع النقود التى لم تأت بعد ، عفاف ، ستأخذ عشرين ألفاً ، وسهير ستنال خمسين ألفاً وحدها ، ومحمود له مليون كامل . وتنطلق الأحلام متابعة آخر تطورات السيارات فى العالم لانتقاء النموذج الذى سيشتريه هذا الطفل عند ما يقبض الوقف .

ويكبر الطفل ويتزوج وينجب أطفالا والوقف ما زال فى الطريق . وقد يحدث فى الجيل الأول المطالب بالوقف أن ترفض القضية أو يحكم فيها بأن هذه الأرض ليست ملكاً لهم ، لكن المحامى رغبة منه فى استمرار قبض الأتعاب يقنعهم بوجود طريقة للاستئناف أو إعادة رفع القضية ،

أو تفعل ذلك (فى معظم الأحوال) بخيالها فحسب . . . وتستمر بعد ذلك فى أحلام اليقظة والشعور نحو نصف شارع فؤاد وشارع عبد الخالق ثروت بلون من الود والإعزاز الخاص ، فهذان الشارعان إن لم يكونا ملكاً لنا الآن فقد كانا فى الزمن الغارب ملكاً للجد السادس عشر .

وعند ما انتهيت من دراستى وعدتنى أمى أنها ستشترى لى فى العام القادم سيارة بعد أن تقبض الوقف . ومرت عشر سنوات ، وتغير حديث أمى فهى تحدث ابنى الكبير عما ستشتريه له عند ما تصرف النقود من حقها فى ملكية الشارعين . وها هى زوجتى بعد حل الأوقاف تقول شيئاً عن الوقف فما أظرف الوقف وما أخف دم الجدود الذين يتوفون عن ميراث هو ورقة طولها متر وأكثر، ويشغلون بهذه الورقة بال أحفادهم وأبناء أحفادهم .

وانتهت زوجتى من حديثها عن ظروف الوقف ونشأته والمتاعب التى لقيتها العائلة فى سبيل قراءة الحجة أولا ، فقد كانت متهرئة تماماً واضطرت العائلة للاستعانة بخبير لإعادة لصقها ، كما توجه أقوى فرد فى العائلة من حيث النظر وقرأها، ثم بدأت الإجراءات اللازمة لاستخلاص العباسية كلها ، فقد كان هذا الحى الضخم ملكاً لواحد من الأجداد ، وكان هذا أيام الجنيه الجبس أيضاً ، وسررت سروراً شديداً لهذا التاريخ الذى يعيد نفسه ببلاهة ، قلت لزوجتى وأنا أحاول أن أسبغ على كلماتى صفة الأهمية : على فكرة مش حاجة كويسه أنكو تكونوا أغنيا ، زمان الثروات كانت بتتعمل بطريقة مريبة جداً، خذى مثلا حكاية عرابى ، الراجل اللى باع عرابى خد فدادين أد إيه ، وبقه يربى خيل ويوكل الحصنه بتاعته لوز وفزدق وبقت الفلاحين تحسد الخيل . . . أهو ده كان غنى يعنى . . . إنما غنى إزاى .

كنت أحاول خلال حديثى أن أصرفها عن التفكير الجاد فى الوقف

حتى لا تجن مثلما جن ناس لهذا السبب ، لكنها التفتت تسألنى بخشونة :

ـــ انت قصدك إيه . . . إن واحد من جدودى خان عرابى ؟ . وأنكر أن ذلك قصدى وأحاول أن أبسط الموضوع بطريقة محايدة من وجهة نظر العقل قائلا : إن تعليق الأهمية على أمثال هذه الأمور يشبه تعليق القميص على سحابة مارة . . . سحابة تشبه الشماعة .

وتعود تسألنى وقد نسيت حكاية عرابى .

ـــ يعنى أنا مجنونة ؟

وأقسم بكل المقدسات أن ذلك ما هو قصدى ولا نيتى ، وربما انتهت حكاية الوقف بمعركة ، وذلك ما يعود علينا من الأجداد الذين ما توا من قرون ، وبدلا من تركنا فى حالنا تجىء سيرتهم بالنكد .

* * *

الأحد ١٨ أبريل ١٩٦٥

الحب سفينة والزواج سفينة . الحب سفينة يستقلها عاشقان للنزهة والزواج سفينة يقودها رجل وامرأة ، والحب يكتفى بالنزهة ويدع لقائد السفينة مهمة الكفاح مع الأمواج والرياح والعواصف ، والزواج عمله الأساسى هو مواجهة هذه العواصف ،والنزهة هى عمل العشاق ، والكفاح هو عمل الأزواج ، والحب حالة عقلية والزواج وضع اجتماعى ، الحب حالة عقلية يكتشف المرء فيها أنه يعطف على مخلوقات الله الضعيفة ويحب القطط ويود لوربت على رؤوس النمل تشجيعاً له ، أما الزواج فوضع اجتماعى يجد المرء نفسه فيه داخلا فى علاقات نفسية ومادية مع أقارب الزوجة وصاحب العمارة والجزار والبقال والترزى وبائع اللبن . . . إلخ . وهو وضع اجتماعى يكون من الصعب فيه الابقاء على احترام النفس بغير توافر النقود . وإذا كان الحب يقول : « هات عنيك تسرح فى جنتهم عنيه »

فإن الزواج هو القائل : « هات خمسين قرش للبوتاجاز وريال للمكوجى وعشرة صاغ للزبال ». وذلك هو الفرق بين الحب والزواج فما أعظم الفرق وما أتعس الزواج . أحس بذلك . وأحس أحياناً أن الحب خدعة عظيمة . ويخيل إلى أن الحب مصيدة صنعتها الحياة لتضمن استمرار النسل . والحب بكل شاعريته وعذوبته ومعجزاته التى يهزم فيها المستحيل . . . الحب لا يستطيع أن ينجب لنا طفلا واحداً ، أما الزواج فرغم ثقل ظله وسماجته فهو وحده القدير على إنجاب الأطفال ومنح الدنيا مزيداً من العقليات الجديدة والأفكار . وهذا هو السر فى أن الحب ينهزم دائماً أمام الزواج ويتلاشى فيه ويصبح زواجاً . وعند ما تحلم فتاة بالحب وتلتقى بحبيبها يحلم الرجل خلال يقظته أن يحمل حبيبته بين ذراعيه ويجرى بها بين الجبال والحقول . أما الفتاة فتحلم بحجرة دافئة يجلس الحبيب فيها على كرسى وقد ازداد سمنة وتحول إلى زوج وتعلم كيف يردد لزوجته أنه يحبها . هذا هو الفرق بين الرجل والمرأة . . . الرجل يتزع إلى الرحيل فهو بذور تلقى فى الأرض وتحملها الرياح مسافات ، والمرأة نفسها أرض وليس لديها وقت للعب ؛ فهى تريد هذه البذور لصنع زهور وأشجار وثمار جديدة . . .

وأحياناً تستوقفنى زوجتى وأنا فى طريقى من حجرة الطعام لأغسل يدى . تستوقفنى لتسأل :

* يا ترى أنت بتحبنى زى زمان ؟ .

وأشيح بيدى كأنى أقول لها :

— وأكتر من زمان .

لكنها تسىء تفسير حركة يدى وتطالبنى بتقديم إيضاح :

وأتوقف لأقول لها إننى أحبها طبعاً ، ولولا هذا الحب لما فضلتها على كل النساء وتزوجتها ، وتشيح بيدها وتقطب وجهها وتقول بهدوء :

* عارفه كنت بتحبنى زمان . . . بسألك عن دلوقت . ؟

أسكت ولا أتكلم ساعتها فإنى لا أعرف كيف أجيب : إننى لا أشعر بالحب مع زوجتى ، بل أشعر شعوراً آخر . ولا أدرى كيف أفسر ذلك عند ما تغيب عنى أو يمر ظل حقيقى بيننا ، ساعتها أشعر أنى ضعت ولم أعد أساوى شيئاً . أنى لا أحب إصبعى الصغيرة ، ولا أشعر به ولا أتغزل فيه ، ولا أقول الشعر من أجله : وعند ما يفكر مخلوق فى قطع إصبعى هذا ، عند ما يجرب ذلك أحد ويرى ما أفعله فسوف يتصور أنى أحب إصبعى حباً لا مزيد عليه . . .

وذلك هو الزواج .

وزوجتى تركت بيتنا وحملت معها الأولاد أمس . سافرت أمها إلى غزة ، وذهبت هى بصفتها كبرى البنات لتجلس مع شقيقاتها الصغيرات وترعاهن أثناء غياب الأم . وخلا البيت لى . وتحرك الجيش المكون من زوجتى وولديها والخادمة والبواب وكل واحد يحمل فى يديه شيئاً واتجهوا جميعاً إلى محطة الأوتوبيس ، وراقبتهم من النافذة وأنا أحس أنى خفيف إلى الدرجة التى يجب أن أمسك فيها النافذة حتى لا أطير من الفرح ، بعد أن ابتلع جوف الأوتوبيس هذا المنظر دخلت إلى البيت وأطلقت تنهيدة عميقة .

ما هذا . . . أيمكن أن يسكرنا مجرد استنشاق الهواء ؟

يا لغرابة الحرية !!

الصفحه الأولى من مذكرات أعزب

انتشر الخبر بسرعة الضوء ، أتحدث عن سفر زوجتى ، الضوء يقطع ١٨٦,٤٥١ ألف ميل فى الثانية ، لست أعرف لماذا يجرى الضوء بكل هذه السرعة ، كيف يجهل الضوء أن فى التأنى السلامة ، كيف يجهل هذا المثل العامى ، قطعاً لا يأكل الضوء كثيراً من الفول المدمس ولهذا يحتفظ بسرعته ونشاطه ، ليست أفكارى مركزة ، السبب هو النافذة التى انفتحت

فجأة على الحرية ، يالسحر الهواء وغرابته عند ما تكون حراً تخيل معى أنك حر ، زوجتك مثلا على سفر . نفرط فى الأحلام أكثر . فنقول إنك حر ولم تتزوج « بعد » ولم تنجب « قط » وليس عليك « ألبتة » رؤساء . تصورت ذلك . . . عظيم . . . تصور نفسك تسير فى الطريق وتتنفس . . . هيه . . . كيف حالك الآن . . . تنفس بعمق وبطء وراحة وامتنان ، طبعاً يا صديقى ، إن التنفس نعمة كبرى ويمكن أن يصير التنفس هواية ، وفى السجن لا يعرف السجناء أن الربيع قد جاء وأن البقر يغرز أرجله فى الأرض الرطبة بحنو ، وأن سيقان النبات تستطيل وتكبر ، أيضاً يجهلون أن صغار البط تتعلم كيف تقفز من الأرض فى محاولة يائسة لتعلم الطيران ، فى السجن لا يرى الإنسان سوى جدران زنزانته وجدران أفكاره الأشد سواداً والأعمق رهبة ، وفى الحرية يستطيع الإنسان أن يستقبل كل دفقة من دفقات الهواء ويحس أن الأرض تدور . . .

تدور وتدور وتدور . . . معلقة يمسكها جلال الخالق سبحانه وتبارك وتعالى على الرؤية والحلول والجسد والشريك والصاحبة والولد . . . الأرض معلقة بيد الرحمة الخالقة وتدور ، هبات الهواء متدافعة منتظمة ، الكون كله يتنفس فى شهيق عميق يستغرق مثل الزفير العميق ملايين السنين الضوئية . الكون مخلوق حى مأنوس شديد الانتظام والجمال والعذوبة وهو يتجه لخالقه طائعاً وإن كان غير محمل بالأمانة . . . أنا أحمل الأمانة وأحمل حريتى وأسير فما أمتع ذلك وأعظمه .

ولقد سمعتهم يقولون — أيتها الحرية . . . كم من الجرائم ترتكب باسمك ، نريد أن نجرب هذه الجرائم أو على أقل تقدير ، نريد أن نفهم معنى العبارة ، حدث لى شىء غريب جداً فى الأيام الأولى لسفر زوجتى ، كنت أنسى أنها سافرت وأدعوها باسمها أو أزعق عليها طالباً شيئاً ، ولا يكاد صوتى يرن ، فى البيت ويجىء الصدى بالصمت حتى ينفجر

فى روحى مثل آلاف الصواريخ الملونة إحساس مفاجىء بأنها مسافرة ، وأقوم من مكانى فى نشاط الفراشة وأبدأ مرورى على الغرف ، وينتهى طوافى بالبيت فأتأكد أنها سافرت ولا يدهشنى أنها سافرت وإنما يدهشنى انتشار الخبر بهذه السرعة ، بسرعة الضوء بدأت وفود القبائل والمهنئين والمسرورين والمتشردين من الأصدقاء الأزواج والأصدقاء الذين ليسوا بأزواج . . . ووقفت على عرش الرجل الأعزب أستقبل طوفان الأصدقاء الذين حالت الزوجة بينى وبينهم كالستار الحديدى البتار . جاء أحمد ووصل سعيد وهل شهاب ومن بعده حطت رحال يوسف ثم شرف حسن ثم دق الشيمى الجرس وانساب عوّاد وفاروق وصبرى ومصطفى . واكتشفت فى اليوم الثانى أننى أجلس وسط عدد يتراوح بين تجمهر خمسة أشخاص ويصل أحياناً إلى العشرة . باختصار كان هناك تجمهر مستمر فى البيت .

ويبدأ الضحك خافتاً ثم يشتد ثم قوياً ثم مروعاً ثم يبدأ فيضرب جدران البيت ويهرب إلى الخارج ، وأشترك فيه بفرح صبيانى كطفل خرج أبواه فانفجر يلهو ويمرح بغير حدود . واستخفنى المرح فرحت أرقب وجوه الأصدقاء بحب وأتصور كل كلمة تقال تحمل طوفاناً من السرور المصفى ، ثم لاحظت مع تقدم الوقت جرأة الأصدقاء .

فى البداية كانوا يتصرفون بنوع من المجاملة ، ثم تأكدوا أن البيت خال حقاً فبدأ كل واحد فيهم يتصرف بحريته كما لو لم يكن فى بيته ، خلع البعض أحذيتهم . وانتحى اثنان بالشطرنج وجلس ثلاثة يتهامسون . ونهض الرابع ليغسل وجهه فاقترح الخامس أن يأخذ دشاً ، ووقف اثنان فى المطبخ يجوسان فيه ، وقال يوسف إنه جائع كعادته واقترح فاروق إحياء الليلة بالطعام وطالب شهاب بالقهوة السادة وقال أحدهم لم أنم بالأمس وسأمدد فى فراشك قليلا ، وانقدحت فى رأس الشيمى فكرة أن يعد لهم طعاما هو الأرز باللحم على طريقة المشايخ . وجاء اللحم وبدأت تنقية

الأرز وانتشرت الفوضى واتسعت مساحتها أكثر وأكثر ، وطوال الوقت كنت أرقب تصرفاتهم بسرور خفى وأعجب لشخصية زوجتى الحديدية التى استطاعت أن تصد هذه الغارة، ومثل غارات التتار أتى الأصدقاء على الطعام والشراب ونفد الشاى واحتضر البن وودع السكر وجاء دور البطيخ ، وبقدر حبي الشديد للبطيخ أكره الحركات البهلوانية التى يأتيها اللب الموجود داخله ، وانصرف اثنان لإحضار بطيخة ، وعاد كل واحد منهما يحمل بطيخة ، ثم شرف بعدهما صندوق من زجاجات البيرة ، وأضأنا نور البيت كله وأشعلنا الراديو وانزوت القطط تحت الفراش رعباً من أصوات التتار وراحت السيوف المغربية القصيرة تهوى فى قلب البطيخ فيتطاير صراخ اللب وينشق النسيج عن احمرار يحاكى غروب الشمس ساعة الأصيل . . . يا نيل . . . أنا واللى أحبه نشبهك فى صفاك . . . آك . . . آك . . . يا نيل . . . يا نيل . . .

وانتهت الأغنية فدعبس أحدهم فى الراديو حتى عثر على أغنية أم كلثوم الشهيرة «يا اللى حبك خلى كل الدنيا حب» كانت زجاجات البيرة قد انتقلت من فراشها الزجاجى إلى فراش أعظم تعقيداً فسمعناها تغنى يا اللى حبك خلى كل الدنيا حر . . . وبدأنا نضحك حتى وقع منا اثنان من الكراسى إلى الأرض فوجدا الأرض أكثر راحة فمددا فى مكانهما .

طوفان من الضحك . طوفان هائل يجرف كل شىء ، ضحك يستمر حتى مطلع الفجر وفوضى رائعة ، وداخل المرء هذا الإحساس باجتماع الشمل حول مأدبة السرور . . .

بيد أن السرور لا يدوم . . .

الصفحة الثانية من مذكرات أعزب

إن الزواج قيد يرد على الحرية والبهجة والسرور ، والعزوبة قيد يرد على النظام والحكمة والتعقل ، ولقد احترت فى الزواج مثلما احترت فى

الحرية، كنت أشكو من السجن فأصبحت أختنق من الحرية ، كنت أكره الستار الحديدى الذى أنشأته زوجتى فى السنة الثانية من الزواج فأصبحت آسفاً على تحطم القيد وسفر الزوجة، ونظرت حولى فى البيت فارتد نظرى مروعاً وقد آب من رحلته بالدوار ، كان البيت قد تطور خلال أسبوع واحد بحيث صرت لا أكاد أعرفه ، وكثيراً ما يحدث أن أعود فى المساء وأدس المفتاح فى ثقب الباب وأفتح الباب وأتوقف . . . يستحيل أن يكون هذا بيتاً ، إن حصاناً عجوزاً سوف يرفض الحياة وسط هذه الفوضى. لم تعد النظرة الأولى إلى الصالة تستطيع تمييز الصالة من حجرة النوم من حجرة الجلوس ، أحدث الأصدقاء تعديلات أساسية على البيت ولوثوا كل الأطباق والأكواب وملأوا المطبخ بما لم أعد قادراً على إحصائه حتى اضطررت إلى إغلاق باب المطبخ نهائياً والاستغناء عنه وافهامهم أنه قد صار منطقة محرمة تمتلىء بالألغام التى تتكون من علب الفول والبلوبيف والتونة والأوراق وزجاجات البيرة ولب البطيخ . وهبط التراب على الأسطح المستوية فى البيت، فإذا بمائدة الطعام والبوفيه والدلسوار والمقاعد والفراش والدواليب تراكمات من التراب السميك . وكنت أتسلى فى البداية بأن أكتب على التراب شعارات مشجعة مثل « يسقط المطر شتاء . . . يعيش الصرصور فى الأماكن القذرة» ، كنت أريد بهذه العبارات أن أعرف معدلات سقوط التراب وسرعتها فى البيت ، ولم أكن أعثر على هذه العبارات فى اليوم الثانى أو الثالث ، التراب يسقط بسرعة أكثر من السرعة التى كان يسقط بها أيام وجود زوجتى . وأعدت التجربة بكتابة عبارات تقول : «تسقط الحياة الزوجية ، تحيا الحرية والفوضى » وزادت سرعة التراب ولم تلبث الشعارات الجديدة وسط فراشها الترابى غير نصف يوم . . . وتفكرت فى كلام الجامعة ابن داود الملك فى أورشليم ، باطل الأباطيل قال الجامعة ، باطل الأباطيل الكل باطل ، وعدت أتصفح التوراة لعلى أعثر فيها على حل فلم أجد حلولا ، وإن وجدت كلمات مأثورة وكثيراً من الحكمة «وجهت

قلبى لمعرفة الحكمة ولمعرفة الحماقة والجهل فعرفت أن هذا أيضاً قبض الريح ، لأن فى كثرة الحكمة كثرة الغم والذى يزيد علماً يزيد حزناً » .

حتماً ، لقد ازددت علماً بالأصدقاء فزدت حزناً ، لقد تجرأ على الأصدقاء أكثر مما ينبغى ، وأحياناً كنت أحس والساعة تقترب من الثالثة صباحاً أن المولد القائم فى البيت قد زاد على حده، وأن النظام قد أفلت من يدى تماماً، ولم أعد قادراً على إسكات أحد أو إلزامه حدود المنطق ، وهكذا كنت أنهض للنوم وأترك الضحكات تدوى فى بقية الغرف ، وعلى صبيحة كل يوم كنت أزداد ثراء فى التراب وفقراً فى النظام وأغلق حجرة أخرى بعد أن تصير طرق المواصلات داخلها غير ممكنة بسبب الفوضى ، لم تبق لى غير حجرة النوم والجلوس والصالة ، وأصابنى الدوار حين تصورت هذه الحجرات وهى تغلق هى الأخرى والعبدلله ينتقل إلى لوكاندة فى حى الحسين من اللوكاندات التى يبيت فيها المرء واقفاً الى جوار الجدار ويدفع قرش صاغ .

وصرت أرى أحلاماً مزعجة فى الليل إذ يتحرك فى الصالة شبح فيحدث ضجيجاً فأستيقظ من النوم فزعا وأصرخ بصوتى المرتعش فى أعماق الظلمة :

* مين هناك فى الصالة .
— ماتخافش . . . أنا يوسف .
* بتعمل إيه يا يوسف .
— لا أبداً قايم أشرب . . .
* انت ما روحتش ليه يا يوسف .
— الدنيا وخرى يا راجل .

وأعاود النوم متفكراً فى هذا الصديق الغريب الذى دعا نفسه للمبيت معى بغير أن يستشيرنى ، وجاء إلى البيت واستقر فيه وراح يدعو أصدقاءه للعب الطاولة وشرب المثلجات . وأستغرق فى النوم وأنسى خلال النوم أننى أستضيف أحداً ، ثم أفاجأ بحركة أخرى فى الحمام فأنتفض مذعوراً منتصباً

فى الفراش وقلبي يدق ، وأتصنت لهذه الأقدام الغريبة ، وأظل جامداً فى الفراش مسمراً بالرعب محكوماً بالخوف ثم أتذكر ضيوفى الثقلاء فأتنهد وأعاود النوم . . . أحياناً كنت أفكر فى الثورة ، كنت أقول لنفسى أننى لو صرخت مثل طرزان صرخة مروعة فربما أفزعتهم ، لكننى أمنع من ذلك نفسى قائلا إنهم سيتصورون أننى قد جننت إذ لم أحتمل سفر زوجتى أسبوعين ، وكانت هذه الفكرة تعذبنى كثيراً . . . كان يخيل إلى طيلة الوقت أنهم يضعوننى فى امتحان قاس ويرقبون قوة احتمالى على الحياة بغير زوجة ، وكانوا يقولون لى إن أى شكوى من أى نوع ستكون اعترافاً بينى وبين نفسى بأننى قد هزمت وانهرت ، وسوف تعود زوجتى فى نهاية الأمر ويتركوننى هم ، فإذا عادت زوجتى ووجدت أمامها رجلا مهزوماً ومنهاراً فسيكون معنى ذلك أننى قد خسرت الحرب نهائياً بينى وبينها . . . ولهذا السبب كنت أحاول أن أقاوم وألتف بالصمت كيلا يقال إنه بدأ ينهار . وكثيراً ما يحدث أن أعود إلى البيت فى الظهيرة ولا أكاد آكل سندوتشات الفول التى أحضرتها معى وأتهيأ للقيلولة حتى يدق جرس الباب . حضرت عفاريت القيالة ، ويحضر اثنان ، أتركهما فى الصالة وأنام وأستيقظ ، لا أجد أصدقائى وأجد بدلهم وجوهاً جديدة ، ناس لم أرهم فى حياتى قط ، وجوه غريبة تماماً على ، من هؤلاء ، من يكونون ، ماذا يفعلون هنا فى الصالة ، وألقى عليهم التحية فيرد منهم من يرد ويحتقرنى الباقون ، استحى أن أقول لهم عرفونى بأنفسكم أيها السادة فهذا بيت زوج رصين وليس ميداناً عاماً ، أستحى أن أسألهم عن أنفسهم وعمن سمح لهم بهذه الحرية المطلقة إذ خلعوا أحذيتهم وراحوا يطقطقون أصابع أيديهم (وذلك شيء أكرهه كثيراً) . . . وأحاول أن أجاذبهم أطراف الحديث لكنهم لا يلقون بالاً إلى ، ويطفئون السجاير فى الأرض ويزبلون المكان ثم يتضح أنهم أصدقاء سعيد أو فاروق أو حسن .

وأقول لسعيد : يا سعيد الراجل صاحبك ده دمه تقيل خالص .

يقول : يا راجل حرام عليك ده ظريف جداً، بكره تعرفه كويس وتحبه خالص .

وأصمت ، ماذا أقول له . . . لقد تجرأ على كل الناس : حتى القطط تجرأت هي الأخرى على البيت وصارت تنام في فراش زوجتي وتتمطع في فراشي وتلعب الكرة بالشراب الذى أرتديه فإذا جاء الصباح قضيت نصف ساعة أبحث عن فردة الشراب الضائعة ثم أجدها أخيراً الى جوار فردة شراب مختلفة تحت كرسى فى الصالة .

وازداد هجوم التتار والمماليك ، وقررت أن أتصرف كفلاح يعيش فى عصر المماليك أو التتار ، ومثلما كان الفلاح المصرى التعس يتصرف مع المحتسب الذى جاء يطلب الضرائب بأمر المماليك فيهجر الفلاحون قراهم ويأخذون عيالهم ويطفشون فكذلك قررت أن أهجر البيت . . .

لكن إلى أين . . . هذه هى المشكلة التى لم يصادفها هاملت .

الصفحه الثالثة من مذكرات أعزب

الساعة الثالثة تماماً . .

يستحيل أن يكون هاملت قد استشعر ما أحسه الآن . . . لو حدث له ذلك لما كتبت من أجله مسرحية . إن مسرحية هاملت فى نهاية الأمر حادث بوليسى . أمير الدانمرك يعود ليجد والده قتيلا وأمه قد تزوجت عمه. ارتكبت جريمة القتل وبدأ المحقق هاملت بحثه عن الحقيقة . لو وقع الحادث فى عصرنا ولم يجد شكسبيرا يكتبه لنشر كذلك فى الصحف :

« تهدم بيت أمير الدانمرك بعد أن اكتشف هاملت أن عمه قتل والده وتزوج أمه ، توجه وكيل النيابة إلى منزل المدعو هاملت حيث اعترف الأخير بكل شيء وكان يتحدث بالشعر الإنجليزى عن أشياء كثيرة لم يفهمها المحقق ورجح أنه يهذى . وبالعرض على الطبيب الشرعى تبين أنه يقاسى من حالة نفسية تجعله غير مسئول عن أعماله ».

أؤمن مع يونسكو أن كل المسرحيات التى كتبت قبل مسرح الطليعة هى مسرحيات بوليسية . أؤمن كذلك أن زعيم شعراء الشعر العربى ابا الطيب المتنبي لو بعث حياً وقرأ الصحف فسوف يقف مذهولا أمام هذا الخبر البسيط .

« أطلق خفير شونة بنك التسليف عياراً نارياً على شبح كان يتسور جدران الشونة فأرداه قتيلا » .

قطعاً لن يفهم المتنبي كلمة « خفير » ، وسيتدلى فكه أمام حكاية شونة بنك التسليف ، أيضاً ستحيره حكاية العيار النارى . . . وقطعاً سيحس أنه يقرأ لغة غريبة عليه .

الساعة الثالثة والدقيقة العاشرة . .

الشمس عمامة من نار يرتديها الخلق فوق رؤوسهم ويسيرون. لا ريب أن الجحيم نجمة من النجوم ، الجحيم يطل من السماء أثناء النهار فلا يراه أحد ولا يخافه أحد، وحين يجىء الليل ويتألق ضوء الانفجار النووى فى النجوم ينسج الشعراء بكل البلاهة خيوط الكلمات . اخترت بقعة ظليلة تحت تندة محل القمصان ووقفت . . . قميص جيمس بوند ، أفضل قميص أرسين لوبين ، كان هو المشهور على عصرنا ، لست أعرف أين أذهب . الكآبة داخلى رقدت على البيض ففقس وخرجت كتاكيت الحزن الرمادية وراحت تتواثب داخل نفسى وتصىء . روحى صحراء عظيمة تخلو من قطرة حب واحدة ، ليست هنالك واحة قريبة ، ثمة سراب وقد رأيت الفيلم مرتين ويستحيل أن أشرب المقلب مرة ثالثة ، السبب هو الحر . منذ ساعة واحدة. متأسف . السبب هو الحر والفول . منذ ساعة واحدة لم أكن هكذا . كنت سليماً ثم جاء طبق الفول وأفسد الموقف . خرجت من عملى منذ ساعة أتمشى فى الشوارع . قررت ألا أعود إلى البيت . السبب هو الأصدقاء والتراب .

إن المضايقات التى تقع لإنسان القرن العشرين أغزب كثيراً مما وقع لهاملت.

ماذا لو كتبت رواية عن الأصدقاء والتراب، تصورت الرواية وهي تبدأ برجل يعيش في مدينة تهب عليها سافيات الرمال. لا داعي للرواية والأفضل أن أكتب بحثاً يمتلىء بالكلمات الكبيرة مثل: « لا سيما . . . بيد أن . . . إذ ربما . . لعل هل . . على أنه إذا كان . . وحيث إنه إذا لم يكن ولربما قيل فسوف نقول » . اكتشفت سخافتي فوقعت الفكرة من رأسي إلى الأرض بغير ضجة وذابت وسط أسفلت الطريق .

صفرت الى جوارى عجلات السيارة فقفزت صارخاً إلى الوراء لاعناً السائق والحر . أخرج السائق رأسه من السيارة وتمتم بكلمات فصرخت فيه: أنت امرأة ، وتحديته أن يوقف سيارته ويخرج لي منها إن كان رجلا. اهتاج السائق وغلى الدم فى عروقه لكن رتل السيارات وراءه كان يدفعه فى ظهره بالكلاكسات فمضى وهو يغلى . ضحكت بسرور . . . ما الذى يغضب الرجال حين يدعوهم أحد بالنساء . لماذا يتصور الرجل الشرقى أنه أرقى من المرأة . . . لماذا يعتقد أن كلمة المرأة سباب . عقلية متخلفة وليست المرأة بهذا السوء الذى يتصوره الرجال . المرأة شيء هام جداً مثل سجاير الكليوبترا . . . وربما كانت أهم من سجاير الكليوبترا .

الساعة الثالثة والثلث . .

لن أعود إلى البيت مهما يحدث . إن عودتى إلى البيت معناها استسلامى النهائى لسماجة الأصدقاء وكرم الضيافة العربى . لست عربيا ، سأعتبر نفسى ابتداء من اللحظة من قدماء المصريين ، وهم أناس كانوا مقتصرين وفى حالهم ولم يكونوا كرماء إلا فى الفنون. ينبغى أن أتسلى قليلا بالسير فى شوارع القاهرة شارع ٢٦ يوليو يبدو فى الظهيرة مثل حلة يغلى زيتها على النار ، تذكرت مأساة الغداء ، كيف انعطفت فى شارع جانبى مصادفاً محلا للفول فدخلت . أحياناً يريد المرء أن يفعل شيئاً لكنه يفعل شيئاً آخر . ولقد صرخ اليوت يقول الحقيقة يوماً فقال : «بين الرغبة والفعل يسقط الظل»

ولقد كانت الرغبة بيضاً بالبسطرمة . . . ثم سقط ظل النقود فى جيبى وجاء الفعل طبقاً من الفول . ولقد كان طبق الفول خفيفاً والرجل يحمله . كان الرجل يحمله بيد واحدة فقط ، أقسم على ذلك ، وباليد الثانية كان يحمل صينية المياه لإطفاء الحريق ، وحين تناولت منه طبق الفول لم يكن ثقيلا فما السر فى ثقله العظيم على المعدة ، بى احساس قوى بأننى أحمل داخل معدتى حجارة الهرم الأكبر ، فما أعظم إسراف قدماء المصريين ورغبتهم فى بناء المقابر . لماذا أكلت . . . لماذا تسممت .

قال إليوت . . .

« ما الإنسان . . .

إذا كانت بضاعته الرئيسية وسوق عصره .

ليستا إلا الأكل والنوم . . . مجرد بهيمة ليس إلا » .

الساعة الثالثة والنصف . .

ليس هناك غير الشمس والأسفلت وعادم السيارات والطريق والوحدة . قلت ادخل مقهى البن البرازيلى واطلب شيئاً فربما عثرت على وجه صديق . لم أجد غير وجه فنجان القهوة ورجل هناك يشرب الشاى . ويخيل إلى أننى أعرفه فأبتسم فى وجهه لكنه يتجاهل ابتسامتى ويدير رأسه . لعلى أخطأت الشبه . ورحت أفكر فى بلاهة الحواجز التى يصطنعها الآدميون ، إنحدرنا من بطن امرأة واحدة ، وظهر رجل واحد ، سيدنا آدم عليه السلام ومدام آدم . نحن إذن جميعاً إخوة . . . لكننا ننسى هذه الحقيقة ولا نذكر غير قطرات الدم التى سالت بين قابيل وهابيل .

ويصرخ هاملت فى أوفيليا :

هل أنت عفيفه . . .

إنه يعلم أن الجمال أقوى من العفة . . . والوحدة أعظم من الرفقة ،

والجمال يلد العبادة والوحدة تلد العبقرية والزواج يلد عيالا وديوناً ومسئوليات وبلاوى زرقاء وخضراء وصفراء .

ــ كلنا أوغاد وأنذال . . . لم يزل هاملت يتكلم . . .

ــ فلنمنع الزواج . . .

يا صديقى هاملت . . . أنت رجل ساذج . . . عبقرى لكنك شديد السذاجة . إن منع الزواج أمر مستحيل . . . إننى زوج كان يعتقد أن الزواج سجن مؤبد، فلما خرج السجان يوماً وفتح الباب وألقى المفتاح إلى السجين ومضى ... أجهش السجين بالبكاء وراح يعض جدران سجنه صارخاً مطالباً بعودة السجان .

الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة . .

لم أزل أسير فى شوارع القاهرة بغير ما هدف . . . السير بغير هدف يشبه التدخين والمرء مصاب بالأنفلونزا، شىء لا معنى له ... وفى حياتى آلاف الأشياء التى تفتقر إلى المعنى ، وينبغى أن أغلق نفسى فى الفترة القادمة لأقوم ببعض الإصلاحات . . . يجب أن أغلق حواسى وعينى وأتحول إلى سينما مغلقة للتحسينات ، إن حياتى حتى اليوم تشبه الفيلم العربى أو الأمريكى ، شىء ردىء وممل ومتكرر. لم تصل الموجة الجديدة إلى حياتى بعد . . . لا أنكر أننى أحببت أكثر من حب عظيم ، لكن نهايات قصص الحب كانت غريبة ومضحكة . . . كانت مأساة نعم لكنها كانت من النوع المضحك ... كنت كلما شعرت بالحب نحو فتاة تزوجت غيرى ، طوال عمرى لم أحب فتاة إلا لأكتشف أن حبى كان يحمل إليها السعد فإذا بها تتزوج رجلا غيرى ، ولقد احترت فى هذه الظاهرة . . . زمان . . . قبل أن تولد الشعيرات البيضاء فى رأسى، كنت أحلم بحياة تمتلىء برياح البحر وأنفاس العالم الشاسع الفسيح ، ثم إذا بى

أدق بالمسامير فوق مكتب قديم فى مصلحة حكومية ، وكنت أحلم فى سن السادسة عشرة بأن أقوم بهدم الكون لإعادة ترتيبه بشكل جديد ومتناسق : فإذا أنا لا أستطيع أن أرتب درج مكتبى ، وأؤجل هذه العملية منذ ست سنوات إلى الغد . . . وضغط طبق الفول على معدتى فكدت أصرخ : والساعة الخامسة والدقيقة الثالثة ، ولم تزل أمامى ساعة لا أعرف كيف أمضيها ولا أين أذهب بنفسى فيها . . .

وجلست وقدماى تنشران فوق أقرب مقهى صادفته . . . طلبت كوباً من الشاى وقلت لنفسى سيردع الشاى قوة الفول ، واصطرع الشاى والفول وهزم الشاى شر هزيمة . وعادت الآلام تمزقنى ، وفكرت فى الانتحار . . . طلبت من الرجل كوباً آخر من الشاى ورحت أتأمل الناس . . . بعد دقائق من جلوسى فى المقهى لاحظت أن كل الجالسين لا عمل لهم سوى تأمل الناس ، صنف معين من الناس هو الجنس الآخر ، إن المرأة المصرية لم تحظ حتى الآن بدراسة كاملة ، إنها تختلف عن أى امرأة أخرى فى العالم ، أتحدث من الناحية الفنية عن الكتلة والاهتزاز . . . معظم الكتل من الحجم الكبير وثمة اهتزاز يشبه اهتزاز طبق من المهلبية التى لم تنضج تماماً . ما أغرب ذلك . . . ترى ما هو السر ؟ .

أغلب الظن أن المرأة المصرية لم تتخلص بعد من إحساسها العميق بأن السمنة مطلوبة ، ومنذ عشرين عاماً فقط كانت المفتقة والحبشتق ومربة خرز البقر هى أكثر الأشياء التى يعلن عنها . . . وكانوا يرسمون سيدة فى حجم الفيل ويقولون : « لكى تزدادى امتلاء وسمنة . . . تناولى على الريق صينية مفتقة صنع الحاج معلوف الشبكشى » . . .

وتحرك الفول فى معدتى . . . يبدو أننى ابتلعته صاحياً . . . يبدو أن الرجل لم يذبحه جيداً . . . أعتقد أن تفكيرى غير ملهم والسبب هو الفول . . منذ ساعتين ونصف ودقيقة لم تلمع فى ذهنى فكرة عبقرية واحدة . . .

ثمة انطفاء غريب ، وثمة هذا الحنين الذليل نحو طعام الزوجة ، وهو طعام

كنت أحار فى تفسيره ورده إلى أصوله العلمية . . . لكنه رغم كل شىء لم يكن حادا ونافذاً ومروعاً كالفول . . .

أين أنت يا زوجتى؟ !. . إننى أحتضر فما أغرب الحياة ! كان حلمى أن أموت فى أرض قتال فى معركة عظيمة . . . وها أنذا أموت فى المقهى كما يموت البعير .

* * *

الصفحة الرابعة من مذكرات أعزب :

وصل الدائن فلا حول ولا قوة إلا بالله . . . هذا معناه أن مشاكلى تتفاقم بشكل يدعو إلى الحيرة ، والفقمة نوع من أنواع السمك السام . والسمك مخلوق غريب لا يدركه الغرق إلا خارج المياه ، والإنسان هو المخلوق الذى يستيقظ كل يوم فى الصباح فيشرب كوباً من الشاى ويدخن سيجارته ويصدر خلال ذلك أصواتاً تقلق النائمين معه وتشعرهم بالفرح لأن صاحبنا قد اكتشف بعد يقظته أنه لم يزل حيا ولم يمت بالأمس ... واليوم أستيقظ من النوم فلا أجد داخلى هذا الفرح ، ها أنذا أفتش فى رأسى عن أسباب منطقية للحزن فلا أجد . يستحيل أن تكون الديون والمشاكل هى السبب ، إننى مدين قليلا ولكننى أمارس تجاه الدائنين شعوراً بالعظمة النفسية التى لا تسمح لهم بطلب ديونهم إلا عند ما أسددها بنفسى ، إننى أكشر فى وجوههم ويمتلىء وجهى بإحساس من الضجر والكبرياء والسأم المحنق فأبدو مثل رجل يستعرض فى ذهنه مشكلة كونية هامة وليس لديه وقت يضيعه فى مناقشة موضوع الجنيهات الخمسة أو الخمسة عشر . هذا موضوع مؤسف يا صديقى . . . لقد اقترضت منك ، أعترف بذلك ، ولكنك أقرضتنى نقودك لأسباب تعلو على حاجتى إلى النقود ، أنت وحيد وتريد أن تحكى مشاكلك لمخلوق آخر ، أنت آدمى فى نهاية الأمر وحاجتك إلى من يستمع إليك أشد من حاجتك لهذه الأوراق الملونة ، وأنا مندهش

فى الحقيقة من اختراع النقود : إنها تطبع بكميات كثيرة : لكنها عند ما تصل إلى يدى تتبخر مثل عفريت نقرأ عليه آية من القرآن . . . هل تؤمن بالعفاريت ، أنا شخصيا لا أؤمن بإمكان رؤيتنا لهم وإن كنت أؤمن بوجودهم : المشكلة أننا لا نستطيع الاتصال بهم ، انظر إلى القطط ، إنها تقرأ شيئاً قبل أن تنام : لقد حاولت بيأس أن أعرف ماذا تقول فلم أعرف ، إذا كانت قططى التى أحبها وأطعمها وأدللها لا تقول لى ماذا تقرأ ولا يمكن الاتصال بها ، فكيف يمكن الاتصال بالعفاريت إذن ، طبعاً لا أصدق كل ما يقال عنهم ، يا صديقى إن الاتصال بالبشر أصبح فى حكم المستحيل فكيف يمكن الاتصال بالعفاريت ، كل إنسان قد أضحى جزيرة له مشاكله وله أحلامه وحاجاته. إن جرس التليفون لا يدق لأنه ليس هناك تليفون ، أرأيت المأساة ليس هناك أحد يسأل عنك ، إنك موجود تماماً مثل العفاريت ، وفى هذه اللحظة هناك رجل يقرأ صحيفة وامرأة ترضع طفلها وطفل يلعب بطائرته وقطار ينقلب على جنبه وطائرة تغوص فى البحر وشلال ينفجر بالمياه ويضرب السمك فى الصخور فتتحطم، مات السمك ولن يبكيه أحد ، أرأيت ، أن أحداً لا يشعر بوجودك برغم أنك تتنفس .

إن هوايتى قد صارت هى التنفس . . .

وكل إنسان يتنفس وليس هذا دليلاً على شىء ، ينبغى أن أبدأ الصوم الكبير وفاء لنذر قديم ، إن الصوم أفضل من الشبع والغنى أكثر وجاهة من الفقر لكن هذا كله لا يهم . . . صدقنى أنه لا يهم ، سوف تجوع فى المساء لو أكلت فى الصباح ، يجب أن تسأم إذن من الموضوع كله وتقرر التأمل ، تأمل حياتك الداخلية ودعك من التفكير فى النقود التى أقرضتها لى . . . لا تقل إن خمسة عشر جنيهاً هى السبب فى أحزانك! لست مسئولا عن أحزانك ولست مخلوقاً لحل مشاكلك ... إن لى مشاكل أنا الآخر . . . لاحظ أن الكل باطل وقبض الريح ، هذه

هى كلمات سيدنا سليمان عليه السلام، أبداً، أنت مخطىء. إن ثراءه العظيم ليس له دخل فى إعجابى به . . . اعلم أنه كان وسيظل أغنى رجل على الأرض ، إنه يسأل ربه يوماً أن يهبه ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، وهو يوهب هذا الملك وتحمل له السفن ذهباً من كل أنحاء الدنيا . هل تظن سليمان كان سعيداً بهذا الذهب ، أؤكد لك أن هذا لم يهزه قط . أعترف معك بأنه صنع كرسياً من الذهب والعاج وحوله ستة أسود يصعد إليها بست درجات وهذا كله من الذهب والعاج . . . هيه . هل لديك كرسى مثل هذا فى بيتك ، أبداً إن كراسيك الخيزران طبعاً لا تساوى شعرة ساقطة من ذقن واحد من دستة الأسود التى كانت حول كرسى الملك سليمان . أين ذهب كرسى سليمان ، هيه ... لا تعرف لقد ذهب وضاع وفقد وتبدد . . . عاد إلى التراب . . . كل شىء صائر إلى التراب بعد أن ينهى دورته . تقول أن سيدنا سليمان لم يكن يقترض، طبعاً لم يكن يقترض ، كان خيره على الدنيا كلها . لكنك تخطىء لو تصورت أن قيمته تنبعث من غناه، فالمال عارية يستردها الخالق وليس للإنسان عليها سوى حق الانتفاع ، وسيدنا سليمان كان غنياً لكن قيمته تكمن فى نبوته العظيمة وفى هذه الرحمة التى أزاحت من أمامه السدود والحدود فإذا به يسمع حديث النملة ويجرى حواراً مع الهدهد ويأمر الرياح ويحبس الجن بإذن الله ومشيئته . . . هنا تكمن قيمته الحقيقية ، أنا أحسده لذلك ، لست أحسده وإنما أغبطه ، نقيا كان وشفافاً إلى الحد الذى كان يسمع فيه نملة تحذر بقية النمل من جنوده « فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى » .

إنه يذكر خالقه ويقوم بواجب الشكر العميق . عليه الصلاة والسلام فقد كان فى كل مجده وهو يرتدى الذهب والجواهر الكريمة لا يشبه زنبقة من زنابق الحقول : . . كانت أى وردة جميلة ترتدى ملابس أجمل من ملابسه ، ثم تجىء أنت لتطالب بديونك .

ينبغي أن تتسامى يا صديقي قليلا وتفكر فى القيم الروحية للحياة ، ما معنى أن تظل سجيناً داخل قوقعتك المادية . فكر فى جمال الحياة . فكر فى الحب ، فكر فى الآلام التى تعانيها القطط حين تولد ، أما أن تظل تفكر فى دينى لك فهذا معناه أن المادية تغرق العالم . . . وهذا شيء مؤسف . . . تشرب شاى ؟

* * *

الصفحه الخامسه من مذكرات أعزب :

اليوم الثالث فى الأسبوع : لم أزل أمشى كل يوم من الثالثة ظهراً إلى السادسة فى شوارع القاهرة . إن هذه الساعات الثلاث هى أحلى ساعات حياتى . ينبغى أن أتماسك ولا أستسلم لهذه الرغبة الملحة فى الزوجة والنظام والهدوء والبيت والأولاد .

اليوم الرابع فى الأسبوع : فكرت فى رأى زوجتى فى أصدقائى وتأكدت من بصيرتها النافذة ، كانت تقول لى إنهم ليسوا أصدقاء . إنها على حق . إن كل المتزوجين منهم كيوسف وحسن وأحمد لم يتكرموا على بدعوة غداء واحدة . الوحيد الذى تفضل مشكوراً بدعوتى إلى الغداء هو الأعزب فاروق . وقد أكلنا سمكاً مشوياً وسمكاً مسلوقاً وأرزاً بالجمبرى وبطيخاً مثلجاً حتى سكرت بسبب الأكل ، وإن أردت الدقة فقل إننى سكرت من السرور ومنحت فاروقاً رتبة البكوية حين خرجنا من المحل فقلت له : ما تجيب سيجارة يا فاروق بك .

اليوم السادس فى الأسبوع : قرأت خبراً عن رجل عثروا فى بلكونة بيته على ثلاثين ألفاً من الجنيهات ملفوفة فى ورق الصحف القديمة وقد ألقيت بإهمال تمويهاً على اللصوص . ضحكت بشدة لهذا الخبر . كان يظن أنه عبقرى ، لكن شيئاً يشبه الصدفة وليس بالصدفة ، فإذا بالعبقرية

تتناثر بدداً . سكين المبيض يقع فى البلكونة : المبيض رجل فقير وغلبان فماذا يفعل ؛ هل يشترى سكيناً آخر بريال ؛ أبداً ، إنه تصرف بشجاعة ويأس مثل كل الرواد والمكتشفين الأوائل ، ألقى نفسه وراء السكين التى سقطت ؛ سقط التلميذ الذكى فى الامتحان وسقط المبيض وسط ثلاثين ألفاً من الجنيهات : عض الناس على شفاههم فى المقاهى واختلفت آراء الجالسين حول الموضوع .

قال اللصوص : هذا الغبى . . . ذهب إلى الحكومة ولم يضرب النقود فى جيبه . وقال الموظفون البيروقراطيون : معه حق ، إن أحداً لم يسلمه النقود باستمارة ج-١-٢٤٣٧٩٥٦، وليس له حق استلامها بعد مواعيد العمل الرسمية . وقال الناس الذين يحبون بلدهم ويشفقون عليه : إن هذا الرجل هو مصر الحقيقية . . .

اليوم السابع فى الأسبوع : كان خطيب المسجد متفيهقاً ، وكان يمضغ الكلام بفمه ، وكان يردد كلاماً محفوظاً ومملا ومتكرراً من عهد السلطان الغورى . كرهت الخطيب وحقدت عليه ورحت أتأمله بغباء وجمود . وحين قال : أدعوا الله يستجب لكم ...دعوت عليه أن يدخل النار .

الصفحة السادسة من مذكرات أعزب :

« أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً » .

كان الربيع فعلا يتهيأ للقدوم من رأس الحارة التى يقع بيتى فى نهايتها ، سددت أنفى وفمى ونظرت إلى الربيع القادم، وأغمضت عينى وأشحت بوجهى وانتظرت أن يمر ، كانت قطعة الربيع القادمة تحمل كمية من الأتربة التى تسد عين الشمس ، فى البداية هب الهواء هبات متتالية بين الرصيف والشارع ، وكل مرة يهبط إلى الشارع يغرف بيديه التراب فإذا صعد إلى الرصيف كنس بيديه أوراق الصحف وحملها وعاد إلى لعبته ، ومثلما يدور الأطفال وهم يمسكون جلاليبهم فى دائرة ،راحت

الزوبعة تدور بشكل أسطوانى وهى تغرف بيدها كل ما تقع عليه عيناها الترابيتان من أقذار وأتربة ، أخيراً اكتفت الزوبعة بحملها فارتفعت قليلا عن الأرض وألقت منتشية برأسها إلى الوراء ، واندفعت إلى الأمام فى حركة سريعة وارتمت فى أحضانى . وتبعثر الربيع الطلق بكل حمولته من الأتربة على الملابس ووجهى . لعنة الله على الربيع إن كان هذا هو الربيع . . . وبدت الليلة من أولها سوداء كليلة الأمس ، فيوسف لم يحضر بعد ، والمقهى بغيره كئيب ، وزوجتى لم تحضر بعد ، والبيت بدونها مقبرة ، والربيع الطلق يختال بين حفر الشارع وهو يجمع التراب ويلقى بنفسه على المارة ... وأحسست بأنفاسى تكاد تزهق من الضيق ، ويبدو أن ليلتنا تشبه البارحة باستثناء واحد . . . إن اليوم أول الربيع ، وعادت زوبعة ثانية تشق طريقها نحوى وأنا أمضى فى الحارة ، وتوقفت مغمضاً عينى حتى تمر ، أخيراً وصلت إلى المقهى . . .

هذه آخر ليلة لى فى المقهى ، فغداً تعود زوجتى ويعود النظام إلى حياتى وتنتهى مذكرات رجل أعزب . رغم كل التعاسه التى سجلتها كرجل أعزب ، فلست أعرف سبباً لهذه الكآبه الخفيفة والانقباض اليسير الذى أنتظر به الزوجة . مع شىء من الفرح . . . لا أنكر .

* * *

عودة إلى مذكرات زوج . . .

الأحد ٦ مايو سنة ١٩٦٥

انكمش أصدقائى بعد عودة زوجتى مثلما ينكمش القميص بعد غسله ، ولم يبق لى منهم جميعاً غير صديقين يتيمين هما يوسف ومحمود . وترجع معرفتى بهما إلى الأيام التى كنا فيها طلبة بالمدارس ، أى من الأيام التى تنشأ فيها الصداقة بعيداً عن النفاق والمصلحة ، ولا تستهدف

سوى الحب ، وقبل أن أتزوج كان عدد أصدقائى قد بلغ ثلاثة عشر صديقاً ، ثم بدأت زوجتى تتابع اتجاه مشاعر الصداقة عندى لتضرب عليها بيد من حديد . فهذا الصديق يفسدنى ، وذاك يعلمنى السهر ، والثالث ليس فى المستوى الذى يؤتمن فيه على زوج حديث مثلى . والرابع طلق زوجته فهو إذن رجل غير محترم ، والخامس دمه ثقيل وضحكته عالية كضحكات الحشاشين . وهكذا راحت زوجتى تقص أجنحة الصداقة وتتهم أصدقائى وتخلق فيهم القطط الفطساء حتى وقعوا منى ولم يبق لى غير يوسف ومحمود . ولقد تخففت كثيراً بعد عمليات التطهير التى قامت بها الزوجة برغم أنانيتها العظيمة .

وعند ما تنشأ الصداقة بين اثنين يصبح معنى ذلك أن هناك اثنين يفكران معا ويقرران معا ، ويفهم كل واحد منهما أفكار الثانى قبل التصريح بها ويحملان معا هموماً مشتركة وذكريات بعيدة ، ومع الوقت يصبح الصديقان واحداً ويقول كل منهما عن الآخر أنا . . . والصداقة الجيدة كالخمر الجيد، تحتاج لزمن ، وليس هناك صداقة من النظرة الأولى كالحب ، ولهذا تدوم الصداقة أكثر مما يدوم الحب، ويستحيل أن نعرف رجلا يومين ونقرر اتخاذه صديقاً، كما يستحيل أن نغرس شجرة فى الصباح ونجلس تحت ظلها فى الظهيرة . . .

والزواج أنانية عظيمة، وعندما يقول الزوج لزوجته شيئاً عن ملابسها المكشوفة تزعم أنه يسيطر عليها ويتحكم فيها ويريدها أن تعود للحبرة واليشمك والحجاب .

وفى الحب تتصرف الفتاة تصرف العاشقة فتقزقز اللب على شاطئ النيل، وتمشى مسافات طويلة ، وتدخن من علبة سجائرك وتكتفى بضغطات الأيدى والأحلام ، وفى الخطبة تحافظ البنت على نقود خطيبها وتدخر له وتخاصمه كده وكده لأنه يدخن بكثرة وتفهمه أنها تخشى على صحته أغلى شىء فى الدنيا بعد حبه. وفى الزواج تحدثه عن الأنانية الفظيعة التى

تدفعه للتدخين ولا تدفعه لشراء تليفزيون لتتسلى به ؛ وأنا أقاوم شراء تليفزيون فى بيتى منذ سنوات ، أومن أنى رجل حر ؛ ويفرض على إيمانى بالحرية أن أقاوم كل أشكال العبودية مثل عبودية الشاشة الصغيرة ، وليس ينبغى أن أكون ناقداً لأكتشف هذه الحقيقة. ومثلما أقاوم عبودية التلفزيون أقاوم كذلك عبودية الوظيفة ؛ كما أقاوم عبودية الزواج .

ولقد شاءت حكمة عليا أن يكون رئيسى فى العمل رجلا يشبه زوجتى تمام الشبه ، كلاهما يحدث أكبر ضجة ممكنة لأتفه الأسباب المستطاعة ، وكلاهما يستخدم مدفعاً نووياً لقتل هاموشة صغيرة ؛ وكلاهما يشبه قنبلة شديدة الإنفجار وموقوتة وتمضى تكاتها مثل تكات الساعة على الجدار ، ولا أحد يعلم متى تنفجر ، إن كلمة طائشة لا أقصدها فى البيت أو فى العمل قد تتحول إلى كرة تذهب وتجىء ، وتجئ وتذهب ، وإذا بالكرة بناء كبير ، وإذا بالبناء الكبير يتقوض وينهار فوق رأسى ، وفى العمل عند ما أحاول أن أفهم رئيسى شيئاً أخطأه أو غاب عن ذهنه يتصور أننى أحاول إهانته ويرفض أن يستمع بحسم وكبرياء نادرين ، وعند ما يضبط لى أى خطأ ولو صغير تتسع ابتسامته الشريرة وينهار فى حديث طويل عن عدم إحساسى بالمسئولية ، وهذا التهاون المعيب الذى أمارس أعمالى به ، ولا ينسى أن يذكرنى بموقفه الشخصى من العمل حين كان فى مثل سنى ، وكيف كان كبير العباقرة وعظيم الأذكياء وقرة عين المسئولية . وأنا لا أصدقه كما لا أصدق زوجتى عند ما تذكر سيئاتى فقط وتضع حسناتها وحدها فى كفة الميزان المقابلة وتأمرنى أن أنظر . . . والمدهش أن رئيسى فى العمل وزوجتى ينظران إلى كما لو كنت شيئاً ، لا كما لو كنت شخصاً ، والإنسان عند ما ينظر إلى شىء ينزلق تفكيره إلى الرغبة فى تملك هذا الشىء ، وعندما يقرر امتلاكه يبدأ فى التصرف على هذا الأساس ، ومن هنا تنبع كافة المشاكل فى البيت والعمل . يمنحنى رئيسى فى العمل إحساساً بأننى موظف لديه ولست موظفاً لدى الحكومة المصرية ،

وتعطيني زوجتي في البيت إحساساً بأنني موظف عندها ولست موظفاً في خدمة النوع والأسرة . وأحياناً يشتري الرئيس في العمل حذاء ضيقاً ويجيء به إلى المصلحة ، هل ذنبي أن الحذاء ضيق وأنه يحطم أعصابه ويرسم فوق وجهه تعاسة الشهداء في قضايا الباطل . هل هذا ذنبي . الجواب أنه ذنبي وذنب كل موظفي القسم التعس الذي يترأسه . إنه يرى كل شيء في ضيق الحذاء ، ويرانا جميعاً مجموعة من الشباب الحمقى لا تصلح لغير الحديث في الدرجات وانتظار العلاوة . ويتصور ساعتها وأحدنا ينبهه لشيء غاب عنه ، يتصور أن التطاول على مقامه هو بعض ما رماه به القدر من مصائب .

وأنا لا أخاف رئيسي في العمل ، وهو يعرف هذه الحقيقة وتثور حفيظته ضدي بسببها أكثر وأكثر ، وأنا لا أعمل هذه الأيام . منذ ستة أشهر على التقريب لا أقوم بأداء أي عمل أستحق عليه أي أجر ، ورئيسي هو المسئول عن ذلك . لقد أقنعني بأن الخطأ جريمة . . . عظيم جداً . . . إن الذين لا يعملون لا يخطئون . . . لن أعمل إذن . . . وأنا لا أعمل ولا أخاف من الرفت في الوقت نفسه ، ففصل موظف في الحكومة يعني التعرض لعدة لوائح لا يعرف الوزير نفسه عمرها ولا تشابكها ولا تعقيدها ولا أصولها التاريخية ، وأنا أعيش بغير عمل رغم أنني آخذ مرتباً من الدولة ، وهناك آلاف مثلي ، ومعظمهم خلال محاولاتهم العمل قد أخطأوا أو اصطدموا بالجيل القديم ، وأقنعهم الجيل القديم أنهم يجب ألا يخطئوا مرة ثانية ، ومن يومها كفوا عن العمل . ولقد أنصت باهتمام لما قيل عن هز الجهاز الحكومي وهززت رأسي يومها وأنا أسمع ذلك إعجاباً بالفكرة ، وتساءلت : أين يكون ذلك ومتى وكيف؟ . . . إن الجهاز الحكومي في نهاية الأمر يتكون من عقليات صنعت من ورق اللوائح المقوى وصنعت أفكارها من حبر القوانين المتعارضة التي يبطل بعضها بعضاً . وأعظم مثال على ذلك هو رئيسي المباشر ، ينبغي تجميد هذا الرجل لصالح الحياة وإطلاق يد

الشباب وإلغاء اللوائح التى جعلتنا نستمر فى دفع الجزية لتركيا حتى عامين مضيا رغم قيام الثورة وانقلاب شكل الحياة . وهذا الصباح حاولت أن أقترح على رئيسى المباشر شيئاً يتصل بتطوير العمل . ضايقنى الفراغ وهزنى الحنين إلى العمل وكان كل ما قلته لا يعدو ملاحظة عابرة عن سير العمل . . . وظهرت على وجه الرجل علائم الغضب وأفهمنى أنه رئيس القسم الوحيد ، وأنه الوحيد المسئول أمام وكيل الوزارة ، وأنه مكلف طبقاً للوائح بإدارة العمل ، وأنه يدير العمل تحت حراسة آلاف القوانين وأنه لا ينوى أن يعطينى مكانه . . .

وتطاير الرذاذ من فمه على وجهى وهو يتكلم ، وانتتر واقفاً وقال : اتفضل مطرحى . . . اتفضل . . .

وبدلا من أن أتفضل بالجلوس فى كرسيه ومباشرة سلطاته تفضلت خارجاً من الحجرة .

حقك فوق رأسى يا سيدى . . . تصرف فى العمل الذى ورثته عن أحد أجدادك الذى كان شخصية بارزة فى بلاط الملك تحتمس ، تصرف يا سيدى وسوف نجلس حولك فى القسم خشباً مسندة تحرق البخور للوائح وترقص لك رقصاً فرعونياً توقيعياً بالموافقة . . .

ولا تسألنى بعدها عن سر تأخر الحياة فى البلد . . .

الأحد : ١٣ يونيو سنة ١٩٦٥

أحياناً تصبح الحياة مليئة وفارغة إلى الحد الذى لا يجد فيه المرء ما يكتبه. كل شيء على ما يرام ، حياتى الزوجية تمضى فوق قضيبين من قضبان السكك الحديدية ، حمار الروتين يهز ذيله فى حياتى وينهق كلما عضه الجوع ، زواجى يدخل عامه الثامن. ويبدو أننى سأصاب بهرشة السنة الثامنة هذا العام ، وإذا كان نظر الإنسان يضعف كلما توغل به العمر نحو النهاية فإن ملاحظاته تزداد حدة وقسوة ، وأنا ألاحظ على زوجتى أشياء لم

تكن موجودة يوم أحببتها. ألاحظ مثلا أنها تتحول لكتلة أسطوانية ضخمة . ويكاد مضى الوقت يزرع فى نفسى إحساساً بأن هذه الكتلة الأسطوانية الضخمة تستدير وتصبح صورة طبق الأصل من أمها . ومنذيومين تذكرت عينى زوجتى العسليتين وبحثت عنهما ، وأسفاه غرقت عيناها فى الدهن وكفتا عن بعث ذلك البريق القديم الذى كان يدفعنى لآلاف الأحلام ، وصارت يدها ثقيلة حين تضعهما على كتفى . ولم تعد ألفاظها فى الحديث تتسم بالعذوبة والرقة مثلما كان الوضع أيام الحب الأولى . . . ولقد كانت زوجتى تعزف على البيانو ، وكان صوتها جميلا حين ينبعث من الحمام ، وكانت لديها هوايتها للرسم ، ثم غرقت كل هذه المواهب مثلما غرقت كبرياء فرعون بفرعون فى البحر الأحمر وهو يجرى وراء موسى . ومثلما كان فرعون مضحكاً وهو يجرى وراء موسى فكذلك تبدو زوجتى اليوم بحجمها الجديد .

الأحد : ٢٠ يونيو سنة ١٩٦٥

مما يطرب له النساء أن يكون أزواجهن لا أهل لهم ، فترى الخاطبة أول ما تذكر حسنة للشاب الراغب فى الزواج تقول إنه لا أهل له وتبالغ بقولها : « إنه مقطوع من شجرة » . معاذ الله أيجب أن تفنى أسرة بأكملها ليتزوج منها فرد ؟

هذه الكلمات للكاتبة العظيمة السيدة ملك حفنى ناصف أو باحثة البادية كما كانت تحب أن تسمى نفسها ، والغريب أننا نعيش فى النصف الثانى من القرن العشرين ، ورغم ذلك لا نجد كاتبة تقوم بنفس الدور الذى كانت تقوم به السيدة ملك ، ما أعظم هذه السيدة وما أعظم الزهو الذى يمنحه مجرد وجودها فى تاريخ النساء فى مصر . لقد ولدت هذه الأديبة الفاضلة فى نهاية القرن التاسع عشر ، ورغم الفترة القصيرة التى مكثها هذا العقل المضىء فى الدنيا (٣٢ سنة) ، تركت السيدة ملك خطابات كثيرة ما زلت أقرؤها أنا ابن القرن العشرين فأحس بما فيها من إلهام وصدق .

منذ ستين عاما كان من حسنات الشاب المتأهب للزواج أن يكون بلا أهل ، أن يكون مقطوعاً من شجرة ، وما زال القطع من الشجرة حتى عصرنا هذا ميزة من مميزات الرجل الذى يفكر فى الزواج ، وعند ما يحاول الإنسان أن يتصور منبع هذه الفكرة سيجد أنها تنبع من عالم الحيوان ، لا نجد هذه العلاقات الطيبة بين الحيوان وأمه ، ولا نعثر على هذه المودة بين زوجة القرد وحماتها مثلا ، إنما نجد زوجة القرد تتشاجر مع حماتها والقرد واقف يتفرج بانبساط لأن زوجته تضرب هذه القردة العجوزة التى هى أمه . ونجد الأسماك تأكل بعضها فيأكل الابن والده وتأكل الزوجة أمها ، ويجىء الحوت فيأكل أفراد الأسرة المشاكسة جميعاً ، فى عالم الحيوان لا نميز بين الأب والأم والزوجة والابن ، نحن أمام سلم من درجات الخليقة التى لا يستوجب فيه مجرد الوجود حفظ الأنساب والتراحم إنما اختص الله سبحانه وتعالى النوع الإنسانى بهذه الصفة لرقيه . . .

وعند ما يكبر الفيل الصغير ويطرده أبوه ويخرج ويتزوج لا يعود لزيارة أبيه ، ولا يسأل الفيل الكبير عن الفيل الصغير ليطمئن عليه ، أما وسط دنيا الناس فينبغى أن تظل صلة الود قائمة . وليس معنى زواج الشاب أن ينفصل نهائياً عن أسرته ، المفروض طبعاً هو أن ينفصل الشاب نفسياً عن أمه بعد الزواج ، كما ينبغى أن تنفصل الفتاة عن أمها نفسياً بعد الزواج ، أما الحب والاهتمام فينبغى أن يبقيا ، والذى يحدث عند الزواج فى مصر أن ينفصل الشاب عن أسرته ويبقى متعلقاً بها ، ويزيد تعلقه النفسى بأمه كلما مر الوقت ، ويحدث نفس الشعور عند الزوجة تجاه أمها ، وتصبح أجمل لحظات الزوجين هى اللحظات التى يقضيها كل واحد منهما فى بيت أسرته .

لماذا تغار الزوجة المصرية من أم زوجها ، لماذا تغار من شعوره نحو أمه ... السبب بسيط ، إن ما تعطيه الأم لا تعطيه الزوجة ، والأم تعطى أبناءها حباً لا مزيد عليه ، وهى لا تبيع لهم هذا الحب مقابل شىء فى

المستقبل ، إنما تمنح حبها مثلما تمنح الوردة عطرها ، وعند ما تغنى الأم لطفلها لا تغنى له على طريقة المحترفين الذين يعرفون أن أحداً يسمعهم ، إنما تغنى له على طريقة العصافير والبلابل التى لا بد أن تغنى أو تموت .

قالت لى زوجتى أمس : أنا عارفه أنت بتحب أمك كده ليه .

تعتقد زوجتى أننى الرجل الوحيد فى الدنيا الذى يحب أمه كل هذا الحب ، لم أقل لزوجتى الحقيقة التالية ، قبل الزواج لم يكن يمر يوم واحد دون مشاجرة مع أمى ، وكانت أمى تلعن اليوم الذى ولدتنى فيه وتتمنى لو أن بطنها انشق بسكين ، وكانت تضربنى فى طفولتى ضرباً مبرحاً ولم أكن على علاقة طيبة معها على أى حال ، ثم حدث حين تزوجت أن اكتشفت أن الحنان الذى أتلقاه من أمى رغم كل شيء كان حناناً أصيلا وحقيقياً وبلا ثمن ، اكتشفت أن الحب الذى كان أبى يعطيه لى كان حباً بلا غرض ولا هدف ولا ثمن ، ورغم كل العذاب الذى سببته لأبى وأمى بشقاوتى لم ينقص حبهما لى ذرة واحدة ، بل لعله زاد . . . أما الزوجة فسبب لها عذاب نصف يوم تكرهك بنصف عام ، وحبها لك يزيد وينقص كلما زاد حبك أو نقص ، ويكتشف المرء أنه كان يأخذ حباً ولا يعطى حباً ، فأصبح عليه كى يتسلم خردلة من الحب أن يعطى قنطاراً من الحب وطناً من النقود . ومن الحمق العظيم أن تتصور الزوجة المصرية أن زوجها يمكن أن يستبدلها بأمه فى نفس الوقت الذى لا تمنحه لحظة واحدة ليحس أنها تشبه أمه حقيقة . كنت أتهم أمى بالنظافة الشديدة التى تبلغ حد الجنون ، وكنت أعتقد أن أى خادمة تعمل فى بيتنا هى خادمة أوقعها حظها السيئ فى شر أعمالها ، فلسوف تمسح الصالة مرتين فى اليوم ، ولسوف تغسل الصحون عشر مرات فى اليوم ، واكتشاف ذبابة واحدة فى البيت معناه فتح تحقيق هائل عن العدو الذى سمح بتسرب هذه الذبابة . . .

أما اليوم فأنا أعيش وسط بيت يشاركنى فيه الذباب بجرأة لا عهد للذباب بها ، ولو تأمل المرء حجرة الجلوس فى بيتنا فسوف يعجبه لمعان الحجرة ،

لكنه لو كشف أحد الكراسي وجره من مكانه فسوف يجد وراءه طناً من الأتربة ولعب الأولاد ومقصاً نبحث عنه من زمن !

الأحد : ٤ يوليو ١٩٦٥

وراء كل رجل عظيم امرأة .

الزواج يدفع الإنسان لتحقيق أشياء مدهشة .

هاتان العبارتان من بين العبارات الشائعة عن الزواج . . .

أو قل إنصافاً للحقيقة إنها كانت شائعة ، فقد توصلت بذكائى الزوجى إلى اكتشاف أن لهاتين العبارتين بقية . وراء كل رجل عظيم امرأة قد تعوقه عن النجاح الكامل ، والزواج يدفع الإنسان إلى تحقيق أعمال مدهشة مثل أن يعرف كيف يساوم بائع البطيخ ويهدده بالتسعيرة ، وأن يعرف أسعار السلع وهل ترتفع بالطول أو بالعرض ، وقبل الزواج يعيش المرء على هامش السوق فلا يعرف الفرق بين أنواع اللحم ، ولا يفهم فى الستائر أو الصينى أو لفائف الأطفال أو سلك الأوانى أو مبيدات الحشرات .

لكنه يضيف بعد الزواج كل هذه المعلومات إلى رأسه ، وعند ما يمتلىء دماغ الرجل بهذه السخافات يعتبره الناس زوجاً مثالياً ، ويمنحونه الاحترام اللائق برب أسرة وصاحب بيت ، وأنا رب أسرة وصاحب بيت وينقسم رعاياى إلى عدة أشخاص أكثرهم مدعاة للقلق وبعثاً للاضطرابات هى زوجتى . وتعتبر زوجتى بينها وبين نفسها أن بختها قد مال بهذا الزواج ، لا تصرح بذلك لأنها تعرف أنه يغضبنى لكنها تهامس به بينها وبين أمها ، تعتبر زوجتى أيضاً أنها أحكم امرأة وأعقل مخلوقة على ظهر هذا الكوكب الصغير المسمى بالأرض ، وعند ما تدفع المصادفات زوجتى — وكثيراً ما تدفعها — إلى المقارنة بين عقلى وعقلها ، بين ذكائى وذكائها ، تكتشف دائماً أنها أذكى وأعقل ، ويملؤها هذا الاكتشاف سروراً تبطنه

الحسرة ، فهى قد كتب عليها إلى الأبد أن تظل زوجة لمثل هذا الرجل الذى يخدعه العالم كله .

منذ يومين احمرت عين الشمس واشتدت الحرارة ، قلت لنفسى لا يفل الحديد إلا الحديد . نشترى لعين الشمس الحمراء شيئاً أكثر احمراراً . والتفت لبائع البطيخ وأصدرت إليه امراً أن يحضر هذه البطيخة هناك . وتجاهل الرجل البطيخة التى أشرت إليها وراح يضرب على البطيخ ويقلبه بين يديه محاولا إيهامى أنه بهذه الطريقة الساذجة يعلم أسرار الباطن ، وذلك شىء لا يعلمه إلا الله . ثم انتقى لى بطيخة يعجز عن حملها حمار صغير وقال :

— بالهنا والشفا .

— طيب اوزن . وأثناء وزن البطيخة نفدت قطع الحديد التى يستخدمها فى الميزان فانحنى الرجل على طوبة فى الأرض وحملها وأكمل بها الميزان . واستفسرت كيف نعرف وزن هذه الطوبة — فقال إنه يعرف وزن كل طوبة فى الشارع ، ولوح فى وجهى بسكينه الذى يبلغ طوله طول سيف صغير وهو يقسم على ذلك فصدقته . وبدأت المساومات على السعر ، وقد دفعت خمسين قرشاً والرجل يقسم بالطلاق إنهم يبيعونها فى جروبى بجنيه ، وحملت البطيخة اللعينة فغافلتنى وراحت تزداد ثقلا مع الوقت ، وأقسم إن ثقلها جعلنى أستريح فى الطريق خمس مرات . ولقد فكرت أن أرميها على الأرض من فرط ثقلها ، أخيراً وصلت إلى البيت وصعدت إلى الدور الخامس وأنا أتصور أن زوجتى سوف تمنحنى وسام السعادة الزوجية لتضحيتى العظيمة ، وأضاء وجهها حين نظرت إلى البطيخة ، قالت : كويسه . جبتها بكام ؟ . قلت مراوغاً : المهم تعجبك قالت بحزم : جبتها بكام ؟ . قلت كاذباً : « بتلاتين قرش » . خبطت يدها على صدرها وقالت بإنزعاج : يا خبر أسود ، ليه هو البطيخ مش سعروه . يا إلهى . ماذا لو قلت لها الحقيقة ، إننى أكذب دائماً عند ما أشترى شيئاً

وأنقص من ثمنه حتى تقتنع زوجتى بمهارتى ، ورغم ذلك لا تقتنع . تتصور دائماً أننى خدعت . تتصور دائماً أن هناك تعبيراً فى وجهى ما إن يراه البائع حتى يقرر زيادة الثمن إلى ثلاثة أضعافه . وعلى دائماً عند ما أسأل عن شىء ويقال لى ثمنه أن أبتسم ابتسامة لئيمة وأخفض الثمن إلى الربع وسوف نتناقش على الثمن ثم يرتفع إلى الثالث . وهذا هو السعر الحقيقى للشىء . وهكذا ينبغى أن أتصرف . ولكن هؤلاء الناس يا زوجتى القاسية فى نهاية الأمر بؤساء . تصورى أن ظروفى لم تكن هى ظروفى وأننى نشأت بائعاً للبطيخ ، تصورى أن ظروفك لم تكن ظروفك وأنك نشأت بائعة للفجل . أنت تمزح الآن مزاحاً سخيفاً وتحاول إهانتى فاحترس . على أى حال . . . لنفتح البطيخة ونرى ما اخترته بشطارتك . وشققنا البطيخة فإذا هى بيضاء من غير سوء ، وإذا احمرار خفيف يوشى جوانبها ، وكان طعمها يقع بين الخيار والبطاطا . . . ولم أتمالك نفسى من الضحك فى الحقيقة ، كان مشهد البطيخة يبدو مضحكاً ، وتصورت البائع وهو يقلب البطيخ ويضرب عليه بيده ثم يختار لى هذه العروسة ، فهمت حقيقة الصلة بين الزواج والبطيخ . أنت لا تعلم أبداً ماذا ينتظرك. ليتنى رميتها فى الطريق حين ثقلت فى يدى بدلا من حملها كل هذا الوقت . قالت زوجتى وهى تتنهد بيأس : لو فيه واحد نزل من شغله ومشى لغاية الكوبرى وراح رامى فى النيل « ٣٠ قرش » الناس تقول عليه ايه ؟

— تقول عليه عايز ينتحر .

— أنت تمزح مرة أخرى ، وهذه هى الكارثة ، إنك لا تحس فعلتك المنكرة ، لا تحس أن الباعة يعودون إلى خداعك . . . ألم أحذرك من شراء شىء . . . ماذا أفعل معك . . . ليس أمامك إلا أن تأمرى بشنقى ، هذا هو الشىء الوحيد الذى يضمن لك ألا أقع ضحية للخداع مرة أخرى ، وزاد غضب زوجتى لأننى أسخر ولم تهدأ إلا حين أقسمت لها أن أترصد لبائع البطيخ غداً وآخذ منه ثلاثين قرشاً وأدفنه داخل بطيخة

قبل أن أمضى عنه . وجاء الغداء أخيراً . ومددت يدى لطبق المحشى ورحت أستمع صابراً إلى نشرة الأخبار العائلية التى تقولها زوجتى . كانت هناك أخبار محزنة وأخبار مفرحة وأخبار محيرة . أهم الأخبار المحزنة أن زوج صديقتها قد اشترى سيارة وبدأ يعلم زوجته السواقة . وهذا خبر محزن لأن الصلة منبتة ومنعدمة بينى وبينه ، أهم الأخبار المحيرة أن شقيقتى ولدت طفلا جميلا أطلقت عليه اسم « محمد » ، وهذا خبر محير لأنه يعنى أننى يجب أن أذهب لزيارة شقيقتى وفى يدى هدية . والهدية فى المحل ، والمحل يحتاج لنقود ، والنقود فى البنك ، والبنك يحتاج لضمان . . . وأنا رجل لا يضمن أحداً ولا يضمنه أحد ، ولهذا يغضبنى حديث النقود ، فهى شىء ميتافيزيقى لا أراه وإن كنت أحلم به . دبرنى يا وزير . التدابير لله يا ملك . هكذا كانوا يقولون فى الحواديت ، وهكذا كان الوزير يحيل الموضوع إلى الله ويهرب هو من التفكير . وكذلك فعلت زوجتى . سأذهب بغير هدية وليكن ما يكون . . . ماذا . . . هل يردونها إلينا عند ما ننجب ولداً . . . عظيم . . . كأننا دفعنا وردوها إلينا . . . فأنا لا أنوى إنجاب ولد فى الوقت الحاضر . . . ما رأيك فى الورد ، أليس مثل هذه الكائنات اللطيفة وسيلة للتعبير عن عواطف الإنسان . . . الورود وحدها لا تكفى . . . ينبغى أن تحمل معك هدية ، انتظر حتى أبحث لك بين هدايا الولد الصغير عن هدية جاءتنا ، وعثرنا أخيراً على دبوس جاء لابننا ، حمداً لله ، هذا مناسب تماماً ، لكن شقيقتك هى التى أحضرته لنا حين جاء ابنك إلى الحياة ، ولعلها تذكره جيداً ، لعله دبوس جاءها هدية فلما اضطرتها الظروف قدمته هدية ، وبعدين . . . ولا قبلين ، فكر فى شىء آخر . . . لن أفكر فى شىء آخر ، سأذهب مثل طرزان : لا تفكر فى الورود فلم تعد الورود شيئاً جديداً ، يا أسفى على الناس ، تخلو بيوتنا من الورود ولا تزدهر غير تجارة الورود الصناعية ، وعلى قدر العفوية فى نفوس الناس يعطى الحب نفسه ، وتبور الورود الطبيعية مثلما تبور كل الأشياء

الطبيعية فى النفوس ، أذهب بحفنة من الورود وليكن ما يكون . . .
ها هو المستشفى ، الجو يعبق برائحة الحياة والولادة . . .

الأحد : ١١ يوليو سنة ١٩٦٥

صراخ الأطفال يفتح فى صدر الإنسان ينبوعاً من الفرح ، فما أغرب هذه المخلوقات التى تستقبل الحياة بالاحتجاج على الهواء الذى يقتحم رئتيها ويحمل إليها صدمة اللقاء بالحياة وصدمة البكاء . . . وضعت الورود الحمراء إلى جوار الولد الصغير الذى أصبح عمره ثلاثة أيام فتحرك قليلا ثم عاد لسكونه . . . كان وجهه فى حجم الريال القديم . وكانت عيناه مغمضتين ويداه منقبضتين وكأنه يمسك بهما الهواء خشية أن يسقط . . . ومددت يدى إلى رأسه ولمسته لمساً خفيفاً فعاد يتحرك بغير أن يفتح عينيه ، وبدأ منظره كقط صغير مرهق . . . كان الولد الصغير الذى لم يختر له أبواه اسماً بعد يبدو مرهقاً كأنه عائد لتوه من رحلة طويلة . وكان عائداً لتوه من رحلة طويلة . . . فى البدء كان جزءاً من ملح البحر ورمل الشاطىء وثمار الفاكهة وطين الحقول الذى ينتج القمح ، ثم صار جزءاً من خلية نصفها من ظهر أبيه ونصفها من صدر أمه ، ثم صار يوماً نطفة ، وجاء يوم على هذه الخلية التى لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة فإذا هى تلتصق بجدار الرحم ، وإذا بيد القدرة الرحيمة الخالقة تدفع إليها الغذاء من دم الأم ، وإذا بيد القدرة اللطيفة الحانية تخلق لها ظروف الحياة وسط ظلمات كثيفة تحمى وجودها الضعيف ، ثم تبدأ الرحلة نحو الانقسام المستمر حيث تولد بالمعجزة ملايين الخلايا التى تستمر فى انقسامها وتبدأ عملها الغريب فى بناء الجسد الإنسانى ، ويسجل الطب وجود الجنين لكنه يقف فاغر الفم أمام نوعه . وتصنع ملايين الخلايا أعصاب الجسد الذى يولد يوماً بعد يوم من دم الأم ، وتصنع ملايين الخلايا العظام ، وتتوجه خلايا أخرى نحو عملها لتنشىء المخ ، وتتخصص

كل مجموعة من الخلايا في إنشاء جزء . وكل خلية صغيرة تنطلق وهي تعرف طريقها وتعرف إلى أين تذهب وتعرف المطلوب منها وتعرف كيف تؤديه على وجهه الصحيح المرسوم المقدر في علم الله . لا تخطئ ولا تضل ولا تتوه ولا تنحرف ، والإنسان العاقل يريد ركوب الأوتوبيس من شبرا إلى مصر الجديدة فيضل ويخطئ ويركب أوتوبيساً غيره أو ينسى أو ينحرف وهو إنسان عاقل مميز ، لكن هذه الخلايا الخرساء التي لم تتعلم النطق ولا الوعي تعرف طريقها تماماً وتتخصص في عملها تماماً ولا يقول الطب لها شيئاً ولا تقول لها الأم شيئاً ولا يعرف الإنسان ما يجري داخل الجسد . لا يعرف ذلك أو يوجهها غير خالق السماء والأرض رب الكون العظيم . . . هو وحده الذي يرسم لها الطريق وهو وحده الذي ينشر لها من رحمته فلا تضل ولا تخطئ ... وتمضي الرحلة العجيبة وتروح الخلايا في بناء العمارة الصغيرة المعقدة وهي تعمل داخل نطاق ترسمه لها مجموعة من الوحدات الكامنة فيها هي وحدات الوراثة ، فإذا بعين الطفل تشبه عين جده ، وإذا بوجهه يحمل طابع الحسن الذي تحمله أمه . وإذا بالمخلوق الصغير امتداد لآلاف الصفات والخصائص التي حملها أبواه وأجداده . . . ثم تتم المعجزة أخيراً . . . وتجيء لحظة الولادة ، وهي لحظة لا يحددها الطفل ولا تعرفها الأم إنما تجيء فجأة مثلما سيجيء يوم القيامة فجأة . . . ويولد الطفل ، وكل ثانية واحدة يولد إلى الأرض ثلاثة أطفال ، وكل دقيقة مائتا طفل ، وكل عام يزيد عدد سكان الأرض ٦٥ مليوناً من الأطفال ، ٦٥ مليوناً من المعجزات ، ثم يجيء تاجر من تجار الجدل لينفي وجود المعجزات ويتساءل كيف يجمع الله العظام بعد أن تستحيل في الأرض إلى تراب يتطاير في الهواء . . . أليس من يبدأ الخلق أقدر على إعادته ، وليس أمام مشيئة الله ما يصعب أو يسهل فتعلق المشيئة بشيء يعني وقوع هذا الشيء فسبحان من خلق الأرض وسخرها لهذا المخلوق الصغير الذي يتحرك في فراشه ويفتح عينيه . وفتح الولد عينيه

وثنى قدميه وعاد يدهما كأنما ليركل الغطاء لكنه كان ملفوفاً بعناية . لم يبد عليه أنه لاحظ الورود الجميلة التى ترقد على الفراش بجانبه . . . أخيراً فتح فمه واندفع فى البكاء . . . كم أنت مضحك ورائع يا صديقى الصغير . ما أغرب أن يجىء عليك يوم فتعرف الحب والقلق والعبادة والحزن وتقرأ الشعر وتحلم بحياة فى الكواكب الأخرى . أنت لا تعرفنى طبعاً ، أنت لا تعرف الكثير فلم يزل عمرك ثلاثة أيام . . . أنت لا تعرف غير الجوع والبرد والضوء الذى يفزعك والهواء الذى يؤلمك بعد أن طالت حياتك فى الدنيا الأولى التى جئت منها . . . لا بأس بذلك إن الله يقيك هذا كله بغلاف من عدم الحساسية فترى الضوء باهتاً وتسمع الأصوات خافتة وتنام معظم الوقت ، أنا خالك الآن . أنت أيها القرد الصغير أول مخلوق جعلنى خالا فتصور سعادتى بك .

الأحد : أول أغسطس سنة ١٩٦٥

اليوم أول الشهر فمرحباً أيها الحزن .

وأحياناً يرقب المرء سير الحياة خلال جلوسه فى المقهى ويفكر . هذا الضجيج الذى لا ينقطع لحظة ولايكف عن النبض . هذه الآلاف من الأحلام والرغبات والأمنيات التى تخفق فى صدور السائرين فى الطرقات . نعم . ليست حياة الإنسان غير سلسلة من الأمنيات التى لا تتحقق . أثق فى ذلك ثقتى أن اليوم هو أول الشهر . ولو أمسكنا الإنسان ووضعناه تحت ضوء الحقيقة وسألناه عن أجمل قبلة فى حياته لتكشف الجواب عن قبلة لم تتم ، وأجمل امرأة هى امرأة لم ننلها قط ، وأجمل أغنية هى تلك التى نسمع منها جزءاً والقطار يتهيأ للسير . . .

النقص يلقى ظلاله على الحياة فما أجمل تسميتها بالدنيا . تلك تسمية توحى بمعناها وتلقى ظلال الهبوط والنقص . . . نعم نعم . . . هذه الحياة لا تساوى جناح بعوضة فما أغرب الذين يتقاتلون من أجل جناح بعوضة . . .

لكنى لا أفعل . . . ألقيت سلامى وجلست فى المقهى أفكر فى كروية الأرض ، وهو تفكير قد لا تهضمه زوجتى لكنها لا تغضب منه ، أحضر كوباً من الشاى ودعنى أتأمل الحياة حولى أيها الجرسون فإننى مفلس ، أنت لا تعرفنى عندما أصبح مفلساً ، حين يمتلئ الإنسان بالنقود لا يفكر إنما ينفق ؛ وعندما يدركه ما أدركنى اليوم تراه يتأمل مثلى . ولن تعرف أبداً أيها الجرسون عمق تأملاتى لأننى بالنسبة إليك لست غير كوب من الشاى وبقشيش ، ولا بقشيش اليوم . قبضت مرتبى اليوم وأدركت لحظتها أن حياة الإنسان سلسلة من الأمنيات التى لا تتحقق . ولقد سجلت بداية هذا الشهر أمنية لم تتحقق . . .

أقنعنى رئيس رؤسائى فى العمل أننى أستحق علاوة ، وحدد موعدها وصرفنى بإشارة رقيقة من يده . ومع البداية فى كل شهر أخرج من البنك فأرفع رأسى للسماء وأهمس : ها هو ينسى للمرة الثانية والثلاثين بعد المائة يا رب فكن شاهداً على ذلك . . . ولا أنكر أننى أحس بالخجل لأننى أقحم السماء فى مشاكلى الخاصة ، ولا أنكر أننى أحب رئيس رؤسائى وإن كنت قد بدأت أشك فى أن وعده لى كان حلماً من أحلام اليقظة ، واليوم أول الشهر فمرحباً أيها الحزن . . . خرجت من البنك ويدى فى جيبى على المرتب حتى لا يتعرض لى أحد . لا شك أن الأمر كان حلماً من أحلام اليقظة . . . كيف أفسر إذن هذه النظرة التى يلقانى بها قائلا : لم أنس . وكيف تطل من عينى نظرة تقول : ما لهذا الأمر جئت أراك فأنا لا أشك فى أنك تذكر . . . لم يكن لهذه النظرات معنى هى الأخرى . . . كانت وهماً كالحياة والحب سواء بسواء ... وتوقفت قدماى رغم أننى عند دكان الأحذية ورحت أرمق الحذاء الجلدى الذى أغازله منذ وعدنى رئيس رؤسائى بالعلاوة . قلت للحذاء : أيتها القطعة الجلدية الجميلة التى جاءت من ظهر بقرة لطيفة لا أعرف كيف كان لون عينيها . . . إنهم يفرقون بيننا مثلما فرقوا بين روميو وجولييت . وصافحت الحذاء بنظرة مثقلة بالود

والحزن ومضيت . علبة صغيرة من السجائر يا بائع السجائر . ما أعجب من يتحدث عن أزمة الخشب وفى السجاير المصرية كل هذا الخشب الذى يطقطق ويحترق مع السيجارة . علبة صغيرة من السجاير وأسرع . . . لماذا وأنت قادم من البنك . . .

ألا تعرف أيها الرجل الطيب أن الإنسان يزداد بخلا كلما زادت نقوده . إن فى جيبى نقوداً كثيرة ولهذا ترانى أبخل . لن أخبرك عن أصحاب هذه النقود ، لن أقول لك إننى أعمل ساعياً بالبريد أحمل النقود من هنا إلى هناك . وهنا هذه تنصرف إلى العمل وهناك هذه تعنى الزوجة ، وبين المشوارين آكل وأحلم وأدخن وهذه هى الحياة على أى حال ، لن أقول لك إن فى أعماقى آمالا لو حدثتك عنها لألقيت يديك بجوارك وانخرطت فى البكاء وأفسدت كل علب البلمونت الصغيرة والكبيرة . الطريق يمشى والناس تتصور أنها هى التى تسير ، حقاً تلعب الأقدار دورها معنا وتخلق الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والكلاب والقطط وملايين المخلوقات الصغيرة كالهاموش فوق هاموشة صغيرة هى الأرض . . .

اليوم يعرف الإنسان من تقدم العلوم أنه يسكن فوق هاموشة صغيرة ، ولعل ضيق الإنسان بالهاموش الذى يئز حول المصابيح ويقتحم العيون ، ودهشته لخلقه وتفكيره : لماذا يوجد مثل هذا الهاموش ؟ ولأى حكمة ؟ . لعل ضيق الإنسان بذلك لا يبلغ ضيق بقية النجوم من الهاموشة الصغيرة التى تسمى الأرض والتى يسكنها ناس كثيرون لكل واحد منهم نجومه وشموسه وكواكبه وأحلام حبه وأمنياته التى لا تتحقق . وكل أمنية لم تولد بعد هى نجم لم يولد بعد . ولد منذ ملايين السنين لكن ضوءه لم يصل بعد ، النجم هناك كائن موجود لكن ضوءه لم يزل يجرى ويجرى ، والولد يجرى وراء كرة من الشراب لعل أباه يبحث الآن عن فردة شرابه الضائعة ويشد شعره لاختفائها ولا يعلم أنها قد دخلت دورتها الجديدة وتقمصت جسد الكرة . أحس بدوران الأرض فلم لا أطلب كوباً من الشاى . كوباً

من الشاى ولا تبتسم بكل هذه الثقة . . . لن أعطيك بقشيشاً وسوف ينهار احترامك لى ، لكننى ينبغى أن أعيش يا صديقى أنا الآخر . ما أغرب الذين اخترعوا النقود وطبعوا منها كل هذه الكثرة الهائلة ونظموا وهم يوزعونها أن تصل لأيدى الزوجات بعد أيدى الأزواج مباشرة . ومنذ آلاف السنين وهذه النقود تدور وتدور فلا تتعب ، ثم يجىء اليوم الذى يسقط فيه المرءعلى الأرض ولا يعود يدور . ماذا صنع بالنقود. لاشيءلاشيء . يا حب يا حب. لماذا تحضرنى ذكراك الآن . يا أجنحة بغير طائر وأغنية ولا لسان . يا حب يا أكذوبة . أنت لا تمنح المفلسين أمثالى غير بعض عطرك الذى يفلت من سيارة مسرعة ، لكنك لا تنزل أبداً من السيارة المسرعة وترشق السهم فى القلب وتعقد الصداقة . كم تغير كيوبيد ، أفسدته المدنية ، لم يعد طفلا بريئاً يحمل سهامه ويلعب بها وسط غابات الصنبور الشاهقة ، أصبح موظفاً مثلى وصار ينتقى ضحاياه وسط أتربة الطرق المختنقة بعادم السيارات . اللعنة على الحب والشاى . خذ يا ابنى هناك ما هذا الشاى . هذا سم يغليه صاحب المقهى منذ أسبوع ، لا تتجاسر بالرد على فسوف أشخط فيك وأنهرك وأعطيك بقشيشاً فى النهاية . اذهب وأحضر شاياً يمكن للآدميين شربه . هل تحب أن تجرب . هل نسقيه لهذا الحمار هناك . ورفع الحمار المتعب رأسه وأنصت . كانت نظراته تمتد أمامه فى جمود حزين ، وكانت العينان الواسعتان تعكسان صبراً عميقاً لا نهاية له على الشتائم التى يوجهها له الآدميون وهم لا يعملون نصف عمله . واستغرقنى منظر الحمار الصغير وخيل إلى أن هناك دمعتين كبيرتين قد تجمدتا فى عينيه . انتهى عمل النهار الشاق وجلس صاحبه يرتاح ، ووقف الحمار تمثالا للصبر العظيم فما أقسى الإنسان وما أشد ظلمه . ومرت حمارة بيضاء فرفع الحمار الصغير المرهق رأسه وقلب شفته العليا وتشمم الهواء ثم عاد ينكس رأسه ويأكل . حتى أنت يا صديقى يئست من الحب مثلى . وتشاتم الصبيان الذين يلعبون الكرة فعادوا يجيئون بسيرة

الحمار ، فعاد يرفع رأسه وينظر نحوى كأنه يستشهد بى ، أنت يا صاحب المقهى تحرك واقذف الصبيان بالماء فهم يثير ون التراب فلا ننعم بالجلسة . يا للمعجزة الكبيرة التى تعلن عن وجودها هناك . نبتة صغيرة خضراء تنمو من الأرض فما أعظم قدرة من يعطى العود الأخضر الصغير قوة يشق بها أسفلت الطريق رغم ضعفه وثقل الأرض . سبحانك ربنا وسبحان قدرتك التى تشق الأرض القاسية بهذا العود الأخضر ، لكن أحداً لا يرمق المعجزة من السائرين فى الطريق فزمن المعجزات ولى كما يقول الحمقى . وصل يوسف وبدأت الليلة . . .

الأحد : ٢٩ أغسطس سنة ١٩٦٥

لم أكتب منذ ثلاثة أسابيع . لماذا أكتب . إننى سقيم غاضب أخاصم الحياة وأعتقد أن لى آرائى الخاصة ، هل لدى شىء أقوله ؟ . ربما لم يكن هناك ما يقال ولهذا أدركنى الصمت. أعتقد أن الإنسان حيوان كاتب وليس حيواناً ناطقاً . إن الببغاوات تتعلم النطق الآن ، وهناك نملة قديمة قالت كلاماً للنمل وفهم سيدنا سليمان ما قالته وتبسم ضاحكاً من قولها ليس النطق أو الكلام شيئاً خاصاً بالنوع الإنسانى فهناك لغة تتفاهم بها الحيوانات فيما بينها ، وإلا فكيف تعرف النملة أن هناك علبة سكر تركتها زوجتى مفتوحة فى المطبخ وتبدأ طوابير النمل فى الزحف عليها من أسفل المنور صانعة خطاً طويلا متعرجاً لا يضل الطريق أبداً لهدفه . . . الكتابة وحدها هى الشىء الذى يختص به ابن آدم . . . الكتابة وحدها . . . الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يكتب ... وهو المخلوق الوحيد الذى نزلت عليه آخر رسالات السماء بكلمة : « اقرأ » . . .

وأنا لا أكتب ولا أقرأ منذ ثلاثة أسابيع ، صحيح أنى لا أكف عن الكلام لكننى لا أكتب ، وهذا معناه أننى لا أختلف عن الأسد أو الفيل المسجون فى حديقة الحيوان : هو الآخر لا يقرأ ولا يكتب : وعند ما



يوجعه الحنين للغابة والحرية لا يعبر عن حنينه بالشعر ، إنما ينكس رأسه ويركن جبهته على قضبان قفصه وينظر إلى بقعة وحيدة وحرة من التراب خارج السجن فيصرخ الأطفال فرحين : إن الأسد هادئ اليوم لو كان إنساناً لكتب ما يوجعه . وأنا أشتغل أسداً منذ ثلاثة أسابيع .

الأحد : ٥ سبتمبر سنة ١٩٦٥

يؤمن صديقى سعيد مع بلزاك بأن الرذيلة أقل نفقة من الأسرة ، ويثبت صديقى هذه الحقيقة إلى حد كبير . فأنا زوج وهو أعزب ، ومرتبى ضعف مرتبه ، ورغم ذلك أقترض منه نصف مرتبه بصفة دورية ، ولست أعرف كيف يستطيع أعزب مثله أن يقرض زوجاً مثلى ، وأغلب الظن أنه يوفر لأنه يدعى إلى الغداء والعشاء فى كثير من البيوتات الكريمة التى تطمع فى إقناعه بأن طعامهم أفضل الأطعمة وأشهاها ، وأن ابنتهم أحلى البنات وأغناها . ربما كان هذا هو السبب . ولقد ساعدت الطبيعة صديقى هذا مساعدات ضخمة ، فهو يحمل وجهاً يشبه وجه طفل برىء ، وتعطى ملامحه تعبيراً يشبه حكمة القرود الهندية الثلاثة . لا أسمع شرا . لا أرى شرا . لا أقول شرا . أنا الصمت الحكيم الأبله ذاته . وإلى جوار مساعدات الطبيعة ساعدته المدنية أيضاً ، فنظارته ذات الإطار الأسود تقنع الجالسة أمامه بأنه مثقف ولا يرى جيداً مثل الحمير الصعيدية التى تعشى فى الليل ، ويبدو صديقى ببراءته وصمته أقرب إلى التغفيل منه إلى الذكاء ، وهذا هو السر فى أن مئات البنات الجميلات يتصورن أنه زوج مثالى . تقول البنت لنفسها وهى ترقب القرود الهندية الثلاثة التى تجمع حكمتها وتضعها على وجهه : ما أجمله زوجاً فى بيت يمتلئ بالصينى القادم من غزة ، والورود الصناعية ، وتفوح منه رائحة مختلف أنواع المحشى ، ويتصارع الأطفال الأشقياء حول كرسى أبيهم وينسفون الكرسى ، ويعرف هو ذلك لكنه يجلس عليه فى وقار زوجى لائق ، ولست أعرف هل أحسد

صديقى أم أغبطه . فهو يحمل ذكاء نمر يقنع صياده بأنه يسير وراء النمر . بينما فى الحقيقة هو الذى يسير وراء الصياد ، وتبدأ قصص صديقى عادة بأن يلمح رؤساؤه فى العمل مخايل النبوغ الزوجى على وجهه ، ويتقرب إليه رؤساؤه فى العمل ويكلفونه بأسهل الأعمال وألطفها . . ويخبرونه أنهم يرون فيه عبقرية نادرة ، ثم تنتهى المناورات الحاذقة بدعوته إلى العشاء ، ولا ينتقل صديقى إلى أى دعوة بغير أن يفيدنى علماً ويسحبنى معه كمستشار زوجى وخبير من خبراء الحرب الباردة والساخنة ومحارب قديم فى معامع الزواج . ونحن متفقان تماماً على أننا يجب ألا ننخدع بالطعام الذى يقدم إلينا عن الطعام الآخر الذى يعرض علينا . فنحن قد خطونا فى عرين الأسد ، والظلمة ساقطة ، والعروسة تبدو فى ظلام الأنوار الكهربائية مثل ساندريللا ، وأحذر صديقى من أنه إلى جوار المساعدات التى تقدمها الأضواء للعروسة تقدم المساحيق والأزياء ، وكذا الكوافير بقية الموضوع . . . وحين يعجب صديقى بفتاة أذكره على الفور بأنه لم ير وجهها حين تغسله فى المساء ويذوب نصف جمالها فى الماء ، وهكذا يفيق صديقى ويعود لعقله ، وحين ندخل بيت العروسة المرشحة نطأطئ رؤوسنا ونتصنع الوقار العظيم والأدب ، ورغم أننا نعيش فى عصر العلم إلا أن الآباء يفضلون الأدب على العلم ، وبعد أن نجلس أدير دفة الحديث بما عهد فى من براعة مصدرها إحساس صادق بأن هنالك فى الغرفة المجاورة فتاة ترتدى أفضل ملابسها وتقف أمام مستشار المرأة القديم الخالد . فتاة تقف أمام المرآة وتتزين وتجرب أن تبتسم وتلوى شفتها السفلى لتزداد إغراء مثل « كيم نوفاك » ثم تقتنع أنها ستبدو مضحكة لو فعلت ذلك فتقطب ، وتدخل الأم فتجد ابنتها مقطبة . .

- مالك بعد الشر ؟

- بكرهه .

ويختلف هذا الحوار من بيت إلى بيت ومن طبقة إلى طبقة ومن زمن

إلى زمن . . . فى الريف المصرى مثلا تدخل البنت بفناجين من القهوة التى اقترضتها الأسرة من بيت شيخ البلد . ويدور الحوار بينها وبين أبيها هكذا :

— افردى خلجتك العكرة خلى الراجل يشوفك سمحه .

— خدامتك يا با .

وفى الأسرة البرجوازية يدور الحوار هكذا :

— يا ماما الفستان باين خالص إنه كان ستاره قبل كده .

— وطى حسك يا بنتى انت حتجرسينا .

وفى الأسر الصعيدية الكبيرة لاأحد يرى أحداً ، الرجال يرون الرجال ويتفقون مع الرجال ويقرأون الفاتحة ، والبنت دونها خرط القتاد ، وهو نبات أغلب الظن أنه لا يسمح بالسير ولا بالرؤية . وفى الأسر الأرستقراطية يدور الحوار بين البنت وأبيها هكذا :

تقول البنت لأبيها وهو يقف أمام المرآة ليصلح الكرافتة :

— افرد وشك يا دادى كده ، الناس مستنيه تشوفك علشان ورانا مشوار فى النادى .

— حاضر يا بنتى حاضر .

وبرغم اختلاف الحوار باختلاف أطرافه نجده يجرى دائماً فى خفوت سر مهموس تحت شجر التفاح . ولعل الرجل الوحيد الذى نجا من تدخل الأهل والأصدقاء فى زواجه هو آدم عليه الصلاة والسلام ، وبعد هذا الحوار تدخل البنت ، إذا كانت مكسوفة تنكس رأسها ، وإذا كان العريس هو المكسوف نكس رأسه . . . وعلى أى الحالات لا يرى خطيب الطبقة البرجوازية من خطيبته غير ما يقدمه رجل كان يشتغل فيلسوفاً أيام اليونان ثم انتهى به الأمر إلى العمل حلاقاً للحريم . سقراط . هذا ما يراه الخطيب من خطيبته وهى تنكس رأسها فلا يبدو غير شعرها . . . ويحدث دائماً فى هذه اللحظات الحرجة أن أنحنى على صديقى وأهمس له بكلمات .

أي كلمات . فيبتسم ابتسامة مؤدبة ويختلس نظرة إلى الفتاة ، ويفسر الأب ابتسامته بالرضى العظيم عن الإنتاج . ثم نفتح موضوعاً للحديث . أي موضوع . . . ونقول كلاماً كثيراً . . . أي كلام . . . أزمة الكبريت مشكلة فيتنام . حتى الجو والطقس يصلحان موضوعاً للحديث . ونبدى إعجابنا بالقهوة فيخبرنا المضيف أنه بن يمنى أصيل ، وننتقل إلى موضوع اليمن . ويجيء العشاء . . . وننتقل إلى المائدة العامرة التي سوف تكلف الأب كثيراً وتدعوه إلى سياسة التقشف أسبوعين على الأقل . ونأكل ونتحدث ويقسم علينا المضيف أن نذوق هذه المحشيايه ، ثم يحلف أن نأكل هذه اللحميايه ، ثم هذه المحشيايه ، ثم هذه اللحميايه وهكذا . . . حتى إذا انتهى الأكل انطفأت قوانا المفكرة وتحول كل واحد منا إلى معدة كبيرة ركبت فيها أطراف من الصعب أن تتحرك . وتجيء القهوة والشاى ، ولكن هذه السوائل تسبح فوق الطعام الثقيل ولا تستطيع تقليبه ، ثم نستمع معا لأم كلثوم من فوق ريكوردر أحضره أحد أقارب المضيف من غزة أو اليمن . . . وتغنى أم كلثوم أغنيتها « حب إيه اللى انت جاى تقول عليه » . . . ونسمع الأغنية هكذا . . .

— حب إيه اللى انت جاى تقلقنا بيه . انت فاهم قبله معنى الحب إيه . هوه مين . . . انت فاكر يعنى إيه . . . فوضه هى . . . حاجه سايبه . . . ده انت لو حبيت يومين كان ملاك خلاك هواك . حب إيه. روح يا شيخ . امشى بره . إجرى إلعب . . . انكتم واخرس تمام . . . يا سلام . حب إيه اللى انت جاى تقول عليه .

هكذا نسمع الأغنية من خلال أبخرة الطعام التى تتصاعد على الدماغ . . . ونتصور أن أم كلثوم ليست هى قائلة هذا الكلام . . . إنما نحن أمام زوجة تنفض زوجها فى الهواء قائلة له :!

حب إيه اللى انت جاى . . . وساعتها نتمنى أن نهرب إلى أغنية ثانية لأم كلثوم . . . أغنية ترسم صورة حبيبة تقول لحبيبها :

أغار من نسمة الجنوب على محياك يا حبيبى . . .
وأحسد الزهر حين يهفو على شفا جدول لعوب . . .

وفى الأغنية الأولى نحن أمام حادث زواج ... وفى الأغنية الثانية نحن أمام وهج حبيبين . . وعند اكتشاف هذه الحقيقة تقرر الانصراف والبحث عن الأغنية الثانية . . .

الأحد : ١٩ سبتمبر سنة ١٩٦٥

يقول ماكس مولر المؤرخ الشهير : « ليس ثمة شعب قديم أو حديث رفع منزلة المرأة مثلما رفعها سكان وادى النيل » . والنقوش تصور النساء يمارسن حياتهن بحرية ، ولقد دهش الرحالة اليونانى من هذه الحرية ، وكتب ديودور الصقلى يسخر من احترام الرجل المصرى لزوجته قائلا : « إن طاعة الزوج لزوجته فى وادى النيل كانت من الشروط التى تنص عليها عقود الزواج » . ولم تكن قيمة المرأة مجرد كلمات يستنتجها علماء الآثار نتيجة لحديث الشعراء أو فلاسفة الزمن القديم ، إن الوثائق تثبت حرية المرأة الاقتصادية فى الزمن القديم . وهناك وثيقة من أقدم الوثائق فى التاريخ ، وهى وصية من عهد الأسرة الثالثة توصى فيها السيدة نب ست بأرضها لأبنائها ، ولقد تنبه الحكيم المصرى القديم بتاح حوتب لهذا الموضوع وأوصى باحترام المرأة وحذر من مجرد معارضتها ، قال بتاح حوتب ، « إذا كنت ناجحاً وأثثت بيتك وكنت تحب زوجة قلبك فاملأ بطنها وأكس ظهرها ، وأدخل السرور على قلبها طوال الوقت الذى تكون فيه لك ، ذلك أنها حرث نافع لمن يملكه ، وإن عارضتها كان فى ذلك خرابك » .

ويقول فلاندرز بترى فى ذلك : « لقد كان الزوج حتى العهود المتأخرة ينزل لزوجته فى عقد زواجه عن جميع أملاكه ومكاسبه المستقبلة» . وتقول إحدى قصائد الغزل التى توجهها امرأة من ثلاثة آلاف سنة إلى حبيبها : « أى صديقى الجميل . . . إنى أرغب فى أن أكون . . . بوصفى

وجتك . . . صاحبة كل أملاكك » .

وهكذا ترجع عملية انقضاض الزوجة على المرتب ومكاسب الزوج إلى تقاليد عمرها ثلاثة آلاف سنة . . . عظيم جداً . . . فهمت الآن سر تصور زوجتي أن كل قرش أكسبه من حقها أولا . . . فهمت ذلك الآن لكنني لا أفهم السبب المباشر الذى يعطى المرأة هذا الحق ... هل تتصور الزوجة أن هذا حقها لأنها زوجة فقط ، أم لكونها أما قبل أن تكون زوجة . . . لقد كان كل طفل فى ذلك الزمن القديم يتربى على احترام بالغ للأمومة ، ويتعلم منذ نعومة شعره وأظافره أن الأمومة شىء مقدس ، وأن أعظم ما فى المرأة أنها أم . . . وما زالت إحدى أوراق البردى تتحدث بنصيحة يوجهها الحكيم « آنى » ويقول فيها :

« ينبغى لك ألا تنسى أمك ، فقد حملتك طويلا فى حنايا صدرها ، وكنت فيه حملا ثقيلا ، وبعد أن أتممت شهورك ولدتك ، ثم حملتك على كتفها ثلاث سنوات طوالا ، وأرضعتك ثدييها فى فمك ، وغذتك ولم تشمئز من قذارتك ؛ ولما دخلت المدرسة وتعلمت الكتابة كانت تقف فى كل يوم إلى جانب معلمك ومعها الخبز والجعة جاءت بهما من البيت » .

ومن هنا كان ينبع مركز الزوجة . . . إنها أم ممتازة تقوم بتربية الأولاد بنفسها وتتحمل فى ذلك مشقة نموهم بغير أن تشمئز أو تشكو . . . أما اليوم فإن الزوجة الحديثة ليست أماً ممتازة . . . إن زوجتى تختلف عن جدتها الفرعونية ، إنها بعد أن تلد تسلم طفلها إلى أثداء صناعية يملؤها غذاء معلب يباع فى كل الصيدليات ومحال البقالة ، ثم إذا كبر الولد قليلا أسلمته إلى الخادمة فى الفترة التى تذهب فيها إلى العمل . . . ثم أسلمته إلى أمها فى الفترة التى تذهب فيها إلى السينما ، فإذا كبر الولد قليلا وهبته لوالدتها لتربيته ، أنا لى ولدان أحدهما عند جدته لأمه ، والثانى عند جدته لأبيه .

وإذا كانت زوجتى تعتبر أننى لم أتلق التربية الكافية فى بيتى . وإذا كنت أعتبر أنها لم تتعلم الذوق الكافى فى بيتها ، فهذا معناه أننى سوف أخرج إلى الدنيا ولدين : أحدهما تنقصه التربية ، والثانى يفتقر إلى الذوق : ما قيمة التطور الذى أدركته المرأة بعد تعليمها إذا كان أبناؤها لا يستفيدون بشىء منه . ما هى القيمة ؟ .

الأحد : ٣ أكتوبر سنة ١٩٦٥

بعد ٨ سنوات من الزواج اكتشفت زوجتى أن زواجنا كان تصرفاً عشوائياً ، وأنه يستمد قوته من قوة تحملنا الخاصة ، وأن سر استمراره التعس هو حفنة من الأطفال . هذه هى الفلسفة العظيمة التى اهتدت إليها السيدة « كريستوفايه كولبسايه» بعد ٨ سنوات من الحياة الزوجية ، ولقد كان اكتشاف هذه الحقيقة مصحوباً بكل الدلائل التى تصحب اكتشاف الحقائق الكبيرة فى الأرض. أطرقت زوجتى وقطبت جبينها الضيق وراحت تقطيبتها تجمع التجاعيد التى أضافتها معاملة الزمن لوجهها وكان واضحاً أنها تفكر .

والتفكير عند زوجتى عملية عضلية ذات شقين مزدوجين . وبعبارة أسهل يتم تفكير زوجتى على مرحلتين : مرحلة الأسباب والنتائج . وإذا كان بين المنصفين والعقلاء من يبحثون عن الأسباب التى تخلق نتيجة معنية ويرتبون على كل سبب نتيجة ، ويحللون ردود فعل هذه النتائج ، فذلك طريق لا تعرفه زوجتى ، إنها تبدأ بإصدار حكمها على الموضوع . وعليها أن تجد المبررات لرأيها من أى أسباب كانت .

آه . أنا زوجة تعيسة حظها نكد . لماذا . . . لأن زوجى يخرج كثيراً فى المساء . لماذا لا يبقى فى البيت . لأنه رجل عينه زائغة ، وهو يعتقد أنه يهرب منى بخروجه . لماذا يهرب منى والمفروض أن يحدث العكس وأهرب منه أنا ، لماذا يا ربى كل هذه التعاسة ، وما الذى فعلته لأستحقها

واستمرت زوجتى تتكلم . لم أعد أسمع ما تقوله . إننى أفكر فى آلاف الأشياء وأرسم فوق وجهى ابتسامة رقيقة مؤدبة هى التى يتعلمها الرجل بعد زواجه . وهذه الابتسامة يمكن أن نلخصها فى كلمة (الصبر) . هذا ما أفدناه من زواجنا . تعلمنا الصبر . والصبر ينجى . لكنه فى نفس الوقت ثقيل . والدنيا ليست حارة وليست باردة . والأولاد نائمون وكل شىء صامت . والتمثال يقف على البوفيه وينظر إلى زوجتى بعينين جامدتين . وخيل إلى لحظة سريعة أن التمثال يبتسم . . .

الأحد : ١٧ أكتوبر سنة ١٩٦٥

أى شىء تحت الشمس لا يعبر نفس دورة الشمس .

الحزن يعقب الضحك والدموع تجر ذيل الابتسامة والزواج ذو خاتمة الحب ، والأرض كرة تدور فينبعج باطنها وتنقص أطرافها ويتغير كل كائن فوقها وداخلها . الحى يزداد اقتراباً من الموت ، والميت يزداد اقتراباً من البعث ، وليس ثمة من ثبات . العواطف تهتز بتأثير دوران الأرض ، والأحاسيس تلوحها الشمس ولا دوام لشىء . . . كل شىء يعبر دورة الميلاد المفاجئ فالنمو المعذب فالأحلام العظيمة فالركون إلى التقاليد فانحناءة الموت . ليس ثمة من كائن بنفسه غير ذى الجلال سبحانه ، خلق الكون وخلق الدنيا والآخرة وخلق الموت والحياة رحمة منه وفضلا على أى حال ، فما أغناه عن عبادة الخلق وما أفقر الخلق إلى عبادته . أخيراً مات جدى عن مائة وعشرين عاماً عاشها على الأرض ، شهد الرجل دولا تقوم ودولا تذهب ، وعاصر حربين كونيتين ، وشهد احتلال الإنجليز وهو يقترب من الثلاثين من عمره ، وشهد خروجهم وهو يمشى على المائة الثانية من عمره . ولقد كان الرجل بالنسبة لى كنزاً من الذكريات وكتاباً رشيقاً لا يكف عن المرح ، ثم أدركه ما يدرك كل حى على الأرض ومات . لم أبك حين بلغنى النبأ . وإنما دهشت . زحف داخلى نوع من الدهشة

لم أعرفه قبل ذلك . . . نوع من الدهشة تحسه الحياة عندما تواجه الموت . مات جدى أخيراً وفى أفريقيا يعبر الرجل عن موت أبيه ليلة أمس بقوله : « لقد مت ليلة أمس » .

وذلك صحيح تماماً . إن الإنسان يموت مرتين : مرة حين يموت أحد أسلافه . ومرة عند ما يقول أولاده عنه : يرحمه الله . أما الموت الذى يصيبنا مباشرة فلا نحسه ولا نعرف أنه أصابنا ، وعند ما نعرف هذه الحقيقة نكون قد متنا وانتهى الأمر ، وتصبح معرفتنا لها تساوى عدم المعرفة بها . وأنا لا أعرف كيف أموت ولا متى تدهمنى هذه المصيبة ، ويخيفنى ذلك خوفاً يمنعنى من التفكير فى الموضوع ، وأنا لست غبياً للدرجة التى تصور لى أننى عند ما أموت سوف أنتهى وأصبح تراباً وعظاماً وأذهب ، أعلم أننى سأصبح تراباً وعظاماً لكننى لن أذهب . سأعود مرة أخرى لتقديم كشف الحساب عن جميع المغامرات والخيانات والأكاذيب ، وسوف تدرك زوجتى يوم القيامة ما فعلته وستكون الكارثة مزدوجة . وسوف تنخرط فى البكاء على حظها التعس ولن ينقذنا من بكائها شىء . ولعل هذه الكارثة تهون إلى جوار كارثة المواجهة بقدرة من تعنو الجباه لرحمته وعذابه .. وخيل إلى وأنا أقطع الطريق سيراً نحو بيتى أننى أسير على أرض ليست هى أرض الدنيا ، وسقطت دهشتى قليلا واحتلت الكآبة مساحة الجزء الذى سقط ، وفى بيتى قلت لزوجتى — باقتضاب — جدى مات .

اصفر وجهها قليلا وضربت بيدها على صدرها وقالت شيئاً لم أنتبه إليه ، ولقد حدث لى شىء غريب وأنا أرقب هذه الموجة الخفيفة من الدموع التى تتجمع فى عينيها المرهقتين . . . أصابت ضربتها بيدها على صدرها مكاناً ما فى روحى ، وانفجر ينبوع قديم من الحب ، وأحسست أننى أراها لأول مرة . . . كم تساءلت قديماً : لماذا برغم كل شىء أحب هذه المخلوقة السمينة التى أقتنيها فى بيتى باسم الزواج ، أدركت ساعتها لماذا أحبها دون أن أدرى ، قدرتها على الحزن من أجلى ، أى زوجة مصرية تستطيع أن

تحزن على زوجها حزناً لا مثيل له ولا عمق لسواده ولا شواطئ لملحه .
الآن أفهم سر هذه الموهبة التى ورثتها زوجتى عن أمها إيزيس قبل أن
ترد الحياة إلى زوجها أوزوريس ، وفى كتاب ادوارد وليم لين المستشرق
الإنجليزى صور لنساء مصريات يرتدين السواد وتشى عيونهن الواسعة
بمقدار الحزن العظيم الكامن المخبوء فى انتظار أى ضرر يصيب الزوج
حتى ينطلق . . . هذه موهبة الزوجة المصرية وهى موهبة نادرة . . . ولقد
بكت زوجتى فى صمت ، وظللت أجلس أمام مكتبى صامتاً ،
أتأملها وأنظر للأولاد ، واستقبل الأولاد النبأ بغير إحساس . وقلت
لابنى الكبير الذى يبلغ السادسة : إن والد جدك قد مات . ضحك
وذكر اليوم الذى صحبه الشيخ العجوز إلى حديقة الحيوان . لم يزل جدى
حياً إذن فى ذاكرة الولد . فما أغرب دنيا الأطفال . ومع فجر اليوم التالى
كنت فى القرية . لم أنم طيلة الليل لأدرك موعد الصديق الراحل قبل أن
يعود إلى أحضان الأرض ليمضى فى دورته حتى يعود لمالك الأرض مرة
أخرى . . . وبدت المأساة أقل حدة فى الريف . . . ليس أقدر من
الفلاح المصرى على النظر إلى الموت هذه النظرة الهادئة الثابتة المحدقة . . .
يرون هناك كثيراً من الموت والبعث ولا يدهشهم ذلك ، النبات يستوى على
سوقه ويكبر ويعطى الثمار ثم يموت ، يبدو موته طبيعياً مثلما كانت
حياته طبيعية ، ثمرة البسلة تتشقق وتخرج البسلات ويرتمى الغلاف على
الأرض مجهداً أصفر ، يترك مهمة التنفس للبسلات الخضراء الطرية . . .
الأرض نفسها تموت وتعود للحياة فى الريف . كل ضربات الفأس فى
الأرض الجافة لا تؤثر فى الأرض لأنها ميتة ، وإذا سقط الماء عليها
وضربتها الفأس عادت إلى الحياة . يمضى ذلك كله بإشراف لطيف مهيمن
وغير مرئى . . . لا بأس على أى حال . . . ليس هناك غير هذا الخواء
الصغير الذى يحسه المرء حين يدرك أننا لن نعود أبداً إلى سماع هذا الصوت
أو لقاء هذه الضحكة . ويخيل إلى أن ما يجعل للحياة معنى يجعل للموت

أيضاً معنى .

ما أغرب الحياة . . . ها هو الكلب الذى كان جدى يطعمه يهز ذيله لى . . . أيها الكلب الأصفر الخالى من الجمال، تستطيع أن تهز ذيلك وتعتمد على صداقتى : الرجل الذى كان يطعمك قد رحل . . . لكنه فعل شيئاً غريباً جداً منذ سنوات بعيدة. أحب يوماً فانقسم عشرات المرات وامتد فى الحياة بعشرات الصور التى تقف أمامك الآن إحداها . . . ولسوف أمد يدى إليك بقطعة الخبز فالرجل صاحبك العجوز مات وذهب ولكنه لم يذهب ولم يمت .

الأحد : ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٦٥

الزواج سجن مؤبد ، وعلى الإنسان ما دام قد تزوج ورضخ لسنة الحياة أن يحاول تحويل جدران سجنه إلى مكان جميل ، وهنا ينصح خبراء الديكور بستارة هنا وفازة هناك . وأنا رجل متحضر ومتمدين وأصدق خبراء الديكور ، فمنذ أسبوع قررت أن أضع فى بيتى شيئاً يجعله أكثر جمالا ، وهكذا مررت على محل لبيع العاديات القديمة ، ويضم هذا المحل آلاف التحف والكراسى والبانوهات والبيبلوهات والجاليهات والفازات وكل كراكيب الطبقة الأرستقراطية... وكانت هناك صور عديدة صور لخراف يمشى وراءها رجل ،وصور للموز والبطيخ والشمام، وصور لنساء عاريات . وكانت الألوان فجة وبلا لمسة فن واحدة ، ثم فوجئت أننى أمام صورة لمونتجومرى . . . كان الماريشال الذى كسب الحرب الثانية على صحراء أفريقيا يرقد فى برواز غامق وقد رسم الوجه بالألوان المائية بحساسية شديدة ، وثمة توقيع غامض تحت الرسم .

واستوقفتنى الصورة كثيراً فقد كانت فى حجم الجزء الذى سقط بياضه من الحائط . . وكنت أحلم باخفائه . . قلت للرجل :

— الصورة دى بكام .

فتح عينيه ونظر إلى الصورة ثم قال بهدوء : هات نص جنيه .

قلت بحزم : ريال .

قال بتوسل : هات خمسة وعشرين .

قلت مصراً : ريال .

قال : شيل يا عم حلال عليك . فيها برواز يسوى جنيه .

قلت وأنا أزيح التراب عنها لأنظر إلى العينين الذكيتين : جايبها منين . ؟

قال ـــ الله أعلم كانت فين . دى بقالها تلات سنين ما حدش راضى ياخدها . الدنيا دى قسمه بصحيح .

تلات سنين ما حدش راضى يشتريها . محدش بيفهم غير حضرتك . . . شيل يا بيه شيل . وحملنى الصورة وودعنى حتى باب الشارع وتركنى أحمل مونتجومرى عائداً إلى البيت.

ما أصغر الدنيا . ها أنذا ألتقى بمونتجومرى برغم أننى لم أتعرف به قبل ذلك ، وها هو اللقاء يتم بيننا فى مكان صغير متواضع فى إحدى حارات القاهرة . وضعت الصورة فى يدى ومضيت .

كنت سعيداً لأننى سأستضيف مونتجومرى فى البيت ، وصحيح أن الشعب المصرى كان يتمنى هزيمته وهزيمة الحلفاء جميعاً ليشمت فى الاستعمار الذى ظل راقداً على قلبه ، لكن المتنورين من أبناء الشعب كانوا يقفون ضد النازية بكل ما تمثله من طموح غير عادل وأحمق . على أى حال . لم أكن وقتها فى سن تسمح لى بمناقشة هذه الأمور ، كنت طفلا تافهاً كل اهتماماتى فى كرة القدم ، لكننى كبرت الآن وصار بوسعى أن أرفض الكرة كحل وأفكر وأستضيف فى بيتى صورة رجل رفضه الجميع ثلاث سنوات . وضغطت الجرس ففتحت زوجتى الباب .

ـ ايه ده ــ مفاجأة . . .

ـ (بفرح) مفاجأة ايه ــ (بغموض) صورة عظيمة .

* صورة مين ؟ — صورة مونتجومرى .
* مونتجومرى إيه — يا خبر اسود . مش عارفه مونتجومرى مين أتنسى التاريخ .
* تاريخ إيه وجغرافية إيه وزفت إيه . جايب لنا مصيبه فى البيت بدال ما تجيب كيلو برتقال للولاد .

هذه هى الزوجة المصرية . البرتقال لديها أهم من التاريخ وعبرته .

* ارمى يا راجل حتردم لنا الصاله تراب .
* أرمى فين .
* ارمى بره فى الشارع . . .
* أبداً . . . استنى بس أما نعلقها ، وتشوفى منظرها .
* منظر إيه . . . الصورة دى مش بايته هنا الليله دى . بتحدف علينا البلاوى دى منين .

— غريبة جداً (ملاحظاً لأول مرة أن زوجتى شرسة) . . . الصورة دى مش طالعه م البيت . وكبرت الحكاية فى رأسى حين أقسمت زوجتى أن الصورة لن تبيت فى المنزل ، وتساءلت لنفسى كيف أكون سيد هذا البيت ولا أستطيع استقبال ضيف فيه ، لكننى أمام التهديد لم ألبث أن تراجعت عن موقفى محللا هذا التراجع وواصفاً إياه بالمرونة . وقلت للخادمة أن تحمل الصورة إلى البواب حتى آخذها إلى العمل إذا جاء الغد . وحين دخلت على رفاق المصلحة وأنا أحمل صورة مونتجومرى انهالت على الأسئلة عمن يكون ولماذا . قلت : هذه صورة رجل رفض الناس شراءه ثلاث سنوات وكان من قبل حين يهبط الصحراء ترتعش أحذية الجند والضباط الأصدقاء والأعداءعلى السواء . . . إسمه مونتجومرى . . . ولكن تيمناً بأم كلثوم سنسميه مونتعمرى على وزن انت عمرى . . .

وعلقناه فى المصلحة . . .

الأحد : ٣١ أكتوبر سنة ١٩٦٥

يتعلم الإنسان بعد فترة من الزواج شيئين : الصبر والاقتراض . . .
والصبر فى الحياة الزوجية أنواع ، كما أنه خارج الحياة الزوجية أنواع .
فإذا كان الصبر على المعصية والصبر على الطاعة والصبر على البلاء درجات
يقف الأخير على قمتها ، وإذا كان أهل العافية ينظرون إلى أهل البلاء
حين يعطيهم الله تعالى فى الآخرة ويتمنون لو أنهم نشروا بالمناشير فى
الدنيا ، إذا كان ذلك حقيقة فما أجدرنى أن أصبر على حياتى الزوجية ،
والصبر فى الحياة الزوجية يعنى الصبر على طباع الزوجة وطعامها ، فإذا
كانت زوجتى تشبه العاصفة فإن طعامها يشبه المياه الراكدة الآسنة . وأنا
لا أتفاءل كثيراً من دخول الشتاء أو دخول زوجتى إلى المطبخ ، ذلك أن
دخول هذين المخلوقين أعنى الشتاء وزوجتى . . . يعنى مزيداً من الصبر
ومزيداً من القروض .

تقول زوجتى وهى تكفهر بوجهها : الشتا دخل .

وأتظاهر بأنى لا أفهم ، وأتحدث عن الشتاء من وجهة النظر الجمالية
البحت . السماء فى الشتاء والسماء فى الصيف ، النجوم فى الصيف والسحاب
فى الشتاء . . . كيف تبدو السماء فى الصيف قبة زرقاء رحيبة ورائعة
وتشبه بنجومها ساعة عظيمة تدل على الوقت ، لكننى لا أنظر للسماء فى
الصيف غير مرة أو مرتين فقط ، وأحس بالدوار أمام الفراغ العظيم
الذى تملؤه أشياء لا يدريها سوى الله . ويزداد إحساسى بالخوف وأنا
أرمق النجوم الكثيرة التى توحى إلى بعدد الذنوب التى ارتكبتها وينفجر
داخلى ينبوع من الأسى الهادئ على رحمة الخالق وعصيان المخلوق . . .

أما فى الشتاء فلعبتى هى النجوم والسحاب . وأنا من أصدقاء النجوم
وبرغم أنى أعلم أن هذه النجوم هى مواد فى حالة احتراق نووى بطىء
ومستمر ، برغم معرفتى أن الاقتراب منها هو الجحيم ذاته ، برغم ذلك تقوم

بينى وبينها الصداقة . وصحيح أنها صداقة على البعد لكنها قائمة . ويحدث كثيراً فى الشتاء أن أخرج إلى البلكونة وأنظر إلى السماء وأروح أرقب هذه السحابات اللطيفة التى تلعب مع سحابة صغيرة لم تزل طفلة وتروح تصنع لها أشكال الحيوانات وتظهر مرة كالجمل ومرة كالفيل ومرة كالحصان وفى كل مرة تضحك السحابة الصغيرة فيصفو لونها وتزيد شفافيتها وتوحى أكثر بالخفة والحركة اللطيفة المركبة . . .

تنسى نفسها أثناء الضحك فتتبدد . . . وتبكى السحابات الكبار عليها وينزل المطر . ابتسمت فى وجه زوجتى بعد انتهاء الحديث وانتظرت تعليقها ، كان فمها مفتوحاً بالدهشة ومن عينيها تظل نظرات مذعورة تشبه نظرات طبيب حديث التخرج وهو يستمع لأحد المرضى بعقولهم . . . ثم تمالكت نفسها وقالت بخوف :

— سحاب إيه ونجوم إيه وحصان إيه . . . أنا بأكلمك إن الشتا جه وعايزين بطانيه لمحمد وكستور للولاد . . . هذه هى الزوجة المصرية . . . أحدثها فى النجوم والسحاب والقيم الجمالية فتحدثنى فى البطاطين والكستور . . . ما هذا . . .

لماذا تفتقر الزوجة المصرية إلى الشاعرية ولا تفهم أن زوجها رجل يقدر الجمال ويحب الحديث عنه . على أى حال ، أحرجتنى زوجتى بالحديث فى المسائل المادية ، وهى مسائل لا تحظى من جانبى بغير الاحتقار والإهمال والتعالى ، وقررت بينى وبين نفسى ألا أحدث زوجتى بعد ذلك عن مشاعرى الخاصة فذلك شىء لا تفهمه . وعادت زوجتى تقطع حبل أفكارى لتقول :

— انت معايا والا . . . لأ .

قلت بهدوء : أنا بقالى معاكى عشر سنين وجايه النهارده تسألينى أنا معاك والا . . . لأ .

قالت بهدوء أغاظنى قليلا : انت حتزعل كل ما آجى أكلمك

فى البطانية والكستور . بلاش مش ضرورى. ممكن الولاد السنة دى يعيشوا من غير بطانية وكستور ، إنما عايزه أقول لك حاجه . . . الفلوس اللى استخسرتها فى البطانية والكستور حتدفع ضعفها للدكاتره . حتدفعها على أقساط للدكتور والأجزاخانة . يعنى الاتناشر جنيه المطلوبين دول هيبقوا تلاتين والا أربعين .

قلت بغضب وانهيار وتخاذل : ولا كلمة . حاجيبهم لك أول الشهر . خلاص ، قالت بسرعة : أتناشر جنيه وجنيه كمان نجدد اللحافين بالمرة .

ثم نهضت واقفة وأشرق وجهها بشماتة الانتصار ، وانصرفت من الغرفة كعاصفة مدوية . ولم يلبث أن تعالى نشاطها من المطبخ والحمام وحجرة النوم وهى تأمر وتنهى وتهندس وتشرف وتراقب وتحقق وتشخط وتنطر . . .

وذكرتنى محاولاتها الساذجة برئيسى فى العمل ، إن علاقتى به تزداد انهياراً كل يوم ، فهو الآن لا يذكرنى جيداً ، وهو ينظر إلى كلما رآنى بدهشة غريبة كأنه يتساءل عمن يكون هذا الوجه المألوف .

ومددت يدى إلى التليفون ثانى يوم واتصلت بصديق السوء يوسف .

— أهلا يا يوسف ، أخبارك إيه : الحمد لله . لا أبداً ، كنت عايز أقول لك إيه ، ليه . . . موضوع بسيط ، سلفية بسيطة ، اللى تقدر تدفعه ، هو المطلوب خمستاشر جنيه شوف تقدر تجيب كام وبس ، خمسة ، اهو حاجه نسد بيها حنك السبع عشان يتلهى عنا .

وهكذا حلت المشكلة حلا جزئياً ، ورحت أفكر فى هذه الدنيا الغريبة التى لا يكف المرء فيها عن الاقتراض من اللحظة التى يولد فيها حتى اللحظة التى يذهب فيها . الطفل يقترض صدر أمه ، والصبى يقترض من أبيه ، والشاب يقترض من أصدقائه ، والموظف يقترض من زملائه ، والبنوك تقترض من البنوك ، والدول تقترض من الدول ، وكل شىء يمضى فى نظام غريب حكيم حتى ليمكن القول إن الإنسان حيوان مقترض ،

ليس الإنسان حيواناً ناطقاً لأن الببغاوات تنطق ، ليس حيواناً ضاحكاً لأن القرود تضحك . الإنسان حيوان مقترض ، ومع إبداء التحفظ على أن الإنسان حيوان نفضل استبدال الحكمة بهذه العبارة. الإنسان مخلوق مقترض. ولو بحثنا فى الدنيا كلها عن مخلوقات تقترض لما وجدنا غير الإنسان . والفيل مهما يكبر فى السن لا يميل على فيل صغير ويقول له :

ـــ ألاقيش معاك بخمسين قرش ورق شجر لغاية بكره . . .

ذلك لا يحدث مطلقاً فى دنيا الحيوانات ، وعند ما يكبر الحيوان يكف عن النشاط ويجلس فى الشمس ولا يقترض من أحد ... وهذا هو السر أحياناً فى أن الغابة تبدو منظمة أكثر من عالم الإنسان؛ على أى حال... أعتقد أن الموضوع يستحق دراسة أكثر فهو موضوع شديد الحساسية والأفضل أن ندرسه تاريخياً .

الأحد : ١٤ نوفمبر سنة ١٩٦٥

عند ما يرى القط سمكة ينفش ذيله ويسيل لعابه، وعند ما يرى الكلب قطعة من العظم يهز ذيله بسرور وصداقة ، وعند ما يدق جرس التليفون لإنسان ما ، ويسمع صوتاً غاب عنه سنوات تقفز عشرات الصور إلى ذهنه فجأة ، وتمضى حركة الصور بالنبض والحياة ، وهذا التذكر شيء لا يستطيع الحيوان أن يفعله . وهذا هو الفرق بينى وبين القط الذى أربيه ، لا يستطيع القط أن يرفع سماعة التليفون ويقول :

ـــ ماو . . . من الذى يتحدث (بالدهشة) أهلا . . . «ثم بالعتاب» عام كامل لا تتصلين فيه ، ماذا حدث« وبالغضب الرقيق» افتقدتك كثيراً فأين أنت، « ثم بالأمل الباهت» غداً فى الثانية عشرة ، سأكون هناك .

لكن غداً لا يجيء كما نعرف ، لا يستطيع القط مهما يكن مثقفاً أو ذكياً أن يضع سماعة التليفون ويستغرق بعدها فى التذكر ، وتمضى الصور طرية وحية ودافئة على ذهنه . فصل الخالق العظيم بين الإنسان

والقط ، ومنح الحيوان غريزة يمضي على هديها ، وأعطى الإنسان ذاكرة يرده إليها صوت ما أو رائحة ما أو عبارة ما . ومنذ أن دق جرس التليفون في مكتبي وأنا قلق ، كانت « س » هي التي تتحدث ، ونقل هذا السلك الجامد المغروز في الأرض صوتاً حمل معه دفقة تمتلئ بالصور ... وكانت كل الصور قد اصفرت والتوت أطرافها من فعل الزمن . لكن ملامح الوجوه فيها لم تكن جامدة باهته . ما أغرب الحب ، هل يزداد رسوخاً كلما طال عليه الأمد ؟ هل يحمل مثل الخمر الجيدة القديمة هذا الدوار والضعف . . . كانت « س » ، فتاة غريبة ، لم تكن تشبه أي فتاة على الأرض ، ثمة مناطق شاسعة من حياتها غارقة وسط الظلال ، واختفاؤها مفاجئ وغير مفهوم ،وبعد عامين تلتقي بها في الطريق الى جوار مكتبة لتقرأ في عينيها هذا الإحساس الذي يعانيه من كان يفتش — عبثاً — عن شيء ولم يجده .

ويفكر قيس وهو يمضي وسط مباني العاصمة الطوبية والحجرية والزجاجية المطفأة ، يفكر وهو يملأ رئتيه من عادم السيارات أنه وحيد وخائف ومستوحش ، وربما يختنق وسط جليد لا تستطيع الذكريات بكل أنفاسها الدافئة أن تذيبه . . . وربما تنتقل الجلسة إلى النيل ، وربما ينسى المرء أنه مكبل بثلاثة أطفال وزوجة وقط يربيه ، وأنه ملتزم بمظهر معين وابتسامة لا بد أن يعلقها على شفتيه وهو يلتقي بزوجته ، ربما ينسى المرء هذا كله ويشده سحر النيل وهدوء الليل وبريق النجوم ... لكن البرودة ستعيده الى صوابه وتذكره بأنه يقترب من الحلقة الرابعة . وأنه لم يعد شاباً طائشاً كما كان ، وأن الأولى به أن يضم أطراف ملابسه حتى لا يصاب بالبرد ويرقد . وليست الشيخوخة سناً معينة نصل إليها ، إنما هي إحساس معين نبلغه ، وأعتقد أنني قد بلغت هذا الشعور من زمن ، ولو حسبت في ذهني متى أحسست بالشيخوخة فسيصادف ذلك عاماً هو العام الذي يلي الزواج مباشرة ، وكان ذلك حين أنجبت ولدي الأول ،

يومها ملأني إحساس بالوهن والخوار والشيخوخة . . . مبروك . لقد أصبحت أباً . . .

وبكيت يومها وظن الناس أنه الفرح ولم يتصوروا أنه الخوف . . . يا إلهي . . . إنني ما زلت أحس بعدم فهم عميق لكل ما يحدث أمامي ، وهذا إحساس الأطفال ، وما زلت أترجم كل شيء في مخيلتي إلى الألوان ،

وأنا لا أعرف هل أحب حقيقة عند ما أحب أم لا . . . ولشد ما أريد أن أعرف . ومنذ زمن بعيد وكل من يعرفني يتهمني بأنني لست طبيعياً وأنني أقرب إلى الجنون مني إلى العقل . وعندما أقع في الحب أشبه على الفور جبلا وقع في بئر ، وربما بدا منظر الجبل وهو يحاول الدخول من فتحة البئر مضحكاً.وهكذا أبدو وأنا أحاول اقتحام الدنيا المسحورة للحب . وعندما أحب يصيبني اهتمام مفاجيء بمن أحب فأسرف في سؤاله عن صحته ونفسه وحاله ، حتى ليبدو السؤال المكرر نوعاً من البلاهة ، وأحياناً يأخذ حبي شكل حنان مفاجئ أو قسوة مفاجئة مبعثها هو الخوف ، الخوف من أن نفقد حبنا ذات يوم أو يقع الحب منا بلا ضجة مثل معطف يقع من المشجب . وكثيراً ما أحس أن سلوكي مع الحب يتغير ، وقديماً أحببت ابنة خالتي وكنت أيامها أخاف عليها من الآخرين والعيون والموج والهواء والشمس، وعذبتها كثيراً فقد كنت أريد منها أن تتصرف مثل سانت تريز ، وكنت أغار حين أرى أكمام الفستان قصيرة . . وقالت لي يوماً وهي تثني رأسها جهة اليسار .

ـ أنا قرفت خلاص .

كان معها كل الحق . .

وتراجعت خطوة إلى الوراء ولم أعرف بماذا أرد ، وفكرت سريعاً في أبطال السينما وكيف يواجهون مثل هذا الموقف ، إنهم لا يتفاهمون وإنما يرفعون أيديهم ويهوون بها على وجه الحبيبة ، ولم أفعل ذلك واكتفيت بأن استدرت خارجاً من حياتها . كانت كلمتها هي الستار الذى نزل ببطء على

قصة حب عظيم لأنه فاشل ، وفاشل لأنه عظيم ، قصة حب فتى فى العشرين من عمره مع فتاة فى الثالثة عشرة ؛ حب لم يكن موضوعه هو الحبيبة بقدر ما كان موضوعه هو البراءة والطهر ، وكبر فتى العشرين وعبر عامه الثلاثين ، وكبر أكثر وغداً يجيء عامه الثالث والثلاثون . . . غداً عيد ميلادى الثالث والثلاثون . . . مرت ثلاثة عشر عاماً على كلمتها التى قالتها وهى فى الثالثة عشرة .

الأحد : ٢١ نوفمبر سنة ١٩٦٥

نحن نعيش فوق كرة ضخمة من الماء والجبال والصحارى والحقول وتشرق علينا شمس كروية كل صباح ، ويجيء القمر كروياً إذا جاء المساء ، ويحمل الرجال رؤوساً تشبه الكرات ، وتظل البنات فى رشاقة عيدان القصب ، فإذا ظهرت كرتان على صدر البنت اهتم الرجال بهذه الظاهرة وبدأوا يعدون العدة للزواج ، وتأثراً بهذا الشكل الكروى المنتشر فى الكون نشأت لعبة الكرة واستفحلت اهتمامات الناس الكروية .

وأنا أسكن فى بيت يقع أمام مقهى رجل من مشجعى الأهلى ، وعند ما ينتصر الأهلى يحضر الرجل مزيكة حسب الله ويحضر عربة من عربات الكارو ويركب فوقها ويبدأ الرقص البلدى ، ويجمع الموكب حوله المئات وهم يهزجون ويغنون ويترقصون ويلعبون بكرات من السباب المضحك الموجه للنادى الآخر ، فإذا كان الزمالك هو المنتصر استأجر أحد أصحاب الجراجات نفس المزيكة التى يستأجرها الغريم بنفس العربة الكارو ونهض معه المئات من مشجعى الزمالك وطافوا بالحى كله وهم يهزجون ويغنون ويترقصون ويلعبون بكرات من السباب المضحك الموجه للنادى الآخر ، وفى كلتا الحالتين يتعلم أبنائى الصغار شتائم لم أعرفها إلا بعد أن وصل عمرى الثلاثين .

ويشجع أبى نادى الزمالك ، وتنتمى زوجتى بولائها إلى النادى الأهلى

وأحد أبنائى يريد أن يكون سائقاً للقطار عند ما يكبر . ولهذا السبب يؤيد نادى السكة الحديد . رغم أنى أفهمته عدم وجوب كونه سائقاً للقطار وكونه مشجعاً للسكة الحديد ، إلا أنه رفض أن يفهم . وتعدد المذاهب والاتجاهات فى بيت واحد دليل على الديموقراطية والخصوبة .

ولقد أحسست أنى مدفوع بعاطفتى ضد النادى الأهلى لأن زوجتى تشجعه ، ثم أقنعت نفسى بأنى يجب ألا أسمح للمسائل الشخصية بالتدخل فى موضوع له هذه الأهمية والعمومية . والحقيقة أن الظروف تلجئنى إلى اتخاذ موقف الموافق من أبى وزوجتى وولدى ، فأنا أحدث أبى أن الزمالك هو السيد الكروى المفضال ، وأقول لزوجتى : إن الأهلى غالب حتى لو انغلب ، أما ولدى الذى رفض كل المناصب التى عرضتها عليه وأبى إلا أن يكون سائقاً للقطار فأنا معه من مشجعى السكة الحديد .

وأنا رجل رصين ولا أفهم كيف ينتتر أبى واقفاً وسط الصالة ويزعق :

— حوش الجون . . . حوش الجون . . . يا خسارة ماجاش جون .

ساعتها لا أفهم هل كان أبى خائفاً من مجىء الجون أو راغباً فى مجيئه ، ولقد تحمست ذات يوم وقلت شيئاً تصورت أنه سيعجب الجالسين حولى ، ثم فوجئت باستيائهم جميعاً ، وليس أكثر إشعاراً بالخجل من أن نحاول أن نحمل الفرح فنجىء بالغم بدله . ولقد أنقذنى عدم اهتمامى ، أو « غبائى » فى الكرة بمعنى أصح من مواقف مثيرة وقفتها زوجتى مع أبى يوم الجمعة الماضى ، وأحدهما زملكاوى والثانى أهلاوى ، وثمة مباراة بين الأهلى والزمالك . وفى البداية التقى أبى بزوجتى لقاء مثلجاً ، برغم القبلات التقليدية التى تبادلاها على الخد ، ثم قال أبى ونحن نأكل شيئاً عن رغبته فى هزيمة الأهلى لأسباب زملكاوية بحت ، وقالت وزجتى بعد أن تلقت الصفعة إنها تود أن يهزم الزمالك وساقت أسباباً أهلاوية بحتاً .

وضحك أبى ضحكة قصيرة ، واصفر الجو بين الغريمين ، وبدا

واضحاً أن الكرة وحدها هي محور الصراع الدرامي . والتفت أبي إلى كأنه يقول : انظر وقاحة زوجتك ، والتفتت زوجتي كأنها تقول ألا يكفيك أن أتحملك حتى أتحمل والدك . . . ودفنت وجهي في طبق المحشي وخطبت خطبة قصيرة عن الروح الرياضية ومستقبل الكرة والاهتمام بالمستوى وتشجيع الناشئة ورعاية العتاويل والبر بالعناتيل ووجوب حيدة الحكم . وكانت الكلمة القصيرة محاولة للهروب من الموقف الذي كان مطلوباً مني أن آخذ منه موقفاً . قال أبي معلقاً على تصرفي :

— طول عمره مالوش رأي . . . سلبي . . .

والتفت إلى أمي مستنجداً بها ، فنهضت قائمة ومدت يدها إلى طبق الفراخ المصرية الجليلة وبدأت تقسيم الأنصبة وهي تتحدث عن وجوب احترام الطعام ما دمنا على مائدة الطعام ، وتراجع أبي وطلب كوباً من الماء ، كما تراجعت زوجتي وقالت لأمي رأيها في الأرز المخلوط وروعته . وكانت كلمتها نفاقاً بحتاً لأنها تقول لي في البيت عند ما نعود إنها لا تفهم كيف أستسيغ طعام أمي الذي يمرضها لفرط دسامته ، وهكذا تمضي الحياة بالنفاق أو الخناق أو الهرب ، والسبب هو الكرة . وأنا رجل عاقل ولا أفهم السر في كل هذا الضجيج .

آه من الضجيج الذي ينبعث من المطبخ .

الأحد : ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٦٥

يعتقد الكثيرون أن الزواج دليل على التهور ، ويرى بعض الناس أنه دليل على الشجاعة ، والفروق بين الشجاعة والتهور رفيعة وناعمة ، ولهذا أفضل النظر الزواج نظرة أخرى . وفي رأيي أن الزواج دليل على النهاية ، وعند ما يتزوج المرء يشيخ ، وعند ما يشيخ الرجل يكبر أولاده . ويتزوجون ، وهكذا تتشقق ثمرة البسلة ويذهب الغلاف للريح وتبقى أصغر الثمار في الأرض وتمضي دورة الحياة .

وقبل الزواج لا يفكر الرجل إلا فى صيده من الطعام والشراب واللباس والمرأة ، ووسط دائرة الأنانية تنمو شجرة الحب . . . وهى نبات غريب أوراقه عريضة وشفافة وخضراء ، وفى نفس الوقت لا تؤكل لأنها نبات سام كل فائدتها هو الظل ، وهى تصنع ظلا ساحراً تنفذ منذ أشعة الشمس بعد أن تفقد حدتها الصفراء وتتحول تحت الأوراق إلى طيف ملون ، وكلما بكى العاشقان أو زاد شحوب وجهيهما زادت قدرة الشجرة وكبرت أوراقها . . . وكل شىء تحت شجرة الحب ملون ويشبه الحلم ، والقانون الوحيد السائد هو قانون النسبية والتسامح ، وهكذا يبدو أنف الحبيبة الكبير فى صغر النبقة ، ويتغير طعم شفتيها « رغم أنه بلا طعم » إلى مزيج من الكريز والتفاح ، وتحت شجرة الحب تغمض الحقيقة عينيها ويفتح الخداع الجميل فمه ويتحدث فيما يعنيه وما لا يعنيه وتسمع الجوارح لقوله وتصفق . . .

وبرغم أن الخطر يحيط بالمنطقة إلا أنها من المناطق الهامة التى ينبغى على النوع الإنسانى زيارتها ولو مرة واحدة طوال الحياة ، وليس المهم أن يحدث الزواج هذه المرة ... المهم هو الزيارة . ويدخل الكثيرون منا هذه المنطقة على بداية الشباب ، ويدخل تحت الشجرة أنيقاً رشيقاً يعتز بكبريائه ، ثم يخرج منها شاحباً باكياً وقد فك رباط عنقه وشرخ قلبه وانكسر طبعه ورقت حواسه وزادت نسبة الأمطار فى عينيه ، وبرغم كل هذه الكسور الداخلية والجروح تصنع الزيارة خيراً هائلا للإنسان . ومثلما نحقن أنفسنا بجراثيم الجدرى حتى لا نصاب بالمرض ، فكذلك تحقننا الرحمة الخافية فى الحياة بشىء من الحب والخيال كى يتم تطعيمنا ضد الحب والخيال فيما بعد . وهكذا نقترب من الأرض أكثر ونفكر فى الزواج ونتزوج ، ونحن مدينون للحب بخروجنا من سجننا القديم فى ظهر آدم ، ولولا الحب الذى عرفه آدم بعد عصيانه لظللنا حتى اليوم سجناء خلية واحدة ولما خرجت للحياة كل هذه الأشعار والمسرحيات وكتب الفن

والتماثيل والصور ... وهكذا صنع الحب أول مخلوق وصارت رحلة الحب هي سياحة كل مخلوق بعد ذلك . فالحب كمنطقة سياحية ينبغي على الوطنيين زيارتها ولو فى العمر مرة واحدة . وأنا أذكر أول زياراتى للحب وأعيش هذه الأيام فى الزيارة الأخيرة فما أعجب قلب الإنسان وما أغربه ، يستهوينا الجمال فى بداية الحياة ثم تكشف الحياة النقاب عن وجه الحقيقة فإذا هى والجمال اثنان وليس واحداً. ليست المرأة الجميلة هى المرأة الحقيقية دائماً ، وفى الجمال غرور يدير رؤوس الحمقى ولا يقنع الرجال ، ونحن نبدأ حياتنا السياحية مع الحب بأن نحب مدرسة الرسم الجميلة ، وكل مدرسة رسم لا بد أن تكون جميلة ، ثم نكبر ونحب ابنة الجيران ، ونخطبها من شقيقها الذى يلعب معنا ، ونتسامح معه فى عدد الأجوان التى أصابته من أجل عينيها . ثم نكبر أكثر ونحب فتاة من الجامعة ، ونكبر أكثر ونحب أول فتاة تعين معنا فى المصلحة . ثم نسأم من أكل المطاعم وجلسات القهوة ونحب امرأة لانعلم أنها ستصبح زوجتنا ، ولو علمنا الحقيقة لما أحببناها قط و لجرينا من طريقها بسرعة الضوء ... (١٨٦ ألف ميل فى الثانية) وبعد الزواج نكبر فجأة ونبحث عن الجمال الداخلى وتناسق الشخصية ، وهذا الحوار اللطيف الناعم الذى تتحمل مصلحة التليفونات معظم ثقله ...

والحب معركة بين رجل وامرأة ... ومثلما تحمل المعارك كثيراً من المفاجآت للمتحاربين فكذلك تحمل معركة الحب ، ويكتشف الرجل أن هذا الوجه العادى قد راح يقطر نوعاً من الفتنة المسحورة داخله ، يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر ... حتى يجىء الوقت وينعقد لسان الشاطر حسن . والفرق بين الزواج والحب وكلاهما معركة ، أننا نقود المعركة بالزواج ضد المرأة ، أما فى الحب فنخوض معارك وهمية ، تقف فيها المرأة إلى جانبنا ، ولا تفعل شيئاً سوى إيقاظ المحارب داخل الرجل .

ولقد استيقظ المحارب داخلى ووقف وسط صحراء شاسعة يفتش عن

جنوده لدخول معركته الأخيرة . . . وأنا أحس أن إمكانياتى التى تتمثل فى شكل جنود . أحس أن هذه الإمكانيات هائلة ، وأحياناً أتصور نفسى وتحت إمرتى مليون من الجند ، يحمل كل واحد منهم قنبلة ذرية . هم قوة هائلة لكنهم جميعاً موزعون فى الصحراء وقد فقدوا كل أجهزة الاتصال اللاسلكى ونفد الماء منهم أو كاد ، وأصبح كل واحد منهم لا يساوى أكثر من جرعة ماء . . . قوة هائلة ومشتتة ومعزولة تحاصرها الرمال ، هذه هى إمكانياتى ، وهى إمكانيات إذا استخدمتها فى الحب أو الحرب فهذا معناه أننى سأخسر المعركة . . .

الأحد ٩ يناير سنة ١٩٦٦ (الموافق لشهر رمضان)

« كل ما فاتك من الله سوى الله يسير . . . وكل حظ لك من الله سوى الله قليل » .

أنطق الله سبحانه وتعالى عبده المتصوف أبا سعيد الخدرى بهذه الحكمة ، وهى حكمة لا يدركها الناس جيداً على الأرض وإن كانوا سيلتقون بها بعد عمر طويل .

إن كلمة « بعد عمر طويل » هى التى تشغل تفكيرى هذه الأيام . . . أعرف أننى سأموت ، ومن رحمة الله أننى أجهل متى يكون ذلك وكيف . . أيضاً لا أعرف ما الذى سأعمله بعد أن أموت ، وهل أصبح شجرة يجلس العشاق تحت ظلها ، أو أتحول إلى ثمرة تأكلها بقرة فيزيد اتساع عينيها ويعمق تعبير الحزن فيهما . كل ما أعرفه وأثق فيه أننى سأتحول إلى التراب الذى عشت طوال حياتى أحارب دخوله إلى البيت وأصرخ فى وجه زوجتى لأنها لا تنظفه ، وهذه الهزيمة المروعة أمام التراب بتحولى إليه لن تستمر . . . وهذا ما يخفف وقعها على النفس . فبعد عدة بلايين من السنين ، أو بعد ساعة أو ثوان قليلة سأقفز من حفرتى بالأمر ، وأتحول من التراب إلى آدميتى بنفس الأمر ، وأسرع إلى الله تعالى (بالخوف

والقهر) ملبياً نداءه سبحانه ، وأنا الذى كان يسمع فى الدنيا (بالأمن والطمأنينة) نداء الله خمس مرات فى اليوم « فيستنطع » أشد النطاعة وأعظمها ويشد على نفسه لحاف الغفلة ويتعلل بعفو الله وبرد الشتاء وحر الصيف ولا يصلى . ولسوف أكتشف بالروع والخوف والإلحام وأنا أقطع طريقى إلى الله بعد البعث ؛ أن كل ما فاتنى من الله سوى الله يسير ، وأن كل حظ كان لى على الأرض سوى الله سبحانه قليل . . . ولسوف أعطى كتاباً صغيراً هو فيلم لحياتى على الأرض . . .

سأرى فيه لحظة الميلاد وأيام النمو وساعات المدرسة وحبى الأول وإثمى الأخير ، وكل حركة وكل نأمة وكل فكرة عبرت على الذهن ، وكل رعشة مرت بالحواس . . . حتى هواجس الفكر وخطرات الضمير وتأملات القلب ونوايا النفس سأراها مسجلة فيه بالصوت والصورة . وتمضى اللحظات وأنا أنظر دهشاً فى حياتى ، وأنظر دهشاً لهذا الميزان الرهيب الدقيق الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . . .

حتى هذه الجلسة فى المقهى . . .

اليوم الذى اشترينا فيه السمك وجلسنا نأكله وجاء القط الصغير الأصفر يشد بنطلونى فآلمتنى أظافره ورفسته بقدمى فأسرع يبتعد ثم ثنى وجهه إلى وقال يومها بغير أن أفهم عنه : « لماذا تضربنى أيها الرجل الطيب . . . هذه نقود جاءتك من الله ، وهذا سمك خلقه الله وأنت عالة على الله وأنا مثلك عالة على الله . فلم لا تطعمنى مما أطعمك الله » . . . نظرات القط الصغير الأصفر المرقش بالسواد مع ما قاله ولم أفهمه مسجلة فى الكتاب ومحسوبة وموزونة ، فيا لدوار الإثم . ومن ذا الذى يعيدنى إلى الأرض مرة أخرى لأطعمه وأقبل قدميه وأغسلهما بالدمع وأرجو منه أن يسأل ربه وربى ورب الكائنات عفوه ورحمته .

سيقال لى وأنا أتصفح شريط حياتى على الأرض : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا . . .

لن يحاسبك أحد . . . اقرأ أنت وحاسب نفسك . . . ولو فاجأنى الكتاب . . . وحاصرتنى الخطايا التى اكتسبتها وأطلت النار وقررت أن أكذب ، فسوف يغلق الكتاب رغم أنفى ويعقد لسانى بالخوف من رب العرش العظيم وتنطق قدمى قائلة : إنه سار بى إلى الخطيئة مرات ولم يدخل بيتك يا رب فى غير الأعياد والمناسبات الرسمية . وتصمت القدم ، وتقول اليد : إنه كان يشرب بى الشاى فى عمله ولا ينتج مدعياً أنه يعمل على قدر نقود الحكومة ، وتصمت اليد وتهمس حبة العين السوداء بسر النظرات التى قبل بها وجوه النساء فى الطريق وتأمل بها السحاب المسخر بين السماء والأرض فى نفس الوقت بغير خوف من خالقه . . .

وتصمت الجوارح وتعود إلى اللسان انطلاقته فيقول بعد أن أدانته الجوارح :

— « جاتكو البلا » . . . عنكم كنت أدافع يا أغبى الجوارح .

لا مفر إذن ولا فكاك ولا كذب ولا ظلم . . . لا ظلم اليوم . . . أى مفاجأة وأنا أكتشف أن حياتى على الأرض لم تكن هى وحدها الحياة . . . أى مفاجأة . إن كل نكتة أطلقتها على فكرة البعث بعد الموت ذهبت بالصدى وأبقت لى الحسرة يوم الحسرة ، فيا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . . .

يا حسرة على العباد ، ويا حسرة على نفسى . . .

الأحد : ١٦ يناير سنة ١٩٦٦ (الموافق لشهر رمضان)

الحقيقة أن زوجتى ... تمثل الغالبية العظمى من العامة الذين ينظرون إلى الدين نظرتهم لشىء يستحسن اتباعه عند الشيخوخة ليدفئ من برد الوحدة ويملأ الخوف من الموت بأحلام الجنة المنعشة . . . وينقسم معظم الناس إزاء الحقيقة الدينية « وكل حقيقة غيرها » إلى قسمين : قسم من العامة وقسم من الخاصة . فأما العامة فيؤمنون بالله على طريقة المثل

العامى الذى يقول إن خير الأمور الوسط ، وإن كان البيت عايز الزيت يحرم على الجامع ، بمعنى أن الإنسان إذا صلى وجب عليه أن يخطف صلاته خطفاً حتى لا يقال إنه انجذب ، وليفكر جيداً أثناء الصلاة فى علبة الجبنة المغلقة التى غشها البائع الحرامى ، وإذا صام بالنهار وجب عليه أن يسب الدين مرتين لأنه صائم ومنرفز ، فإذا انطلق مدفع الإفطار انطلق كالمدفع على الإفطار ، وثبت مراكزه عند هذه التبة من الأرز المخلوط ، ثم انحدر عنها لهذه الهيئة الحاكمة من الدجاج ، ثم تقدم من بعدها ليسيطر على أحراش السلطة والطبيخ . ثم طهر الأرض من الكنافة والأطايف ، حتى إذا انتهت المعركة صار التنفس معجزة . . . ويحتاج البطل لمن يحمله ويغسل له يديه . . . وإذا تصدق الواحد منهم تصور وهو يعطى قرشاً أو نصف قرش ويوبخ الشحاذ ويلقنه درساً فى وجوب البحث عن عمل ، تصور أنه يشترى نصف الجنة بالتعريفة المخروم الماسح الصدئ الذى يرجع عصره التاريخى للسلطان حسين .

وهكذا تمضى الأمور باعتدال وقصد حكيمين بميزان حياة العامة فيما يتصل بالدين ، وينصرف حماسهم الحقيقى وتطرفهم وجنونهم إلى الدنيا فيحاولون زيادة دخلهم فيها ، معتقدين أن الإنسان قد خلق أساساً وهبط إلى الأرض أساساً ليزيد من دخله ويشترى ثلاجة حتى يسجل تطوراً فى سلم الخليقة ، بعد أن كان جده الأول يفتح فمه تحت المطر ، وجاء جده الثانى وشرب من الترعة ، ثم اخترع جده الثالث القلة ، وصار لزاماً على الرابع أن يسجل هدف الثلاجة . ومثلما ينصرف هم العامة إلى زيادة دخلهم ينصرف همهم إلى تسمين أنفسهم معتقدين أن الكرش الضخم دليل على الأصل الطيب . وكذلك يؤمن العامة أن مروءة المرء لا تكتمل إلا إذا تعصب وانجذب لشىء عصرى مثل أم كلثوم أو الكرة . وإذا انهزم ناديه يوماً قفز المهزوم العصرى على قدميه وشوح بيديه فى الفضاء وأمسك صدره بالألم وصرخ من عزم أعماقه حسرة على الجون

الرابع الذى جاء ولم يكن ينبغى أن يجىء . ثم طب ساكتاً بالزعل ومات . وتسرع الصحف وفراودة النادى الذى تسبب فى موته ليتأملوا بالدهشة والخوف هذا الذى سقط شهيد رابعة الكروية . هذا هو موقف العامة أو الطبقة الوسطى من الدين . أما الخاصة فيقفون موقفاً آخر تماماً . . . لن نجد فيهم هذا الاندفاع الحماسى والسوقية . . . لن نجد فيهم هذا الإيمان الذى يشبه عدمه والذى يميز إيمان العامة . . . إن الخاصة قوم لا يتبعون غرائزهم كالعامة ولا يتقاتلون لأسباب كلثومية أو وهابية أو كروية . إنهم قوم يعبدون العقل وقد كفل وجودهم على رأس الحياة تربية ممتازة صانتهم عن الحماس لأى شىء . ولهذا يعتذرون لقضية الإيمان حين تعرض عليهم قائلين :

— نريد أن نرى الله لنؤمن به . . . أيها السادة الذين يدعون وجوده ، أين هو وسوف نؤمن به . إن العلم هو هدفنا النهائى . . . والعلم هو الملاحظة والتجربة ، وكل ما يدخل المعمل يدخل ضمن إيماننا ، أما أن تطلقوا لنا ألفاظاً هى فى نهاية الأمر أصوات بغير أجساد فذلك ما نرفضه ومعذرة . . . ويلقون قفازاتهم فى وجه طاحونة الهواء وينحنون ثم ينسحبون بالأدب اللائق بالخاصة . . .

والحقيقة أن العامة والخاصة سجناء وإن اختلفت قضبان سجنهم : الأولون تسجنهم التقاليد والعادات التى كانت تؤمن بالدين كنوع من أنواع المدافىء التى تقى برد الشيخوخة. ويظل أحدهم مصالحاً للدين ما دام التعريفة المخروم يشترى الجنة . . .

والآخرون تسجنهم قضبان عقل طفل صغير هو العلم ... طفل صغير لا يؤمن بغير حواسه ولا يؤمن إلا بما يدخل معمله الذى يحمل بالنسبة للكون سعة فنجان القهوة ، فإذا رفض المحيط أن يدخل فنجان القهوة أنكرنا وجود المحيط كله وأعطينا الإيمان ظهرنا وانصرفنا .

الأحد : ٢٣ يناير سنة ١٩٦٦

نحس بالوقت فى مصر على طريقتنا الخاصة. إذا قال المكوجى سأحضر القميص بعد ساعة فعليك أن تنتظر القميص بعد يوم ، وإذا قال الترزى بأن البروفة بعد أسبوع – فهذا معناه أنها ستكون جاهزة بعد شهر ، والأصدقاء يتواعدون على اللقاء فى المقهى فى الساعة السابعة ولا يجتمع شملهم قبل التاسعة ، ولا يعتذر منهم أحد . . . والزوجة تعلم أن زوجها يحب أن يأكل طعامه فى الثانية والنصف ظهراً ، لكن الطعام « اللعنة على البوتاجاز الصغير » لن ينضج قبل الرابعة . . . فإذا اعترض الزوج ، قالت الزوجه : ما ناقصش إلا أحط صوابعى تحت الحلة . ولقد تميزت الشخصية المصرية بهذا التسويف الذى ينطوى على احتقار عظيم للوقت ، وينطوى فى نفس الوقت على عدم احترام لعمل الإنسان أو شعور الآخرين .

ومن الغريب أن يتصرف المصريون هكذا رغم أن أجدادهم القدماء هم الذين اخترعوا الوقت ، وإذا كنت أعتبر نفسى من قدماء المصريين فإن زوجتى لا تعتبر نفسها كذلك ، إنها تمت لعصرنا الذى يحمل مناخاً غريباً يدفع الإنسان إلى أن يصبح مثل كلمات العهد القديم ، فينظر للشمس ويعجب من علة نشاطها ، وينظر للأنهار ويدهش لأنها لم تمل و تتعب من الذهاب للبحر طوال هذه السنوات ، ولو نظرنا حولنا فى الكون فسوف نكتشف أن الإنسان هو أكسل المخلوقات وأقلها تحملا للمسئولية ، لم نسمع أبداً أن الشمس تأخرت عن موعدها ثلاث ساعات أو ثلاث دقائق ، لم نسمع أن المغرب تلكأ أو تسكع قليلا ولم يأت فى موعده ، لم نر أبداً فاكهة تتأخر عن موعد ظهورها ويمنعها الكسل من الظهور ... كل شىء يمضى بنظام رائع محكم باستثناء الإنسان ... هو الوحيد الذى لا يراعى الوقت ، وبالتحديد وقت طلب النقود .

منذ يوم طلبت زوجتى سبعة جنيهات ونصف... لم أكن قد قبضت

بعد ، ودهشت .. كيف تتصور زوجتى أنى يمكن أن أملك على نهاية الشهر مثل هذه الكمية من النقود ، هل أنا أرسين لوبين . أفهمتها أننى لا أملك هذا المبلغ فقطبت جبينها وقالت :

— راح الهليوس . . .

قلت : راح فين . . .

قالت : نافذه الصبر : اسكت . . . سيبنى أفكر . أطعت الأمر على الفور . . . تركتها تفكر . . . وتغضن وجهها وراحت تفكر . . . واستغرقت أنا الآخر فى تفكير عميق محاولا أن أعرف سر الهليوس . . . وعرفت كل شىء فى المقهى . . .

أن الهليوس نوع من أنواع السمن الهولندى . . . وإذا كان كل عصر يمتاز بنوع من أنواع الجنون الظريف الذى يميز الحياة فيه ، فإن هذه الأيام من عصرنا تعيش فى جنون الهليوس . . .

وانتشر الهليوس مثلما تنتشر الأنفلونزا ولم يعد هناك بيت لا يتحدث عنه ، وصارت كل زوجة تقيس نفوذ زوجها ومدى حبه لها بعدد العلب التى يحضرها من الهليوس . وكانت زوجتى تنوى شراء عشر علب منه مرة واحدة ، وكانت هناك — واسطة — ستجىء لها بهذه العلب ، وكان الدور المفروض أن ألعبه هو دور إحضار النقود . . . ولما كنت رجلا صالحاً لا أسرق فإننى لم أستطع أن أحضر النقود ، وهكذا غرق حبى لزوجتى فى عشر علب من الهليوس التى فشلت فى إحضار ثمنها . ومع مرور الوقت لم أكن أسمع إلا ثناء عطراً على هذا السمن . . . والحقيقة أننى أفكر جدياً هذه الأيام فى كتابة ملحمة عن الهليوس ، أو مسرحية . . . سيفتح الستار على بداية أزمة . . . علبة من الهليوس التى اختفت فى بيت . . . والزوجة تتهم زوجها بأنه حمل العلبة إلى بيت والدته ، وهو يتهمها بأنها حملتها لبيت أمها . . . ما أسخف كل شىء . . . ما أسخف هذا الاندفاع الأحمق نحو نوع من أنواع السمن . هناك فى البلد غيره عشرات الأنواع

التى لا تقل عنه وإن كانت شهرتها — والشهرة حظوظ — أقل من شهرته — ولماذا عشر علب يا زوجتى العاقلة ؟ .

قالت الزوجة : «مستكتر عشر علب علينا . . . أملك جايبه هليوس بعشرين جنيه . . . أصله حيخنى . . .

سكت وحاولت أن أفكر فى الموضوع بهدوء . . . طبعاً سيخنى الهليوس . لأن كل بيت سيبدأ تخزينه . . . قطعاً سيخنى . . . عليه اللعنة . . . اتصلت بأمى فى التليفون أسألها هل تنوى أن تفتح محلا للبقالة ففوجئت بأنها لم تشتر علبة واحدة منه ورجتنى أن أتصل بزوج خالة شقيق ابن عم الست تفيده لأن له قريباً يعمل فى الجمعية التعاونية ويمكن أن يحضر لنا علبة أو علبتين . ما هذا . . . أيمكن أن يكون جنون الهليوس قد أصاب حتى السيدات العاقلات . . . لست أعرف . . . هل يمكن أن يكون العيد هو المسئول عن الأزمة ؟ لست أعرف . . . كل ما أعرفه أننى قررت أن أعيد قراءة كلمات سيدنا سليمان التى يقول فيها : « باطل الأباطيل ، الكل باطل » يا سيدنا سليمان عليك الرحمة والصلاة . على عصرك كان كل شىء يتساوى . . . وعلى عصرنا زادت أشياء تحت الشمس . . . أهمها يا نبى الله هو الهليوس قيصر . . . تصور ! .

الأحد : ٣٠ يناير سنة ١٩٦٦

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم بأمر فيه تجديد

تذكرت هذه الكلمات وأنا أقول لألف واحد كل سنة وأنت طيب ، وألف واحد يقولون لى كل سنة وأنا طيب .

ذهبت إلى حديقة الحيوان وكدت أبكى أمام قفص الأسد . . ترى كيف يمضى العيد فى الغابة.هل يأكل الأسد غزالتين بدلا من غزالة واحدة إذا جاء العيد عليه فى الغابة ، ثم ما هو إحساسه اليوم وهو سيد حيوانات الغابة . . ما هو إحساسه اليوم وهو سجين .

الأحد : ١٣ فبراير سنة ١٩٦٦

بلغ الأمر حد الأحلام . . .

أصبحت أحلم وأنا نائم وأحلم وأنا مستيقظ وأحلم وأنا أسير وأحلم خلال العمل . أعتقد أن هذه الحال تعترى الزواج عند ما يبلغ عامه العاشر ، لكننى لم أصل إلى عامى العاشر بعد . . . فما السر إذن ؟ أتكون المشكلة أننى أعيش حالة نفسية وصلت إلى عامها العاشر فى الزواج . . . لست أعرف ... كل ما أعرفه أننى أحس بالبرد والخوف وأحلم ... تعال أيها الحلم ولا يهمك الصوت العالى للزواج . . .

أنت بصوتك المهموس وأسرارك الغائرة أقوى وأمنع .

كيف حالك يا جدى . . . كيف أنت . . . أنا . . . أنا بخير . . . لم أزل هناك . . . فى الدنيا . . . أى دنيا . . .

تسألنى أى دنيا يا جدى ... الدنيا التى غادرتها بقطار الثلاثاء منذ عام مضى . . . ما أغرب كلماتى ... لم تعد تفهم كلماتى . . . ما الذى لا تفهمه . . . منذ عام مضى . . . هل نسيت أنك مت . . . هل فقد الزمن عندك دلالته ... أصار له معنى جديد يا جدى ... لم لا تجيب ... ثم ما سر ابتسامتك الشاحبة التى تذكرنى بشىء كان لى ثم مات . . . لن تفهم يا جدى فأنا أتحدث عن الحب وكنت تعتبر الحب شقاوة ثم غسلتك التوبة والبكاء هناك عند الحجر الأسود . . .

أحدثك إذن عن الحب . . . كان لى حب يا جدى ثم مات . . . تعرف أنت الموت وقد جربته . . . تعرف أنه رحلة . . . كيف كانت تبدو فى المرة الأخيرة ... المجداف يتحرك على مياه الذكرى فيصيب الوجه رذاذ مياه غريبة ... ليست مياهاً زرقاء ولا خضراء وإنما تحمل لوناً تمتزج فيه الفضة بشحوب النرجس . . . والفضة سائل كثيف لا يشف عما تحته من أسرار ... لكن هذه المياه الفضية

شفافة . . . امتقع وجهى وأنا أنظر للمياه . . . ها هى المرة الأولى التى أشاهد فيها فضة شفافة . . . وعلى السطح تتناثر آلاف من زهور النرجس التى تمنح عطرها للجو . . . كان الجو حاراً حين شاهدتها آخر مرة . . . أذكر مجرى العرق الرفيع عند منابت الشعر فى رقبتها . . . وأذكر ابتسامتها التى لم تتحرك بها الشفتان وإن أطلت من العينين . . . وكانت تقول لى آلاف الأشياء بغير أن تتكلم ... وكنت —يا جدى— حين أنظر فى عينيها وأتأمل وجهها أحس بالأمان العظيم . . .

شعور مطلق بالأمان والسلام والراحة . . .

أراها مثلما كنت أراها زمان ، بأنفها الكبير الجميل مثل أنف كليوبترا . . بملامحها الذكية ، بدمها الذى يشبه خفه دم النسانيس التى تعيش على الشجر فى السودان .

احتفظ بصورتها . . بقصاقيص من فستان لها وعمرها ١٤ سنة ، احتفظ بقشر لب أكلته مرة وأعطتنى القشر لأرميه فلم أفعل . احتفظ بقلم صغير كتبت به يوماً كلمة . احتفظ بخصلة من شعرها قصصتها وهى نائمة جوار شقيقتى وكانت صديقتها . احتفظ بجزء من أظافرها إنكسر يوماً.

واحتفظ بصلواتى لها ، وهى صلوات تصل لألف صفحة ، لم تقرأها هى ولا تعرف بوجودها قط . أخبئ هذا كله عنها وعن زوجتى مثلما يخبئ الوثنى العاشق إلهه عن الآخرين .

وأحياناً تزورنى هى فى الحلم ، وأحياناً أزورها بالمرور على قشر اللب وقصاقيص الفستان وخصلة الشعر .

كانت تقول لى احتراماً — يا أبيه .

وكان الفرق بين عمرى وعمرها يبرر ذلك .

ذهب الأمس. مات . تحول . بدأ رحلته مع العودة . دخل الأرض

وصار معدناً من المعادن النفيسة . . . سجلت أيدى الملائكة كل شيء ولم يعد ممكناً محو شيء . . . رفعت الأقلام وجفت الصحف . . . ذهب الأمس فكم كنت أحبها مثلما أحب عمر بن الفارض المرأة الوحيدة التى قادته إلى الحقيقة . . . كم كنت أحبها حقاً . . . قبلها لم أكن أتصور وجود حكمة لخلق المرأة غير استمرار الحياة . . . كنت أقول لنفسى إنه يستحيل أن يكون هدف المرأة على الأرض هو تنغيص حياة الرجل والتنكيد عليه . . . يستحيل . . . لماذا خلقت النساء إذن . . .

بعدها هى عرفت لماذا خلقت كل النساء . . . إن الحب عنصر أصيل فى بناء هذا الكون وكانت تستمع إلى كثيراً — يا جدى — وهى صامتة . . .

* * *

معذرة يا جدى . الواقع يفرض نفسه فعذرة .

— أنت تشوف لك حل فى البيت ده . . . اتصرف . . . ما أنت طول عمرك مديون . . . فى فبراير واحد من ولادك نايم من غير بطانية والثانى معندوش كستور ، واحد عنده جزمه والثانى معندوش . . . وتقول لى بتحب وعايز تتجوز واحده ثانيه . . . والنبى أنت عبيط يا بطاطس . . . فيه بنى آدم مفيش فى بيته غساله ، فيه بنى آدم مفيش عنده تلفزيون . . . هات تليفون يدال ما تجيب ولد . . . كل الرجاله اللى فى الدنيا دول خراتيت ولا بيفهموا . . . أصل انت مش قادر تحس إن أنا مختلفة عن الناس . . . بس أنا بأفكر بطريقة ثانية غير الناس . . فاكرنى حزعل . حستريح . روح اتجوز وهات بلوة تهاتى فيك وتهاتى فيها . . . لا . . . انت ما كنتش بتهزر . أنا عارفاك لما تتكلم جد . . . أنا واخده بالى منك اليومين دول . إن مكنتش ملاحظ تبقى ضعيف الملاحظة . . . انت خسيت وعجزت وقربت تموت يا بطاطس . . . شعرك اتملى شيب وجاى تقول لى بحب . . . حبك برص . . . معذرة يا جدى فهذه هى زوجتى

فى إحدى لحظات الحوار . . . إنها طبعاً لا تقصد ما تقوله ، وكل ما فى الأمر أن العشرة الدائمة تولد نوعاً من أنواع رفع الكلفة . . . وذلك أسوأ ما فى الزواج . . . ذلك أسوأ ما فى الزواج . . .

الأحد : ٢٠ فبراير سنة ١٩٦٦

* الساعة ٧ صباحاً :

النوم يرقد فوق جفونى كالرصاص . والسأم يخنق رباط عنقى بعد أن ضاقت ياقة القميص ، والمرآة تأكل باب البيت وأنا أمر فى طريقى للخروج .

* الساعة ٧ والدقيقة الثالثة :

حانت منى التفاتة إلى المرآة فوقفت . . . خيل إلى أن هناك رجلا غريباً فى البيت . نظرت خلفى فنظر الرجل فى المرآة خلفه ... تأكدت أن هذه صورتى فجمدت فى مكانى . كان الرجل الذى هو أنا يبدو متعباً ومكدوداً وعجوزاً وقد امتلأ رأسه بالشعيرات البيضاء ، وتحت العينين هالات سوداء وفى صفاء العينين كدر خفيف وشىء يشبه الحلم الذى انطفأ .

* الساعة ٧ والدقيقة الرابعة :

مرت زوجتى ورائى فمرت صورتها فى المرآة . لاحظت أنها مدججة باللحم والشحم والغباء ففهمت سر شيخوختى المبكرة وانصرفت .

* الساعة ٨ ونصف :

واحد شاى وسندوتش فول واشترى لنا الأهرام ، خلينا نقرأ وننبسط ولتذهب الدوسيهات المعطلة للجحيم.

* **الساعة ٩ ونصف :**

رئيسى يتحدث حديثاً طويلا فلا أسمع منه شيء .

الحياة مستمرة خارج المصلحة والبوفيه يعمل داخل المصلحة وآلاف الأشياء تقع فوق سطح الكرة الأرضية والصاروخ الروسى يرقد على سطح القمر والدنيا نهار هنا وليل هناك ، وهناك قشرة موز فى مكان ما من الشارع الذى يؤدى إلى بيتنا ويمكن أن أتزحلق عليها وأنا عائد وتنكسر رقبتى وأموت . . . ما معنى هذا كله .

* **الساعة ١٢ :**

دق التليفون لى . . . من الذى سأل . صوت رجل . . . لا تردوا على أى صوت لرجل . هذا صوت دائن . . . قولوا أى شيء . . . خرج . . . مات . . . نقل . . . سافر . . . أى شيء . . . ما أنتظره أيها الأغبياء هو صوتها هى . . . وهى مسافرة فى بلاد الفرنجة ولن تتحدث . أنا إذن لا انتظر شيئاً .

* **الساعة ٢ :**

أخذت نفساً عميقاً وغطست فى الأوتوبيس . . . ما أذكانى . . . أعرف أننى لن أتنفس حتى أنزل منه . . .

الأحد : ٢٧ فبراير سنة ١٩٦٦

ليس غريباً أن تنشأ الصداقة بين الإنسان والحيوان . . . ليس هذا غريباً .

هرون الرشيد كان صديقاً لفيل . أما خمارويه بن أحمد ابن طولون أحد خلفاء الدولة الطولونية فكان مغرماً بالحيوانات

هو الآخر ، وكان له بستان مكانه الآن حى القلعة . ، وكان له فى هذا البستان قصر جميل ، وحول هذا القصر بنى الخليفة دوراً متعددة للأسود والنمور والفهود والزرافات (بنى حديقة حيوان باختصار) ، وكانت بيوت الأسود عامرة بالأسود ، ولها أوقات معلومة تفتح فيها ، فتخرج الأسود إلى فسحة عامة خصصت لها لتمشى فيها وتريض وتلعب وتهارش نهاراً كاملا ، حتى إذا حضرت صلاة العشاء صاح بها خدامها فيدخل كل أسد بيته لا يتخطاه إلى غيره . . .

وكان من جملة هذه السباع أسد أزرق العينين سماه خمارويه « زريق » نسبة إلى زرقة عينيه ، وكان هذا الأسد يأنس إلى خمارويه ولا يؤذى أحداً ، وأحبه خمارويه وعلق فى عنقه طوقاً من الذهب وأطلقه فى القصر . وعند ما ينصب خوان خمارويه وتعد مائدة الطعام كان الأسد يقبل ويربض بين يدى سيده . فيرمى إليه خمارويه الدجاجة بعد الدجاجة ، والفضلة الطيبة من الجدى ونحو ذلك مما على الخوان فيلتهمها . . . فإذا نام خمارويه يأتى زريق الأسد ويربض بين يدى السرير ، فما دام السلطان نائماً فلا يجسر أحد على الدنو منه وإزعاجه . لماذا نذهب بعيداً فى التاريخ . . . إن أحد الأباطرة المعاصرين يربى فى قصره أسدين كبيرين ويقدم السفراء أوراق اعتمادهم فى حضور الأسدين . . . وأنا لا أختلف عن هرون الرشيد وخمارويه وهيلاسلاسى . قد تختلف جنسياتنا ومرتباتنا وملامح وجوهنا لكننا معا نحن الأربعة ننحدر من أب واحد وأم واحدة ... آدم وحواء .

فكرت أن أربى فيلا فى البيت مثل هرون الرشيد لكننى استبعدت الفكرة . . . بيتنا صغير وزجتى سمينة وليس فى البيت مكان لفيل آخر . أما الأسد فهذا هو الذى فكرت فى تربيته بجد ، حتى إذا نمت ربض بين يدى السرير ولم تجرؤ زوجتى على إزعاجى كل ساعة لتقول لى : هات تلاتة صاغ للمكوجى أحسن الواد متربس ومش راضى يمشى . سألت عن ثمن الأسد الصغير ... قيل لى إن ثمن الشبل بعد ولادته لا يزيد

على خمسين جنيهاً . . . عظيم . . . سعر لا بأس به مطلقاً . ويمكن عمل سلفة من البنك وشراء الأسد الصغير وتسميته زريق ووضع طوق من النحاس فى رقبته والاعتذار له لعدم وجود طوق من الذهب . عقبة واحدة حالت دون ذلك .

حكاية خوان خمارويه الذى كان زريق يلتهم منه الدجاجة تلو الدجاجة ، وورك الجدى تلو ورك الخروف . . . وتكرر هذا الخوان فى الإفطار والغداء والعشاء كل يوم . . . كانت هذه هى العقبة الوحيدة : ولنفرض أننى اشتريت أسداً صغيراً ونجحت فى تهريبه إلى الشقة وبدأت تربيته وكبر الأسد وتذكر الخوان الذى كان يأكل منه جده وتساءل عن خوانه الخاص . . . هنا المشكلة . . .

إن موضوع الدجاجة تلو الدجاجة شائك ومربك . . . إننا نجلس أنا وزوجتى وعيالى حول فرخة كانت تجرى فى السبق ، ولن يجد زريق غير عظام الدجاجة بعد تنظيفها جيداً من اللحم ... ماذا يقول الأسد لو حاولت إفهامه أن هناك ثلاثة أيام تحرم فيها الحكومة بيع اللحم . . . لنفرض أنه لم يفهم الحكمة الاقتصادية وراء هذا التصرف ومد يده فى يوم من الأيام الثلاثة إلى ورك واحد من عيالى وأكله . . .

فشلت فكرة تربية الأسد لضيق ذات الخوان ، مثلما فشلت فكرة صداقة الفيل لصغر حجم البيت ، ولم يبق غير القطط . . . إن القطط تشبه النمور على أى حال وتذكر المرء بعصر الصيد وأمجاده . . . وهى لا تزعج أحداً ولا تأكل كثيراً كالأسود أو الفيلة .

أى شىء فى هذه الرغبة . . . لماذا تتدخل زوجتى فى رغباتى . . . لماذا تصب كل نقمتها على القط الصغير . هل تفعل ذلك لأنه أحبنى وكان يختار حجرى وينام فيه دافناً رأسه الجميل وسط يديه . . . هل تحقد على القط لأنه أعطانى طاقة من الحب التى فشلت هى فى تقديمها . لست أعرف. كل ما أعرفه أننى فوجئت بموجة غريبة من العداء الذى يبدو

من زوجتى تجاه القط . . . وكان حجم زوجتى مقارناً بحجم القط هائلا ورهيباً . . . وكان القط حين أحضرته حائراً وخجلا وصغيراً وتحمل عيناه تعبير طفل ضل الطريق فى العرض . . . كيف أحضرته . . . أقول لكم كيف أحضرته .

كنت أصعد السلالم فى الظلام لأن الرجل صاحب البيت من يوم خفض إيجار الشقق خلع نور السلم نكاية فى السكان...وكنت عند الدور الثانى حين فاجأنى الصوت .

— ناو .

تراجعت إلى الخلف ومددت عينى فى الظلمة وتساءلت بصوت خشن :

— مين اللى بينونو هناك . . .

إن صداقتى بالقطط ترجع إلى أكثر من خمسة وعشرين عاماً حين أغلقت الباب فى بيتنا وأنا طفل على ذيل قط ، وشهدت عذابه وقررت التكفير عن ذنبى وتربية القطط مدى الحياة . . . عاد القط إلى المواء . . . وأنا لا أدعى أننى أعرف لغة القطط بكل قواعدها وأساليبها البلاغية وأدبها وفنها ، لكننى أستطيع التفاهم معها دائماً (وأفهم نصف كلامها على الأقل) . . . أخرجت علبة الكبريت من جيبى وأشعلت عوداً فتمزقت الظلمة عن القط . . . هناك . . . إلى جوار صفيحة الزبالة الفارغة كان قط رصاصى غامق يجلس مرتعشاً من البرد . . .

— قلت له : انت تبع أنهو بيت .

قال : ناو .

قلت : آه ...طب وإيه اللى مخرجك دلوقت .

قال : ناو .

— قلت : حتعمل إيه فى السقعه دى .

قال : عاو .

قلت : طيب تعال بات معايا الليلة دى والصباح رباح . . . نبقى نشوف أصحابك وزرجعك . . .

واندفع القط إلى قدمى وبدأ يتمسح فيها ... وهزنى الود والحنان الذى يقدمه وأنا رجل حرم من الود والحنان بعد زواجه . . . صعدت السلالم وأنا أتعثر فيه حتى وصلت إلى شقتنا فحملته ودخلت به البيت .

وسط الصالة كانت زوجتى تقف وتذكرنى بشمشون الجبار وهو يقف وسط المعبد الذى قدر له فيما بعد أن يهدمه على رأسه ورأس أعدائه... قالت وهى تشير إلى القط بكبرياء وصلف :

— إيه ده ؟

قلت : ده قط مسكين غلبان ، لقيته عا السلم تايه وجعان ، وكان بيترعش م البرد والحرمان ، والظاهر إنه قط لست أم إحسان ، اللى بعتت لنا الكحك فى رمضان . . .

قالت بغضب : إنت حتحكى لى تاريخ حياته . . . أنا مش بسألك القط ده مين . أنا بسألك القط ده إيه .

قلت : قط .

قالت بنفس الصلف : إرميه بره .

قلت وأنا أرمى القط داخل حجرتى والدم يرتفع إلى رأسى وصوتى يزداد خشونة وغباء .

— أنا ملاحظ إنك بتتحدينى من أسبوع . . . إيه السر ؟ .

وارتفع صوتى وأنا أتساءل عن السر . . . ارتفع صوتى أكثر . . . وأكثر . . . وتراجع شمشون .

حقاً إن الطغاة لا يولدون طغاة ، إنما يصنعهم ضعف النعاج . . . وصدق الشاعر العربى فى قوله . . . وحيث لا قطيع لا ذئاب .

الأحد : ٦ مارس سنة ١٩٦٦

الفيلسوف اليونانى ديوجينيس يحمل مصباحه ويفتش عن الحقيقة تحت ضوء الشمس . . . دارون يحمل مصباحه ويتتبع التحويرات التى التى حدثت للمخلوقات نتيجة الظروف التى تعيش فيها . رجل فى الطريق يحمل مصباحاً ويفتش عن شلن وقع منه فى مطب أثناء سيره فى الشارع . . . زوجتى تحمل مصباح العكننة وترفعه فى وجهى كلما أحست أنى سعيد . . . رئيسى المباشر فى العمل يحمل مصباحاً وينتظر أى خطأ أقع فيه ليطفىء المصباح ويذبحنى . . . وأنا أحمل مصباحاً وأفتش عن ابتسامة حقيقية تضىء فى وجهى وأحياناً يحس الإنسان أنه مريض لأن أحداً لا يبتسم فى وجهه . . .

الأحد : ١٣ مارس سنة ١٩٦٦

ما هو الحب ؟ .

ليس الحب أن ينظر اثنان لبعضهما ، إنما الحب أن ينظر الإثنان فى اتجاه واحد . . . إننى أنظر دائماً فى وجه زوجتى ، وزوجتى تنظر دائماً فى وجهى ولكننا للأسف لا ننظر معا فى اتجاه واحد . . . ولكى أكون صادقاً ودقيقاً فسوف أستثنى فترة الخطبة من هذا الحكم ، والفترة التى تلتها مباشرة . . . بعدها لم نعد ننظر فى اتجاه واحد . والمفروض أن لكل رجل فى هذه الدنيا طباعاً خاصة وعادات مميزة . هناك رجل يحب البطاطس ورجل يكره البطاطس . . . رجل يهوى جمع طوابع البريد وآخر يهوى التنس ، رجل يحب الأناقة وآخر يهوى إصلاح الكهرباء إذا انطفأ النور . . . هناك رجل يجن إذا لم يجد الشبشب فى موضعه الذى تركه فيه ، وهناك رجل يحب نوم الظهيرة ، وهناك رجل يكره أهل زوجته . . . كل رجل له هواية معينة وطبيعة خاصة . . . وأنا رجل ليس لى ممار خاص

وأحب أهل زوجتى . . . وكل ما أريده أن تترك لى حريتى الخاصة فى اقتناء قط أو قطين على أكثر تقدير . . . هل هذه جريمة . أنا أحب القطط وأتفاءل حين أراها فى الصباح وهى تسعى نحو البقع المغطاة بالشمس وتمشط شعرها بلسانها وتستحم فى الدفء ... وأجد سروراً عظيماً حين أكون جالساً وحدى ويجيء القط ليجلس فى حجرى ويروح يقرأ أرررررررررر . . . وقد لاحظت أن فى شخصيتى شيئاً يجذب القطط كما تأكدت أن القطط تنظر دائماً فى الاتجاه الذى أنظر إليه . وعند ما أغيب خارج البيت وأعود ينتظرنى القط على الباب ويتمسح فى قدمى بنفس اللهفة ونفس الحنين ونفس الحب سواء كنت عائداً فى التاسعة مساء أو فى الرابعة صباحاً . . . لا أجد بوزه ملوياً لأننى تأخرت، ولا يسألنى أين كنت ، ولا يحرجنى بشيء . . .

وعند ما أكون عائداً من جريمة حب رومانسى على الشاطئ يتشمم القط ملابسى وأنا أخلعها ثم ينظر إلى ويقول اضطراب أنفه أنه عثر على عطر ليس هو عطر زوجتى ، ساعتها أبتسم فى وجهه وأقول له اسمها فى خفوت وأحتضنه إلى صدرى ثم ألقيه إلى الأرض . . .

هذه هوايتى الوحيدة ، وليست لى هواية غيرها . . . أنا مثلا أدخن باعتدال ، لا أشرب شيئاً ويكفى كوب واحد من البيرة ليضحكنى على طوب الأرض ليلة كاملة . . . هل هى جريمة أن أحب القطط . . . نهايته . . . حين جئت بالقط الرمادى الغامق من السلم وبدأت حياته معنا لاحظ القط أننى شبه وحيد فى البيت برغم أننى زوج وأب ، لاحظ أن زوجتى ترمينا معا بنظرات عدائية صاعقة . . .

سألنى القط : مين ماو :

قلت : دى مراتى يا سيدى . . . ما يهمكش نظراتها . . . دى ما تقصدكش أنت . . . دى قصدها أنا .

قال القط : عاو ناو .

قلت : مش متكبره ولا حاجه . . . أصلها بتبص لك على إنك حيوان وإنها إنسان ، وعلى كده تبقى هى أحسن منك ، طبعاً فكرة غلط : لا هى لها فضل فى أنها اتخلقت إنسان ولا أنت ارتكبت جريمة عشان تطلع حيوان ، الحكاية كلها مترتبة من غير رأينا ، وفيه حكمة لا أنت تعرفها ولا أنا أعرفها ولا هى تعرفها .

قال القط : هاوناو .

قلت : دى حكاية قديمة جداً . . . بقى لها زى عشر سنين . . . كنت شاب صغير وطايش ووحيد وافتكرت إنى باحبها . وكنت أيامها بأحلم إنى أغير شكل الأرض واتقابلنا مرة وكانت الدنيا حر ولا فيش سيمات صيفى ما شفتهاش . . . قلت نتجوز . . .

قال القط : واو . . . نين . . .

قلت : وبعدين اتجوزنا . . . زى ما انت راسى مش باقدر أنقل كرسى من مطرحه أو أغير شكل أوضه . . . وأنا كنت فاكر إنى حغير شكل الدنيا . . . نهايته . . . حتى القطط مش قادرين نربيها زى ما انت شايف .

قال القط : مياو هاو عاو ناو .

قلت : ما تخافش . . . مش حتقدر تطلعك ولا حاجه . . . انت هنا فى حمايتى . . . فاهم يعنى إيه فى حمايتى . . . أنا الراجل هنا . . . أيوه . . . بس انت طبعاً تعرف اللى لك واللى عليك . . . ماليكش دعوه بيها خالص ، لا تخش أودتها ولا تلعب معاها ، شرابات الستات بتتقطع من ضوافركم . . . اعتبرها مش موجوده باختصار ، واتصرف على الأساس ده . . . بالنسبة للأولاد مالكش دعوه بيهم لأنهم طالعين لأمهم يكرهوا القطط . . . ما عدا محمد طبعاً . . . هو الوحيد اللى بيحب القطط . طبعاً مافيش كابينيه يتعمل غير فى الصندوق بتاعك وعندك أودتى اعتبرها ملكك ومتخرجش منها إلا لما آجى . . .

قال القط : ناو .

قلت : عظيم جداً اتفقنا .

ومضت حياة القط فى البيت بهدوء ، ورحت أرقب نموه بالزهو وألاحظ تصرفاته بالدهشة . كان القط يتحاشى الاحتكاك بزوجتى ويترك الغرفة التى تدخلها هى . ولم يكن يقترب من غرفتها ولا كان يعزق لها الشرابات ، وكان يحافظ باختصار على اتفاقنا حين حضر للبيت ، ولم يكن يكلفنى شيئاً سوى بضعة قروش هى ثمن غذائه الذى يتكون من الفشه والكرشه ، وكان يفطر الفول معى ويتعشى بالجبن أيضاً مثلى .

ولم يكن يشكو . كان يؤنس وحدتى . وكم من ليال عزيزة قضيتها وأنا أقرأ وهو جالس يقرأ أشياء أعرف أنها صلاته الخاصة التى لا أفهمها وإن كنت أعرف أنها موجهة لخالق الوجود وخالقنا سبحانه وتعالى . . .

— أررررررررر .

وذات يوم عدت من عملى بعد الظهر فوجدت زوجتى مهتاجة وثائرة ، كما وجدت القط محاصراً وقد أغلقوا عليه الحمام ، وراحوا فى البيت يتشاورون جميعاً . . . من يدخل إلى الحمام ويمسكه ليرميه خارج البيت . . . كما لو كان أسداً كاسراً تسلل إلى البيت . . . ودهشت . . . وفتحت الحمام فاندفع القط لأحضانى وهو يرتعش ، وقالت عيناه إنه لولا حضورى لقضى عليه ونجحت المؤامرة . . .

قلت لزوجتى : ماذا حدث ؟

قالت : لا يبقى القط لحظة واحدة فى البيت . . .

قلت بلطف : لماذا ؟ .

قالت بعنف : أنا أو القط .

قلت : تساوين رأسك برأس القط . . . ؟

قالت : هكذا قلت . . .

قلت : عظيم . . . سأخرجه إذا جاء أحمد فى الليل . . .

قالت : يخرج الآن . . .

قلت محاولا أن أكسب بعض الوقت لأفكر : أخرجه الآن كما تشائين . . . قولى فقط ماذا فعل ؟

قالت : أكل ورك فرخه .

قلت : فتح الحلة ومد يده وأكلها .

قالت : كانت على السفرة (ثم زامت) الحرامى . . .

قلت : يا زوجتى العزيزة . . . هذا قط لا يفهم أنه سرق . . . الإنسان وحده هو الذى يفهم . . . لقد وجد ورك الفرخه على المائدة فتصور أنها لمن يريد أن يأكل . . . كان جائعاً فأكل . . . هذه غلطتى فقد نسيت غذاءه اليوم .

قالت : أخرجه الآن .

قلت : حاضر . . .

وقرصت القط قرصة هائلة فى فخذه ورفعت يدى ممثلا أننى سأضربه لجريمته ، فقفز القط من حجرى واختفى فى الصالة . . . وصرخت على الخادمة وزوجتى أن يتعاونا معى لإمساكه ورحت أزعق وأنظر تحت البوفيه والدلسوار والكنبه والكراسى ، فتأكد القط أننى انضممت إلى المؤامرة عليه . واستعار من الضوء سرعته . وكلما ألقى أحدنا بنفسه عليه اندفع فى اتجاه مضاد . . . حتى اختبأ تحت الثلاجة . . . وكان هذا بالضبط ما أريده . . . إخافة القط وإزعاجه كى يختبئ تحت الثلاجة فلا يمسكه أحد . . . ونجحت الخطة . ولم تكد زوجتى تهجم على الثلاجة حتى صرخت : إوعى الكهربا بلاش حد يمد إيده دلوقتى فى الموتور ليتكهرب . . . إبعدى ليعضلك . . . هوه حيروح فين يعنى . . . دلوقتى سيبوه يطمئن ومسيره يخرج من تحت الثلاجة . . .

ولم يظهر القط ليلتها إلا بعد أن نامت زوجتى فأطل برأسه من باب حجرة المكتب وقال بخفوت : ناو .

قلت : تعال يا بسبس . . . انت صدقت بصحيح . وأسرع يجرى ليرتمى فى أحضانى . . . وحين رفعت رأسه الصغير ونظرت فى عينيه ارتطمت عيناه بالضوء فصغرت الحدقتان السوداوان وظهرت صورتى فى زجاج العدسة الملىء بالود والتفاهم . . .

الأحد : ٢٧ مارس سنة ١٩٦٦

تناقشت بعد ذلك مع القط فى حادث السرقة . . . حاولت أن أفهم دوافعه لهذا التصرف الذى وضعنا معاً فى مأزق . . . لقد وجدت زوجتى السبب القوى الذى تطالب فيه بجلاء القط ، وتصور الموضوع كما لو كان احتلالاً مروعاً ينبغى شن الجهاد المقدس عليه وليس قطاً تاقت نفسه لقطعة صغيرة من الدجاج . . .

قلت للقط بلغتنا التى نتفاهم بها معا : وضعتنا فى مأزق .

قال بدهشة : لماذا ؟ .

قلت : تريد أن تطردك الآن لأنك لص .

قال : أنا لص . . .

قلت : أمس . . . ورك الدجاجة أمس .

قال : أمس . . . ماذا حدث أمس . . . ؟

قلت : هل أنت حقاً لا تذكر ما حدث أمس . . . ؟

قال : بوجه عام لا أذكر غير اللحظة الحاضرة ومجموعة من الخبرات والغرائز . . . إن رأسى بتعبيركم الإنسانى مغموس فى الظلام . . . لا معنى للأمس عندى ولا دلالة للغد . . . لا أستعيد ذكريات الأمس ولا أحلم

قلت للقط : لو وضعت على المائدة وركاً لدجاجة سمينة . . . هل تأكله ؟

قال : طبعاً . . .

قلت : لا تفعل ذلك مرة أخرى لو سمحت .

قال : لماذا

قلت : زوجتى تعتبر أن هذه سرقة . . . وهى تريد سبباً لطردك من البيت وحرمانى من ولائك الشديد . . . يجب ألا نعطيها نحن هذا السبب . . .

قال : معك حق ! .

قلت : هذا هو الذى يعجبنى فيك . . . هل تعرف أن القطط تشبه النساء ؟

قال : لا داعى للإهانة . . . تعرف أننى قط ولست قطة .

قلت : لست أقصد إهانتك . . . أريد أن أقول إنه لو استطاعت الزوجة المصرية أن تتصرف كالقطط لما صار هناك زوج تعيس .

قال : زدنى إيضاحاً من فضلك . . .

قلت : هذا الولاء الشديد هو ما يريده الرجل . . . إن الرجل الشرقى يقدم الطعام والنقود ، ولا يريد بعد ذلك سوى الولاء الخالص . . . لا يريد من زوجته أن تتحول إلى عداد يذكر له عدد مرات غيابه ، أو منبه يدق كلما تأخر فى المجئ للبيت ، أو إصلاحية تأخذ على عاتقها تغييره وتهذيبه وتأديبه وإصلاحه . . . إنه يريد أن يتركها الساعات الطويلة ثم يعود ليجدها تتمسح فى قدميه . . . هذا ما ينشرح له صدر الزوج الحقيقى .

قال : لماذا لا تحاول الزوجه أن تشرح صدر زوجها الحقيقى إذن .

قلت : قصة طويلة لن تفهمها بصفتك قطاً . . .

قال : لا بأس . . .

قلت : إننى أحترم القطط وأحبها كثيراً . . .

قال : الشعور متبادل . . . إن الحب الحقيقى لا بد أن يخلق حوله مجالاً لا وجود فيه لغير الحب ... حاول أن تحب إنساناً بصدق . . .

ستكتشف أنه يحبك .

قلت : كل القطط التى ربيتها قبل ذلك كانت إذا جاء الليل تقرأ شيئاً . . .

قال : نعم . . .

قلت : أعلم أن هذه القراءة صلاة أو تسبيح خاص .

قال : نعم . . .

قلت : أريد أن أعرف هذه الصلاة .

قال : لو كان المفروض أن تعرف صلاتنا لخلقك الله قطاً . . . لن تعرف ! .

قلت : هذا هو الجواب الذى تلقيته من كل القطط قبلك . . . كنا نتحدث كثيراً لكن أحداً منها لم يقل لى ماذا يقرأ . ستقول لى أنت . . . رأيت ما فعلته من أجلك . . .

قال : أقدر تضحياتك لكننى أعتذر .

قلت : لماذا تعتذر .

قال : أسألك سؤالا .

قلت : تفضل .

قال : لماذا تعتقد أن لنا عيوناً تغلق فى الضوء وتفتح إذا جاءت الظلمة ؟

قلت : سؤال لم يخطر ببالى قط .

قال : وأجيبك عليه .

قلت : تفضل .

قال : نحن نرى فى الليل ما لا تراه عيونكم التى لا تفتح ولا تغلق .

قلت : ماذا ترون فى الليل ؟

قال : كل الأشباح والأرواح التى منعت عنكم رؤيتها . . . ونحن نقرأ صلاتنا ساعتها . . . وهى صلاة ليس الغرض منها طرد هذه الأشباح والأرواح . . . أبداً ، مهمة الصلاة هى دائماً مهمة الصلاة . . . ولو اتصل

المخلوق بمصدر النور الخالق فلن يعود هناك خوف .

قلت : أريد أن أعرف هذه الصلاة .

قال : يستحيل .

قلت : أحضر لك دجاجة كامله . . . نصف كيلو من الكباب الفاخر . . . سمك . . . أحضر لك سمكاً مشوياً وعظيماً وأنظفه لك من الشوك وتأكله وحدك . . . فقط قل لى هذه الصلاة .

قال : العرض شديد الإغراء .

قلت : كيلو وربع من السمك .

قال : انت تعذبنى بهذا الإغراء .

قلت : أنت الذى تعذبنى بالصمت . . . لم لا تقول هذه الصلاة ؟

قال : هذه الصلاة أحد أسرار القطط .

قلت : زوجتى تريد طردك .

قال : إنك ستحمينى .

قلت : لا تخف .

قال : إنك تكسب ثواباً بحمايتى منها .

قلت : إن إصرارها على كراهيتك هو السر فى إصرارى على حبك .

قال : من يسق شجرة عطشى يغفر الله من ذنوبه .

قلت : اعلم ذلك ... هل تعرف أن واحداً من صحابة نبينا كان يحمل قطاً حتى سموه « أبا هريرة » . . . ؟

قال : غريب . . . لم أسمع بذلك قط . . . لو كان لنا تاريخ . . . مأساة القطط أن ليس لها تاريخ .

قلت : لم تقل لى ما تلك الصلاة .

قال : تأكد أننى لو أستطيع أن أخبرك لقلت . . .

قلت : ولو نصف الصلاة .

قال : ثمة رائحة عدو يقترب . . . هذه زوجتك . . .

سأهرب . . .

قلت : داخل قاع الثلاجه . . . بين الموتور والجدار . . .

* * *

تعتقد زوجتي أن حبي للقطط والكلاب وحيوانات حديقة الحيوان ، هو نوع من أنواع الجنون ، وهو جنون مؤذ، لأننا كنا نستطيع بدلا من تربية القطط والكلاب أن نربى الأرانب والدجاج ، وهكذا تسفر زوجتي عن مفهومها فى الحب والتربية ، إنها تربى الأشياء من وجهة نظر أنانية بحت . . . كي تأكلها فى النهاية .

قالت زوجتي وهى ترمق القط القابع فى حجرى بحقد :

— انت ليه ما طلعتش دكتور بيطرى .

شممت فى الكلمة رائحة سخرية خفيفة . ولا أنكر أننى أملك حاسة شم قوية تشبه حاسة الشم عند أصدقائى رفاق الغابات المفترسة ، رددت وراء زوجتي بصوت بطىء — صحيح . . . أنا ليه ما طلعتش دكتور بيطرى . . .

قالت (موضحة سؤالها السابق) — على الأقل كان يبقى حبك فى الحيوانات له قيمة .

قلت (متسائلا) فعلا ... أنا ليه حبى فى الحيوانات مالوش قيمة.

وأحسست — ربما عن غير عمد — إننى قد أفلت فرصتى فى أن أكون شيئاً مذكورا ، إن النجاح الذى حققته فى عملى كموظف كان يمكن أن يحققه أى فرد متوسط التيلة ، ضاعت الفرصة إذن حين لم أدخل كلية الطب البيطرى وأمارس عملا هو الهواية.وأقوم بواجب هو الحب .

قلت لزوجتي : أنا لو كنت طلعت دكتور بيطرى ما كنتش بقيت دكتور عادى ، قطعاً كنت بقيت مكتشف أو مخترع أو كنت عملت خدمة للحيوانات ما حدش عملها . . . ويمكن كنت ضحيت بحياتى فى تجربة من التجارب .

قالت زوجتى — بصوت مثلج — العبقرى عبقرى فى أى حاجة .

قلت — صح .

وتذكرت المثل العامى الذى يقول : «حد يقدر يقول للغولة انتى عينك حمرا » .

وانتهى حوارنا عند هذا الحد . . .

الأحد : ١٠ أبريل سنة ١٩٦٦

أنا زوج مثقف يتحدث أكثر من لغة . . .

إذا هدانى الله فتذكرت الآخرة وصليت فإننى أتحدث باللغة العربية ، وإذا نزلت إلى الشارع فإننى أتحدث باللغة العامية . وفى الشغل عندما أخاطب رئيسى المباشر لا تزيد مفردات اللغة على هذه الكلمات «حاضر — نعم — تحت أمرك — تمام — اللى تشوفه — صح يا افندم — تمام يا افندم — هايل يا افندم — تحيا آراؤك — وتسقط آرائى » . . . وعندما ألتقى مع محمود أو يوسف « اثنين من أصدقاء السوء » ، تتحرر اللغة ونستخدم مفردات كنا نستخدمها أيام الجنون أو الشباب . وقد ذبحا معا (أعنى الجنون والشباب) مثلما ذبح خروف العيد فى العيد . وعندما أحب تفقد لغتى كثافتها وتبدأ رحلتها مثل . « لونا ١٠ » حول القمر بحثاً عن مكان تهبط فيه مقسمة بكل الكذب أن هذا هو الحب الأخير . وفى البيت أتحدث مع زوجتى باللغة الصربوكرواتية وهى لغة سكان البلاد اليوغسلافية ، وتتحدث زوجتى باللغة السنسكريتية وهى لغة هندية قديمة ، وهكذا ترون أن طريق المواصلات بيننا مقطوع ، والحرارة نائمة فى الأسلاك والدنيا لا تمطر ليهمد هذا التراب ، والوحدة ملعونة ، وقد ضاق الضيق بالضيق مثلما قال نجيبنا محفوظ .

ورغم ثقافتى الواسعة التى تتمثل فى اجادتى لهذه اللغات لا أنجح فى التفاهم مع زوجتى .

وأنا أعرف بتجاربى العظيمة أن الفرق بينى وبين زوجتى هو الفرق بين الرجل والمرأة . والمرأة مخلوق غريب لديه قدرة فائقة على تبسيط الأشياء وعدم رؤية ما وراء الرموز .

انت تقول للمرأة : أنا أحبك .

فتقول لك : تزوجنى . . .

إنها تبسط علاقة الحب المعقدة المتشابكة الفنية إلى شىء حاد مجوف وبارد ومعروفة مقدماته ونتائجه . . . وهو الزواج . أنت تقول للمرأة : أنا مسافر لاكتشاف قارة جديدة . . .

فتقول لك : حتسيبنى لوحدى ؟

انتهى الأمر وليذهب اكتشاف القارة للجحيم ، المهم أنها لا ترغب فى أن تترك وحيدة . . .

انت تقول للمرأة : أنا متعب ومنهك ومكدود .

فتقول لك : طبعاً ، بقالك شهر مفسحتنيش .

وهكذا سيداتى وسادتى وهكذا . . . المرأة هى المركز ، وعلى الكواكب الأخرى أن تدور حولها وتدور حتى تسقط ميتة من التعب . . . هذه هى المرأة ، أما الرجل — عافاه الله ومتعه بنعمة الحرية قبل الزواج ونعمة التمرد بعد الزواج — فيملك ذهناً متسائلا شديد الإلحاح مثل فتى فى المقابر . . . تقول المرأة للرجل : جاء العيد فيشرع ذهنه فى التساؤل :

جاء العيد . . . ما معنى العيد . . . هذه هى المسألة كما سبق أن أدلى السيد هملت بهذا التصريح فى مسرحيته . . . دعونا نتساءل ونمضى فى تساؤلنا حتى ينتهى العيد، هل العيد حقاً هو سباق الأسرة المصرية نحو أطباق اللحم وصوانى الرقاق وأنواع الفتة وأصناف المسلوق والمشمر وغرائب المهموك والمحمر . . .

إذا كان ذلك كذلك وفضنا ذلك كذلك . . .

هل العيد هو خروف العيد . . . هو اللحم . . . هو السيمفونية التى

تبدأ بقرع نحاسي شديد يقول : «هم يا جمل» ثم بعد الحركة الرابعة تهمد الأصوات ولا يبقى غير هذه النداءات الخافتة التي تسرع وتبطىء وتصدر من البيت المصرى حيث يقول كل واحد من الآكلين لزميله وقد انسطح على بطن ظهره :

— والنبي تشوف لى قزازة كوكا كولا لحسن روحى حتطلع ! .

هل هذا هو العيد . . . أختلف مع زوجتى حول هذه النقطة مثلما أختلف معها حول شم النسيم . وغداً شم النسيم، ولست أدرى أين هو النسيم الذى سوف نخرج فى جماعات محملة بالفسيخ لنشمه .

أين هو النسيم . . . أريد جواباً مباشراً وصريحاً وقاطعاً ولا علاقة له برائحة الفسيخ .

يا للرعب ... إننى أحب الأسماك لكننى أحس تجاه الفسيخ بالدوار الذى يسبق الإغماء . . . هذا الشكل . . . والمضمون . . . ليس هذا وحده سبب المشكلة ، ثمة سبب آخر ،فقد أثبتت تحرياتى التاريخية أن شم النسيم ينتمى لقدماء المصريين ،وأعتقد أننا ندلل قدماء المصريين أكثر مما يجب ، ويكفى كل تعبنا فى إنقاذ معابدهم من الغرق، أما أن نحتفل معهم بعيد من أعيادهم الشاذة التى كانوا يفرغون فيه من تحنيط الأجساد ليأكلوا السمك المحنط . . . فهذا فوق قدرة الطاقة البشرية . . . لن أحتفل بشم النسيم . . . سوف أفكر فى قصيدة أقولها لزوجتى مثل قصيدة الشعر التى قدمتها بدلا من الحروف .

قالت زوجتى : العيد هل . . .

قلت — منشداً قصيدة صديق العمل والمقهى عبد السلام شهاب :

بباب الخلق قد طال الوقـوف	ولا جدى هناك ولا خروف
وقلت لزوجتى هـذا فثـارت	كبركان يقـال له : فزوف
ومن فمهـا تشبلق بى لسـان	كما تهوىَ على الباغى السيوف
وقالت لن يكون العيـد عيـدا	فقلت لها : كذا قضت الظروف

وليس فتى مرتبــه قــروش كمثــل فتى مرتبــه ألوف
فخلى عنــك لومى واعذريني فما فى الفقر عيب أو كسوف
ولو أنى استطعت شراء ديــك لقــاسمت الخلود أباك خوفو
فيا عيد الضحية . هل أضحى بنفسى فيك ... أم ماذا تشوف؟

الأحد : ١٧ أبريل سنة ١٩٦٦

الزواج هزيمة مزدوجة لأنه يعني أن امرأة قد انتزعت رجلا من وسط أصدقائه فى المقهى وأدخلته بيتا وقررت أن تبدأ فى استغلاله حتى يسقط ميتاً من التعب . والهزيمة الثانية أن هذا الرجل عند ما يدخل بيت الزوجية يتصور أنه سيلعب لعبته الجديدة فى الزواج بنفس أصول اللعبة القديمة فى الحب .

يتصور أنه سيلعب بالصراحة والتعاطف والمودة والحنان ، ثم يكتشف الرجل أنه كان مخدوعاً . . . إن الصراحة تجىء فى أمور المادة ، أما التعاطف والحنان والمودة فتستطيع أن تستبدل بها كلمة واحدة . . . التضحية . . . ادفع وانت تبتسم . . . اغمض عينيك وأنت تدور فى الساقية . . . امضغ طعام زوجتك وابتلعه بغير أن تتنفس . . . لو تنفست اكتشفت أن زوجتك مثل رسام فاشل لا يرسم غير وجه واحد. لا تتنفس وأنت تأكل . . . افرد كرشك للأمام . . . تنفس بهدوء وعمق وبلادة ... ابتسم برضاء وتبلد وأنت تقترض من أصدقائك العزاب . قل لهم إنهم حيوانات منقرضة لأنهم ليسوا أزواجاً محنطين . إحمد الله لأنك محنط ومستقر . . . أنت مستقر . . . لم تعد تسأل نفسك سؤالا بغير جواب . لم تعد تنتظر فى السماء وتتأمل جمال القدرة الخالقة . . . لم تعد تقلق لأن رجلا يساق إلى الجدار ويضرب بالنار لأنه يؤمن بشىء ... لم تعد قصص الحب الفاشلة تحزنك . . . لم تعد تتساءل متى يصل الإنسان إلى القمر

إلا لتعرف متى تستطيع أن تخلى الأرض لزوجتك . أنت بورجوازى مستقر تكمن قيمتك فى جيبك ، فابتسم وأنت تدفع وادفع وأنت تبتسم لا تنس أن تقول لزوجتك إنها لا تزال جميلة رغم أن نظرتك إلى الجمال قد تغيرت تغيرات بيولوجية وسيكولوجية وجذرية .

انتهى الأمر بالنسبة لك ولم تعد تتساءل كيف جرؤ الشيطان على رفض السجود لآدم . . . لن تعرف أبداً أن الله يعطى حرية الاختيار وحرية الرفض لكل مخلوقاته . . . إن الحرية شرط أساسى للعدل . . .

لقد صرت زوجاً تعيساً مثلى ، وفيلسوفاً مثلى ومحنطاً فى حياتك مثلى . وسوف تفكر يوماً فى نفسك بهذا الجلال الذى تفكر به مومياء فرعونية فى نفسها وهى راقدة فى المتحف ... فهل تساوى الفلسفة كل هذه التعاسة. وهل يساوى الاستقرار هذه التضحية . وهل يساوى الزواج أن يذهب الحب إلى الجحيم . . .

الأحد ٤ سبتمبر سنة ١٩٦٦

ليست حياة الإنسان غير سلسلة من الهبوط المستمر نحو شىء ، وأهم حادثتين فى تاريخ الإنسان ، يتعلقان بهبوطه من بطن أمه ساعة الميلاد وهبوطه إلى بطن الأرض ساعة الوفاة ، وبين هذا وذاك عمليات تتصور أنها صعود لأنها وصلت إلى القمة ، غير أنها فى حقيقتها هبوط لأنها ستستدير عائدة إلى السفح . . . ولقد زادت على عصرنا السعيد فرص جديدة للهبوط ، كالهبوط من الفراش إلى الشارع ، ومن محطة الأوتوبيس إلى جوفه ، والهبوط من درجة أقل إلى درجة أعلى مع زيادة المرتب ثلاثة قروش ونصف ، ويجىء هبوط المرتب نفسه فى أيدى الدائنين فى مؤخرة الشهر. والمصريون قوم يحبون الحكمة ، والفلسفة هى الحكمة ، هم إذن فلاسفة من قديم الزمن ، وهذا سر تفضيلهم للهبوط هذه الأيام .

ومن أنباء الهبوط هذا الأسبوع أننى هبطت فى عملى بعد صعود استمر

ستة أسابيع وخمس عشرة ساعة .

ما أتفه الإنسان حين يتصور نفسه مهماً ويحسب زمن صعوده وهبوطه.

وحين جاءني الخبر في البداية اسودت الشمس مثل فحمة لم تحترق وجثم على القلب هذا الحزن الهادئ الذي لا يدريه أو يفهمه سوى الله ، فهو وحده خالق القلب وهو وحده الذي يعلم كم تتسع مساحة في قبضة اليد لأحزان في رحابة الأفق .

وحين عدت من عملي كنت أسمع صوت ساعتي تتك رغم ضجة الشارع . أنت موظف وزوج . مرؤوس هنا ومرؤوس هناك . . . مستيقظ ونائم . . . تعمل ولا تعمل ... هناك أمل في أن تصبح شيئاً وليس هناك أمل . . . الشمس لم تزل فحمة سوداء لم تحترق وعلى الصدر جليد بارد في وزن جبال الألب والكآبة تنتعش وتبيض بيضها الصغير وترقد عليه وعما قليل تخرج الكتاكيت من بيضها لترمق السماء والأرض بالدهشة وتحس بالدوار .

وبمناسبة الكتاكيت يعتقد رؤسائي في العمل أنني كتكوت صغير يطل من بيضته وقد أصابته الدهشة من زحمة المواصلات تحت الشجرة . هذه صورتي في أذهانهم، وهي صورة طيبة تدل على حسن رأيهم ، وهي صورة ينبغي بمقتضاها ألا يسلم مخلوق إلى سلطة تغيير شيء أو عمل شيء . . . إن أحداً لا يكلف الكتكوت بمسئولية. ورغم أنني بسبيل أن أتوفى بسبب الشيخوخة المبكرة إلا أنهم غير مقتنعين ، وعلى حين يعاملني رؤسائي بهذا الرفق اللائق بكتكوت، فلا يكلفونني إلا بأبسط الأعمال وأخفها . تنظر إلى زوجتي بالعنف اللائق بأسد عجوز خائب يعيش وسط غابة تمتلىء بالغزلان، ولا يصطاد شيئاًبقدر ما يزعق في وجه زوجته ويزأر أمام أولاده . وإذا كنت أنتمي في رأى رئيسي الكبير إلى دنيا الطيور فإنني عند زوجتي أكثر انتماء لدنيا الكواسر ،والحقيقة أنني حائر بين الرأيين ولا أدري أيهما أصدق وأيهما أدع ، وربما أسلمتني هذه الحيرة

إلى نوع من التأمل الهادئ الذى يسمونه طبياً بالميلانكوليا .

أحياناً أنتزع نفسى من الكآبة القاهرة وأحاول البحث عن أسباب ما حدث .

لست أدرى فى الحقيقة سبباً لحزنى غير المفهوم ، إن ما حدث لى يحدث للكثيرين ولا يحمل دلاله ، فأنا موظف فى الحكومة ، واللوائح التى أخضع لها لا تريد أى تقدم . وضعت هذه اللوائح فى عصر الاستعمار التركى ، وطورها الاستعمار الفرنسى ، كما طورها الاستعمار الإنجليزى ، ولم نزل نحافظ عليها مثل شىء مقدس .

أحكى ما حدث لأستريح .

قيل لى : أرنا كيف تنشئ قسماً جديداً ففعلت ، واشتعلت أعظم الأحلام فى رأسى وبدأت أعمل . . . ثم قيل لى توقف وعد إلى قسمك القديم ففعلت ، وكانت رحلة الذهاب قصيرة وممتعة وتمتلىء بالأفكار الجديدة وكانت العودة طويلة وآسنة . . . والآمال العريضة التى راودتنى لم يقدر لها قط أن تفرح بشبابها ، وإحساسى بأننى لا أحقق شيئاً فى حياتى ولا أحقق ذاتى مثل آلاف الموظفين كان عسيراً على الفهم وقاسياً بالدرجة القصوى . وهكذا وقع كل شىء على رأسى بشكل مضحك . . . تهشمت أحلامى مثل دستة من أكواب الزجاج الرخيص ، ولأننا لم نزل أطفالا فنحن نتصور أن الدبوس الذى يجرحنا يجرح السماء فى نفس الوقت . لكن الناس ترفض أن تدع أحداً ينسى فى مثل هذا الموقف .

تصاعدت التكهنات والتوقعات وارتفع الهمس والحديث . . واصطدمت التعليقات والتساؤلات فى المصلحة ، وجاءنى الأصدقاء والأعداء يعلنون أسفهم ويدارون شماتتهم ويتبسمون مداراة أو أسفاً وسألنى أحدهم دهشاً ــ كيف يحدث ذلك ؟ . . . ما هى الحكمة . . . وقفزت إلى ذهنى على الفور صورة نابليون وهو عائد من موسكو فى رحلة الشتاء وأحد جنوده الحمقى يسأله عن الحكمة .

وهكذا عدت إلى رئيسى القديم . . .وكانت نظراته الطويلة الفزعه تشى بقلقه الذى حاول عبثاً أن يكتمه . ولعله يعتبر — مثل زوجتى ، إننى بعض ما رماه به القدر من مصائب . وابتسم فى وجهى فابتسمت ورحنا نتبادل الابتسامات الشاحبة مثل ناس جمعهم مأتم .

ولاحظت زوجتى أننى مكتئب وصامت على غير العادة ، لاحظت أن رغبتها فى الشجار عند ما تنمو لا تصطدم برغبة مماثلة ، سألتنى هل أحس بالمرض . . . لا . . . هل هناك أخبار سيئة . . أبداً . . . لم يبق أمامها غير تفسير واحد لانطوائى وهمودى، هذه أعراض فشل جديد فى قصة حب . . . وربما كانت إحساساً بالذنب بعد قصة حب ناجحة . . . هناك قصة حب إذن . . . هناك خيانة ... وهكذا يبدأ تعذيبى واضطهادى على جريمة لم أرتكبها بعد ، وإن كانت تبدو كحل أمثل لما أعانيه من إحساس بالضآلة . . . لكن الحب يبدو مستحيلا هو الآخر . . . أين موضوعه . . . إن الناس الذين أتعرف عليهم أو الذين تعرفت بهم منذ عشر سنوات لم يزيدوا شخصاً واحداً .

الحياة نفسها نضبت فما أطيب الأرض فى مصر ، كثيراً ما تصيبنى الدهشة لظهور البرتقال أو البطيخ . . . هذا معناه أن الأرض لم تزل تعطى ثمارها للناس.هذا معناه أنها شديدة الطيبة والرحمة وعظيمة الحنان . . . كان العدل أن تمتنع عن العطاء ، لكنها رحمه الله هى التى تحكم الأرض . أصدقائى كما هم لم يتغير فيهم أحد ، ودورتى كما هى . . . من البيت إلى العمل إلى المقهى إلى البيت دورة تتكرر كل يوم فمن أين آتى بموضوع الحب إذن .

وقلت للحاج الطيب صاحب المقهى وأنا أتهد على الكرسى فيه : مش جبنا ورا يا حاج . . . قال : إزاى . . . قلت محاولا تقريب المعنى إلى ذهنه : القهوة الجديدة اتقفلت ورجعنا ، رجعنا لمطرح ما كنا للقهوة الأصلانية .

قال وهو ينحنى على الكرسى حتى لا يسمعه رواد المقهى : لا قدر الله حصل نقص فى الماهية ؟ . . . أبداً . . . حصل رفد والا حاجة . . . أبداً . . . يبقى حصل خير . . . ثم بصوت عال : هات فنجان قهوة ولمع الطاولة .

ومن الغريب أننى قررت أن أمتحن تفكير زوجتى لأرى كيف يجىء رد فعلها على الخبر . قلت لها ونحن نأكل . . . إننى عدت مرؤوساً كما كنت . . . قالت وهى تزدرد لقمة عظيمة — فيه نقص فى الماهية . . . لأ . . . اترفدت . . . لأ . . . يبقى (ثم ازدردت ملعقة من الأرز) وقالت : حصل خير .

نفس السؤالين الساذجين اللذين سألهما صاحب المقهى . . . وشربت القهوة وجىء بالطاولة وجلست أنتظر يوسف .

محبوسه والا عادة . . . محبوسة . . . العب . . . هارد لك . . . عرفت إيه آخر اخبارى . . . شوف يا سيدى . . . وشمع قليلاً وقال وهو ينفخ فى الزهر .

— ماجلان رجع مطرح ما قام . . . حتكون أحسن من ماجلان . . .

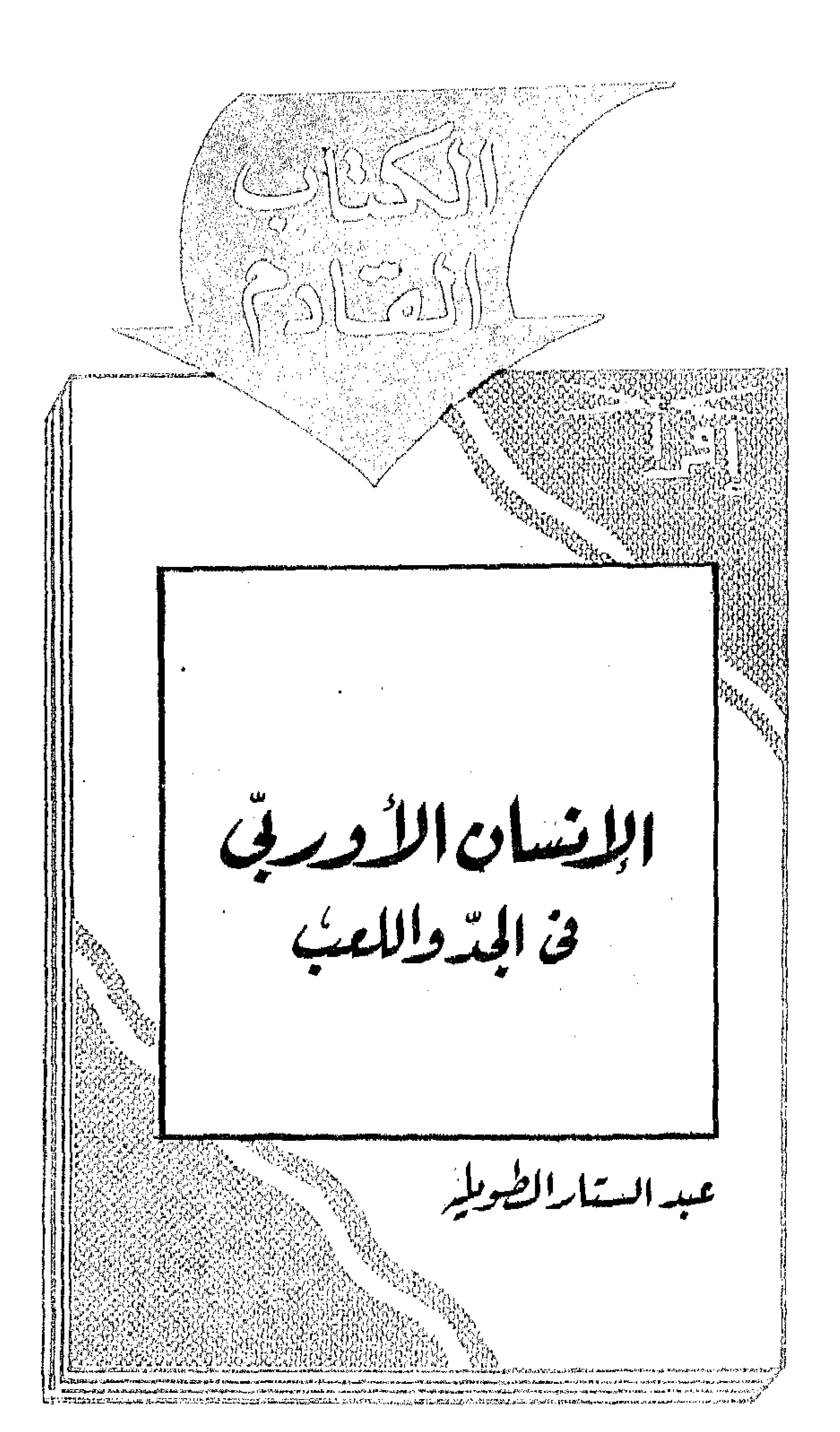
وضحك فضحكت . . . وشاهدنى صاحب المقهى أضحك بعد عبوس فضحك كنوع من المشاركة ، ورأى الصبى المعلم يضحك فضحك بنفاق ، وجامل الزبائن المعلم والصبى فضحكوا . . . وانتقلت عدوى الضحك من منضدة إلى منضدة .

وبعد ثوان كان المقهى كله يضج بالضحك . . . وكنت أنا . . . كان هذا . . . كان ذلك . . . كان الموضوع الذى أثار الضحك كله أنا . . .

لقد صرت أضحوكة . . . ولم يعد هناك أمل فى البيت أو العمل . . . ولما كانت الحياة هى البيت والعمل فلا أمل فى الحياة .

وعند هذا الحد قررت أن أتوقف عن كتابة المذكرات .

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩


الكتاب القادم
اقرأ
الإنسان الأوربيّ
فى الجدّ واللعب
عبد الستار الطويلة

